



راينر شتاخ

كافكا

السنوات الأولى

ترجمة

د. هبة الله فتحي

راينر شتاخ

كافكا

السنوات الأولى

سيرة

ترجمة

د. هبة الله فتحي



كافكا
السنوات الأولى








كافكا السنوات الأولى

سيرة

الطبعة الأولى: ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٧٦٤١

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٣-٠٦٣-٤

الغلاف: حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan. com

موقع إليكتروني: www. kotobkhan. com



فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
شتاخ، راينر
كافكا السنوات الأولى: سيرة/ تأليف راينر شتاخ، ترجمة: د. هبة الله فتحي. -
ط١. - القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
٨٠٠ ص، ٢١,٥ سم
تدمك: ٤-٠٦٣-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
١ - سيرة
أ- العنوان
رقم الإيداع: ٧٦٤١ الطبعة الأولى ٢٠١٨

إهداء

إلى أورزولا

لا شيء يحدث في براغ

"تظن حقًا أنك سمعت كل هذا من قبل،
ستسمع الآن ما هو أكثر من ذلك."

ديفو، السقوط*

الثالث من يوليو عام ١٨٨٣ هو يوم صيفي لطيف وصاف، تمر نسمة هواء خفيفة عبر الأزقة الضيقة للمنطقة القديمة لمدينة براغ، وصلت درجة الحرارة فيها وقت الظهر إلى ثلاثين درجة مئوية، ليست حرارة قائظة لحسن الحظ، ولا تدعو السُحب القليلة التي تظهر مع الظهيرة للقلق، لذا يترقب آلاف البراغيين حلول المساء الدافئ ليقضوه في إحدى حدائق المطاعم العديدة مع الجعة والنبيذ وموسيقى آلات النفخ. إنه يوم الثلاثاء الذي تقام فيه الكثير من "الحفلات الموسيقية العسكرية"، ويبدأ الزحام في الساعة الرابعة مساءً في حدائق شرب الجعة المترامية الأطراف فوق جزيرة "صوفيا". إنها فترة قدوم السائحين والطلاب وأصحاب الأعمال الصغيرة، لأن ساعات العمل تمتد إلى ما

---

* ترجمة عن اللغة الإنجليزية، والأصل الإنجليزي في النص هو:

Think you heard this all before,
Now you´re gonna hear some more
Devo, GOING UNDER

بعد ذلك بالطبع. أما من يكسب قوت يومه في مكاتب أحد التجار فلن يستمتع للأسف بالموسيقى قبل غروب الشمس. حتى زيارة العرض المسرحي تتوقف على الحالة المزاجية لرؤسائهم في العمل. يشاهد التشيكيون اليوم "فيدورا" وهي أحدث ميلودراما للكاتب الفرنسي الناجح "فيكتوريان ساردو"، أما الألمان فيستمتعون في المسرح الشعبي بعمل الكاتب "نيستروي": "يريد لنفسه المرح". يبقى لمن يعتبر ذلك معقدًا الذهاب إلى "قاعة فاندا الغنائية"، حيث تقدم الآنسة "ميرسل لينر" –التي يُطلق عليها "السيدة الجميلة من فيينا"- مع "مجموعة من الطاقات الفنية الجديدة برنامجهم الممتع والمحترم. إنه عرض محدود يُقدم إلى مائة وستين ألف نسمة من سكان المدينة.

براغ في الصيف، براغ في حقبة سلام، تمر الساعات وأسعار الأسهم تتحرك ببطء (ولكن هذا هو الوضع منذ عشر سنوات مضت)، تبدو الحياة في حالة خمول، حتى الأخبار المعتادة عن المحتالين والمنتحرات وموظفي الخزينة الهاربين –والتي يتلقاها قراء الجرائد مثل جريدة براغ اليومية أو بوهيميا بشغف– قد اختفت. يسقط في "مدرسة السباحة المدنية"، والتي تعتبر مسبحًا نهريًا عامًا، طفل في نهر "المولداو" وينقذه صبي في الثالثة عشرة من عمره. إنها الكارثة الوحيدة في يوم الثالث من يوليو التي تستحق التغطية الصحفية، بصرف النظر عن حالات الوفاة الطبيعية التي تُكتب بخط متناهي الصغر. يفارق في شارع "هيبرنر جاسه" رضيع ضعيف اسمه "أوجوستين" عمره ثمانية عشر يومًا الحياة، وتموت الطفلة "آماليا" ذات العامين من مرض السل. ولكن من يهتم بمعرفة أخبار كهذه.

ومع ذلك سيُدوَّن هذا اليوم في السجلات السنوية لمدينة براغ، لسببين: سبب رسمي ظاهر وآخر مخفي مبدئيًا. ستضرب اليوم المدينة صدمة سياسية ونفسية، لم تعرف سوى قلةِ الخبرَ، ولكن سريعًا ينتشر ما يصعب تصديقه في المقاهي، قبل أن يتسنى للصحافة تناول الخبر. تُجرى في هذا الوقت انتخابات مجلس ولاية بوهيميا، أمر بذلك القيصر شخصيًا ولكن بشروط جديدة لها عواقب وخيمة. لم يحق الانتخاب سابقًا ومنذ نشأة البرلمان إلا لرجال يدفعون حدًا أدنى من الضرائب السنوية، خفضت الحكومة النمساوية هذا الحد الأدنى للنصف على نحو مفاجئ، وذلك بمباركة القيصر وتأثير صادم على قطاع من السكان قد يكون صغيرًا ولكن له وزن، لأن عواقب هذا القرار واضحة حتى لمن يجهل أمور السياسة: عدد أكبر من الناخبين يعني عددًا أكبر من التشيكيين. هذا ما حدث اليوم سريعًا، انتصر التشيكيون على الألمان في مجلس الولاية، يمتلكون أغلبية ساحقة، لأول مرة وفي الأغلب إلى الأبد. من يجرؤ على التشكيك في قانون الانتخاب الجديد؟ حتى أصحاب الأملاك الكبار ينتخبون غالبًا التشيك، ومعهم الغرف التجارية والعديد من اليهود الأغنياء. تصيب الألمان في الحي التجاري والطريق المحيط بمدينة براغ القديمة الحيرة مما يحدث: حتى جيرانهم الأقرب –سكان منطقة "يوزيف شتاد"، الغيتو القديم لبراغ– قد انتخبوا التشيك بأغلبية، وتنتشر المزحة الساخرة أن الجزارين اليهود هم من حسموا المسألة، ناس لم يُسمح لها من قبل بالانتخاب.

صحيح أن قلة من سكان براغ تهتم بشؤون مجلس ولاية بوهيميا، وأن قراء الجرائد الأوفياء في أوساط البرجوازية المثقفة للغتين هم فقط على دراية محدودة بقدرات هذا المجلس، ومدى تأثيره على الحياة اليومية للتشيك والألمان، ولكنه انتصار رمزي للتشيك، هو الأهم على

الإطلاق حتى هذا الحين، ولذلك يعد "تاريخيًا". للمنهزمين الرؤية نفسها، الصحافة الناطقة بالألمانية تتوخى الحذر، إذ لا تريد إثارة التشيكيين الذين يشاركونهم الحياة في جميع الأحياء، كما لا تريد تحريض المشتركين السنويين في جرائدها. إن جريدة "نويه فرايه بريسه" من فيينا دون سواها تتحدث صراحة، وهي الوحيدة القادرة على ذلك، لأنها المنشور المفضل لليبراليين ومنتشرة في أنحاء براغ. هنا يسمع المواطنون في بوهيميا أنهم يخاطرون بتصرفهم الغبي في الانتخابات بسقوط الغرب: "هل سيصل الأمر حقًا إلى سقوط براغ في النهر السلافي دون أمل في النجاة؟" لا وألف لا". قد يختفي النواب الألمان في العاصمة من قاعات المجلس، ولكن الشعب الذي يملأ الشوارع والمنازل سيبقى، إلى أن يأتي اليوم الذي ستنتهي فيه حركة الإصلاح المناهض من قبل السلافيين، وسترجع براغ إلى سابق عهدها كمحور للثقافة الإنسانية الألمانية.[١]

يعد هذا رد فعل قويًا، حتى بالنسبة للرقابة الحكومية في فيينا التي تقوم بعدها بأيام قليلة بمصادرة الصحيفة. ولكن توضّح هذه النبرة الحادة وهذا التمرد الشوفيني أن الأهمية التاريخية لهذا اليوم جلية للجميع. كانت دومًا نخبة تمسك بزمام السلطة، ولكن من الآن فصاعدًا ستحكم الأغلبية التي تؤكد النسب على شرعيتها، وهي تبلغ في براغ ١:٤ لصالح التشيكيين، إنه أمر غير قابل للتغيير. ماذا لو طُبِّقَ مبدأ الأغلبية في سائر المملكة؟ سيُلقى باللوم على أهل ولاية بوهيميا، بأنهم كانوا الحلقة الأضعف في السلسلة التي انقطعت في عاصمتهم في يوم الثالث من يوليو لعام ١٨٨٣.

لا يلحظ كل البراغيين التحول الذي وقع في مجلس ولاية بوهيميا. تجري أحداث الحياة الحقيقية في مكان آخر، فمن يمت له طفل صغير اسمه "أوجوستين" أو "أماليا" فستُمحى السياسة لوقت طويل من حياته. ينطبق ذلك على من يُرزق بمولود جديد أيضًا، فهم أيضًا على مشارف مرحلة جديدة لا عودة منها إلى الوراء، لا يساوي باقي العالم شيئًا أمام قدوم الدفء الجسدي.

هذا ما يحدث تحديدًا في منزل يقع بجانب كنيسة سانت نيكلاس - تقاطع زقاق "مايزل جاسه" مع زقاق "كاربفن جاسه" – حيث يقطن الزوجان اليهوديان كافكا اللذان مر على زواجهما عشرة أشهر. إنه ليس عنوانًا مميزًا، مرت أيام أفضل حالًا على هذا المنزل، حينما كان مقرًا لأسقف دير "شتراخوف" الشهير، ولكن لم يبقَ من هذه الفخامة سوى الواجهة الباروكية. صار المبنى منذ فترة طويلة مخصصًا للسكن، وأهل الجيرة ليسوا مدعاة فخر على الإطلاق ولا مؤهلين للتواصل: من ناحية الكنيسة حيث يقيم المتشددون الروس منذ فترة قداسهم الكئيب، ومن ناحية أخرى أكثر من حانة مشبوهة وبيوت دعارة تكاد تكون جزءًا من حي "يوزيف شتاد"، إنه حي مهمل وتدور أقاويل حول قرار هدمه الذي اتُخذ بالفعل.

من البديهي أن أسرة كافكا لن تبقى هنا طويلًا، لأنه يجب عليهم توفير مصروفاتهم، ذلك لأنهم قد وضعوا كل ما يملكون –والمتمثل بالدرجة الأولى في مهر السيدة جولي– في تجارة جديدة، إنها تجارة خيط وقطن في انتظار الزبائن، مقرها على بعد خطوات على الجانب الشمالي من الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. المالك الحصري لهذه التجارة هو السيد هيرمان ذو الثلاثين عامًا، ولكن على زوجته الأصغر منه

بثلاث سنوات أن تساعده طوال اليوم، وإلا فلن يكتب لهذه التجارة النجاح. لا يبقى للاثنين وقت كبير، حتى شهر العسل كان محرمًا عليهما، ليبقيا في براغ ولا يفوتا فرصة. ولذلك فإن الحمل أيضًا ليس مناسبًا للتجارة الجديدة، ناهيك بالمرضعة وجليسة الأطفال اللتين أصبحتا مطلوبتين من الآن.

ولكنه صبي، في عالم بنظام أبوي -ولا يعرف هيرمان وجولي سواه- يمثل الطفل الذكر ضمانًا للمستقبل. إنه الحلقة القادمة في سلسلة الأجيال التي تدعم الفرد، وتمنح أعماله معنى يتخطى الزمن. كانت رغبة آل كافكا حتى هذه اللحظة تنحصر في الصعود الاجتماعي، أما الآن فيشعرون بأن هذا الهدف قد تخطى حدود وجودهم الدنيوي، وصار غير قابل للطعن. قبل أن يخطو أولى خطواته يمثل المولود "إرثًا"، ليس فقط في عيون والديه. تغير الوضع الاجتماعي لآل كافكا وسط الأقارب والموظفين والزبائن بين ليلة وضحاها، إنها أشبه بترقية وأكثر من ذلك، لأن الوضع الجديد غير قابل للتغيير -باستثناء الموت. ولكن لا يرغب أحد في التفكير في ذلك الآن، الصغير "طفل رقيق ولكنه بصحة جيدة" وفقًا لما ستدونه أمه لاحقًا[٢]، سينجو وسيكون الإرث الذي نُضحي من أجله والذي ندين له بانتمائنا بوصفه جزءاً من الكل الكبير. ولذلك فإن تسميته على اسم قيصرنا أمر مناسب تمامًا. نعم سيحمل اسم فرانز.

لن تتطور الأمور كما حلم آل كافكا، سيعرف العالم ذلك بعد مائة عام ستمضي. ستُعلق على سكنهما الأول لوحة تذكارية لا تشير إلى تاجر ناجح، بل إلى أديب. تعاقب الأجيال الذي يضفي على الأسرة الشباب من جديد، ومُرسخ في هذه الدنيا ترسيخًا حيويًا، هذا التعاقب

سيظهر مدى ضعفه وفنائه بالقدر نفسه لضعف وفناء الوجود الفردي المنعزل. ستنقطع مئات الآلاف من هذه الخطوط وسيجري إبادتها بعنف في حياة والدي فرانز كافكا. ولكن هذا التاريخ تحديدًا –الثالث من يوليو عام ١٨٨٣- الذي صار للكثير من البراغيين يومًا لخيبة الآمال إلى الأبد، وصار لآل كافكا يوم الفخر والسعادة – هذا التاريخ تحديدًا سيكتسب بعدًا جديدًا ومختلفًا تمامًا.

يقضي القيصر "فرانز يوزيف الأول" –البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا وصاحب اسم كافكا– هذا اليوم في حالة مزاجية هادئة. يبقى في جراتس، ثم يقيم برنامج الزيارة المعهود: القداس في الكاتدرائية، افتتاح معرض عن الثقافة المحلية، زيارة لمقر المطافئ وللمستشفى العسكري، استقبال لوفود ونبلاء ومآدب عشاء طويلة. يتخلل ذلك قراءة البرقيات الواردة، بعضها من براغ، حيث يحقق التشيكيون أخيرًا –وكما كان متوقعًا- رغبتهم. ولكن سريعًا ما تغلب على هذا الخبر المزعج صيحات التبجيل الصادرة من شعب جراتس الذي جاء في كامل عدده، وكذلك المهام المفرحة التي تبهج القيصر. منها على سبيل المثال زيارة القناصة في مدينة "شتايرمارك" النمساوية. إنهم أوفى الأوفياء وليست المرة الأولى التي يزورهم فيها القيصر في مقر القناصة المحلي الذي زُينَ بالزهور والأعلام. يأخذ الحماس هؤلاء القناصة فيطلقون العديد من طلقات التحية التي تخيف فرس الخنطور الملكي، فيضطر "فرانز يوزيف" إلى ممارسة سلطانه في نهيهم عن ذلك. ولكنه استقبال حافل أمام منصة التنشين، حضرت السيدات بالزي الرسمي وفتيات جميلات يقدمن الورود. لا يكتفي القناصة بسماع كلمات الإطراء من سيدهم، لا، يجب على القيصر المحاولة بنفسه وافتتاح الحفل العام للقناصة. يُقاد في شكل رسمي إلى العلب التي جرى

تحضيرها سابقًا ويترقب المتفرجون الأحداث في شغف. ينشن القيصر مرتين على القرص الدائر وينجح مرة في قذف الحلقات، إنه "البريمو". دويّ قويّ للطلقات لتعرف المدينة بأكملها، ثم هتاف لجموع تخطت الأشخاص الألف، هتاف بلا نهاية.

بداية العرض

"تأتي أفعال الله دومًا في الجمل."
كيركغور، محطات على طريق الحياة

إن المركز القديم لمدينة براغ يشبه المسرح: ساحة شاسعة تكاد تغطي هكتارًا، يمكن الدخول إليها من عدة جوانب، ولكنها منظمة بعناية لتمنح شعورًا بمكان له حدود، كذلك له معنى رمزي على مستوى أعلى. يطلق على هذه المنطقة اسم الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، إنها نقطة التقاء تتكثف فيها طاقات اجتماعية لإقليم كامل.

مع بدايات العصر الحديث كان السكن في الصف الأول على "الطريق الدائري" أشبه بامتياز برجوازي. بينما فقدت براغ دورها في أحداث العالم وصارت بوهيميا لعبة في أيدي أسر حاكمة غريبة، ظل الطريق الدائري ساحة كبيرة للاستعراض الاجتماعي. كانت السوق تعقد هناك، وكذلك تبرم الصفقات وتعقد المفاوضات السياسية، إنه مكان للظهور ورؤية الآخرين، وبما أن اللغات واللهجات الأجنبية تملأ المكان فإن هذه فرصة لإثبات العالمية التي ستعوض فقدان المدينة لمكانتها. كان البراغيون يعرفون السمعة الطيبة التي يتمتع بها الطريق الدائري بمبانيه الفاخرة في أوروبا، وتعودوا على رؤية القادمين من بعيد لتأمل

المعجزة الخلابة للساعة الفلكية الضخمة في مبنى البلدية القديم. طُبِعَ وسط أحداث حرب الثلاثين عامًا دليل للسفر يلفت انتباه القارئ في عبارته الأولى إلى النقطة الحاسمة: "يقع الجزء القديم من مدينة براغ على الجانب الأيمن من نهر "المولداو"، على مستوى الوادي، ويمكن رؤية العديد من المباني الرائعة، منها مبنى البلدية بشكل خاص الذي له برج عالٍ، وبه ساعة مصنوعة بفن لا نجد مثيلًا لها في العالم بأكمله.."[١] لحظة نشر هذه السطور كان عمر الساعة قد تخطى مائتي عام، وفي هذا الزمن العتيق حينما تحركت عقاربها الطويلة كانت براغ مقرًا للقيصر.

بالرجوع إلى تاريخ براغ يتضح أن الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة كثيرًا ما كان يشبه مسرحًا اجتماعيًا بالمعنى الحرفي. عبرت المواكب الساحة، كما ألقيت خطب سياسية، كان بعضها مديحًا وبعضها هجاءً. أقيمت النصب التذكارية والمظاهرات، إعلانات وتصفيق. من تولى الحكم في براغ كان يستعرض نفسه في هذا المكان، ظل هذا الوضع حتى في القرن العشرين، على الرغم من أن ساحة التجول الحيوية الواقعة عند "فينسلس بلاتس" قد سرقت الأضواء من المركز القديم وجعلته مجرد معلم أثري. جرى في فبراير عام ١٩٤٨ في كواليس منطقة البلدة القديمة الاحتفال ببداية الحكم الأوحد للشيوعية – واتضح لاحقًا أنها لم تكن فكرة موفقة على الإطلاق. إذ ضرب الانقلابيون بألم الوترَ الحساسَ للذاكرة الجمعية التي انطبع فيها مشهد أكثر عنفًا، مشهد مر عليه أكثر من ثلاثة قرون ويعرفه أي طالب ثانوي تشيكي معرفة دقيقة. طُبق نظام حكم جديد، نُفِّذَ في مركز المدينة القديمة بمشاهد عامة للتعذيب والشنق والقتل بسيف الجلاد.

سادت ليلة الحادي والعشرين من يونيو لعام ١٦٢١ في منطقة البلدة القديمة لبراغ أجواء الاضطراب الذي يشوبه الرعب. عجز الجميع

عن الاستسلام للنوم، همسات وصلوات جماعية، مراجعة لمغاليق الأبواب وإنصات لأصوات جبارة في الخارج تعلن عن ويلات اليوم التالي. لقد فرض الأسياد الجدد الذين يعملون في خدمة الأسرة الحاكمة الهابسبورجية حظرًا للتجوال. يمشط المئات من المسلحين بالشعلات والأسلحة الشوارع للقضاء على أي مواطن يقع تحت أيديهم. أضاءت شعلات عديدة مركز المدينة القديم أيضًا، وارتعش سكانها لساعات من ضرب مطارق النجارين الذين أقاموا أمام مبنى البلدية خشبة مسرح ارتفاعها متران ونصف، وتبلغ مساحتها ثلاثمائة متر مربع. يطلق على هذا النوع من البناء "هيكل الدم"، لقد أعلن بوضوح لسكان براغ المفزوعين عن طبيعة العرض الذي سيقام هنا بعد ساعات قليلة.

لقد غامروا بانتفاضة وخسروا، كانت وقفة سياسية ودينية في آن واحد، حاولوا من خلالها الهروب من قبضة السيادة المتزايدة للهابسبورج الكاثوليك، إنها وقفة للطبقات البوهيمية ضد الحكم الاستبدادي المتشكل. لم يتفق كل من النبلاء ورجال الدين البروتستانت والمواطنين على حدود هذه المقاومة، ولكن قرر الزعماء البراغيون في مايو ١٦١٨ هدم جميع الجسور من خلفهم واستفزاز حرب مفتوحة: لقد ألقوا من قلعة في براغ باثنين من الولاة الكاثوليكيين والموظفين التابعين لهما من النافذة، وأطلقوا خلفهم الرصاص. هذه الفعلة ـالتي كانت مخططًا لها ولم تكن عفوية على الإطلاقـ أثارت كمسرحية هزلية سخرية أوروبا بأكملها، خاصة وأن الضحايا الثلاث نجوا بجراح، ولكن اتضح في العام التالي أن طبقات البوهيمية وحلفاءهم في مورافيا وسيليزيا كانوا جادين فيما يفعلون، وأنهم أرادوا زعزعة أصول التراكيب السلطوية في أوروبا: أطاحوا بالملك الهابسبورجي "فرديناند الثاني" من على عرش ملك بوهيميا، وذلك قبل أيام من تنصيبه قيصرَ، وعينوا بدلًا منه أميرًا

ناخبًا من مقاطعة بالاتينات على عرش براغ، إنه متمٍ للكالفينية ويطلق على نفسه لقب "الفارس الصليبي للبروتستانتية".

إن الإجراءات الدبلوماسية والعسكرية المعقدة التي تلت هذه الأحداث صارت مرارًا مادة للعلوم المبسطة، وتعد جزءًا حيويًا من المعرفة التاريخية المتخصصة. ولكن ظلت في الذاكرة العامة حادثة السقوط من النافذة في براغ شرارة الانطلاق لحريق شاسع دمر أجزاءً كبيرة من وسط أوروبا وأباد شعوبها. انحفر الحدث المثير في الذاكرة الجمعية، وعانى منه المتمردون في سياق النهاية الحاسمة في نوفمبر لعام ١٦٢٠. لم تدم "مذبحة الجبل الأبيض" أكثر من ساعتين، في مشهد على بُعد كيلومترات قليلة من مركز براغ، انتهت بهزيمة مدمرة لمجموعات المتمردين البوهيميين، التي لم تكن في وضع مؤهل للحرب، وكذلك بالهروب المفاجئ للملك "فريدريش فون دير بفالس"، الذي تولى العرش كبديل كالفيني ودخل تاريخ براغ باللقب الساخر "ملك الشتاء"، وانتهت أيضًا بالانتصار الشامل للتحالف الكاثوليكي. كانت "مذبحة الجبل الأبيض" وفقًا للتأريخ التشيكي بمنزلة البداية لعصر من الظلام (يطلق عليه "تيمنو" باللغة التشيكية) دام لثلاثة عقود، إنه العهد الكاثوليكي لأسرة الهابسبورج، التي لم تضمن لنفسها السيادة المطلقة في بوهيميا فحسب، بل ضربت في الوقت نفسه مثالًا دمويًا.

لم تكن حقًا الهزيمة العسكرية التي تم تفسيرها لاحقًا على أنها جرح قومي وجعلت أجيالًا عديدة قادمة تكبر بقناعة أن هناك ثأرًا قديمًا من "أهل فيينا"، بل كانت الاستراتيجية القاتلة للمنتصرين، ألا وهي وأد أي تفكير في تمرد جديد من خلال أكبر إذلال ممكن. لم يكتفِ "فرديناند الثاني" بحرمان العديد من النبلاء البروتستانتيين من

اشتبه في مشاركتهم في الأحداث- من أملاكهم وطردهم من البلاد، بل أجبرهم أيضًا على تسليم أنفسهم حتى يفلتوا من أيدي الجلاد. تأثر أيضًا رجال الدين غير الكاثوليكيين بشدة، إذ لم يهتم النظام الجديد كثيرًا بالتفرقة بين مؤيدي لوثر المعتدلين والمتشددين الكالفينيين أو الهوسيين أو المنتمين إلى حركة الأنابابتيست. لم يكتفِ "فرديناند" بتجاهل "الخطاب الملكي" الذي أصدره القيصر "رودولف الثاني" قبلها بعقد، والذي كان البروتستانتيون يشيرون إليه في غضب، لأنه كان يضمن لهم الممارسة الحرة لدينهم، بل قام أيضًا بتقطيعه بختمه القيصري. لم تنتهِ المسألة عند المعاقبة القانونية للمتمردين الذين أمسك بهم، بل نصب في براغ محكمة خاصة دهست القانون البوهيمي وأخضعت نفسها للتعليمات السياسية الصادرة من فيينا. ثم دبر لموت مفجع للغاية للمتهمين الذين سُلبوا جميع حقوقهم، وزرع من خلال ذلك كرهًا ضد الهابسبورج دام لأجيال لاحقة، حتى في نفوس هؤلاء المواطنين غير المسيسين الذين لا يؤمنون بالتمرد ويفضلون ترتيب أمورهم مع طبقة الأسياد الجديدة.

سبعة وعشرون متهمًا محكومًا عليهم بالإعدام، شاب شعرهم وسجن معظمهم في قلعة براغ، نقلوا إلى ساحة مبنى البلدية في الحي القديم ليكونوا جاهزين مع بداية العرض: ثلاثة منهم ينتمون إلى طبقة الأسياد، سبعة من الفرسان وسبعة عشر مواطنًا، من بينهم الشخص الأشهر، ألا وهو رئيس جامعة براغ الدكتور "يان يسانيوس" ("ياسانسكي" باللغة التشيكية). حينما أشرق النهار كان مسرح الدم هذا منصوبًا ومزينًا بالقماش الأسود في مشهد كئيب، كما اقترب أول المشاهدين من مكان الحدث. انطلق دوي ضرب المدفع من القلعة كإشارة لبداية المشهد الأول. اتخذ القضاة المفوضون من فيينا لهذه القضية العامة

أماكنهم، وإلى جانبهم قائدو الجيوش الكاثوليكية، من بينهم "ألبرشت فون فالدشتاين" (أو "فالنشتاين"). منفذ الإعدام المؤهل طبيب له اسم ظل في الذاكرة أيضًا، صعد "يان ميدلر" إلى خشبة المسرح وتبعه بعض المساعدين الملثمين الذين حملوا السيوف الحادة. ثم جرى اقتياد المتهم الأول وصاحب المستوى الاجتماعي الأعلى –مرفوع القامة ودون قيود– إنه "يواخيم أندرياس جراف فون شليك"، أحد المسؤولين عن حادثة السقوط من النافذة في براغ. اشتكى "شليك" في الليلة السابقة من إلحاح رجل دين جيزويتي، يحاول في هذه اللحظة للمرة الأخيرة إقناعه بالتراجع، ولكن دون جدوى. قام منفذ الإعدام بباقي المهمة، حَوَّلَ بضربتين للسيف جسد الكونت المنحني إلى قطع لحم مهتكة وميتة، الرأس أولًا ثم اليد اليمنى. يحمل المساعدون جثة القتيل في ملاءات إلى مكان آخر.

واحدٌ تلو الآخر، طيلة أربع ساعات، برتابة مفزعة. نتعجب اليوم بأنه لا يوجد تقرير وحيد من شهود العيان يشير إلى التناقض الجلي بين هذه المذبحة البدائية التي جرت أحداثها على الجانب الشرقي من ساحة مبنى البلدية في الحي القديم من ناحية، ومن ناحية أخرى هذه التحفة الفنية والهندسية الدقيقة –الساعة الفلكية– التي وقعت على الجانب الجنوبي على بعد خطوات من هذا الحدث.[٢] كما يصعب اليوم تقدير أعداد المشاهدين لهذا الحدث الدموي، ومن بينهم ذوو الضحايا العديدون. كما لا نعرف شيئًا عن طبيعة رد فعل الجموع، إن كانت حزنًا أم سخطًا. ولكن اتخذت الإجراءات الضرورية حتى لا يجرؤ شخص على التفكير في تخريب طقس العقاب. ذلك لأن الهدف لم يكن مجرد ضرب المدينة في مقتل، بل أيضًا ضرب الأعداء المتبقين في جميع أنحاء أوروبا، الذين كان يجب أن تصيبهم الصدمة من هذا المشهد. تم تأمين خشبة المسرح بمساحتها الشاسعة بواسطة كوردون من الفرسان

المسلحين وجنود المشاه الذين وقفوا بأسلوب مثير للذعر في مربعات. لم يكن هناك فرصة لسماع الصيحات الهجائية أو الكلمات الأخيرة للمحكوم عليهم من قوة صوت المطبلين العديدين، الذين تم وضعهم على الطريق الدائري وظلوا لساعات دون انقطاع يحدثون ضجيجًا رهيبًا. كان الوضع كأن الأسياد الجدد قد سدوا أفواه البراغيين- وحتى صوت النحيب لم يعد مسموعًا.

لم تتوقف الإهانات عند هذا الحد، تمادى التفكير في تصعيد للرعب الذي لا يجب أن يُنسى سريعًا. كان الحال سيئًا للغاية بالنسبة للمتهم الأكثر تأثيرًا: الطبيب "يسانيوس"، صاحب الثقافة الإنسانية والنشاط السياسي، قُطع لسانه قبل رأسه وقُطعت جثته إلى أربع أمام الجميع. وقع ثلاثة من المتهمين تحت وطأة عذاب أطول وقتًا، إذ لم يتتهِ بهم الأمر على مسرح الدم، بل ظلوا معلقين في حالة خنق بطيئة بحبل المشنقة. وأخيرًا وُضعت اثنا عشر من الرؤوس المقطوعة على ثلمات برج الجسر الملكي القديم (وهو تقليد لما يتبعه الإنجليز). ظلوا على هذا الحال طوال عشر سنوات على مرأى البراغيين الذين اضطروا إلى شرح الأحداث لأولادهم. وانتهى الدرس عند هذا الحد.

ليس أمرًا جديدًا تاريخيًا أن الهزائم المدمرة تشكل الوعي الجمعي لفترة طويلة، ولعب ذلك مؤخرًا دورًا حيويًا في تاريخ اليهودية والصهيونية الحديثة. نجد مثالًا مؤثرًا في الأساطير التي دارت حول اليهودي "شمعون بار كوخبا، "ابن الكوكب""، الذي أطلق في عام ١٣٢ انتفاضة في فلسطين ضد قوى الاحتلال الروماني. على الرغم من أن هذه العملية قد انتهت بكارثة وأودت بحياة نصف مليون يهودي وهو منهم، إلا أن بار كوخبا صار بعد أكثر من مرور ١٨٠٠ عام رمزًا

للمقاومة اليهودية وضامنًا للهوية القومية اليهودية. يبدو أن السؤال حول المنطق التاريخي يُغفل في هذا السياق بشكل كبير: ما يهم هو الملمح البطولي الذي يبدو من بعيد كأنه لم يتغير، وكذلك ينشأ من وحي هذه القصص شعور بالانتماء إلى الجماعة غير مرتبط بالزمن، كيان على الجانب الآخر من التاريخ. لهذا السبب فإن طرح السؤال حول علاقة هؤلاء الشخصيات البطولية بنا "نحن" تحديدًا تأخذنا بعيدًا عما هو جوهري: الشعب له صفة الأبدية.

للأسئلة التي تدور حول الحقيقة التاريخية لما هو منقول التأثير المحدود نفسه. شبه مستحيل أن تسبر الخطوط الفاصلة للتاريخ باستقامة ووضوح مثلما تريدها الأساطير اللاحقة، أو التي تأتي بعدها بزمن طويل. إن دوافع وأهداف "بار كوخبا" كشخصية تاريخية ليست معروفة على الإطلاق، ولا تسمح الأدلة الضئيلة إلا بمجرد توقع أن إيحاءً دينيًا "ذاتيًا" تحول إلى عملية انتحارية بلا معنى سياسي. ولكن تريد الأسطورة أن هؤلاء البشر قد حاربوا "من أجلنا"، وأن ما يترتب على ذلك مكانة لأعمالهم عبر كل الأزمنة: كمعيار أخلاقي، بل أيضًا كإلزام لنا في كل تصرفاتنا. يستغل محترفو سياسة تشكيل الهوية هذا الضغط الأخلاقي منذ مطلع القرن التاسع عشر، يحول كل من تأنيب الضمير والخوف من الإقصاء دون الوصول إلى الحقيقة عبر كل هذه التبسيطات والتصنيفات التاريخية، بل والزيف التاريخي.

إن مذبحة الجبل الأبيض في براغ والانتقام المعلن للمتنصرين يقدم في سياق جميع الهزائم مثالًا كاشفًا ومركبًا، نشأت على أساسه أساطير شكلت الهوية -إنه حادث تاريخي بالغ التعقيد ويبدو أنه غير قابل للنقل دون تبسيطات عنيفة. مما هو غير قابل للخلاف أن مصير كل من

بوهيميا ومورافيا قد تقرر عند الجبل الأبيض، وأن الفترة المقبلة ستثبت أنه كان قرارًا دام مفعوله لقرون قادمة. ولكن ما الخلاف الذي أشعل الصراع، وما الأهداف والمبادئ التي كانت محل هذا الصراع؟ يزعم الهابسبورجيون أنها كانت الشرعية، بينما يتحدث المتمردون عن حرية العقيدة الدينية. اقتنع القوميون التشيكيون في زمن لاحق أن الأمر كان متعلقًا بالتحرر من السطوة الألمانية.

إنه صراع للتفسيرات، كان منذ البداية مرتبطًا بالمصالح بالطبع، إذ وجب على القيصر "فرديناند الثاني" السماح بوجود بعض الأمراء البروتستانتيين وسعى لذلك دومًا إلى مواجهة الرأي العام، الذي كان يرى أنه يقود حربًا دينية ضد براغ، لدرجة أنه أمر -لمواجهة هذا الانطباع- بإعدام كاثوليكي على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، فضلًا عن أن انتماء الجلاد إلى البروتستانتية لم يكن أمرًا مزعجًا أيضًا.[٣] أما المتمردون فقد فضلوا الحديث عن الدين والإصرار على أن عقيدتهم البروتستانتية لا يجب أن تعود عليهم بالضرر الاجتماعي أو المادي. رفضوا بشدة الشبهة التي دارت حولهم وحول حلفائهم الأقوياء بأنهم ضد أي قيصر قوي وأنهم لا يهتمون إلا بتعزيز سلطتهم. وظفت عملية كتابة التاريخ التشيكية في القرن التاسع عشر هذه الأحداث لصالح أيديولوجيتها القومية الخاصة بها. كان كل ما يهم الهابسبورجيين بموجبها في بوهيميا هو هيمنة "الطابع الألماني"، ألم يقوموا بعد سنوات من انتصارهم -على الرغم من الأغلبية التشيكية- بتعيين "الألمان" في كل الوظائف الحيوية إداريًا؟ ألم يقرروا في الدستور الجديد أن اللغة الألمانية تتساوى مع اللغة التشيكية؟

إنها من المنعطفات الساخرة الكثيرة في تاريخ بوهيميا أن هذا التفسير الثالث تحديدًا -الذي يعد الأضعف والأقل اتساقًا مع الحقائق التاريخية- هو الذي فرض نفسه، وأن المعدمين عند الطريق الدائري المطوق بالبلدة القديمة (والذي كان ثلثهم على الأقل من المتحدثين باللغة الألمانية) لم يظلوا في الذاكرة الجمعية كأول المناضلين من أجل حريات المواطن أو كضحايا للاضطهاد الديني، بل كشهداء قوميين. صار الجبل الأبيض، الذي كان نقطة البداية لانتشار "الظلام" في البلاد، مزارًا للقوميين التشيك، كما أقيم هناك نصبٌ تذكاريٌ بعد سقوط الحكم الهابسبورجي الذي جلب للتشيكيين التحرر القومي. احتفل الهابسبورجيون من خلال عمود ماريا الضخم عند الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة بإعادة البلاد -بعنف ونجاح- إلى قبضة الكاثوليكية. دُمِرَ العمود بعد الحرب العالمية الأولى على أيدي متظاهرين تشيك كانوا قد تحمسوا للفكرة في أثناء وجودهم عند الجبل الأبيض. تشير حتى اليوم علامات في الرصيف عند الطريق الدائري إلى موقع حدث إراقة دماء الضحايا عام ١٦٢١.

تتميز براغ بهذا العدد الكبير من العلامات التاريخية التي تغطي المدينة مثل شبكة. في القرن التاسع عشر ومع بداية القرن العشرين - حينما كانت براغ لا تساوي إلا مركزها القديم- كان هذا الملمح التاريخي الحاضر والبارز، بل أيضًا هذا الهوس التاريخي يشكل إحساس الطبقة البرجوازية المثقفة بالحياة. هذه ذكريات "يوهانس أورزيديل": "نادى كل منزل وكل زقاق وكل ميدان في براغ على التاريخ بأكمله: "لا تنسَ هذا، ولا تنسَ ذاك!"، فنسينا من كثرة التذكرة والرغبة في الانتقام حياتنا في الحاضر."[٤] كان شعورًا ضاغطًا بالسجن داخل شبكة عنكبوت من الصراعات التاريخية والمسؤوليات، والاضطرار مع البقاء في هذا

المكان إلى عزل الحياة الخاصة بعيدًا عن تأثيرات الماضي التي لا تتوقف. عزز من هذا الشعور مظهر مدينة براغ القديمة، حيث بدت الطرازات الأساسية لعصور مختلفة على مساحة ضئيلة، بل تداخلت ولم يكن نادرًا أن يجري هذا التداخل في شكل وواجهة البناية نفسها. كان الوضع يشبه الحياة فوق طبقات متراكمة لعشرات من الأجيال الراحلة، التي تسيطر أقدارها وآلامها وإنجازاتها على التفكير. ليست فقط مناهج التعليم في المدرسة والجامعة، بل كان الخطاب الرسمي بكامله يتناول باستمرار ما حدث، ولكن ليس من منطلق مشاركة متفهمة ومستمتعة عن بعد، بل كإنذار أن القصة لم تنتهِ بعد وأن المحاسبة لم يأتِ دورها بعد. من كانت نشأته في منطقة البلدة القديمة لبراغ -لم يكن الأمر مختلفًا كثيرًا في منطقة "البلدة الحديثة" المجاورة والأكثر ثراءً لكون عمرها يتعدى نصف ألفية أيضًا- من كانت إذن نشأته هنا تعود على التعايش مع الماضي مثلما يحدث في شقة شخص عجوز: هنا مسموح فقط بمسح الغبار ولكن لا يمكن تحريك شيء من مكانه، ناهيك بالتخلص منه. وصلت المسألة للاستسلام لفكرة أن تماثيل القديسين الشهيرة على جسر "كارلس بروكه" هم السكان الأصليون لبراغ، بينما البشر الأحياء مجرد ضيوف عابرين.

انطبق ذلك على الألمان أكثر من التشيك بالطبع، وعلى الطبقة البرجوازية أكثر من طبقة العمال. تحولت سريعًا كل من البلدة القديمة والجديدة إلى متاحف مفتوحة، وكان للألمان دور فعال في تحديد معالمها، إذ صار هذا المكان هو مكان الذكرى والحاضر والمستقبل بالنسبة لهم. اختلف حال التشيك الذين وجدوا من خلال الضواحي النامية سريعًا والأحياء الصناعية فرصًا للتصحيح حَفَظَتهم من التشبث بالماضي. قبل بداية القرن العشرين كان هناك الآلاف من التشيكيين في براغ الذين

يشعرون بأنهم زوار أكثر منهم سكانًا في مركز المدينة، زوار لمتحف مقتنياته من تاريخ يخصهم، ولكن علاقته ضعيفة بالحياة الحديثة ذات النمط السريع والصناعي. لم تغير المقاهي التشيكية ودور العرض السينمائية ولافتات الشوارع شيئًا من هذا الواقع. لم يكن لدى أي مواطن براغي شك في أن مستقبل هذه المدينة سيكون مستقبلًا تشيكيًا. صحيح أن هذا المستقبل التشيكي سيحتفظ بجذوره التاريخية في البلدة القديمة، ولكن ساحة عرضه ستكون في مكان مختلف.

سكنت براغ إذًا مجموعتان لا تتحدثان لغتين مختلفتين فحسب، بل تعيشان في نظم برموز مختلفة: إنها نظم تجلت في الصورة المعمارية للمدينة ويمكن الشعور بها بحسية أعلى إن وضعنا الدليل السياحي جانبًا ومررنا من حي "كلاين زايته" البراغي بقصره الباروكي -الذي التزم بالأسلوب المعماري لمتصري عام ١٦٢٠- ووصلنا إلى المنطقة الصناعية "سميخوف"، أو من الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة إلى ثكنات الشقق المؤجرة في "شيشكوف"، التي يسكنها التشيكيون ولا تستحق الزيارة حقًا. يسود المنطقة هناك حاضر بلا تاريخ، يصيبها التوتر من أجواء انتفاضية تشتعل باستمرار وكذلك خيالات مكثفة حول المستقبل. ربما تكون براغ قد انحدر بها الحال فعلًا من مدينة ملكية في الماضي إلى مركز محلي. ولكن لا يشعر أحد بهذه السمة المحلية غير الألمان، إذ يتذكرون دومًا أمجاد الماضي والاعتماد على فيينا، هذا هو حالهم بينما يواصل البراغيون التشيك حياتهم في مركز الاستيطان التشيكي ومركز الثقافة التشيكية. كان حالهم معًا كأن أحدهما يحتل المنابع، بينما يتبقى للآخر المياه التي قد تلفت الأنظار ولكنها في حالة ركود وتعفن.

"هذا المنزل يكره ويحب ويعاقب ويحمي ويمجد... النذالة والسلام والإجرام والحق والبلاغة".

إنه شعار غريب زَيَّن مدخل مبنى البلدية في الحي القديم حتى بداية القرن الثامن عشر، عبارة تشاكسك نحويًا عند قراءتها، ولكن تصير مفهومة بعد القراءة الثانية. ولكنه شعار مناسب تمامًا، لأن التقاء السلام بالجريمة والحق هو واقع براغ منذ زمن بعيد. وقعت المدينة تحت وطأة جروحها التي لم تلتئم على نحو صحيح، بعكس فيينا بدا أن المسافرين لم يجدوا هنا سعادة "الراحة" الصافية، وذلك على الرغم من الأزقة الضيقة والحانات العديدة ومرتاديها المثيرين للدهشة. تنتشر بدلًا من ذلك في القرن التاسع عشر صورة عن براغ كئيبة وساحرة. إنها في الأصل صورة من اختراع القطاع السياحي ولكنها في جوهرها تجربة حقيقية ظلت حتى يومنا هذا، ذلك لأن حضور التاريخ في بعض أركان هذه المدينة يصل إلى حد الغموض، لهذه الدرجة تجاور الماضي والحاضر، الموت والحياة.

صحيح أن هذا الفولكلور عن المدينة الذي شارك في صناعته كتب الإرشاد السياحي والأدباء والمخرجون السينمائيون لم يقدم سوى صورة مشوهة، بالفعل لم تكن براغ القديمة قبل الحروب العالمية متحفًا ولا مزارًا تاريخيًا. ما يراه السياح كباقة غامضة من الرموز والشعارات المنقوشة على الأبنية والأساليب المعمارية، لا يعتبره سكان المدينة سحرًا، بل خطوطًا لصراعات مستمرة، حتى مع ظروف عاصمة تتطور سريعًا. كان كل ذلك بالنسبة للمواطن البراغي أشبه بندبات تذكره بأنه يعيش داخل منطقة صراع عمرانية، ما يطل برأسه من ماضي هذه المدينة ليس أشباحًا ولا عبارات سحر، بل صراعات اجتماعية

وأخلاقية وقومية ودينية، يصاحبها خطاب تحريضي مضمونه أن تصفية الحسابات لم يجرِ بعد.

إنها الأقلية اليهودية على وجه الخصوص التي كانت تعي الفارق الدقيق بين التجربة التاريخية والأساطير المنسوجة حول المدينة. لعب اليهود على مدار الزمان دورًا حيويًا في التنمية الاقتصادية لمدينة براغ، كانت لهم لعقود سيادة في المنطقة المخصصة لهم في غيتو إلى جانب منطقة البلدة القديمة المسيحية، وكانت لهذه السيادة أبعاد تفوق الشؤون الدينية والثقافية. حتى القضاء البراغي لم يكن له أي سلطة في هذا المكان. قابلت هذه الامتيازات مجموعة من الإجراءات الجبرية الجماعية التي كان من شأنها إرهاب اليهود على مدار ألفية كاملة بسبب عدم ممارستها بانتظام: ضرائب استثنائية، المنع من الزواج أو ممارسة وظائف محددة، تحديد للإقامة وإجبار على "تغيير الدين"، ترحيل وأعمال نهب منظمة. بدا الغيتو لشخص غريب كأنه منظومة كبيرة تعاني، ولكنها تملك قوى خفية يتعذر معها استئصالها، وتتعافى سريعًا من جروح عميقة. تعرض اليهود للاحتقار وكانوا مصدرًا للخوف، ولكنهم كانوا مطلوبين، ولذلك بات من الصعب الهجوم حسب الأهواء على مجتمعهم المغلق داخل المدينة، دون الإضرار الاقتصادي ببراغ، بل وأيضًا بالمنطقة بأكملها. الإمبراطورة "ماريا تيريزا" التي كانت تحلم ببوهيميا خالية من اليهود اضطرت في نهاية الأمر إلى قبول هذا الوضع، وسحب أمر الترحيل الصارم الذي أصدرته في عام ١٧٤٤ بعد سنوات قليلة، فضلًا عن اضطرارها إلى منح اليهود حريات اقتصادية أكبر.

حتى إن حاولت الدعاية المسيحية المناهضة للسامية إخفاء ذلك: توجيه اللوم إلى اليهود لم يكن سببه "عدم إيمانهم" أو براعتهم في

التجارة أو تبنيهم أي ممارسات سحرية، بل يرجع الأمر إلى حقيقة أنهم لم يسمحوا قط بدمجهم في الهرم الاجتماعي بسلاسة، وأنهم كانوا أصحاب قرارات مستقلة في الساحة السياسية. سعوا دومًا إلى الاقتراب من أصحاب السلطان الذين وعدوهم بأكبر قدر من الضمانات القانونية – هل كان أمامهم خيار آخر؟ ولكنهم ظلوا لهذا السبب تحديدًا محل اتهام عام بالخيانة لا ينتهي أبدًا. كلما اقترب الأعداء من بوابات المدينة كانت تصرفات اليهود تخضع للمراقبة الدقيقة، وأي إشارة للتفاهم مع العدو كانت سببًا لأعمال قمع شاملة، مثال ما حدث في عام ١٧٤٤. كانت "ماريا تيريزا" على قناعة بأن حالة من التفاهم الجيد نشأت بين يهود براغ والمحتلين الفرنسيين والبروسيين: هم إذًا انتهازيون وخونة لا يفكرون إلا في مصلحتهم الخاصة.

في واقع الأمر ما حدث أن اليهود قد وجدوا أنفسهم بين شقي الرحى لصراع دائر حول الخلافة، كان صراعًا لا يخصهم مطلقًا وطُلِبَ منهم إبداء ولائهم لنظام سلبهم قبلها بوقت بسيط العديد من الحقوق الأساسية. كانت سياسة التدخل البيولوجي التي انتهجها الهابسبورج أكثر سوءًا، إذ تدخلوا بشكل صارخ في تنظيم الأسرة اليهودي. لم يسمح "قانون الأسرة" الذي أصدره "شارل السادس"، والد "ماريا تيريزا"، في عام ١٧٢٧ إلا للابن الأكبر بتكوين أسرة، كما أنه جرى تجميد أعداد الأسر اليهودية المسموح لها بالبقاء في بوهيميا. وضع هذا القرار الآلاف من الشباب أمام الخيار بين مغادرة البلد وهجرة أسرهم إلى الأبد وبين القبول بالحياة كباعة جائلين بلا أي حقوق. ما كان لقانون بهذه الوحشية أن يستمر لفترة طويلة في ظل أي تأثير بروسي على بوهيميا، ولكن تحقق هذا الوضع السياسي كان أشبه بحلم يقظة.

نسي الهابسبورج -فيما يبدو- أن اليهود كان لهم قبل قرن مضى دور ليس باليسير في انتصار القيصر النمساوي، ذلك حينما حلت ساعة الصفر البوهيمية وتأججت الأحداث في مذبحة الجبل الأبيض. صَوَّتَ اليهود وقتها -في العام الحاسم ١٦٢٠- بمنتهى العملية ووفقًا لمعايير الرخاء والأمن القانوني، كان الخيار واضحًا: لصالح الكاثوليك، السبب يرجع إلى العلاقات التجارية المنسقة بأفضل شكل، وأن البلاط الملكي في فيينا كانت أبوابه مفتوحة كجهة للمخاطبة. ماذا كان يمكن للمتمردين البروتستانت أن يقدموه، وماذا كانت نواياهم تجاه اليهود في حالة الانتصار؟ ظلت كل هذه الأمور مبهمة، وإن تذكرنا خطب القيادات الروحية -التي كان بعضها يتسم بالعداء الشديد للسامية المتأثر بالطابع اللوثري- فلا مجال لانتظار الخير.

لا مجال للشك إذًا أن "ياكوب باسيفي" أغنى يهود براغ كان يضمن من خلال سياسة الصفقات -المحافظة والمؤثرة عبر الحدود في الوقت نفسه- دعم الغالبية العظمى لسكان الغيتو له، ومن فيهم الحاخامات. مثل "باسيفي" نمط "اليهودي التابع للبلاط الملكي"، وكان على وفاق تام مع حكام هابسبورج مثل "رودولف الثاني" و"ماتياس" و"فرديناند الثاني"، وحينما اقترب موعد المواجهة العسكرية الحاسمة بين القيصر والطبقات البوهيمية، كانت قروض "باسيفي" الضخمة لا تذهب بالطبع إلى جيرانه على الطريق المحيط بالبلدة القديمة، بل إلى خصومهم في فيينا، الذين كانوا يحفزون جنودهم بهذه الأموال. صحيح أن تأثير "باسيفي" على نتيجة مذبحة الجبل الأبيض تأثير غير مباشر ولكنه كان ملحوظًا، كما عرف "فرديناند الثاني" كيفية رد هذا الجميل: أمر بأن تبتعد الجيوش الكاثوليكية في أثناء عمليات نهبها لبراغ -التي دامت لأسابيع- عن

منطقة الغيتو. كان ذلك يعتبر "معجزة" سياسية، ظل يهود براغ يحتفلون بهذه المناسبة كل عام. أعفيَ "باسيفي" من دفع كل الضرائب ويعد أول يهودي شمال جبال الألب يحصل على لقب النبلاء: تحول اسمه منذ هذا الحين إلى "ياكوب باسيفي فون ترويتبرج"، استغل صلاحياته الجديدة في الحال وشارك من خلال عضويته في "اتحاد العملات البوهيمي" في أكبر عملية نصب عملة شهدها العصر الحديث. لم يشوه كل هذا سمعته وسط اليهود على الإطلاق، لأن "باسيفي" كان يغدق الأموال على الغيتو. فضلًا عن أنه صار بالنسبة للبروتستانت –الفئة الأضعف– شخصية مكروهة، وبشكل خاص بعد عملية الإعدام الجماعي المعلنة التي أذلتهم ذلًا كبيرًا.

بالنظر إلى الخطوط المتشعبة لجبهات الحرب الدينية التي ألمت بمعظم دول أوروبا كان دور يهود براغ مسألة هامشية. كما لم يُنظر إلى اليهود على أنهم أطراف سياسية، بل الأرجح على أنهم عامل اضطراب – فهم لا يدخلون في حروب ولا يملكون أرضًا ولا يصلحون لأن يكونوا حلفاء أوخصومًا بالمعنى السياسي والقانوني. ولكن حتى مع أخذ كل هذا في الاعتبار: أسلوبهم في لعب دور "المراقب المشارك" في الصراع الدائر بين الفئات المسيحية، الوقاحة التي حولوا بها يومًا كارثيًا إلى يوم احتفال، وأخيرًا المكاسب التي كانت من نصيبهم على طاولة المنتصرين – كان كل هذا على النقيض التام من كل العقوبات المدمرة التي لحقت بالطبقات البروتستانتية. كانت هذه نقطة لا يستهان بها مطلقًا على قائمة الحسابات المفتوحة، قدمت بذلك الأحداث التي جرت على أبواب براغ عند الجبل الأبيض في عام ١٦٢٠ أهم تفسير لهذه الظاهرة العجيبة بعد قرون لاحقة حينما انصهرت الاتجاهات المعادية للألمان واليهود والكاثوليك في بوتقة من الكراهية الدفينة.

تخطت المسألة حجم الهزيمة العسكرية أو السياسية، بل كانت فترة تحول بوهيمية تبدلت فيها الأحوال جذريًا، لأنه بمجرد القضاء على آخر حركات المقاومة البروتستانتية واستقرار الأوضاع نسبيًا، قرر المنتصرون إعادة تشكيل عنيفة للنظام الاقتصادي لبوهيميا، وتبديل المناصب في قطاع القيادات بالكامل، كانت هذه إجراءات لم تشهدها أوروبا على مدار نصف ألفية مضت[٦]: جرى تأميم ما يبلغ ثلثي أملاك النبلاء على الأقل، وكذلك الكثير من الأبنية في مدن بوهيميا ومورافيا، كما أجبر الملاك على البيع بتعويض بسيط، وفي حال تمسكهم بالبروتستانتية طُردت عائلات الملاك الأصليين بخدمهم ورجال دينهم من البلاد: كانت إجماليًا ٣٥٠٠٠ أسرة وتخطت الأعداد ١٥٠٠٠ شخص. المستفيدون من هذا الإجراء العقابي هم من النبلاء الكاثوليكيين الذين أتاحوا الانتصار بوصفهم ممولين أو قادة للجيوش، وصاروا في هذه اللحظة أصحاب أملاك شاسعة، دون مقابل مادي أو مقابل أسعار زهيدة لا تعكس القيمة الفعلية لما حصلوا عليه: "فالنشتاين"، و"ليشتنشتاين"، و"إجنبرج"، و"تراوتمانزدورف"، و"ميترنيش"، كانت هذه أسماء الأسياد الجدد.[٧] صار لعقارات في المدن بالغة القيمة ملاك جدد، وبعض المنازل الخاوية التي تركها البروتستانت في عجالة ذهبت بموجب قرارات استثنائية إلى أصحاب مصالح من اليهود.

لم يُعوض هذا الفصل بالتأكيد بمجرد منح شهادات ملكية جديدة، تعرضت بوهيميا بأكملها لحالة وهن اجتماعية، ففقدت مناطق واسعة سكانها، وكان هناك عجز شديد في الحرفيين والتجار، تعرضت حقول وغابات للإهمال. أما الحرب المستمرة على الصعيد الأوروبي -والتي كانت تؤثر على بوهيميا بالهجوم المتكرر على براغ- فنتج عنها دمار وأوبئة وعمليات نزوح جماعية تابعة. صار عدد سكان بوهيميا مع نهاية

حرب الثلاثين عامًا مليون نسمة، أي انخفض عدد السكان بمقدار الثلث منذ بداية الحرب، كما أن نصف شقق براغ صارت خاوية.

ولكن لا يوجد رأس مال من دون البشر: فإن وجب على "الأملاك" التي جاءت بالرخص أن تعود بالنفع على أصحابها، فلا بد من العمل. جرى مجددًا تسكين عائلات، وبذلت الكثير من المجهودات لجذب قوى عاملة من أماكن بعيدة إلى الفراغ البوهيمي. كانت هذه فترة جيدة بالنسبة لمجموعة من البشر لم يكن لديهم ما يخسرونه، إنها إذًا فترة جيدة لليهود الذين كانوا في حالة ارتحال مستمرة وبأعداد كبيرة، كانوا قد تعرضوا للطرد والنهب في مكان ما ويبحثون عن الأمان. في هذا التوقيت تحديدًا –أي السنوات الأولى بعد الحرب– مارس القوزاق المتمردون بالاشتراك المتحمس من جانب الروس الأورثوذكس، سكان الأرياف، مذابح فاحشة. لقي وقتها أكثر من ربع مليون يهودي حتفهم بشكل عنيف. كان الناجون ممنونين لكل عرض يسمح لهم بالاستقرار، وكانوا على أتم استعداد للقبول بشروط صعبة. أما بالنسبة أصحاب الأراضي الكاثوليكيين في بوهيميا فكان تشغيل اليهود في القرى التابعة لهم يمثل فرصة جيدة لدفع الاقتصاد. لهؤلاء الأفراد منفعة متعددة الجوانب: الإخلاص في العمل والانضباط في دفع التزاماتهم، كما أجبروا على شراء جميع منتجات هذه المزارع، إذ كان من بينهم بعض التجار الصغار الذين سيهتمون من أجل مصلحتهم الخاصة ببيع هذه المنتجات.

العزبة الصغيرة "فوزيك"[٨] التي تقع في جنوب بوهيميا على بعد سبعة كيلومترات من "ستراكونيتسا" كانت قبل كارثة الجبل الأبيض في ملكية أحد النبلاء التشيكيين. وقعت اشتباكات عنيفة في المنطقة المجاورة،

حيث احتل الهابسبورج في فترة ١٦١٩/ ١٦٢٠ المدينة المركزية "بيزيك" ثلاث مرات متتالية ثم دمروها تمامًا. اضطر على أثر ذلك البروتستانتي "زدانكو تسابكا" إلى مغادرة البلاد. تمت مصادرة قصره ومقر إقامته الرئيسي، وبذلك دخلت القرية الصغيرة التي فقدت أهلها ـ بما في ذلك في عزبة "فوزيك" ـ في ملكية المنتصر في الحرب، الذي كان ينظم شخصيًا إجراءات نزع الملكية في البلد بأكملها: إنه الجبار "كارل فون ليشتنشتاين"، منظم إعدامات براغ المثير للرعب الذي حصل مكافأة على ولائه الكاثوليكي على لقب محافظ ونائب ملك بوهيميا. لم تمثل "فوزيك" بلا شك بالنسبة له ـوهو يملك آلاف الكيلومترات من الأراضي- إلا مجرد نقطة في فاتورة حساب، وواحدة من العديد من الخيارات لإثبات الملكية الجديدة بشكل موثق. أما تاريخ عائلة "ليشتنشتاين" الذي ملأ ثلاثة أجزاء فلم يذكر "فوزيك"، ولو حتى في أحد الهوامش.[٩] من المستبعد أيضًا أن تكون العزبة قد حققت أي مكاسب تذكر في أثناء عقود الحرب الطويلة، لأنه تكرر عبور الجيوش الأجنبية عبر أرضها، أو بقائها لعدة أشهر. لم تتعاف المنطقة إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، كانت القوى العاملة ورؤوس الأموال تلقى ترحابًا، وتوفرت الكثير من المنازل الخاوية، ولذلك استوطن في "ستراكونيتسا" و"بيزيك" والقرى المحيطة ممثلون لطبقة اجتماعية جديدة: يهود الريف الذين حضروا مهاجرين من بولندا وأوكرانيا البولندية.[١٠]

ظل هؤلاء اليهود في جيرة قريبة، بسبب الطقوس الدينية على وجه الخصوص. تجمعوا في أماكن مناسبة وشكلوا غيتوات صغيرة، ما يطلق عليه أزقة اليهود، حيث انغلقوا داخلها على أنفسهم، بمعبد

صغير وأحيانًا طبيب يهودي، فلا غناء أو صلوات أو روائح طعام ستزعج الجانب المسيحي من الشعب. نشأ زقاق يهودي كهذا في "فوزيك". عدد السكان الأصليين هناك ليس معروفًا، بعد مرور مائة عام على الهجرة الكبيرة كانوا ست عشرة عائلة تقريبًا وزادت عليهم بعض العائلات في القرن التاسع عشر.

كان اسم إحدى هذه العائلات كافكا، لم يكن اسمًا نادرًا في بوهيميا، يبدو أن الاسم –المشتق من اسم طائر[١١]– كان منتشرًا منذ فترة طويلة في براغ. نجد هذا الاسم بمعنى غراب الزرع* متكررًا في محيط "فوزيك"، كما ورد ذكر اسم "لوبل كافكا" في السجل التاريخي لمدينة "بيزيك" وكان ذلك في القرن السابع عشر. يبدو أن عشيرة آل كافكا البولندية وصلت إلى هناك أولًا، ثم تفرعت لاحقًا واستوطنت في عزبة "فوزيك" – لا نعرف لذلك توقيتًا محددًا.

تتضح الصورة مع بداية القرن التاسع عشر في وقت توفرت فيه في "فوزيك" فرصة تسمح لشخص يهودي "بتكوين أسرة". ما زال المصطلح يمثل إهانة اجتماعية مقصودة، السلطة المطلقة للدولة المسيحية التي تنظم رعيتها اليهودية من خلال سياسة بيولوجية، وكأنهم قطيع من الماشية. لم تهتم هذه الدولة بشيء سوى الأعداد، "بالرصيد" الذي لا يجب أن يرتفع: ٨٥٤١ أسرة في بوهيميا، و٥١٠٦ أسرة في مورافيا، ولا أكثر من ذلك. أي رجل يهودي لم يكن له الوضع الخاص والنادر كيهودي في مجال الحماية أو كيهودي يعمل في البلاط الملكي، أي رجل يهودي أراد الزواج والإنجاب وتوريث الأبناء، كان يجب عليه أولًا انتظار وفاة رب أسرة، أي رب أسرة. كان هذا عادة الأب نفسه هو

---

* بالتشيكية kavka، وبالبولندية kawka.

هذا الشخص، ولكن من الممكن أن يكون يهوديًا غربيًا ليس لديه أبناء. في الحالتين يجري تخفيض أعداد الأسر اليهودية والسؤال المطروح عن تحقق خط الإرث المباشر من عدمه لم يكن له أية أهمية في سياق السياسة البيولوجية. عدم وجود ابن كان يعني أن فرصة "تكوين أسرة" كانت شاغرة، نقطة ومن أول السطر! من كانت له الرغبة في الحصول عليها وكان على استعداد للدفع أتيح له ذلك.

هذا تحديدًا ما حدث في "فوزيك" عام ١٨٠٢، حينما توفي يهودي اسمه "فيشل"، وبعده أيضًا طفله الوحيد الذي كان رضيعًا. وبما أن الزوجات والأرامل لم يحق لهن الحصول على فرصة "تكوين أسرة"، أتيحت هذه الفرصة للغير. وعلى هذا النحو اشترى شخص يدعى يوزيف كافكا هذا الحق المكفول رسميًا للتناسل، يوزيف كافكا هو الجد الأكبر للكاتب فرانز كافكا.

لا يمكن فهم السيرة الحياتية لأي مثقف عاش في العاصمة البوهيمية دون وضع تاريخ المدينة والمنطقة بأكملها في الاعتبار. ينطبق ذلك على الألمان والتشيك، وكذلك على اليهود والمسيحيين بالقدر نفسه. ينطبق ذلك أيضًا على سياسيين مثل "توماس مازاريك"، الذي طرد في البداية من مدينته ثم عادت لتمجده، أو على الصحفي "إيجون إرفين كيش" الذي عكف طيلة حياته على استيعاب التاريخ الاجتماعي لبراغ، ينطبق ذلك أيضًا على جيل الصهاينة الشبان الذين نشؤوا في بداية القرن العشرين وسط الصراعات القومية في براغ، وواجهوا مشكلات مصطلح "الأمة اليهودية"، الحال نفسه بالنسبة لكتاب مثل "ريلكه" و"فيرفل" بالطبع، إذ ألهبت المدينة خيالهما، إنها صورة لمدينة انطبعت بصراعات اجتماعية دامت لأكثر من ألف عام، وظننا أنهما

مع كل هذه الصراعات وتصفية الحسابات قد فقدا قدرتهما على التنفس والحياة.

كتب كافكا وهو في التاسعة عشرة إلى أقرب صديق له: "براغ لن تتركنا لحالنا، لا أنا ولا أنت. لهذه الأم مخالب، إما أن تستسلم وإما أن تقبل بالبديل. - ربما يجب علينا حرقها من الناحيتين، ناحية "فيشاهراد" وناحية "هرادشين"، حينها سننجح في الهروب".[12] إنه تصرف فكر فيه كافكا وله طابع وجودي، ولكنه لم يتخذ قط قرارًا بتنفيذه. لم يشعل النار في شيء ولم يفلت إلا قبل النهاية بوقت بسيط، خفت حدة المخالب بعد فوات الأوان.

صارت حقيقة بديهية أن عملًا مثل عمل كافكا لا ينشأ إلا في براغ، وأن كل صفحة تتنفس أجواء براغ التاريخية والاجتماعية، ولكن لا تعيننا هذه الحقيقة بالفعل على الفهم، لأن الحال مشابه بالنسبة للعديد من الكتابات السطحية التي تأتي من أقلام مبتدئين في الأدب من الدرجة الثالثة أو الرابعة، ازدحمت بهم مقاهي براغ، وكذلك صفحات الأدب والفن وسط الضجر المتزايد للجمهور.

ولكن اختلف كافكا عن كل هؤلاء بشدة. كيف جاء هذا الاختلاف؟ من خلال قدراته اللغوية أولًا، ثم إحساسه بالأشكال الأدبية وإحجامه عن تناول أي صور نمطية للمدينة ثانيًا. ما يكتبه له سحر بمذاق خاص، ويختلف عن السحر المزعوم لمدينة براغ. كل سطر تسطره يده يأتي نتاج يقظة مثقفة وصارمة لدرجة مرعبة، وفكر عميق لا يلين ومتشبع بصور لغوية. لم يقع كافكا مجرد "أسير" للمدينة الأم -مثل آلاف الآخرين- بل دفعه ذلك وألزمه بالبحث في لغز هذا الارتباط. ولذلك صارت موضوعات حياته تدور حول سلطة الماضي على

الحاضر، أشباح "الماضي" التي كانت حاضرة بشكل خاص عام ١٩١٤، وعودة ما كان يبدو أنه انتهى تاريخيًا إلى الحياة مرة أخرى: يأتي كل ذلك تعبيرًا عن وعيه بالزمن والتاريخ، ولكنه وعي راسخ في عالم براغ الخاص به.

يبدو أن كافكا كان يحمل هذا الوعي داخله منذ ريعان شبابه. لأنه حينما فكر في إضرام النيران في براغ لم يكتف بأحلام التلامذة. لا يخطر على باله الأقرب مثل المدارس والجامعات والمعابد ومحال الخردوات- لا، يجب أن تشتعل النيران في المركز القديم للمنطقة السكنية في براغ. إنهما البرجان "فيشاهراد" و"هرادشين"، حيث نشأت في ظلهما قبل ألف عام أول الأزقة في براغ. إنها جرعة خيال زائدة، ما زالت لهوًا بريئًا، ولكن حتى مع اللهو يلمس كافكا أصل الأشياء.

من أين له بهذه القدرات؟ كتب رسالة في نهاية حياته: "فكري يا ميلينا في أنني آتي إليك بعد رحلة دامت لثمانية وثلاثين عامًا (وبما أنني يهودي فهي رحلة أطول بكثير)."[١٣] يبدو أنه شعر بهذا التضافر بين قدره الشخصي وقدره التاريخي مبكرًا وكانت حياته كفيلة بتأكيد هذه الفكرة. ولد على حافة الغيتو اليهودي قبل فنائه إلى الأبد، كان مُعرضًا للتفكير والحديث المعادي للسامية، تفكير يُظهر أن العصور الوسطى مستمرة دون توقف. تعرف على بشر يؤمنون بأن اليهود يقتلون على سبيل ممارسة طقس مقدس، هؤلاء الذين يقولون ذلك يحلمون في اللحظة نفسها بمستقبل الأمة التشيكية. لقد التقى بجيل أكبر عاصر آخر الإعدامات العلنية، وينبهر الآن بالسيارات الأولى ودور العرض السينمائية، كما عاش لسنوات عديدة على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، هذا المسرح الاجتماعي الذي استحضر أبطاله أحداث

عامي ١٦٢٠ و١٦٢١ مرارًا وتكرارًا، الجبل الأبيض وتنفيذ أحكام الإعدام والطرد، وكأنها ذكريات حيوية لكل من تجمع في هذا المكان. كان كافكا يدرك حجم ما كان عرضًا تمثيليًا من كل هذا، ولكن ما شعر به وعايشه أن مواصلة عنف الماضي في أشكال جديدة لم تتطلب الكثير من العروض التمثيلية.

إن تداخل وخلط الحقبات الزمنية المختلفة تحت ظروف ضغط خارجية كان أمرًا مألوفًا بالنسبة لكافكا في سياق التصورات اليهودية، حتى إن لم يعرف عنها بشكل كاف. إنه هذا اللوم الذي يوجه إلى اليهود -بصفتهم مجموعة غير مرتبطة بالزمن- بأنهم ارتكبوا جريمة منذ أكثر من ألفيتين ماضيتين "لقد قمتم بصلب سيدنا"، بالقطع شعروا بالظلم حيال هذا الاتهام. ولكن يرجع السبب في ذلك إلى مضمون التهمة، بينما الشكل الذي يتمثل في جمع أزمنة تاريخية يبدو مألوفًا ومفهومًا تمامًا. ليست الهوية اليهودية ك "شعب" فحسب، بل كل عيد يهودي، كل طقس في الحياة اليومية كان يستنبط معناه بوضوح -ولا يزال- من أحداث ترجع إلى زمن العهد القديم. كانت لهذه العلاقات البعيدة معنى أسمى، اتفق اليهود وخصومهم على هذه الفكرة، ولم يهم بعد ذلك أن تقدم الحقائق التاريخية إثباتًا لذلك – كان مجرد استمرارها دليلًا كافيًا. إن هذا الإحساس الخاص بالزمن -والذي يبدو أن عصر التنوير مر عليه دون أي تأثير– كان جزءًا مهمًا من التربة التي نمت فيها قدرة كافكا على التأمل الفكري.

لا يمكن التخلص من براغ ولا من اليهودية، لأسباب متشابهة للغاية. "لم يمت الماضي، بل إنه يأبى أن يمضي." – هذه العبارة الشهيرة والمتناقضة قالها "وليام فولكنر"، ولكن إن اكتشفناها في أحد دفاتر

كافكا التي ملأها بخطه لاحقًا، فلن نتعجب. بالتأكيد كان سيوافق على هذه المبارة. ومن كان له الحق في ذلك أكثر من يهودي قادم من براغ؟

بشر عمالقة: آل كافكا من "فوزيك"

"لا يعيش في هذا العالم كل من ولد فيه."
ديجيو سوموري، المعلم حوريب

"حالكم أفضل مما هو مطلوب!"، كانت هذه الفقرة المتكررة والرنانة مألوفة في حجرة معيشة آل كافكا لدرجة الملل. لأن تاجر الأقمشة والخيوط هيرمان كافكا كان يلقيها على أسماع كل من يأتي إليه بهمومه -خاصة الهموم "الشخصية"- ليتخلص من هذه الشكاوى باعتبارها مصدر إزعاج. "حالكم أفضل مما هو مطلوب!"، صحيح أن هذه العبارة قد فقدت من كثرة استخدامها بعضًا من تأثيرها، ولكنها كانت سلاحًا مفيدًا لإنهاء أية مناقشة، ولوأد أي مقاومة في مهدها. كيف لأي شخص منهم جالس على مائدة الطعام وأمامه يوميًا صحن اللحم الدافئ، أن ينكر يسر حاله؟ هل عانى هذا المنزل أي نوع من الحرمان؟ لأن كل شيء متاح أصبحت الأمور التافهة تثير قلقًا، لا يتسم في ظاهره بأي جدية. كان رب الأسرة يعرف جيدًا معنى الحرمان الحقيقي، بل كان يظن حتى هذه اللحظات أنه الوحيد الذي يملك هذه المعرفة. وبما أنه قد حفظ الآخرين من خوض هذه التجربة، رأى أنه ليس فقط مطلبًا مشروعًا -بل أيضًا مطلبًا تربويًا- أن يذكرهم كلما أمكن بالكفاح الماضي والحاضر في سبيل هذا الوضع المرفه.

بالقطع كان يجلس أمامه على المائدة مراقبٌ لا يكتفي بسد آذانه أو ابنٌ تبلد من تكرار سماع لوم الأب، بل كان يدرك عمق الدوافع التي كانت تحرك هذا الحديث الانفرادي.

"كان الاستماع إلى الأب وهو لا يتوقف عن الإشارة إلى حظ هذا الجيل وخاصة أبناءه مقارنة بمعاناته هو في شبابه، أمرًا مؤلما. لا ينكر أحد أنه أصيب بجروح مفتوحة في ساقيه نتيجة للحرمان من ملابس الشتاء، وأنه عانى من الجوع واضطر إلى جر عربة لمدة عشر سنوات من الصباح الباكر عبر العديد من القرى. ولكنه كان يرفض فهم ما يلي: لا يحق له من خلال هذه الوقائع التي حدثت بالفعل -فضلًا عن حقيقة أنني لم أعان كل هذا- أن يستنتج أنني أكثر حظًا منه، وأن من حقه التعالي بسبب جروح قدمه، وأنه ظن، بل ادعى منذ البداية أنني لا أقدر معاناته القديمة لأنني لم أمر بها، وبالتالي يجب أن أشعر بامتنان لا حدود له. كم كنت أتمنى الاستماع إلى حديثه عن شبابه ووالديه، ولكن لغة التعالي والشجار كانت مؤلمة."[١٠]

كان كافكا يستمع إلى هذه الخطب على مضض، ومع ذلك سجلها بدقة، كما جعلته يقتنع مبكرًا بأن العلاقات بين الآباء والأبناء في السياق البرجوازي ليست إلا علاقة سلطوية: فحتى الخير الذي يفعله الآباء يسعى إلى تحقيق هدف ثانوي، ألا وهو ضمان السلطة المطلقة على أبنائهم والحفاظ على استمرارها. ما عايشه كافكا يوميًا أن هذه السلطة كانت أكثر تأثيرًا في أخلاقيات الأطفال، بعيدًا عن حالات الحب المتقلبة، فكان الآباء يستغلون عن عمد هذا الموقف بالتطرق باستمرار إلى التناقض القائم بين معركتهم في الحياة المكبلة بالمسؤولية والهناء المزعوم للأبناء. قلما أدت هذه الحسبة الاستراتيجية والنفسية إلى

شعور حقيقي بالعرفان – بل في الأغلب كان شعورًا بالذنب، وكان هذا الشعور أكثر عمقًا وتأثيرًا مع صعوبة طريق حياة الآباء في الحاضر "والماضي". يأتي من هنا الاستمتاع الواضح وحالة التباهي و"الاختيال" الغريب التي كانت تصاحب حديث والد كافكا عن الماضي الأليم – وكأنه يتحدث عن إنجازاته. كان يقول مرارًا: "ومن يعرف هذا اليوم! ماذا يعرف أبناء اليوم! لم يعان شخص هذه المعاناة! هل من ابن اليوم يفهم هذه المعاناة!"[٢] ابن واحد على الأقل من أبنائه كان يفهم.

ولد هيرمان كافكا في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٨٥٢ في حارة اليهود في "فوزيك"، إنه جزء صغير من القرية كان يطلق عليه "فوزيك الصغيرة"[٣]. ولادته كابن شرعي تمثل امتيازًا يرجع فضله إلى حركة النضال اليهودية من أجل الاستقلال البرجوازي التي دامت لثلاث سنوات قبلها، وأدت إلى سقوط "قانون الأسرة". كان هذا القانون قد فرض على والده تاجر اللحوم ياكوب كافكا قيودًا صارمة، ذلك لأن ياكوب لم يكن الابن الأكبر وسط إخوته ولا أمل - في "فوزيك" الصغيرة، المنطقة الصغيرة صاحبة المائة والخمسين نسمة[٤]- في الحصول على فرصة (كالتي أتيحت لوالده) بالحصول على مكان شاغر يسمح بـ"تكوين أسرة". اضطر بسبب ذلك إلى "الزواج في حجرة سطوح" -كما كان يقال وقتها- بحبيبته فرانزيسكا "فاني" بلاتوفسكي[٥]، التي كانت تقطن في المنزل المقابل، عاش معها في حالة زواج مقبولة من المجتمع اليهودي، ولكنها علاقة ليست لها أي ضمانة قانونية. الطفلان اللذان نتجا عن هذه الزيجة كانا غير شرعيين ولذلك حملا مبدئيًا اسم الأم.

غمرت سكان الريف اليهود سعادة طاغية حينما انتشر خبر تفعيل قانون المساواة في بداية عام ١٨٤٩. أُطلقت صلوات وأناشيد الشكر إلى السماء في العديد من المعابد في غاليسيا ومورافيا وبوهيميا، وبالتأكيد في المعبد الصغير في "فوزيك"، تعاقبت حفلات الزفاف، حتى من شاب شعره وله أحفاد حرص على توثيق العلاقة الزوجية في شكل قانوني، ولم يكن هذا الاحتفال في هذا اليوم في سياق خاص فحسب، بل كيوم تاريخي فاصل لليهودية بأكملها. لم يتردد طويلًا كل من ياكوب (خمسة وثلاثون عامًا) وفاني (ثلاثة وثلاثون عامًا)، تزوجا رسميًا في يوليو وحصل الابنان على اسم العائلة كافكا، وكذلك الأبناء الأربعة القادمون، من بينهم هيرمان. لم يدرك أحد تقريبًا في حارة اليهود الصغيرة في "فوزيك" أن حقوق المواطن الجديدة لم تطلق العنان لحريات واسعة المجال فحسب، بل أيضًا لطاقات فردية تسعى إلى الاستقلال. لا مفر من أن الحقوق الممنوحة مؤخرًا في الزواج والاختيار الحر لمقر السكن والمهنة قد أيقظت أحلامًا ليس تحقيقها متاحًا في السياق المحدود للقرية. ستقوم هذه الأحلام قريبًا بهز كيان الجماعة اليهودية، إنها صدمة الحداثة التي كان لها تأثير وصل إلى أفقر كوخ. كأن البشر قد وقعوا بين لحظة وأخرى داخل مجال طاقة لمغناطيسين كبيرين وعلى مسافة بعيدة منهم، كان اسمهما فيينا وبراغ.

مستبعد أن يكون ياكوب كافكا قد استشعر هذه الإغراءات الجديدة، كان سيعتبر نبوءة أنه آخر يهودي سيدفن يومًا ما في مدافن "فوزيك" وبالًا صعب استيعابه. نشأ في عالم اليهودية الريفية، لم يملك أي تصور عن أي قيم أخرى، ولذلك فإن السؤال عن حياة أفضل في مكان آخر وما يصحبه من خيالات ملحة لم يشغله كما شغل أجيالًا لاحقة. كل ما كان يهم أنه قد وصل إلى وضع مقبول اجتماعيًا ـ

تاجر ومورد لحوم- قَبِلَ بالثمن المطلوب لهذا الوضع والتأقلم الاجتماعي. تمثل هذا الثمن في مجهود جسدي شاق لا يسمح بأي راحة، ناهيك بأي عطلة – بدا أن ياكوب الضخم والقوي قد خلق لهذه الحياة التي اعتمدت على الاستنزاف الجسدي. لم يشحذ قواه إلا يوم السبت، الذي فرض الراحة لأسباب دينية، كما أنه كان يلتزم وفقًا للعادات والتقاليد العتيقة بالأعياد اليهودية.

عاش آل كافكا في ظروف متواضعة، ولكنها لم تكن فقيرة على الإطلاق. كان في الأوساط الريفية معتادًا أن تعيش أسرة من ثمانية أفراد في بيت صغير بحجرتين وأن يتقاسم الأبناء جميعًا حجرة واحدة، أو أن ينام اثنان أو ثلاثة في فراش واحد. بالكاد عرف هذا المنزل "جوعًا متكررًا"، حتى إن ادعى هيرمان سعادته بمجرد صحن البطاطس – هذا مستبعد في منزل صاحبه تاجر لحوم. ولكن يجب الاعتراف بأنها لم تكن طفولة بسيطة فحسب، بل أيضًا قصيرة المدى. يسمع الأبناء مرارًا وتكرارًا ذمًّا في أحلام اليقظة والتكاسل، وأن مرحلة "البلوغ" تعني النهاية القاطعة لأي حالة خمول. أعرض هيرمان كافكا بحزم عن بيئة مرحلة الطفولة، ولكنه استوعب هذا الدرس بعمق وإلى الأبد، ولذلك صاحب كرهه مدى العمر لأي عمل شاق ودنيء عدم استيعاب لأي نشاط لا يبدو في ظاهره عملًا، مما كان له عواقب فيما بعد.

لا نعرف شيئًا عن فترة زيارة هيرمان للمدرسة الابتدائية اليهودية في القرية، ولكن ما نعرفه بالتأكيد أنه اضطر لمصاحبة أبيه إلى العمل سنوات قبل طقس بار متسفا، المقابل اليهودي لطقس التعميد، وأنه شارك في عمليات الذبح المرهقة التي كانت تقام في مبنى صغير لأغراض تجارية يقع خلف المنزل. كان يهود "فوزيك" وبعض القرى المجاورة

يقومون بطلب اللحوم ليوم السبت مع بداية الأسبوع، ليتم توصيل البضاعة يوم الخميس والجمعة، سيرًا على الأقدام أو بعربة يجرها بيده. أما باقي أيام الأسبوع فكان يوصل اللحوم إلى الزبائن المسيحيين. شكا هيرمان كافكا لاحقًا أنه كان يُكلف بمهمة التوصيل وهو في السابعة من عمره، في البرد القارص وقبل بداية حصص الصباح المدرسية. حتى إن اعتبرناه يبالغ بعض الشيء وأنه يعمم هذه التجارب الأليمة، من المؤكد أن كفاف الأسرة كان أكثر أهمية من تعليمه ونموه وأن مرحلة طفولته انتهت قبل بداية مراهقته بفترة طويلة. ربما لم يحالفه حظ سعيد، ولكنه لم يكن بالغ السوء أيضًا، لأن حال إخوته وسائر الأبناء في حارة اليهود لم يكن أفضل. شكت إحدى الأختين من أنها صارت طباخة العائلة وهي في العاشرة من عمرها، ولم يكن ذلك غريبًا في زمن كان يقبل بعمالة الأطفال قانونيًا وأخلاقيًا.[٦] يزيد على ذلك أن الأبناء قد ورثوا عن أبيهم قدرته الجسدية، إذ اعتبرتهم زوجة هيرمان الثانية قبيلة من "البشر العمالقة".[٧]

لم يتعلم هيرمان في سنوات الدراسة القليلة إلا ما هو ضروري: الكتابة والقراءة والحساب وبعض الكلمات باللغة العبرية المستخدمة في إنجيل العهد القديم، التي كانت مطلوبة للمشاركة في الحياة الدينية. ولكن التعليم الأكثر قيمة في "فوزيك" كان يتمثل في تمكنه من لغتين عاميتين – إنها مهارة أتاحت التأقلم في بيئات مختلفة، وكانت غاية في الأهمية لأي نشاط تجاري في منطقة بوهيميا للتعامل مع الباعة الجائلين وتاجر الجملة على حد سواء. كانت لغة الحياة اليومية في "فوزيك" ولغة الأغلبية هي اللغة التشيكية بالطبع، ولكن كان اليهود يجيدون اللغة الألمانية باعتبارها لغة التعليم، ولغة الدولة والنخبة أيضًا، ولذلك تمكنوا ـمقارنة باليهود التشيكيينـ من التفاهم بشكل

أفضل مع صاحب العزبة الجديد في قصر "فوزيك"، صاحب الأملاك من البراغي وعضو المجلس المحلي "إدوارد ريتر فون دوبك". ظل تعليمهم المدرسي باللغة الألمانية، وتمسك اليهود بذلك، حتى بعد عام ١٨٤٩، حينما صار التعليم الألماني غير ملزم. كان من حظ مَن نشأ في "فوزيك" أن يجد مدرسة ألمانية يهودية بالقرب من منزله، بينما كانت تقع أي مدرسة أخرى على مسافة خمسين كيلومترًا. اللغة السائدة في المعبد هي الألمانية، وفي الأغلب أيضًا يوم السبت في المنازل، مع أن بعض الكلمات اليديشية ظلت حية منذ فترة الهجرة. الأسماء الأولى للأبناء كانت ألمانية (لا يوجد إلا اسم تشيكي واحد في العائلة الكبرى لـ"هيرمان كافكا")، كما أن الكتابات على الأضرحة في المدفن اليهودي الصغير كانت باللغتين العبرية والألمانية.

إلى أي جماعة قومية ننسب آل كافكا؟ هل كانوا يهودًا ألمانًا؟ أم يهودًا تشيكًا؟ لم يملك أي شخص من "العائلات الكبرى" -كما كان يقال في حارة اليهود- الإجابة عن هذا السؤال، ذلك لأن قائمة القوميات التي لعبت دورًا مهمًا وقدريًا في حياة الجيل التالي، لم تتواءم مع الواقع الاجتماعي للقرية. ينطلق هذا السؤال من عالم خيالي وإجبار آل كافكا من "فوزيك" على تجاوز عالمهم المركب للاعتراف بإحدى القوميتين ما كان ليحرجهم على الإطلاق. كانوا يهودًا من بوهيميا ومن الرعية الوفية لمملكة الهابسبورج - بهذا الترتيب تحديدًا. ماذا كان مطلوبًا أكثر من ذلك؟

لا نعرف إلا القليل عن مرحلة شباب هيرمان كافكا. تولى أمره بعد الطقس الديني بار متسفا -على أقصى تقدير- شخص من العائلة كان يملك محلًا للأقمشة في المدينة المركزية "بيزيك"، التي تقع على

مسافة خمسة عشر كيلومترًا.[8] كانت هذه هي أهم مقومات مستقبله الوظيفي، حتى إن لم يتلقَّ تدريبًا منظمًا بمفهومنا اليوم. تجول على الأرجح ببضاعته الجديدة والمختلفة في القرى المحيطة وتعرف على الأسس المطلوبة لتجارة الأقمشة والخيط من واقع المعاملات اليومية. لم يكن تحسن الوضع الاجتماعي واردًا بالتأكيد، لأن أي أجر مالي –إن كان محل اتفاق من الأصل- كان يذهب إلى الوالدين، حيث إن العائلات اليهودية كانت بطبيعة الحال تتنازل عن عقود العمل المعتادة، التي كانت تمثل حالة استثنائية في المعاملات التجارية داخل القرى بكل حال من الأحوال. من المؤكد أن هيرمان كان ينظر إلى السيل المتزايد لنازحي القرى في غيرة وقلق: يهود شبان سعوا إلى الهروب من السخرة، ثم عائلات بأكملها حزمت حقائبها واتجهت إلى المدن لتجذب بعد فترة وجيزة باقي الأقارب إلى مغادرة القرى.

لم يكن في الأغلب للحركات المعادية للسامية أي دور يُذكر في سياق عمليات النزوح هذه. صحيح أن كراهية لليهود كانت ولم تزل كامنة ومحسوسة بشكل كبير –إذ إن التحرر اليهودي المستمر من القيود القانونية فتح مجالًا أكبر للحقد والغيرة– إلا أن انعكاس ذلك على الحياة اليومية المشتركة اختلف من مكان لآخر. في قرى مثل "فوزيك" حيث كانت الأدوار الاجتماعية موزعة بوضوح ولم يكن هناك فروق كبيرة في مستوى المعيشة، كان المجال مفتوحًا أمام اليهود، ولم تلقَ الحركات المعادية للسامية المصبوغة بفكر أيديولوجي أي صدى يذكر. كان كل فلاح تشيكي يرى بعينه جاره اليهودي الكادح وكذلك العامل بالتجارة المجد، ولذلك لم يكن للتجربة الاجتماعية أي علاقة بادعاءات منشورات مجهولة المصدر تقول إن اليهود سفاكو دماء ويفضلون تكليف آخرين بالعمل لهم.

اختلف الوضع في المدن الصغيرة التي كان اليهود فيها جزءاً من أولى حركات الصناعة الكبرى. بسبب ظروف العمل غير الإنسانية كان من الأسهل على طبقة العمال صب غضبهم على صاحب عمل يهودي، عن صاحب عمل تشيكي، تحول الاحتقار الكامن تجاه اليهود والممتزج بخوف من الغريب إلى أعمال كراهية وعنف تحدث بشكل منتظم. من المؤكد أن هيرمان كافكا سمع وهو طفل عن قصص ضرب اليهود وقذف نوافذهم بالحجارة، إذ شهدت المدينة الصغيرة "ستراكونيتسا" -الواقعة على بعد ساعتي سفر وسكنها بعض الأقارب- أعمالًا معاديةً لليهود استمرت لأيام عديدة. زادت المطاردات في البلاد لدرجة جعلت "فرانز يوزيف" يفرض الأحكام العرفية. تنفس لذلك الكثير من اليهود الصعداء حينما تورطت المملكة بعد ذلك بأشهر قليلة في حرب ضد بروسيا: إذ انشغل خصومهم لفترة بأمور أخرى.

كان هيرمان وقتها في الرابعة عشرة من عمره، ولم تشغل هذه الأحداث في الأغلب حيزًا من أحلامه عن الهروب والصعود، ربما لعبت دورًا في سياق كرهه الزائد والمتبادل تجاه حشد المصنع الذي كان يجسد اليهود المتطلعين على نجاحاتهم. كان يعرف أنه لن يفلت من مواجهة هذا الخصم، حتى بعد انتقاله إلى المدينة، تكرر مؤخرًا -مثلما كان معتادًا في هذه الألفية- تَعَرُّض الغيتو اليهودي في براغ لعمليات نهب شاملة، ولم تتمكن سوى وحدات الجيش من إنقاذهم. لم تتوافر في مملكة هابسبورج الشاسعة منطقة حماية وحيدة لليهود، ولكن تنوعت من مكان لآخر فرص الاندماج وإخفاء عيب الأصل خلف واجهة يسر الحال والانتماء إلى الطبقة البرجوازية.

مر هيرمان كافكا في أثناء تأديته الواجب العسكري بتجربة أكدت أن الحياة في مجتمع كبير العدد ومتحرك أفضل من المحيط الضيق لمجتمع القرية الساكن. كان في التاسعة عشرة من عمره حينما "طُلِب" في الوحدة الهندسية واستغرقت خدمته ثلاث سنوات، كان الوقت كافيًا ليتخلص من بعض الصفات اليهودية الواضحة، وليتعلم وسط مجموعة متباينة في الوضع الاجتماعي والمنشأ كيفية الاندماج، على الرغم من الظروف الأولية السيئة: إنها توليفة ذكية من المبادرة والتأقلم. كانت فترة جميلة تخللتها الصداقات ولعب الكوتشينة وأغاني الجنود، مرحلة سيحب لاحقًا الحديث عنها بتكرار. كانت مرحلة تحرر، منحت الصبي اليهودي الفقير ولأول مرة في حياته سلطة يمارسها على أفراد آخرين، إذ وصل هيرمان إلى درجة "عريف أول" ليقود عشرات من المرؤوسين وليشارك في الإشراف على تعليمهم، زيهم وإقامتهم وذلك بوصفه ضابط صف. منحه تمكنه من لغتين ميزة، فضلًا عن قوته الجسدية ورغبته في العمل وصوته الأجش. الكثيرمن الشواهد تؤكد أن هيرمان كافكا لم يكتسب في القرية حضوره ـالذي يجمع بين الإحسان إلى المرؤوسين والصوت العالي ذي النبرة التهديدية– بل اكتسبه في مرحلة الجيش. لقد كان حضورًا يسيطر به على الأشخاص المحيطة، وتمرس في الأداء كأنه دور مسرحي. لقد كان سلاحًا مفيدًا في التعاملات مع الموظفين في مجاله التجاري، أما في المنزل فكان يثير التوتر، لما يختبئ خلف هذه الواجهة الغليظة من مشاعر رثاء للذات وانتهازية وتفاخر طفولي. يبدو أن العريف أول هيرمان كافكا لم يتقبل قط فقدانه لفرقته العسكرية، بُنيت حياته التالية بأكملها على منطق المعركة والغزو والدفاع المستميت عن مواقف لها مميزات، اعتبر كل ما يخالف هذا المنطق ضربًا من ضروب الجنون.

بعد تجربة الحياة العسكرية صارت الحياة كـ "رجل قرية" أمرًا غير وارد بالمرة، رحلت عن جميع حارات اليهود -بما في ذلك في "فوزيك" الصغيرة- زبائن المستقبل ولم يبقَ سوى الزبائن القدماء، كان جليًا أن إدارة محل تجاري في هذه المنطقة لن تلقَى أي نجاح. كان أشقاء هيرمان الأكبر عمرًا أقل عندًا ولكن كان لديهم الإصرار نفسه على البحث عن الصعود الاجتماعي، فانضموا إلى حركة النزوح الكبرى وتخلوا إلى الأبد عن شقاء حياة اليهود في القرى: ذهب فيليب إلى مدينة "كولين" التشيكية، أما هاينريش فذهب إلى "لايتميريتس" في المنطقة الألمانية لبوهيميا، وصار الاثنان تجارًا مستقلين. حتى في براغ نجح صعود فرد من أفراد العائلة الكبرى: إنه تاجر الخمور بالجملة إنجيلوس كافكا من "ستراكونيتسا" الذي وصل في منتصف الثلاثينيات من عمره إلى حالة من يسر الحال سمحت له باحتضان أقارب آخرين ومساعدتهم في بداياتهم في مدن غريبة عليهم. كان أنجيلوس نموذجًا ناجحًا، كان أنجيلوس مثلًا أعلى، لقد مهد الطريق للعريف أول القادم من "فوزيك" الصغيرة الذي أراد السير على خطاه.

لا نعرف الكثير عن سنوات هيرمان كافكا الأولى في براغ، ولكن يبدو أنه ظل وفيًا لمجاله، وسافر بالأقمشة الراقية والخيوط وغيرها من الخردوات -ليس بوصفه بائعًا جائلًا- ولكن بوصفه مندوبًا لتجارة الجملة له وظيفة ثابتة، كان يتجول من الاثنين إلى الجمعة في بوهيميا ويتلقى طلبات تجار القرى ويشتري المنتجات التي صُنعت في المنازل وفي ورش صغيرة. كان مُسجلًا رسميًا لبضع سنوات في سكن ابن عمه في شارع "بلاتنيرسكا أوليتسا" - ويعد ذلك مؤشرًا إلى أن هيرمان لم يعان الفقر في براغ، ولم يكن مضطرًا إلى السكن في المقار الرخيصة

للغيتوهات، التي صارت من ضمن أحياء المدينة العادية ولكن كانت حالتها مزرية وصارت عنوانًا للعديد ممن يُطلق عليهم "اليهود المتبولين"[٩] الذين دخلوا البلاد بأعداد غفيرة. ومن المرجح أيضًا أن أنجيلوس قد مهد له -من خلال ضمانه له- طريقه إلى الاستقلالية. كانت هذه هي عادات العائلات اليهودية، وجاء الشكر من خلال اختيار فاعل الخير كأب روحي للأبناء، ولذلك صار للكاتب فرانز كافكا لاحقًا أب روحي، وكان تاجرًا للخمور ميسور الحال.

قرر هيرمان كافكا وهو في الثلاثين من عمره صعود درجتين من السلم الاجتماعي في خطوة واحدة، ليقدم بذلك على حيلة اجتماعية متكررة: محاولة إنشاء تجارة خاصة به وربطها مباشرة بتكوين أسرة. إنها فكرة بسيطة بحسبة بسيطة: يمنح كل من المال المجمع للرجل والمرأة ورغبتهما المشاركة في العمل دفعة، دفعة تكون حتمًا جلية على المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي. ليظهر تأثير هذا التآزر في حياة هيرمان كافكا، كانت هناك مواصفات خاصة مطلوبة لهذا "الارتباط". لم تكن الزوجة المسيحية اختيارًا متاحًا، لأن العائلة الكبرى لن تقبله، ينطبق ذلك أيضًا على التشيكية، لأن المطلوب هو أن ينشأ أبناء المستقبل مع اللغة الأرقى مجتمعيًا، ألا وهي اللغة الألمانية. قد يكون لليهودية الثرية متطلبات تتعلق بالنشأة والتعليم لن يتمكن من تحقيقها. إذًا كان المطلوب سيدة بمهر كبير يدعم التجارة المخطط لها بشكل جوهري، وتكون فضلًا عن ذلك على استعداد للمشاركة في العمل ولا تكتفي بمسؤولية الرجل عنها. يزيد على ذلك أن تكون على قدر من السحر والجاذبية -ليس فقط لإرضاء هيرمان شخصيًا- ولكن لأسباب الوجاهة الاجتماعية، التي كانت لها أهمية خاصة في الحياة التجارية للناس البسطاء. "شخصية فائزة" بالمعنى الحرفي للكلمة.

هل كانت هذه السيدة موجودة في براغ؟ لم يكن التعرف إلى الجنس الآخر أمرًا هينًا، وحتى إن سكنت السيدة المناسبة في المنزل المقابل – مثلما حدث مع أبيه في حارة اليهود في "فوزيك" – فما كان ذلك ليسهل المسألة في البيئة المجتمعية للمدن. صحيح أن التعامل من حين لآخر مع بائعات الهوى كان يمثل بالنسبة لهيرمان كافكا أمرًا طبيعيًا مثل شرب الجعة والتدخين –تعليقاته اللاحقة أمام ابنه كانت في منتهى الوضوح– إلا أن التفاصيل الاجتماعية المطلوبة لإقامة علاقة متساوية لم يكن ليتعلمها في حانات براغ.

كانت المسألة أكثر أهمية من أن تترك للقاءات العشوائية، ما كان ليفكر أبدًا في مراقبة السيدات من الطبقة البرجوازية وإرسال خطابات إليهن –أو إعلان جريدة كما كان رائجًا وقتها– ليسأل عن فرصة "تقارب محترمة". قد تكون هذه فكرة تخطر فقط على بال سكان المدن الكبرى من المسيحيين، ولكن ليس على باله هو، على الرغم من أنه يجسد جيدًا النموذج المعاصر الجذاب للرجل المقدام، الضخم والعريض المنكبين، ولكن كان ينقصه الحنكة المطلوبة لتتوج هذه المطاردات بنجاح. لا، التصرف الأكثر الحكمة في هذه المواقف هو اتباع التقاليد اليهودية والاستعانة بدعم المتخصصين في هذا المجال. كان هناك من يقوم بمهمة تنسيق زيجات بكل فئات الأسعار الممكنة، يحفظون أسماء كل من في المجتمع اليهودي عن ظهر قلب، كما أن لديهم أدق التفاصيل عن الخلفيات الأسرية والمالية والأخلاقية. لم يكن دفتر منسقي الزيجات يعطي صورة معاصرة عن سوق الزواج اليهودي فحسب، بل إنه كان يُشكِّل هذه السوق أيضًا. أتاحت المعرفة الدقيقة لكل عرض وكذلك دبلوماسية التفاوض الفرصة أمام كل زبون أن يعرض المواصفات المطلوبة في الوضع المالي والشكل الخارجي لشريك الحياة صراحة، ودون

تخوف من الإحراج الشخصي الناتج عن الرفض. يمكن الاعتماد على سرية عمل منسقي الزيجات، لأن الكتمان كان يصب في مصلحة العمل نفسه.

عرف هيرمان كافكا من خلال هذه الدفاتر أن السيدة التي كان يبحث عنها كانت تقطن على مسافة خمس دقائق من منزله. سكنت مع والدها وزوجة والدها وأخيها على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة في منزل على ناصية شارع "شاليزنا"، مبنى مكون من ثلاثة طوابق وواجهة باروكية ومحل تجاري في الدور الأرضي، سمي لاحقا بمنزل "سميتانا"، مر بالتأكيد آلاف المرات من أمامه. كان اسم العائلة "لوفي"، وابنتهم "جولي" ـالبالغة من العمر ستة وعشرين عامًاـ وصلت بذلك إلى سن الزواج منذ فترة طويلة. لم تكن أسرة غنية ولكنها ميسورة الحال لدرجة تسمح لأهلها بتأجيل دفع الالتزامات المالية لسنوات، بينما تقوم هي باختيار شريك الحياة في منتهى الهدوء. أفضل ما فيها أنها كانت من مجاله نفسه، إذ قضت "جولي" طفولتها وشبابها في كواليس محل قماش ناجح، وبذلك لم تملك فقط المعرفة الضرورية بالبضاعة التي كانت مصدر رزق الأسرة وطريقة إدارة الحسابات، بل كان لديها أيضًا تصور دقيق عن أسلوب التعامل مع الموظفين والزبائن. إنها ضربة حظ لهيرمان، فضلًا عن جمالها ولطفها وطبيعيتها دون أي تكلف، سيدة محافظة ولها أسلوب هادئ وطيب يذكره بروح أمه اللطيفة.

صحيح أن الفجوة في التعليم والوضع الاجتماعي أقلقت هيرمان. كانت غالبًا المرة الأولى التي يغامر فيها بالدخول إلى المنطقة الخطيرة للإتيكيت الاجتماعي. كيف ينجح في اختيار الأسلوب المناسب؟ خاصة

حينما يكتب، لأنه لا فرار من كتابة الخطابات، خاصة وأن هيرمان كان على سفر دائم. صحيح أن اللقاءات الأولى كانت واعدة، وتولد نوع من الاستلطاف المتبادل، ولكن كان يجب عليه ألا يذكرهم في حرج بسنواته القليلة في المدرسة الابتدائية، خاصة أقارب "جولي" الذين كانت لهم رؤية ناقدة للارتباط المرتقب. حضر خصيصًا من باريس أخ يعمل وكيلًا مصرفيًا طاف العالم ليشاهد مندوب بيع الخيوط هذا الذي جاء من "فوزيك". هيرمان نفسه لم يصدق أنه سيمر بكل هذا دون سقطة واحدة، ولكنه كتب بالفعل خطاباته على أوراق فاخرة زُينت بالأحرف الأولى لاسمه واستهلها ببعض العبارات التي نقلها من دليل لكتابة الرسائل، ولم يكن لها أي صلة بوضعه الاجتماعي أو ما يعيشه من سلوكيات يومية: "الآنسة المبجلة.."، "تقديري لروحك الراقية.."، "هيئتك الجميلة"، "صوتك الملائكي". اعتبر هيرمان هذا مناسبًا لمستواها الاجتماعي، ولكن يبدو أنه تنفس الصعداء حينما تجاهلت "جولي" كل هذه المبالغات اللغوية وأجابته ببساطة "عزيزي السيد كافكا". صارت الأمور منذ ذلك الحين أبسط بكثير، كانت المرة الأولى -وتلتها العديد والعديد من المرات- التي حفظته فيها بخفة من سقطاته، وفهم هيرمان في الحال حسن حظه في الأسلوب العملي لزوجة المستقبل، أسلوب لا يفرض نفسه ولكنه يعتمد عليه: كانت أشبه بسند اجتماعي له وحلت عنه الكثيرمن الضغوط. لقد قام منسق الزيجات بمهمته على أكمل وجه: كانت "جولي لوفي" مناسبة له تمامًا.

عقد القرآن يوم الثالث من سبتمبر عام ١٨٨٢، بعد مرور بضعة أيام على عيد ميلاد هيرمان كافكا الثلاثين، وفقًا للطقوس اليهودية تحت ظلة ومع كأس نبيذ والعديد من عبارات المباركة. انتقل الحاضرون الى الحفلة الخاصة التي أكدت على الرباط بين الأسرتين، والتي أقيمت

في منزل رقم ١٢ على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. هنا افتتح هيرمان –المتشوق لهذا الحدث– محله الأول الخاص به، أتيح للحاضرين إبداء إعجابهم ببضاعة الحياكة التي وصلت لتوها من فيينا. في المبنى المجاور، فندق "جولدهامر" كانت مائدة الطعام الطويلة جاهزة. مازال توف! حظ سعيد!

حملت "جولي كافكا" بعد مرور أربعة أسابيع.

السيدة لوفي

"ليس من العار أن نُفضل السعادة."

البير كامو، الطاعون

''اسمي باللغة العبرية ''أنشيل'' مثل جد أمي من ناحية أمها. تتذكره أمي رجلًا متدينًا وحكيمًا بذقن طويلة وبيضاء، كانت في السادسة من عمرها لحظة وفاته. تتذكر تشبثها بأصابع قدم جثته وطلبها للسماح على أخطاء قد تكون ارتكبتها في حقه، تَذَكَرت أيضًا الحوائط التي ملأتها كتب جدها. كان يستحم يوميًا في النهر، حتى في الشتاء يضرب ثقبًا في طبقة الثلج ليستحم. توفيت أم أمي مبكرًا بمرض التيفود، اكتأبت الجدة منذ توقيت الوفاة ورفضت الطعام والكلام، ذهبت للتنزه بعد مرور عام على وفاة ابنتها ولم تعد مرة أخرى، أخرجوا جثتها من نهر ''إلبه''. كان والد جد الأم رجلًا أكثر علمًا من الجد نفسه، إذ تمتع لدى المسيحيين واليهود بالقدر نفسه من الاحترام، بسبب تدينه حدثت في أثناء اندلاع نار هائلة معجزة أنقذت منزله، بينما احترقت باقي المنازل من حوله. كان له أربعة أبناء، منهم ابن اعتنق المسيحية وصار طبيبًا. توفوا جميعًا ما عدا جد الأم. كان لهذا الجد ابن وكانت الأم تعرفه كعمها ''ناتان'' المجنون، ثم ابنة والتي كانت أم أمي.''

أسرة من العلماء وشخصيات غريبة الأطوار، تصاب أيضًا بالاكتئاب: بالتأكيد كان هذا سيثير اهتمام كافكا. ولكن لماذا لم يسأل عن التفاصيل؟ ممثل يهودي من الشرق -تعرف إليه لاحقًا- طرح عليه فكرة التوثيق التحريري لكل ما تبقى في ذاكرة الأسرة عن يهودية أسلافه.[2] العمالقة من "فوزيك"، مخلصون للقانون ولكن بلا تعليم. كان يعرف أن الحوار معهم في هذا السياق لن يجدي، على عكس أسلاف أمه، أو أم أمه على وجه التحديد. كانوا من اليهود أصحاب الوجاهة، يعيشون منذ أربعة أو خمسة أجيال في المدينة الصغيرة "بودي برادي" على نهر "إلبه"، مدينة لا يسكنها إلا التشيك تقريبًا، عاشوا في ظل قصر فخم مبني داخل قلعة. كان اسمهم وقتها "بورياس" مثل اسم إله رياح الشمال، ولاحقًا "بورجس"، أما في القرن التاسع عشر فأطلقوا على أنفسهم اسم "بورياس" *. كان من بينهم أشخاص مثيرون للدهشة: الجد آدم الذي يسبح في الماء المثلج أهمل محل الأقمشة الذي كان له موقع متميز في ميدان "رينجل بلاتس"، لأن ما مَلَكَه من كتب دينية في الدور الأول من المنزل أثار اهتمامه بشكل أكبر بكثير، يبدو أن ابنه الوحيد ناتان -ذلك "العم المجنون"- قد استمر على هذا العناد بصبغته الدينية. تزوجت "إستر" -الابنة الكبرى لآدم- من مُصنّع وتاجر للأقمشة من مدينة "هومبوليك"، كان متأثرًا بقناعاته الدينية وينتمي إلى أسرة يهودية ميسورة الحال، اختارت لنفسها الاسم المألوف "لوفي" وذلك بعد فرض القوانين اليوسيفينية الجديدة لاختيار الأسماء "١٧٨٧".[3] تولى الزوجان إدارة محل الأقمشة في "بوديبرادي" ورزقا في الخمسينيات بأربعة أبناء: ألفريد وجولي (والدة كافكا) وريتشارد و"يوزيف". توفيت "إستر" مبكرًا وهي في

---

* (بورياس) مكتوبة بحروف مختلفة، مثل (Borias)، أو (Porias).

الثامنة والعشرين من عمرها، وتزوج تاجر الأقمشة "ياكوب" بعدها للمرة الثانية، وصار لجولي بعد مرور عام واحد على وفاة والدتها زوجة أب (كان أمرًا مهينًا أنها حملت اسمها نفسه، "جولي")، سرعان ما رزقت بأخوين أيضًا: "رودولف" الذي ظل قابعًا في منزل الأسرة لعشرات السنين، وكان يُعامل باحتقار على أنه شخص غريب الأطوار، عمل محاسبًا صغيرًا وكان يتكرر على أسماع كافكا أنه نموذج سلبي لا يجب أن يحتذى به، ثم "زيجفريد"، طبيب الأرياف الذي ظل أيضًا بلا زواج أو أبناء.

ما يثير الانتباه في هذا الفرع من العائلة أن الأخوال لم يكونوا "مجانين" فحسب، بل أيضًا من أصحاب النجاحات. لم يكن من بينهم من يكتفي بإدارة ما تركه الأسلاف، لم يشعر أحدهم بالرغبة في حياة تاجر أقمشة في "بوديبرادي". شخص وحيد ظل يعمل في المجال نفسه: الخال "ريتشارد" الذي انتقل سريعًا إلى براغ وافتتح هناك محلًا بسيطًا لبيع أزياء العمل. عمل الأخ الأكبر لجولي "ألفريد" بداية محاسبًا في فيينا، ثم ذهب للعمل كوكيل مصرفي إلى باريس وحصل على جواز السفر الفرنسي، صار كمدير لشركة سكة حديد إسبانية "الخال المدريدي" الذي نال إعجاب الجميع وحصل على العديد من الأوسمة. ابتعد "يوزيف" بشكل أقوى عن أصله الريفي -اليهودي وأخذته حياته المهنية -والتي اتسمت بالمغامرة والطابع الإمبريالي- من قارة لأخرى: شارك في الكارثة الفرنسية في سياق مشروع قناة بنما، كان وكيلًا تجاريًا وكبير المحاسبين في جحيم الكونغو البلجيكية، وكيلًا مصرفيًا في الصين، مدير شركة استثمار في كندا وصاحب أعمال حرة في فرساي.[4] قد تكون اللقاءات بهؤلاء الأقارب نادرة -إذ لا يوجد توثيق واحد لزيارات "يوزيف" في براغ- ولكن ليس محل شك أن التواصل

بالرسائل كان قائمًا وأن الأخبار الآتية من باريس، مدريد أو شنغهاي لم يقرأها آل كافكا بفخر فحسب، بل كانت هذه الرسائل بطوابعها الغريبة توقظ أحلامًا، أحلامًا لا يمكن إنكار تأثيرها في كتابات كافكا.

انشغل بآل لوفي، انعكس اضطرابهم في اضطرابه هو. ارتاب قبل دخوله إلى مرحلة الثانوية العامة في أنه حالة اجتماعية ونفسية خاصة وأن انتماءه إلى المجتمع البشري أمر يجب ثبوته، وشعر على نحو غامض أن لأسلافه دورًا في هذا الأمر. كانت في أسرة الأم العديد من الحالات الاستثنائية الاجتماعية الشبيهة -أو ما ظنها شبيهة به- وذلك بتكرار ملحوظ ومتنوع، إنها حالات استثنائية أدت إلى أزمات وجودية وانطوائية وتعنت ديني، ولكنها عبرت أيضًا محيطات هذا العالم. آل لوفي مختلفون تمامًا، كانوا على تناقض واضح للاستقامة الحيوية التي ميزت العديد من الأقارب القادمين من "فوزيك". حتمًا وجد كافكا نموذجًا لنفسه منح شخصيتَه المبهمةَ -على الأقل فيما يتعلق بالأصل الوراثي- شيئًا له معنى محدد. فهل إذًا من الممكن أن يكون هذا الخلط الخطير بين جينات وراثية متنافرة هو السبب الأوحد في هذه الغربة التي شعر بها في عالمه؟ كتب إلى أبيه وهو في السادسة والثلاثين من عمره: "فلنقارن بيننا، اختصارًا أنا من عائلة لوفي بطعم كافكاوي ولكن لا تحركني الرغبة الكافكاوية في الحياة وعقد الصفقات والاستيلاء، بل تدفعني شوكة لوفية تأثيرها مريب وحذر ويسير عكس الاتجاه، بل يتوقف أحيانًا. أما أنت فكافكاوي عن حق، قوة وصحة وشهية للطعام، صوتك قوي ولديك موهبة خطابية، تعيش في حالة رضا عن الذات وتسيطر على العالم، صبرك وذهنك الحاضر وخبرتك في البشر وبعض من كرمك". ليس لديه أي شك في وجود شخصية كافكاوية مصنوعة من "خامة كافكاوية"*، ومع ذلك يقرر في اندهاش أن كل هذه الصفات المذكورة

ليست موجودة لدى إخوة الأب بالقوة نفسها كما هي متحققة لدى الأب.

هذا المصطلح الذي يستعين به كافكا على نحو بديهي ليشرح ذاته، يُذكر بشكل واضح بخطاب الحركة الطبيعية في مرحلة منعطف القرن الماضي، خطاب دار حول البيئة والشخصية والوراثة، كانت هذه إحدى مجالات الصراع للحداثة في مراحلها الأولى، نتجت عن هذا الخطاب سلسلة من أفكار الإصلاح الاجتماعي، التي كان كافكا على استعداد لاستيعابها في مرحلة المدرسة الثانوية. كان لفكرة انحداره من شخصين ذوي طبيعة مختلفة وكونه نتاجًا لتناقضين، تأثير على كافكا منذ طفولته، وجاء ذلك قبل فترة طويلة من تَشَكُّلِ هذه "الخامة" الموروثة والمفروضة إلى كيان مستقر في سياق صورته الذاتية وأسطورته الخاصة. لقد ولد خليطًا جينيًا وهكذا بدأ كل شيء.

ما نعرفه عن طفولة جولي لوفي ونشأتها الذهنية أقل بكثير مما نعرفه عن زوج المستقبل. تتسم الخطابات الخطية ومذكراتها الحياتية المختصرة بتقليدية فرضتها الظروف المحيطة والاحتياجات العملية، لذلك فإنه من الصعب استنباط شهادات واضحة حول حالتها النفسية في مراحل حياتها المختلفة. من المؤكد أن الرحيل المبكر للأم الذي كان يجب على جولي تحمله وهي في الرابعة من عمرها، وكذلك انتحار جدتها بعدها، كانت علامات فارقة في حياتها: ليس بسبب التجربة المؤلمة وتأثيرها النفسي غير المعروف فحسب، بل بسبب دور الأنثى الراعية الذي فرضت عليها الطبيعة ضرورة توليه مع خمسة من الإخوة. بلا شك أن لهذا الدور مساحة حرية أكبر في حالة وجود الأم البيولوجية. جاءت نقطة التحول هذه في مرحلة مبكرة من حياتها، فلم يكن هناك مجال لأي

تشويش، أو لنموذج بديل أو ما شابه ذلك. اندمجت جولي في دورها تمامًا وانصهرت شخصيتها مع دورها الاجتماعي.

يكتب كافكا في مرة: "تعمل الأم طوال اليوم، تكون مبتهجة أو حزينة بحسب ما تشاء الظروف، دون أن يكون لأحوالها الشخصية أدنى تأثير."[٦] يجب علينا التوقع أن جولي لم تعرف كيفية فصل "أحوالها الشخصية" فصلًا حادًا عن أحوال أسرتها لاتصالهما الوطيد. كانت أسرتها الأصلية، ثم أسرتها التي كونتها هي حياتها بالمعنى الحرفي للكلمة، حتى على مستوى التعايش النفسي، إذ ربما شعرت تجاه المشقة المبذولة بأنها سبب لمعاناتها، ولكنها لم تعتبر نفسها شخصيًا ضحية للظروف. تعلمت مبكرًا وقبل فتيات أخريات أن تنصاع بحزم للمصلحة العامة للأسرة، وأن تدير هذه الأسرة بنفسها ويكون لها دوْر عملي وفاعل، مما له مردود في كثير من الأحوال. مما لا شك فيه أن روح جولي الطيبة والمعتنية وطيبة قلبها التي شهد بها الكثيرون وقتها، لا شك أنها تشكلت في أغلبها من خلال قدرتها على الاعتناء، التي تدربت عليها مبكرًا وصارت جزءاً منها. كان لديها حس مرهف تجاه المعاناة الإنسانية بشكل عام، عرفت كيف تواسي طفلًا مريضًا، وتغذي ابنًا هزيلًا وأن تخفف من رهبة الابنة من أول ولادة وأن تهدئ من روع الزوج الذي انشغل بهموم التجارة. كانت قادرة على منح أكثر من "الرقة المدرعة" صاحبة الطلة "الحديدية"، والتي اتهمها بها كاتب سيرتها الذاتية "إرنست بافل" في وقت لاحق.[٧]

من المؤكد أن قدرتها على الشعور بالآخرين انحصرت فيما تمر به العائلات معًا، وكانت تفشل أمام أي معاناة تنشأ عن صراعات شخصية. فكرة غريبة عليها أن "قرابة الدم" والنية الطيبة ليستا كافيتين

في كل الأحوال، وأن المطلوب أحيانًا الدخول بوعي كامل في صراعات نفسية لنفهمها. كانت تقف عاجزة أمام هموم كهذه ولا تجد لها كلمات تصفها. "يجب أن تختبر من ترتبط به إلى الأبد"، هذا ما قالته لابنها حينما استجمع كل قواه ليخبر والديه أول مرة بقصة حبه المنحصرة في تبادل الخطابات. "ليس لك نصيب"، هذا ما قالته له نوعًا من المواساة حينما لم يجد طلبه للزواج أي إجابة.[8] "أوتلا" التي حاولت في عامي ١٩١٧/١٩١٨ ممارسة حياة الفلاحين وأصرت ولأول مرة على تنفيذ قرار يتعلق بحياتها، على الرغم من مقاومة الأسرة بأكملها، تلقت رسائل الأم بهذه الشعارات نفسها. أرسلت جولي بهمة طرودًا للمساعدة، أما خطاباتها فلم تحتو إلا على النصائح العملية والتنبيهات الأخلاقية والتي لم تظهر أي تفهم ولو بسيط لكفاح "أوتلا" من أجل الاستقلال واحترام الذات. وصف "ماكس برود" جولي على أنها ليست فقط سيدة "هادئة وطيبة"، بل أيضًا "ذكية وحكيمة"، يعد هذا الوصف تنميطًا عاطفيًا يناقض بوضوح ما هو موجود من شهادات خرجت من الأسرة نفسها.[9] الأقرب للحقيقة هي محاولات كافكا لشرح صورة الأمومة في شكلها البدائي مع محاولة فهم الشكل العام للأنوثة في هذا السياق. كتب وهو في الرابعة والثلاثين إلى "ماكس برود": "هذا التبصر والهدوء والترفع والقدرة على فهم الدنيا، إنها الأنثى في عظمتها وقبحها."[10]

لم تمر جولي بأي مواقف تعلمها التخلي قليلًا عن براغماتيتها بوصفها أمًا "راعية". لم تنشأ بعد مدارس ألمانية للأسر اليهودية المقيمة في "بوديبرادي"، وكانت الفرصة الوحيدة المتاحة لتوفير نظام تعليم ألماني للأبناء هو المدرس المنزلي. كان ثمن ذلك هو بقاء المراهقين بشكل

أكبر تحت نفوذ الأسرة، وأن التواصل مع فتيات في العمر نفسه لم يكن متاحًا إلا من خلال شبكة علاقات المجتمع اليهودي. يبدو أن جولي لم تتعرض في سنواتها المبكرة للقاء ما هو غريب عليها اجتماعيًا، ولذلك لم يتكون لديها أي نوع من الفضول لمعرفة ما هو خارج نطاق تجاربها. ظلت إدارة الأزمات في محيطها القريب هي المهارة الأهم لديها، ولم يتغير هذا الحال حتى وقت تخلي الأب وهو في الثانية والخمسين من عمره عن محل الأقمشة، وقراره مغادرة "بودي برادي" للحياة في براغ.

أسباب هذا القرار غير واضحة بالمرة، عللت جولي نفسها هذه الخطوة الغريبة بأن كل إخوانها قد "اغتربوا". حتى إن كان هذا صحيحًا، إلا أنه لا يقدم تبريرًا منطقيًا لقرار "ياكوب لوفي" بالمعاش المبكر. كان الابنان الآخران في واقع الأمر من الزيجة الثانية –في عمر الخامسة عشرة والحادية عشرة– في منزل العائلة. لماذا إذًا الانتقال، وبيع المنزل والمحل؟ ربما بسبب ضغوط من أم الولدين؟ أو لأسباب صحية، أو بسبب أي مواقف عدائية حدثت من جانب جيران تشيكيين؟ كل هذا غير مؤكد، ولكن ما يلفت الانتباه أن عائلة لوفي التي حضرت إلى براغ في منتصف السبعينيات، في التوقيت نفسه الذي جاء فيه هيرمان كافكا إلى براغ بعد انتهاء مدته العسكرية، تركوا قبل الأوان في "بودي برادي" الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يأمل هيرمان بتحضيرات عديدة في تحقيقه، وعاش من أجله في المدينة الكبرى. كان آل لوفي أكثر استقلالًا وتعليمًا وثراءً. إنها تجارة تنمو من خلال صلات القرابة، انطلاقًا من هذا النموذج التجاري اليهودي كان واضحًا أنهم قد وصلوا إلى نقطة النهاية التي تتبعثر عندها الثروة المتراكمة، تمامًا مثل البشر الذين سيرثون هذه الثروة. جسد آل كافكا من "فوزيك" النقيض التام: رغبة الرواد في الغزو والقناعة الساذجة بأن النموذج التجاري الذي

ثبت نجاحه منذ قرون يملك المستقبل. تقاطعت خطوط هيرمان كافكا وجولي لوفي، خط صاعد وخط منحدر، ومن الصفات الجذابة لهيرمان أنه مَثَّلَ الحركة الصاعدة وكان يكسب مالًا أكثر من هؤلاء المنحدرين الذين نجحوا قبله بوقت طويل.

لم تدرك عروسه هذه الديناميكية بشكل كامل، فخر هيرمان، أي محله الذي يملكه، لم يمثل بالنسبة لها أي نوع من الترقي الاجتماعي، بل كان بداية جديدة ستستنفد قوتها. ولكنها انبهرت بالطاقة التي أظهرها في أثناء انتقاله إلى مرحلة الاستقلال. كما أن ظهوره قد أنهى انتظارها الممتد بدون أي عمل في منزل الوالدين على الطريق الدائري. صار لها دور يدعم أفضل قدراتها وتحملت المسؤولية كسيدة أعمال وأم، ومما لا شك فيه أنها لم تر هذه الزيجة على أنها مصيدة وقعت فيها، بل على العكس تمامًا، إنها امتداد لمجال سلطاتها ورفع لقيمتها الشخصية. حظيت بحكم التقاليد السيدات اليهوديات باحترام أكبر داخل عائلاتهن مقارنة بالسيدات المسيحيات، ولكن لم يكن سبب هذا الاحترام أنوثتها -أيًا كان تفسيرها- أو قدرتها البيولوجية، ولكن بسبب الوضع الذي قبلته وحققته كأم وزوجة ومربية. كان عليها أن تثبت حقها في هذا الاحترام، وكانت في عيون كل من حولها تستحقه بالفعل. يبدو أن هيرمان نفسه كان يشعر في حضورها بسلطتها الطبيعية ومكانتها، لأنه على العكس من غلظته المعهودة كان يتعامل مع جولي بتحفظ ملحوظ، لدرجة أنه أحيانًا بدا أقل درجة منها، أو كأنه ينظر إليها كمثل أعلى. ليس هناك دليل واحد على أن سخريته اللاذعة -ناهيك بالإهانات- قد وُجهت في يوم من الأيام إلى زوجته. "كنتَ دومًا محبًا ومراعيًا لها"، هذا ما أكده شاهد يراقب الأحداث عن كثب.[١٢]

لم يكن التعامل مع هذا الزوج سهلًا، على الإطلاق. ولكن ما توقعه هيرمان منها –أي تنظيم الحياة اليومية، والتصرف في الحل بحكمة ودعمه عاطفيًا– كان يتوافق مع قدرات جولي المكتسبة بالتدريب، فاندمجت بشكل تام في أسلوب الحياة هذا دون اضطرارها للتخلي عن أي شيء جوهري بالنسبة لها. تبعيتها للسلطة الذكورية وللمزاج الذكوري لم يكن أمرًا جديدًا عليها، رأتها فكرة مجنونة أن تتمرد على هذه التبعية لصالح فكرة مجردة حول "السيادة" أو "تحقيق الذات" لا تفهم منها شيئًا. تعلمت بدلًا من ذلك الحفاظ "على استقلالها بجمال ورقة في أضيق الحدود"[١٣]، كما أنها لم تتفهم أيضًا أن هذا المبدأ الذي يؤثر السلام قد يكون معيبًا إن أخفق في مرة من المرات.

لم يكن هناك بديل، وجدت دورها في الحياة وقامت به بالتمام والكمال. اعتبرت وهي على أعتاب الزواج الخوف من المجهول الذي يعتريها أحيانًا أمرًا طبيعيًا، مع أنه فاجأها للحظات. كتبت إلى عريسها قبل أسابيع قليلة من الزفاف أن البكاء يتملكها كثيرًا، ولكن يبدو أن السبب في ذلك هو كثرة تفكيره فيها.

صفقات خاسرة

"لا يرقى الجديد أبدًا إلى مستوى الكمال."

روبرت فالزر، البرلينية الصغيرة

زقاق "نيكلاس جاسه" رقم ٩، "فينسلس بلاتس" رقم ٥٦، زقاق "نيكلاس جاسه" رقم ١٤، زقاق "سيلتنر جاسه" رقم ١٤، "كلاينر رينج" رقم ٢- تغير العنوان أربع مرات في أربع سنوات، تكرر هذا الحال مع المحل أيضًا الذي بدأ تدريجيًا في النجاح التجاري وصار في حاجة إلى التوسع: الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة رقم ١٢، زقاق "شتوكهاوس جاسه" رقم ٤، وزقاق "سيلتنر جاسه" رقم ٣، تغير المقر مرتين قبل دخول ابن أصحاب المحل المدرسة. كانت حياة لا تعرف الهدوء، تحركها الرغبة في "تحسين" الأوضاع المادية والاجتماعية، ولكنها كانت محكومة بالأفق المحدود للمكان الذي لم يخرج عن إطار المدينة الصغيرة. إنها دقائق معدودة سيرًا على الأقدام بين العنوان والآخر وذلك بفضل عربات بعجلتين لنقل الأغراض كانت متاحة في كل ميدان عام. كانت إجمالًا مسافات بسيطة، وإن حددناها في خريطة لمدينة براغ، فلن تعكس التحركات العمرانية للطبقة الوسطى الباحثة عن أحياء أفضل، بل هي أشبه بتحركات مضطربة في دائرة واحدة. لأنه باستثناء شقة ساحة "فنسلسبلاتس" -حيث قضوا بها شهورًا قليلة- نجد أن جميع عناوين

منازل آل كافكا -بما فيها العناوين اللاحقة- تقع في دائرة لا يزيد قطرها عن ثلاثمائة متر. يمثل الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة محور هذه التحركات البندولية، هذا المكان المميز اجتماعيًا، والذي وصلت إليه الأسرة المكافحة في يوم من الأيام، سواء على الصعيد الشخصي أو التجاري.

ترسخت ضغوط هذه التحركات اللاهثة في حياة الأسرة الخاصة، قبلهم جميعًا الطفل الذي تعرض لهذه الضغوط دون فهم. حزم الحقائب وإعادة تفريغها، الوداع، التأقلم ثم الرحيل مجددًا، شخصيات تختفي وتظهر شخصيات أخرى، أصوات مختلفة وغرف بحوائط مختلفة وطرق غير مألوفة. صحيح أن الجديد كان دائمًا أجمل من القديم، بالتأكيد شعر الصغير ذو العامين أن الحياة في منزل ساحة "فنسلسبلاتس" أكثر راحة من الحياة في المنزل المتهالك الواقع على طرف الغيتو والذي ولد فيه، ولكن الاستقرار والاطمئنان إلى هذا العالم قد يكونان في هذا العمر أكثر أهمية من الحوائط الجافة والغرف المضيئة وصنابير المياه السليمة. بما أن الحياة في حالة حراك ودوار دائم، فالطفل في حاجة أكثر إلحاحًا إلى صوت مألوف يهدئه ووجه مبتسم ينظر إليه باستمرار، لينسى المخاطر وتشويش العالم الخارجي.

ولكن هذا الوجه لم يكن متاحًا لدى آل كافكا، لأن الأم كانت غائبة. حتى إن كانت رسائل الأسرة إلى فرانز مفادها أنه هو محور هذه الأسرة، وحتى إن كانت مشاعر حقيقية قد دعمت هذه الرسائل في السنوات الأولى، حبًا وأملًا في المولود الجديد، إلا أن الواقع اليومي كان مختلفًا، علاقة واضحة في عدم اتزانها، بل تناقض مؤلم بين عالمه الخاص الذي انحصر في حيز المعيشة الخاص بالأسرة من ناحية وعالم والديه من ناحية أخرى. لأن المحل الذي كانا يتحدثان عنه باستمرار -ويختفيان داخله باستمرار أيضًا- كان قريبًا موقعًا ولكن بعيدًا جدًا على المستوى

النفسي. موقع خارجي عرفه بنفسه مبكرًا، ولكن بوصفه ضيفًا بين الحين والآخر، يحمله الأب الفخور للحظات على ذراعه، ليداعبه أشخاص جدد وغرباء عليه. لم يفهم ما يجعل أقرب الناس إليه يتعلقون بهذا المكان. ولكن كان عليه تقبل الأمر وكان هذا في الأغلب هو أول درس قاس في حياته. إن هذا الموقع الخارجي، هذا المحل الأبدي، لم يلقِ بظلاله على حياته فحسب، بل تحكم فيها بالمعنى الفعلي للكلمة.

كان محل خردوات هيرمان كافكا مفتوحًا من الساعة الثامنة صباحًا وحتى الساعة الثامنة مساءً، ستة أيام في الأسبوع، أي صباح الأحد أيضًا. يبدأ العاملون يومهم في السابعة صباحًا، لذا كان على صاحب الشأن أن يتحرك مبكرًا في الصباح –أي قبل الشروق في الشتاء– لفتح المحل ولتوزيع المهام على الموظفين الذين ينتظرونه، ولتدفئة المحل إن كان ذلك مطلوبًا. تظل الأم لفترة أطول في المنزل لأن من ضمن مهامها تنظيم شؤون المنزل وتسليم رعاية الطفل إلى الخدم. بعد مناقشة مهام النظافة والغسيل والمشتريات من أجل وجبة الغداء، تغادر لبضع ساعات. تتجمع الأسرة على مائدة الغداء لتناول الطعام الذي أعدته الطاهية في الميعاد المحدد. لم يكن فرانز يرى والديه لأكثر من نصف ساعة. لأن التفكير في المحل المتروك "بلا رقابة" لم يسمح بالاسترخاء، يتناولان الطعام على عجالة وبالتأكيد كانا يستغلان استراحة الظهر لمناقشة بعض أمور العمل بعيدًا عن أسماع الموظفين. يرتاح هيرمان لدقائق، ثم يهرع عائدًا في أسرع وقت ممكن، وتقضي الأم فترة ما بعد الظهر غالبًا في مكانها المعتاد عند خزينة المحل.

لم يكن شكل الحياة هذا ممكنًا دون الاستعانة بخدم رخيصي الأجر، لأن أعمال المنزل مع نهاية القرن التاسع لم تكن بعد بالشكل البسيط،

التي يمكن إنجازها في وقت وجيز. كانت مجموعة من الأنشطة المجهدة بدنيًا والمزعجة والمستنفدة للوقت أيضًا، وتستغرق اليوم بأكمله. يتكرر حمل الفحم والرماد والخشب والمياه يوميًا، كما أن كتل الفحم الكبيرة كان يجب تقطيعها في القبو. يخرج من الأفران كم هائل من الهباب، في الصيف أيضًا، لأن المياه المطلوبة للنظافة الشخصية ولتنظيف المفروشات ونظافة السكن، كان يجب تسخينها في أوان ضخمة. أما الغسيل المطلوب غليه بتفاصيل معقدة فكان يذهب إلى المغسلة العامة. السجاد الثقيل الذي كان يعد رمزًا لا غنى عنه للحياة البرجوازية، كان يُنقل إلى الفناء بغرض التنفيض، وتتبعه بعد ذلك المراتب. حتى المشتريات كانت أكثر تعقيدًا عن اليوم، إذ لم تتوفر تقنيات للتبريد، ولذلك كان المطلوب شراء المواد الغذائية طازجة يوميًا، من المحال والأسواق المختلفة.

قبل العديد من السيدات في براغ بالسكن والطعام مقابل تقديم كل هذه الخدمات. لم تتوقف حركات النزوح إلى المدن، وجد الرجال في المناطق الصناعية السريعة الانتشار في ضواحي براغ فرصًا للتوظيف، بينما لم تجد النساء شيئًا سوى هذه الخدمات المنزلية، إذ كانت هذه هي الأنشطة الوحيدة التي يملكن لها المهارات المطلوبة. هذه العمالة الرخيصة كانت في متناول يد الحرفيين وصغار التجار، عائلات مثل عائلة كافكا التي لم تكن قد وصلت إلى مستوى نخب الطبقة المتوسطة بعد. وجود خادمة للمهام الصعبة وطاهية ومرضعة أو جليسة أطفال كان أمرًا أساسيًا، تشيكيات معتنقات للكاثوليكية يعرفن بعض الكلمات باللغة الألمانية، ولكن بالطبع ليس لديهن أي فكرة عن التربية الدينية أو إرساء طقوس للحياة اليومية. لم يكن لهن أي وضع قانوني يحميهن، إذ تحددت ساعات العمل بحسب رغبات "الأسياد"، وبما أن أسماءهن كانت مسجلة بالآلاف في مكاتب العمالة والبديل سهل، لم يكن هناك أي

غضاضة في طردهن ما دام الأداء ليس على المستوى المطلوب. كثيرًا ما كان آل كافكا يقومون بذلك، ولا يعد ذلك مفاجأة في سياق الأسلوب العدواني والمهين الذي اتبعه هيرمان مع كل موظفيه. لم يسمح بالاعتراض وأي إقالة في ساعة غضب لم تتمكن المتزنة جولي في إقناعه بالتراجع عنها.

لم يجلب هذا التذبذب المستمر إزعاجًا وقلة مزاج فحسب، ولكنه أهدى فرانز الصغير سلسلة من تجارب الفراق والتي زرعت داخله حالة من انعدام الثقة، إنه انعدام الثقة تجاه استمرارية العلاقات الإنسانية وتجاه عالم يختفي فيه للأبد كل وجه اعتاده وأحبه. إنه عالم البدائل المؤقتة، يقف في محوره وعي استيقظ لتوه، لينظر حوله ويكتشف أنه لن يجد السند إلا في نفسه. يلخص في جفاف هذه السنوات الأولى: "عشت لفترات طويلة في وحدة وعانيت مع المرضعات والجليسات المتقدمات في العمر والطاهيات العدوانيات ومديرات المنزل الحزينات، لأن والديّ كانا باستمرار في المحل."[10] لم يفكر الوالدان -حتى لاحقًا في فترات الهدوء- في قدرة هذا الطفل على الحياة وحده وسط كل هؤلاء البشر الكثيرين، أما بالنسبة لكافكا فكانت تجربة عميقة الأثر.

لم يتوقف هذا الروتين اليومي لرعاية كافكا إلا في أوقات حمل جولي التي أجبرتها لشهر أو اثنين على الابتعاد عن المحل. كان فرانز يرى أمه نهارًا، لوقت محدود -وكما سيتضح لاحقًا- بثمن باهظ. لأن المسافات تتلاشى فيها كل مرة بينه وبين الأم، وتنضج علاقة ملموسة يستطيع أن يعتمد عليها بدلًا من الوجود الظاهري الذي اعتاده، يظهر في الأفق كائن منافس يجذب إليه كل انتباه الأسرة ويكون سببًا لمشاعر الغيرة المؤلمة. لا نجد في تعليقات كافكا اللاحقة أي أثر يشير إلى كره مقصود أو أمنيات

بالموت تجاه الإخوة، كما لا نعرف شيئًا عن مشاعره وهو في الثانية من عمره -سواء إن كانت نفورًا أم فضولًا- تجاه الأخ الأصغر جورج الذي وصفته الأم بأنه "طفل جميل وقوي". فرانز الذي بدأ يدرك شيئًا فشيئًا وحدته، كان بالتأكيد يراه وضعًا مبهمًا، لأنه فتح له مجالًا للمديح والاهتمام الحقيقي من خلال رأفته بالمولود، ولكن هذا المولود ذاته كان ينتزع بصوت صراخه مكان فرانز وسط الأسرة التي كانت أجواؤها العاطفية بطبيعتها ضعيفة. ظل هذا الحال إلى أن توقف هذا الصراخ فجأة واختفى. لم يعش جورج كافكا الجميل والقوي أكثر من خمسة عشر شهرًا، مات مثل كثير من أقرانه بالحصبة. تبعه أخوه هاينريش الذي حملت فيه أمه بعد بضعة أيام من جنازة جورج. كان حاله أسوأ، لأنه لم يعش سوى سبعة أشهر، إذ جلب له التهاب السحايا الألم ثم الموت. لم يكن فرانز قد أتم عامه الخامس حينما استيقظ صباح الحادي عشر من أبريل لعام ١٨٨٨ ليصير مرة أخرى الطفل الوحيد لآل كافكا، وكان الهدوء يعم المنزل كما لم يكن منذ زمن طويل.

قد يظهر ويختفي الإخوة أيضًا، حالهم كحال الخدم والجيران والأقارب والأطباء. إنها من التجارب الوجودية الأساسية لكافكا التي لم يع تأثيرها العميق على نحو كامل: تأكد لديه مرتين -على نحو مؤلم وفي عمر صغير- صحة شعوره بعدم الثقة في الثبات الدنيوي. لم يكن قد استوعب فكرة الموت ككارثة بعد، ولكنه صنفه ضمن سلسلة تجارب الفراق الموجعة التي ثبتت أنها بلا رجعة. اختفى فجأة كائن كان يجذب اهتمام كل من حوله، تتطاير صورته مثل حلم، ثم تعود الحياة اليومية إلى سابق عهدها وتدفن الماضي الذي كان منذ لحظات حاضرًا محسوسًا. من المؤكد أن موت الأخوين قد ترك بشكل استثنائي أثرًا في الآخرين من حوله. اختفى التوبيخ والشجار لبضعة أيام، ويحتمل أن فرانز لم ير بكاء أمه فحسب، بل أيضًا

بكاء أبيه، الذي لا يتأثر عادة. ولكن سرعان ما عاد الوالدان إلى أدوارهما المعتادة، وسريعًا ما تتلاشى هذه الرقة غير المتوقعة، شعور نادر وثمين ظهر تحت وطأة الألم الجارف للحظة واحدة.

لم تبقَ إلا كآبة جولي الواضحة، وشعور بالذنب يعذبها. كانت على يقين بقدرة رعاية الأم على إنقاذ الطفلين، ما كان عليها تكليف الآخرين بمهام تخص الأهم في الحياة، وكان يجب عليها البقاء في المنزل وتولي أمر الصغار بنفسها. لم يحرمها من ذلك شخص سوى زوجها، الذي أرادها حوله لأغلبية ساعات النهار، ورأى أن عملها في المحل أمر لا يمكن الاستغناء عنه.[٢] كان صراع يدور حول قضية الولاء وأحدث صدعًا في أساس زيجة لم تستقر بعد، كما أنه دليل مهم ومذهل على أولويات الاهتمامات التي شكلت هذه الزيجة. بصرف النظر عن أن وجود الأم الفعلي (أو لبنها) كان سينقذ الرضيعين أم لا: لم ينجح موت ابن في دفع هيرمان كافكا إلى تفضيل رعاية الطفل القادم على حساب المحل. وهذه الكارثة الأولى لم تدفع أيضًا بالأم -من أجل حماية أبنائها- إلى الهجوم على أولوية المحل والمخاطرة بصراع مفتوح بينها وبينه.

لماذا لا؟ لم تكن جولي كافكا مجرد "ربة منزل" عادية (كما كانت بعض إعلانات الزواج تطلب في بعض الأحوال)، تأثيرها كان عظيمًا على القرارات الاجتماعية والتجارية الخاصة بالأسرة. ولكن موقع اتخاذ هذه القرارات كان بعيدًا عنها، داخل خبايا مخ رب الأسرة المبهمة، التشكيك فيها -حتى إن كانت قرارات خاطئة على نحو واضح-كان سيترتب عليه إبطال القواعد المهمة التي قامت عليها زيجة آل كافكا. تحولت جولي كافكا مع مرور السنوات إلى خبيرة في فض وإبعاد المنازعات، في صنع السلام والتوسط والتهدئة - لم تكن قدراتها هذه

ذات تأثير عميق على جو العائلة فحسب، بل أيضًا على أقدار أبنائها الذين بقوا على قيد الحياة. ظلت إذًا بعدم مشاركتها في سلطة القرار الفعلية في وضع اجتماعي تابع. امتلاك الرجال للسلطة فضلًا عن تأثير النساء ومسؤوليتهن لم يكن مسألة قناعات، أو تربية أو أخلاق، بل كان واقعًا اجتماعيًا وثقافيًا وقانونيًا، وله تأثير عميق لدرجة أنه صار من معطيات تفكير وحديث الجنسين التي لا مفر منها. أيًا كان أسلوب توزيع الحمل: الرجال يعملون والسيدات يشاركهن العمل، هذا هو النظام. ربما تقبلت جولي كافكا كونها تابعة وهذه التبعية هي السبب في "ابتسامتها الحزينة" التي لاحظها عليها "هوجو برجمان"، ولكنها فكرة لا تمت لحقيقة حياتها بأي صلة.[٣] حظيت مصطلحات مثل الحياة المشتركة والشعور بالآخرين والتعاون باحترام اجتماعي، حتى إن لم يتسم هذا التآلف بالنقاء المطلوب في كل الأحوال، وهذا ما أظهرته تجربة موت الطفلين. كان عرفان الآخرين كفيلًا بتجاوز التضحيات وإهمال النفس. لم يشاركها زوجها هذه الهموم. كتبت جولي في مذكراتها ودون أي سخرية: "لقد صار رجلًا محترمًا بفضل كفاحنا نحن الاثنين."

استغرق نيل هذا الاحترام الكثير من الوقت، لأن ثمنه لم يكن الكفاح والجد فحسب. بل كان يجب مواجهة الحاسدين. قدم أفراد بلاغات في هيرمان كافكا للإيقاع به أو لإدخاله بسبب يهوديته في مشاكل عدة. اتُّهم مرارًا "بتداول" نقود مزورة وقيل ذات مرة إنه يبيع بضاعة مسروقة، وكان ذلك هراءً بالطبع. كان للوشاة المسيحيين ومخبري الشرطة المللولين تركيز غاية في الحدة على التزامه بعطلة الأحد، يكون الإبلاغ مطلوبًا في حالة ضبط تاجر الخردوات في ساعات نهار الأحد الممنوعة وهو يهرب الزبائن عبر ممر المنزل إلى داخل المحل. حتى استخدام عربة اليد بدون فرامل كان أمرًا يتطلب دفع الغرامة، وصل

الأمر إلى أن مسامير بارزة في منضدة عرض في الشارع يوم الأحد كانت كفيلة بدفع مسيحي طيب إلى إبلاغ "نقطة الشرطةالمحمودة" من خلال بطاقة بريدية مجهولة، إذ كان واردًا أن تقطع هذه المسامير ملابس الذاهبين إلى الكنيسة، مما كان يمثل إزعاجًا للأمن العام.

إنها الاحتكاكات المعتادة في عالم التجارة وخاصة اليهودي، ومن المفترض أن يكون جاهزًا لها، وسمع المئات من هذه القصص من أقاربه قبل تأسيس تجارته بوقت طويل. ولكن لم يكن هيرمان كافكا الشخص الذي يأخذ أمورًا كهذه بشكل غير شخصي. كان يعتبر صراع المصالح الاجتماعية والتناقضات البشرية الشيء نفسه، ليس كل شخص له مصالح مختلفة عنه مصدر إزعاج اجتماعي فحسب، بل هو ند شخصي له أيضًا. اعتبره أمرًا منطقيًا أن يصنف موظفيه على أنهم "أعداء مدفوعو الأجر" مع أنهم لم يملكوا إلا أن يكونوا مصدرًا للصرف، تعامل معهم بحسب أهوائه، على الرغم من خلافه مع زوجته على هذا الأمر، إذ فضلت أسلوبًا أكثر إنسانية في التعامل مع الموظفين. مجتمع يُعتبر في جوهره سباقًا سيئ التنظيم ولا يعرف الرحمة—يحاول جميع أفراده المنطلقين من نقاط بداية غير متكافئة "الصعود" بأقصى سرعة، تاركين خلفهم أكبر عدد ممكن من المنافسين – تلك هي صورة هيرمان كافكا عن العالم بعيدًا عن الأسرة، صار في هذا المجتمع كل شخص عاملًا معرقلًا في طريق النجاح، والموظفون المطالبون بأجر عادل صُنفوا على أنهم من ضمن هؤلاء المعرقلين مع سبق الإصرار. صار حتى من يتعرض منهم لحادث دون ذنب عبئًا على آل كافكا بسبب مطالبه الأدبية والمالية، وسرعان ما يتحول إلى عقبة وخصم. حينما أصيب أحد المساعدين بالمحل بمرض في الرئة جعله غير قادر على العمل ولكن له

الحق في الأجر لبضعة أسابيع، كان رد فعل المدير كأنه قد تعرض للسرقة. تفوه مرارًا بعبارات مثل: "أريد هذا الكلب المريض ميتًا"[4]"

تؤكد الكثير من الشواهد على أن البيئة الاجتماعية القاسية التي يتعرض لها كافكا في رواياته الثلاث ويظهر فيها التضامن المنزه عن المصلحة الخاصة كأنه حلم، تؤكد هذه الشواهد على أنه لا يتناول هنا خبراته الحقيقية وتأملاته فحسب، بل أيضًا شخصية الأب المعادية للمجتمع. كان هيرمان كافكا يبث في أبنائه سوء الظن والاستعداد للخوض في الصراعات والنفعية الحادة -كصفات حميدة- ليؤهلهم للحياة في مجتمع الذئاب. لا نسعى إلى الدخول في علاقات جديدة وما يرتبط بها من مسؤوليات، إلا لما لها من نفع، هذا ما ظل يلقنه لهم حتى مع تقدم أعمارهم. لم يدرك كافكا إلا في آخر أيامه أنه لن يفهم هذا الأب وهذه الرؤية للعالم إلا إذا اعتبرها ظاهرة اجتماعية. ولكن في مرحلة الطفولة والشباب ظل تحت رحمة مشاعر عداء معتادة، وصفها في خطاب إلى الوالد باعتبارها ظاهرة طبيعية وخصلة في شخصيته لا يمكن استيعابها: "اذكر لي اسم شخص واحد كان له أهمية في طفولتي، ولم تدمره بنقدك الجبار مرة واحدة على الأقل." "كنت قادرًا مثلًا على توبيخ التشيك، ثم الألمان، ثم اليهود، إجمالًا ودون أي تمييز، فلا يبقى في النهاية شخص سواك. صرت بالنسبة لي لغزًا يسكن جميع الطغاة، يستمدون حقوقهم من شخصهم وليس من التفكير المنطقي. هكذا بدت لي الأمور."[5]"

كان كافكا يعرف أن لغز هذا التسلط المشروع كان جزءًا من تجربة جيل بأكمله، إنها تجربة أبناء التجار الناجحين الذين لم يؤمنوا بميثاق أخلاقي آخر سوى الذي يحكمه قانون الصراع الاقتصادي، المتكيف مع

أوضاع الطوارئ المزمنة: "كل مع نفسه وكلهم ضدي" تغلغل هذا الميثاق في حياتهم وتحكم فيها، أكثر من أي منظومة قيم منافسة، حتى إن كانت مدعومة دينيًا وجزءاً من الهوية اليهودية. تقبل اليهود –حتى المتأقلمون منهم– الوصايا الدينية والأخلاقية بشكل كبير، وكانوا يلتزمون بها قدر المتاح، ولكنها لم تحدد معالم حياتهم المهنية اليومية، بل اقتصر دورها على شكل رمزي، إذ أتاحت إطارًا لأفق الحياة إجمالًا وأشبعت الاحتياج إلى معنى للحياة في بعض الأحيان. ولكن ظل التأثير المستدام لأخلاقيات الذئب البرجوازي والتي ترسخت في لفتات وعادات وكلمات وأفكار وخيالات، وعششت في الأبدان وسببت أمراضًا، مثل هيرمان كافكا الذي عانى طوال حياته من اضطرابات في القلب. كانت أخلاقيات مرهقة للغاية، جلبت معها ضغوطًا لا تتوقف، ولكنها مع ذلك –وربما لهذا السبب تحديدًا– كانت تؤخذ بمنتهى الجدية.

يتذكر كافكا حديث الأسرة على مائدة الطعام عن "اليوم الأخير"، أي اليوم الأخير للعمل في الشهر، الذي كان يطلق عليه في عالم التجارة "ألتيمو". كان هذا هو ميعاد دفع إيجارات الشقة والمحل والمخزن، وكذلك أجور العاملين في المحل والمنزل، فضلًا عن مبالغ المشتريات المنتظمة. إنه يوم فتح الخزنة على مصراعيها، وينتهي مساؤه بأرقام واضحة للرصيد المتبقي. عرف كافكا بالفطرة وهو طفل –قبل أن يفهم التقويم بفترة طويلة– أن الوالدين لا ينتظران هذا اليوم بقلق فحسب، بل أيضًا بخوف واضح، وكأنهما مقبلان على امتحان، لأن بمفهومهما هما لم يكن يوم "ألتيمو" ليمثل كشف حساب اقتصاديًا فقط، بل أيضًا أخلاقيًا واجتماعيًا. حدد "اليوم الأخير" إن كانوا قد أصابوا أو أخطؤوا، إن كانوا نجحوا في سباق الحياة. إنه يوم الحقيقة، يوم الحساب بالمعنى الأشمل، الذي ظل حتى بعد مراحل الاستقرار يجعل آل كافكا يتصببون عرقًا.[٦]

كان لديهم قناعة أنه لا توجد وسيلة فعالة لمحاربة الخوف إلا التوسع في تجارة المحل وإعادة استثمار المكاسب على نحو مستمر. لم تمر فرصة دون استغلالها للتوسع في مساحة المحل أو نقله إلى أماكن أفضل من المنظور الاستراتيجي، توسعوا أيضًا في العرض: أقمشة كتان وملابس داخلية ودانتيل وأربطة وجوارب والمآزر والمناديل والإبزيمات والعلب الصغيرة والمراوح والأزرار والياقات والقفازات المصنوعة من الفرو والأحذية من قماش اللباد، فضلًا عن البلي والإبر وسكاكين الجيب وفرش الأسنان. كان لدى آل كافكا كل شيء تقريبًا بعد مرور سنوات قليلة. تولد لدى ابنهما لاحقًا شعور شديد بالنفور من الأشياء التافهة الجامعة للأتربة، كان هذا بلا شك تأثيرًا باقيًا لتجارب قديمة مع تراكمات فوضوية. قام "فرانتيشك باشيك" الذي تدرب في خريف عام ١٨٩٢ وهو في عمر الرابعة عشرة في محل خردوات آل كافكا بوصف هذا الفيض الصعب حصره من البضائع –العلب وورق اللف وأشرطة الربط وبطاقات التوصيف– وذلك على نحو معبر في مذكراته: لم تكن فقط حوائط غرف المحل مليئة بالأرفف من الأرض إلى السقف، ولكن أيضًا الغرف الخلفية وسرداب ضخم، فضلًا عن مخزن مؤجر في زقاق آخر. كانت مملكة من المتاهات حكمها هيرمان وكان قادرًا -على عكس توقع فرانز الصغير- بالتحرك داخلها بمنتهى الثقة.

حددت لغتان معالم هذه المملكة، فضلًا عن عدد أكبر من الهويات. صحيح أن أغلبية الموظفين كانوا يهودًا ألمانًا، فوالد جولي –تاجر الأقمشة صاحب الخبرة– كان يساعد يوميًا لبضع ساعات وحضر أحيانًا الأقرباء للعمل بائعات ومساعدين ومتدربين. ولكن مراعاة الزبائن –وهم في أغلبهم من المسيحيين التشيك- كان مطلوبًا، لأنهم في الأغلب لن يشعروا بالراحة في محل يهودي بالمعنى المباشر، كان من الضروري أن

يكون هناك سبيل للتفاهم بطلاقة مع هؤلاء. لم يكن هيرمان كافكا بحاجة إلى مساعد يهودي في التجارة، ولكن إلى متدرب مثل "باشيك" لم يكن يتكلم سوى التشيكية. كان الوضع مشابهًا مع أهم وظيفة وأعلاها راتبًا، ألا وهي وظيفة المحاسب، كان الفيصل حسن الخط والكفاءة المهنية واللغوية، بينما لم يلعب الدين أي دور. لذلك كان تولي المنصب متاحًا أمام يهودي ألماني اسمه "جانز"، وكذلك لمن خلفه وهو مسيحي تشيكي اسمه "دلاهوي". كان التكيف اللغوي والواجهة المحايدة إجراءات دفاعية أثبتت نجاحها وعرف آل كافكا كيفية الاستعانة بها للحياة بشكل طبيعي في المحيط التشيكي – حتى إن عرف الجميع أن تجارة الخردوات اقتصرت في بوهيميا على اليهود دون غيرهم. سعد هيرمان كافكا بأن لاسم عائلته معنى تشيكيًا وصار بذلك غراب الزرع والذي يطلق عليه "كافكا" يمثل رمزًا تجاريًا للمحل.

نضج هيرمان كافكا بفضل كفاح وحرص ونشاط وطاعة زوجته ليصير "رجلًا محترمًا" قادرًا على الاندماج. جاء الأمر متأخرًا ولكنه حصل في عام ١٩٠١ على شهادة تمنحه حق البقاء في براغ.[8] أما الاحترام الاجتماعي فلم يكن مضمونًا على الإطلاق: تصرف خاطئ وحيد وينهار كل شيء، عرف آل كافكا في سنوات التوسع في أكثر من موقف أن مع الحرص والعمل الجاد يجب أن يمتنوا لكل شهر يمر على خير.

يرتكب التجار أحيانًا أخطاء وهذا ما حدث لهيرمان كافكا في بداية عام ١٨٩٤ مرتين. قبل بورقة عملة قيمتها ألف غيلدر قديمة لا يعرف أصلها، اتضح فيما بعد أنها مزورة. كان من المفترض أن يسلم هذه الورقة إلى أقرب قسم شرطة، كان سيقدم له الشكر ويتعرض لمساءلة

مطولة دون الحصول على أي تعويض عن هذه الخسارة. ما العمل إذًا؟ قرر تاجر الخردوات اللجوء إلى جاره تاجر الكتب اليهودي "صمويل باشيليس" وذهب إليه في محله، مما يحسب عليه خطأ ثانيًا كبيرًا. رأى "باشيليس" أنه لا يمكن التخلص من هذه الورقة الكبيرة إلا في البنوك أو مكتب البريد، وإن كان مكتب البريد أكثر خطورة لأنهم يمعنون النظر في أمور كهذه. ولكن حساب هيرمان كافكا التجاري كان في مكتب البريد ولذلك قرر المخاطرة، لأنه يستطيع وقت الأزمة ادعاء جهله بالمسألة. قبلت الورقة بالفعل دون أي تعقيدات.

لم تدم سعادة آل كافكا طويلًا، إذ طُلِبَ المدير بعد وقت قليل للمساءلة في قسم الشرطة، لأن شخصًا يدعى "فريدمان" يعمل مساعدًا في محل كتب الجار كان قد سمع المشاورات وقدم بلاغًا في السيد كافكا. إنها مصيبة هددته بالانهيار الاجتماعي. لأن تداول نقود مزورة عن سابق معرفة يعتبر احتيالًا، حتى إن لم تثبت هذه المعرفة، كما أن الاحتيال بأموال كبيرة كهذه كان يترتب عليه عادة عقوبة الحبس. لم يبقَ لهيرمان كافكا ملاذ إلا الاستناد إلى الهيراركية الاجتماعية: شهادة اثنين من التجار دخلا في حوار عام وبريء ضد شهادة عامل في محل أساء الفهم. وإن كان موظف الشباك في مكتب البريد لم يكتشف بكل خبرته التزوير، فكيف لتاجر خردوات أن يرتاب في النقود؟

تعلقت المسألة بمكسب أو خسارة كل شيء، ونجح هيرمان كافكا بالفعل في الخروج من هذه الورطة وتفادي فتح قضية ضده. هكذا كان حال عالم التجارة، يوم لك ويوم عليك، كل واحد مع نفسه وكلهم ضدنا.

خواطر حول "فرويد"

"فلتعلم أن الأحداث الواقعة ليس لها نهاية."
ليو بيروتس، ابطال الآخرة

أفكر كثيرًا وأطلق –دون تدخل- لأفكاري العنان، ثم أتوصل، مع تقليب الأمور على جميع الجوانب، إلى أن تربيتي قد ألحقت بي في بعض الأحيان أضرارًا جسيمة. تلقي هذه المعرفة باللوم على عدد لا بأس به من الأشخاص: الوالدين، والأقرباء، وطاهية محددة بعينها، والمدرسين، وبعض الكُتاب والعائلات الصديقة، ومعلم السباحة، ومعارف في فترات الصيف، وبعض السيدات في حديقة المدينة لا يُتوقَع أن يكون لهن تأثير، مصفف شعر، ومتسولة، وموظف ضرائب، وطبيب الأسرة، وآخرين كثر، وسوف يكون عددهم أكبر إن حاولت حصر أسمائهم جميعًا. العدد باختصار كبير إلى درجة يجب عليَّ معها توخي الحذر؛ حتى لا أذكر اسمًا وسط هذه الجموع مرتين.

باستثناء خطاب إلى الوالد –بتركيزه الواعي على ذكريات الماضي- لم يترك كافكا نصًا مكتملًا نستطيع أن نصفه بأنه نص سيرة ذاتية بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت هناك إعلانات عن نوايا القيام بكتابة سيرة ذاتية،

فضلًا عن بعض المحاولات، فحاول مثلًا وهو في السابعة والعشرين من عمره -في مرحلة لم يدرك فيها بعد قدراته الإبداعية- التعامل أدبيًا مع عواقب تربيته، التي كانت لها أضرار بعيدة المدى وغير قابلة للإصلاح في الأغلب. ظل مصرًا لفترة، ثم فقد اهتمامه بالمسألة، بدأ وتوقف سبع مرات، فوصلت أطول محاولة إلى خمس صفحات، في حين لم تتجاوز المحاولة الأخيرة سطر العنوان: ساكن الأطلال الصغير. لا تقدم هذه الأوراق القليلة أية معلومات عن سيرته الذاتية. إن بعض ذكريات الطفولة التي دونها كافكا في سياق آخر، تثبت أن قائمة المسؤولين تشير إلى شخصيات حقيقية. يبدو أن كافكا كان يسعد بإضافة أسماء وأسماء إلى هذه القائمة؛ لأنه لم يجد أية صعوبة في العثور على مذنبين آخرين، دون ذكر أي تفاصيل عن التهم الموجهة إليهم: مفتش المدرسة، ومراقب التذاكر، وبائع الورق، وحارس الحديقة، "حفنة من جليسات الأطفال"، و"بعض الفتيات من مدرسة الرقص"، وحتى "بعض المارة السائرين ببطء".[1]

لعبة غير ملزمة لعبها كافكا، ولكنها لم ترضه طويلًا، إذ تغيرت نبرته بعد مرور عام واحد: "أتمنى تحقيق رغبتي في كتابة سيرتي الذاتية في اللحظة التي يفرج فيها المكتب عني. ولكن ستكون كتابة السيرة الذاتية لحظتها مصدرًا لسعادة كبيرة؛ لأنها سهلة مثل كتابة الأحلام، سيترتب عليها أيضًا مجال كبير ومفتوح أمام عقل الآخرين ومشاعرهم، وله تأثير في نفسي."[2] ليس الحساب إذًا، بل التفاهم وفهم الذات. ولكن هذا المشروع لم ير النور، فقد حوّل كافكا خواطره إلى مذكراته اليومية، ثم فقد إيمانه تدريجيًا بأن كتابة القصص الحميمية قد توقظ لدى الآخرين "التفهم والمشاعر". كتب في عام ١٩٢٠ إلى "ميلانا يسانسكا": "لا يمكن أن أجعلك -أنت أو غيرك- تفهمين ما يدور

بداخلي، كيف يمكنني ذلك وأنا غير قادر على الشرح لنفسي."[3] لم يستطع كافكا في أواخر عمره تصور كتابة السيرة الذاتية إلا بوصفها إعادة بناء جذرية تبدأ عند نقطة الصفر، ليس إرضاءً لنرجسيته أو لرغبته في المعرفة، وليس من أجل التفاهم، ولكن بوصفها إجراء علاج ذاتي مطلوب على وجه السرعة: "تستعصي الكتابة عليَّ، لذلك أخطط للدراسات في السيرة الذاتية، ليست سيرة ذاتية بل دراسة للعثور على جزيئات صغيرة، أريد أن أعيد بناء نفسي من خلالها، مثل شخص بيته غير آمن ويريد أن يبني لنفسه بيتًا آمنًا من مكونات البيت القديم."[4]

إنها صورة توحي بالقهر، ولكنها لا تمثل فكر كافكا "الشمولي". صحيح أن معرفة المكونات الأساسية للبيت القديم قد تكون مفيدة، لا سيما مع غياب البديل، ولكن أليست المعرفة بمخطط البناء أكثر فائدة؟ هذا ما اتبعه حينما تأمل سيرًا ذاتية وسيرًا حياتية أخرى، كان يلتهمها وهو يبحث عن تفاصيل مميزة وليست صغيرة، تفاصيل تبرز هيكل الحياة بأكملها وجوهرها – لم ير "الحقيقة" إلا في هذه التفاصيل، أما الباقي فكان إضافات معتادة.

كان كافكا يدرك تمامًا أنه في سياق بحثه عن لآلئ التميز سيقترب من إزعاجات التحليل النفسي. لم يكتف برؤيته المتشككة في أهداف التحليل النفسي في تتبع الجذور العميقة لشخصية الفرد وتصحيح المسار الخاطئ، بل عدها تجاوزًا وإهانة. كان يتزعج من سرعة لجوء التحليل النفسي إلى مصطلح "المرض": كل شيء يمكن أن يكون مرضًا، إيثار الآخرين مثل البرود الاجتماعي، القناعة الدينية تمامًا مثل العجز عن الإيمان بأي شيء. بدا له أن أفضل ما يملكه الإنسان قد يتحول –مع هذا المفهوم للمرض– إلى مثال لمرض نفسي، فالتعبير الواقعي عن كيانه

ومشاكله الشخصية يصير نقطة انطلاق لإخضاعه للعلاج. كتب كافكا: "لا أطلق عليه مرضًا، وأرى في الجزء العلاجي للتحليل النفسي خطأً كبيرًا."[5]

هذا التحديد مثير للاهتمام؛ إذ يشير إلى أن كافكا –على الرغم من أنه لم يقرأ "فرويد" قراءة متأنية– يدرك تمامًا الفرق بين طموح التحليل النفسي إلى العلاج، الذي يعده أمرًا ساذجًا، وسعيه إلى التوصيف الصائب للنفس البشرية ومراحل تطورها. كان التخلص من مسعى التحليل النفسي إلى الكمال من الصعوبة لكونه "علمًا يتجاوز النفس البشرية"، فالمنطلق الأساسي للتحليل النفسي كان مقنعًا، وما ترتب عليه من استنتاجات له تأثير مبهر. بقدر محاولات كافكا الابتعاد عن التحليل النفسي –كتب مثلًا أن التحليل النفسي لا يبعث على السعادة، ويريد الإعراض عنه[6]– إلا أنه كان يدرك أيضًا صعوبة حجب تأثيره. حينما قام بتحليل[7] قصته الحكم، بعد الانتهاء من كتابتها، دوَّن: "إنها خواطر حول "فرويد" بالطبع"، فعلى الرغم من ندرة صياغة هذه الأفكار صياغة صريحة، فقد وقع مثل سائر الطبقة البرجوازية المثقفة والمنفتحة تحت تأثير غزو التحليل النفسي، حتى إن لم يتابع كل تفاصيل النظريات الخاصة به، وحتى إن لم يستوعب سوى ما ترسخ منه في مجال المعلومات العامة.

لقد تعود على فكرة أن كل فرد يحمل داخله أحلامًا في اللاوعي واحتياجات وصراعات، إنها تسيطر على تفكيره الواعي وإحساسه، بل تغمرهما أيضًا لدرجة قد تصل إلى الفقدان التام للسيادة. إن من أكبر إنجازات رواية "المحاكمة" الإبداعية أنها تعرضت تعرضًا مؤثرًا ومنطقيًا لهذه الدوافع في اللاوعي وتحولات الذات إلى خلفية تملؤها الثقوب:

لفتات وردود أفعال جسدية وإيحاءات عفوية، إخفاقات وتناقضات، مع إشارات بجرعات دقيقة يرسلها القاص. لا يمكن تصور رصد كافكا المتيقظ للأحلام دون اللجوء إلى فكر للتحليل النفسي. ينطبق ذلك أيضًا على فقرات عديدة في أعماله تتبع منطق الحلم، ويعجز خلالها الزمان والمكان والسببية -بديهية مذهلة- عن الاستمرار. يبدو أنه عرف كتاب "فرويد" تفسير الأحلام مما كتبه ماكس برود عنه حينما درس الكتاب عام ١٩١١. ومع ذلك دوَّن كافكا كل أحلامه وقصّها بدقة، كأنها حدثت بالفعل. كان ملمًا بالطابع الرمزي للأحلام، وتوقع ممن يستقبل رسائله أن يفهم هذه الرمزية دون الحديث عنها. يبدو الأمر كأن كافكا كان يوثق أحلامه للزمن على سبيل الاحتياط: لا يملك مفاتيح لما يكتب ولكنه كان على يقين من وجود هذه المفاتيح وآملًا في العثور عليها يومًا ما. تكدس في دفاتر التدوين والرسائل كم هائل من المادة، جُمِعَت في مجموعة تصف أحلامه في ستين صفحة تقريبًا.[٨]

من المؤكد أن أية دراسة سيرة ذاتية في وقت لاحق كانت ستؤدي بكافكا إلى التعرض للتحليل النفسي. ربما قد تفادى استخدام المصطلحات، ولكن "الخواطر حول "فرويد" كانت حتمًا ستفرض نفسها، خاصة إذًا استحضر تورطه المستمر وغير الناضج في السياق العائلي، علاقة الحب والكره التي جمعته بأبيه على وجه الخصوص. شعر لفترات ولأسباب وجيهة أنه "مهووس بالدوائر اللعينة لنظريات علم النفس".[٩] حتى من كان يستمد نتائج أبحاث التحليل النفسي من الجرائد اليومية التي تسطح الأمور عرف أن المسألة هنا تدور حول "عقدة أوديب"، وأن قدر الشخص النفسي يتعلق، بحسب "فرويد"، بقدرة هذا الشخص على التحكم في هذا الصراع الحتمي الذي يتبع في بيئات اجتماعية مختلفة النمط نفسه. مما لا شك فيه أن كافكا حلل مدى انطباق

جوهر هذه النظرية على حالته هو وأنه كان يناقش نتائج هذه الأفكار في محيط أقرب الأصدقاء. ماكس برود –الذي كان يعد نفسه غير مستقر ولكن سليمًا نفسيًا– شخّص لدى كافكا وسواسًا قهريًا.[11] لا نملك تعليقًا للمريض على هذا التشخيص، ولكن تأثير هذه المسميات لم يدم في كافكا بعد انتهاء الحوار طويلًا. ومهما كان انبهاره بمحاولات تشخيص التحليل النفسي وبحداثته وتعبيره عن الحاضر، إلا أنه لم ير فيه أي استدامة فكرية. ربما اعترف بأنه قد "يشبعه" على نحو مدهش في اللحظة الأولى، ولكن بعد وهلة يشعر "بالجوع القديم نفسه"، الجوع إلى "التعرف على الذات". ليس لذلك معنى آخر سوى أنه لا ينفذ إلى جوهر الأشياء، يرجعه إلى سبب محدد: أنه ينظر إلى النفس البشرية على أنها مجرد كيان طبيعي يخضعه لـ"تقنيات". لخص كافكا اعتراضه في صورة صائبة: "علم النفس قراءة لكتابة معكوسة في المرآة، عملية مرهقة، وتأتي بنتائج عديدة بصرف النظر عن صحتها، ولكن لم يحدث في سياق هذه القراءة شيء بالفعل."[12]

إن ما كان يزعجه حقًا هو تهميش الأمور، والثقة العمياء في نظاميات العلم. لم يؤمن كافكا بإمكانية تفسير مشكلات التفكير والشعور والسلوك الإنساني وحلها بإرجاعها إلى مصطلحات نظرية، لا في السياق النفسي أو الاجتماعي ولا السياسي. فضلًا عن ذلك، أصابت تحفظاته عفويًا نقطة ضعف التحليل النفسي بحسب "فرويد"، وكان من شأن هذا التحفظ التشكيك فيما يحرزه من معرفة، خاصة فيما يتعلق بحالة كافكا نفسها. معرفة كل ما يلي قديكون مريحًا في اللحظات الأولى: أن المشاعر المتطرفة والمتناقضة تجاه الأبوين لا تعني بالضرورة الجنون، ولا يعد حب الأب وكرهه "انفصامًا"، ينطبق ذلك أيضًا على اكتشافه لمبدأ الأب في الحياة –المتمثل في ضرورة "التسلق الاجتماعي"- وتقديسه في الوقت

نفسه لهذا المبدأ. غذت التعقيدات الأسرية المبهمة إحساس كافكا القاهر بأنه تَخلّفَ، بأنه صبي عجوز، لم ينجح حتى مع بلوغه نهاية الثلاثينيات من عمره في الاستقلال وتولي المسؤولية الاجتماعية لشخص ناضج – كان سيعترف، دون تردد، بكل هذا أمام أي محلل. ولكن هل قيل بذلك كل شيء؟ وهل تَكَشَفَت بذلك كل أسس عالمه النفسي؟ ألم يكن هناك عالم آخر بعيدًا عن الأب، أو ربما قبله؟

بعض القراء كانوا يرون في خطاب إلى الوالد –أهم مصدر استشهد به كثيرًا عن سيرة حياة كافكا في سنوات البداية– دليلًا مؤلمًا على تحكم عقدة أوديب في حياة بأكملها. لقد انهزم الابن في هذا الصراع منذ زمن طويل مضى، إلا أنه أبى مغادرة الحلبة.[١٣] ولكن لهذا التكثيف ولهذه الرؤية تأثيرًا خادعًا. لا تعد رسالة كافكا تحليلًا ذاتيًا من منظور نفسي، بل توصيفًا لعلاقة حقيقية ذات أهمية، تتناول مضامين من وحي الخيال، وهي مكتوبة على أمل أن تصير أكثر تحملًا بعد توضيح الأمور للطرفين.

لعل أهم رسالة تبعث بها هذه الكتابة أن هيرمان كافكا لم يفهم ابنه على الإطلاق. ولكن ليس السبب في ذلك عدم اكتراثه أو شروره، بل لسبب بسيط، هو أن كيان هذا الطفل ظل غريبًا بالنسبة له. كان هذا الطفل يصيبه بالإحباط، يراه مقاومًا، منطويًا وله طلباته في الوقت نفسه ومرهف الحس، بدا أن زوجته جولي كانت تدعم بطيبتها كل هذه الصفات. يتساءل كافكا عن حتمية نشأة فرد لا يفهم نفسه من هذا الطفل المبهم والمنبوذ. كان هناك العديد من الآباء الذين يشعرون تجاه أبنائهم بخيبة الأمل ويظهرون ذلك بكل وضوح، وأي طفل –وإن كان قويًا نفسيًا– كان سيعاني من رفض أبيه المهيمن معاناة كبيرة. ولكن هذا

الجرح التأم شيئًا فشيئًا، بل ربما سهل لاحقًا الاستقلال الأخلاقي. ظلت كل الصراعات مفتوحة وغير محسومة حتى النهاية، ولكن لماذا؟

"بصرف النظر عن طبيعتي وتأثيرات الحياة، فأنا على حالي هذا نتاج تربيتك وطاعتي لك. أنت تخجل من هذا النتاج، بل وترفض لا شعوريًا قبوله على أنه نتاج تربيتك، ويرجع السبب في ذلك إلى غربة يديك وخامتي عن بعضهما. أنا حريص كل الحرص على عدم ادعاء مسؤوليتك عن حالي الذي وصلت إليه، ولكنك عززت من حالي هذا لأن قوتك كانت فائقة وأنت لجأت إلى هذه القوة."[14]

ليس مضمون عتاب كافكا: أنا من صنع يديك، بل مضمون عتابه: لم تتمكن من صنع شيء مختلف مني، لم تهتم، لأنك رأيتني عاجزًا ولم تمنحني أي دعم، أي اعتراف أو أي تعزيز لثقتي بنفسي. لم يقتنص هذا الطفل ابتسامة مشجعة إلا من خلال تقليد الأب أو ظهوره بحماس مفتعل كقرد مدرب – كافكا نفسه استعان بهذه الصورة.[15] قرد قادر على المشية العسكرية، والتحية، وغناء أغاني الجنود، ترديد الأقوال المأثورة، والتهام الطعام مثل سيده. لم يكن إسعاد هذا الجبار أمرًا صعبًا، حينما تقدر على إنكار ذاتك بالكامل. ولكن الأطفال الصغار لا ينجحون في المهمة إلا للحظات، بخلاف ذلك يقومون بأعمال مختلفة، تبدو لهم أكثر تعقلًا، ولكنها تكون لمن يريدون إبهاره أعمالًا "طفولية". لم تنجح محاولات كهذه مع هيرمان كافكا: يقول في سخرية: "يا له من حدث!"، يضرب بأصابعه على المنضدة ويقول متنهدًا: "ابتع لنفسك شيئًا."[16]

ومع ذلك، رأى كافكا أن عليه تبرئة أبيه؛ لأنه لم "يعزز إلا ما كان موجودًا بالفعل". لم يكن ذلك وصفًا دبلوماسيًا، بل ما كان يؤمن به حقًا. لم يفكر حينها في مجموع صفاته الحسنة والسيئة، وإنما في عيوبه

فقط، التي أرجعها إلى "طبيعته" و"تأثيرات الحياة". طبيعته التي لم تنل إعجاب أبيه كانت إرث آل لوفي: اغتراب عن الحياة، انطوائية، أحلام يقظة. لم يشك كافكا -وهذه نقطة اتفق مع أبيه فيها- أنه كان محملًا بإرث أمه الذي لم يؤهله للتحلي بالعزيمة الكافكاوية على الحياة والعمل. زادت على ذلك "تأثيرات" كان لأبيه مسؤولية غير مباشرة عنها، ولم يشر إليها في خطاب إلى الوالد إشارة صريحة، على الرغم من أهميتها القصوى في سياق نشأة كافكا: العالم المتقلب لطفولته المبكرة، والتبدل المستمر للبشر والأماكن، وغياب الأم وغياب التواصل. لم يذكر ذلك للأب، بل لأشخاص آخرين، وصفه لأجواء مرحلة الطفولة بالوحدة. لا يتمتع العالم "بالدفء"[١٧]، ولا يقدم ملجأ لإنسان يبحث عن الأمن والأمان، لقد تأثر كثيرًا بهذه التجربة، قبل تعرضه للإرهاب الأبوي بفترة طويلة. كان الخوف من الأب مسألة ثانوية، صدى لخوف في عالم كافكا له جذور تمتد إلى مرحلة كان فرانز خلالها محمولًا على الأيدي في فخر، ويظهر في صور فونوغرافية بوصفه أول مولود للعائلة. أوحى شيطان ما بعدها لأبيه بأن الإرهاب والإقصاء وسيلتان فعالتان لإخضاع الابن. زاد اغتراب نظرة الابن عنه، بل كانت تحديدًا السبب في إثارته:

"طلبت باكيًا ذات ليلة شربة ماء، غالبًا لم يكن العطش هو السبب، بل الرغبة في إزعاج الآخرين والتسلية. بعد فشل بعض التحذيرات القوية، نزعتني من فراشي، وأدخلتني إلى حديقة الفناء، وتركتني أمام الباب الموصود لفترة بملابس النوم. لا أدعي خطأ هذا التصرف -ربما لم يكن هدوء الليل متاحًا إلا بهذا الأسلوب- ولكنني أريد توصيف وقع أساليب تربيتك عليَّ. كنت، في الأغلب، بعدها

طفلًا مطيعًا، ولكنني تعرضت لأذى داخلي. لم أستطع قط، بحسب طبيعتي، الربط بين طلب الماء المنطقي دون أسباب، وبشاعة حملي إلى خارج المنزل. لسنوات، ظل هذا التصور يعذبني، بأن هذا الرجل الضخم، أبي، المرجعية الأخيرة، قد يحملني وسط الليل، ودون سبب، من فراشي إلى حديقة الفناء، وأنني لا أساوي شيئًا بالنسبة له."[18]

إن تجربة كافكا في "البافلاتشة" (مساحات مزروعة في الأفنية الداخلية لمنازل براغ) كانت من المشاهد الرئيسة في سيرة حياته النفسية. قوة صورة هذا الطفل الصغير —الواقف تحت سماء الليل عاريًا تقريبًا أمام الباب الذي أغلقه والداه قادرة على تفسير التداخلات المعقدة بين الموتيفات الأساسية لأعمال كافكا، وهي السلطة، والخوف، والوحدة. تبدو سلطة هذه "المرجعية الأخيرة" مخيفة، ليس بسبب القوة البدنية المتناهية التي تصعب مقاومتها فحسب، بل بسبب صعوبة التنبؤ بردود أفعاله. يجهل تمامًا توقيت هجومه وأسبابه. ما كان شبه مؤكد بالنسبة لفرانز أنه لن يلجأ للعنف الجسدي، فعلى الرغم من كثرة تهديده بالضرب —صارخًا بوجه أحمر داكن ونازعًا لحمالات البنطال ليستخدمها سوطًا— إلا أن لجوءه للعنف كان نادرًا.[19] كان، بدلًا من ذلك، يستعين بحضوره الجسدي الطاغي ليعزل ويهمش ويقصي، ويصحب ذلك عادة كلمات الإهانة والتوبيخ، وقد لجأ مرة على الأقل إلى الطرد العنيف.

كان للأب قدرة على جعل من أمامه يشعر بالوحدة، هذه هي خلاصة صدام دام لعقود، وكانت هذه هي مسؤوليته المباشرة. ولكن خطاب إلى الوالد لا تخفي أنه كان ينكأ جرحًا كان غائرًا منذ عمر

العامين أو الثلاثة، وما كان التئامه ممكنًا. كانت عملية الإقصاء شديدة العنف، وفكر الأب في التأثير الأقوى بطرد الابن، لا من غرفة نوم الوالدين فحسب، بل بطرده من الشقة إلى "البافلاتشة"، التي كانت مساحة عامة يدخل إليها سكان الشقق المجاورة. كتب كافكا بمصداقية: "أصابني من جراء هذا أذى داخلي كبير." ولكنه فهم، مع منتصف الثلاثينيات، أن أباه لم يتسبب في هذه الليلة في هذا الأذى الذي لا يشفى، بل استغله، وكبَّره، وأظهره بذلك على السطح.

كشفت تعاسة ظاهرية غير متوقعة على الإطلاق عن تعاسة أعمق في اللاوعي موجودة منذ زمن بعيد. تكرر وصف كافكا في أعماله الأدبية لهذه العملية التفسيرية الغريبة والحزنة في الوقت نفسه، بتكرار وإصرار يجعل القارئ يراه موتيفة عميقة وملحة لعالمه النفسي. يصير بطل رواية "المسخ"، جريجور سامسا، بين عشية وضحاها في حالة من الاحتياج المزري إلى عائلته، يصحبه في الوقت نفسه تباعد نفسي إلى أقصى درجة. يجد القارئ نفسه في مواجهة أحداث مبهمة، بل وعبثية. وما إن هدأت العاصفة التي أثارتها كارثة السطور الأولى، حتى كانت الرؤية أكثر وضوحًا، وهي أن هذا الاحتياج وعدم الشعور بالانتماء شعوران قائمان منذ زمن بعيد، وأن عملية التحول قد أظهرت من خلال تدمير الواجهة الاجتماعية النواة العفنة على نحو أكثر وضوحًا.

أما رواية "المحاكمة" فمحورها هذه الفكرة الأساسية: يغطي على الفزع الأول من تدخل مبهم اضطراب آخر يدوم تأثيره لفترة أطول. يكون الوكيل المصرفي، السيد يوزيف ك. -مثل قريبه الممثل التجاري سامسا- في بداية الأحداث مجرد ضحية. ولكن يتضح تدريجيًا أن الضربة الموجهة ليست فارغة المعنى أو نتاج صدفة. إنها ضربة قدرية متمثلة في

عملية اعتقال السيد يوزيف ك. بدون سبب واضح، كما صاحبها تصنيف لشخصه. تصيبه هذه الضربة في مقتل؛ إذ تجبره على رؤية ذاته وإعادة تقييمه لها. إنها هيئة المحكمة المريبة التي تشتت حياته، ولكنها هيئة المحكمة نفسها التي تجبره على مواجهة سؤال يدور حول الثمن الغالي لنظام الحياة الساري حتى هذه اللحظة. لم تكن سعادة "يوزيف ك." أو "جريجور سامسا" ممكنة، ولم يكن لديهما تصور عن مصطلح السعادة، ولذلك كان وقوع الكارثة مطلوبًا حتى تجبر ذاتيهما الفقيرتين على الحديث.[٢٠]

الفجوة الزمنية لهذا التحليل النفسي عن بعد، والتي تمتد لأكثر من قرن، ليست أمرًا يستهان به: لا ينقصه فقط العنصر الجوهري في أي عملية تحليلية، أي الفهم التلقائي وإعادة الربط بين التفسير والتفسير الذاتي، بل له تبعات أكثر تأثيرًا: تنشأ عن المسافة بين الثقافات المختلفة مقاومة للتأويل. إنها مقاومة يعجز أمامها حتى من يملك شعورًا مكثفًا بالبعد التاريخي. يدور السؤال المحوري في هذا السياق حول تأثير العقلية والأشكال الرمزية والممارسات اليومية في تشكيل اللاوعي، وتشكيل الهوية الفردية، وجعلها تتحدث أو تصمت. ستفوت المحلل النفسي الذي نشأ في بيئة مسيحية بعض الأمور الفيصلية إن عالج مريضًا يهوديًا، حتى إن تخلص المحلل والمريض من أنماط مشاعرهما ومحرمات ثقافتهما الدينية. دوّن كافكا نفسه في مذكراته أن العلاقات الإنسانية الأساسية والقائمة في كل زمان -مثل العلاقة بالوالدين- تتأثر بالسياق الثقافي، يترتب على ذلك أن أبسط المصطلحات قد تتعرض لسوء الفهم:

"ليست الأم اليهودية "موتر"؛ فاستخدام مصطلح "موتر" لوصفها يجعلها تبدو غريبة بعض الشيء «...» نمنح سيدة يهودية اسم "موتر" الألماني وننسى حينها التناقض القوي الذي نشعر به. يعد اليهودي كلمة "موتر" كلمة ألمانية أصيلة؛ إذ لها في اللاوعي–إلى جانب بريقها المسيحي– برود مسيحي، لذا لن تبدو المرأة اليهودية عجيبة فحسب، بل أيضًا غريبة. ربما يكون مصطلح "موتر" أفضل، إن لم يرتبط بمصطلح "موتر". أظن أن ذكريات الغيتو فقط هي القادرة على حفظ العائلة اليهودية؛ لأن كلمة "فاتر" أيضًا لا تعني الأب اليهودي بشكل كبير."[٢١]

يتحدث كافكا هنا عن عجز في عمق اللغة ودقتها: لا يمكن التعبير عن كينونة الأم اليهودية أو الأب اليهودي إلا من خلال اللغة اليهودية، في حين تؤدي المصطلحات الألمانية إلى تصورات خاطئة، ولا تصلح إلا لاستخدامها بديلًا. لن تكون حالًا مختلفة بالنسبة للمحلل، الذي ينخرط في دراسة ملفات مرضى ورسائل ومذكرات ترجع إلى القرن التاسع عشر. قد تدخله هذه القراءات –وما يرتبط بها من تداعيات و"ظواهر لنقل المعاني"– في متاهات، وذلك إن فقد إدراكه لغرابة المادة التي يتناولها. وإن أراد التعمق في وثائق حياة الماضي فعليه أن يقرأ بانتباه عالٍ وتركيز، كأنه يتحرك داخل لغة أجنبية تعلمها في هذه اللحظة.

إن كان المحلل صاحب موهبة لغوية وله إنتاج أدبي، فستكون الظواهر بالنسبة له أكثر كثافة وحسية، ولكن ليس تفسيرها بالضرورة أكثر سهولة. على العكس: تضفي النصوص الأدبية بعدًا إضافيًا –

ثقافيًا ومتجاوزًا للفرد، ينطوي على أشكال فنية وأنماط سردية وجدها الكاتب قائمة من قبله، وعلى القارئ الإلمام بها ليفهم العمل الأدبي. ينطبق ذلك أيضًا حينما يكون هناك مجال واسع "لربط المعاني" بحرية، وللكاتب أسلوب متفرد وخاص به. ليس كافكا المثل الأشهر في تاريخ الأدب، بل الأكثر تطرفًا على الإطلاق. ترتبط كل من قدرته على اختراق طبقات دفينة للنفس البشرية ودخوله إلى مناطق الكوابيس الجمعية برغبة ملحة في الشكل اللغوي. إنها سمة مميزة له أن أدبية تفكيره وحديثه وكتاباته –بل وبعض تصرفاته– سبقت دخوله مجال الأدب؛ فكل رسالة وكل صفحة من مذكراته تقدم دليلًا على ذلك. قد يمثل كافكا حالة تحليل نفسي مثيرة للاهتمام، ولكن على المحلل أن يظل واعيًا أنه لن يواجه هنا الآليات المعتادة كالكبت والإرجاء والاستذهان، إنها أكثر من ذلك، إنها استراتيجية واعية، نشأت تحت سيطرته وتعود عليها، تجمع بين التوصيف اللغوي والحس الجمالي. يدخل التحليل النفسي –شاء أم أبى– مع كافكا عالمًا غريبًا عليه، ولن "يكتشف" دون احترام خصوصية اللغة وأشكالها الجمالية شيئًا جوهريًا، بل سيظل المحلل حبيس عالمه الخاص به.

يجب النظر بجدية إلى رؤية كافكا في قدرة التحليل النفسي على تقديم تفسيرات لمشاكل حياته. كان لعدم استقرار عالمه في العامين الأولين تأثير دامغ في نشأته، إن صدق هذا التصور –وهذا ما تؤكده، بخلاف أقواله، العديد من الشواهد– فيترتب على ذلك أن التحليل التقليدي بنظرته المحدودة إلى "المرحلة الأوديبية" (الفئة العمرية ثلاثة- أربعة أعوام) لا يقدم أفضل النماذج التحليلية. كان "فرويد" –ودون الاعتماد على دليل المراقبة المباشرة- على قناعة بأن العلاقات الاجتماعية المبكرة لا تخدم سوى إشباع الغريزة الفموية، وأن الرضيع لا يهتم إلا

بتوفير هذا الإشباع له. لم يهتم "فرويد"، بخلاف ذلك، بإمكانية وجود "غريزة ارتباط"، أي رغبة فطرية وأساسية في وجود أشخاص آخرين يعتمد عليهم ويبدون اهتمامًا. كان مستبعدًا أن العلاقات المتغيرة وغير المستقرة والإخفاقات المؤلمة في فترة الطفولة المبكرة لها تأثير حاسم، قبل أن يكون للصراع الأوديبي. كان أي محلل نفسي من مدرسة "فرويد" ستصيبه الحيرة من مشكلة كافكا الواضحة مع أبيه ومشاعره المتضاربة تجاه أسرته. تطلب الأمر استقلالية فكرية متميزة لإدراك المشكلة الحقيقية لهذا المريض، والتي تكمن في طبقات أعمق من النفس. حتى إن تمكن كافكا من دفع تكلفة علاج التحليل النفسي: من الصعب تصور أن علاجًا ناجحًا كان سيمنحه أكثر من أي لحظة استرخاء عاشها في الماضي.

ولكن تطورت نظرية التحليل النفسي، وتحددت تفاصيلها، وتركزت أكثر بفضل الدراسات التجريبية على "السلوك الارتباطي" المبكر. ظهرت بعد مرور جيل على "فرويد" فروع غاية في التخصص، مثل علم النفس الأنوي "أريك ه. إريكسون"، و"هاينز هارتمان"، و"آنا فرويد"، ونظرية علاقة الأفراد "ميلاني كلاين". كما ظهرت أيضًا نظريات منافسة لنظرية التحليل النفسي: يتناول علم النفس النمائي وعلم النفس المعرفي –وكذلك نظرية الارتباط لـ "جون بولبي" – سؤالًا يدور حول كيفية بلورة الصورة الذاتية والمهارات الاجتماعية في سنوات العمر الأولى، فضلًا عن عوامل التأثير والتشويش على هذه النشأة.

بوضوح تمس بعض التصورات الجديدة (التي صارت الآن "كلاسيكية") الصراعات ونقاط العجز التي حددت قدر كافكا

النفسي، على غرار مصطلح "الثقة الأولى" الذي أرساه "إريكسون"، والذي يصف موقفًا إيجابيًا يُكتسب في سنوات العمر الأولى تجاه العالم الخارجي، ولا يمكن تصور سلوك اجتماعي متماسك بدونه. هناك تناقض جلي في أقوال كافكا، ولكنه يتطابق بدقة مع توصيف إريكسون للأعراض: يتجلى في لحظات الضغط الشديد في اضطراب عميق لشعور الثقة في البشر والأشياء، ولكنه بشكل عام على استعداد تام لتوقع النوايا الحسنة من كل من حوله (باستثناء نفسه). كان هذا التناقض يبدو أحيانًا عبثيًا، خاصة في سياق علاقاته النسائية، ويثير شكوكًا في إخلاص كافكا: يحتاط، من ناحية، من هجره في أي لحظة دون إبداء أسباب واضحة، مجرد رسالة متأخرة أو نظرة رافضة تجعله على يقين مذعور، ويتحدث، من ناحية أخرى، عن الثقة والأمان ويكون في مواقف يحق له فيها الشك غير متسق في تصرفاته. عانت أسرة كافكا من مناعته تجاه إغراء الامتلاك الشخصي، وخاصة المادي بوصفه نوعًا من الأمان، ولا يرجع السبب في ذلك لوعيه بوهمية هذه الاستراتيجية الحياتية منذ البداية، ولكن بسبب زوال كل ما هو مادي أونفسي في عالمه. كتب عن طفولته: "... لم أكن على يقين من أي شيء، ولم أملك إلا ما كان في يدي أو فمي أوما كان في طريقه إليهما..."[٢٢] لم يكن قادرًا على "الامتلاك"، لا امتلاك النساء، ولا امتلاك الأشياء. ليس لدينا إثبات لموقف وحيد في حياته أظهر خلاله سعادته بسبب الامتلاك، ولم يعرف الشعور المعاكس، أي البخل، إلا في حالات ثورة وقتية. لم يرغب بالضرورة في "امتلاك" كل شيء أحبه. حتى الكتب التي كانت تلهب حماسه، يعيدها في تواضع إلى أصحابها دون الحصول على نسخة خاصة به. ظلت نشوة من يجمع الأشياء غريبة عليه.

من المتوقع أن يكون خلل الثقة في العالم–الذي لا يمكن إصلاحه– سببًا في التناقض الغريب لدى كافكا بين بحثه عن الأمان وعجزه عن التخطيط بعيد المدى. لن يتيح عالم تملؤه ظواهر الزوال والملاقات العابرة إلا نوعًا واحدًا من الأمان: أمان لحظي يُمنح في كل مرة من جديد. سيقود في الحال كل تفكير في المستقبل إلى فقدان السيطرة على الأمور والشعور بالخوف. كان من الصعب إقناع كافكا باتباع تصور ناضج للأمان، بمعنى: تَقبُّل مخاطر واضحة على المدى القصير من أجل جني المزيد من الأمان على المدى البعيد. على الرغم من إمعانه التفكير في وضعه النفسي والاجتماعي أكثر من أي شخص حوله، وعلى الرغم من تصوراته الدقيقة حول أسباب تطور وضعه هذا، إلا أنه عاش هذا الوضع الحالي برجعية كأنه غير مرتبط بأي زمن محدد. لعل أكثر سمات حياة كافكا سخرية عمله موظف تأمين عليه إرساء مصطلح مركب ومجرد لفكرة الأمان، من متطلباته الضرورية عالم مستقر، في حين لم يتمكن هو شخصيًا من تدريب حسه على تأمين مستقبله في ظل الظروف المحيطة. كثيرًا ما كان يواجه بصراحة في علاقته بـ "فيليس باور" بهذا التناقض، فيكون رد فعله الاعتراف بحاله، ولكن حالة أيضًا من قلة الحيلة. كتب إليها: "بالطبع لا أملك أي خططٍ ولا رؤى للمستقبل، لا يمكنني الذهاب إلى المستقبل، قد أستطيع الاندفاع إليه والتعثر في خطواتي، لكن أفضل ما أقدر عليه هو البقاء مستلقيًا. أما الخطط والرؤى فلا أملكها حقًا، يغمرني الحاضر حينما يكون حالي جيدًا، والعن الحاضر والمستقبل حينما يكون حالي سيئًا!"[٢٣]

إنها قطعًا فكرة ساذجة أن نتوقع من التحليل النفسي تقديم تفسير أوحد لتحول المولود الأول فرانز الوحيد إلى الدكتور كافكا، الذي ظل طوال حياته يصارع أعراض الاضطراب النفسي. كما يعد تصور أن

بوصلة التحليل النفسي ستساعد على تقفي أثر إنتاجه الفكري ضربًا من الوهم، حياته مع اللغة وداخلها، براعته في تفسير ذاته وخلقها من جديد، لنصل إلى ينابيعها السرية والدفينة في اللاوعي. لقد أظهر "سارتر" بوضوح، من خلال مثال طفولة "فلوبير"، أن محاولة كهذه بحاجة إلى اختيار أوسع من مناهج العلوم الإنسانية، ولن تكون النتيجة سلسلة واضحة من الأسباب، ولكنها، في أفضل الأحوال، عرض مقنع لتكوين نفسي واجتماعي لفرد موهوب وحساس في زمنه.

يظل التحليل النفسي مصرًا -وله كل الحق في ذلك- على أن الأفراد المتميزين أصحاب الشخصيات المركبة و"العبقرية" يظهرون خطوطًا للصراع خاصة بهم، فضلًا عن أعراض واستراتيجيات للسيطرة تجعلهم متشابهين وأقرب للاستيعاب، أي درجة تالية لمجرد الشعور الأول بالإعجاب: إنه مضاد فعال لعملية إصباغ شخصية كافكا بالغموض، كافكا نفسه كانت تصيبه أحيانًا شكوك في نفسه تجعله يصف ذاته على أنها حالة فريدة في العالم بأكمله. من الغريب أن بعض دراسات التحليل النفسي، التي اقتربت دون قصد من كافكا وأظهرت على نحو مقنع هذا التشابه مع حالات أخرى، ظلت مجهولة وسط الأبحاث المتخصصة: إنها الدراسة التي قدمتها الباحثة الفرنسية السويسرية "جيرمان جويجز"، تلميذة "بياجيه"، في أثناء الحرب العالمية الثانية عن عصاب الشعور بالهجر. وجدت "جويجز" في أثناء تطبيقاتها اضطرابات في مرحلة الطفولة المبكرة لها سمات أوديبية أولية على نحو واضح، مما أقنعها بضرورة إدراج نمط جديد للمصاب لم يسبق وصف أعراضه الإكلينيكية من قبل. أدخل كل من "بونتاليس" و"لابلانش" المصطلح الجديد في قاموس التحليل النفسي، فمنحه وضعًا خاصًا. ولكن لم تقم "جويجز" من جانبها بأية

محاولة جادة لدعم اكتشافها لهذا العصاب في سياق علم ما بعد النفس، أوعلى الأقل تنسيق نتائجها مع أبحاث الطفولة المبكرة.[٢٤] كما أنها لم تقم بنشر حالات جديدة، فظل نجاح دراستها مقصورًا على دوائر القراء غير المتخصصين "المهتمين" دون المحللين. وضعت لاحقًا هذا العجز في الجزء النظري في الحسبان فحملت طبعة جديدة لدراستها عنوانًا أقل إلزامًا: متلازمة الشعور بالهجر.[٢٥]

لم تعرف "جويجز" في الأغلب مذكرات كافكا ورسائله، وإلا ما كانت لتهدر فرصة تستفيد من خلالها نظرية التحليل النفسي من حالة نموذجية تسيطر فيها مخاوف الهجر وعدم الإحساس بالأمان على مشاعر إنسان. التشابهات بين الصورة المرضية "للمنبوذ" التي ترسمها من ناحية والظواهر الاجتماعية والنفسية لحياة كافكا أمر مذهل. تكتب "جويجز" أن المنبوذ يفشل بسبب طلبه المطلق في سياق العلاقات الإنسانية بالالتحام التام "إما كل شيء أو لا شيء" في حين أن تجاربه السابقة تؤكد له وجود هذا التعايش التام في الأحلام فقط. لا يوجه في هذا المأزق الاتهام إلا لنفسه: يرى نفسه غير جديرة بالحب، وإن جاءه هذا الحب فهو بالتأكيد خطأ محتوم وقع فيه الطرف الآخر، يعرف تمامًا إثبات ذلك من خلال "اختبارات" متكررة غاية في البراعة. يمر المنبوذ بعواطف جياشة، لا يرتوي وجدانيًا، لا يتحمل الأمور النسبية – وإن سمحت الفرصة يتحول سريعًا من الاستلطاف إلى الطغيان. ولكنه لا يأخذ ما يريد، بل ينتظر منحه إياه: إنه موقف سلبي و"ماسوشي" من وجهة نظر المحللة، يؤدي بالطبع إلى الفشل والتأكيد على صورة الذات السلبية. يظل المنبوذ بشكل عام حبيس موقف دفاعي، يتجنب الصراعات الصريحة وكثيرًا ما تتجلى هذه الصراعات النفسية في شكل آلام جسدية. لديه حس عالٍ بالمصائب، يخشى السيادة وتحمل المسؤولية، ولكنه في

الوقت نفسه مراقب دقيق لبيئته المحيطة، ولديه قدرات متميزة على التعاطف مع الآخرين، فضلًا عن فراسة تبحث عن "رموزٍ" سحرية[٢٦]. يسرف في تقدير الآخرين، مما قد يؤدي إلى عجزه التام عن الإحساس بالكره تجاههم، واعتبار نفسه منبوذًا لا ينتمي إلى المجموعة ومجرد عدد زائد. يفضل مع ذلك الانعزال طواعية؛ لأن كل محاولة عفوية توقظ مخاوفَ جبارة من الإهانة والإحباط. تسيطر عليه هذه المخاوف وتمنعه من الحياة.

إن كافكا مثل "جويجز" لا يؤمن بأن هذا الاضطراب السلوكي تفسره فقط هذه الصدمات المبكرة. إن الدور الحاسم يكون للتخوف والفشل والوحدة التي يعيشها بوصفها صدمة ويفسرها على أنها كذلك. هناك عوامل تحدد توقيت تخطي حاجز الألم وطبيعته، مثل القدرة على الإحساس ومدى التعرض للإثارة والانطوائية ونزعة التوجس، كلها عوامل عدَّها كافكا "إرثًا من قبل عائلة لوفي". لا يتطلب الأمر إذًا تعذيبًا جسديًا للوالدين أو كارثة هجر حقيقية، بل يكفي أن تتكثف مشاعر الخوف وعدم الأمان والإحباط في موقف ما – سيتذكر الشخص البالغ هذه التجربة وكأنها صدمة حقيقية، وسيبحث فيها عن أسباب حالته. يطلق على هذه التجارب، التي تجعل الفرد يدرك مخاوفه المرعبة على أنها يقين، مصطلح "عامل مساعد على إظهار الصدمات"- إنه مصطلح يعرض بدقة موقف "البافلاتشة"، الذي وصفه كافكا وصفًا مكثفًا.

غير أن المحللة تجد هنا صعوبة في تطبيق نموذجها المبدئي كاملًا، على عكس الصدمة الواقعية –كالتي عاشتها جولي كافكا بموت أمها المبكر– فإن العوامل المساعدة لإظهار الصدمات لا نفهمها إلا من خلال ربطها بأحداث وتوقعات سابقة. ليست أسبابًا للمعاناة بل تعبيرًا عنها،

وتمد تجارب محورية في أية سيرة ذاتية. لذلك، فإن تجربة الطرد الليلية التي عاشها كافكا لها معنى هيكلي: يأتي هذا المعنى من أن هذه التجربة تؤكد توقعًا مسبقًا متخوفًا على نحو مؤلم، فتصير سمة مميزة لوصف الذات لاحقًا، وعاملًا مهمًا لتشكيل هويته. يعد تكرار سرد هذه الصدمات ومحاولات فهمها عَرَضًا مميزًا وربما يعبر أسلوب السرد أيضًا عن مشاعر الرثاء للذات والرغبة في الانتقام. الأهم هو أن الشخص المنبوذ وحبيس مشاعر الحزن السلبية يستعيد في هذه اللحظة سلطة تفسير حياته، هذا ما أظهره نص خطاب إلى الوالد -المتقن أدبيًا- بحدة مذهلة. إنه يقوم بتشكيل حياته، وبالتالي بتشكيل ذاته، يفهم أن فرصته تكمن في الشكل اللغوي والبلاغي والجمالي؛ إذ يتيح له مواجهة الآخرين مرة أخرى دون خجل.

هل يملك التحليل النفسي الأدوات التي تفسر إجراءات مضادة كهذه؟ لم نفهم المعنى الكامل لديناميكية التحول من هذه التجربة العنيفة إلى عالم مفعم بالأحاسيس الرقيقة إلا بعد وفاة كافكا بوقت طويل. من المفاهيم الأساسية لنظرية الارتباط "نموذج العمل الداخلي" للطفل في صغره الذي يضعه من خلال علاقاته الحيوية مع الآخرين. كما عكفت محللة النفس "إيديت ياكوبسون" منذ الخمسينيات على تحديد تفاصيل نظرية لها حتى اليوم تأثير باقٍ وتتعلق "بالتمثيل" النفسي.

تهدف هذه المحاولات دائمًا إلى وصف التجربة النفسية، أي أسلوب تحول الواقع الخارجي إلى واقع داخلي. ولكن لا تعد النماذج الذهنية للعالم الخارجي مجرد انعكاسات. فهي، حتى مع عمر الطفولة، إجابات إبداعية ونشطة على فوضى العالم الخارجي، وتنم عن قدرة على صياغة هذه النماذج الذهنية والتحرك فيها كأنها منزل داخلي،

تزيد أهميته كلما صار هذاالعالم الخارجي أكثر إرباكًا. تظهر خطابات ومذكرات كافكا -وهو في هذا السياق "حالة" فريدة- أنه تمسك بنموذجه الذهني المبكر هذا، وأنه تحكم في تفاصيله بنسبة كبيرة، لدرجة أنه منحه شكلًا جماليًا. بقدر صعوبة اختراق عملية الخلق الأدبية في عفويتها، فإن الديناميكية التي تؤدي إلى عملية الخلق هذه قابلة للدراسة المتأنية في مدونات كافكا، كما أن لهذه الديناميكية أصداء في مشاعر القارئ الذي يجد نفسه مع كل عبارة في رحاب أدبية. لعل المهمة الجوهرية لأية سيرة ذاتية تلزم نفسها بمنهج التحليل النفسي تتمثل في إظهارها للنطاق المتصل لهذه العملية الإبداعية، الذي يربط بين محاولاته المبكرة في صياغة صورة داخلية لهذا العالم من ناحية وقمم أعماله الأدبية من ناحية أخرى، فضلًا عن إظهارها لضغوط العالم المتغير الذي أجبر فرانز الصغير على اختراع "نماذج ذهنية" تعينه على استمرار الحياة، كما أن حجم هذه الضغوط لم يتقلص مع نضوج كافكا. لقد حول هذه الضرورة إلى رغبة واعية في شكل أدبي، وتمسك بهذه الاستراتيجية حتى النهاية. وعلى الرغم من شكواه التي حاول بها مواجهة هذا العالم العدواني، فإن النجاح قد حالفه على نحو جعله يقيس كل نمط من أنماط السعادة الممكنة بهذا النجاح: العمل والصداقة، وحتى حبه للنساء. إن آمنا بعالم أساطيره الخاص به، فسوف نراه راحلًا عن الحياة إلى عالم الأدب إلى الأبد ودون رجعة. ولكن ماذا لو كان الأدب هو طريق العودة الوحيد المتاح أمامه؟

نعرف شكل فرانز الصغير لأنه التزم سنويًا في أثناء مرحلة النمو الأولى -مثل كل أطفال الطبقة البرجوازية- بواجب الوقوف أمام عدسة المصور المحترف، على خلفيات يُعد لها بعناية، لتُعرض الصور على العائلة الكبيرة: بساقين عاريتين على المقعد وهو في عامه الأول، واقفًا

على المقعد بثوب طفلة صغيرة مألوف في هذه الحقبة التاريخية. وهو في عامه الثاني، في زي البحارة المزعج بعصا وقبعة ونخلة في الخلفية وهو في عامه الرابع، واقفًا أمام خروف لعبة بحجم طبيعي مرتديًا جوارب بحيكة وحذاء لامعًا وهو في الخامسة من عمره. هذه الصور مؤثرة وخاصة كسلسلة؛ لأنها تسجل تدرج فقدان التلقائية بلا عودة: أوضاع التصوير صارت أكثر تحكمًا وزاد انصياع الطفل للأوامر.

إن أمعنا النظر: هل صار أكثر خوفًا؟ هل مر في إحدى هذه الصور بتجربة "البافلاتشة"؟ تغوينا الصور الشخصية التاريخية التي التقطت للأطفال باستنتاج ما لدينا اليوم من معرفة، ويصعب التخلي عن فكرة أن عُشر الثانية المرتب أمامنا –الذي تم اختياره للالتقاط مصادفة– يبوح بشيء له مغزى. نحن لا نملك شيئًا إلا هذه اللحظة، أما بقية الأحداث الزمنية فمجهولة بالنسبة لنا: لا نعرف نظرته وهو على ذراع أمه، أو إلى جانب مهد أخيه، ولا ردود أفعاله تجاه التشجيع البشوش من جانب أبيه، ولا شكله وهو ناسٍ نفسه وسط اللعب. لم يعرف كافكا، بوصفه شخصًا ناضجًا، شيئًا عن كل هذا، لذلك لم يكن هو أيضًا –بشغفه بمشاهدة الصور الشخصية لدقائق عديدة- معصومًا من إغراء استنباط معلومات ماضي سيرته الذاتية من خلال هذه الشهادات القيمة. كتب إلى فيليس باور عن نظرته العدائية وهو في الثانية من عمره: "..هذا الوجه الشرير كان وقتها مزحة، أعتبره اليوم جدية خفية."

نعرف هذه الإسقاطات على المجهول حتى حينما لا نملك صورًا، قد تحل محلها عبارات طفولية "حكيمة" ونوادر وذكريات في ذهن الآخرين، فتوحي بمدخل حسي نحمله بمعانٍ أكثر كلما قلت المادة المتاحة. ولكن بما أن الصور الشخصية "الموفقة" هي فقط التي تبقى،

فإن الشهود على الأحداث لا يحتفظون في ذاكرتهم -سواء عن وعي أو بدون- إلا بالمهم من وجهة نظرهم. نقصي كل ما هو غير مناسب وغير مفهوم ودنيوي، في حين نجمل كل ما هو مميز ونضمه في سياق لطيف ومريح. مع ظهور الوثائق التحريرية يبدأ عالم الوقائع، وحينما يحالفها الحظ تقدم هذه التعليقات التحريرية المبكرةلأي فرد بعض الأمور التي نبحث عن تفسيرها في هذا الوجه الصغير ولكن دون جدوى.

حدثت هذه الصدفة السعيدة-والمروعة في الوقت ذاته- بالفعل في حياة فرانز كافكا؛ إذ لم يصلنا من كل الصفحات التي ملأها كتابة وهو في طفولته ومراهقته (بما في ذلك دفاتر المدرسة) إلا عبارة وحيدة تقول الكثير، تعليق كتبه وهو في الرابعة عشرة من عمره في ألبوم الذكريات الخاص بصديق له. لا يمكن تصور إدراك كافكا المبكر للثمن النفسي الذي دفعه بسبب عالم طفولته المضطرب الذي شهد العديد من لحظات الوداع. ولكنه اختار كلمات تصف هذا الإرث برزانة. لو طُلب منه شعار يصف حياته الشابة لما وجد تعبيرًا دقيقًا مثل الشعار الذي سيظل إلى الأبد:[٢٨]

هناك حضور ورحيل
انفصال وكثيرًا ما لن نلتقي ثانية.
براغ في العشرين من نوفمبر
فرانز كافكا

فرانز كافكا، التلميذ النجيب

"ما أجمل جميع الموانئ
حينما نرى المرسى."
داجمار نيك، حوارات في الظل

يحكى عن غراب كان اسمه كافكا؛ لأنه جاء من منطقة بوهيميا. كان لديه اعتراض على الاسم: "لا أريد أن يكون اسمي كافكا؛ لأن كل الأسماء المنتهية بـ"ا" أسماء فتيات، ماريا وآنا ويوهانا وآماليا، أما أنا فرجل، رجل عبقري، لذلك يجب أن تناديني باسم كافكوس كما هو متبع مع رجل علامة مثلي. إنه من الغباء أيضًا أن يطلقوا على ابن عمي اسم "كراه" أي الزاغ، سواء كان رجلًا أوفتاة. أنا لن أقبل ذلك! أنا اسمي كافكوس! باستا!" لم يقل باستا، بل قال كاف كاف أو كا كا...

كان طبيب أمراض النساء والأديب "هوجو سالوس"، مؤلف هذه القصة، يعرف جيدًا ما يتحدث عنه.[1] جده شخصيًا كان اسمه كافكا -عمل حاخامًا وعلّامة- وسكن في بداية حياته مع جد كافكا الكبير في المنزل نفسه بـ"فوزيك"، ومن المؤكد أن صلة قرابة قد جمعت بينهما. لا تمثل أسماء العائلة أية أهمية للأطفال، يتعلمونها متأخرًا، ولكن يعرف الصغار معنى "كا كا"، لذلك لا شك أن "سالوس" لم يبتدع

النداء المتهكم الذي يدين الغراب الجاهل به نفسه، بل استدعاه من الذاكرة.

بمجرد دخول الساحة الاجتماعية لفصل المدرسة يمر كل طفل بمحنته الأولى التي تفاجئه: يوجه الغرباء إليه إهانات ويهاجمونه دون تدخل جهة أعلى لحمايته. كان فرانز كافكا طفل عائلة محافظة، قضى سنوات عمره الست الأولى في رحاب قفص كبير. صحيح أنه وجد أندادًا، ولكنه وجد أيضًا في محيطه من يلجأ إليه، وجد فرصًا كافية للشكوى وللعثور على من يجفف دموعه. دخل في أول أيام المدرسة، الذي وافق الخامس عشر من سبتمبر عام ١٨٨٩، وسط مجموعة من رفقاء الكفاح، كانوا أعلى صوتًا وأكثر قوة، وربما أكثر ذكاءً وبعضهم أفضل في الملابس. كان ذلك بمنزلة الصدمة، التي خفف من وطأتها قليلًا معرفة كافكا ببعض الوجوه. كان معظم الصبية في فصله من سكان البلدة القديمة، معظمهم أيضًا يهود، لغتهم الأولى هي اللغة الألمانية. التقت العائلات على الطريق الدائري أو في محل الأب، وكانت هناك معارف شخصية من خلال الجالية اليهودية أو نادي السيدات اليهودي. كتب كل من "هوجو برجمان" و"هوجو هيشت" بعد مرور عقود عن فترة الدراسة المدرسية مع كافكا، ومن المتوقع أنهم التقوا قبل بداية الدراسة وعرف كل منهم لعب الآخر.

لم يكن لهذه المعرفة أي دور فوق الدكك الخشنة لمدرسة "المدرسة الابتدائية الألمانية الأولى لمواطني براغ"، لم يُسأل تلميذ هنا عن رغباته في الجلوس إلى جانب تلميذ آخر. الصغار في الأمام والكبار في الخلف، كانت هذه هي التعليمات الصارمة. مما كان له تأثير مخيف أيضًا أنه لم يعد مجرد "فرانز" فقط، بل كان المدرس ينادي على الاسم الأول واسم

العائلة معًا، كأنهم كبار. هذا ما حدث في اليوم الأول: قرأ المدرس، السيد "ماركرت"، أسماء التلاميذ الجدد بترتيب أبجدي وكان عليهم تأكيد الحضور بصوت عال. "كافكا فرانز؟" "موجودا"، اتضح بعد لحظات أن هناك تلميذًا آخر اسمه "كافكا كارل"، ولم يكن ذلك أمرًا غريبًا في براغ.[٢] تلى ذلك الإعلان عن بعض قواعد التعامل، والتحذيرات المعتادة، ثم انتهى اليوم مبدئيًا عند هذا الحد. كانت أمه الحامل في شهورها الأخيرة تجلس في الممر وإلى جانبها السيدة "هيشت" التي كانت تنتظر ابنها "هوجو" أيضًا. توجه الأربعة معًا إلى طريق العودة القريب.

لم يكن مبنى المدرسة الجديد والبسيط ذو الطوابق الأربعة الواقع في منطقة "فلايش ماركت" له أي تأثير مبهر، فتجهيزه متواضع، والفناء الداخلي صغير للغاية ولايصلح للفسحة المدرسية. ولكن هل من بديل؟ لم ترسل العائلات صاحبة الوجاهة -أو التي تسعى إلى ذلك- بالطبع أبناءها إلى المدارس الابتدائية الحكومية، ولكن إلى مدارس خاصة كالتابعة لرهبانية "البياريست"، هذا ما فعله أبوا "ماكس برود" و"فرانز فيرفل"؛ إذ كان الأول موظفًا مصرفيًا صاعدًا والثاني صاحب مصنع. ولكن طالب "البياريست" بثمنٍ غالٍ لسمعتهم التربوية، وعجت فصولهم بأبناء الطبقة البرجوازية الألمانية اليهودية الذين أتوا من مناطق البلدة الجديدة، وكان جميعهم يلقون في الصباح الدعاء الكاثوليكي بالتزام تام. لم يكن وسط ملابس البحارة المتأنقة هو المكان الصحيح لابن خردواتي يسكن منطقة البلدة القديمة، لن تقدر أسرته على سداد ثمن رحلة الصيف الإجبارية. كما كان معروفًا أن مدرسي رهبانية "البياريست" عملوا على تحسين مرتباتهم من خلال الدروس الخصوصية، وأن لهذه الأموال بوصفها نوعًا من الإتاوة غير

الرسمية تأثيرًا كبيرًا في الدرجات المدرسية. كان من المؤكد أن هذا سيفوق قدرة آل كافكا المادية. يبدو أن كافكا تنفس الصعداء؛ لأنه لم يمر بهذه المواقف المحرجة[3]، حينما اشتكى لاحقًا "هوجو إرفين كيش" من معاملته في رهبانية "البياريست" على أنه شخص دون المستوى الاجتماعي قادم من البلدة القديمة، على الرغم من أن أسرته كانت من أصحاب العقارات.

بقي قرار يتعلق بتعليم فرانز الصغير باللغة الألمانية أم التشيكية، كانت قضية شائكة ووجب تقدير المساوئ والمميزات بدقة. بموجب الدستور اللغتان متكافئتان في الحياة العامة، بما في ذلك داخل المدارس؛ ولم يسمح بإجبار طفل على تعلم لغة ثانية ليفهم الدروس في الحصة المدرسية - أدى هذا الإجراء الوقائي إلى إقامة نظامين تعليميين متوازيين في بوهيميا.[4] ولكن كان النظام المفضل في براغ هو النظام التشيكي، ولم تتورع البلدية عن الضغط على عائلات التلاميذ في سياق مساعي إضفاء الطابع التشيكي. كان من المستحسن لتاجر يهودي طموح يبحث، بالتنسيق مع الجهات البراغية، عن الاندماج الاجتماعي أن يظهر بوصفه تشيكيًا مخلصًا، ولذلك كان منطقيًا أن يحدد هيرمان كافكا في أثناء حصر التعداد السكاني عام ١٨٩٠ اللغة التشيكية على أنها "لغة التعامل اليومي". تمكن من فعل ذلك بضمير مرتاح؛ لأن غالبية زبائنه وموظفيه كانوا من التشيك، فضلًا عن أن محاولته الظهور بوصفه ألمانيًا، أو ألمانيًا يهوديًا كان لها حتمًا عواقب اقتصادية.

أما اللغة الألمانية فكانت بحكم التقاليد لغة التعليم، وجرت العادة منذ قرون في قلب الريف -أي القرى التشيكية- أن يرسل اليهود أبناءهم إلى مدرسين ألمان. كانت اللغة الألمانية هي لغة السلطة ولغة

فيينا، صار التعلم في مدارس ألمانية شرطًا أساسيًا لدخول الحياة الأكاديمية، أو لانتهاج أي "خط وظيفي على مستوى أعلى". مع التفكير في الوضع الاجتماعي الحالي ويقين هيرمان أن ابنه سيكون أفضل حالًا، وجد أن التربية الألمانية ستقدم بالتأكيد فرصًا أفضل، فضلًا عن توفيرها بيئة تكون الأغلبية فيها لأبناء التجار الألمان اليهود، فلا مجال لوقائع معادية للسامية. وبخلاف ذلك، كان على استعداد لعدم إهمال اللغة التشيكية حتى يُعد فرانز للتعامل مع زبائنه في المستقبل.

هل كان الصبي الصغير صاحب الأعوام الستة يعرف أن اللغتين اللتين يتحول بينهما يوميًا تمثلان ثقافتين بينهما عداء متزايد؟ يجب أن نرتاب في ذلك. لاحظ قطعًا في دائرة المعاملات المحدودة التي عرفها أن المهام البسيطة كانت على عاتق مجموعة من الأفراد لا تفهم سوى اللغة التشيكية. ولكن لم يكن هؤلاء البشر أعداء، بل على العكس تعايشوا معهم، وكانوا بوصفهم أدوات تنفيذ جزءًا من سلطة الأب، وعاملت الأم بعضهم على أنهم أفراد من العائلة. على الجانب الآخر من هذا العالم الأسري، كان هناك الشارع، أو الزقاق كما يقال في براغ، وأدرك فرانز سريعًا أن القوانين السائدة هنا مختلفة. كان هناك على بعد خطوات من مدرسته مبنى آخر، أمامه تمثال للتربوي "يان كومينيوس"، وكتب تحته المطلب التالي بوضوح لا يشوبه لبس: "مكان الطفل التشيكي في المدرسة التشيكية!" إذًا كانت هذه أيضًا مدرسة ابتدائية حكومية، الجهة المنافسة التي يصعب تفاديها داخل شوارع البلدة القديمة الضيقة. كان ضمن الفريقين فتوات في عمر صغير لديهم دوافع قومية، ولذلك صار التورط في سلوكيات عدوانية مع "التشيك" أمرًا واردًا.

أدرك آل كافكا هذه الخطورة، فضلًا عن البنيان الجسماني الضعيف لابنهم الذي سيتعرض يوميًا لمشكلات الشارع، وحينما وضعوا ذلك في الحسبان لم يرغبوا في تخفيف الرقابة عليه. لذا قرروا – بالأحرى قررت الأم– أن يقوم الموظفون بتوصيل فرانز الصغير إلى المدرسة وإعادته منها. كان هذا إجراء حسن النية، ولكن قاصرًا من الناحية التربوية، هذا ما انفرد به آل كافكا. لأنه بعد مرور بضعة أيام صار فرانز التلميذ الوحيد في الفصل الذي لم يسمح له بقطع المسافة القصيرة والآمنة بين المنزل والمدرسة إلا تحت رقابة، وصار التلميذ الوحيد الذي لم يسمح له بالتسكع، ولو لدقائق معدودة، في منطقة "فلايش ماركت" القريبة من المدرسة، أو داخل الممرات بين المنازل والأفنية المختبئة. إرسال الموظفين مع الأبناء كان وضعًا مألوفًا في رهبانية "البياريست"، من باب الغرور الطبقي، أما في المدرسة الابتدائية الحكومية العادية فشاب هذا السلوك تكلفًا، وأظهر هذا الطفل المحفوظ على أنه شخصية معزولة وابن لأمه.

ظلت بعدها ولعقود ذكرى طريق المدرسة مقترنة لدى كافكا بمشاعر الانزعاج الشديد؛ لأن الرعاية الأبوية أغلقت بذلك آخر ثغرة بين هرمية السلطة المنزلية، التي كان له داخلها الوضع الأقل، والنظام الهرمي للمدرسة أيضًا. بدا أن السلطة في المنزل وفي الحياة العامة قد اتحدتا على نحو مباشر، وحُرِم من مساحة الحرية البسيطة بينهما التي كان ينعم بها الأطفال الآخرون. لم يعمل على استمرار هذا الوضع الوالدان فحسب، بل أيضًا الخادمة التشيكية "فرنتيشكا"، التي مارست سلطتها في الأمر والنهي على ابن المدير بلذة تعذيبية.

"كانت طاهيتنا –سيدة قصيرة وجافة ونحيفة، ذات أنف مدبب ووجنتين بارزتين، صفراء ولكنها صلبة وقوية ومتسلطة– تقودني كل صباح إلى المدرسة. كنا نقطن في منزل يفصل الطريق الدائري الصغير عن الطريق الدائري الكبير. محطات السير هي الطريق الدائري، ثم زقاق "تاين جاسه"، مرورًا ببوابة إلى زقاق "فلايش ماركت"، ثم منطقة "فلايش ماركت" نفسها. تكرر هذا المشهد كل صباح لمدة عام. تقول الطاهية في أثناء خروجنا من المنزل إنها سوف تحكي للمدرس عن شقاوتي في البيت. صحيح أنني لم أكن في الأغلب طفلًا مزعجًا، ولكنني كنت عنيدًا وكسولًا، حزينًا وغاضبًا، أي توليفة ممتازة تصلح لعرضها على المدرس. كنت أدرك ذلك فأخذت تهديد الطاهية على محمل الجد. وجدت في البداية أن الطريق إلى المدرسة طريق طويل، ومن الممكن حدوث الكثير، ولكن يتحول هذا الشعور الناتج عن سذاجة طفولية بعد قليل إلى خوف وجدية مفزعة، خاصة وأن الطريق ليس بالطول الذي ظننته بداية. كنت لحظة المرور بالطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة في ريبة شديدة من أن الطاهية، التي تحظى بالاحترام في محيط المنزل، سوف تجرؤ على مخاطبة المدرس الذي يحظى بهيبة العالم بأكمله. ربما أكون قد تفوهت بشيء من هذا القبيل، فأجابت الطاهية باقتضاب وشفتاها صغيرتان وقاسيتان بأنه لا يجب أن أصدق كلامها ولكنها سوف تقول ما تريد. يغلبني لحظة الوصول إلى مدخل زقاق "فلايش ماركت جاسه" [...] الخوف من التهديد. كانت المدرسة تمثل رعبًا بما فيه الكفاية، وأرادت الطاهية أن تزيد من صعوبة الأمر عليَّ. بدأت في الإلحاح عليها، هزت رأسها، وكلما أكثرت من إلحاحي شعرت بعظمة قيمة ما أطلبه وحجم الخطر الذي أمر به. توقفت عن السير وطلبت منها السماح، سحبتني وهددتها أنا بمحاسبة أهلي لها. ضحكت وكانت

لها قدرة خاصة على ذلك، أمسكت عند بوابات المحال التجارية بأحجار الزاوية، ورفضت الاستمرار في السير قبل أن تسامحني. شددتها من سترتها –لم يكن الأمر سهلًا معي– ولكنها حملتني مع التأكيد على أنها ستحكي للمدرس عن هذا السلوك أيضًا. تأخر الوقت ودق جرس كنيسة "ياكوبس كيرشة" الساعة الثامنة، كان صوت جرس المدرسة مسموعًا أيضًا، بدأ الأطفال الآخرون في الركض. كان التأخر عن المدرسة هو دائمًا خوفي الأكبر، اضطررنا في هذه اللحظة إلى الركض أيضًا ويصحبني خاطر "سوف تقول، لن تقول" – لم تقل شيئًا، قط، ولكن كان لديها الإمكانية التي تزداد كل يوم "لم أقل شيئًا بالأمس ولكنني سأفعل ذلك اليوم بكل تأكيد)، إمكانية لم تتخلَ عنها قط."[٥]

هل علينا تصديق هذه الأحداث حرفيًا؟ هل تعد رسائل كافكا مصادر عن حياته يمكن الاستناد إليها؟ ما يميزه الصياغة السردية التي يُخضع لها ذكرياته: يريد أن يحكي ويجعل قصته مثيرة، يرجع الفضل لهذا الدافع الأدبي إلى أن الانطباعات المحفورة في الذاكرة لا تُعرَض ببساطة، بل ترتبط بجوهر السيرة الحياتية. يمثل هذا الجوهر تجربة السلطة والقمع؛ إذ يركز على عرض أسلوبين لممارسة السلطة على أنها تقنيات يتناولها بأشكال عديدة بوصفها موتيفات محورية لأعماله الأدبية: رفع الحدود بين الخاص والعام من ناحية، يظهر ببديهية محبطة أن المدرس ومؤسسة المدرسة ليسا إلا ذراعًا مطولة لسلطة الأمر المنزلية (التي لم تكن مقتصرة على الأب فقط). لذلك، يقتنع فرانز بأن السيد "ماركرت" سيهتم اهتمامًا بالغًا بأخبار شقاوته المنزلية. من ناحية أخرى أجواء التهديد المستمر التي تصيب المتهم بالشلل من خلال إغراقه في حمى من خيالات العقاب. لم تكن "فرنتيشكا" الجبارة بحاجة إلى ذكر تفاصيل الإجراءات التي سيتخذها المدرس حينما يعرف بوجود مجرم في

السادسة من عمره داخل فصله. حصر مقترف الجريمة نفسه بنفسه في هذا السيناريو الخيالي. وبما أن البروفة الحاسمة لا تأتي، فإنه يبقى محرومًا من الاستراحة الأخلاقية التي قد يمنحه تنفيذ العقوبة إياها. للتهديد تأثير أقوى بكثير من التنفيذ، إنه مبدأ بسيط يتبعه "المنهج التربوي الأسود"، وكان محبوبًا ومنتشرًا لدى الطبقة البرجوازية في القرن التاسع عشر، ومنها عائلة كافكا وموظفوها الذين لمسوا نجاح ممارسة هذا المبدأ. ظل كافكا ولعقود لاحقة يكن مشاعر الكراهية الشديدة تجاه لعب السلطة هذه التي اختبأت خلف قناع التربية، لدرجة أنه رفض لقاء جليسته مرة أخرى، كتب: "لماذا كانت تربيتها لي بهذا القدر من السوء، ألم أكن مطيعًا كما تدعي هي الآن؟ كنت هادئ الطبع ومهذبًا، لماذا لم تستثمر هذا لتعدني لمستقبل أفضل؟"[٦]

يصف كافكا في تصفية حساباته مع الوالد السيطرة المعرقلة لإحساس الذنب وصفًا مستفيضًا، ثم التضخم المستمر للشعور بالذنب الأخلاقي تجاه الوالدين، ولاحقًا تجاه العالم بأكمله، ويبدو أن كل ذلك جاء في مرحلة تطور متأخرة تعبيرًا متصاعدًا عن اضطراب خوف مرضي عميق. ما شعر به صاحب الأعوام الستة لم يكن ذنبًا بالدرجة الأولى، بل خوفًا – إنه خوف من الضرب، ومن صراخ الأب وقوته الجسمانية، وخوف من ابتعاد الأم عنه، ومن الوحدة. تعلم كافكا مبكرًا أن أي موقف يولد لديه الخوف لن تكون نهايته سعيدة. إما أن تأتي الضربة التي يخشاها بالفعل –وإن كانت التعديات الجسدية نادرة الحدوث في عائلة كافكا– وإما أن ينال السماح، ولكن لفترة مؤقتة ومع تهديدات جديدة. ما كان غائبًا عن دوامة الخوف هذه هو تجربة الشعور بالنجاح، سعادة الحصول على حكم البراءة – لا يرجع السبب في ذلك إلى عدم إعراب الأب عن أي مديح ولكن لسبب آخر؛ لأنه لم يفهم

الواجب الذي ينفذه بخوف متزايد على أنه إنجاز شخصي له، ولذلك لم يكن محل فخر بالنسبة له.

حمل الطفل صاحب الأعوام الستة هذا الخوف معه إلى المدرسة، وعزز سلوك الطاهية من هذا الشعور؛ إذ جعلت المدرس نائبًا عن الأب، ثم تلي ذلك توزيع الدرجات بمعدل ربع سنوي، وكانت المدرسة ترسله في تقرير إلى الآباء دون علم التلامذة. لم يقتنع كافكا طوال مرحلته المدرسية أن المؤسسة التعليمية لا تدرك أو تقيم قيمة الإنسان، بل تنظر إلى مهارات متخصصة بعينها، وأنه يترتب على ذلك معايير للنجاح والفشل مختلفة عن البيئة المنزلية. ألم يمنحه الأب باستمرار درجة "ضعيف جدًا"؟ وبالتالي يجب أن يكون للمدرسة الموقف نفسه، ما من بديل عن ذلك! إن كانت التربية "مؤامرة ينسجها الكبار" –هكذا وصفها كافكا لاحقًا بدقة– فلا منطق في تضاد الأب والمدرس.[٧] لا يبقى سوى الأمل في أن المدرس يخفى عليه لفترة كل المساوئ التي يعرفها الأب جيدًا، ولكن هذا الأمل الأخير حاولت الطاهية تدميره – مع علمها بموضع الوتر الحساس. ولكن ما أهمية الدرجات وكلمات الثناء والنجاح أمام كل هذا؟

"كنت أظن أنني لن أنجح أبدًا في الصف الأول الابتدائي، ولكنني نجحت وحصلت على مكافأة، أما امتحان قبول المدرسة الثانوية فلن أجتازه، ولكنني اجتزته، سوف أسقط في الصف الأول الثانوي، لا لم أفعل، وهكذا ظللت أنجح تباعًا. لم يترتب على ذلك أي شعور بالثقة، بل على العكس، كنت أرى في تعبيرات وجهك الرافضة دليلًا على أن كل خطوة نجاح مؤشر لنهاية مفزعة قادمة. كنت أتصور اجتماعًا مفزعًا

للأساتذة –كلما انتقلت من مرحلة إلى مرحلة أخرى– ليفحصوا حالتي الفريدة والصارخة، كيف تمكنت –أنا التلميذ الأفشل والأجهل– من الوصول إلى هذه المرحلة التي ستلفظني الآن بسبب يقظة الجميع، سوف يسعد بذلك كل أصحاب الحق المتحررين من هذا الكابوس. يصعب على طفل التعايش مع هذه الخيالات. كيف لي أن أهتم بالحصص في هذه الظروف؟ من كان قادرًا على تحفيزي على المشاركة الفعالة في الدروس. أنا لم أهتم بشيء سوى الحصص وكل ما يتعلق بها في هذه المرحلة العمرية، مثل المتهرب من الضرائب في المجال المصرفي، إنه في حالة تأهب ويترقب اكتشافه، ولكنه متابع لحركة الأعمال المصرفية التي يشارك فيها بوصفه موظفًا. يبدو كل شيء صغيرًا وهامشيًا إلى جانب الموضوع الأهم.''[8]

ماذا لو كان هيرمان كافكا اطلع على هذا الاعتراف المتأخر الموجه إليه، كان سيخالف بشدة ذكرياته الشخصية، لدرجة تحول دون التعرف على هذا الطفل؛ لأن فرانز منذ الصف الأول الابتدائي متأقلم ومحب للدراسة ومحبوب من المدرسين، ''تلميذ نجيب'' بدرجات فوق متوسطة، ولم يكن نقله من صف إلى صف محل تساؤل على الإطلاق.[9] وكانت أفضل الدرجات في القراءة والكتابة والحساب والدروس العملية والدين والغناء والرياضة، فضلًا عن اجتهاده وحسن أخلاقه، ومجرد درجة ''جيد'' في الرسم: كانت هذه هي شهادة الصف الأول الابتدائي. أكد الخادم الذي كان يرعى الصبي إلى حين رجوع أهله من المحل على الفكرة نفسها، أي على حماسه للدراسة. كانت هذه الطاقة النابعة من هذا الجسد الرقيق أمرًا مذهلًا. كان من الممكن أن يلاحظ هيرمان وجولي

كافكا بسهولة أنه كان يتعلم خوفًا، وليس اهتمامًا أو حماسًا، ولكن يجب أن نشك في مدى انزعاجهما من هذا الأمر. إنه التصور التربوي للطبقة البرجوازية –أي تصورهما أيضًا– بأن المسألة عملية تحكم وترويض، أما الحب فكان مجرد عنصر إضافي محمود.

من المؤكد أن الظهور الرسمي الأول في بيئة مألوفة ومتجانسة كان من شأنه تخفيف العبء عن الطفل ذي الأعوام الستة: كان ثلثا رفقائه أبناء لتجار يهود ألمان يقطنون البلدة القديمة ويتحدثون لغتين، ولم يكن في الفصل طفل واحد من طبقة العمال أو من ساكني الغيتو أو من طبقة النبلاء.[١٠] ولكن لقرار الدراسة باللغة الألمانية مساوئ أيضًا، من المؤكد أن آل كافكا شعروا بها مع أول اجتماع للآباء: لم يسمح الوضع المالي بتوفير مدير للمدرسة. كانت البلدية التشيكية تدير المدارس الألمانية الحكومية على مضض، وتعطل أي خطط توسعية، ولذلك لم تتعارض الأوضاع القائمة مع قانون مدارس الرايخ الألماني فحسب، بل تعارضت أيضًا مع الأسس التربوية والصحية السائدة في هذا الزمن. صحيح أن الأطفال الذين نشؤوا في ظل ظروف برجوازية كانوا معتادين تقاسم مساحات محدودة مع الآخرين، إلا أن امتناع البلدية عن توفير درجات وظيفية لمدرسين ألمان حَوَّلَ عملية التدريس في مراحل منها إلى عذاب مقيت: انحشر بداية في فصل كافكا ما بين ثمانين وتسعين طالبًا، ارتفع هذا العدد مع الصف الثالث ليتخطى حاجز المائة، مما اضطر المدرسين إلى تقسيمهم في مجموعات متوازية دون وجود إمكانية للفصل بينهم في المكان. صار من المستحيل غلق نوافذ هذه الحجرات المزدحمة، حتى في أيام الصقيع، وكثيرًا ما كان هؤلاء الأطفال يُتركون بمهام دون أية رعاية؛ لأن المدرس يتولى أمور مجموعة أخرى في الفصل نفسه. كان فرانز – تلميذ الصف الأول الابتدائي– يضطر إلى الذهاب إلى المدرسة

في فترات بعد الظهر أكثر من مرة أسبوعيًا، لم يكن ذلك مسموحًا به، ولكنه كان أمرًا ضروريًا في ضوء عجز المدرسين، فضلًا عن المواد التي أضيفت لاحقًا: علوم اللغة والإملاء في الصف الثاني، تاريخ الطبيعة والجغرافيا في الصف الثالث، وأخيرًا الدروس الاختيارية في اللغة التشيكية، التي أصر والدا فرانز على الانتظام فيها وكان يزورها في المساء (حصل فيها دومًا على درجة "جيد جدًا"). جلس في نهاية الأمر لمدة سبع وعشرين ساعة أسبوعيًا على دكة ضيقة (تمثل اليوم ستًا وثلاثين حصة مدرسية). حينما كان يُفرج عنه في الرابعة مساءً -أحيانًا مع حلول الظلام- لم تكن تنتظره الحرية والصداقة، بل الواجبات التي كان عليه إنجازها على مائدة الطعام المنزلية.

لم يترك كافكا ذكريات عن حصص المدرسة في منطقة "فلايش ماركت"، ولكن ليس من الصعب تصور عملية نقل المعرفة في هذه الظروف الخارجية: كانت عملية تلقين، وانحصر تقييم الأداء في الإجابة عن الأسئلة على نحو آلي. كانت عملية بائسة، حتى بالقياس بالقواعد التربوية السائدة آنذاك. ولكن متى وكيف لهؤلاء المدرسين المنهكين أن يركزوا في هذه الفصول المكدسة على الشخصيات المتفردة للتلاميذ أو صعوباتهم في التعلم؟ كان نصيب كل تلميذ في كل مادة ثماني دقائق سنويًا، لم يتبقَّ منها بعد التقييم التحريري إلا دقيقتان، إنها نسبة عبثية ذكرت في مذكرة[11] تمت صياغتها باللغة الألمانية في عام ١٨٩٦، على يد رجل قانون فيما يبدو. ينطوي ذلك على قدر من المبالغة، ولكنه يصيب جوهر المسألة. أدت، في واقع الأمر، الأعداد الكبيرة للمواد والفصول المكدسة والشهادات الكثيرة إلى وضع ضاغط لا ينتهي، وموقف امتحان مستمر – تحولت المدرسة إلى حجرة ضغط سلطوية يخافها الطفل ذو السنوات الست وهو في طريقه صباحًا إليها، حينما يقع نظره من بعيد

على هذا المبنى المثير للقلق. كانت المرة الأولى -وليست الأخيرة في حياته- التي يلتقي فيها الخيال بالواقع الاجتماعي وينشأ بينهما تأكيد وتكثيف متبادل. نجد هنا قناعات كافكا اللاحقة جذورها، لا ينتمي الخيال إلى عالم الظلمات، بل له كل الحق في الوجود، أكد هذا الصدام المبكر مع العالم الكبير على وجود هذا الخيال المفزع.

لم تتح فرصة للاستجمام إلا مرة وحيدة في العام خلال فترة الإجازة الصيفية من بداية يوليو وحتى منتصف سبتمبر. هناك توثيق من زمن لاحق يفيد بأن آل كافكا كانوا يفضلون في الأسابيع الحارة استئجار شقق صيفية بسيطة بالقرب من براغ – كان من شأن ذلك توفير المصروفات، فضلًا عن إتاحته إمكانية الذهاب بانتظام إلى المدينة للرقابة على المحل الذي ظل بالطبع مفتوحًا. من المؤكد أن هذا هو إيقاع حياة الأسرة منذ مرحلة كافكا الابتدائية: لم تسمح لنفسها بالاستجمام في أجواء الطبيعة -بلا أحداث صاخبة ولكن مع حريات أكثر- إلا في فترة الصيف، بخلاف ذلك فبقية العام تسير الحياة على الوتيرة نفسها. حتى أيام الأحد كان الوالدان يقضيان ساعات في المحل، لدرجة أن زيارة المسبح العام مع الأب، الذي لا ينزل إلى المياه ويكتفي بتناول الجعة فقط، يصير حدثًا في حياة كافكا.

التربية بوصفها تشكيلًا لخامة مشاكسة: لم يكن في بال الأب أو الابن بديل عن هذا المفهوم، ولا يعد الصبر النسبي للأم نوعًا من التربية، بل كان على الأرجح عائقًا أمامها. تعرف كافكا في المدرسة -في توقيت جاء متأخرًا- على أشكال أخرى للسلطة الذكورية، لها وجه إنساني مختلف.

كان يحضر في الصف الثالث والرابع لرجل شاب شعره بعض الشيء، يدعى "ماتياس بيك"، مدرس يهودي شديد الالتزام تربويًا، وكان يدير بتريونًا للتلاميذ "المعتنقين لديانة موسى"[١٢]. من الطبيعي أنه كان يقوم في حصصه ببرنامج التلقين المعتاد، ولكن كان لـ "بيك" اهتمام إنساني بالأطفال، يراقب تطورهم، ويقدم لآبائهم المشورة، وهو أمر غير معتاد على الإطلاق. عرف "بيك" كيفية الحفاظ على العلاقات الشخصية على الرغم من ضيق الوقت، كما نجح في تحويل حب التلامذة له إلى دافع للاجتهاد. طلب منهم، على سبيل المثال، قبل مغادرة المدرسة الابتدائية بوقت قصير زيارته في المنزل في العام التالي، ليرى شهاداتهم الأولى في المرحلة التالية. صحيح أن هذا الإجراء كان مفيدًا لتقييم تنبؤاته التربوية، ولكنه مثل أيضًا دافعًا إضافيًا للطلبة. قبل كافكا بالفعل هو وصديقه "هوجو برجمان" هذه الدعوة، محتوى ما سيعرضونه كان جيدًا بالقدر الذي يسمح بالدخول إلى المحراب المقدس لهذا الرمز السلطوي. لم يعد تأثير "بيك" كافيًا لزعزعة الصورة الهرمية للعالم التي استقرت في ذهن كافكا وما ارتبط بها من خوف تشبع به. عرف كافكا وهو في العاشرة من عمره أن التكيف والتجنب استراتيجيتان مطلوبتان لاستمرارية الحياة، هكذا نجح، كما أن المدرسة الثانوية لن يكون بها مدرسون مثل "بيك".

يبدو أن "بيك" قد تنفس الصعداء حينما نجح فرانز كافكا في القفز إلى المدرسة الثانوية دون خسائر تُذكر، فعلى الرغم من رضاه التام عن أداء الصبي المدرسي، فقد لاحظ ضعف بنيانه الجسماني وتأخره في النمو، فضلًا عن قدرته الضعيفة على تحقيق رغباته. غاب منذ سنين الدراسة الأولى غيابًا متكررًا عن المدرسة حينما كان يصاب بأمراض الطفولة المعهودة، كما ظل دائمًا "الطفل الهزيل" الذي احتفظت به الأم

في ذاكرتها. هل سيتحمل مزيدًا من الضغط في الدراسة؟ المعتاد هو قضاء عام إضافي بعد السنوات الأربع للمرحلة الابتدائية[١٣]، من أجل الدخول في المرحلة الثانوية، ومن رغب في الانتقال مباشرة كان عليه اجتياز قبول أولًا. قال "بيك" لوالدي كافكا: "اتركوه يذهب إلى الصف الخامس، إنه ضعيف، وسيكون لهذا الاستعجال أضرار في المستقبل."[١٤]

ذهب هذا الحديث هباءً منثورًا. طالب نجيب يقضي طواعية عامًا كاملًا بين من هم أقل منه في المستوى العقلي، ويكلف فضلًا عن ذلك مصاريف غير مطلوبة – كان هذا وضعًا يصعب قبوله في العائلة. وماذا كان رأي أسرتي "برجمان" و"هيشت" – المتعجلتين أيضًا؟ كانت المسألة مستبعدة بالنسبة لهما أيضًا، كانت مواد امتحان القبول هي الدين والحساب واللغة الألمانية، ولم تكن بالصعوبة الكبيرة، أي يمكن للصبية الثلاثة النجاح فيها، حتى مع فزع أحدهم الكبير من الامتحان.

تذكر كافكا بعد مرور عقود رأي السيد "بيك" الثاقب، ورأى أنه كان على حق، فقد ترتب على الاستعجال ما يفوق توقعات المدرس سوءاً بمراحل. لم تكن مطاردة منهكة لجسده، بل أيضًا لعقله، مما أبعد الزمن الداخلي عن الخارجي بمسافات طويلة، فتطايرت سنوات الدراسة مثل الحلم. ما كان لأفضل تربوي أن يتنبأ بكل الأحداث التالية، ولكن دون أن يدري تكهن المدرس بالقدر. أطلق تلميذه السابق فيما بعد على تقييمه أنه كان "مزحة تنبؤية"، بعد اجتيازه للعديد من الامتحانات وحصوله على الدكتوراه وموت المدرس بزمن طويل.

مدينة تغرق

"مهمة الحياة الكبرى
هي الإصرار على الاستمرار فيها."
بيتينا فون ارنيم، مراسلات "جوته" مع طفل

تذهب مجهودات رجال الأمن العام لإعادة النظام فوق الجسر البراغي "كارلس بروكة" هباءً، تجمع المئات من المشاهدين منذ الصباح، وعلى الرغم من هطول الأمطار، يريدون متابعة مشهد ثورة الطبيعة عن قرب، بعد أن أفزعتهم ليلًا المدافع التي أعلنت عن قرب حلول موجة فيضان. احتل بحر من المظلات الرصيفين، بينما كانت المربات وعربات بيع الحليب والترام التي يجرها الفرس تجد صعوبة في شق طريقها بين الجموع. يعينها على ذلك ضباط الشرطة الذين يصبون لعناتهم على جموع البشر ليواصلوا السير. تشبثت نظراتهم بطوفان الماء العالي والبني اللون المندفع عبر أقواس الجسر ومعه مواد طافية لا تحصى: قوارب، وحيوانات نافقة، وأثاث مُهشم، وجذوع شجر، بل أطواف ضربت بقوة ركائز الجسر، فتحطمت وجعلت الطريق يهتز. تخطى منسوب نهر "المولداو" النسبة الطبيعية بمترين ونصف، ولكن الأخبار المرعبة الآتية من مدن تقع أعلى النهر تشير إلى أن هذه مجرد البداية.

ارتفع المنسوب بعد الظهر ليصل إلى ثلاثة أمتار ونصف، ثم إلى أربعة أمتار ونصف في المساء. من كان لديه الوقت والأعصاب للبقاء فوق جسر تمكن من رؤية جزر "المولداو" وهي تختفي شيئًا فشيئًا. فلم يظهر في الماء سوى مصابيح الغاز والأشجار المكسورة، يندفع النهر فوق الشواطئ حاملًا معه كمًا رهيبًا من الوحل إلى "يوزيف شتاد"، إلى الغيتو القديم. لم تتفرق الجموع فوق الجسر إلا في آخر المساء، بعد أن أخليت شوارع بأكملها على الوجه السرعة. تعذر مع حلول الظلام متابعة الكارثة عن قرب. لحسن الحظ، كما سيتضح لاحقًا.

توافد في صباح اليوم التالي -في الساعة الخامسة والنصف- ومع بداية نور الشفق عشرات البشر إلى الجسر، انحنى بعضهم لأسفل ليواجه مشهدًا مريعًا لم يحدث منذ ثلاثين عامًا مضت: تكومت أمام جسر "كارلس بروكة" مئات من جذوع الشجر والكتل الخشبية التي تشابكت وشكلت مانعًا عريضًا، كان من شأنه رفع منسوب المياه أيضًا. وصل الفيضان إلى قمته ليبلغ المنسوب خمسة أمتار ونصف فوق المنسوب العادي. تطايرت رغاوي البحر على التماثيل الضخمة لقديسي الباروك الذين زينوا سور الجسر. ثم حدثت الكارثة: دفعة، وشق في رصيف الطريق، وخرجت السكك الحديدية للترام عن مسارها، وصوت طرقعة كأنه انفجار، وهاجت سحابة بنية ضخمة، يجري بعض المارة فرارًا من الموت، وتفر عربة حنطور للخلف سريعًا، وينهار قوسان للجسر بدعاماتهما ويختفيان داخل الموجة العالية.

ظل انهيار الجسر في يوم الرابع من سبتمبر عام ١٨٩٠ في ذاكرة البراغيين الذين عاصروه إلى الأبد؛ لأنه كان حدثًا غير متوقع على الإطلاق: واجه هذا الشريان الذي لا يمكن التخلي عنه -صاحب المغنى

الرمزي- طيلة نصف ألفية كل التقلبات الطقوسية الممكنة، أما الآن فصار جرح المدينة جليًا للجميع. على الرغم من وفاة ضحيتين فقط في الحادثة، إن التقارير الصحفية الممتدة لصفحات في الجرائد اليومية تظهر حجم الصدمة، ولكن ما ظهر أيضًا على نحو واضح هو رد فعل المواطنين، حالة اشتهاء غريبة كأنهم وقعوا تحت تأثير النوم المغناطيسي. كانت السيطرة على فضول المشاهدين قبل يوم واحد من وقوع الكارثة غاية في الصعوبة، أما بعدها فصار الجسر المهدم نقطة جذب، حتى بالنسبة للعمال والمواطنين البسطاء الذين توافدوا من الضواحي إلى داخل مركز المدينة التاريخي. نعرف من التوثيق أن الجموع كانت تترجى قوى الشرطة المتحكمين في المداخل إلى الجسر والأرصفة البحرية ليسمحوا لهم بإلقاء نظرة عن قرب. أما المصورون المحترفون الذين وصلوا في اللحظات الأولى فعقدوا بصورهم التذكارية صفقات العمر.

تجمعات البشر لمشاهدة أي حدث والانبهار به هي سمة هذا العصر؛ إذ لم تسمح وسائل الإعلام التكنولوجية بتوثيق هذه الأحداث، ولم تقدم الصحف اليومية أي صور فوتوغرافية. إذًا يجب أن يعايش الفرد الحدث بنفسه ليكون حاضرًا. تكونت تجمعات بشرية في الشارع حول كل معركة في الشارع، وحول كل فرس مصاب، وحول كل ترومواي يخرج عن طريقه (وهو أمر كثير الحدوث)، دائرة المتفرجين هذه لم تحضر وتذهب دون أي تأثر بالحدث، بل يتكون سريعًا مجتمع صغير يتناقش مع أشخاص غرباء حول الحدث، يتحدثون مباشرة إلى أطراف الحدث ويتدخلون فيما يدور أمامهم (وصف كافكا هذا الموقف الذي تعرض له في براغ وصفًا تفصيليًا[1]). كان الناس يعرفون الأحداث التي تستحق المشاهدة مشافهة، وكانت الشائعات تلعب دورًا هامًا في نقل الأخبار والتحكم في اهتمامات الرأي العام. إن أكثر الأحداث إثارة في

براغ عام ١٨٩١ ـالتي كان يصعب تحديد ميعادها مسبقًا– صارت فعالية شهيرة من خلال الدعاية الشفهية: طيران منطاد يحمل ركابًا من فوق براغ على مرأى من آلاف المشاهدين الذين تجمعوا في التو واللحظة. تُظهر أيضًا الصور التاريخية في براغ لأول حنطور يدفعه محرك – ("موتوروفي كوتشار" باللغة التشيكية)، لم يجدوا في عام ١٨٩٨ مصطلحًا أفضل من ذلك – العربة وحولها جموع من البشر نظراتهم في منتهى الجدية.

لم يكن الحضور ممكنًا في كل الأماكن، فضلًا عن قدرة قلة من البشر على السفر لإشباع الرغبة في مشاهدة ما هو جديد، لذا كان هناك شعور بالعرفان تجاه أي نوع من تغطية هذه الأحداث: تقارير صحفية مفصلة عن أقدار تعيسة وجرائم وفضائح أخلاقية، تحركها شهوة تلصص قاسية، وروايات رخيصة تباع على أبواب المنازل، وجاذبية السيرك ومسرح المنوعات والملاهي السنوية، وأخيرًا المسرح بما يقدمه من تجارب معايشة مثيرة تجري مناقشتها وكأن خشبة المسرح تشهد سيلًا من الدماء – مشاهد شبيهة بما يحدث اليوم في الساحات الرياضية. ارتبطت التجارب الحسية بالمكان والزمان، كانت ثمينة وليست لمجرد الاستهلاك، بل ترتبط بطقوس احتفالية. تجربة المعايشة المباشرة هذه، التي كانت بعيدة عن التغطية الإعلامية الموجودة اليوم بنزعتها الاستهلاكية، ظهرت ظهورًا مؤثرًا في التعامل مع الموسيقى: من رغب في الاستمتاع بهذا الانفعال الحسي –الذي صار منذ فترة طويلة مقبولًا– كان عليه أن يعزف الموسيقى بنفسه، أو أن يرتاد الأماكن التي يعزف فيها آخرون من أجله. ومن هنا، جاء حضور عشرات الآلاف من حصص البيانو والكمان داخل الطبقات البرجوازية في القرن التاسع عشر، فضلًا عن حفلات الموسيقى التي لا تنتهي داخل المصحات

والمنشآت العسكرية والفنادق والمنازل. من كان له مزاج للغناء تمكن من ذلك، دون أن يلفت إليه الأنظار، حتى في المشهد العام. انطلقت من الحانات العديدة أغان ليلية من وسط جلسات احتساء النبيذ، الجميع يعرف عشرات من الأغاني الشعبية التي يدندن بها أو يصفرها بينه وبين نفسه.

إنه جيل كافكا الذي عرف نوعًا جديدًا من المعايشة، معايشة تحجبها مسافة، فيها سلبية، يمكن تكرارها وليست مرتبطة بالحضور الجسدي. لا نعرف إن كان قد استوعب، وهو في الثالثة عشرة من عمره، الصور الأولى في تاريخ السينما، تلك "الصور الحية" التي كان يبثها أحد الفنادق البراغية، ولم يفت آل كافكا في الأغلب هذا الحدث الذي لم يكلف مالًا، وكان مسموحًا للشباب بمشاهدته. يجب علينا تخيل الوضع التالي: في الوقت الذي لم ير المواطن البراغي العادي فيه شخصًا مثل القيصر إلا مرتين أو ثلاثًا في حياته، تمكن الآن من مشاهدة القيصر الروسي وزوجته على شاشة مضاءة في فندق "أوتيل دو ساكس"، مشاهدة متكررة من العاشرة صباحًا وحتى التاسعة مساءً.[٢] شمل البرنامج المعروض معركة في سلاح الفرسان، وموكبًا كنسيًا، ومجموعة من البشر يمرحون في حمام سباحة، إنه برنامج نال رضا رجال الدين القلقين. من قام بدراسة صحف "برلينر تاجسبريسة" التي كانت موجودة في العديد من مقاهي براغ، كان سيكتشف أن هذه نسخة معدلة من قبل الرقابة في الجمهورية النمساوية المجرية. كان لرواد الترفيه التقني "أديسون، ولوميير، وسكلادانوفسكي" برنامج مختلف: يشتمل على لاعبي خفة، وراقصي النقر الروس، ومعارك بين الديوك، ورجال كمال أجسام يستعرضون عضلاتهم، ونساء يتصارعن بوسادات، ومباريات ملاكمة لحيوان الكنغر.

"أطالب بعد دفني خمسين مليمًا بحقي في مخاطبة غرائزي الدنيا" لم تكن صدفة أن تأتي هذه المزحة المعروفة داخل دور العرض السينمائية من مدينة برلين الكبرى، المتقدمة في مجال التكنولوجيا، في حين لم يكن هذا الوقت قد حان في منطقة بوهيميا النائية لطرح النقد في وسيلة المتعة الجماهيرية بهذا الأسلوب المستخف. ما هو معتاد اليوم لكسر الأدوار والأيديولوجيات الاجتماعية كان حينها محل التدريب، ولم تكن السخرية بوصفها لعبة حرة مثقفة متاحة إلا في الأدب أو على خشبة المسرح. لم يغلب أيضًا على الجرائد الساخرة التي كانت محبوبة في عهد القيصر أية حنكة ساخرة؛ فقد أطلقت إحداها على نفسها اسم القنبلة مع أنها لم تكن قنبلة على الإطلاق. كانت في أغلبها جناسًا لغويًا، وتلميحات صبيانية، وصورًا نمطية لعرقيات بعينها. لم يختلف الحال بالنسبة للملاحق الترفيه للجرائد اليومية التي كانت سخريتها مراقبة، وتبدو اليوم غاية في الملل: ربما كان الهدف مجرد الابتسامة، وليس الضحكة المتحررة وربما الشريرة أيضًا. سار مجال الدعاية والإعلان على النهج نفسه، مباشرة وبساطة وملل، اعتمد ما هو "معتاد" و"معترف به بوصفه الأفضل"، و"بشروط غاية في المرونة"، تحاشى أية مزحة قد يكون لها معنى آخر، خوفًا من التشكيك في جدية البضاعة المعروضة.

كان للسخرية في الحياة اليومية نوع من الخطورة، عدّها البعض موقفًا عدوانيًا وسلاحًا جارحًا يستخدم كثيرًا في سياق الصراعات القومية بين الألمان والتشيك. كان أي تعليق ساخر كافيًا في تسعينيات هذا القرن للمطالبة بالمبارزة. التعليقات الهامشية الحادة التي سردها كافكا على لسان أبيه كانت سهامًا مسمومة؛ تهدف إلى تأثير شرير – لا يمكن تصور أن هيرمان كافكا كان سيسعد بأي نوع من السخرية، أو حتى

السخرية الذاتية. كان هذا سيتطلب قناعة بأن أنماط السلوك الاجتماعية والنظم الهرمية أمور نسبية وقابلة للزوال. إن البشر الذين يسعون بكل إصرار للوصول إلى شيء ما، ليسوا آخر من يرغبون في إدراك هذا السعي.

غلب على الحياة البرجوازية في نهاية القرن التاسع عشر نظام طبقي محكم وهياكل قيادية، كانت أكثرها وضوحًا الهياكل العسكرية، التي لم تُعد ظاهرة قديمة عفى عليها الزمن، بل ظاهرة ممثلة لمجتمع بأكمله. كانت هذه النظم الهرمية جلية داخل المدارس والجامعات والهيئات الحكومية، وفي المصانع والمكاتب، وأيضًا داخل العائلات. صاحب الأمر محدد بوضوح في كل مكان، وصيغة الأمر لغة تخاطب معتادة بين البشر. لم يكن مطلوبًا تغليف أشكال الحرمان أو تجميلها بلاغيًا، ما دامت ملتزمة بالقواعد العامة. لم يجد الهجوم الصريح على النظم الموروثة -من جانب الحركة النسوية أو اليمين السياسي مثلًا- ردود أفعال مثل اليوم من خلال استراتيجيات الإدماج، بل وجد إجراءات ضده تستخدم السلطة المفرطة. أمَّنَ هذه المنظومة نظام رقابي، ليس غاية في الإحكام، ولكنه مرئي ويمكن لمسه: لا يُسمح بالاجتماعات العامة ولا العروض المسرحية دون وجود موظف يدون ملحوظاته، التعرف عليه أمر سهل، ولا يسمح بإصدار جريدة يومية، أو الإعلان، أو أية ورقة بسيطة دون ختم اعتماد الرقابة.

إنه تكوين اجتماعي محكم التفاصيل، لكنه متصلب، وما لم يتحمله على الإطلاق هو أي نوع من عدم الدقة الاجتماعية: التحفظ الساخر، أو التلاعب بالحدود الاجتماعية. إن تأملنا صورًا تاريخية من زمن كافكا فسنلحظ هذا من خلال منظومة الملابس الصارمة التي

تعكس الوضع الاجتماعي، وتسمح سريعًا بتحديد الأشخاص الغرباء على هذه الهرمية الكبيرة. استعارة سمات أسلوب ملبس معين لم يكن من باب الدعابة، بل على سبيل الاحتيال لإظهار مستوى اجتماعي مزيف. لم يعرفوا حينها أوقات الفراغ، وظل كل دور اجتماعي يمارس حياته ما دام موجودًا في الحياة العامة. يظل موظف الدرجة الأولى بعد ساعات العمل موظف درجة أولى أيضًا، ولم يخطر قط بباله أن يغير ملابسه التي تميزه اجتماعيًا لمجرد أنه سيجلس في حانة مع أصدقائه، أو سيتنزه مع زوجته، أو سيسافر بالقطار إلى بحر البلطيق. لم يكن لمصطلح "أوقات الفراغ" أي استخدام؛ لأنه لم يكن مطلوبًا من الأساس. سار الخط الفاصل في الحياة اليومية بين الداخل (الأسرة وأحيانًا غرفة النوم فقط) والخارج (كل ما هو باقٍ)، ولم يسر الحد الفاصل بين أوقات العمل وأوقات الفراغ.

كان للعلامات ذات الطابع الرسمي وضع خاص، أي كل ما هو ممنوح مثل الزي الرسمي، وقبعات وظائف بعينها، والشارات والأوسمة، وكذلك الألقاب. لقنت رياض الأطفال تلاميذها احترام هذه العلامات، مما كان له الأثر المطلوب، اعتبار كل هؤلاء شخصيات سيادية يخافونها: ضابط الحماية بالقبعة والسيف والسلاح، حارس الحديقة الذي يحمل معه العصا، محصل الرسوم عند الجسر (باستثناء جسر كارلس بروكة، الذي كان عبوره بالمجان)، وحتى حارس الفندق. كانت ممارسة كل هؤلاء لمهامهم بأمر أعلى سببًا كافيًا لهذا الخوف. تكرر استخدام كافكا لهذه العلامات الاجتماعية في أعماله الأدبية ليشير إلى وجود علاقات سلطوية، وبالتالي وجود تهديد مستتر، تاركًا مهمة تفسير هذا التهديد للقارئ. يرتدي فجأة والد جريجور سامسا –موظف فاشل لم يعمل منذ خمس سنوات مضت- في رواية "المسخ" "زيًا أزرق

مشدودًا" لموظف مصرفي "بأزرار ذهبية". يرتدي الحراس في رواية "المحاكمة" ملابس تشبه الزي الموحد، يصعب تحديد هدف لها، كما أن المستمعين في قاعة المحكمة يحملون فوق ياقاتهم الشارات نفسها غير المفهومة التي يحملها القضاة - يبدو أنهم عملاء لمكلف بالمهمة يظل مجهولًا.[٣]

يُقصر كافكا معنى هذه الشارة الممنوحة على جوهرها الفعلي: ما هو إلا إجراء لتعزيز الهرمية القائمة. إنه يفهم قواعد اللعبة، ويعرف أن السلطة يمكنها الاعتماد في أي زمان ومكان على غرور الأفراد الذين يملكونها. ولكن لا يعني إدراك كافكا لذلك أنه سيفلت بوصفه مواطنًا في مجتمع أبوي من الشبكة المحكمة لهذه العلامات الاجتماعية. حينما كتب النسخة المبدئية من هذه الرواية -التي ستكون بعد نشرها لاحقًا سببًا لشهرته العالمية- كان قد حصل على الدكتوراه منذ زمن طويل، ولم يخاطب بلقبه الأكاديمي في العمل فحسب، بل أيضًا من قبل جيرانه ومعارفه وناشر أعماله أيضًا. لا نجد في تدويناته أي أثر لرؤية ساخرة تجاه هذا الاحترام وتأثيره في الآخرين. كان بعيدًا عن تفكير كافكا تمامًا إظهار فكر معاكس للبرجوازية، أو إظهار أي نوع من حرية "الفن" من خلال التهاون مع قواعد الملبس، وتصفيف الشعر أو المعاملات، كارتداء رابطة العنق على شكل فراشة، أو ارتداء قبعات عريضة على سبيل المثال.

هناك عدد ضخم من النصوص الألمانية التي تستحضر صورة براغ "القديمة": أدب الذكريات الغني الذي كانت أشهره السير الذاتية لكل من "فريتس ماوتنر" وماكس برود، والتقارير المعتمدة في أسلوبها على سرد النوادر برشاقة مثل الكاتب "هوجو أرفين كيش"، وأخيرًا الروايات

والقصص التي تجري أحداثها على خلفية مدينة براغ المرسومة بدقة، وكثيرًا ما تكون هذه الخلفية هي بطلة الرواية نفسها، مثل رواية "حديقة المدينة" للكاتب "هيرمان جراب"، ورواية "منزل على نهر المولداو" للكاتب "باول فيجلر"، ورواية "لوحة براغ الثلاثية" للكاتب "يوهانس اورزيديل". إن غلب في قراءتنا لهذه الروايات الاهتمام التاريخي على الاهتمام الأدبي فسنكتشف سريعًا عدم مطابقتها للواقع على طول الخط، على الرغم من كثرة التفاصيل الحسية المصدق عليها. من الصعب الجمع بين طابع المدينة الذي يغلب عليه الدمج بين أنماط مختلفة -وكثيرًا ما تغفله الرؤية الألمانية- والبيئات المتنوعة التي فصلت بينها حواجز لغوية وثقافية واجتماعية، ناهيك بسردها من منظور قاص واحد أو حصرها من ذاكرة فرد واحد: الشقق الواسعة التي زُينت حوائطها بالجبس والمطلة على حديقة المدينة (حيث قضى الكاتب فيرفل طفولته)، والأزقة المتداخلة والممرات بين المنازل في البلدة القديمة، وقصور النبلاء الفخمة في منطقة "كلاين زايتة"، وحي "الأساتذة الألمان" في "سميخوف"، ومجمعات المساكن المؤجرة التي يعلو منها الضجيج في (شيشكوف، التي تمنح رواية "المحاكمة" لكافكا انطباعًا عنها)، وأخيرًا محال الخردوات والحانات برائحة مشروب الأفسنتين في منطقة "يوزيف شتاد". لا توجد رواية ضخمة عن براغ تجمع بين كل هذا في علاقات محسوسة، عمل قد يُماثل بانوراما مدينة فيينا للكاتب "دودارار" باسم "درج شترودل هوف". إن أراد كاتب الدخول في هذه التجربة بجدية، فعليه أولًا التحرر من الوصف المفصل والمتكرر للحياة الثقافية الألمانية ذات الطابع البرجوازي، وكذلك الاستطراد المحب لبراغ الباروكية؛ إذ لا يمثل ذلك بالفعل إلا جزءاً بسيطًا من صورة المدينة الشاملة.

يرتبط بهذه الرؤية تشويه آخر غير جلي، ولكن تأثيره مستدام. سينظر سكان براغ الذين عاشوا في مرحلة الشباب تدهور حال المدينة

بعد الحرب العالمية الأولى وانقلاب ١٩١٨ إلى العقود التي سبقت هذه الأحداث على أنها مرحلة سالمة ومتجانسة، مقارنة بما هو قادم. قد يكون ذلك صحيحًا – ولكن برؤية نسبية، كان هناك تحت غطاء مهلل للعبارات السياسية والطقوس إيحاء بالاستمرارية، في حين أن الثورات الاجتماعية والتكنولوجية والأيديولوجية كانت في حالة حراك على نطاق كبير. صحيح أن إيقاع حركة الصناعة السريع، والنمو المتزايد للمدن المحيطة، والتحول من مدينة ألمانية إلى مدينة في أغلبها تشيكية، له تأثير على الخلفية التاريخية لبراغ؛ فالسائح المتجول بين الطريق الدائري وساحة "فينسلس بلاتس" سيتمكن من تصديق وهم وجوده في مدينة ألمانية زاخرة بالمعالم التاريخية. ولكن كان البراغيون يمرون في حقيقة الأمر مع نهاية القرن بمرحلة تحول لبيئتهم بالغة السرعة، كان من شأنها جعل صور براغ –بوصفها مدينة ساحرة من عصر "بيدرماير" في القرن التاسع عشر- صورًا عفى عليها الزمن، وهي الصور التي اتخذت لاحقًا بعد سقوط إمبراطورية الهابسبورج صبغة مثالية.

كانت الاختراعات التقنية هي الأكثر ظهورًا، صحيح أنها لم تنتشر بالسرعة التي هي عليها الآن، ولكن تجمعها مع نهاية القرن أدى إلى نشأة سياق ثقافي وسياسي خاص، ولم تستطع أي رقابة -حتى مع يقظتها- التخلص منه: أشارت هذه الاختراعات إلى بداية عصر جديد سيتخلص عاجلًا أم آجلًا من واجهة دولة الموظفين النمساوية. اتخذ هذا التحول إلى الحداثة شكلًا مؤثرًا من خلال "المعرض الدولي العام" الذي عقد في عام ١٨٩١ على أطراف براغ، في ساحة ضخمة داخل الحديقة الملكية. دارت نقاشات رسمية عنيفة حول هذا المشروع، وكانت لها سمة الحداثة أيضًا، فمن خلال مرحلة الإعداد التي استمرت سنوات اتضح الاختلاف الشديد حول تنفيذ هذا المعرض، الذي يجب عليه جمع

الصناعة والحرفة في بوهيميا على نحو مثير للاهتمام: فضل الألمان معرضًا للمبيعات -على مستوى الإمبراطورية النمساوية- يدين بولائه للدولة، في حين كان المعرض العالمي الذي أقيم في باريس عام ١٨٨٩ مثالًا يحتذى به بالنسبة للتشيكيين، على أن يكون رمز دولة الهابسبورج مجرد حلية تاريخية. تصاعد الخلاف بين الرأيين لدرجة انسحاب عدد كبير من رجال الأعمال البوهيميين الألمان بحجج واهية؛ فقد اتخذوا قبل افتتاح المعرض بستة أشهر قرارًا بالمقاطعة العامة، على الرغم من أن القيصر شخصيًا كان الراعي الرسمي للمعرض. كان تصرفًا ينم عن ضيق للأفق وقصر للنظر؛ إذ أثار استياءً كبيرًا في فيينا، وترتب عليه في وقت قريب ندم كبير.[٤] صار الطريق مفتوحًا أمام التشيكيين ليحولوا المعرض إلى ضربة حظ كبيرة على الصعيد التكنولوجي والسياسي، بل إلى مقصد قومي. عرضوا الصناعة البوهيمية على أنها إنجاز تشيكي فريد، واستعرضوا من خلال الارتباط الرمزي بباريس عالمية الشعب التشيكي وتطلعه للمستقبل. جاء ذلك على هوى الإدارة في البلدية -التي كانت في أغلبها تشيكية- إذ بادرت بتنفيذ كل الأمنيات العجيبة التي تمناها العارضون.[٥]

وافقت الإدارة في البلدية أن يكون للمعرض تأثير مستمر على شكل المدينة: صار لبراغ برج إيفل خاص بها (ما زال محبوبًا حتى اليوم"، برج حديدي ارتفاعه ستون مترًا فوق جبل "لاورينسيبرج" ("باترشين" بالتشيكية)، فضلًا عن قطار معلق خاص بالمدينة، بادر بإنشائه "نادي السائحين التشيك" المولعون بباريس، وليست البلدية أو الدولة. من كان يختار طريق "بلفيدير أنهوهة" ليصل إلى أرض المعارض كان يعيش أول تجربة مثيرة: عربة ترام بلا فرس تجرها يد مسحورة، إنه إنشاء تجريبي لأول خط ترام

كهربائي في براغ، يتعين أن تقنع هذه التجربة أكثر الشخصيات مقاومة ببركات التقدم التقني. قام أول الراكبين، الذين فهموا العلاقة بين التقنية والسياسة بإطلاق الصيحات "سلافا". كان المسؤول عن هذا الإجراء شركة الهندسة الإلكترونية لصاحبها المهندس "فرنتيشك كريشيك"، المعروف بـ"إديسون بوهيميا". لم يفاجئ البراغيين للمرة الأولى؛ فقد أضاء في عام ١٨٨٣ الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة بمصابيح كهربائية، أظهر بذلك فوق أرض تاريخية وبأسلوب حسي شكل براغ الحديثة في المستقبل.

كان لأرض المعارض محطة كهرباء خاصة بها، إنها سلطة الكهرباء في المستقبل التي غلبت هنا أيضًا على المشهد العام. لا شك أن المنظمين وجهوا أنظارهم نحو فرانكفورت حيث كان "المعرض الدولي للهندسة الإلكترونية" يقدم في الوقت نفسه إبداعات خرافية: منها نقل للطاقة الكهربائية عبر مسافات تبلغ ١٧٥ مترًا، وكشاف يمكن رؤيته من مسافة ستين مترًا، ومصاعد كهربائية تتحرك سريعًا. لم يكن التشيكيون قادرين على المنافسة بعد، ولكن في القاعة الضخمة المبنية من الحديد والزجاج، تلك التي تعرض الماكينات في حديقة الأشجار، منحت المصابيح القوصية والمولدات الكهربائية شعورًا بإمكانات هذه الطاقة الجديدة، التي جعلت بحضورها السحري تحقق الحلم بمجتمع حديث وسعيد أكثر قربًا. كان المبهر في هذه الظاهرة الجديدة هو عدم رؤية هذه الطاقة بالعين، الحصول عليها مباشرة عبر زر للتشغيل والإغلاق، سرعتها التي مكنتها من تجاوز أي مكان وخلق تأثيرات مبهرة عن بعد، وأخيرًا التأثير الحسي الدقيق للكهرباء، التي لا تغتصب الطبيعة أو تكسوها بالتراب، وإنما تضفي عليها جمالًا: ظهر ذلك بوضوح من خلال "الفونتان لومينوز"، تلك النافورة الضخمة ذات الألعاب المائية

بأضوائها الملونة، التي جذبت وحدها مئات الآلاف، لا سيما الزوار من سكان الأرياف الذين كانوا يستخدمون حينها المصابيح بالكيروسين وعدوا النافورة بمنزلة المعجزة. كان عنصر الجذب الأساسي للمعرض بناية من الأقواس الحديدية على ارتفاع خمسين مترًا، وعلى تراث الفن الجديد، الذي كان وقتها آخر صيحة فنية: إنه "قصر الصناعة"؛ الذي أضيء في المساء بعدد لا حصر له من اللمبات. أخفى هذا الاسم وحده -في زمن كانت القصور فيه مراكز قوة وليست متاحف- قدرة على الإثارة (حتى إن عرض هذا القصر في الأغلب الصناعات الصغيرة لبوهيميا دون الصناعات الكبيرة). فات على جميع المراقبين أن لهذا العالم الجديد والجميل ظلالًا سيلقي بها في زمن لاحق؛ إذ إن للكهرباء قدرة على الميكنة والاستيلاء على مكان البشر، لم يدرك هذه الحقيقة سوى قلة من المهندسين ذوي الأفق الممتد خارج بوهيميا. ألم يكن الأمر مضحكًا؟ تغذى ماكينة بالصفيح من ناحية، فتخرج من الناحية الأخرى -دون أي مساعدة ظاهرة من يد بشرية- علبًا من الصفيح الجاهزة المغطاة، يمكن حملها إلى المنزل. انبهر الصغار والكبار على حد سواء بهذا المشهد.

زار فرانز ذو الأعوام الثمانية هذا المعرض؛ بالتأكيد أكثر من مرة. كانت الرحلة المدرسية الجماعية إجبارية، وافق عليها التربويون الألمان بعد تعرضهم لضغوط سياسية. كان هناك قطار خاص على مدار صيف عام ١٨٩١يصل إلى براغ مقلًا فصولًا مدرسية وعمال المصانع من بوهيميا وفيينا، حتى من خارج البلاد؛ لم يكن إبعاد التلامذة الألمان في المنطقة نفسها عن فعالية تعليمية شهيرة كهذه مبررًا. لم يفت على عائلة كافكا أيضًا -على الرغم من أسعار التذاكر الباهظة- هذا الحدث الاجتماعي الكبير، ربما كان الأهم في حياتهم. لأسباب مهنية كان

الاهتمام بالتعرف على منتجات مصانع النسيج الجديدة في براغ، وزيارة أجنحة كبار التجار مطلوبًا، وبالقطع كانت عدم المشاركة في معرض القرن هذا ـالذي أبهر الزبائن التشيكيين على مدار شهورـ تعني إضاعة الفرصة. فما يُعرض هنا لا يتخيله عقل: ماشية، ومستحضرات كيميائية، وحلي، ومناظير، ومجاهر، وآلات تصوير للمبتدئين، ومعدات إطفاء، وآلات موسيقية، وزهور طبيعية وصناعية، ووسائل تعليمية، ووسائل زراعة الأسماك الحديثة، ونموذج منزل ريفي من منطقة بوهيميا القديمة بالتماثيل والأجهزة المنزلية، وسرادقات مخصصة للنبلاء وللصحافة اليومية، "ملقف هوائي" ضخم، ومعرض فني في مبنى خاص به. ولا ننسى الخمور والنبيذ لصاحبها أنجيلوس كافكا، الأب الروحي لفرانز، الذي كان له جناح خاص. كان المعرض، فضلًا عن ذلك، مدمجًا بنجاح في بيئته المحيطة، وملحقًا به وسائل تغذية مختلفة. كان كل شيء متاحًا ـبداية من المطاعم في الحدائق، مرورًا بتقديم مشروب الكاكاو، ووصولًا إلى البار الأمريكيـ من أجل الاستجمام وقضاء أوقات سعيدة. لم يفت على التلاميذ تجربة ركوب "المزلقة" الممتدة لأكثر من مائة متر، والتي تعد الشكل المبدئي للأفعوانية.

شاهد فرانز في الأغلب الماكينات الصناعية وهي تعمل بكفاءتها الكاملة هنا للمرة الأولى، ومعه أغلب الزوار الذين لم تصلهم صور من عالم الإنتاج الميكن من قبل. سيكون له لاحقًا رؤية أكثر عمقًا لهذا العالم، ولكن لا شك أنه احتفظ بذكرى الانطباع الحسي المبهر. كان ذلك هو الحال أيضًا بالنسبة لجهاز "الفونوجراف"، المعروض لأول مرة في بوهيميا، إنه جهاز سحري، سيلعب لاحقًا دورًا محددًا في حياة كافكا، كما أنه أصاب كل من كان يأتي إلى جناح

شركة "إيديسون" بالذهول. صحيح أنهم عرفوا من قبل أجهزة تطلق ألحانًا من تلقاء نفسها؛ فبعض الملاهي اشترت ماكينات موسيقى الأوركسترا التي يتحكم فيها شريط نوتة موسيقية. كان جهازًا مصممًا بذكاء وتفاصيل معقدة، ولكن آليته مفهومة وليست جديدة تمامًا. أما الفونوجراف فكان يصدر جميع الأصوات وفي الحال: المحادثات، والغناء، وأنغام الكمان وزقزقة العصافير – كان الإمساك بكل هذه الظواهر العابرة داخل صندوق أمرًا متاحًا، وكذلك إخراجها أيضًا بحسب المزاج بعد أسابيع تكون قد مضت. كان هذا بمنزلة هجوم على الزوال الدنيوي، وهو الثاني من نوعه بعد اختراع التصوير. إنها نظرة إلى مستقبل بعيد، سيتمكن فيه الإنسان من التحايل على الزمان والمكان وقوانين الطبيعة، بل على الموت نفسه. أعلنت الأصوات الشبحية المنبعثة من الفونوجراف عن هذا المستقبل، ولكن ـعلى الرغم من كل الانبهار بهذا التقدمـ لا يمكن سماع هذه الأصوات دون رجفة ولو بسيطة.

لم يكن ذلك كل شيء، كان كافكا منبهرًا بأجهزة الطيران في وقت لاحق، ومن المرجح أنه كان سيحب الطيران فوق براغ في حال موافقة أهله على الفكرة والتمويل. كان هناك منطاد مربوط في المعرض يأخذ الزوار المستعدين للمغامرة لأكثر من مرة يوميًا إلى أعلى قمة لقصر الصناعة. استخدم للأسف فيما بعد وباستهتار على أنه منطاد هوائي، فانفجر وسقط من ارتفاع يبلغ آلاف الأمتار[٦]، واختفى المالك دون أي أثر. تحولت ساحة المنطاد إلى مكان خالٍ سكنته لفترة الأفيال المروضة والأسود واللغة السواحلية.

عد البراغيون الواعون بالأمور السياسية هذا المعرض الدولي لمنطقة بوهيميا حدثًا جديرًا بالاهتمام؛ لأنه فتح نافذة جديدة لمدينة كساها

تراب التاريخ: دخلت نسمة مستقبل، مثلما يدخل النسيم في غرفة مكتومة. مليونان ونصف من الزائرين قد منحوا مدينة براغ وجاهة عظيمة الشأن. ظل الأطفال والشباب يتذكرون هذا المعرض؛ لأنه مَثَّلَ مجموعة مكثفة من الانطباعات الجديدة والغريبة، ولأنه -مع الظهور الفعلي للقيصر- أدخل المدينة في حالة طوارئ دامت أيامًا لتزيينها بمجهود يفوق الخيال. كانت أيامًا احتفالية، وقفت مدارس بأكملها في صفوف وسط الآلاف من البشر. حتى إن لم يجد القيصر الأب وقتًا لتشريف المدرسة الابتدائية الألمانية في البلدة القديمة بنفسه، فإن التلميذ كافكا وجد فرصة لرؤية من سُمِّي باسمه، لأول مرة وبنفسه؛ لأن صاحب المعالي مر في مساء يوم ٢٧ سبتمبر -هل كان حلمًا؟- مع العمدة والمحافظ وحاشيته الكبيرة على شارع "سيلتنر جاسه" الذي ملأته الأعلام باللونين الأسود والأصفر وكذلك صيحات التبجيل. ظهر القيصر بنفسه في عربة فخمة وبزي رسمي، مومئًا رأسه بلطف في جميع الاتجاهات، مر ببطء من أمام الصفوف التي تراجعت للوقوف عند حوائط المنازل في الزقاق الضيق، ومر أيضًا على محل الخردوات اليهودي كافكا وهو في أجمل صوره. وكأن هذا الظهور العظيم ليس بمعجزة كافية، تكرر المشهد في مساء اليوم التالي حينما تحرك أسطول العربات في الاتجاه المعاكس إلى الطريق الدائري، ليمر مرة أخرى من شارع "سيلتنر جاسه"، مضاءً بآلاف المصابيح المتوهجة، تغمرها أضواء مدينة كبرى، لتتحول، ولأول مرة في تاريخها، ليلها إلى نهار.[٧] بالتأكيد كان انطباع فرانز متناقضًا أن يرى أباه بسلطته المفرطة -ولكنه مخلص للقيصر حتى النخاع، ومنبهر بالبريق الخيالي والديني- وهو ينحني أمام من هو أكثر سلطة منه. كان هذا يثيره للعبة بأفكاره: ماذا لو وجهنا نظرة حيادية في الغاية إلى كل هذا الثراء الفاحش؟ نظرة يعجز عنها الأب

ومن سواه. ألن يؤدي ذلك بهذه النظامية الجبارة إلى الانهيار التام؟ قد تكون من هنا بداية الحرية، حتى إن اتخذ هذا الازدراء مجراه داخل عقل صبي في الثامنة من عمره، طفل لا يهتم به أحد. دَوَّنَ لاحقًا وبعد مرور عشرين عامًا: "كم كنت باردًا وأنا طفل! تمنيت كثيرًا مواجهة القيصر لأريه أنه بلا أي تأثير. لم تكن هذه شجاعة، بل برودًا."[٨]

ومع ذلك: لم يكن مجرد حلم، وأمر كهذا لا يُنسَى في زمن تمر أيام العمل فيه على الوتيرة نفسها، وساعات الأحداث المثيرة في الحياة قليلة. كان تلاميذ العائلات اليهودية الألمانية يذهبون، بعد أداء الواجبات المدرسية، في نزهات في الحدائق الترفيهية القريبة من المدينة: "لاوريتسبرج" و"خوتك بارك" و"بلفيدير" و"باومجارتن". ألقى كافكا نظرة أولى على كل هذه الأماكن المفضلة وهو جالس في عربة الطفل. انشغل الأطفال في الأفنية الخلفية وحدائق المدينة والأزقة الهادئة بالكرة، ولعبة الهولا هوب، وحبل القفز، والنحلة والدوارة، والبلي، وسكين الجيب، رغم كونه ممنوعًا على الأطفال. أما في المنازل فكانت الدمى، والطوابع وكتب الأطفال ومجموعات الصور. كان مجرد ظهور صانع الأسلاك ("دراتوفت" بالتشيكية)، أو بائع الرمل ("بيساك" بالتشيكية)، أو جامع المخلفات ("هادري كوستي" بالتشيكية) حدثا جللًا، أما عربة الرماد التابعة للبلدية، والتي كانت تجمع مخلفات المنازل تاركة خلفها سحبًا من الأتربة، فكانت تلقى استقبالًا حافلًا. ينتظر الأطفال بشغف وعلى مدار أسابيع فعاليات الترفيه الاجتماعي، مثل ملاهي "يوهاني كيرمي" فوق جزيرة اليهود، أو سوق أعياد الميلاد عند الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، يصحبها مسرح العرائس والأرجوحة الدوارة، كانت ذكريات تدوم لعقود عن براغ في عصرها الذهبي.

كان معروفًا منذ فترة على الصعيد التربوي أن الأطفال والشباب لا يتعلمون فقط، بل يجب أيضًا أن يتحركوا بالقدر الكافي. لم يكن لهذه القناعة علاقة بالرغبة في إخراج الطاقة الحركية، ولكن بفكرة أولية، ألا وهي شحذ الهمة الجسدية، والتي تعود بالفائدة على "جسد الأمة"، لا سيما على أعضائه العسكرية. نتج عن ذلك تناقض غريب، خاصة من منظور التطورات اللاحقة: التأكيد على أهمية حصة الألعاب في المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية وتقييمها في درجات من ناحية، وإبداء عدم الثقة والنظرة باستعلاء اجتماعي إلى ظاهرة انتشار الأنشطة الرياضية بوصفها نشاطًا خاصًا من ناحية أخرى. مع بداية القرن يمكن أن يتسبب اللعب بكرة جلدية أحيانًا في عقوبة داخل الفصل المدرسي، أو ربما ما هو أسوأ من ذلك. كان في طفولة كافكا ثمة تناقض بين ممارسة الجمباز والرياضة (لم ينشأ بعد مصطلح "الرياضة الشعبية"). الاختيار الذي صار لاحقًا أمرًا طبيعيًا —التدريب مع الكبار على لعبة التنس أو التجديف، أو الاشتراك في نادٍ رياضي دون مضايقة أفراد العائلة المهتمين بالتعليم فحسب— جاء لكافكا متأخرًا لبضع سنوات. أوجدت بعض المدارس بعد فترة حلًا وسطًا بألعاب شبابية لإدخال روح المنافسة، ولكن الأطفال كانوا يزهدون فيها كلما تقدموا في السن؛ لأن ألعابًا مثل الإمساك بالآخرين وشد الحبل ومسابقات السير عرجًا، لم تكن لتبهر الأخوات الصغيرات. من المستبعد أن يكون كافكا قد لعب كرة قدم وأحرز هدفًا على نحو متكرر.[٩]

من حسن الحظ أن ثمة ألعابًا ترفيهية أخرى، كانت ممارستها متاحة بوصفها لعبة "جادة"، دون رفض صارم من الآخرين. كانت هناك صعوبة في فصل الشتاء في تقديم أنشطة في الخلاء، ولذلك استغل الآباء فرصة التزحلق على الجليد، بما فيهم آل كافكا الذين أرسلوا أبناءهم

إلى الساحات المخصصة للتزحلق على الجليد على نهر "المولداو" المتجمد، أو الساحات الواقعة في منطقة "كلاين زايتة"، باشتراك سنوي زهيد للتلاميذ. كانت تصطحبهم جليسة الأطفال، التي تقضي وقتها في سماع موسيقى الأرغن واحتساء الشاي بالنبيذ. انبهار كافكا بهذا النشاط أمر مشكوك فيه، ليس لدينا دليل على أنه مارس التزحلق على الجليد بعد انتهاء مرحلة الطفولة. لا يرد ذكر هذا النشاط إلا قليلًا في تدويناته، ولا يظهر إطلاقًا في روايته الشتوية "القصر".

كان الوضع مختلفًا تمامًا بالنسبة لأهم متعة صيفية، حمامات السباحة على نهر "المولداو"، التي أطلق عليها "مدارس السباحة". إنه اسم على مسمى؛ إذ يقدم "مدربو سباحة" متخصصون -في زي موحد- دروسًا منظمة في السباحة بكل الوسائل المساعدة، تنتهي إلى اختبار صارم للسباحة الحرة - إنها دورة تدريسية خضع لها أيضًا العديد من الكبار. الأهم أن مدارس السباحة هذه كانت من الأماكن النادرة (قبل عصر الرياضة) التي سمحت بالحركة التي لا تخضع للسيطرة. لا يوجد تلميذ في براغ -محكوم عليه بثلاثين ساعة من الجلوس أسبوعيًا- لا يعرف بدقة مواعيد العمل وسمر التذاكر.

كانت حمامات السباحة هذه متاحة على شاطئي النهر ومتشابهة في التصميم: هيكل واسع من الخشب يسبح في الماء، يعاد تصنيعه كل ربيع من جديد، حتى لا يتعرض للتلف من طبقات الثلج الطافية ويثبت بسلاسل عند الشاطئ، داخل هيكل مساحة على هيئة مسبح يطلق عليها "المرآة" وتتخللها مياه النهر، وعلى أطراف القاعدة كبائن لتغيير الملابس، وحمامات منفصلة، ومنصات وثب، وأجهزة رياضية، ومطبخ صغير بموائد يقدم القهوة والجعة.

لم تلقَ أماكن الترفيه هذه ـالتي كانت تعج في أيام الصيف الحارة بمن ينتمون إلى الطبقة البرجوازية الصغيرةـ استحسان جميع سكان براغ، وذلك لأسباب صحية. بينما كان لون مياه الشرب في براغ يميل إلى الصفار المريب (المزحة الدارجة كانت "فعالة بعد دقائق") وكانت سببًا في الإصابة بالتيفود، وصلت مياه نهر "المولداو" –والذي كانت تُضخ فيه مياه الصرف دون ترشيحـ إلى درجة من التلوث، جعلت الجهات المسؤولة تصدر تعليمات لإدارات حمامات السباحة باستخدام مياه الينابيع في كبائن الاستحمام. كانت هناك بالطبع حوادث غرق في هذه المياه الملوثة، فعلى الرغم من المجهودات التي كان يبذلها المراقبون الكثيرون، وعلى الرغم من حدة التحذيرات على اللافتات، لم يمتنع الأطفال والشباب عن الغوص من تحت الهيكل الخشبي، والسباحة إلى داخل النهر أسفل السفن العابرة، والتشبث بالزوارق الصغيرة، أو تسلق المدارات القريبة. يظل المراقب على الجسر يطلق صفارته للإنذار، ولكن دون جدوى.

لا نعرف مدى مشاركة كافكا في هذه الانتهاكات، ولكن من المؤكد أن مدرسة السباحة مثلت له ساحة هامة للحياة في المدينة، ظل طوال حياته مخلصًا لها، وكان يتذكرها بحنين قبل ساعات قليلة من وفاته. قد يثير ذلك للوهلة الأولى دهشة؛ إذ كانت التجارب الأولى والمؤثرة تجارب مزعجة. تعود أبيه في مرحلة المدرسة الابتدائية على اصطحاب فرانز في أيام الأحد الحارة إلى "مدرسة السباحة المدنية" على شاطئ "كلاين زايتة"، حيث كان يسبح قليلًا، ثم يقوم بالأهم في الأغلب، ألا وهو احتساء الجعة مع المعارف الموجودين. أغفل هدفُه الطموحُ بتعليم ابنه السباحة بنفسه، أي دون تكلفة مالية، أن خوف هذا الابن المعتاد والمزعج ليس سببه المياه فحسب.

"كان جسدك يمثل عنصرًا ضاغطًا عليَّ، أتذكر مثلًا أننا كنا نغير ملابسنا معًا في الكابينة، أنا هزيل وضعيف وصغير الحجم وأنت قوي وضخم وعريض. كنت أشعر بالبؤس، ليس فقط أمامك ولكن أمام العالم بأكمله؛ لأنك كنت بالنسبة لي المعيار في كل شيء. أشعر بالحيرة وتتحد داخلي كل تجاربي السابقة السيئة حينما نخرج من الكابينة أمام الناس، أنت تمسك بيدي وأنا هيكل عظمي صغير، فاقد للثقة وحافي القدمين، خائف من الماء، وعاجز عن تقليد حركات السباحة، التي كنت بنية حسنة تكررها وأنا في شدة الخجل. كان حالي أفضل حينما كنت تغير ملابسك أولًا وأظل وحدي في الكابينة، تتأجل لحظة العار حينها، إلى أن تعود وتخرجني من الكابينة. أشعر بالامتنان لأنك لم تشعر بأزمتي حينها، كما أنني كنت فخورًا بجسد أبي."[١١]

لم يذكر كافكا -ولأسباب وجيهة- أن هذا "الهيكل العظمي الصغير" تفوق سريعًا على قدرات أبيه المتواضعة في السباحة؛ إذ وصَفَه لاحقًا لدورا ديامنت على أنه لا يجيد السباحة. يبدو أيضًا أن الزيارات المشتركة لمدرسة السباحة امتدت لفترة طويلة على الرغم من المخاوف المذكورة؛ إذ نعرف عن السماح لفرانز بالمشاركة في احتساء الجعة في وقت لاحق.[١٢] بقي خجله من الجسد الهزيل، حتى حينما نضج وكان يصارع نفسه من أجل ارتداء ملابس السباحة، زاد على هذا الخجل حساسية أخرى من الضوضاء والزحام. قضى كافكا، على الرغم من ذلك، آلاف الساعات من حياته في حمامات سباحة عامة: بداية في مدرسة السباحة المدنية، حيث تعلم التعامل مع زورق الكاياك وكان

يمتلك لفترة طويلة قاربًا للتجديف هناك، ثم في مدرسة السباحة عند جزيرة "صوفيا" حيث كان يجدد هناك -وهو مريض بالسل- اشتراكه عامًا بعد عام. تمسك في رحلاته بهذه العادة، وكان يسأل في كل مكان يذهب إليه عن حمام السباحة. يبدو أنها قوى عظيمة تلك التي كانت تجذبه إلى الماء، قوى قادرة أن تنسيه لفترة مشاعر الخوف والكبت والاضطرابات الاجتماعية، وتوقظ بدلًا من ذلك مشاعر السعادة التي كانت "على البر" بعيدة المنال.

السباحة نموذج لخبرة اكتسبناها منذ زمن بعيد، إنها تخاطب تجاربَ دفينة لا نعيها: حالة استثنائية مكثفة ومركبة، ولكنها في الوقت نفسه سهلة التحقيق جسديًا ونفسيًا، لا يمكن مقارنتها إلا بالعلاقة الجنسية. السباحة حالة تحليق؛ إنها تمثل للكائنات التي لا تستطيع الطيران الفرصة الوحيدة لتخليص الجسد -ولو لفترة- من عبء الجاذبية الأرضية. يأتي هذا الشعور الجسدي بالانفصال لحظة نزول الماء (وليس تحت تأثير المورفين الذي يفرزه الجسد بعد الجري لمسافات طويلة). إنها حرية أصولها بدنية، ولكنها تستمر في حالة من السعادة النفسية، فتصير مجازًا: السباحة الحرة أو السباحة سعيًا إلى الحرية. تمنح هذه الحركة -بعد أن تصير تقنية جسدية متقنة- شعورًا نرجسيًا مستمرًا بالارتياح. يبدو الجسد متحكمًا في نفسه في مجال لا يعطي أي سند. إنه إنجاز سحري، قَدَّرَه كافكا لدرجة أنه عدَّ السباح القوي والمتمرس رمزًا للحيوية. روى ماكس برود: "ابن عمي-هذا الإنسان الرائع، كان روبرت في الأربعين من عمره حينما كان يأتي في المساء إلى مدرسة السباحة في جزيرة "صوفيا"، بحركات يد قليلة يتجرد من ملابسه ويقفز إلى الماء، يتحرك داخله مثل حيوان متوحش جميل، بريق المياه فوق جسده وعيناه مشرقتان، منطلقًا بسرعة ناحية السد - كان هذا رائعًا. مات بعدها

بستة أشهر".[١٣] لم يهتم كافكا كثيرًا بالسباحة بوصفها نشاطًا رياضيًا أو سباقًا منظمًا، حتى إن جعل بطلًا للأولمبياد يظهر في أحد أعماله الأدبية، عمل مبهر ولكنه لم يكتمل.[١٤] كان ينظر إلى هذه المتعة الذاتية التي يتحكم فيها السباح نفسه على أنها درجة متقدمة من الحرية، فضل هذه الحرية الجسدية الملموسة على الحرية في مطلقها. من الصعب التصور بأن شخصًا وصل إلى هذا اليقين، كان عليه أن يموت.

حتى إن تخطى التكهن التالي حدود علم النفس العمقي: ليس مستبعدًا أن حسية هذا المجال السائل كانت لها أهمية مدى الحياة لنفسية كافكا، أهمية حجمها أكبر من مجرد السعادة المعتادة بالسباحة. ربما اعتبر حركة الماء التي تغمر وتغطي الجسد بأكمله تجاوزًا للحدود الحسية، خاصة في مجتمع يفرق بشدة بين أعضاء جسدية راقية وغير راقية. لم يتمكن كافكا قط بتجاربه الذاتية ورغباته أن يحقق المطلب المجتمعي بأن الرغبة الجنسية للرجل مكانها في عضو جسدي أوحد. إن الدوافع التي تحكمت في حياته الجنسية مع تقدم عمره، واضحة تمامًا: غلبت على الرغبة في الإيلاج رغبة في أنثى تحتويه جسديًا ونفسيًا، وتمنحه الحرية في جميع الاتجاهات. إنها رغبة مخيفة في التقارب عذبت كافكا، وفشل في شرحها للسيدات اللاتي أحبهن وكذلك لأقرب أصدقائه. من المنطقي والكاشف لمكنون كافكا أنه وجد في السباحة في مياه بلا نهاية استعارة غاية في الإقناع تعبر عن هذه الرغبة المذكورة:

"وما هذا إلا خوف دنيء، خوف من الموت. يشبه حال من لا يمكنه مقاومة إغراء الخروج إلى البحر المفتوح، وهو سعيد بحمله فوق الماء، "أنت الآن إنسان وسباح عظيم"، ثم يتنبه فجأة دون سابق إنذار،

فلا يرى سوى السماء والبحر ورأسه الصغير فوق الأمواج، فيصاب بالذعر. لا يهم أي شيء آخر، عليه الرجوع، حتى إن تقطعت رئتاه. لا تختلف المسألة كثيرًا.""[١٥]

بعد حصوله على لقب سباح حر، كان الصبي فرانز يتمدد فوق القاعدة الخشبية الساخنة لمدرسة السباحة المدنية، فيرى على الجانب الآخر من نهر "المولداو" شاطئًا رمليًا وخلفه الواجهات الرتيبة لمجمعات سكن بالإيجار تابعة لمنطقة "يوزيف شتاد". ستتعرض هذه البانوراما في فترات شبابه لتغيير جذري، قبل سنوات من الحرب الكبرى ستكون مجرد ذكرى، في صور وموتيف في الأدب الشعبي عن المدينة.

قررت البلدية التشيكية في عام ١٨٨٦ إخضاع صورة البلدة القديمة لعملية جراحية جذرية. صارت منطقة "يوزيف شتاد" (أو "يوزيفوف"") في منتصف القرن حيًا للغيتو، ثم تحولت على مدار جيلين متتاليين إلى منطقة عشوائية للفقراء، تعذر ولأسباب صحية تركها على هذا الوضع. لم يكن سوى عُشر السكان من اليهود، فقد انتقل أصحاب المنازل للسكن في أحياء أفضل، ولم يعد لهم اهتمام بهذه العقارات المنحدرة التي لم تعد قابلة للبيع، فيما عدا الانتفاع المادي العنيف. صار المجمع مخبأ متاحًا للجميع، لا أحد يسأل عن الوظيفة أو السوابق الجنائية أو الأبناء غير الشرعيين. لا يقدر على دفع الإيجار المطلوب سوى مجموعات من المستأجرين من الباطن أو "المستخدمين للفراش"، مما أدى إلى تضخم سكاني مفرط في الحي بأكمله: كانت الكثافة السكانية ثلاثة أضعاف في المنطقة مقارنة بمنطقة البلدة القديمة والجديدة، فضلًا عن منطقة بناء لا يصلها النور أو الهواء، تحكمها

هياكل صغيرة تحمل طابع العصور الوسطى، لا تكاد الأزقة تصل إلى المترين في العرض.

"من السهل تصور الوضع حينما نضع في الاعتبار أن الشقق كانت مكتظة، وليس بها أي وسائل رفاهية، مرحاض وحيد مخصص لخمس إلى عشر شقق محتشدة، بل لعمارة بأكملها. لا توجد أفنية ولا حدائق لتوفر الهواء، درجات السلم والممرات مظلمة، غرقت منطقة "يوزيف شتاد" بأكملها في سبتمبر عام ١٨٩٠، ووصلت المياه في بعض الأزقة إلى ارتفاع تراوح بين المتر والنصف والمترين والنصف، لدرجة أنه حتى اليوم (أي بعد مرور تسع سنوات) ما زالت المنطقة المستوية بالأرض مصابة بالرطوبة. إن وضعنا أيضًا مساحات التواصل المحدودة في الاعتبار وعدم انتظامها، نجد أنفسنا أمام صورة لحي لا يتكرر بسهولة في سائر المدينة. إن كنا لا نرغب في طاعون يصيب المدينة بأكملها، فعلينا عدم تقبل هذا الوضع أكثر من ذلك."[١٦]

لم يكن عجيبًا أن تصل معدلات الإصابات والوفيات هنا إلى أعلى الدرجات مقارنة بباقي أحياء براغ، ووصلت المسألة إلى حد أدى بطبيب المدينة البراغي "برايننجر" -المدون لهذه الانطباعات- إلى الموافقة على تصويت مجلس المدينة. لم يعد ممكنًا حل مشكلة منطقة "يوزيف شتاد" بإجراءات إصلاحية، كان يجب إجبار المُلّاك على القيام بها بكل الأحوال. الحل الوحيد المتاح كان هدم الحي بأكمله وإعادة بنائه. جرى الإعلان عن المشروع وفاز بالمسابقة "خطة للإصلاح الشامل" العمراني، يعبر عنوانها عن هدف المهمة في مصطلح مختصر: أنهوا الغيتو.

لم يكن لمشروع الإصلاح الشامل في براغ سابقة في أوروبا بسبب حجمه. شمل مساحة تبلغ نحو سبعة وثلاثين هكتارًا، وسلب ١٨٠٠٠ فرد السقف من فوق رؤوسهم. مرت ست سنوات قبل أن يتحقق الوضع القانوني المطلوب لإجراء شامل كهذا، ووافق مجلس الرايخ في فيينا عام ١٨٩٣ على قرار نزع الملكية المطلوب، فضلًا عن أن مفاوضات التعويضات مرت بصعوبة وانتهت في أحيان كثيرة بقضايا أمام محاكم مدنية. لم يضاهِ أي حي آخر منطقة "يوزيف شتاد" في الأوضاع الملكية المعقدة، وأثارت بعض الأزقة الصغيرة -التي كان لكل منزل فيها، بل وأحيانًا لكل دور في المنزل مالك مختلف- حيرة موظفي البلدية. لم تكن الحلول الأسرع والأيسر سياسيًا -فرض أوضاع سريعة وغير قابلة للنقض- متاحة. بعد مرور أربع سنوات لم يختفِ سوى خمسين منزلًا من أصل أربعمائة منزل يتعين إزالتهم.

كان هذا وقتًا كافيًا لعرض مخاطر هذا المشروع وتبعاته على سكان المناطق الأخرى. صحيح أن كارثة الفيضان في عام ١٨٩٠ قد أثبتت للجميع ضرورة تثبيت الجانب الأيمن من الشاطئ برصيف بحري ورفع مستوى مناطق بعينها. ولكن هل يمكن إعادة ترتيب حي بأكمله دون مراعاة لهياكله المترسخة؟ ألا تقتلع المدينة بهذه الإجراءات العنيفة جذورها التاريخية؟ من المنطقي أن خطة الإصلاح الشامل فرضت مراعاة الآثار ودور العبادة، ولم يتم بالفعل التعرض لستة من أهم المعابد اليهودية، والمدفن اليهودي القديم، ومبنى البلدية اليهودي. ولكن قُطع مركز الغيتو -حيث كان موقع هذه المزارات السياحية- بطريق جديد وعريض رُسِمَ بخط مستقيم: إنه شارع "نيكلاس شتراسه" (ولاحقًا شارع "باريزة شتراسه")؛ الذي صار الرابط الرئيسي بين البلدة القديمة ونهر "المولداو"، شارع بمنازل جديدة أسعارها تفوق إمكانيات السكان

الأصليين. وجد المخططون ضرورة قصوى لهذا الربط الجديد بالنهر، لدرجة أنهم لم يكتفوا بهدم المركز التاريخي للغيتو، بل جاروا أيضًا على أهم المباني الواقعة على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. ظل الميدان الرئيسي الكبير مغلقًا حتى عام ١٨٩٠، لم تمثل الأزقة المؤدية إليه سوى ثغرات بسيطة في منظومة معمارية محكمة. لم يكن هناك خيار آخر ـفي حالة ضرورة انتهاء الشارع الجديد المخطط له وخط الترام إلى هذا المكانـ سوى فتح الطريق الدائري من الجهة الغربية وهدم منزل "كرين هاوس" ذي الطابع الباروكي، وهو المجاور لمبنى بلدية المنطقة القديمة. صارت هذه الخطط معروفة للجميع، واتضح أن تجديد منطقة سيؤدي حتمًا ـولأسباب متعلقة بهندسة المرورـ إلى التدخل في مساحات كبيرة من منطقة البلدة القديمة. تشكلت حركات مقاومة، ووجدت البلدية ضرورة لاحتواء الغضب المتنامي من خلال وسائل دعائية، إذ تم، على سبيل المثال، فتح بعض منازل الغيتو، التي رحل سكانها، للمشاهدة العامة، حتى يوقن البراغيون، ممن لا تطأ أقدامهم هذا الحي، أنه لا حل سوى الهدم. ولكن لا يبرر هدم مخابئ الجرذان هذه، التي لم يهتم بها أحد، ضرورة إعادة رسم خريطة المدينة من جديد وتغيير جوهر براغ وأجوائها دون رجعة. اعترض في عام ١٨٩٥ عدد من المهندسين والمعماريين بمذكرة، وصدر في العام التالي ميثاق "إلى الشعب التشيكي" بتوقيعات مائة وخمسين شخصًا مرموقًا ضد خطط الإصلاح، فضلًا عن عدد من المظاهرات الطلابية. أثار هجوم الكاتب "فيلام مرشيك" على تجاهل مجلس البلدية ("بستيا تريومفانز") ضجة كبيرة؛ إذ أبدى شجاعة في تذكيره أن هذا الاعتداء على "الأم براغ" لم يقع قط في ظل القيادة الألمانية. تأخر إدراك المثقفين التشيكيين لحقيقة أن المسألة تتعلق بالواجهة المستقبلية للعاصمة ولسنوات قادمة. لم يصلوا لشيء

سوى المشاركة في بعض اللجان الثقافية التي ليست لها أهمية، واستمر تنفيذ الإصلاح -وإن كان ببطء- إلى سنوات الحرب، على نهج المخطط الأصلي بشكل كبير.

تعد الصراعات حول تحديث واجهة مدينة براغ مؤشرًا هامًا إلى أن الحوار المليء بالذكريات عن براغ "القديمة" -الموجود في المذكرات وفي شهادات التاريخ الشفهي- ليست صورة مجملة فحسب، بل صورة لا تنبض بالحياة.[18] كان جيل كافكا شاهدًا على مناطق ساكنة ومريحة، وما زال لها أثر إلى يومنا هذا في براغ، ولكن عاصر هذا الجيل أيضًا التدخل في هذه المناطق وتدميرها، ومع حلول منعطف القرن ألقت فكرة أن الماضي لا يعود بظلالها على ذكريات الطفولة في المدينة، فتأسس في عام ١٩٠٠ تحديدًا نادٍ لإنقاذ براغ "القديمة".

قضى كافكا شبابه على بعد أمتار من موقع البناء الضخم، واتسع نطاق الموقع في العام الذي نال فيه الشهادة الثانوية، ليشمل المركز الجغرافي لحياته: الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. لم تكن المعدات الثقيلة للبناء قد ظهرت بعد، سار العمل، بهدوء محتمل وبكثير من المجهود اليدوي، والكثير من الأتربة، وصوت العزق والجرف الذي لا يتوقف. مما لا شك فيه أنه تابع خطوات العمل وشهد انهيار أحد الأسوار العتيقة. كان على درجة كافية من النضوج ليفهم أن هذا وداع.

شهد أخيرًا سقوط المنزل الذي ولد فيه، مطرانية "سانت نيكولاس" ذات الطابع الباروكي. حدث ذلك في عام ١٨٩٨، ونقلت البوابة الضخمة والشرفة فوقها فقط بحذر، وأعيدا إلى مكانهما بعدها بسنوات بعد إعادة البناء. لماذا الهدم إذًا؟ اندلع حريق، ولكن لم يتبع المبنى منطقة الغيتو، ولم يحُل دون العمل في الطريق الجديد، الذي

سيخترق جدران الطريق الدائري قريبًا. لماذا إذًا؟ لا نعرف إن كان كافكا قد علم بالسبب الحقيقي، ولكنه قطعًا كان سيفهمه بوصفه إشارة من هذا الزمن: حتى المنزل الذي ولد فيه وقع ضحية لخط هندسي. إنه زقاق "مايزل جاسه" المنحني الذي أزعج المخططين، وقع المنزل داخل الزقاق بمساحة بسيطة، لم يكن أكثر من ذلك.

"عمل هؤلاء البشر لصالح الأبدية، ووضعوا كل شيء في الاعتبار، فيما عدا عبث المدمرين، الذي قضى على كل شيء."[19] دون "جوته" هذه العبارة في روما بعد مشاهدته للمدافن المدمرة على طريق. استهل "فيلام مرشيك" بهذه العبارة مذكرته الاعتراضية ضد برنامج الإصلاح في براغ باللغة الألمانية.

إيلي وفالي وأوتلا

"ليس لدينا الحق في الكراهية
لا يوجد هذا الحق
ولكنه شعور سهل، وطبيعي
شعور إنساني مقزز."

توماس لير، سبتمبر والسراب

"من الطبيعي أن يعاني الأبناء المولودون متأخرًا من بعض العيوب، ولكن المزايا التي يتمتعون بها مقارنة بمن ولد أولًا -وأنا مثال حزين على ذلك- كثيرة. يُحاط الأبناء المولودون متأخرًا بتنويعة من تجارب وإدراكات وخبرات واختراعات ونجاحات مر بها باقي الأخوة، أو يسعون للمرور بها، وتعد مميزات هذه الحياة الأسرية القريبة والمتداخلة هائلة. مرت الأسرة بخبرات تعليمية وعلمتهم -إن سمحت الظروف بذلك- أخطاءهم (مع أن الأخطاء تجعلهم أحيانًا أكثر تمسكًا بآرائهم). يجلس هؤلاء الأبناء المتأخرون في عش أكثر دفئًا، تقل درجة الاهتمام، فتضطرب النسبة بين المزايا والعيوب، ولكن لا تكون العيوب أبدًا أكثر وزنًا. ليسوا بحاجة إلى هذا الاهتمام؛ لأن الجميع يقدم الرعاية دون وعي، ولذلك تكون وافية وغير ضارة لهم."[1]

يتحدث كافكا هنا بالطبع عن أسرته، غيرته بوصفه الأخ الأكبر الوحيد ممن جاء بعده، وكانت حياته أسهل جلية تمامًا. رزق آل كافكا بثلاثة "مواليد متأخرة" –سعادة ثلاثية شابها القلق والخوف، ولم يلتئم جرح الحزن على فقدان ابنين؛ لأن المواليد الثلاثة كانوا فتيات. ولدت جابرييلا في ٢٢ سبتمبر ١٨٨٩ (اسمها بالتشيكي "جابرييلا"، أطلق عليها "إيلا" أو "إيلي")، وجاءت بعدها بعام في ٢٥ سبتمبر ١٨٩٠ فاليري (أو "فالي")، وأخيرًا ولدت الطفلة الأخيرة أوتيلي (أو "أوتلا") في ٢٩ أكتوبر ١٨٩٢. إنه هجوم أنثوي صغير جلب معه حالة من الاضطراب: تحول سريع في أجواء الحياة اليومية للأسرة، التي ازدادت علاقاتها، وتطلب وجود خدمات أكثر من قبل، وازداد حجم أدوار الطاهية والخادمات والمرضعة ومديرات المنازل.[٢] كان فرانز الطفل الوحيد في يومه الأول في مدرسته الابتدائية الألمانية، وقد تركزت عليه كل التوقعات (فضلًا عن حب الخدم وإزعاجهم له)، وصار في يومه الأخير واحدًا من أربعة أبناء، صبيًا في العاشرة من عمره بثلاث أخوات صغيرات لهن متطلباتهن.

لم يكتب كافكا قط عن مدى تأثير قدومهن في نفسه ومدى تغييره، ولكن ليس من الصعب فهم ديالكتيكية حياة الإخوة في ظل أسرة لها نظام سلطوي. لم يعد هو محور الاهتمام، ولا في مرمى النار أيضًا. حرم من بعض الاهتمام والرعاية، ولكنه حصل على تعويض بدلًا منهما، بخلاف وضعه لحظة ولادة الأخوين، إذ صعد من أقل درجة في التدرج الهرمي للأسرة إلى أعلى. صحيح أنه أخضع بوصفه "الكبير"لمعايير أكثر صرامة مقارنة بالصغيرات، وتولى بعض المسؤوليات، ولكن

أتيحت من ناحية أخرى الفرصة لإخراج جزء من الضغوط المتزايدة على من هو في درجة أقل. بحسب معرفتنا فإن كافكا استغل هذا التصريح: كان بمجرد تركه مع الأخوات وحدهم يأمر وينهي فيهن مثل قطيع صغير ويتخطى بذلك حدود الاستعباد، أجبر الفتيات مثلًا على ممارسة تدريب التنفس بانتظام، بالاستلقاء على السجادة بملابسهن الداخلية، كان عليهن عمل هذه التدريبات في غيابه أيضًا. كان يكتب أيضًا في مناسبات الاحتفالات الأسرية مسرحيات من فصل واحد، حفظت الأخوات النص عن ظهر قلب وتدربن على الأدوار ليمثلن المسرحية تحت الإشراف المشدد للوالدين والعائلة – إنه تدريب ظل يمارسه وهو طالب جامعي، واستعان في إحدى المرات بالمربية لتكون إحدى "الممثلات".[٣]

يبدو أن كافكا قد نجح في تحويل السلطة الطبيعية –التي حصل عليها دون تكلفة وبحكم تقدمه في العمر والتعليم- إلى سلطة تربوية، متفردة وناضجة، وحفظها ذلك من السقوط الذي يعد أمرًا طبيعيًا أيضًا.[٤] ولكن لم تجعل هذه السلطة أخواته صديقات له. أحدثت مبادئ التربية البرجوازية فجوات عميقة بين الجنسين، قبل وصولهم لمرحلة النضوج الجنسي بفترة طويلة. كان من شأن الاختلاف في المتطلبات المتوقعة بين الصبية والفتيات تعزيز الشعور بالإحباط والعداوة الكامنة. كان الحديث عن أنشطة الفتيات واهتماماتهن وأدائهن حديثًا متحفظًا، وكأن شؤونهن ليست ذات أهمية. في ظل الهيمنة الذكورية، والتعامل مع الفتيات على أنهن كائنات لا تملك الاستقلال والحرية، ويجب مراقبة خطواتهن وقيادتهن حتى الثانية عشرة، عدَّ الأطفال هذا الأمر أمرًا طبيعيًا. يبرر ذلك الابتسامة المعروفة التي تكسو وجه الصبيان وقت الحديث عن أخواتهم، وتجنبهم إظهار أي ألفة زائدة مع هذه الكائنات

من الدرجة الثانية. لم تغير كل من الغالبية الأنثوية -كما هي الحال في منزل آل كافكا- والأدوار الاجتماعية الحيوية للأمهات اليهوديات مطلقًا من هذه الغربة التي سادت العلاقة بين الجنسين، ولم تغير أيضًا من تقليل قيمة الجنس "الآخر" والإحساس بالنقص الذي كان يعتري هذا الجنس نفسه.

حرصت المدارس وقوانينها المتأثرة بالسلطة الدينية على عدم المساس بهذه الأوضاع المختلة والظالمة. كان أمل الفتيات الطموحات والملتزمات في الوصول إلى قاعات المحاضرات الخدم له ضعيفًا؛ لعدم وجود المؤسسات الحكومية التي تسمح بذلك. حتى في عام ١٨٩٧ حينما فتحت كلية الآداب أبوابها أمام الفتيات، أعلنت وزارة الثقافة بوضوح أن هذا التنازل الذي أتى تحت ضغط الرأي العام لن يدعم بأموال الضرائب:

"صحيح أن الإدارات التعليمية أدركت سمة العصر بضرورة منح الفتيات فرص تعليم متساوية مع ما يحصل عليها الشباب، لتزيد معها فرص العمل، كما أنها لا تريد عرقلة هذا التطور ما دام متسقًا مع طبيعة الأنثى ويلبي احتياجاتها. ولكن لن يكون هدفها السماح للفتيات بالدخول دون قيد إلى المدارس الثانوية والمدارس الثانوية المخصصة للشباب، ومجالات العمل المختلفة المكتفية بالرجال."[٥]

تعثر سير قطار الزمن في منطقة النمسا والمجر، وكانت بالفعل مجالات العمل المثيرة للاهتمام "مكتفية" – خاصة المجالات ذات الدخل

الأعلى. لم يكن هناك خيار بعد السنوات الأربع أوالخمس في المدرسة الابتدائية للفتيات –التعليم المختلط كان في الريف فقط- سوى خيارين للحصول على تأهيل شامل. كان الخيار الأول والأشيع هو الانتقال إلى مدرسة "ليسيوم" (أطلق عليها أيضًا "المدرسة العليا للبنات")، التي كانت تدرس اللغة الفرنسية وبعض اللاتينية، ثم الذهاب مع بلوغ السادسة عشرة من العمر إلى معهد للمعلمات. في حالة الاعتماد الكامل على الدولة، كانت هذه هي أفضل خيارات التعليم النسائي المتاحة، وإن كان مستواها أقل كثيرًا من شهادة الثانوية المتاحة للذكور. قدمت المدارس الخاصة خدمة تعليمية أفضل، خاصة على الصعيد التربوي. كانت تخضع لرقابة الدولة، ولكنها لا تحصل على دعم حكومي، لذلك كانت المصروفات باهظة. أوجدت براغ لنفسها طريقًا ثالثًا: افتتح نادي "منيرفا" التشيكي في عام ١٨٩٠ أول مدرسة ثانوية للفتيات في وسط أوروبا، وكانت لغة التدريس هي اللغة التشيكية، بمدرسات متحمسات للقومية التشيكية، ولكن دون الحق في عقد امتحانات إتمام الشهادة الثانوية.

وقع اختيار آل كافكا على مدرسة خاصة تقع عند ميدان "فنسلسبلاتس"، وتملكها مدرسة يهودية ألمانية اسمها "أديلة شيمبور"، إنها إشارة واضحة لرغبتهم في تعليم عام جيد لبناتهم، ولكنهم لم يفكروا مطلقًا في تأهيل مهني أو دراسة جامعية.[٦] كان الوضع الأفضل أن تبقى إحدى الفتيات في مجال العمل نفسه؛ لأنها في هذه الحالة ستستفيد من المعلومات المهنية التي اكتسبتها في منزل والديها، وسوف تنجح في إدارة أمور المحل مثل أمها، ابنة تاجر المنسوجات، جولي لوفي. إن لم يتحقق هذا الوضع، فستدير شؤون منزل زوج المستقبل، الذي سيكون رجلًا مكافحًا، كان هذا هدفهم. وقع تحول في

العام الذي أنهت فيه الابنة الكبرى إيلي تعليمها الابتدائي، عام ١٨٩٩. أنشأت المدرسة الخاصة للفتيات في براغ "ليسيوم" قسمًا للمرحلة الثانوية، للحصول على شهادة "ماتورا"، ولكن باللغة الألمانية، على غرار المدرسة الثانوية "منيرفا". كان ذلك يعد سبقًا، وتجربة اجتماعية مجهولة النتائج. سمعوا أن الجامعة التشيكية تزورها حفنة من الطالبات، في حين أن الجامعة الألمانية بلا طالبات، وكان يجب أن يتغير هذا الوضع. لا يمكننا معرفة إذا كانت إحدى بنات عائلة كافكا تمتلك الموهبة لشق هذه الطريق، ولكن لا يمثل ذلك أهمية؛ فعائلة كافكا لم تكن تبحث عن الانضمام للطليعة الاجتماعية. أرادوا السباحة مع التيار، لذلك اكتفوا بالمدرسة الخاصة.

بعدما حرم من الابن الثاني لم يكن لدى هيرمان كافكا القدرة —ولا الرغبة- في الاحتفاظ بشعور خيبة الأمل لنفسه[٧]، بل يبدو أن إيلي — الابنة الكبرى- شعرت بهذا الإحباط دون أي مجاملة، مما كان له عواقب جلية. كتب كافكا إلى أبيه: "كانت طفلة متثاقلة، خاملة، خوافة، متبرمة، شاعرة بالذنب، ذليلة، شريرة، كسولة، مفرطة في تناول الحلوى، بخيلة. لم أتمكن من النظر إليها، والحديث معها، كانت تذكرني بنفسي، وتشاركني في تأثير القيود التربوية نفسه." تؤكد الصورة الفوتوغرافية الوحيدة التي تظهر فرانز الصغير مع هذا الكائن ثقيل الدم على شعور النفور المتبادل؛ لأنه من الواضح أن الصغيرة إيلا —بنظرتها المزعجة- كانت تحاول الهروب من لمسة يد أخيها، التي طُلبت منه. ولكنها تجاوزته بعد مرور عقدين، وخرجت من دائرة تأثير الأب، الذي كان ولا يزال يشعر بالغم. تطورت شخصيتها على نحو غير متوقع في ظل زيجة سعيدة، وبدت للأخ الأعزب —الذي ظل على حاله

شخصية "سعيدة لا تحمل همومًا، شجاعة وكريمة، لا تفكر في نفسها ومفعمة بالأمل."[٨]

لم تحمل الأخت الوسطى فالي كل هذه الهموم؛ إذ لم تتلقَّ ـ ولأسباب مجهولة ـ هذا الشعور بالرفض من والدها. لم تكن هذه الأخت الهادئة والقنوعة والمتأقلمة أكثر قربًا من فرانز؛ إذ لا يذكرها إلا نادرًا في رسائله ومذكراته. ولكن أثار وضعها الخاص المبهم تفكيره، فتوقع مرة أخرى التأثير الغامض للعنصر الوراثي:

"كانت فالي هي الأوفر حظًا في العلاقة معك، هي الأقرب إلى الأم، فانصاعت مثلها إليك دون عناء أو ضرر. ولكنك تقبلتها بلطف، تقديرًا لذكرى الأم، على الرغم من افتقارها إلى الخامة الكافكاوية. ولكن ربما رضيت بهذا الوضع، لا يمكنك توقع طباع كافكاوية ما دامت الخامة الكافكاوية ليست موجودة من الأصل. لم يكن لديك هذا الشعور، الذي نكنه تجاهنا، بأنك فقدت شيئًا ما، وعليك استعادته بقوة. عمومًا، أنت لم تحب الطبع الكافكاوي في تجلياته الأنثوية، علاقتك بفالي كانت ستصير ألطف، لولا إزعاجنا ـ نحن الآخرين ـ لكما."

ما يمثل الحقيقة من هذا القول أن الطاعة الحقيقية أو المفتعلة (لم يصنع ذلك فرقًا بالنسبة له) كانت قادرة على الحفاظ على مزاج هيرمان، الذي لم يشعر بأي نوع من المقاومة، سواء مع ابنته فالي أو زوجته جولي. لكن لنظرية كافكا الوراثية حدودها، فهي تعجز عن تفسير أسباب قدرة "الخامة اللوفية" -الأكثر تعقيدًا وغموضًا وليونة، وغربة عن الطبع الكافكاوي ـ على ترويض هذا الدب سيئ المزاج لدرجة أنه يكتسب

طباعًا أكثر إنسانية. ربما تكون جولي وفالي التي تبعتها، قد مثلتا كل ما حرم منه هيرمان في طفولته، وأشبعتا بذلك حنينه إلى حياة أفضل: إنه حنين -لا شعوري ولا يفصح عنه- إلى جوهر إنساني لا يتأثر حتى بأعنف الصراعات الوجودية، وغير قابل للاستغلال.

لم يقدر هيرمان بالطبع على تصور هذه الإنسانية إلا في شكل أنثوي، في الواقع في شكل أمومي، تجلت في كلمات ولفتات لطيفة، ولكن بخلاف ذلك فهي سلبية – غذاء للروح، مصدر يعتمد عليه للدفء الروحي. أما الإنسانية الفعالة والمطالبة التي لا تمارس أي عنصرية اجتماعية، كالتي تحلت بها ابنته الصغرى أوتلا في شبابها، فكانت تستفزه وتدفعه إلى الغضب الشديد؛ لأنها كانت تثير تساؤلات حول نموذج حياته الذي اختاره لنفسه، وأساس احترامه لنفسه. لم يهتم بمسألة القصد أو عدمه، في لحظات شكه كان يتهمها بتعمد أفعالها.

كانت الصغيرة بداية "طفلة تشع حيوية وحركة، ومحبوبة في الوقت نفسه"، لم تُعنف بشدة، وأفكارها الشقية كانت تسلي الأخوات الهادئات والوالدين معًا. كانت هذه هي ذكريات مربية خاصة، استطاع آل كافكا بعد فترة دفع أجرها.[٩] أضفت أوتلا على الحياة اليومية الرتيبة نوعًا من الحيوية، ولكن دون عرقلة سير هذه الحياة. لم يتضح حينها أن عقلها المتصلب، الذي أظهرته مبكرًا، سيرافقها بقية عمرها، بل وأنها ستفرض إرادتها على والديها أيضًا بكل إصرار. كان كافكا يقول عنها إنها "أحب أخواته إليه"[١٠]، ظلت في سنوات عمره اللاحقة هي الصديقة المقربة والحليفة. ولكن من المستبعد أنه شعر بقرب خاص بينهما أو "توافق لأرواحهما" في سنوات عمر أوتلا الأولى، مع فارق السنوات التسع كان كافكا يحسب على الكبار، في وقت كانت الفتيات يتنزهن متأنقات على

الطريق الدائري بوصفهن مجموعة لطيفة من التوائم الثلاثة.[11] كان حديث كافكا الدائم في زمن لاحق عن "الأخوات" في الرسائل والمذكرات لافتًا للنظر، فهو لا يفرق بينهن اسمًا، ويعد ذلك تعبيرًا عن الاهتمام البسيط الذي حظيت به الهوية الأنثوية في هذا الوقت.

لا توفر لنا المصادر القليلة المتاحة معلومات عن المرحلة العمرية التي سُلبت خلالها أوتلا الصغيرة امتيازاتها، وتحولت إلى فتاة مقاومة وعنيدة، لا يمكن السيطرة عليها إلا بالتهديدات. ولكن من المرجح أن مراهقة أوتلا أظهرت جليًا عدم تأقلمها -بمفهوم كافكا الساذج للتأقلم- وأن كلمات الاعتراض و"تصرفاتها الشقية" صارت مسألة جادة، ولن تُبرر ببراءة الأطفال من الآن وصاعدا. حاولت الأم -كما هو الحال دائمًا- تهدئة الصراعات، في حين أن الأب صار ينظر لأصغر بناته على أنها مصدر للإزعاج، وأن مزاجها المتقلب ما هو إلا ضربات شريرة بلا سبب موجهة ضده شخصيًا. جاء هذا التحول وما تبعه من تصاعد للعداوة بين الأب والابنة بقوة مذهلة، للدرجة أن كافكا لم يجد بعد مرور سنوات إلا تفسيره المعتاد ذاته الذي يقوم على الطباع المتأثرة بالعوامل الوراثية. وجد في هذه المصيبة شيئًا قدريًا، ولكنه أيضًا قدر لا بأس به من التعميه الحتمي على جانب الأب:

"في الظروف الطبيعية -حينما لا تكون «أوتلا» في خطر أو في ظرف قاهر- لا تكِن لها إلا الكراهية. لقد اعترفت لي بنفسك أنها تتسبب -بحسب رؤيتك- في معاناتك وغضبك، وأنها في لحظات معاناتك تكون راضية وسعيدة. إنها نوع من الشيطان إذًا. يا لها من حالة اغتراب نشأت بينك وبينها، إنها أكبر مما يجري بيننا، وأدت بكما إلى إخفاق كبير في

تقدير الموقف. إنها بعيدة عنك لدرجة أنك لا تراها، وتتخيل مكانها شبحًا. أعترف أنك عانيت معها كثيرًا. أنا لا أفهم هذه الحالة المعقدة فهمًا كاملًا، ولكن أمامنا شخصية لوفية مجهزة بأفضل الأسلحة الكافكاوية. لم يكن بيننا نحن معركة حقيقية، لقد استسلمت سريعًا، ولم يبقَ سوى الهروب والمرارة والحزن والصراع الداخلي. أما أنتما الاثنان فكنتما في حالة حرب دائمة، بكامل القوة والحيوية. إنه مشهد رائع ومحزن في آن واحد. كان هناك تقارب بينكما في البداية؛ لأن أوتلا كانت ولا تزال التجسيد الأنقى لزيجتك أنت وأمي والقوى التي ارتبطت بهذا الزواج. لا أعرف سببًا لحرمانكما من شعور الانسجام بين الأب والطفل، ولكن التفسير الأقرب أن هناك تشابهًا مع حالتي. استبدادك أنت من ناحية وعلى جانبها هي عناد لوفي، حس مرهف وانحياز للعدل وتوتر، يدعم كل هذا يقين بامتلاك قوة كافكاوية. يبدو أنني أثرت فيها أيضًا، ليس بدافع مني ولكن لمجرد وجودي. لقد جاءت طفلة أخيرة على موازين قوى وضعها مستقر، تمكنت من إصدار حكمها على أساس واقع قائم. أتصور أنها ظلت حائرة لفترة بين الارتماء في أحضانك والانضمام إلى الخصوم. يبدو أن الفرصة قد فاتتك أو أنك رفضتها، ولكن كان من الممكن أن تصيرا فريقًا رائع الانسجام. كنت سأخسر حليفًا في هذه الحالة، ولكن رؤيتكما معا كان سيعوضني، وربما سعادتك بأن طفلًا وحيدًا على الأقل نال رضاك الكامل كان سيصب في صالحي. الآن كل هذا مجرد حلم. ليس لأوتلا أي اتصال بالأب، عليها البحث عن طريقها وحدها، مثلي أنا."[١٢]

إنها رؤية شخص ناضج، يكتب عن صورٍ مثل الصراع والتحالف والخصومة بسلاسة؛ لأنها صارت حتمية لفهم إحباطاته (بسبب "الانهزامات" التي مر بها). فضلًا عن ذلك أدرك كافكا قبل كتابة هذه الرسالة عام ١٩١٩ بفترة طويلة أن أوتلا تمثل نموذجًا ظل يبحث عنه كثيرًا في قراءاته المتعددة للسير الحياتية: إنه نموذج لشخص معتمد على نفسه، لا يبحث عن طريق خاص به فحسب، بل يسير فيه بكل إصرار. سعادة كافكا الفعلية بالانسجام "الرائع" بين الأب والابنة أمر محل شك؛ لأنه بصرف النظر عن اعتبار هذا الانسجام نوعًا آخر من الإقصاء له، لم يكن بعد في هذه المرحلة متعاطفًا مع حالة أوتلا كما كان في وقت لاحق. من الأرجح أن نظرته لأخواته الثلاث كانت من منطلق فضول متحفظ، يسخر منهن ومن كونهن فتيات ولا يهتم بهن حقًا. ظلت احتياجاتهن وحياتهن الخاصة غريبة عليه، ولم يشاركن الأخ في اهتماماته الحقيقية: كانت أوتلا تنطق بكلماتها الأولى في فترة انتهاء فرانز من مرحلة هامة في حياته، هي المرحلة الابتدائية، تمكنت منه مشاعر لم تشاركه فيها الأخوات، مشاعر مختلطة من الخوف والفخر والخجل والتوقعات المثيرة. لم يكن يعلم أن هذه الصحبة الأنثوية الصغيرة والمبهمة سيخرج منها أكثر إنسان يطمئن إليه، إنسان يحب الحياة. عدَّ الأخ الأكبر هذا التحول في آخر أيام عمره معجزة لا يفهمها ولا يستحقها. لقد دافع عن هذه المعجزة بإصرار هادئ، وإن تطلب الأمر بكلمات واضحة ضد الأب، الذي أظهر له في سياق الصراع حول أوتلا حدود سلطته، كما لم يفعل قط من قبل. فاز فرانز بهذه الجولة.

اللغة اللاتينية واللغة البوهيمية
والرياضيات، وشؤون قلبية أخرى

"أنزعج حينما يحاول شخص شرح شيء
في الظروف القصوى أفهم كل شيء بنفسي."

جورج فيلهيلم فريدريش هيجل،
من يفكر تفكيراً مجرداً؟

"حينما تجمعوا محتشدين
وأعطى خادم المدرسة بالجرس إنذارًا
لينفصل كل واحد إلى تلاميذه المنتظرين
اقترب العجوز "ماير" بخطوات متخوفة نحو فصله.
انطلق صوت الصبية العالي من بعيد
وتردد العجوز متذكرًا حلمه.
اقترب من الباب وأراد الدخول
ولكنه تراجع وفكر في قلبه.
وجد المتردد هذا الرأي هو الأفضل:
أن يضغط على مقبض الباب بالأسلوب الهادئ للمدير
ويفتح الباب ولكن لا يظهر نفسه للتلاميذ.

يظن هؤلاء أنه السيد "بروم" المدير
فيلتزمون الهدوء، هذا ما اعتاد فعله.
وهذا ما فعله الآن، ولكن يبدو أن لابن الإله كرونوس رغبة أخرى
رأى "كلابيتس" بمكر دفين العجوز المتأني عبر ثقب الباب
وأدرك نواياه
فتوجه إلى الجمع مفصحًا عن خطة الشر:
"يقف "ماير" أمام الباب ويريد إفزاعنا
تعالَ يا "فانكة" مع "تاتشنر" و"بايتلس" و"لانجة" و"أبدليتس"!
فلنضغط معًا على الباب حتى لا يتمكن من الدخول."
هذا ما قاله ليحرك القلوب في الصدور."[11]

تحركت قلوب آلاف التلاميذ حينما طُبع في ١٨٩١ هذا النص الذي يتناول أقدار مدرس التاريخ والجغرافيا -الفاشل والمثير للشفقة- السيد ماير (اسمه الحقيقي "يوزيف زايدل")، وانتشرت في جميع أنحاء المناطق الناطقة باللغة الألمانية. كتب قصيدة "مايريادة" طالب المدرسة الثانوية في براغ "أوسكار كراوس" صاحب الستة عشر عامًا، وأحرزت سلسلة "مكتبة ريكلام العامة" بطباعة هذه القصيدة أكبر نجاحاتها، إذ كانت قراءتها في ثوب هزلي أكثر إمتاعًا من الإلياذة، وهي الأصل الكلاسيكي القديم ذو الوزن الشعري السداسي الذي استُوحيَت منه. صارت بسعرها الزهيد سريعًا القراءة المفضلة أسفل دكك فصول المدارس الثانوية، وتردد لأجيال بعض أبيات القصيدة: "جلست مؤخراتهم سريعًا وفي صخب على المقاعد". من المؤكد أن عددًا لا بأس

به من المدرسين وجدوا أيضًا متعتهم في مقالب التلاميذ الساذجة التي كانت قد اصطدمت بالمفردات الراقية للملحمة الكلاسيكية. لم تكن أكثر من فكاهة بريئة محصورة داخل النظام المدرسي، فكاهة من النوع ذاته الذي تمارسه الجرائد الساخرة الخاضعة للرقابة. ولكن تعد قصيدة "مايريادة" في الوقت نفسه دليلًا مبهرًا على نجاح التعليم القائم على الثقافة الإنسانية. نجاح طالب ثانوي مراهق في كتابة قصيدة بوزن شعري كلاسيكي إنما هو دليل واضح (ومرغوب) أنه لم يقضِ وقته فقط في الحماقات المذكورة وأن تعليمه المدرسي لم يكن فحسب في يد مدرسين من نوعية ماير، أي منحصرة في التلقين المقيم.

التقى كافكا شخصيًا بكاتب قصيدة "مايريادة" في سنوات لاحقة، بعد أن صار أستاذًا للفلسفة[٢]، ولكنه لم يقدر وهو في العاشرة من عمره إنجاز التلميذ "كراوس" ـالذي كان يحفظ هوميروس عن ظهر قلبـ حق تقدير. من المؤكد أنه كان يعد هذه المشاغبات الموصوفة بدقة من وحي الخيال. هل من الممكن أن يقع أمر كهذا في مدرسة ثانوية تابعة للمملكة النمساوية المجرية؟ سمع عن أوضاع مختلفة في مدرسة المستقبل: "المدرسة الثانوية الحكومية باللغة الألمانية في منطقة براغ القديمة"، المدرسة الثانوية الأكثر صرامة، نخبة من التلاميذ يُختارون بعناية، ومع ذلك لا ينجح جميعهم في اجتياز المرحلة الثانوية، والحصول على شهادة "الماتورا".[٣] حينما دخل كافكا لأول مرة ـفي صحبة والدته غالبًاـ في مساء يوم التاسع عشر من سبتمبر عام ١٨٩٣ إلى قصر "كينسكي" الفاخر على تراث الروكوكو، والذي يقع على الطريق الدائري المطوق بالبلدة القديمة، ليرى قاعات الدراسة في الجناح الخلفي للفناء. كان يعرف أن متطلبات الجد والانتباه والطاعة ـالتي فوجئ بتحقيقه لها في المدرسة الابتدائيةـ لن تساوي شيئًا مقارنة بما

ينتظره هنا. لم يجمع أي شيء بين القاعات الراقية والعالية لقصر "كينسكي" والمبنى العملي الحديث والمزدحم في منطقة "فلايش ماركت". توقع أن الفرد هنا سيلقى اهتمامًا خاصًا؛ إذ وجد نفسه طالبًا جديدًا وسط أربعين رفيقًا فقط، يستمع معهم إلى قواعد السلوك وجدول الحصص. لعل عزاءه أن عددًا من زملاء المدرسة الابتدائية دخلوا معه في الفصل نفسه، على سبيل المثال "هوجو برجمان" و"هوجو هيشت"، ولم يكن قلقهما بدرجة أقل منه. ولكن مما لا شك فيه أن شعور كافكا كان الأقوى بأن التستر لن يعود كافيًا من الآن وصاعدًا.

كان كافكا يحلم بـ"اجتماع مرعب للأساتذة" سيترتب عليه "طرده بوصفه فاشلًا وجاهلًا"، بل و"عزله" من المدرسة حينما يكتشفون الحقيقة. لم تغير سنوات المدرسة الابتدائية والثانوية —طوال اثني عشر عامًا— شيئًا من هذا التوقع، كما أن كل حركة نقل من عام دراسي لآخر كانت تزيد هذه الكارثة الحتمية سوءًا. تساءل كافكا بعد هذه المرحلة بزمن: "كيف كان لي أن أهتم بالدراسة تحت هذه الظروف؟"

هل كانت هذه مدرسة من الأساس، أم هيئة محكمة؟ من المؤكد أن كافكا يقدم في خطاب إلى الوالد صورة عن الماضي يحكمها انتقاء واعٍ لمضمونها، وله الحق في رؤية نشأته من خلال طريقته في معايشة الأحداث والتعامل معها، وليس من خلال مضمونها فحسب. إنه منطق خاص بعالمه الخيالي، ويحاول تفسيره للأب، ولذلك لا نجد كلمة وحيدة عن تعليقات المدرسين أو عن أدائه المصدق عليه في أشكال شتى. يعرف كافكا بالطبع أن طفلًا جاهلًا لا يملك خداع فريق المدرسين كاملًا وعلى مدار سنوات، كما أنه كان يعرف أنه ما من فضيحة حقيقية تهدده،

اللهم إلا بعض حالات الغش الصغيرة المعتادة والتي كان التلاميذ الآخرون في فصله بحاجة أمس إليها منه. أما هذه الخيالات عن دونيته، والتي حولت حياته في نهاية الأمر إلى اختبار رهيب وصعب، يدعي كافكا أنها كانت تتملكه منذ عمر العاشرة، وتحول دون أي مبادرة أو سعي إلى اكتساب المعرفة.

يجب أن نأخذ هذا الأمر على محمل الجد، على الرغم من حديثه عن رموز المحاكمة والعقاب ـ التي سيطرت عليه في بداية عمله كاتبًا ـ في سنوات مبكرة، إلا أن المظهر الخارجي لهذه الأفكار المخيفة ظل عالقًا في ذاكرة زملائه: برود اجتماعي وحالة دفاع عن النفس وقلة مبادرة. كتب "هوجو هيشت": "كان يشارك في كل شيء، إن طُلب إليه ذلك، لم يفسد قط علينا لهونا ولكنه لم يبادر بشيء. لم يبدِ أي اقتراح على الرغم من علمنا بذكائه. أما "إميل أوتيتس" الذي تعرف إليه وهو في الثالثة عشرة من عمره فقال: "كان ظاهريًا أكثرنا هدوءًا وصمتًا وزهدًا، بخلاف ذلك كان بعيدًا عن الأحداث المدرسية، ليس متعاليًا ولكنه غريب، وكأنه لا يهتم داخليًا بكل ما يدور من أحداث، ولكن عليه إنجاز المهمة بانضباط."[4] تفاوتت درجة عدم المشاركة من مادة لأخرى، ولكن لا مجال للشك أن الخوف من التقييم القادم كان يلقي بظلاله على اهتمام كافكا بمضمون المادة. المنهج المدروس هو مادة الامتحان التي يجب استيعابها بعناية، حتى قبل أن يتذكر مضمونها.

ولكن كيف كان الوضع الفعلي لمدارس الدراسات الإنسانية في مملكة النمسا "القديمة"؟ هل كان هذا الضغط المدمر والحبط موجودًا بهذا النسق المنظم؟ هل له علاقة بالسياق التربوي للمدرسة، أم بعجز وضغينة بعض المدرسين، الذين نصبوا أنفسهم قضاة على التلاميذ؟

هذا الأمر محل نزاع بين الشاهدين على هذا العصر. تتوغل تجارب التعليم المدرسي بعمق داخل النفس البشرية، تحكمها مشاعر فياضة ولا سيما في سنوات المراهقة، التي نتذكرها بحسب أقدارنا الشخصية. من الصعب أن يتفهم أول الفصل موقف تلاميذ آخرين، لم يمنع أداؤهم الضعيف هجوم المدرسين عنهم. ينطبق هذا الحال أيضًا على تلاميذ كان لتجاربهم الدراسية تأثير في حياتهم العائلية، ولا يمكنهم استيعاب أب مثل هيرمان كافكا لا يهتم بشيء سوى الشهادة المدرسية. من الملاحظ أيضًا أننا نميل إلى الترفع عن ذكريات مدرسية كثيرة: نتذكر النوادر المضحكة ونحكيها، أما الإهانات والمخاوف المدمرة وعذاب الاستذكار الذي لا معنى له، فنكبتها أو لا نفصح عنها من أجل احترامنا لذاتنا.

في عالم تلتقي فيه أكثر من هوية قومية ودينية ولغوية لطبيعة المدرسة أهمية خاصة. وجد كافكا، على سبيل المثال، في المدرسة الثانوية "ألتشيدر جيمنازيوم" -ومن قبلها في المدرسة الابتدائية- محيطًا متجانسًا يلتقي فيه أبناء الطبقة الوسطى اليهودية الناطقة باللغة الألمانية[5]: إنها جزيرة اجتماعية ليس للحركات المعادية للسامية والعداءات القومية أي دور فيها، كما لا تناقش هذه الموضوعات في الحصص للمدرسية. كان ماكس برود يزور في الوقت نفسه وعلى بعد دقائق ولكن في منطقة البلدة الجديدة المدرسة الثانوية بخليط اجتماعي متباين وما صاحبه من اختلاطات. كانت التعاملات هنا أكثر خشونة، واعتاد الطلاب اليهود هنا الدفاع عن أنفسهم باللجوء إلى العنف ضد الهجمات المهينة التي يتعرضون لها. كان للتوزيع الجغرافي الذي تقوم به الإدارات التعليمية في براغ دور هام أيضًا: لم يكن في فصل كافكا، في عامه الأول في المدرسة الثانوية، سوى خمسة طلاب يتحدثون اللغة "البوهيمية" في المنزل، وكانت رغبة أهاليهم أن يتعلموا باللغة الألمانية. لم تؤخذ هذه الأقلية في

الاعتبار، ولذا ليس غريبًا أنهم لم يتحملوا هذا الوضع الاسنوات قليلة. فيلسوف اللغة وصاحب الموهبة المعروفة منذ طفولته "فريتس ماوتنر"، اشتكى قبلها بثلاثة عقود من الملل القاتل في المدرسة الثانوية لدى رهبانية "البياريست"؛ لأن نصف الفصل المتحدث باللغة التشيكية كان يجد صعوبة في متابعة الدروس ويقوم بعرقلة العملية التعليمية لباقي الفصل.[٦]

هناك إذًا أسباب وجيهة لعدم التسرع والأخذ على سبيل التعميم بآراء قيلت في سير ذاتية عن تجارب تعليمية في براغ، واعتبارها منطبقة على نظام التعليم النمساوي بأكمله. كان هذا اللوم موجهًا إلى كاتب السيرة الحياتية لكافكا "كلاوس فاجنباخ" من قبل العديد من المعاصرين لهذه المرحلة: اشتكى كل من "هوجو برجمان" و"هانز كون" و"جيدو كيش"، على سبيل المثال، من أكذوبة الادعاء بأن مدرستهم غلبتها "الروح المحافظة والرجعية للإمبراطورية النمساوية المجرية"، التي يدعي "فاجنباخ" أنها "عذبت الطلاب والمدرسين على حد سواء بمنهج محدد بدقة وحذلقة متناهية، يتم التفتيش عليه باستمرار"، وجدوا أن هذه الرؤية تفتقر إلى تصور محدد للأوضاع الفعلية، فضلًا عن تقييم هذه الأوضاع من خلال المعايير الأخلاقية والتربوية المعاصرة.[٧]

تغفل هذه الاعتراضات الواقع التاريخي، كما أنها تتسم بالسذاجة؛ إذ كانت هناك قبل نهاية القرن بفترة طويلة شكاوى رسمية، بل ونقاشات برلمانية تدور حول جدوى ملء رؤوس طلاب المرحلة الثانوية "بهذا الكم الهائل من التفاصيل" و"مواد التلقين الجبارة"، ولا تشمل أسئلة الشهادة الثانوية سوى اختبارات للمضمون فقط.[٨] ولكن

السؤال الذي يفرض نفسه: ما المعايير والمعارف المختلفة عن معايير اليوم ومعارفه، التي تصلح لتقييم الممارسات التربوية وتأثيراتها النفسية في هذه المرحلة؟ قدم الإطار التربوي على الرغم من أيديولوجيته المحدودة مساحة لمدرس المرحلة الثانوية، ليضفي على المادة التدريسية بعض الحياة، وليراعي المواهب ونقاط الضعف لدى الطلاب على اختلافها وليتجنب الإهانات. كان هناك بعض المدرسين الذين احتفظوا لأنفسهم بهذه القدرات، وقد شاهدهم كافكا. ولكن حتى التربوي ذو الحس الاجتماعي* العالي، كان عليه الصراع من أجل مساحة من الحرية في مواجهة نظام تعليمي تأصلت فيه أخلاقيات الواجب والعمل العقيمة.

قدم "هوجو برجمان" نفسه -دون عمد- دليلًا مؤثرًا لعدم جدوى تطبيق المعايير المعاصرة دون غيرها، من أجل نقل صورة حيوية وصحيحة عن الماضي. يتحدث عن تجربة مدرسية "انحفرت بعمق" في ذاكرته:

"كان مدرس فصلنا في السنوات الثماني هو السيد "إميل جشفيند"، وكان قسيسًا في رهبانية "البياريست"، وراعيًا للتقاليد العريقة. في الصف الثانوي الثالث -لم أكن قد بلغت الثالثة عشرة من عمري بعد- تزوج عم لي في مدينة "برون"، وحصلت على موافقة للغياب لمدة يومين لأشارك في حفل الزفاف. أقنعت العائلة والديَّ بإضافة يومين آخرين، فتغيبت دون عذر عن سبع حصص مدرسية. اندلعت الأزمة فور عودتي، ووُجِه إليّ لوم شديد، وظل مدرس الفصل يوبخني لشهور بسبب هذه السقطة. كنت أول فصلي وكنت معفيًا من المصاريف المدرسية بسبب عجز والديَّ المادي، ولكن الإعفاء ارتبط بالحصول على أفضل درجة في السلوك، أو على الأقل درجة "جيد"،

وقد ترتب على درجة "مقبول" الحرمان من الإعفاء. كان مفهومًا أن الطالب الذي يحصل على لوم لن يأخذ أفضل درجة. ولكن هل سيوافق السيد "جشفيند" على منحي درجة جيد وأظل متمتعًا بالإعفاء؟ جاء يوم إصدار الحكم «!» وتوزيع درجات الفصل الدراسي الشتوي. أعطاني "جشفيند" الشهادة، انتصرت الرحمة. ما زلت أسمع صوته: "لقد حصلت في السلوك على درجة مقبول. لقد صوتُّ ضد هذا القرار، ولكن الغالبية كانت ضدي، وكنت سعيدًا بهذه الغالبية."

أقص عليكم هذا الموقف؛ لأريكم مدى جدية مدرس الفصل هذا في الأمور المتعلقة بالمدرسة. كان للمدرسة الدور الأهم في تعليم الالتزام."[٩]

قد يبدو سلوك المدرس صحيحًا في إطار منظومة القيم السائدة في هذا العصر، ويتسم بحسم يستحق الإعجاب. ولكنه أدخل أفضل طلابه -على الرغم من براءته من خرق القواعد- في حالة من الخوف دامت أسابيع، بل قبل بتهديد كيان هذا الطالب بقبوله لإضاعة تعليمه الثانوي بسبب العجز المادي دون غيره من الأسباب. لم يستفد "برجمان" شيئًا من استيعابه للأسس التربوية التي يؤمن بها مدرسه، أو من عدم شعور "جشفيند" بالارتياح للموقف الذي اتخذه. تحول وبمنتهى السهولة "الالتزام بالواجب" -الذي فقد معناه الاجتماعي ولكنه صار معيارًا أخلاقيًا ملزمًا- إلى عمل وحشي. كانت هذه تجربة سائدة في القرن العشرين، ولكن يبدو أن "برجمان" لم يستوعب ذلك، حينما حاول، بقص هذا الموقف، عرض مدرسته الثانوية في براغ بشكل أفضل. يتفوق عليه في هذا التحيز البريء المحامي "جيدو

كيش" (١٨٨٩-١٩٨٥)، الذي دافع من خلال هجومه – على "فاجنباخ" أيضًا– عن الأساليب التعليمية في المدرسة الثانوية في البلدة القديمة، ولكنه يعترف في الوقت نفسه أنه كان في السنوات الأولى يصاب بالغثيان من كثرة خوفه من الامتحانات، ولم يبدِ أي مدرس أي نوع من التفهم لهذا الإخفاق.[١٠]

كان السيد "إميل جشفيند" الضخم والسمين هو أكثر السلطات تأثيرًا في المرحلة الدراسية الثانوية لكافكا. ليس فقط لكونه مدرس الفصل المسؤول حتى الحصول على شهادة "الماتورا"، بل لأنه كان يلقي معظم الدروس بوصفه مدرس اللغات القديمة. كان التعامل مع البروفسور "جشفيند"، (أطلق على جميع المدرسين لقب "بروفسور") يوميًا، ثماني حصص أسبوعيًا في اللغة اللاتينية، وابتداءً من الصف الثالث ست حصص في اللغة اللاتينية وخمس حصص في اللغة اليونانية. كانت القناعة بشكل عام أن هاتين المادتين هما عماد التعليم، وكانت متطلباتهما لهذا السبب صارمة، وواجب الحفظ هو الأكبر. تُجرى مع نهاية كل أسبوع اختبارات تحريرية، وفضلًا عن بحث منزلي يُسلم كل أسبوعين وله درجة أيضًا. الاختبار الشفهي الذي يخشاه الجميع كان يمثل الرقابة الأكثر صرامة، ويأخذ دومًا وقت النصف الأول من كل حصة مدرسية. كانت عادة لا تنقطع في مواد عديدة، ولم يؤثر في مقياس الرعب من المدرسين شيء سوى أسلوب اختيارهم للتلاميذ، أبجديًا أم عشوائيًا. من كانت له رغبة في أفضل درجات اللغة اللاتينية واليونانية كان عليه بذل مزيد من الجهد؛ لأن "جشفيند" كان يطلب ما هو أكثر من المنهج، قراءة الأعمال الكلاسيكية "قراءة خاصة"، فضلًا عن عمل كراسات بجمل نحو نموذجية ومواضع للاستشهاد، كان يطلب تقديم هذه

الكراسات إليه في محل إقامته الخاص داخل دير "البياريست"، إنه امتياز لم يحصل عليه أحد سوى شخصين: كافكا و"برجمان".[11]

كان "جشفيند" خبيرًا في الحضارات القديمة، وكان يدعو إلى استخدام الكثير من المواد "الواقعية" في الحصص الدراسية، خاصة الرسومات ومستنسخات الأعمال الفنية القديمة.[12] ولكن، على الرغم من ذلك، ظلت دروسه مرتبطة بالمنهج، وكان لإتقان القواعد النحوية الأولوية القصوى، مما جعل طلاب المرحلة الثانوية يضلون طريقهم داخل متاهة التفاصيل الشكلية الصغيرة، قبل تنمية اهتمامهم بالمضمون، أو إبداء التفهم المتعاطف مع هذه الحضارة. حتى "برجمان"، الذي عد "تعلُّم لغة أجنبية بتفاصيلها النحوية هدية العمر"، لم يتنبّه هذا الشعور بالعرفان إلا في وقت متأخر.[13] زار طبيب القلب "برونو كيش" (١٨٩٠ـ١٩٦٦) المدرسة الثانوية في منطقة البلدة القديمة بعد كافكا بسبع سنوات ولم يجد اختلافًا في المناهج التعليمية، إذ تعرض مذكراته بشكل أكبر العواقب التربوية لنظام التعليم القائم على الحركة الإنسانية ولكن في مظهره المتحجر:

"اهتم المدرسون في مادتي اللغة اللاتينية واليونانية بالتدريبات النحوية دون غيرها، مما كان مصدرًا للعذاب بالنسبة لي في تعليمي المدرسي. أخذت كثيرًا من الوقت حتى استوعبت أن "يوليوس قيصر" و"ليفيوس" لم يكتبا من أجل دروس النحو في التعليم الثانوي فقط. بدأت أسعد باللغة اليونانية واللاتينية على الرغم من نظام التعليم عندما تعرفت على أدباء مثل "هوراس" و"سوفوكليس". بذل

المدرسون قصارى جهدهم لإفساد سعادتي هذه بحذلقتهم النحوية المكروهة، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك إلا جزئيًا."[14]

لم يترك كافكا أحكامًا صريحة كهذه عن مدرسته الثانوية، ولكنه يتذكر أنه رأى الفرق واضحًا وهو تلميذ بين بعدي الشكل والمضمون للتعليم، وأن البروفسور "جشفيند" اهتم شخصيًا بألا يستسلم تلميذ في الفصل لأوهامه. كتب كافكا إلى "فيليس باور":

"لا يجب علينا دفع الأطفال إلى المجهول. صحيح أنه ربما يكون لذلك تأثير جيد، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه اعتمادًا كاملًا. أفكر في أستاذ تحديدًا كان دائمًا ما يقول وقت قراءة الإلياذة: "خسارة أنه يجب قراءة هذا النص معكم، لا يمكنكم فهمه، حتى إن ظننتم ذلك، أنتم لا تفهمون شيئًا. يجب أولًا المرور بتجارب عديدة، قبل فهم أبسط الأشياء فيه". كان لهذه الملاحظات (التي صدرت من هذا الرجل طوال الوقت) تأثير عليَّ أنا -الصبي البارد- أكبر من تأثير الإلياذة والأوديسا معًا، تأثير مهين ربما ولكنه جوهري."[15]

لم يكن كافكا -صاحب الحس الخاص تجاه التصرفات المهينة- التلميذ الوحيد الذي أصابه الإحباط من هذه الرسائل المتضاربة: يجب عليكم الاستذكار لتفهموا، ولكن مع كل هذا الاستذكار لن تفهموا شيئًا. إنه حمل مزدوج له نتائج تربوية فادحة، فتح المجال العام أمام السر المبهم لمطلب الأب السلطويّ بتنفيذ الأوامر دون فهمها. ظل كافكا

واقعًا تحت تأثير هذا التناقض الإنسانيّ ويلتقي به مرارًا من جديد، رأي له أهمية جوهرية، فجعله ضمن أساسيات كتاباته النثرية. يُطلب من المتهم "يوزيف ك." تحت تهديدات غير واضحة تركيز كل طاقته في القضية والالتزام بالقواعد الشكلية، مع التأكيد له في الوقت نفسه على عجزه عن فهم القانون أساس القضية، حتى إن حاول فهمه طوال العمر. يقضي التناقض نفسه على بطل رواية "القصر" –ماسح الأراضي السيد "ك." - إذ يتم التأكيد مرارًا وتكرارًا على جهله بالأوضاع الحقيقية في القرية، وكلما حاول فهم هذه الأوضاع تدور تفسيرات من يتحدث إليهم حول أمور متعلقة بالقضية فقط. يدرك في نهاية الأمر أن سكان القرية أنفسهم لا يفهمون عالمهم، ويعيشون وسط لغز كبير.

حينما يلقي نظام التعليم المدرسي بظلال الجهل هذه، يصعب التفرقة بين بقاء أجزاء من المنهج عالقة في الذاكرة، وكونها جزءاً من الآفاق المعرفية بسبب المذاكرة اليومية من ناحية، وبين تَكَوُّن اهتمام حقيقي لمدة أطول على الرغم من الاختبارات المستمرة من ناحية أخرى، مثلما حدث في حالة "أوسكار كيش". تذوب الفروق في معظم المذكرات المدرسية للزملاء المعاصرين لهذه الفترة الزمنية. لم يهتم كافكا اهتمامًا منظمًا بلغة الحضارات القديمة وثقافتها بعد حصوله على شهادة "الماتورا"، ولكنه لم يكتفِ أيضًا بمخزون الأقوال المأثورة التي حفظها عن ظهر قلب. قرأ من حين لآخر للأدباء الذين أثاروا اهتمامه، لا سيما أفلاطون. شخصيات العالم القديم حاضرة أيضًا في نصوصه الأدبية، ولكن ليس بوصفها مرجعية ثقافية، بل أبطالًا نُزعوا من سياقهم التاريخي. صمت الإنذار، و"بوزايدون"، و"بروميثيوس"، والمحامي الجديد، لا يُظهر كافكا في أي من هذه الأعمال الرمزية اهتمامًا

فكريًا بشخصياته، بل إنه يستغل، على الأرجح، شهرة أسمائهم ليضعهم تحت وطأة تأثير الإضاءة الفوسفورية للحداثة. تفتيت الأسطورة القديمة دون احترام وإعادة تركيبها من جديد –مثلما حدث عند كافكا مع شخصية "بوزايدون" الذي تحول إلى موظف قيادي سيئ المزاج– جزء من لعبة الأدب، وكانت هذه الأعمال بالتأكيد ستذكر البروفسور "جشفيند" إن رآها بوقاحة قصيدة "مايريادة".

حينما قام كافكا في التاسعة والثلاثين من عمره بعمل كشف حساب لنفسه، وشكا من كم الاهتمامات في حياته، التي مارسها بنصف قلب وتخلى عنها في منتصف الطريق، نجد في قائمته المنوعة "البيانو والكمان واللغات"[١٦]. تعد الآلتان الموسيقيتان مفاجأة، إذ لم يرد ذكرهما في مدوناته. من المتوقع أنها كانت فترات قصيرة بمدرسين خصوصيين لا يُحسد عليهم، جلبهم آل كافكا إلى المنزل لسبب وحيد، ألا وهو الرغبة في الانتماء إلى الطبقة البرجوازية المرفهة. مراعاة رغبات فرانز –ربما كان وقتها في العاشرة من عمره– أمر مشكوك فيه. بصرف النظر عن حبه لدندنة الأغنيات والأنغام المحببة إليه من وقت لآخر وحتى مرحلة النضوج، لم يظهر إلا اهتمامًا بسيطًا بالموسيقى، ولم ينمِّ حسه لاستقبال أشكاله الجمالية، على الرغم من عازفي البيانو البارعين في دائرة أصدقائه. وصف نفسه موجزًا: "يتمثل جوهر ضعف حسي الموسيقي في أنني غير قادر على تذوق الموسيقى في سياق متصل، ينشأ أحيانًا داخلي تأثير ما، وقلما يكون تأثيرًا موسيقيًا." ذكر ذات مرة لبرود أنه لا يمكنه التمييز بين "الأرملة الطروب" للموسيقار "ليهار" و"تريستان وإيزولده" للموسيقار "فاجنر".[١٧] لم تتمكن حصص الموسيقى المدرسية –التي كان يزورها طواعية ومرات قليلة– من تغيير هذا العجز الذي

اكتشفه مبكرًا. لذلك تخلى آل كافكا –ولأسباب وجيهة– عن دفع مصاريف مدرسية إضافية ليدرب ابنهم أحباله الصوتية، أو ليتدرب على أغانٍ كنسية بأصوات متعددة. لم يبدِ لاحقًا أي ندم على هذا الأمر.

يتناول كشف حساب الفشل اللغات أيضًا، يبدو أنه لمس بذلك جرحًا أكثر عمقًا؛ إذ يُستبعد أن يتحدث كافكا هنا عن اللغة اليونانية واللاتينية؛ لأنه كان متمكنًا من هذه اللغات "الميتة" لدرجة تسمح له بدراسة الفيلولوجيا الكلاسيكية أو علوم الحضارات القديمة دون عناء. ولكنه لم يتمكن، بصرف النظر عن اللغة التشيكية، من الوصول إلى هذا المستوى نفسه في أي لغة "حية" أخرى. لم يقبل بالعذر القائل إن مدرسته الثانوية القائمة على الدراسات الإنسانية لم تشجع على ذلك، بل لم تهتم باللغات بوصفها وسيلة للتفاهم بين الثقافات، لأنه تحرر مبكرًا في مجالات أخرى –الأدب مثلًا– من هذا المفهوم التعليمي الذي يفتقر إلى فكرة التواصل. لا، يبدو أن المسألة تعلقت بضعف رغبته، نقصته الجدية والصبر، شيء من هذا القبيل كان يمنعه في جميع الأحوال من تحقيق أهداف حددها لنفسه. ربما –وهذا ما كان يخشاه– هي قلة موهبة.

كانت اللغة التشيكية والفرنسية بالفعل اللغتين الوحيدتين في المدرسة الثانوية بالبلدة القديمة. كانت اللغتان "ملزمتين نسبيًا"، بمعنى أنهما مادتان إضافيتان لا تتسببان في رسوب التلميذ، ولكن قد تحميانه من الرسوب. شارك كافكا لمدة ثلاث سنوات في حصص اللغة الفرنسية، حصتان فقط أسبوعيًا، وعلى الرغم من حصولة على درجة "مقبول"، فإنه تمكن من قراءة الروايات الفرنسية بلغتها الأصلية بسهولة – كانت تدعمه مديرة المنزل البلجيكية "سيلين بايلي"، ولكنها جاءت متأخرة حتى يكون لها تأثير على درجات كافكا. ولكن أتاحت

له "بابلي" –التي كانت مسؤولة عن تربية أخواته– فرصة لاستخدام المصطلحات الفرنسية اليومية بفعالية وتحسين نطقه. هذا ما يفسر ادعاء كافكا أمام أصحاب العمل مستقبلًا أنه "يجيد" هذه اللغة[18]. لم يتخطَّ في اللغة الإنجليزية –التي تعلمها غالبًا في الأكاديمية التجارية– واللغة الإيطالية –التي درسها ذاتيًا– مرحلة المعرفة الأساسية. يبدو أن كافكا افتقر إلى الدافع لدراسة الثقافات الأجنبية وآدابها، كما أنه ظل –لعدم وجود فرص التدرب– دون المستوى الذي يتيح مع التعلم الفعال للغة درجات جديدة للحرية. إنها سمة مميزة له أنه يذكر العاملين معًا: "إنه فشلي في التصرف المستقل، واللغات الأجنبية، والمصادفات السعيدة."[19]

لم يقصد في هذا السياق اللغة التشيكية؛ لأن البيئة الألمانية اليهودية التي نشأ فيها لم تعد "البوهيمية" لغة أجنبية، بل لغة ثانية، ولذلك لم يكن هدف دروس اللغة التشيكية في المدارس الابتدائية تحسين استخدام اللغة؛ بل فصلها بوضوح عن اللغة الألمانية، والقضاء على العادة المنتشرة في خلط الكلمات الألمانية والتشيكية، أو تغيير اللغة قبل إنهاء الجملة. هذا التحويل بين اللغات، الذي ظل معتادًا لدى آل كافكا حتى سنوات متأخرة[20]، عدَّه المدرسون والأساتذة أصحاب الحس القومي تدميرًا للغة وطمسًا للهوية الثقافية. لم يتمكن كافكا غالبًا من الفصل الدقيق إلا خلال سنوات الدراسة، كان قبلها يسمع عددًا متساويًا من الكلمات التشيكية والألمانية، ربما كان عدد الكلمات التشيكية أكبر، كما عدَّها لغة من يعتني به أغلب اليوم. كتب إلى التشيكية "ميلانا يسانسكا"[21]: "لم أعش قط وسط شعب ألماني، اللغة الألمانية هي لغتي الأم وطبيعية بالنسبة لي، ولكن اللغة التشيكية هي الأقرب إلى قلبي." من المؤكد أنها تعجبت من شخص لا يعد لغته الأم هي الأقرب

إلى قلبه، ولكن كانت هذه التفرقة نتيجة طبيعية لخبرات كافكا في طفولته: تحدث العديد من أفراد العائلة الكبرى فيما بينهم باللغة الألمانية، ولكن صاحبت لحظات الأمان والاسترخاء والسعادة إيقاعات تشيكية، لدرجة أن أمه كانت في لحظات الحنان تتحدث اللغة التشيكية.

كيف كان إتقان لغة القلب ممكنًا؟ لن تفلح "العبارات النموذجية" و"الاستشهادات" بالتأكيد. لم يقبل كافكا بانتقاد المربية "آنا بوتزاروفا" بأن الأخوات الثلاث يتحدثن التشيكية بطلاقة، ولكن بأخطاء نحوية. قال: "الأهم أنهن يتحدثن اللغة، سيتعلمن النحو في وقت لاحق."[٢٢] لم يكن حاله مختلفًا، كان يتقن اللغتين شفاهية في المدرسة الابتدائية على المستوى نفسه، وظل يحصل على أفضل الدرجات في مادة "البوهيمية" ليتفوق على القلة التي تعد هذه اللغة لغتها الأم. كان للمدرسة الثانوية نظام مختلف، تعلق الأمر بالاستخدام النحوي والإملائي الصحيح للغة التشيكية بوصفها لغة مكتوبة، وعلى الرغم من أن المناهج أرادت أن تكون متاحة للمبتدئين، فإن متابعة التقدم السريع للدروس تطلبت معرفة سابقة باللغة. تساوت الحصص الدراسية مع اللغة الفرنسية، حصتان أسبوعيًا وامتحان شهري، ولكن كان التكثيف أعلى بشكل واضح. بعد اجتياز المراحل الأولى كان على الطلاب ترجمة نصوص إلى اللغة التشيكية، كما درسوا في كتب احتوت نصوصها التدريبية على معلومات ثقافية وتاريخية ومقتطفات مطولة من أعمال أدبية – على سبيل المثال ثلاثون صفحة من رواية "بابيتشكا، الجدة" للكاتبة "بوشينا نيامتسوفا"، التي علمته –بحسب قوله– "موسيقى اللغة" التشيكية[٢٣]. لذا، يمكننا تحديد توقيت لقاء كافكا الأول بالأدب التشيكي وتقاليده وطبيعة لقائه بدقة كبيرة. في العامين الدراسيين الأخيرين تحديدًا واجه –من خلال كتاب القراءة الجديد

المخصص للمدارس الثانوية التشيكية ذي الأجزاء الثلاثة- منظومة الأعمال الكاملة "لميلاد القومية الجديد"، عبارة عن أعمال نثرية وشعرية ودرامية، وصحافة ذات توجه قومي، وأخيرًا تحليلات معاصرة في الفلسفة اللغوية.[٢٤]

إنه برنامج ذو متطلبات عالية، عانى منه كافكا لفترات. صحيح أنه تمكن من الغياب عن حصص اللغة التشيكية في الصف الخامس دون أن يفقد خيط التواصل -من أجل تعلم الكتابة المختزلة- ولكنه لم يفلح في الحصول على أفضل الدرجات بعد ذلك، فلم يقدم إلى والديه درجة أفضل من "مقبول" بعد ذلك. دفع والداه لفترة إلى المتدرب "فرانتيشك باشيك" مقابل دروس خصوصية، فبصرف النظر عن مدرس اللغة المتمكن الدكتور "فاتسلاف روسيتسكي" افتقد كافكا التواصل مع المتحدثين للغة بوصفها اللغة الأم، مما كان له تأثير سلبي على طلاقته في اللغة التشيكية في الحياة اليومية. ولكن تعلق مستقبله الوظيفي بهذه المهارة – حتى مع اتضاح الرؤية بأنه في الأغلب لن يعمل تاجر جملة في مجال الخردوات، وسيكتفي بالمحاماة أو الوظيفة الحكومية.[٢٥]

اتضح لاحقًا في أبريل عام ١٨٩٧ أن قرار التدريب الإضافي هذا كان قرارًا حكيمًا. أصابت منطقة بوهيميا الناطقة باللغة الألمانية حالة من الصدمة حينما أعلن رئيس الوزراء النمساوي الدوق "كازيمير باديني" عن المساواة التامة بين اللغتين، بل وأن العديد من الجهات الحكومية ستستخدم اللغتين معًا. ترتب على ذلك أن من يتقن لغة واحدة لن يصلح للتعيين الوظيفي. إنها خطوة ثورية في سياق الظروف النمساوية. هل ظن حقًا "باديني" أنه سينهي بهذا القرار -الذي اتخذه بحيلة دستورية ودون إشراك البرلمان- الصراع اللغوي في بوهيميا؟[٢٦]

ليس من الصعب التنبؤ بأنه أثار العكس تمامًا، لم يكن لدى التشيكيين أي مشكلة مع هذا القرار الجديد؛ مدارسهم الثانوية تدرس اللغة الألمانية بكثافة وشهادة "الماتورا" تختبر اللغة تحريريًا. أما الألمان فوجدوا أنفسهم أمام عقبة هائلة، التقطوا لغتهم التشيكية عشوائيًا من الشارع، أو لم يلموا باللغة على الإطلاق. ترتب على هذا القرار اللغوي انخفاض المشاركة الألمانية في الوظائف الرسمية، وتعزيز لسلطة التشيكيين. من لم يتقن اللغة كان عليه تعلمها خلال أربع سنوات، أو فقدان وظيفته، نقطة ومن أول السطر!

توقع كل من "باديني" والقيصر الذي سمح له بهذه الخطوة نوعًا من المقاومة السياسية، أما الانتفاضة القومية التي حدثت فلم يتوقعاها على الإطلاق. قرر النواب الألمان المستاؤون تعطيل عمل البرلمان، وقاموا بأعمال شغب ووقعت اشتباكات بالأيدي، وتدخلت الشرطة لفضها، في الوقت الذي كانت تستمتع فيه أوروبا بأكملها بهذا المشهد. تحولت مظاهرات ضخمة في فيينا وبراغ إلى اشتباكات، ونُظِمت في مدن صغيرة عديدة بأغلبية ألمانية "كوموتاو، وتيبليتس، ورايشنبرج، وزاس، وبودفايز" حشود و"أيام شعبية"، كما علت أصوات النعرة القومية.[٢٧] نعت "كارل هيرمان فولف" –نائب القوميين الألمان والذي احتفلت به مناطق بوهيميا النائية (لاحقًا صارت منطقة "زوديتنلاند")" بوصفه محرضًا على الأحداث– التشيكيين في المجلس بأنهم "شعب عديم القيمة"، وتشاجر مع رئيس الوزراء. لم يهدأ الوضع مع نهاية العام، فأغلق البرلمان واضطر "باديني" إلى الاستقالة. تم تخفيف قراراته المتعلقة باللغة، ثم رُفعت في عام ١٨٩٩ نهائيًا. ولكن ظلت الأجواء بين الألمان والتشيكيين مسممة، لدرجة لم يجرؤ معها أي سياسي آخر على إعادة التوازن إلى الوضع مرة أخرى. ولكن

ظلت "أزمة باديني" بوصفها إنذارًا تحذيريًا عالقة في ذاكرة الألمان، وفي ذاكرة اليهود الأكثر حرصًا بشكل خاص. بادر التشيكيون بتحويل أغلبيتهم إلى قوة سياسية، حتى في فيينا. حتمًا سيرجعون مرة ثانية، لذلك فإن وجود خيارات على الجانبين أمر مطلوب، خيارات لغوية في المقام الأول.

تبدو لنا اليوم النشأة اللغوية لكافكا مبهمة وصعبة الفهم، ولكنها كانت في ظروف براغ طبيعية للغاية. لم تمثل الثنائية اللغوية في حد ذاتها مشكلة اجتماعية أوعائقًا فكريًا، كما أذابت التجربة في الحياة اليومية فكرة التخوف من أن النشأة بلغتين قد يترتب عليها عدم إتقان أي منهما. ولكن لم يكن الخطاب السياسي القومي المتأجج -الذي وصل بأزمة "باديني" إلى قمة الصراع وإلى قاع البعد عن الواقع- ليرضى بهذا الوضع. تعريف الهوية القومية من خلال الانتماء اللغوي دون غيره في تزايد، ولم يعد البحث عمليًا عن وسيلة تفاهم كافيًا -لهجة، لغة عامية أو اجتماعية- بحسب الموقف، بل صار المطلوب تقديم شهادات واضحة وصريحة. في سياق الحصر السكاني مثلًا لم يكن مسموحًا بذكر أكثر من لغة تعامل، مما ترتب عليه بالطبع صورة غير واقعية عن التعدد اللغوي الموجود في براغ. مال اليهود خصوصًا إلى ذكر اللغة التشيكية بوصف ذلك نوعًا من الحرص السياسي، دون أن يكون لذلك أي تأثير على سلوكهم اللغوي وتفضيلهم للمدارس الألمانية.[٢٨]

كان آل كافكا ضمن العائلات التي أظهرت عبثية هذه المسرحية الهزلية القومية، ملأ رب الأسرة هيرمان في عام ١٩١٠ ورقة تسجيل ذكر فيها أن جميع أفراد العائلة يتحدثون التشيكية بخلاف الابن الذي يجيب باللغة الألمانية. كان الجيران اليهود، عائلة "شولهوف"، في حالة

مشابهة مع ابنتهم، ادعى جيران آخرون أن لغتهم هي التشيكية، في حين أنهم عجزوا عن كتابة أسمائهم باللغة التشيكية.[٢٩] لا عجب من تداول مزحات عن قساوسة كاثوليكيين لغتهم في الحياة اليومية هي اللغة اللاتينية. (أحد هذه "المعاملات اليومية" هي المواكب الدينية).

هل كان من الممكن أن يصبح كافكا كاتبًا تشيكيًا تحت تأثير مؤسسات تعليمية أخرى؟ حتى إن تطلب ذلك عوامل مساعدة أخرى في حياته، لا يمكن تجاهل هذا التساؤل؛ لأنه من الواضح أن التعليم المدرسي باللغة الألمانية –وبالأخص اللغة الألمانية المكتوبة– هو الذي حسم الأمر بالنسبة لكافكا، حينما دخل المرحلة الثانوية كانت هذه العملية في نهاياتها. ولكن ما طبيعة اللغة الألمانية التي كان يحلم ويفكر ويكتب بها كافكا؟ اللغة التي سمعها في محيطه القريب لم تكن بالتأكيد هذه "اللغة الألمانية المسرحية" سيئة السمعة والمبالغ في ضبطها– والتي كان يستعين بها اليهود المرفهون ليستعرضوا بها اندماجهم الكامل. كانت لغة غير محددة المعالم، تتخللها المصطلحات النمساوية وتأثيرات للغة اليديشية، وتوافقات نحوية وصوتية مع اللغة التشيكية، وكذلك تأثيرات للهجات البوهيمية وبعض المميزات المحلية: خليط يطلق عليه "اللغة الألمانية البراغية"، وعدَّها متحدثوها لغة فصحى، في حين عدَّها آخرون مثيرة للحرج. ظلت هذه "اللغة الألمانية البراغية" حاضرة في مذكرات القرن العشرين، في سير حياتية ومقالات متخصصة في علم اللغة، دون أن يقدم أي شخص وصفًا أو تفسيرًا مقنعًا، حتى مع رنين مصطلحات هذه اللغة الخاصة في أذنه. يبدو أن لهذه اللغة الألمانية البراغية تنوعًا كبيرًا، بدءًا باختلافات بسيطة في الإيقاع والمصطلحات احتفظ بها كافكا حتى نهاية عمره[٣٠]، مرورًا بمصطلحات سلافية تخللت لغة البرجوازية الصغيرة، وانتهاءً بتأثيرات "للغة بوهيمية ريفية" –

وهي نوع من اللغة الألمانية الهجينة، التي جاء بها المتحدثون باللغة التشيكية كلغة أم إلى براغ. يتذكر "إميل فاكتور" أنه حتى في المدارس الثانوية، التي قلما يأتيها ابن فلاح أو عامل، سمع "عددًا لا يحصى من لهجات اللغة الألمانية البراغية".[٣١]

لم تكن هذه الاختلافات اللغوية هي التي ميزت براغ، ولكن هذا التنوع متعدد الأبعاد الذي عكس خطوط صراع هذه المدينة: الألمانية – التشيكية، اليهودية – المسيحية، البرجوازية – البرجوازية الصغيرة – طبقة العمال. كان للّغة في كل حي إيقاع مختلف. كان التأثير الألماني اليهودي في منطقة الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة أكثر وضوحًا، على الرغم من محاولات كبت اللغة اليديشية. كان الحديث يدور كثيرًا لدى آل كافكا حولmeschuggene Mischpoche (أي العائلة المجنونة)، ولكن لا يذكر كلمة gójim (أي غير اليهود)، الذين يدخلون بوصفهم زبائن بانتظام إلى محل الأسرة (في زمن بائع اللحوم ياكوب كافكا ما كان هذا المسمى ليزعج زبائنه). كان استخدام الكلمة الشهيرة nebbich (تصف شخصًا تافهًا) من المحرمات؛ إذ كانت دليلًا على الانتماء إلى اليهودية الشرقية، وكثيرًا ما تأتي في سياق المزحة. ولكن من المؤكد أن كافكا قد سمع وهو طفل العبارات الألمانية الخاطئة بلهجة محلية، كما ترك بعضها أثرًا في خطابات الأسرة مثل كتابات الأم مثلًا.[٣٢] هل كان كافكا يتحدث بالطريقة نفسها؟ يدعي "جوستاف يانوخ" أن "لهجته كانت حادة، تشبه الألمانية التي يتحدثها التشيكيون." كيف كان يتحدث التشيكية إذًا؟ بلهجة ألمانية بالطبع، ولدينا على ذلك شهود[٣٣].

"لقد نشأت مع اللغة التي أستخدمها الآن، وكنت على استعداد للتخلي عنها عشر مرات؛ لأنه وجب عليَّ تنميتها من خلال كبت

ذاكرتي اللغوية الأخرى. أدى التلامس المشؤوم لكيانات لغوية غير منسجمة في بلادنا إلى انحدار مستمر على الأطراف المتلامسة، ترتب على ذلك أيضًا، لمن نشأ في براغ على سبيل المثال، أنه يسمع مبكرًا مخلفات لغوية، لدرجة أن شعورًا داخليًا بالنفور ينمو داخله، بل هو نوع من الخجل تجاه كل ما يتعلمه حديثًا من رقة لغوية.»[٣٤]

هذا مضمون الشكوى التي صرح بها "ريلكه" لأهم الشخصيات التي دعمته في براغ "أوجست زاور"، الباحث في الدراسات الجرمانية. قد يبالغ "ريلكه"؛ لأنه تعلم احتقار التغيرات اللغوية البراغية بوصفها ظاهرة محلية. ولكن ينطبق الحال على كافكا أيضًا؛ الذي اضطر إلى اختيار إحدى لغتي نشأته "لتنميتها" بوصفها لغة فصحى مكتوبة. كان لحصص اللغة الألمانية أولًا ثم للكلمة المكتوبة ثانيًا الدور الحاسم في هذه العملية، وإن كنا نجهل العامل المسبب لها: لا نعرف ما دفع كافكا للقراءة. لم تقدم الخزانة في غرفة المعيشة إلا عددًا محدودًا من الكتب، ولم يشجعه أحد سوى جليسة الأطفال أو الطاهية؛ لأن الأب والأم لا يقرآن لنفسيهما ولا له هو. ولكن أتاح له هؤلاء الجهلة قبل دخول المدرسة الثانوية أهم وسيلة مساعدة على القراءة بلا حدود: غرفة مستقلة له في الشقة التي انتقلوا إليها قبل ولادة أوتلا بفترة وجيزة، في منزل "إلى الملوك الثلاثة" ("ترشي كرالو" باللغة التشيكية)، يقع في رقم ٣ لزقاق "سيلتنر جاسه" فوق محل الأب مباشرة. احتوت الغرفة على فراش ومكتب ورف للكتب ودكة على النافذة تطل من الطابق الثاني على الشارع التجاري الصغير، وباب يمكن غلقه. كانت ربما أهم هدية تلقاها كافكا طوال حياته.

اكتشف فيما يبدو بدافع ذاتي منه وبشغف متزايد في منطقة الحماية الجديدة هذه عالمَ القصص، الذي جعله ينسى ويلات العالم الخارجي الواقعية والشعور المؤلم بالوحدة. كتب "لارس جوستافسون" في مذكراته: "إن أردت صنع أديب من طفل، فاحبسه في صندوق، سيبدأ في الازدهار داخليًا."[٣٥] تثبت حالة كافكا أن الحفاظ على هذا الصندوق بالتهديدات والمخاوف أمر كافٍ تمامًا. إن تعلم الطفل الدخول طواعية إلى مجال الصدى الداخلي والتحرك داخله بحرية، فسيستسلم حتمًا لإغراء يكثف هذه التجربة، فلا يقرأ مجرد قراءة، بل يلتهم الكتب. تقلل القراءة النهمة والمفرطة من الآلام، تعالج الأمراض النرجسية من خلال السماح بالتقمص المزلي، لا سيما تخيلات العظمة، قد تتكثف لتصير حقيقية.

لم يتحدث كافكا عن توقيت إدمانه وكيفيته، ولكن هناك دلائل قوية تشير إلى بحثه عن هذه الرحلة الممتعة والسرية كلما أمسك بكتاب بعدها لسنوات. لم يكتفِ بقراءة الأعمال الأدبية، بل كان للتقارير القدرة نفسها على إشعال ناره الداخلية، ما دامت بعيدة تمامًا عن الواقع البراغي. صار يفضل التقارير حول الرحلات والرحلات الاستكشافية، ولم يفرق في سنوات لاحقة بينها وبين الاستمتاع بالنصوص الأدبية رقيقة المشاعر: يعد كافكا هو الوحيد بين جميع أقرانه من الكتاب الألمان الذي ظل في سنوات النضج يقرأ بضمير مرتاح مغامرات الهنود والإسكيمو والحيوانات.[٣٦] كما أنه قرأ بالنهم نفسه التقارير التاريخية ووصف الحروب المتصلة بهذه الأحداث. لجأ كافكا بانتظام إلى هذا النوع من القراءة -بعيدًا عن الأعمال التاريخية الشاملة- ليفهم الأحداث التاريخية ويربطها بعالم تجاربه الشخصية: إنها أصداء لقراءة طفولية تقمصية، احتفظ بلحظاتها السعيدة حتى النهاية.

دعم التعليم الثانوي هذا التداخل بين ما هو غريب وما هو تاريخي؛ إذ جُمع بين كل من التاريخ والجغرافيا مما كان له تأثير سلبي على المادتين. شهد كافكا لنفسه بمعرفة "متميزة" في مادة الجغرافيا – وهو إطراء نادر للنفس– ولكن حصص التاريخ الضعيفة لم تقدم سوى بعض القصص، كانت صعبة التناول بسبب حماسها لأرقام أعوام محددة وأنساب محددة، وتعظيمها الساذج للعهود القديمة والعموميات الوطنية. لم يشجع كل ذلك كافكا على الاهتمام المنظم بالمادة، ليحصل على ما ينقصه من معرفة. شكا من الجهد الذي يبذله في فهم النصوص العلمية: "أفقد انتباهي سريعًا حينما لا أجد شيئًا ملموسًا."[٣٨] كان من الممكن أن تقضي نقطة الضعف هذه عليه تمامًا، لولا وجود مدرسين "لعلوم واقعية" لم يثقوا في التعامل مع المصطلحات التجريدية المبهمة. كان لكافكا حظ سعيد مع "أدولف جوتفالد"، عالم الطبيعة ذي المعرفة الشاملة، المقتنع بالنظرية الداروينية والوضعية، الذي كان يجرؤ على تشجيع تلاميذه على الاختبار الناقد لما هو مكتوب في الكتب والثقة في حواسهم، بل وكان ينشر هذه المبادئ الثورية في التقرير السنوي للمدرسة. كتب الطبيب "هوجو هيشت" عن "جوتفالد" :

"كان يدرس تاريخ الطبيعة والفيزياء وعلوم النبات والحيوان والمعادن والفلك بأسلوبه الخاص: لم يلزم التلاميذ بالمذاكرة في المنزل، ما داموا يتابعون محاضراته بانتباه. كان يكره الحفظ عن ظهر قلب، على التلاميذ استخدام لغتهم في وصف ما تذكروه من الدرس. عرف كيف يدرس التلاميذ عجائب الطبيعة بلغة بسيطة. ولكنه ذكر أيضًا موضوعات خارج المنهج، تحدث عن الجيولوجيا وعلم المتحجرات،

وعن النتائج الحديثة للفيزياء والكيمياء، ما توصل إليه من خلالهما وما يمكن انتظاره مستقبلًا.''[39]

حرص ''جوتفالد'' في الأغلب على إقامة رحلات علمية تعليمية، فضلًا عن الرحلة السنوية إلى الريف. ذهب مثلًا إلى حديقة حيوانات قصر ''شنبرن'' أو إلى ''المعرض الثاني الدولي للصيدلة''.[40] ربما قد تكون مذكرات ''هيشت'' صائبة في أن كافكا لم يظهر في السنوات الدراسية الأخيرة اهتمامًا بهذه الموضوعات، ولكن من الصعب التخيل أنه في السنوات الأولى –قبل استقراره على النظرة الإبداعية إلى العالم– لم يكن لأسلوب ''جوتفالد'' التوضيحي أي تأثير عليه.

كانت حصة الرياضيات تضع قيودًا على هذا الأسلوب، ولم يجد كافكا هنا ما يرضي حبه للتفكير المجسم. كانت الرياضيات هي المادة الوحيدة التي عجز عن النجاح فيها بدون درس خصوصي. كان ''هوجو برجمان'' والذي اجتاز هذه المادة بسهولة يساعده بكل ما أوتيَ من قدرة، وسمح له بنقل الواجبات منه. ولكن لم تكن هذه المساعدة متاحة في اللحظات الحاسمة: لحظة الوقوف عند السبورة وفي يده الطباشير والمدرس بقربه في حالة توعد، ورأسه ملأى بأفكار الهروب. إنها ذكريات مؤلمة دامت لسنوات، منها واحدة في المرحلة الثانوية حينما طلبه المدرس على السبورة لعرض حل رياضي. كان قد نسي لوحة اللوغاريتمات في المنزل، فعاد إلى مكانه بعد توبيخة ''أيها التمساح'' ودرجة ''ضعيف''. عدَّها درجة عادلة، لأنه حتى بلوحة اللوغاريتمات ما كان قادرًا على حل المسألة. كان يبكي أحيانًا في امتحانات الرياضيات وكان المدرسون لا يعطونه درجة الرسوب بسبب هذه الدموع، اعتبر كافكا ذلك ضمن كنز أساطيره الخاصة.[41] ظل

لسنوات عديدة، وعلى الرغم من هذه المخاوف القاهرة، تلميذًا بأداء متميز، تلميذًا نجيبًا.

عزاء كل طالب ثانوي أن المدرسة لا تكتشف مواهب العباقرة في أحيان كثيرة، بل وتكون أيضًا سببًا في فشلهم. قصة القرن العشرين عن درجة مادة الرياضيات السيئة التي حصل عليها أينشتاين والتي ستظل باقية مع بقاء التلاميذ، يوازيها في نهاية القرن التاسع عشر الأداء المتواضع للشاب "بيسمارك". إنها قصص يصعب التأكد من صحتها، واشتهرت وسط الراسبين، مثل الشاب "فرانز فيرفل". عرف كافكا وأصدقاؤه الذين عملوا في مجال الكتابة في زمن لاحق أن "توماس مان" الذي أعجبوا به، وقدم في السادسة والعشرين من عمره عملًا عظيمًا، رسب مرتين وانطلق في حرية دون الشهادة الثانوية "الماتورا". إنه مثل أعلى حقيقي في الاستقلال.

لا تلقى المواهب الكتابية في كثير من الأحيان اهتمامًا في مراحل ظهورها الأولى، حتى في مناخ تربوي مهتم. يرجع السبب في ذلك من ناحية إلى مجموعة من القدرات المتكاملة التي لا تلتقي في شكل إبداعي إلا في مرحلة المراهقة: الموهبة اللغوية، والقدرة على الربط بين الأفكار، والعفوية، وإدراك الأشكال، وأخيرًا وليس آخرًا القدرة على التحكم الذاتي في العمليات الذهنية. قلما تكفي الموهبة اللغوية وحدها لتُظهر الموهبة الاستثنائية: صحيح أن هذه الموهبة تدعم التعلم في معظم المواد ويقدرها المربُّون بوصفها مهارة شاملة، إلا أنها لا تُدرك حتى في أشكالها المكثفة بوصفها موهبة، ولا حتى في حصة اللغة الألمانية. لو كان لدينا عدد أكبر من الكراسات المدرسية لأدباء موهوبين، لاكتشفنا في الأغلب

أن المدرسين ينطلقون من معايير قياسية ضعيفة الانتقاء، فلا تظهر هذه المواهب بوضوح."[42]

لم نجد نصوصًا تعبيرية في كراسات كافكا، ولكن يمكننا تصوُّر حصة اللغة الألمانية تصورًا واقعيًا. لدينا من ناحية في التقارير السنوية للمدرسة الثانوية وصف دقيق للكتب الدراسية وكتب القراءة وموضوعات التعبير، ومن ناحية أخرى سجل "فرديناند ديمل" -أحد مدرسي اللغة الألمانية لكافكا- باستفاضة في مقالة أهداف تدريسه والمناهج التي اتبعها في حصصه.[43] كانت الإدارات التعليمية لها تعليمات دقيقة بالطبع، خصصت مثلًا أكثر من ثلث الحصص -أي حصة أسبوعية- لصالح التدريبات النحوية، حتى أكثر التربويين تفهمًا لم يملك تخفيض المحفوظات -التي كانت في البداية عشر قصائد- إذ كانت هناك تفتيشات دورية على ما يحفظه التلاميذ. ولكن ظلت هناك مساحة للمنهج التربوي ويوضحها "ديمل" دون أن يدري؛ إذ يشير حرفيًا إلى التعليمات الرسمية الموجهة إلى المدارس الثانوية في النمسا: "لا يهدف تعليم اللغة الألمانية إلى التأهيل اللغوي فقط، ولكن عليه أن يقدم باقة غنية من المادة التعليمية التي تشكل الفكر والشخصية، في هيئة كلاسيكية أو منقحة من الأخطاء على الأقل، كما يتعين على تدريس اللغة الألمانية إحياء المواد الأخرى والربط بينها والتكامل معها." يوضح ذلك دون لبس أن تعليم اللغة الألمانية لا يقتصر على المهارة اللغوية فحسب، بل يمتد إلى تقديم القيم التي تتمثل في الاعتزاز القومي ومبادئ مبسطة للقيم، كما هو مثبت في قائمة موضوعات التعبير المرشحة للتدريس.[44] يبدو أن "ديمل" لم يهتم بهذه الأهداف المعيارية على الإطلاق، إنه يتجاهلها ويتفادى الشعارات القومية، ويؤكد بدلًا من ذلك على أهمية الوضوح والبساطة والقدرة التصويرية للاستخدام اللغوي.

يذهب "ديمل" في نهاية مقالته إلى أقصى إنكار للاستخدام المصطنع للغة التحريرية بذكر نصيحة "ليسنج" —بوصفها خلاصة لمقالته: "اكتب كما تتكلم، ستكون حينها كتابتك جميلة." يستطرد "ديمل" مفسرًا: "من يعرف ما يريد قوله، سيجد الكلمات المناسبة، ليس بحاجة إلى قواعد خاصة أو لمسات فنية نظرية ستحد من أفكاره وتكبل من قدرته الذاتية على الإبداع." هذه بالتأكيد كلمات أعجبت في الفصل الأدباء الذين كانوا حينها في الثالثة عشرة من عمرهم، ولكنها دفعت بالبروفسور "ديمل" إلى حافة الانتحار الوظيفي.

كان "ديمل" أحد تأثيرات التعلم اللغوي العديدة على كافكا، ما لدينا من أعمال غير مكتملة في البدايات لا تظهر هذا التأثير صراحة. ولكن قناعات "ديمل" ـبأن الاستخدام البسيط والطبيعي للغة قادر على التعبير المتمايز ويعد الأفضل جماليًاـ تركت بالتأكيد بصمة لدى كافكا. عزز حرص "ديمل" الخاص على قراءة الأساطير وقصص الحيوانات هذه القناعة، يرجع احترام كافكا للغة البسيطة التي يستخدمها "هيبل" إلى هذه القراءات في المراحل الأولى للمدرسة الثانوية.

كان مدرسو اللغة الألمانية هم أيضًا المسؤولين عن تنمية المهارات الخطابية للتلاميذ في عمر العاشرة إلى الرابعة عشرة، تمثلت هذه المهارة في فن الإلقاء، فضلًا عن إعادة القص الشفهي: كانت من بين التدريبات القليلة التي يحصل التلميذ خلالها على المكافأة النفسية لمجهوده في التو واللحظة. حتى إن كان الإلقاء نشاطًا متكررًا ومألوفًا في القرن التاسع عشر مقارنة بالوقت الحاضر، فإن رفع الصوت عاليًا وواضحًا وسط مكان يزدحم بالبشر الصامتين يعد إجراء يتطلب قدرًا من الثقة بالنفس،

ولكنه في الوقت ذاته يسمح بدرجات جديدة للحرية وإرضاء الذات. تخطى كافكا هذا الحاجز، ووجد سعادة دامت طوال حياته في هذه المهارة، التي تبدو متناقضة تمامًا مع شخصيته المدافعة. يتذكر "هوجو هيشت" قدرة كافكا المؤثرة على إلقاء نصوص صعبة مثل ترجمات "أوفيد" أو "هوميروس".[٤٥] عرف غالبًا قبل أول زيارة للمسرح بالأبعاد الجسدية للكلمة الأدبية، وبما أن الإشارات الجسدية كانت مرفوضة في أثناء الإلقاء، تعلم الثقة في الطاقة التي تخرج من اللغة ذاتها. ساعده ذلك في التدريبات الخطابية التي كانت مطلوبة من التلاميذ الأكبر عمرًا، إذ كانوا يختارون موضوعًا للإلقاء الحر دون وسائل مساعدة مكتوبة. قارن، وهو في السابعة عشرة، بين شخصية "هلياند" في ملحمة بدايات العصور الوسطى و"مسياس" للكاتب "كلوبشتوك"، تحدث كافكا، وهو في الثامنة عشرة، عن نهاية مسرحية "تاسو" للكاتب "جوته". كانت كلها في الأغلب خطبًا محفوظة عن ظهر قلب، ولم يبقَ لها أثر في الذاكرة.

انطلقت مناقشة الأعمال الأدبية بديهيًا من أن كل أدب قومي له مجموعة من الأعمال النموذجية التي لا نزاع عليها، وأن مهمة المدرسة الثانوية نقل هذا الكنز الثقافي إلى الجيل القادم على نحو سليم قدر الإمكان. تعطي كتب القراءة ومقتطفات النصوص داخلها –المستخدمة في حصص اللغة الألمانية التي حضرها كافكا– تصورًا دقيقًا عن طبيعة هذه الأعمال: تمثل جوهر هذه المجموعة أعمالُ للكُتّاب "ليسنج" و"جوته" و"شيلر"، وكُتّاب العصر الرومانسي، بالإضافة إلى بعض النصوص الثانوية مثل نص "أحاديث مع جوته" للكاتب "إيكرمان"، وكتابات النقد الأدبي للكاتبين "ليسنج" و"هردر". كان للأدباء النمساويين،

مثل "شتيفتر" و"جريلبارسر"، مكانة خاصة في هذه المجموعة، واتسعت الرؤية قليلًا في السنوات الأخيرة للمرحلة الثانوية لتتناول سياقات أشمل لتاريخ الأدب الألماني، مثل الأعمال الأساسية قصيدة "هيلدة براندز ليد" وقصيدة "نيبلّونجن ليد"، تصحبها معاجم لغوية مساعدة. من الصعب حقًا أن نستنتج من كتب القراءة المتضخمة هذه، التي كانت تنقصها المعرفة المتخصصة، حجم القراءة الجماعية الفعلية بدقة. خُصصت للغة الألمانية ثلاث حصص أسبوعية، ولم تكن فقط من أجل قراءة هذه المقتطفات، بل لقراءة أعمال درامية كاملة؛ إذ كانت في دفاتر "ريكلام" المهللة في جيب كل طالب ثانوي "هيرمان ودوروتيا" لجوته، "عروس ميسينا" و"فيلهيلم تيل" لشيلر، "الأمير فريدريش فون هومبورج" لكلايست، "سعادة ونهاية الملك أوتوكار" لجريلبارسر. كانت هذه النصوص إلزامية للصف الثامن الثانوي، وقدمت العديد من موضوعات التعبير في أشكال مختلفة.

كان الشكل الأدبي، أو بالأحرى مدى التزام العمل بالمقومات الشكلية، هو المعيار الأهم لتصنيف العمل الأدبي وتحديد قيمته الجمالية والأدبية. من الضروري أن يتربع الشعر بمعاييره الشكلية الصارمة فوق القمة: أما النثر الحر، وبالأخص الرواية، فكان يعد في حالات استثنائية فنًا بالمعنى الحرفي للكلمة. لم يعش كافكا غالبًا تجربة أن تكون رواية أو قصة -لأي كاتب كان- موضوعًا لمقالة تعبيرية في المدرسة. أما رغبة "هوجو برجمان" الملحة في الحديث عن الرواية الألمانية في القرن الثامن عشر قبل ظهور عمل "فرتر" للكاتب "جوته" فكانت من باب الاستعراض: كان أول دفعته يريد التفاخر بمعرفته بالعصر الكلاسيكي الممتدة إلى الأعمال الأدبية الثانوية أيضًا. أما أبيات الشعر الموزونة في إيقاعها وقافيتها وبموضوعاتها التافهة فدخلت بأعداد كبيرة في نطاق

المعرفة العامة؛ إذ كانت تجد استحسانًا على الصعيد التربوي، ويرد ذكرها كثيرًا في المحاضرات الاحتفالية: "وجدت دومًا ما يسعد عيني وفؤادي، ولكن ما يمنحني وطنًا غير وطني فلا." – هذا ما استحق أن يكون موضوعًا لمقالة تعبيرية.

فقد كافكا في سنوات المراهقة جزءًا من وضعه بوصفه طالبًا نجيبًا، لدرجة أنه لم يحصل في الجهد والسلوك الأخلاقي إلا على درجة مقبول – كانت هذه مفاجأة لوالدَي هذا الصبي الجد والخجول بالتأكيد؛ إذ لم يخطر ببالهما تصرف أخطأ به في حق الحس الأخلاقي لمدرسيه الصارمين. ربما كان السبب هو إفراط فرانز المبكر في القراءة؟ صحيح أن درجاته المحمودة ظلت على حالها في مواد اللغة الألمانية والجغرافيا والتاريخ؛ إذ تشابهت هنا قراءاته المدرسية والخاصة، ولكنه بدأ أيضًا في اختصار ساعات نومه من أجل قراءة كتب تثير تساؤلات، فضلًا عن تأجيله الواجبات المدرسية للصباح التالي. كان الجميع يخلد إلى النوم، في الوقت الذي يتكرر فيه مشهد حجرته المضاءة. إنه نوع من عدم الطاعة، حتى مع ادعائه أن كل زملائه يفعلون الشيء ذاته، فضلًا عن "تدهور نظره" المتوقع. لم يؤتِ المنع الصريح بنتائجه، فاضطروا إلى إجبار فرانز على النوم بإغلاق محبس الغاز والنور.

كان تدخلًا مؤلمًا تناوله كافكا لاحقًا في مقالة تربوية صغيرة. بدأها: "لكل إنسان شيء يميزه."، ومن ضمن ما يميزه نهمه للقراءة، الذي حاولت المدرسة والوالدان معًا الحد منه.[٤٦] لا تتضح المرحلة العمرية التي يتحدث عنها كافكا؛ إذ يقول عن القارئ الصغير إنه طفل، ولكن إن تابعنا مذكرات "هوجو برجمان" نجد أن قراءة كافكا المستمرة (على ضوء الشموع وعيدان الكبريت) كانت لها نتائج قبل

تدهور أدائه المدرسي. إنه أمر كان سيزعج حتى أكثر العائلات تحررًا، كافكا لم يكتف بالقراءة، بل بدأ يكتب، أمام أعين الجميع. قرر وهو في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أن يصبح أديبًا.[٤٧]

لا نعرف شيئًا عن بدايات كافكا، لقد تخلص من "كتابات طفولته" -كما كان يصفها في سنوات قريبة لاحقة- قبل أن يبدي أصدقاؤه أصحاب النوايا الطيبة اهتمامهم. ولكن يبدو أن الطموح الأدبي لم يكن ما يحرك قلمه، إذ ليس لدينا ما يشير إلى مشاركته في صنع أبيات الشعر الموزونة والمفعمة بالمشاعر، كانت ظاهرة متوطنة في المدارس الثانوية لهذا العصر.[٤٨] كما أننا لا نعرف شيئًا عن مسرحيات لكافكا، مع أنه صار قارئًا ومشاهدًا لهذا النوع الأدبي بعد ذلك بفترة قصيرة. تنازل بذلك ومنذ البداية -وفقًا لمعايير التعليم القائم على أسس الحركة الإنسانية- عن قمة فن الكلمة. تناول بدلًا من ذلك ما هو أقل ارتباطًا بالقواعد، وبالتالي ما يلقى احترام الأقل، كتابة النثر بنطاقه القصصي المتسع، كانت حرفة اكتسبها من خلال قراءاته المنزلية دون غيرها. لو افترضنا انتشار هذا الخبر في المدرسة، فهو بالتأكيد سبب كاف لخفض درجة كافكا في السلوك؛ لأن الأساتذة في المدرسة كانوا يصنفون الأدباء المتخصصين في الرواية في رتبة قريبة من الصحفيين. وقد عدّوا الطالب الثانوي المدمن لهذا النوع في حالة أخطر ممن يضبطونه وهو يلعب كرة القدم.

ظل كافكا مرتبطًا بالنثر، وقلما كان يكتب شعرًا بسيطًا، ولم ينشر منه شيئًا. يبدو أنه كان يبحث منذ البداية عن نوع مختلف من الإبداع الأدبي، يمنحه أجنحة افتراضية وفرصة التعمق في رسم المشاهد والانغماس في عوالم موازية: إنه نوع من الهروب، لا يسمح به إلا

الحلم، يصعب على الشعر أن يسمح بهذه الحالة، بصوره السريعة المتعاقبة وحالاته المزاجية التي يخلقها، ومتطلباته الشكلية التي تشبه الأوزان وتحول دون التحليق عاليًا. كان بحاجة إلى بعض السنوات ليدرك أن الخيال بلا قيود ومتطلبات الشكل الصارمة لا يتعارضان بالضرورة في الكتابة النثرية. بعد محاولات لا حصر لها –ليس لدينا منها إلا القليل– نجح في العثور على حلول خاصة به لهذه التوليفة النادرة.

وضع كافكا محاولاته الأولى للكتابة تحت شعار مفاجئ: البرود. دوّن في عام ١٩١١: "كم عانيت في بداياتي! يا للبرود الذي ظل يطاردني مما كتبت ولأيام طويلة!" قد يبدو ذلك للوهلة الأول متكلفًا. يصف هنا بالفعل تجربة لا تفوت على أي كاتب: بمجرد دخولها في قالب لغوي تتجمد المادة النفسية التي تخرج في أثناء عملية الكتابة، إذ قد لا يجد الكاتب نفسه فيما هو مكتوب حِراك الكتابة. يبدو أن كافكا قد عاش هذه التجربة المحبطة مبكرًا وبكثافة – ويعد ذلك دليلًا على أن هذا الطفل الذي يعاني من "البرود" وعدَّ نفسه بارد المشاعر، بحث ووجد في الكتابة عن فرصة لإشعال بعض من النار، ليخلق لنفسه شيئًا من الحيوية الدافئة التي يراها في الآخرين. سوف يشكو في تدوينات لاحقة من قلة احتفاظ أنجح نصوصه بهذه النار، وسوف يتحدث حتى النهاية عن القيمة الفعلية لعملية الكتابة ذاتها، ولكن لا يتحدث عن الأعمال الناتجة التي لا تأخذ من برق عملية الخلق سوى صورة باهتة (حتى إن كان الكاتب هو الوحيد الذي يرى هذه الصورة الباهتة).

لم يؤلف كافكا في هذه المرحلة العمرية ولكنه لم يكن محصنًا ضد أمراض الطفولة للتأليف، كان صاحب الثلاثة عشر عامًا يتقمص عادة بسذاجة وبأسلوب غير أدبي شخصيات الروايات التي يقرؤها، أو

يخترعها. حتى إن كان كافكا في هذا العمر يراقب ''ببرودة'' أكثر من الذين يعرفونه، ظلت سعادته بالتقمص وما يليها من ثراء التجربة دافعًا هامًا للاستمرار. كان يعرف أيضًا وهو طفل أن الكتابة ليست مجرد عمل يقوم به، بل هي لفتة – الكتابة الإبداعية لفتة بالغة الأهمية في مجتمع يمنح كل ما هو مكتوب مكانة لذاته. من يكتب بتركيز وبشكل رسمي، له نصيب في هذه المكانة: داخليًا لأنه يهتم بنفسه بوصفه كاتبًا، وفي السياق الاجتماعي أيضًا يؤمنون بهذه اللفتة.

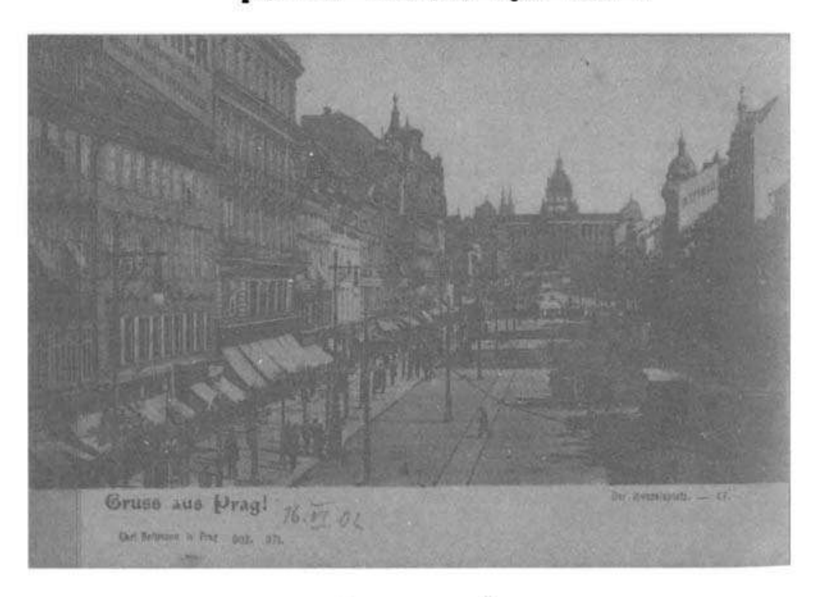
كانت مفاجأة مزعجة للغاية لكافكا حينما لم يصدقه من كانوا حوله. بدا له أن الكبار المحيطين به لا يرون كتابته بوصفها عملًا محترمًا وراقيًا. لم يكن لديهم المزاج أو الوقت ليتابعوا ما يخرج من قلم هذا الصبي، وربما يطغى ما يرونه على الواقع وتجربتهم الحياتية الخاصة. ولكن دون هذا الاعتراف لا يكون للكتابة قيمة خاصة، وإنما تصير مثل باقي الألعاب المعتادة والهوايات وأنشطة أوقات الفراغ، إذًا ليس ثمة ما يثيرالاهتمام، إلا إذا ''بالغ'' الصبي – إنه المصطلح المفضل في السياق التربوي المعاصر. وصف كافكا التقليل الصادم من شأن الكتابة وسط الأسرة وصفًا مفصلًا. كانت اللحظة التي ابتعدت خلالها الكتابة عن الحياة بلا رجعة، ووقعت الكتابة تحت ضغوط الدفاع عن وجودها. كان هذا بالنسبة له أول المشاهد بوصفه كاتبًا:

''نويت ذات مرة كتابة رواية يتصارع فيها أخوان، أحدهما يذهب إلى أمريكا، والآخر يظل في سجن أوروبي. بدأت بكتابة بعض السطور من حين لآخر؛ لأنني كنت أصاب سريعًا بالإرهاق. في مساء أحد أيام الأحد كنا نزور جدي وجدتي، وبعد التناول المعتاد للخبز بالزبد كتبت

عن سجني. ربما كنت أفعل ذلك كنوع من الافتخار بالنفس، بدفع الأوراق فوق مفرش المائدة والطرق بالقلم والنظر إلى المجموعة تحت ضوء المصباح، كنت أغريهم بالنظر إلى كتابتي وإبداء الاستحسان. كنت أصف في سطور قليلة ممر السجن، هدوءه وبرودته، بعض كلمات الشفقة عن الأخ الذي بقي؛ لأنه الأخ الطيب. ربما انتابني للحظة شعور بضعف قيمة ما كتبت، ولكنني لم أبالِ قبل هذا المساء بهذه المشاعر، حينما كنت أجلس وسط أقاربي الذين اعتدتهم، اعتيادًا يساوي نصف سعادتي وأنا شخص يعاني من الخوف. جلسنا حول المائدة المستديرة في الغرفة المألوفة، ولم أستطع في لحظة السلام هذه نسيان أنني لا أزال شابًا وينتظرني شيء عظيم. أخذ عمي الذي يحب الاستهزاء بمن حوله مني الورقة أخيرًا وأنا أمسك بها بضعف. نظر إلى الورقة لوهلة وأعادها إليّ دون أن يضحك، قال للآخرين الذين كانوا يتابعونه: "الأشياء المعتادة." لم يقل لي شيئًا، ظللت جالسًا، منحنيًا كالعادة فوق الورقة التي ليست لها أي قيمة إذًا. دفعت بي ضربة خارج هذا المجتمع، تكرر حكم العم داخلي كأن معناه حقيقي، ونظرت داخل نطاق الأسرة إلى الجزء البارد من هذا العالم، كان عليّ تدفئته بنار لم أكن قد وجدتها بعد."[49]



الطريق الدائري المطوق بالبلدة القديمة، حوالي ١٨٠٠

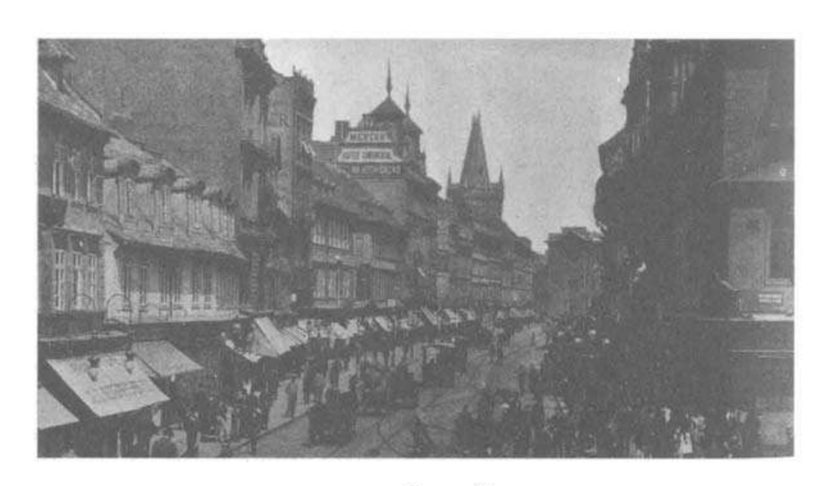


ميدان "فينسلز بلاتس"، ١٩٠٢

جسر "كارلس بروكة"، ١٨٩٠

إصلاح وتجديد منطقة الغيتو، حوالي ١٩٠٠

براغ، البلدة القديمة والجديدة، نهاية القرن التاسع عشر



منطقة "جرابن"، حوالي ١٨٩٠

منطقة "جرابن"، حوالي ١٩٠٥



المنزل الذي ولد فيه كافكا، زقاق "نيكلاس جاسه"



الوالدان: هيرمان كافكا:



جولي كافكا (مولودة باسم لوفي)، حوالي ١٨٩٠



ياكوب لوفي، والد أم كافكا



جولي لوفي (مولودة باسم هيلر)، زوجة الأب لأم كافكا



ياكوب وفرانسيسكا كافكا

(مولودة باسم بلاتوفسكي)، الوالدين لأبو كافكا



فرانز كافكا وهو في الخامسة تقريبًا



فرانز كافكا وهو في العاشرة تقريبًا، مع الأختين فالي (إلى اليسار) وإيلي

دروس يهودية

"واحسرتاه على دناءة البشر
حينما يبقى الحب فائضًا."

لويس-فرديناند سيلين،
رحلة إلى آخر الليل

"ب. ت.، أتشرف بدعوة سيادتكم إلى حفل تعميد ابني فرانز يوم الثالث عشر من يونيو لعام ١٨٩٦، في الساعة التاسعة والنصف صباحًا بمعبد الفجر. هيرمان كافكا، "سيلتنر جاسه" رقم ٣." بطاقة مطبوعة، تعد وثيقة هذا الزمن وتبدو لغزًا صغيرًا.

نبدأ بـ"ب. ت." المريبة، تعني بالكامل "بلينو نيتولو"، ونعد صالحة لجميع الألقاب التي يحملها المدعوون، وقد لا تُكتب في بطاقات الدعوة. إنه عُرف خاص بإمبراطورية الهابسبورج، وانتقل إلى لغات محلية عديدة.

أمر غريب ولكنه دارج في الطبقات البرجوازية لهذا العصر أن الداعي وحده. قد يجد أي شخص غريب هذه البطاقة في الشارع فلا يعرف: هل كانت من رب أسرة متزوج، أم من ولي أمر وحيد يربي أبناءه. ليس هناك شيء مؤكد سوى أنه يحتفل بابنه. يبدو أن جولي لم تتقبل بشكل تام اختفاءها، إذ وجدنا على النسخة الوحيدة التي لدينا كلمة "وزوجته" مضافة بخط يد صغير.

لعل أغرب معلومة أن حفل تعميد سيجرى في معبد. يبدو أن الحاخام المسؤول ما كان ليبدي اعتراضًا على هذا المصطلح اللغوي، إذ كان استخدامه دارجًا وسط الجالية اليهودية المتأقلمة في براغ، ومثلت هذه الأغلبية. لم تتمسك سوى ثلاثة معابد من واقع تسعة معابد بالأشكال الأرثوذوكسية، ولم يكن من بينها معبد الفجر. صار "التعميد اليهودي" معتادًا منذ فترة طويلة، إذ قامت مجموعات إصلاح ألمانية بإدخالها على غرار النموذج البروتستانتي، ولكن لم يكن ذلك هو شاغل والد كافكا. أراد بالطبع حفل "بار متسفا" بحسب التقاليد اليهودية، ولكن لم يكن المصطلح اليهودي بمعنى "ابن الالتزام" على بطاقة رجل أعمال تشيكي مناسبًا، فضلًا عن تفهم الزبائن الألمان اليهود لحلول وسط كهذه.[1] كان القرار قبلها بثلاثة عشر عامًا –وقت ختان الرضيع فرانز– أكثر سهولة، لأن الاحتفال بهذا الطقس المطلوب لم يكن على مرأى ومسمع من الآخرين، بل كان يتم بمساعدة طبيب أمراض النساء الدكتور "فايزل" داخل المنزل: جرح روتيني، بعض الدم، كأس نبيذ، دعاء ختامي وانتهت المسألة.

أما البار متسفا –التي استحقت اسمها عن جدارة وكان هناك شعور بالحرج من نطقه أمام الأغراب– كانت إجراءً مملًا مطلوبًا، لأن فكرته تقديم الصبي لأول مرة بوصفه شخصًا دينيًا. كان على كافكا فعل شيء اعتاده منذ سنوات من خلال التلقين المدرسي: حفظ جزء محدد له من التوراة وإلقائه أمام الجمع بشكل غنائي (لم تكن قراءته من الطومار ممكنة، لأنه كان يكتب بالخط العبري دون تشكيل)، فضلًا عن كلمة أعدها للضيوف تتناول الآيات المقروءة وبعض الملاحظات التعليمية. أثبت بذلك الشخص المنطلق إلى سن الرشد الديني أنه يفهم التعاليم الدينية الواردة في التوراة، أو أنه قادر على فهمها: صار مسؤولًا عن

الالتزام بستمائة وثلاث عشرة من التعاليم. تمثلت المكافأة في العديد من الهدايا ومباركة الأب وقبلات العائلة بأكملها.[2]

كانت البار متسفا طقسًا أسريًا لا بد منه، ولكنها ظلت بالنسبة للصبي مجرد إجراء مقدس ظاهري: تمثيلية لعب فيها دور البطولة لمدة يوم واحد. لم يكن لدى آل كافكا حياة يومية دينية تُدخل احتفالات كهذه في سياقها العاطفي المتكامل. لم يتناولوا الطعام الكشروت ولم يلتزموا بالصيام، ولا سبت الراحة. اعترفوا فقط بأكثر الأعياد اليهودية أهمية، والتي اضطر الأب وقتها للذهاب بابنه إلى المعبد: عيد العام الجديد "روش هاشناه"، وعيد التصالح "يوم كيبور"، وعيد الفصح اليهودي الذي يُذكِر بخروج اليهود من مصر. لم يجرِ الاحتفال إلا بعيد الفصح في المنزل وبمشاركة الجميع، بوصفه عيدًا أسريًا صريحًا، تتناول الأسرة خلاله في ليلة العيد "ليلة هسيدر" سلسلة من الوجبات التي تتوج بلحم الضأن المشوي. يتناول الأطفال أيضًا وسط الضحك والدعابات رشفة من النبيذ. تخرج لهذه المناسبة أيضًا أواني الصيني المتميز من المخزن، أما باقي السنة فتستخدم الأواني نفسها لوجبات الألبان واللحوم معًا (مما جعل أجداد كافكا يعتبرون هذا المنزل بالتأكيد "طريفه"، أي غير كشروت). اعتادوا أيضًا تقديم "خبز المصة" في العيد، ولكن لم يُجبر أحد على أكله، وكافكا لم يحب مذاقه.[3]

لم يكن لكل هذا أي علاقة وثيقة بالمضمون الديني، ولم يحاول هيرمان كافكا إظهار أي نوع من الاهتمام بطقوس الدين اليهودي المنزلية لأبنائه، ناهيك بالمشاركة فيها (لا نعرف موقف زوجته تجاه هذا الوضع)[4] ولكن لم يترتب على ذلك عدم أهمية الأشكال الرسمية

للممارسات الدينية، بل على العكس. عود ابنه مبكرًا على تَعلُّم النفاق الذي صار روتينًا اجتماعيًا، وكذلك التدرب عليه.

''كنت تذهب أربع مرات إلى المعبد، فتكون هناك أقرب لغير المهتمِين مقارنة بمن يهتم حقًا. تقيم الصلاة بصبر بوصفها أمرًا شكليًا، وتبهرني بأنك تجد في كتاب الدعاء الموضع المتلو في هذه اللحظة. تسمح لي –ما دمت موجودًا في المعبد– بالذهاب إلى كل مكان فيه، كنت أتثاءب وأجوب المكان، محاولًا إسعاد نفسي ببعض الأشياء الجديدة عليَّ، فأنا لم أشعر بهذا الملل إلا في أثناء دروس الرقص بعد ذلك. كان ينتابني هناك أيضًا شعور بالخوف، طبعًا بسبب هذا القرب الشديد لبشر من حولي، ولكن أيضًا لتذكرك إمكانية طلبي لإلقاء التوراة. ظلت هذه الفكرة ترعبني لسنوات. بخلاف ذلك لم يزعجني شيء آخر في حالة الملل التي كنت أعيشها، ربما البار متسفا، التي لم تحتَجْ إلا بعض الحفظ التافه، وصارت اختبارًا تافهًا أيضًا. فيما يتعلق بك أنت، فكانت هذا المواقف القليلة التي طُلِبْت خلالها لتلاوة التوراة، وكنت تبلي بلاءً حسنًا بحسب تقديري للموقف، أو حينما بقيت في المعبد لحضور حفل تأبين وطُلب مني أنا الانصراف. نظرًا لإبعادي وعدم مشاركتي الفعلية فيما يحدث ظننت لفترة طويلة بعدها أن المسألة تتعلق بأمر غير أخلاقي.''[٥]

لم يفهم كافكا بداية في سنوات لاحقة طلب أبيه بالمشاركة في هذه الحفلات ولو كنوع من ''البر والإحسان''. ولكنه فهم بعدها معنى هذه الكلمة حرفيًا، على أنه يقصد احترام المتوفى. ربط هيرمان كافكا ما بقي لديه من شعور ديني بذكريات زمن مضى بلا عودة، وبين ذكريات بيئة اجتماعية شارك هو بجزء بسيط في القضاء عليها. كان يشعر بالإهانة

لعدم اهتمام الجيل اللاحق بهذه المشاعر، تمامًا مثل شعوره بالإهانة لعدم اهتمامهم بسماع قصصه عن الحياة العسكرية التي سعى لحكيها مرات كثيرة. شعر كالعادة بالإهانة الشخصية بسبب حالة اللامبالاة هذه، ولم تغير عدم قدرته على نقل التقاليد اليهودية من هذا الشعور شيئًا. "كان ما تمنحه يتلاشى قبل وصوله." يبدو أن كافكا لم يفهم هذه الآلية إلا بعد تعرفه على نمط يهودية مختلف وأكثر حيوية، وبعدما بدأ تحت تأثير الصهيونية الثقافية في طرح أسئلة حول هويته اليهودية بشكل أكثر جدية. كان منطقيًا أن الأب الذي كان يطالب بالزيارة المنتظمة للمعبد أن يعبر بعدها بوقت وجيز عن "اشمئزازه" من الكتب اليهودية الموجودة في المنزل.[٦] بدا له أن هذه الكتب لا تمس ذكرياته في القرية، كما أن قراءتها لا تجلب أي فائدة اجتماعية. كانت تمثل يهودية مختلفة ومحرجة، لا تعرف "التعميد" ولا "الضريبة الثقافية". كان هذا سببًا كافيًا للابتعاد عنها. هذا هو موقف جميع رجال الأعمال اليهود الألمان الذين تبعوا عن كثب الاختلافات الاجتماعية، ولم يروا في انتمائهم لليهودية إلا بعدًا اجتماعيًا وفكريًا ولكنه ليس انتماءً دينيًا. لم تمثل اليهودية في هذه البيئة إلا مجموعة من الصفات والعادات: سمات لغوية، إشارات جسدية معروفة ومميزات نفسية واجتماعية (مثل الاحتياج الزائد إلى الشعور بالأمان والوضع القوي للسيدات اليهوديات داخل الأسر)، ذكريات طفولة مترابطة وأخيرًا ممارسات دينية مبكرة. شرح "فرانز فيرفل" نموذج الانتماء إلى الجماعة بدقة: "تمثلت يهوديتنا في أننا شعرنا بالارتياح خلال التواصل مع يهود من المستوى الفكري والاجتماعي نفسه، مقارنة بالتواصل مع الآريين، الذين مثلوا لنا نوعًا من الخطر الكامن."[٧]

حينما كان يبحث والد كافكا إذًا عن المشاركة في "اجتماع الاتحاد المركزي للحفاظ على الشؤون اليهودية" -والتي كانت تعد من المناسبات القليلة التي شارك خلالها في فعاليات اجتماعية في براغ- كان متأكدًا من لقائه لشخصيات يشاركونه آراءه نفسها.[8] كان الاتحاد المركزي الذي أنشئ في عام ١٨٨٥ جماعة ضغط يحكمها الاتجاه البرجوازي الحر، لم تهتم بمناقشة قضايا دينية، بل بتمثيل المصالح اليهودية ومنع الضرر. كانت الموارد المالية كبيرة، مما سمح بإقامة أنشطة واسعة المجال: مثل إصدار دليل للمجتمعات اليهودية في بوهيميا، وإنشاء مركز تأهيلي "للتمريض اليهودي". اختبأ خلف هذه الأنشطة خوف كبير من تحمل مسؤولية كل ما هو ألماني أمام التشيك، الذين زادت نزعتهم القومية. لم تتعلق هذه التهديدات بحجم تأثيرهم وأملاكهم وفرص عملهم فحسب، بل شملت أيضًا الحقوق الأساسية والاحتياجات، وحتى تأمينهم الشخصي.

اكتسبت ظاهرة المعاداة للسامية في النمسا والمجر وقت ميلاد كافكا ديناميكية جديدة تمامًا، لم يكن التنبؤ بها ممكنًا. إنها تبدو اليوم في سياق الاستعراض التاريخي -بكل ما هو متاح اليوم من وثائق- مثل كتلة متشابكة من الجبهات الدينية والقومية والعلمية الزائفة والطبقية المتصارعة. لم يتمكن اليهود المعاصرون، وقلة من المثقفين المستقلين من الحصول على تقدير واقعي للتوجهات والمخاطر، لاعتمادهم على تغطية صحفية غير محايدة وخاضعة للرقابة. ولكنه كان واضحًا أن موجة الهجوم الجديدة انطلقت من أكثر من مركز في الوقت نفسه: من حركة تشيكية شابة ذات نزعة قومية عدوانية في بوهيميا، اكتسبت شرعيتها من نجاحاتها في الانتخابات، في فيينا من أشخاص عنصريين يتحدثون اللغة الألمانية، مثل الإقطاعي المعادي للكاثوليكية "جورج هاينريش

فون شونرير"، أو السياسيين ذوي التوجه الاجتماعي المسيحي مثل "كارل لويجر"، الذي صار لاحقًا عمدة فيينا. ولكن على الرغم من الضجة التي أثارها هؤلاء السياسيون الجدد، لم تتوفر معلومات عن الفئة التي يمثلونها، ولا عن مدى تأثيرهم على السياسة والاقتصاد، أو عن اهتماماتهم الخفية التي ربما غلفوها بالشعارات المعادية للسامية. صار تحولًا في الأجواء العامة في الثمانينيات كان ملموسًا في الرايخ بأكمله. ما كان سابقًا كراهية دفينة تكنها طبقات اجتماعية جاهلة، صار اليوم "رأيًا" سياسيًا وتعتبره الصحافة الحرة جديرًا بالاهتمام.

ما اعتبره أصحاب البصيرة السياسية ظاهرة جديدة وخطيرة هو الاستقلال السريع للخطاب المعادي للسامية؛ إذ تخطى الحدود القومية والدينية والاجتماعية وجرى الترحيب به بوصفه قادرًا على التقليل من الصراعات، كما أتاح ائتلافات تثير العجب. جرت مثلًا في خريف عام ١٨٨٣ مفاوضات بين ساسة فيينا والمجر وبوهيميا سعوا إلى مناقشة جدية لفكرة "التصالح بين الشعوب على خلفية المعاداة للسامية". لاقى اليهود الذين انضموا إلى حركة الشباب التشيكي ترحابًا باردًا، وقُبِلوا فقط بوصفهم ناخبين، ولم يؤمن أحد بشعورهم الوطني تجاه التشيك. وفي عام ١٨٩١ لم يجد في الوقت ذاته السياسيون التشيك الشبان مثل "فاشاتي"، و"برزنوفسكي"، و"براكسا" أي غضاضة في دعوة "إرنست شنايدر" -من الجبهة القومية الأخرى والمعروف بكراهيته المتطرفة للسامية- إلى محادثات تصالحية. حتى الديماغوجي الألماني "كارل هيرمان فولف" الذي وصف السلافيين على أنهم درجة أقل ثقافيًا، كان يفتخر بناخبيه التشيك الذين ادعى أنهم متمسكون به بسبب التزامه بمعاداة السامية.[٩]

ليس لدينا وثائق تفيد بأن هذه التطورات التي ألقت بظلالها على الحياة اليهودية في براغ انعكست على حياة آل كافكا العائلية في شكل قلق واضح. تَوَّد اليهود على السلوك المتحفظ والعداء الخفي تجاههم: إنها تجربة أساسية فرضت على حياة كل يهودي -سواء كان غنيًا أم لا- قيودًا اجتماعية ونفسية، وجعلته يتدرب منذ الصغر على ردود أفعال دفاعية. يحسب من ضمن الأفعال هذه الترفع الساخر عن الإهانات الصغيرة اليومية، التي عللوها "بجهل" هؤلاء الأفراد. كانوا يحاولون التقليل من تكرار هذه الإهانات من خلال التأقلم، وعدم لفت الأنظار، والصمت. لم تفضل العائلات المتأقلمة الحديث عن اليهودية بوصفها وصمة عار اجتماعية. واجه أبناؤهم في الشارع أو في المدرسة هذه المفاجأة. لا نجد أيضًا في خطاب إلى الوالد مؤشرًا لمناقشات أسرية دارت حول وضعهم الخاص الأبدي، أو محاولات لتعريف الأطفال بهذا الوضع، وإن كانت تخاريف الأب السياسية الساذجة قد مهدت الطريق لهذه الفروقات الحاسمة: "يمكنك توبيخ التشيك، ثم الألمان، ثم اليهود، بشكل عام ودون انتقاء، لن يبقى أحد سواك في النهاية."[10] لم يكتب كافكا نفسه بمرارة عن تجربة عداء للسامية إلا بعد مرور عقود، حينما تحولت إلى تهديد جسدي ألحق بحياته أذى، ولكنه لا يتحدث عما إذا كانت هذه التجربة من نوع جديد.[11] هل وارد أن كافكا لم يعش وهو طفل أو شاب جنون المعاداة للسامية، ولو مرة وحيدة؟ لدينا إجابة عن هذا السؤال.

تجمع في صباح يوم ٢٩ نوفمبر ١٨٩٧ في قاعة احتفالات لجامعة "كارولينوم" المبجلة نحو ألف طالب من الألمان، متأنقين ومرتدين الشرائط والقبعات الملونة التابعة لاتحادات الطلاب. كانت الأجواء احتفالية والسبب وجيه: رئيس الوزراء "باديني"، أكثر الشخصيات السياسية المكروهة في النمسا والمجر وصاحب فكرة المساواة

بين اللغة الألمانية والتشيكية المثيرة للصراعات، أقيل من منصبه على نحو مهين. نجحت كل من الحركة المناوئة الحازمة للنواب الألمان في مجلس الرايخ، والمظاهرات الحاشدة، والضغوط الإعلامية، وفشلت التعليمات اللغوية. إنه بمنزلة انتصار "للكيان الألماني" النمساوي وخبر محزن للتشيك؛ الذين وجدوا أنفسهم قد تعطلوا في سعيهم إلى تقرير مصيرهم القومي.

كان من رأي البروفسور "أولبريش"، رئيس الجامعة الألمانية ومتخصص في القانون الدولي، أنه يجب الاحتفال رسميًا بهذه المناسبة السعيدة. رحب بالصوت العالي لطلابه الذين استغلوا فرصة "وضعهم القيادي فوق جميع الأقليات العرقية" (بحسب نص المقالة في جريدة براغ اليومية)، كما أنه لم يجد غضاضة في إقامة جولة طلاب حاشدة تقود عبر منطقتي "جرابن" وساحة "فنسلسبلاتس" إلى البيت الألماني "دويتشس هاوز" "للتسوق في ساعة مبكرة من اليوم". قاموا هناك وفي حضور رئيس الجامعة بغناء نشيد المعركة للقومية الألمانية "الحراسة على نهر الراين"، كانت جميع النوافذ مفتوحة بالطبع. كانت هذه في واقع الأمر مظاهرة غير قانونية تحت حماية الشرطة، اعتبرها التشيك -الذين كانوا في حالة هياج من قبلها- استفزازًا وقابلوها بوابل من الصفير. انفجر الموقف في المساء حينما حاولت مجموعة من الطلاب التشيك تقليد المسيرة الألمانية، وقامت الشرطة فوق الخيول بفض هذا التجمع. كانت بداية ما أطلق عليه "عاصفة ديسمبر" في حوليات مدينة براغ بوصفها قلاقل اجتماعية أدت إلى تصاعد لعنف لم تشهده المدينة منذ عقود مضت.

قُذفت الحجارة على بعض رموز الثقافة الألمانية: مؤسسات جامعية، أماكن تجمع اتحادات الطلاب، البيت الألماني (الذي حاضر فيه

أرتور شنيتسلر قبلها بأيام قليلة)، والمسرح الألماني الجديد. ولكن سريعًا ما بحثت هذه المجموعة الهائجة عن مجموعة أكثر تنوعًا من الأهداف: مصارف ألمانية، ومقار رئاسات تحرير الجرائد، نواد رياضية، مقاه، أفضل الفنادق، أخيرًا وليس آخرًا المدارس باعتبارها مراكز لإعادة توليد السلطة الألمانية. على الرغم من التواجد الأمني المكثف في منطقة الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، احتلت مجموعة تشيكية باطشة قصر "كينسكي" والمدرسة الثانوية في البلدة القديمة، أما المدرسة الابتدائية التي زارها كافكا في منطقة "فلايش ماركت" فتدمرت تمامًا. فقد كل ما يحمل الهوية الألمانية أي نوع من الأمان. تجول حشد هائج – يتفرق ويتجمع مرة أخرى– عبر البلدة القديمة ومنطقة ساحة "فنسلسبلاتس" وأتلف واجهات المحال الألمانية وسرق بضاعتها، كما أسقط لافتات الشوارع والمحال الألمانية وضرب المارة، خاصة الطلاب المعترضين باللغة الألمانية. انطلق شرار الدمار خلال ساعات إلى الضواحي التشيكية، وانطلق مثل حريق مدمر، عجزت كتيبة كاملة العدد من مقر الوحدة في براغ -جاءت سريعًا للمساعدة– عن السيطرة عليه.

لم يكن يهود براغ هم سبب أو هدف هذه الانتفاضة الأول، ولكنهم كانوا هدفًا لا مفر منه. إنها تجربة مثبتة تاريخيًا مفادها أن اليهود ليسوا مضطهدين فحسب، ولكنهم يضافوا إلى مجموعات أخرى على قائمة الاضطهاد، كلما جرى تخطٍ صارخ لممارسات العنف الجمعي. إنها تجربة انحفرت في الذاكرة اليهودية جعلت توقع هذه الاعتداءات أمرًا بديهيًا: "دورنا قادم الآن." هذا ما حدث بالفعل. على الرغم من الزيارة الشخصية لرئيس الجالية اليهودية لدى القيادة الشرطية، وطلبه لإجراءات حماية وقائية لمنطقة "يوزيف شتاد"، وعلى الرغم من الموافقة

على هذا الطلب، إلا أن هذا الإجراء لم يمنع الحشد التشيكي من مهاجمة المحال والمنازل والمعابد في منطقة الغيتو السابقة. بعض الشوارع مثل زقاق "كاربفن جاسه" جرت سرقتها كاملة. بدا أن الكراهية القومية الراهنة والجديدة تاريخيًا ما هي إلا مجال متاح لإعادة تفعيل مشاعر كراهية دفينة قديمة. من كان على قدر كبير من السذاجة وظن أنها صدفة وأن الهدف هم "الألمان"، عرف من الأخبار المفزعة التي جاءت من الضواحي العكس تمامًا: اعتُدي على محال ومعابد اليهود من الناخبين التشيك الألمان، الذين صنفوا على أنهم يهود وليسوا من التشيك. أعلن في حي العمال "شيشكوف" عن التجار اليهود بوصفهم الأعداء الرئيسيين، في حين أن المسيحيين المتحدثين باللغة الألمانية لم يمسسهم أحد. أظهر هذا الموقف جليًا أن الكره الدفين المعادي للسامية هو الأشمل والأعمق: إنه شعور عام، غير مرتبط بقومية بعينها.

عاش كافكا هذا المشهد وهو في الرابعة عشرة من عمره، على الرغم من عدم ذكر "عاصفة ديسمبر" مباشرة في الرسائل والمذكرات المتاحة لدينا، إلا أن معاناته من أعمال العنف الاجتماعية لأيام وليالٍ عديدة مؤكدة. تأثر وهو شاب بصور ومشاهد هامة، توفرت هذه المشاهد بكثرة بمجرد إلقاء نظرة من نافذة غرفته، إذ تحول زقاق "سيلتنر جاسه" إلى منطقة معارك: تكررت الاشتباكات بين اللصوص والجنود بحرباتهم التي لا يرفعونها، يتمارك قاذفو الحجارة مع رجال الحماية ليهربوا من إلقاء القبض عليهم، يخرج الدخان من نوافذ عرض محل لرابطات العنق سرق بالكامل. ظهر موقد نار ضخم على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة أقامه التشيك من أخشاب أثاث مقهى "برينس" "اليهودي". كثف هذا المشهد صراخ هستيري، أوامر عسكرية، ضربات غليظة على الأبواب، دق متعجل لأصحاب المحال

يغلقون به نوافذ العرض بألواح خشبية، وأصوات الأحذية فوق شظايا الزجاج.

لم يكن الشعور بقلة الحيلة في الداخل أقل من الفوضى في الخارج. كان كافكا يعرف قلق الأم المتخوف واستعدادها الدائم لإيجاد حلول وسط، ولكنه لم ير تهديدًا لسلطة الأب لاتخاذ القرار ولدوره الاجتماعي بهذا الشكل من قبل. كان سيترتب على سرقة المخازن في شارع "سيلتنر جاسه" دمار للعائلة واعتمادها الكامل على دعم الأسرة والجالية، بعد عقد ونصف من العمل الشاق ومسؤولية أربعة أطفال. فيلعن الأب بقدر ما يشاء: ولكن لم ينقذه من هذه الكارثة شيء سوى النوايا الطيبة لموظفه التشيكي، وعرض الألوان السلافية الثلاثة في نافذة العرض (وهو ما كان يفعله الجميع)، ولغته التشيكية السلسة، وإن كانت لا تسعفه بالقطع في مواجهة صائدي اليهود المتطرفين. كانت تتجول مجموعات عدوانية في الشوارع –دون سابق إنذار، لأن الهاتف المنزلي لم يكن بعد متاحًا– فلا يبقى سوى الابتعاد عن نوافذ الواجهة والاستماع في هدوء إلى الأصوات في الشارع. إما انتظار الأحجار الطائرة –التي كانت تسقط أحيانًا في فراش الأطفال كما حدث مع عائلة "ماكس برود"[١٢] – وإما سماع النداء المنقذ "تو يسو تشاشي!" ("هؤلاء تشيكيون!")، الذي اعتبر في حكم البراءة. كان بالفعل لعائلة كافكا حظ وفير، ظلوا في أمان إلى أن صدرت في اليوم الخامس للثورة ـ كوسيلة أخيرة وفعالةـ الأحكام العرفية في براغ، وعم الهدوء أخيرًا.[١٣]

أما ساعات الانتظار والإنصات بلا أي دعم فكانت دروسًا اجتماعية، لم ينسَها بالقطع ولا فرد من العائلة، بما فيهم أوتلا صاحبة السنوات الخمس. كانت الخلاصة في الأغلب أنه لا يمكن الاعتماد على

الانتهازية القومية أو الدينية كاستراتيجية أمينة: قد ينتهي كل شيء بين ساعة والأخرى.

يلاحظ من خلال دراسة تقارير شهود العيان ـالتي نشرت بكثافة في جرائد فيينا وبراغـ أن "عاصفة ديسمبر" وصفت بأنها خسارة مادية فادحة واعتبرت التعديات الجسدية مجرد ظواهر مصاحبة وحالات فردية لا تمثل الأغلبية. لا نعرف شيئًا عن عدد الضحايا (أقل من عشرة أشخاص في الأغلب) ولا المصابين (من قذف الحجارة وضرب السيوف). أما الأسلحة التي بيعت بكثافة في محال الأسلحة والمسدسات التي نفدت بعد ساعات لم تستخدم إلا في حالتين أو ثلاث. ليس لدينا أمثلة لحالات قتل عن عمد، فالأسهل كان إشعال الحريق في منطقة "يوزيف شناد" بأكملها. لم يفضل أحد الحديث عن الوصول لدرجة العنف القاتل، كما أن الصحافة تفادت الحديث عن الموضوع: فالأحداث لم تقع في منطقة غاليسيا، حيث جرى إقناع الفلاحين بأن قتل اليهود متفق مع فكر الحكومة.[١٤]

لم تتناول التعليقات الصحفية في الأسابيع التالية قضية المعاداة للسامية وجديتها في مدينة كبيرة وحديثة، تحاول التخلص من هواء الغيتو – بل تعرضت للتفاعل بين "الاستفزاز" الألماني والجريمة التشيكية "المنظمة" و"المقبولة من السلطات العليا"، وتعرضت أيضًا للمسؤولية عن الخسائر المادية لعشرات من الكيانات التجارية وآلاف من ألواح الزجاج المكسورة.[١٥] لاقت كل من شكاوى أصحاب المحال التجارية، الذين تضرروا في أثناء موسم مشتريات أعياد الميلاد، وتدخلات أصحاب المطاعم الذين أرادوا العودة إلى مواعيد العمل الطبيعية في أقرب وقت، وانقطاع السياح، اهتمامًا أكثر من السؤال

الذي فرض نفسه بموضوعية، ألا وهو السؤال حول سبل الوقاية الاجتماعية والسياسية.

رأي يهود براغ -الذين يمثلون عشر السكان ولهم النصيب الأكبر في الحياة التجارية- المسألة في إطار حجم الخسائر على أنها إعادة توزيع للممتلكات المادية، بتعبير آخر: يسرق الكسالى والجهلاء والمحرومون ما يملكه الناجحون. كان هذا في الأغلب هو رأي هيرمان كافكا أيضًا؛ لأنه متسق مع رؤيته للحياة ومع تجربته في شبابه: تعتدي العناصر الإجرامية على اليهود بوصفهم منافسين. صحيح أن هناك معادين للسامية من نوع آخر، عرف ذلك آل كافكا وآل لوفي على حد سواء، ولكن لم تلعب الكراهية الدينية ضد اليهود دورًا ظاهرًا في حياتهم في المدينة (وإلا ما كانوا ليأتمنوا موظفي المنزل المسيحيين على تربية أطفالهم). كانت في هذه المرحلة المعاداة للسامية في شكلها الحديث في مجال نظريات الجنس البشري مسألة أكاديمية بعيدة، وكان يجب متابعة المناقشات البرلمانية في فيينا عن كثب للعثور على عناصر تهديد جديدة. إنها أشباح من الماضي في ثوب جديد، أليس كذلك؟

"مدينة "بولنا"، ٤ أبريل (جريمة قتل). اختفت "أجنس هرونا" التي تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا وتعمل في الحياكة منذ التاسع والعشرين من الشهر الماضي. كانت تأتي من "فيشنيتس" الصغيرة للعمل في "بولنا"، وتم العثور على جثة الفتاة وسط الغابة في أثناء عمليات البحث في منطقة على بعد ربع ساعة من "بولنا"، وعلى بعد ثماني خطوات من الطريق. جردت الجثة من جميع ملابسها ما عدا الحذاء والجوارب وعثر على الملابس في مكان

قريب وسط أشجار. هناك جرح قطعي غائر في عنقها ورأسها به العديد من الجروح الغائرة. جارٍ بحث مكثف عن الجاني المجهول."

خبر عادي قد لا يلفت الانتباه في وسط الأخبار العجيبة الأخرى الآتية من الريف، فضلًا عن تغير الوضع لحظة نشر هذا الخبر يوم ٦ أبريل ١٨٩٩ في جريدة براغ اليومية. تم القبض على القاتل المحتمل سريعًا بفضل مساعدة الشعب المتنبه: "ليوبولد هيلزنر" (أو "بولدي") الذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، عامل بالقطعة وصعلوك، يعيش مع والدته التي لا تملك دخلًا أيضًا، ويتسكع معظم الأوقات. ماذا أراد "هيلزنر" من هذه الفتاة؟ لم تكن هناك أي آثار لجريمة اغتصاب. ولكن العنف اللافت والجرح الطويل في الرقبة أثارا الانتباه. كانوا يسمعون عن أن اليهود يَذبحون وقت عيد الفصح ضحايا مسيحيين ويستخدمون دمهم في إعداد المصة. تقع كل عام أو كل عامين حادثة من هذا النوع في بوهيميا. وعلى الرغم من تبرئة المشتبه فيهم في كل مرة، إلا أن الأسطورة القديمة حول القتل اليهودي الطقوسي ظلت متداولة. كانت قصة خيالية تغذت في المناطق الريفية في وسط وشرق أوروبا على فكر مدرسي الدين الكاثوليكي وعاملات الخدمة المنزلية المؤمنات بالخرافة. قلما دارت الأحاديث اليومية لليهود حول هذه القصة، ولكنها كانت تتحول في ظروف مواتية إلى قنبلة اجتماعية موقوتة. هذا ما حدث في مدينة "بولنا" ذات الخمسة آلاف نسمة والواقعة في منطقة الحدود بين بوهيميا ومورافيا: تم العثور على الجثة بهذه الإصابة المثيرة يوم عيد الفصح والمقبوض عليه "ليوبولد هيلزنر" كان يهوديًا، ولم يملك إثباتًا بتغيبه عن مكان الحادث.

رفضت الجرائد اليومية -في المدن الكبرى على الأقل- منح هذه الثرثرة مساحة أكثر مما تستحق، ولذلك أثيرت الإشاعات حول القتل الطقوسي لفترة محدودة في الصحافة المحلية كما هو معتاد. انساق بعض المئات من المواطنين في "بولنا" بعد القبض على "هيلزنر" إلى أعمال عنف، مثل تحطيم زجاج النوافذ لمنازل الأسر اليهودية، ولكن اعتبرتها الصحافة أخبارًا مزعجة ولكنها لا تدعو للقلق حقًا. حتى الشخصيات العامة التشيكية -التي لها تأثير في المنطقة نفسها- تحفظت ولم تعلن عن موقف واضح، كذب عمدة المدينة "زاديل" حينما قال: "لا أؤمن بأن الحادثة قتل طقسي." أما الطبيب الشرعي المسؤول أجاب عن سؤال حول الخلو المزعوم للجثة من الدم بمنتهى التفاني في الليبرالية: "ألسنا الآن في القرن التاسع عشر؟".[١٦]

هذا صحيح، ولكن يخطئ الطبيب تمامًا إذا كان يقصد أنه لا يجب الاهتمام بالإيحاءات المتعلقة بالقتل الطقوسي اليهودي في نهاية هذا القرن المستنير. القضية لا تنتهي بمخاطبة ضمير مجموعة من الأفراد البسطاء وإقناعهم بعدم ملاءمة خرافات الدم للعصر الذي يعيشونه. كانت المسألة متعلقة بوهم جمعي مزمن، لا يمكن التأثير فيه ببعض الحجج، ولكن هذا الوهم يُوَظَّف بمنتهى السهولة من خلال شعارات تحفظ سريعًا، وصور ورموز بدائية. لقد تدربت أحدث وسائل الإعلام الاجتماعية -ألا وهي الصحافة الجماهيرية- منذ زمن طويل على تقنيات التلاعب بالمعلومات: ظهر ذلك بوضوح من خلال "فضيحة درايفوز" الفرنسية التي ظلت لسنوات مثارًا للجدل، فضلًا عن الصراع المرير للخصوم على مستوى أوروبا من أجل لفت أنظار الإعلام، بقدر الصراع نفسه حول مصير بطل القضية المحكوم عليه ظلمًا. كان الأهم

هو تجميع خيوط التحكم في مجالات التواصل العامة والوصول –مقارنة بالآخرين- إلى درجة أعلى من الذكاء الإعلامي والصوت المسموع.

في ظل الإمبراطورية الهابسبورجية لم ينجح المعادون للسامية المتمون إلى تنظيم في الوصول إلى هذا المستوى بعد، إذ انشغلوا بمعاركهم القومية والدينية. ولكن قضية "هيلزنر" قلبت جميع الموازين. رئيس تحرير تشيكي يدعى "ياروميير هوشيك"، خبير في القتل الطقوسي، معروف وصاحب سوابق، قام بلفت نظر النائب البرلماني الألماني والمعادي للسامية "إرنست شنايدر" إلى قضية "هيلزنر".[١٧] تقدم إليه بالشكر واتخذ على الفور إجراءاته. كان أبسط هذه الإجراءات هو إطلاق حملة إعلامية بدأت بالجريدة المتطرفة "جريدة الشعب الألمانية". ولكن ما كان مطلوبًا الآن هو حكم بالإدانة، ولم يكن مجرد التعليق على الأحداث والأحكام كافيًا. كان الأهم هو التدخل في الوقت المناسب وممارسة الضغوط على "الأشخاص المؤثرين في الرأي العام" محليًا، هؤلاء الذين قرؤوا أسماءهم في الصحافة الأوسع انتشارًا بمشاعر مختلطة من الفخر والخوف، وأمعنوا لذلك التفكير في قدرتهم على تحمل عواقب رأي "متعاطف مع اليهود". ترتب على ذلك تَكَوُّن مجموعة من عمدة "بولنا" التشيكي واثنين من المستشارين المحليين ونخبة من الصحفيين الألمان ليتعاونوا على القيام بمهمة السلطة التنفيذية وتنفيذ رغبة الشعب. أسسوا لجنة قانونية تحقق في مقتل "أنيشكا هروزوفا" بنفسها، تقوم "بالتحقيقات" و"تحديد مواعيد"، تبحث عن شهود، وتضعهم تحت ضغط، وتصحح الآراء التي لا تتماشى مع نظرية القتل الطقوسي. تسممت الأجواء في خلال أسابيع قليلة في "بولنا" لدرجة لا تسمح لأي شخص بالشك رسميًا في القتل الطقوسي، كما أن الإيحاء الذاتي وصل لدرجة من الفاعلية أن النائب

العام المسؤول عن القضية ذكر وبمنتهى البراءة الرأي الغالب لمواطني "بولنا" على أنه سبب كاف لتبرير محاكمة "هيلزنر". سأل رئيس هيئة المحلفين المتشكك في اليوم الأول كبير الحراس الذي قام بالقبض على المتهم: "كيف أثيرت الشكوك حول "هيلزنر"؟" جاء الرد بمنتهى الجدية: "نشأت شائعة وظلت قائمة."

لم يصدق يهود فيينا وبودابست وبراغ أعينهم حينما قرؤوا جرائد الصباح الليبرالية: لم يعد هناك ولأسابيع موضوع آخر، تحول القتل الطقوسي —الذي لم يرغب شخص عاقل في مناقشته جديًا- فجأة إلى جريمة شبه رسمية، تحرك نفوس مئات الآلاف. تقدم سبعة وعشرون صحفيًا للاعتماد في المحكمة المركزية في "كوتنبرج" ("كوتنا هورا" باللغة التشيكية)، فضلًا عن اثنين من المصورين. ملأت التقارير المكتوبة يدويًا لمحاكمة "هيلزنر" لمدة خمسة أيام، ١٢- ١٦ سبتمبر ١٨٩٩، أعمدة الجرائد العديدة (ترجمت للقراء الألمان كل كلمة).

كانت معركة غير متكافئة. اضطر المتهم إلى الاكتفاء بداعم قانوني من "كوتنبرج"، في حين أن المحامي التشيكي الشاب البارع من براغ "كاريل باكسا" مثل أسرة الضحية. شارك قبلها بوقت وجيز في تأسيس حزب تشيكي قومي متشدد، واستغل بحب هذه الفرصة لتحويل قاعة المحاكمة إلى مسرح سياسي.[١٨] أعلن المحلفون عن رأيهم في "هيلزنر" بمنتهى الوضوح لدرجة أن التصويت السري لم يعد ضرورة: على الرغم من تفادي النائب العام ذكر الكلمة القذرة، قبلوا التكهنات الضعيفة التي تؤكد على وقوع قتل طقسي يلمح إليه، فضلًا عن قبولهم لأهم شاهد يدين "هيلزنر"، إذ ادعى أنه تعرف عليه وراقبه في مسرح الجريمة من مسافة تبعد سبعمائة متر. حكم على "هيلزنر" —

الذي بدت عليه السذاجة والانفعالية في تصرفاته- بالإعدام شنقًا، في حين أن أخاها الذي أدانته أدلة قوية -وهو في الأغلب الجاني الحقيقي- تمكن من الهروب إلى أمريكا.[١٩]

تلقى "هيلزنر" في البداية الحكم بهدوء؛ لأن المدافعين عنه شرحوا له أن هذا الحكم لن يبقى بعد عرضه على درجة أعلى، والسماح بتقديم تقارير مستقلة. ولكن خابت كل الآمال في أن الاستئناف أمام هيئة محلفين بعيدة عن مسرح الجريمة -في مدينة "بيزيك" جنوب بوهيميا- سيكون أكثر موضوعية وبعيدًا عن التأثيرات الإعلامية: تزاحم خمسون صحفيًا على الأماكن المخصصة لهم، تربص في الفنادق المحجوزة بالكامل السائحون الباحثون عن الإثارة، والباحثون عن توقيعات وباعة الأغراض التذكارية. تخلت قضية "هيلزنر" عن طابعها المحلي: كانت هناك مطويات وبطاقات بريدية على اسمه، قضايا سب وقذف بين أطراف القضية والصحفيين والإعلاميين، كما أثارت القضية معاركَ عنيفة بين الأحزاب، كانت لها أصداء في الصحافة الدولية.

أستاذ الفلسفة التشيكي "توماس مازاريك" كان من بين قلة في المجال الإعلامي سعت للاحتفاظ بالتفكير الهادئ: كان هو الآخر من أوائل المنضمين إلى الحركة التشيكية الشابة، ولكنه سريعًا ما ابتعد بمجموعته المطلق عليها "الواقعيين" وجريدته الأسبوعية "تشاص" (ومعناها بالتشيكية "الزمن") عن الإعلام القومي والإقليمي. كتب بعد حكم الإعدام على "هيلزنر": "لا يمكن لإنسان مع نهاية القرن العشرين تصديق ما يتعرض له الدين اليهودي -أو أي جماعة دينية حتى إن كانت ذات فكر محدود- من جذب إلى قاع الشعوذة

المقززة، أحزن لتوجه أنظار أوروبا إلى الشعب التشيكي والأرض التشيكية كموقع لهذه الأحداث."[20]

كان "مازاريك" يعرف عما يتحدث، لقد نشأ في بيئة ريفية في مورافيا، وكان يتذكر جيدًا القصص التي كانت المرضعات تقصها عن اليهود على الأطفال. كان ينظر في خوف وهو تلميذ في عمر الحادية عشرة إلى أصابع زميله اليهودي ليتأكد من عدم تلطخها بالدم، اعترف أن هذا النفور صار جزءًا من نفسه، وأنه تمكن من تجاوز المعاداة للسامية فكريًا ولكن ليس نفسيًا.[21] ولكن ما علاقة هذه الأفكار الرجعية بالفخر القومي التشيكي؟ لقد كانت عارًا وفضيحة أمام نخبة المثقفين الألمان المتعجرفة، ألم يسعوا إلى إثبات رقي الثقافة التشيكية لهم؟ اعترف "مازاريك" في مطوية طالب فيها بإعادة النظر في الحكم بأن هذه اللامبالاة والوحشية تمثل "جرحًا في قلبه". بعد القيام ببعض التحريات الجنائية سرًا في "بولنا" نشر مقالة ثانية تشمل مائة صفحة، حاول من خلالها القضاء على جنون القتل الطقوسي.[22] كان "مازاريك" يؤمن بقوة الحجة واستدامة تأثيرها الثقافي. بخلاف "كارل كراوس" مثلًا ومعظم الكتاب الصحفيين المستنيرين والليبراليين لم يستخف بتناول أي عنصر -ولو كان عبثيًا- يخص "الاعتقادات الشعبية" المعادية لليهودية. أصابت "كارل كراوس" الصدمة من انتقاد بعض قراء مجلته "الشعلة" لعدم تحفظه صراحة على خرافات الدم، اعتبر "كراوس" القضية إهانة للعقل البشري، في حين أن "مازاريك" عده عارًا في جبين التشيك جعله لا يهدأ.

كان "مازاريك" يعرف هذا الموقف جيدًا من تجارب اجتماعية سابقة. أصابته قبلها بثلاثة عشر عامًا حالة من العزلة حينما تجرأ

ووصف أهم مخطوطتين تمثلان ذخيرة "حركة النهضة التشيكية" – مخطوطتي "كونيجين هوفر" و"جرون بيرجر"- على أنهما مزورتان. آمن "مازاريك" بأن الهوية القومية لا يجب أن تقوم على أكاذيب أو ماضٍ خيالي، تعلقت المسألة بتحجيم الضرر وإظهار قدرة التشيكيين على محو أخطاء الماضي ذاتيًا. قامت عاصفة من الاستياء ضربت جميع الطبقات الاجتماعية ولم تكن بالمفاجأة: قلة منهم كانت قادرة على فهم حججه الفيلولوجية التي كانت مطلوبة لإثبات التزوير، كما اقتنعت فئة أقل بأن التدقيق الأكاديمي الذي يقوم به مدرس جامعي شاب وطموح سبب كافٍ لإعادة كتابة التاريخ التشيكي القديم من جديد. بات انتظار "مازاريك" لسنوات أطول للحصول على درجة الأستاذية بسبب هذه الضجة أمرًا مفهومًا. ولكن قضية "هيلزنر"؟ أسطورة القتل الطقوسي؟ أليس العقل البشري البسيط كافيًا للتخلص من هذا التنويم الوقتي والقذارة الفكرية؟

للأسف لا. حينما ذهب "مازاريك" يوم ١٦ نوفمبر ١٨٩٩ إلى مدرسة "كليمينتينوم" ليواصل محاضرته عن "الفلسفة التطبيقية"، استقبل بصراخ وصيحات جماعية لأكثر من ألف شخص معظمهم من الطلاب التشيك، الذين أرادوا معاقبة خائن الوطن. عبر "مازاريك" قاعة المحاضرات المكتظة، طلب وسط هذا الضجيج المستمر ولدقائق عدة سماع كلمته، ولكن دون جدوى، فاستدار بلا خوف إلى السبورة وبدأ في كتابة حججه عليها. كان مشهدًا أسطوريًا دعم جاذبية "مازاريك" الشخصية بعد عقدين تاليين حينما صار أول رئيس للجمهورية التشيكية. ولكنه لم ينسَ أن الطلاب –أصحاب التعليم الإنساني– هم من استسلموا لظلمات هذه الشعوذة واستجابوا للمعادين للسامية الألمان أكثر من استجابتهم لمدرسيهم التشيك.

كتب "مازاريك" لاحقًا بمنتهى الهدوء: "كنت أشعر بهذه الحملة بقوة، ولكن ما أشعرني بالإحراج هو الوصول إلى هذا المستوى." [٢٤]

اعتبرت مجموعة لا بأس بها من يهود براغ قصة القتل الطقوسي مجرد حكاية ريفية، ولكن مع بداية مرحلة نقض الحكم على أقصى تقدير بدؤوا في متابعة تأثير الأحداث على الرأي العام التشيكي. كانت قضية "هيلزنر" بكل تأكيد محل نقاش يشوبه القلق داخل أسرة كافكا، إذ استمرت القضية في مدينة "بيزيك" -حيث عمل هيرمان كافكا في شبابه ويسكن العديد من أقاربه- وأيقظت بذلك ذكريات عن اشتباكات مزعجة ونوافذ محطمة. كانوا يعرفون فضلًا عن ذلك أن أحداث "عاصفة ديسمبر" كانت سببًا في قذف الحجارة إلى داخل المنازل والمحال اليهودية في "بيزيك". أكدت صحيفة براغ اليومية على استقرار الأوضاع هنا وقدمت لقرائها تقريرًا ممتدًا لصفحات عن مثالية الأوضاع في "بيزيك"، عن تاريخ المدينة ومعمار مبانيها ومواطنيها المسالمين والمجدين. إنه تناقض عجيب دعم شعور اليهود بالقلق. إذا كانت القضية بالفعل تمثيلية هزلية -كما تدعي الصحافة الليبرالية- لماذا إذًا التركيز على وصف مكان الحدث كأن هناك حدثًا تاريخيًا عظيمًا مرتقبًا؟

كانت القضية بالفعل كبيرة على المستوى القضائي والإعلامي، حُشد أكثر من مائة وخمسين شاهدًا واستمر التحقيق معهم أكثر من سبعة عشر يومًا، وملأت مئات الأعمدة في الصحافة - إنها قضية ضخمة بمعايير العصر. كان من الواضح أن المحامين بدؤوا يشعرون بالحرج من قصص القتل الطقوسي: تحدث النائب العام الجديد عن "خرافة تسببت في الكثير من البلاء"، كما هدد رئيس الجلسة

بسحب الكلمة من أي شخص يتحدث عن هذا المراء. لم يساعد كل هذا المتهم في شيء: حكم على "هيلزنر"، الذي اتُّهم بجريمة قتل ثانية، في ١٤ نوفمبر ١٩٠٠ بالإعدام مرة أخرى. حينما توجه المحامي "كاريل باكسا"، الذي تمسك وحتى آخر لحظة بخطابه المعادي للسامية، بعد هذا الانتصار إلى الخارج استقبله مواطنو "بيزيك" المسالمون بصرخات فرح طاغية.

مثل "هيلزنر" نداءً، ظل في الذاكرة الرسمية، حتى بعد تحويل القيصر "فرانز يوزيف" حكم الإعدام إلى سجن مدى الحياة، تحت تأثير الضجة التي حدثت على مستوى أوروبا بسبب هذه القضية.[٢٥] حتى بالنسبة لكافكا الذي كان في عامه قبل الأخير في المدرسة، ولم يكن في محور اهتمامه القتل الطقوسي في القرى المتخلفة، إلا أن هذه التجربة انغرزت داخله لدرجة أنه كان يستدعيها في لحظات المواجهات الصعبة لمشكلة الهوية اليهودية، بوصفها أداة خطابية فيذكر فقط اسم "هيلزنر". كتب في عام ١٩٢٠ بمناسبة حدث مسه شخصيًا -بدا أن يهوديًا دفع بسيدة مسيحية إلى الموت-: "نرى هنا "هيلزنر" يقوم بعمليته خطوة بخطوة". تحدثت دورا ديامنت عن أن كافكا قد تناول في عامه الأخير قضية القتل الطقوسي في إحدى قصصه.[٢٦]

يشير ذلك إلى إدراكه لأبعاد الحدث. لم تكن "الغيرة الاجتماعية" -وهو مصطلح لم يظهر في هذه المرحلة بعد- كافية لتبرير اتفاق المجتمع البوهيمي بأكمله بما فيه من مثقفين على مهاجمة عامل يومية يهودي، لا يملك أي موارد فكرية أو مادية. إن كانت الحجة الضعيفة -خرافة الموت الطقوسي- كافية للدفع بمجموعة من البشر إلى الرغبة في الإبادة الجمعية والاحتفال بحكم إعدام، فهذا يعني إذًا أن أي حجة قادرة على ذلك، ما

دامت تقدم العوامل المحفزة المطلوبة: "الدم"، و"الاغتصاب"، و"البراءة المسلوبة".. أي شيء من هذا القبيل. كانت كراهية اليهود موجودة، ولم تكن هذه الكراهية موجهة في النهاية إلى صفة بعينها، ولكنها موجهة ضد اليهود بوصفهم تجسيدًا للآخر، الغريب الذي لا ينتمي إلى الجماعة. المقصود اليهودية بوصفها قيمة فكرية ورمزية. معنى هذا أن أي محاولة للتأقلم من قبل اليهود بلا فائدة، إلا إذا نجحوا في محو نشأتهم كاملة، بما في ذلك ذكرياتهم. كان هناك الآلاف من اليهود الذين حاولوا ذلك بجدية، خاصة في المدن الكبرى فيينا وبرلين، حيث كانت الرقابة الاجتماعية أقل تأثيرًا. كانت في براغ "الزيجات المختلطة" وتعميد اليهود نادرة نسبيًا، ولم يفكر آل كافكا قط في التخلي عن هويتهم اليهودية. هل كان هذا واردًا من الأصل؟ لم يكن ابنهم قد حسم أمره بعد.

عاش تجربة العنف الجمعي ضد اليهود أول مرة وهو في الرابعة عشرة من عمره: "عاصفة ديسمبر" في عام ١٨٩٧. لم ير ضباط الشرطة وهم يقتحمون طرقات المدرسة الثانوية لطرد الناهبين. ولكن استمر هذا الوضع خمسة أيام، إلى أن استؤنفت الدراسة مرة أخرى. لا يرد ذكر هذه الحادثة في التقرير الثانوي للمدرسة. المدير حريص ولا يريد استفزاز الإدارة التعليمية التشيكية دون داعٍ. اتخذ تلاميذه أيضًا بعض الاحتياطات، يتكلمون لفترة على الأقل اللغة الألمانية بصوت منخفض في الشارع.

هل سيجرؤ أي مدرس على الحديث مع فصله عن الأحداث التي جرت؟ لم تكن هناك مادة تتناول الأوضاع الاجتماعية المعاصرة. في حصة التاريخ تغفل التطورات الجديدة، يعرف التلاميذ كل شيء عن حروب غزو الإسكندر، ولكن لا يعرفون شيئًا عن جذور التناقض

الألماني التشيكي، ناهيك بالمعاداة الكاثوليكية للسامية، التي لا يمكن الحديث عن حقيقتها دون التعرض للأذى. مناقشة هذه الموضوعات المشبوهة كانت مهمة مدرس الدين "اليهودي" أو "الإسرائيلي" أو "الموسوي" السيد "ناثان جرون"، والمعروف باسم "ربة جرون"، الذي وُكل إليه تناول قدر الشعب اليهودي وإحيائه. ولكن يظل التاريخ هنا أيضًا بالنسبة لكافكا مثل مجموعة من الأساطير القديمة، التي سرعان ما نتخلص منها في مراحل النضج دون أي شعور بالحزن.[٢٧] ولكن ماذا عن الحياة السياسية اليومية؟ تفادى "ربة جرون" في الأغلب الحديث عنها.

كانوا يدرسون في حصص الدين تاريخ إنجيل العهد القديم، آية وراء آية، في الأغلب باللغة الألمانية، وبعض المواضع من النص القديم باللغة العبرية. كانت حصتين أسبوعيًا على مدار ثماني سنوات، تتخللها المواعظ الأخلاقية البسيطة، التي كانت بالتأكيد مملة للصبي الذي تلقى دروسًا في الحركة الإنسانية. كانت هذه الحصص على مستوى الفيلولوجيا ضعيفة مقارنة بما كان يدرسه في حصص اللغة اللاتينية واليونانية والألمانية. لن يبقى شيئًا في ذاكرة كافكا من اللغة العبرية في إنجيل العهد القديم، بخلاف بعض العبارات التي حفظها في أثناء حفل "بار متسفا". لماذا لا يحكي "جرون" عن الأساطير اليهودية القديمة في براغ؟ أو القصة المشوقة لمنطقة "يوزيف شتاد"، التي يعرفها جيدًا ونشر عنها مقالات؟[٢٨] يستخدم بدلًا من ذلك صوتًا من المفترض أنه رخيم، ولكنه في واقع الأمر مضحك ويصير سخرية التلاميذ. يضاف على ذلك تشتته وحواراته مع نفسه، التي تبدو وكأنها كتبت بيد "نيستروي". كان هناك بديلان: إما العزوف عن الاستماع، وإما كتابة ما يقول ليكون مادة للضحك في الفسحة. كان هناك تلميذ صغير

للمدرس "جرون"، موهوب تمثيليًا واسمه "إرنست دويتش"، سيوثق هذه الحوارات مع الذات، ويمليها على صديقه "فريدريش توربرج" ليكتبها. يدخل بذلك "ربية جرون" إلى عالم الأدب وهو بلا أثر في كتابات في كافكا:

"تندرج السلالة الحشمونية من الأب ماتاتياس، جاءت من بعدها سلالة المكابيين. كان لماتاتياس خمسة من الأبناء.. أليعازر.. يهوذا، أطلق عليه لاحقًا يهوذا مكابي.. يوناثان، لا كان يوناثان هو الأكبر، إذًا يوناثان.. يهوذا.. شمعون.. يوناثان، ولكن كان موجودًا من البداية، أقصد يوناثان.." زاد تلعثمه، ثم عاد للبداية حتى يرتب أفكاره: "لماتاتياس خمسة من الأبناء يوناثان.. شمعون.. يهوذا، يعد الأهم وأطلق عليه لاحقًا يهوذا مكابي.. يوناثان.. لا، أليعازر." عودة للبداية من أجل محاولة جديدة: "لماتاتياس خمسة من الأبناء، كان يوناثان هو الأكبر، ولكن يهوذا هو الأهم.. وبينهم شمعون.. ينقصني الخامس.. لقد قلت أليعازر من قبل.."

صمت وأخذ يقلب كل الأسماء الممكنة، ثم أعلن في حسم دون رجعة: "كان لماتاتياس خمسة من الأبناء: يهوذا وشمعون وأليعازر."

بــراءة ووقــاحـة

"أطفأ النور
قبل الوصول لقراره
بأنه لن يخاف بعد اليوم. "

ماكس فريش، المذكرات ١٩٤٦

لم تقدر "ماري" على المقاومة، شابة في منتصف العشرينيات، تعمل منذ فترة قصيرة طاهية في منزل آل كافكا. أعجبت بموظف آخر يعمل كمساعد في التجارة، "مولر" رجل وسيم بشارب وأخلاق عسكرية. كانت تراه بشكل متكرر، مع أنها تقضي معظم وقتها في الشقة الواسعة، ويقضي "مولر" يوم عمله بين غرف المحل والمخزن. ولكن منذ أن صار المنزل والمحل في عمارة واحدة في شارع "سيلتنر جاسه" تداخل المجالان على نحو غير موفق.

لم يكن ذلك جيدًا لأسرة صاحب الشأن. صحيح أن مراقبة العمل وشؤون التربية صارت أكثر سهولة، كما أن الخدم كانوا يضطرون عند ترك مكان عملهم في الشقة إلى المرور من أمام نوافذ عرض المحل. ولكن انتهت فكرة العودة من العمل من حياة آل كافكا إلى الأبد، كما أن العمل التجاري بهمومه صار جزءاً من حياة الأطفال كما لم يكن من

قبل، خاصة بعد أن زاد عمل محل الخردوات في تجارة الجملة، بتشكيلة عرض لا تحصى (من الخف المورافي المصنوع من اللباد إلى أعمال التطريز السويسرية) وعدد أكبر من البضاعة التي احتاجت إلى أماكن تخزين أكثر. قام آل كافكا بتأجير بدروم كبير، ومخزن في الفناء الخلفي، ولكن لم يكفِ فبدؤوا في استخدام غرفهم الخاصة كمخزن مؤقت. تكرر لذلك صعود أحد الموظفين إلى الدور الثاني، حيث كانت تفتح لهم مديرة المنزل، أو "ماري" بزي العمل. كانت لهذه اللقاءات مع الطاهية المحبة أهمية لدى المتدرب "مولر"، الذي كان يحلي يومه ببعض اللقاءات الغرامية معها. لم يتخذ الاثنان الاحتياطات الكافية، وفي مرة ضبطتهما مديرة المنزل المتيقظة: كانت واقعة مخجلة، ولكن نتائجها غير عادلة. طردت السيدة كافكا الطاهية في مساء اليوم ذاته، في حين أن السيد "مولر" الوسيم ذهب في اليوم التالي إلى عمله المعتاد، ربما بعد بضعة تنبيهات شكلية.

لقد انتفع من المفاهيم الجنسية التي اعتبرها والدا كافكا في منتهى البديهية، مع أنها تقوم على حسبة أخلاقية مريبة في الغاية. مفادها أن الرجل لا يمكنه بحسب طبيعته التحكم في نفسه لحظة رؤية تدويرات بعينها، فضلًا عن أن الطاقة الجنسية -بقدر ليس بقليل- دليل على الرجولة السليمة. لم يكن هذا نداء إلى إطلاق العنان للرغبات، بل تشجيعًا وغمزة عين جماعية. لم يكن الافتخار بالغزوات الجنسية (لا مجال هنا إلا للرموز الحربية) في جلسات الرجال اليومية أمرًا طبيعيًا فحسب، بل كانت موضوعًا للأحاديث العلنية، وكثيرًا بشكل متعمد في حضور النساء. اعتمد "الفاسقون" في معظم الأحوال على تفهم المديرين من الرجال: لا يمكن أن يفقد موظف وظيفته بسبب علاقاته النسائية المتعددة. أما العلاقات الجنسية للموظفات الإناث فكانت محل ريبة، ولم

يجدوا لهن أي عذر أخلاقي. ترتب على انتشار خبر حمل غير شرعي الإقالة الفورية – كانت بداية لمآسٍ لا تنتهي وآلاف عمليات الإجهاض.

مؤكد أن وقوع الجريمة في منزلها أمر أثار استياء جولي كافكا: فكرة مريعة أن يكون الأطفال قد رأوا شيئًا. كانت متأكدة من جهل و"براءة" فرانز ذي الأعوام الأحد عشر، فهي لم تلحظ عليه أي تغيرات جنسية، وكانت مهتمة بالطبع بفرض رقابة على علاقاته، رقابة تخضع لمعايير صارمة لتحجيم علاقة فرانز بالعالم الخارجي بأكبر قدر متاح. عرف المتدرب "فرانتيشك باشيك" –الذي دون قصة الطاهية "ماري" – صرامة هذه المراقبة بنفسه.

كان "باشيك" ذو الستة عشر عامًا يتمتع بامتياز خاص يحسده عليه الجميع، لأنه يعطي لابن المدير خلال فترة العمل دروسًا في اللغة التشيكية مقابل مبلغ إضافي زهيد: ساعة يومية على المكتب، ثم محادثة حرة في أثناء جولة مشتركة. شعر "باشيك" بالتأكيد بعد فترة بعدم احتياج فرانز الفعلي لهذا الدرس، في حقيقة الأمر كان إجراءً تربويًا يشجع الصبي المنطوي على إقامة علاقة مع صديق جدير بالثقة، وسهل التحكم فيه. ظهر ذلك جليًا حينما سافرت الأسرة في الصيف إلى "رشيتشاني" الواقعة جنوب شرق براغ، وقررت عدم اصطحاب الفقير "هوجو برجمان"، الذي كان بالقطع سيعيش تجربة جديدة من خلال إجازة صيفية في الريف على النهر، ويفيد فرانز بشكل أكبر، وأخذت "باشيك" بدلًا منه، الجاهل الذي لم يزر المدرسة الابتدائية إلا سبع سنوات فقط. فضلوه في الأغلب لأنه مرافق سيقوم بالخدمة، ولن يكلفهم عناء الرعاية الشخصية. ترتب على ذلك أن الطالب الثانوي

الألماني اليهودي فرانز تقاسم مع المتدرب التشيكي المسيحي غرفة لمدة أسبوعين كاملين.

ولكن لم تستمر الصداقة التي جرى الترتيب لها بشكل مخطط. كان فرانز يأمل في الاستفادة من الشاب الذي يكبره بخمس سنوات في أي مجال، وكان قد سأله في أثناء نزهاتهم البراغية من أين يأتي الأطفال، سبقه حديث فلسفي عن الأشكال المختلفة للجمال، وعلّق "باشيك" بغباء بعبارة سمعها في مكان ما، وأراد أن يبهر بها الصغير: "لا يوجد في الحياة ما هو أجمل من حياة زوجية مرضية." لم يفهم فرانز على الإطلاق ما قيل، ولكنه حرك أفكاره وأربك "باشيك" بحديثه. لم يكن يعرف هو الآخر من أين يأتي الآباء بالأبناء. لم يجد تفسيرًا أفضل من أن الأب والأم يصليان ثم يجدان مولودهما الجديد فجأة في الفراش. لم يكن هناك مفر من معرفة جولي كافكا بهذا الحوار الخطير، نادت المتدرب بعد مرور أيام قليلة بلطف إليها، وضعت في يده ثلاث عملات وأخبرته أن فرانز يحضر الآن دروس لغة تشيكية أفضل في المدرسة، ولم يعد بحاجة إلى درس خاص.[1]

ماذا كان يمكنها أن تقوم به على سبيل الاحتياط؟ حتى إن كانت قادرة على تخطي التزمُّت العام وتزمتها الشخصي، فهي لم تمتلك الأدوات اللغوية التي يمكن من خلالها إخبار ابنها الراغب في المعرفة بالتفسير المطلوب. ما كان متاحًا إما كلمات "قذرة" (لا يسمعها معظم سيدات الطبقة البرجوازية طوال حياتهم)، وإما توصيفات غير صريحة، تفتح المجال أمام فضول أكبر. تعاملت لذلك معظم العائلات البرجوازية بصمت أو كبت مع هذا الموضوع، آملين أن أبناءهم سيحصلون على هذه المعرفة من أي مصدر آخر: بمساعدة مدرس بارع — وإن يعد ذلك وهمًا، لأن أكثر التربويين تقدمًا ما كان ليغامر بصور بلاغية أكثر من

الربيع، أو بمساعدة من هو في عمرهم، ولديه معلومات أكثر، لا يفضل أن يسمعها الكبار.

كان الصمت أمرًا سهلًا على آل كافكا، لأن اهتمامات ابنهم الجنسية ظلت حتى في سنوات المراهقة المرعبة في حدود. كان يسمع مبكرًا في المنزل مصطلح "النفاس"، ولكنه في الأغلب ظل حتى عمر الخامسة عشرة لا يعرف شيئًا عن نشأته البيولوجية. تذكر لاحقًا: "كنت وأنا صبي بريئًا وغير مهتم بالأمور الجنسية على الإطلاق، تمامًا مثل عدم اهتمامي اليوم بنظرية النسبية. (كنت سأبقى في الأغلب على هذا الحال لولا اصطدامي العنيف بالأمور الجنسية) لم أهتم بالتفاصيل إلا بعد تلقي دروس دقيقة، مثلًا أن أجمل النساء في الشارع هم الأسوأ أخلاقيًا."[2]
أكد "هوجو هيشت" على ذلك في مذكراته المدرسية، دون أن يذكر بالطبع تواريخ محددة لعملية التوعية:

"مثلما هو معتاد كانت تدور في مجموعتنا الشبابية أحاديث جنسية. لم يكن لها في مرحلة الإعدادية (من الصف الأول وإلى الصف الرابع) توجه معين، وكما هو الحال في كل مجموعة كان لدينا من هم في حالة نضوج مبكر. انقلبت الأوضاع في مرحلة الثانوية. لا أتذكر مشاركة كافكا في أي من أحاديثنا الجنسية. خجلنا من إشراكه معنا في الحديث، لأننا لم نره قط مع فتاة. توقعنا أن معرفته تشكلت في الصف الأخير(!)..."[3]

غرابة هذه الذكريات (المكتوبة باستعجال ولا يمكن الاعتماد عليها) تكمن في أن "هيشت" يتذكر جيدًا حذر كافكا غير المناسب لعمره، ويسقط تمامًا إصراره هو وآخرين على كسر هذا الحاجز. لا يمكن الحديث عن شعور "الخجل" تجاه إزعاجهم لكافكا بشرحهم

لأمور جنسية، بل على العكس تمامًا: لم يكن شخص سوى "هيشت" الذي واجه كافكا بهذه الحقائق الجسدية، بأسلوب ظل عالقًا لعقود في ذهن المتلقي المقشعر:

"انظر على سبيل المثال إلى الصبيين اللذين حاولا تعليمي، لا يعرفان اليوم أكثر مما كانا يعرفان وقتها، ولكنهما شخصيات حاسمة، كما سيتضح لاحقًا. كانا يعطياني الدرس في الوقت نفسه، واحد من اليمين والآخر من اليسار. على اليمين شخص مضحك، ذو نزعة أبوية، يفهم الدنيا وله ضحكة كنت أسمعها لاحقًا من رجال في كل الفئات العمرية، بمن فيهم أنا. (هناك ضحكة مختلفة على الأشياء، حرة، ولكنني لم أسمعها من شخص على قيد الحياة) على اليسار شخص موضوعي مهتم بالنظريات، وكان ذلك أمرًا مريعًا. تزوجا الاثنان وظلا في براغ، شخص اليمين أصيب بمرض الزهري منذ سنوات طويلة وتغير شكله إلى حد كبير، ولا أعلم إن كان على قيد الحياة، شخص اليسار صار أستاذًا لأمراض الجهاز التناسلي ومؤسس ورئيس جمعية محاربة أمراض الجهاز التناسلي."[4]

شخصيات حاسمة عن حق: رجل الدنيا الضاحك يتوفى في عمر السادسة والثلاثين (لم يكن بالفعل على قيد الحياة في لحظات كتابة كافكا هذه السطور)، أما محب النظريات، أي "هيشت" صار طبيبًا متخصصًا في الأمراض الجلدية والتناسلية، متخصصًا في التوعية الجنسية، بوصفه أستاذًا في الطب ورئيس جمعية. فات على كافكا ذكر

اللمحة الروائية أن واحدًا كان مريض الآخر لسنوات، ولكن دون فائدة.

ولكن كيف توصل كافكا إلى فكرة أن الاثنين، صاحب النظريات والممارس، ظلت معرفتهما بالموضوع متوقفة عند مرحلة الشباب؟ من أجل فهم هذا التناقض، يجب أن نتذكر أن معظم مضمون التوعية الجنسية وكذلك الكتب الاسترشادية المخصصة للكبار لا تتناول حالة الإشباع الروحي والجسدي، أو أي شكل للثقافة الحسية، بل كانت تتعرض للجوانب الصحية وتفادي المخاطر الاجتماعية والصحية. حملت مطوية ممثلة لهذا العصر، كتبها "الدكتور برنشتاين" في عام ١٩٠٠ عنوان إرشادات للذكور للوقاية من أمراض الجهاز التناسلي، وكانت موجودة في تركة كافكا.[٥]

لم تكن ممارسة الجنس وحدها كافية لحديث "الخبراء"، ما كان مطلوبًا هو معرفة مبنية على خبرة، تسمح بالمغامرات الجنسية دون شعور بالندم. نُظر إلى الجنس على أنه حقل ملغم، كل خطوة محفوفة بالمخاطر، لم يكن حتى الشخص الأكثر تنويرًا مع نهاية القرن التاسع عشر قادرًا على التفرقة الفعلية بين المخاطر وخيالات الرعب: بداية بالعواقب المزعومة للعادة السرية بين الرجال (التي أنبت ضمير كافكا أيضًا)، مرورًا بسلسلة أمراض للجهاز التناسلي، مزعجة ومزمنة (لم يخلُ باب إعلانات في الجرائد من الوعود بحلول لهذه "المعاناة السرية")، وانتهاءً بكارثة الحمل غير المرغوب فيه، الذي استخدم كوسيلة تهديد تجاه فتيات يظهرن فضولهن – كانت أمثلة الرعب متاحة دائمًا.

الصبيان اللذان "علّما" كافكا صارا في الكبر متخصصين في قضية المخاطر، واحد في سياق علمي متخصص، والآخر لأن القدر قد

اختاره وصار جسده مثالًا لهذه المخاطر. رأى الاثنان مخاطر الحياة الجنسية على المدى البعيد، ولكن افتقد الاثنان إلى الوعي بأن المسألة –وقد يكون ذلك هو قصد كافكا- لا تتعلق فحسب بإشباع الرغبة الجنسية في سياق اجتماعي مناسب ودون أضرار صحية. الحب والكراهية، الشغف والعدوانية، الخصوصية والوحدة: تتوتر العلاقات بين كل هذه المشاعر مع ظهور هذه الرغبة، تظهر قيمة النفوس، ولا تقدم أي معرفة دقيقة عونًا في هذا الموقف. يعرف المراهقون ذلك، تغمرهم مشاعر جديدة ومكثفة، لا يتأقلمون معها، ويطرحون في خجل أسئلة عما إذا كانوا في حالة "طبيعية"، وعن تأثير هذا الانفلات الداخلي عليهم خارجيًا. للجنس فضلًا عن ذلك تأثير على تحديد أدوار اجتماعية جديدة عليهم، تبدو مثل اختبارات تتحدد بتفاصيل صغيرة. يعد صبي في الثانية عشرة يضع ذراعه على كتف صديق صبيًا مهذبًا، قد يثير بعدها بسنوات الريبة بتصرف كهذا. كان كافكا بالتأكيد سيربك معلميه الاثنين بأسئلة حول البعد الاجتماعي للجنس. مثلًا سؤال حول الأهمية المفاجئة التي اكتسبتها "كائنات" ظلت في درجة أقل، ويصعب في هذه المرحلة تحديدًا خلق حالة من التفاهم معهن. لم يفهم "هيشت" المتطفل هذه التفاصيل الصغيرة، كانت لديه جرأة –وهم طلاب- على سؤال كافكا في أثناء لقاء عابر عن أسباب عدم اهتمامه بالفتيات.[٦]

شعر المراهق فرانز على الرغم من كل هذه الاضطرابات بارتياح لتجاوزه نقطة الدخول إلى هذه المرحلة، واكتسابه معارف جديدة. لم تعد أساطير جليسات الأطفال التي تسمعها أخواته لها أي تأثير عليه، وصار ممكنًا رؤية ظواهر غير مفهومة بعيون ناضجة إن أحب ذلك، مثل السيدات المريبات بملابس جميلة، اللاتي يقفن في أزقة بعينها. صحيح أن الكشف عن العمليات الجسدية له طابع دنيوي، وأن

التثقيف الجنسي الذي يتحدث عن الجسد فقط يخلق نوعًا من الإحباط —مثل نهايات عروض رقصات التعري التي لا ترضي عادة التوقعات— ولكن لا يجري الحديث عن هذا الإحباط، ويظل في طليعة اللاوعي، لأن المراهق ينشغل في بداية هذه المرحلة —التي كانت في زمن كافكا تتأخر عامين عن الزمن الحالي— بالتغيرات الجسدية المذهلة.

ليست هذه التغيرات جنسية فحسب، يؤدي التغير السريع للملامح الجسدية والنسب والشعر والصوت إلى صراع مع الهيئة الجسمانية السابقة، وتجبر الأطفال على مراقبة ذاتية مكثفة ومؤلمة، ولم يعهدوها من قبل. كانت في حالة كافكا —وهو في السادسة عشرة من عمره[٧]— طوله الغريب وعدم اتساق أطرافه لفترة مؤقتة، الذي أشعره بإزعاج شديد، وجعل الآخرين يتحدثون عن جسده. لا نعرف إن كان واجه سخرية بسبب نحافته وحجم جسده، ولكن يكفي أن الأم كانت تركله برفق في عموده الفقري وتطلب منه بتعليلات طبية بسيطة أن يعتدل في جلسته. لم يأتِ هذا بثماره بالطبع. ظل كافكا يسير "بظهر منحنٍ، وأكتاف معوجة وأطراف غير متسقة"، لاعنًا الملابس الرخيصة التي كان يجلبها والداه، واعتبرها تزيد من قبحه. لم يصدق مظهره في المرآة: فإذا كان هذا هو مظهره فعلًا، فيجب أن يكون للناس في الشارع رد فعل مختلف تمامًا.[٨]

يبدو أن مظهر كافكا الخارجي قد تغير في أثناء مراهقته بشكل مستدام، فتدهور درجاته في "السلوك" يعد أحد المؤشرات لذلك، زاد على نمط شخصيته الدفاعية، الذي صار جزءًا من أسلوبه، اندفاعات غير متوقعة وحالة من الرفض. صار أداؤه الاجتماعي معقدًا، وتثبت الوقائع القليلة التي نعرفها من هذه المرحلة حالة من التردد المتناقض التي

يصعب فهمها، والتي أرهق كافكا بها في سنوات نضجه محيطه الاجتماعي، بالأخص السيدات: كان من ناحية يقلل من شأنه ومن شأن كل ما يفعله، وتصيبه حالة من العدوانية الذاتية ليسبق أي إجراء عقوبي خارجي، ومن ناحية أخرى يتمسك بكل ما يراه مهمًا ومحقًا بطاقة غير متوقعة وبتعنت. حتى إن كان الثمن نبذه اجتماعيًا، نبذًا لم يره في شبابه بوصفه عقابًا، بل بوصفه الشكل اللائق لإثبات الذات. بدأ كافكا يشعر بسعادة في الاعتراض على ما هو مألوف، برفض المشاركة ويتقوقع على نفسه، رآه زملاؤه حالة غريبة ولكنها بريئة، في حين أنها أدت في المنزل إلى خلافات وعدم فهم واغتراب. تساءل لاحقًا عن أسباب رفضه للكثير من الدعوات الاجتماعية، واعترف أنه كان يعتبر في البداية القدرة على عدم المشاركة قوة، "متأثرًا بآمال عظيمة عقدتها على نفسي"، ولكنه رأى في هذا الموقف في جوهره دليلًا على حيوية ناقصة.[٩]

كان كافكا يدرك بالطبع أن هذا لا يمثل الحقيقة الكاملة، وأن المتطلبات الاجتماعية تجاه الشباب ليست محصورة في الدعوات. المطلوب في هذه المرحلة العمرية –التي تزيد خلالها الفجوة بين الاستقلال الداخلي والاحتياج الخارجي– طاقة من نوع خاص، حتى لا تتعلق المسألة بمجرد الرفض الخارجي، بل بالاستمتاع بالسيادة الجديدة، واستحسانها وجعلها جزءًا من رؤيته لذاته. نجح كافكا في ذلك بشكل كبير. فعلى الرغم من تقييمه لإصراره على قناعات بعينها، وعلى حالات نفور وتقلب المزاج، على أنه إصرار طفولي تافه، إلا أن هناك بعض المواقف القليلة التي أظهر خلالها خضوعه واغتنامه للفرصة، مع أنه يتعايش عادة مع ردود أفعال تقلل من شأنه. تبعت هذه المواقف سريعًا حالات ندم شديدة.[١٠] تدرب بالفعل على هذا الإصرار

المضحك، الذي سيثير الإعجاب لاحقًا، في شكل اعتراض مراهق متردد، وتبرهن واقعة بتفاصيلها في مذكراته على وعيه التام بهذا التحول.

كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة حينما سُئل عن رغبته في المشاركة في حصص تعلم الرقص. بدءاً من طبقة اجتماعية معينة كانت لهذه الفعالية أهمية وشأن خاص. تطلبت المشاركة زيًا احتفاليًا، لذلك طلبت عائلة كافكا الترزي الخاص بها للتشاور معه. أخذ مقاساته، وأوصى كما هو متوقع بالزي المعتاد منذ أجيال: البزة بالذيل الطويل. أبدى كافكا عدم حماسه، وسأل عن إمكانية ارتداء ما هو أبسط، بزة السموكنج على سبيل المثال. صحيح أن هذا ممكن، ولكن حتى بزة السموكنج المهندمة ليست مريحة، لأنها –مثل البزة بالذيل الطويل- بحاجة إلى قميص أبيض بصدر مقوى. اعترض فرانز: فلتصنع لي بزة سموكنج منغلقة الصدر. أدهش الجميع بهذا الرد، لأنه عادة لا يعرب عن رأي مستقل وهو يجرب الملابس. قال الترزي: لا يوجد بزة سموكنج بهذا الشكل، فأصر فرانز: بلى، رأيتها مؤخرًا في نافذة عرض على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. مع إصرار الصبي وضغوط الأم لاتخاذ القرار، اضطر الترزي إلى الذهاب مع فرانز إلى الطريق الدائري، وكانت بزة السموكنج قد رفعت بالطبع من نافذة العرض. واجه الصبي، الذي ظل متمسكًا برأيه، لوم أمه المبرر، والتوقع الذي صار حاضرًا بأن "مسألة الفتيات والظهور الأنيق والحديث عن الرقص قد انتهى أمرهم." "بعد شعور بالسعادة أصابني شعور بالتعاسة، وخوف من أنني صرت أضحوكة الترزي في سابقة جديدة من نوعها."[11]

حضر بالطبع دروس الرقص، وبصرف النظر عن خجله المتوقع، كانت أكثر فترة مملة عاشها كافكا طوال حياته. حزن بسبب الإقصاء، إقصاء نفسه أو إقصاء الفتيات له، وسعادة بسبب عدم اشتراكه في الرقصة الرسمية، المخيفة والمثيرة للخجل. من خلال ظهور مشاعر السعادة والحزن هذه ممّا يتبلور تناقض، تزيد حدة ألمه بسبب مراقبته لنفسه، ويمثل أهم موضوعات كافكا. حاول من خلال الأدب حل هذا التنافر بين حب الحياة والخوف منها، ولكن دون جدوى.

شعر كافكا الشاب -وهو في حالة دفاع مستمر عن النفس- بدافع الظهور والاختلاف عن الآخرين، أن يكون له خطط خاصة به، وأن يعبر عن رأيه أمام العالم. كانت مهمة صعبة، خاصة وأنه لم يملك ما يثير الاهتمام، فيما عدا تفوقه الدراسي. كانت المسألة أسهل بالنسبة للفتيات: حينما لا يكون هناك بديل، يمكن اللجوء إلى إظهار سنتيمتر آخر من الصدر (كان موضوعًا مثيرًا للجدل في جميع منازل الطبقة البرجوازية). أما الصبية والشباب فيجب أن يفكروا في شيء جديد، أن يظهروا بوصفهم شعراء (وهو أمر أخفق كافكا فيه بجدارة)، أو جذب أنظار الجماهير بأي مظاهر لافتة: كان "ريلكه" يتنزه في شقاوة في منطقة "جرابن" ببزة قديمة وقبعة واسعة وعود طويل لزهرة السوسن، يتمشى كافكا، بأسلوب أكثر حذرًا في المكان نفسه (والتوقيت نفسه) واضعًا ذراعيه خلف رأسه. اعتبر كافكا لاحقًا هذه "اللعبة الطفولية" أمرًا محرجًا، وفسرها بوصفها البداية "لانحدار فكري"[١٢] ولكنها كانت بالفعل محاولات للتغلب على الخوف، وحالة دفاع عن النفس متوطنة بقدر من الاحترام واحترام الذات، فبدونهما لا يستطيع الشخص الناضج مواصلة حياته على الصعيد النفسي. كانت اختبارات

تثبت مدى قدرة النفس على تحمل الحريات وتبعياتها، حتى إن كانت النتائج غير مرضية، فهي تمثل مراحل هامة في تفسير الذات.

لعله أمر متعارف عليه أن تلك التجاوزات والاستفزازات نوع من الاختبار للذات. إنها تخدم إعادة رسم حدود النفس، التي تظل بدون مقاومة خارجية مجهولةَ المعالم. تمثل حالة الاهتمام التي تنشأ، وما يصحبها من إجراءات عقوبية لا مفر منها، معاييرَ لدرجات الحرية المتاحة. لذلك يكون الضرب أحيانًا سببًا للفخر. حتى كافكا الذي عُرِفَ بحذره وخجله، جرب هذه الاستفزازات الاستراتيجية. تعلقت المسألة بحسن اختيار موقع المعركة، وحسن اختيار المجالات التي يحرز فيها النجاح الرمزي. الفتاة التي تثير رغبات الذكور في المشاهدة مبكرًا، تعرف أن الزمن في مصلحتها، وأن عجزها وعدم نضجها المعتاد له مميزاته أيضًا. الصبي الذي يجعل أهله القلقين ينتظرون عودته ليلًا، يذكرهم بأن هذا الموقف سيتكرر كثيرًا، وأنهم لا يملكون على المدى الطويل بديلًا (حتى إن كان الإجراء السريع بمنع الخروج مؤلمًا). إنها لعبة لا يكسبها الكبار كثيرًا، في حين أن المراهقين يتقدمون بلا توقف، ويحولون انتصاراتهم الصغيرة إلى انتصارات كبيرة. أما كافكا الشاب، فبدا أنه انخرط في صراعات لم تجلب له سوى الهزائم الشديدة، وتركت في ذاكرته ندبات عميقة:

"أتذكر أنني تنزهت في مساء أحد الأيام معك ومع أمي، كنا في ميدان "يوزيفز بلاتس" بالقرب من صرافة "لاندر بنك" الموجودة اليوم، بدأت الحديث عن الموضوعات المثيرة للاهتمام، باستعراض غبي وشعور بالفخر، بهدوء (ليس حقيقيًا) وبرود (حقيقي)، متلعثمًا كما كنت دائمًا حينما أتحدث إليك. وجهت إليكما لومًا لتركي بلا تثقيف لزملائي الذين تولوا تعليمي، وأنني كنت لذلك مهددًا بمخاطر عظيمة

(كذبت هنا بمنتهى الوقاحة، لأبدو شجاعًا، ولكنني لم أكن بسبب خوفي على أية دراية بماهية "المخاطر الكبيرة"، باستثناء الآثام الصغيرة التي يقترفها أطفال المدن في الفراش). أنهيت حديثي بأنني الآن ولحسن الحظ لست بحاجة إلى أي مساعدة، وأن كل شيء على ما يرام. كان السبب الرئيسي لكلامي هذا رغبتي في الحديث عن الموضوع، ثم الفضول، وأخيرًا الانتقام منكما بأي شكل من الأشكال. مثلما هو معتاد منك، أخذت الأمور بمنتهى البساطة، وقلت تقريبًا إنه بإمكانك تقديم المشورة عن كيفية ممارسة هذه الأشياء دون مخاطر كبيرة. ربما أردت بالفعل استفزازك لأسمع عبارة كهذه، فهي مناسبة لرغبات طفل تشبع باللحوم والأصناف الجيدة، ولكن جسده لا يتحرك وفكره منشغل بذاته. ولكنك خدشت حيائي، أو ظننت نفسي هكذا، لدرجة أنني توقفت مرغمًا عن الحديث وأنهيت في كبرياء ووقاحة الحوار."[١٣]

إنه فوز واضح لصالح هيرمان، الذي لم يعتبر ابنه مثلًا أعلى في الرجولة، وظل طيلة عشرين عامًا يعطيه النصائح نفسها. كان الجنس والتثقيف الجنسي ساحة قتال اختارها فرانز، ولكنها غير مناسبة بالمرة، ليس فقط لافتقاره إلى أي خبرة، ولكن لأن أباه يأخذ أكثر الأمور حساسية "بمنتهى البساطة"، ولأن سلطته الجنسية كانت بعيدة كل البعد عن مستواه هو، في لحظتها وإلى الأبد. صحيح أنه سيتمتع قريبًا بحرياته الجنسية، وكان هيرمان يشجعه على ذلك. ولكن كانت رسالته دائمًا إلى الرجل الشاب أنه لن ينال هذه الحريات إلا تحت قيادة الأب، الذي أراد اصطحابه إلى بيت الدعارة، كما اقترح عليه لاحقًا وبمنتهى الجدية. كان

هذا تحديدًا هو "أول درس مباشر وشامل للحياة" أعطاه الأب إياه.[١٤]

كان درسًا محبطًا للغاية، إذ بدا للصبي أنه لا يفيد إلا الأشخاص الخاسرين. الأب نفسه لم يكن بحاجة إلى هذه المساعدة، كان متزوجًا، وبإمكانه النظر إلى هؤلاء الذين يشترون المتعة المؤقتة بالمال نظرة استعلاء. إنها أكثر الحلول "قذارة"، وكان كافكا على يقين من أن أباه من رأيه نفسه. ولكن حينما يعطي هيرمان ابنه دروسًا من هذا النوع، فهذا يعني أولًا أنه يراه ناضجًا بالقدر الكافي ليسمع هذه النجاسة، وأنه ثانيًا لا يرى إلا هذا الحل القذر مفيدًا لابنه. هكذا جاء تفسير كافكا القدري في خطاب إلى الوالد. إن أصاب في تفسيره، تكون المعركة قد حسمت في هذا المجال الحياتي الشائك، لأنه في حالة قبوله بمشورة الأب (كما حدث بالفعل في وقت لاحق)، فإن الطريق إلى النجاسة يصير بذلك مفتوحًا، وإن رفض المشورة، تؤكد الفكرة المسبقة بأنه ابن ضعيف وغير مستقل، تنقصه الرجولة، وأنه سيظل حتى مع تأسيس أسرة شخصًا تابعًا.

من الواضح أن هذه التفسيرات تأثرت في حدتها بتجارب جاءت في وقت لاحق. ولكن من المؤكد أن الشاب الذي كان وقتها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، كان يدرك أنه بهذا التحدي الغبي لوالديه ينحدر إلى قاع لن ينجح في مرحلة النضوج في الخروج منه. لم يعتبر كافكا الناضج هذه التطورات تقدمًا. كان على قناعة أن جميع الإمكانات الحياتية كانت متاحة أمامه منذ الطفولة، وأن ما لحقها دومًا انحصار وتحديد محزن، برود عام وفقدان للمرونة الفكرية الذي يصحب عادة حالات الدفاع عن النفس. لم يقدر كافكا على وصف

هذه "الانهزامات" بكل تفاصيلها، على الرغم من مروره بمراحل حياتية اقتنع خلالها بضرورة وأهمية تحليل سيرته الذاتية على نحو متصل. وارد أنه كان يخشى وصوله إلى حالة من الإحباط الكامل. لأن مرحلة الشباب هي الفترة التي تزدهر خلالها عادة الطاقات الإنسانية، حينما لا تكون هناك بوادر طيبة في هذه المرحلة، يأتي أي أمل في تغيير مسار الحياة متأخرًا. لم ينجح كافكا في الربط بين أهم الأسس الفكرية لزمنه – التقدم الحيوي والثقافي– وبين حياته الشخصية. كان يرى أن الجوهر الإنساني من الصعب أن يؤثر فيه أي "تقدم" من أي نوع، أي هوية "تنمو" و"تزدهر" تقوم على أساس ثابت لا يتغير ولا يمكن تدميره. أقدم كافكا على استنتاج النتيجة البائسة لهذه القناعة عامين قبل وفاته: "لا أريد أن أتطور على نهج معين، أريد فقط الذهاب إلى مكان آخر."[١٥]

الطريق إلى الحرية

"لم يصل التلميذ إلى المستوى الأخير بعد
لقد نسيه أستاذه."

تاو- هسين

يتملك كافكا الذعر حين يفكر في امتحانات "الماتورا" المرتقبة. كان على قناعة بأنه نجح منذ طفولته المبكرة بالغش، من مستوى إلى آخر، أنه كان استعدادًا لحظيًا في التوقيت المناسب، ليقدم المعرفة بالقدر المطلوب الذي يتيح التقدم. لم يكن يتخيل -بل اعتبره تجاوزًا على المنظومة الأخلاقية للعالم- ألا تُكشف هذه الخدعة الكبرى حينما تجتمع نخبة الأساتذة لتدرس كل حالة على حدة. كان عليه الدخول في أربعة اختبارات تحريرية للمواد الأساسية، اللغة الألمانية واللغتين اللاتينية واليونانية والرياضيات، بخلاف مجموعة من الاختبارات الشفهية، التي كانت تقيس حجم معرفة المفردات وقواعد النحو في اللغات القديمة، طوفان من المفردات، حفظها على مدار أكثر من ثلاثة آلاف حصة دراسية. يفشل على أعتاب هذه المرحلة أي محتال في مواصلة طريقه.

لم يكن كافكا الوحيد الذي يقتله الرعب، "رفيقه" "كارل كراوس"، ابن صاحب المصنع الصعلوك، كان يدرس مع كافكا منذ

المرحلة الابتدائية، ولم يكن يتصور أنه سينجح في الاختبارات النهائية دون أية خسائر. لقد كان مصدر إزعاج خلال الحصص، مما أثار حفيظة معظم المدرسين ضده، فلم يطمع في تسامحهم معه. سرق محفظة نقود أبيه، وأقنع صديقًا له بالسفر معه إلى أمريكا. ولكن انتهت الرحلة في هامبورج، حيث ألقي القبض عليهما هناك، وقضيا بعض الأيام في السجن. عاد "كراوس" في التوقيت المناسب إلى الامتحانات في براغ، وتفاجأ الجميع بنجاته من إثارة الضجة حوله: لم يسمح له بدخول امتحان شهادة "الماتورا" فحسب، بل اجتازه أيضًا. لم يطل ذلك من عمره القصير إلا قليلًا، إذ اختفى "كراوس" بعد عام مجددًا، وهذه المرة إلى الأبد: كان مدينًا بسبب القمار، وقام بعملية تزوير، فلم ير مخرجًا من مأزقه إلا بإطلاق رصاصة في قلبه.

كافكا، الذي كانت لديه استجابة أكثر للتأقلم الاجتماعي، لم يملك هذه الطاقات. رحلاته إلى أمريكا كانت في خياله وعلى الورق فقط. ولكن يبدو أنه رأى الوضع خطيرًا، للدرجة أنه وافق على المشاركة في مؤامرة تنقذهم، مع أنه -ومن منظور موضوعي- لم يكن بحاجة إلى القلق. كان الشخص المستهدف هو مدرس اللغة اليونانية، السيد "ليندنر"، الذي له شعبية لطيبة قلبه وعدم صرامته، إلا أن لائحة الامتحان تنص على ضرورة اختبار الطلاب شفهيًا في نصوص مختلفة، من بينها نصوص لكتاب لم يسمعوا عنهم في الحصة المدرسية. استحال في ضوء هذا الوضع الاستعداد للامتحان، حتى للذين هم أكثر تفوقًا. قال "هوجو هيشت" في مذكراته التي لم تنشر: "كان واضحًا أنه لا يوجد سوى طريق واحد، لنستذكر ما نحتاجه – الحصول على الدفتر الصغير الذي كان يحفظ فيه مدرس اللغة اليونانية معلومات دقيقة." وهذا ما نجحوا فيه بالفعل: لقاءات غرامية مخطط لها بعناية مع

مديرة منزل "ليندنر"، التي كانت بالفعل -بعد دفع المقابل- على استعداد لجلب دفتر الأستاذ لمدة ساعة. جلسوا في مقهى وقاموا بنقل المعلومات على عجالة، شارك كافكا أيضًا في هذه العملية، ولم يتبقَ سوى إتقان الدور التمثيلي في الامتحان. كان "ليندنر"، الذي لا يعرف شيئًا، فخورًا بتلاميذه، في حين أن كافكا أضاف -على الرغم من الانفراجة الوقتية- إلى حسابه الضخم من شعوره بالذنب رصيدًا جديدًا. اعترف لاحقًا لوالده أنه نجح بالغش في امتحان شهادة "الماتورا".[1]

تكشف هذه النادرة بقوة عن حالة الشاب النفسية، ظلت مخاوفه المزمنة، التي عذبته منذ عامه المدرسي الأول، تلاحقه، وصاحبها عجز عن التفرقة الواضحة بين الضغوط النابعة من نظم سلطوية معقدة من ناحية، والتهديدات الحقيقية من ناحية أخرى. كان كافكا يشعر بوطأة هذا التدرج في السلطة وموقف الامتحان المفروض عليه، لدرجة أن محاولات التفكير العملي ("لا يمكن أن أرسب بدرجاتي السابقة.") أو محاولات التشجيع الذاتي ("ألم يكن في السابق كل شيء على ما يرام!") ظلت دون جدوى. هذا الشعور المرحلي بالابتعاد عن الواقع يعرفه معظم البشر جيدًا في شكل خوف من الامتحان، ولكن كانت جذوره لدى كافكا أكثر عمقًا وتأثيرًا في وقت لاحق. يعمل بعد مرور اثني عشر عامًا موظفًا حاصلًا على شهادة دكتوراه، ويشعر بالذعر من فكرة إجباره على الدخول في اختبار غير قابل للرشوة، وستكون نتيجته غير قابلة للطعن. كتب إلى فيليس باور: "أشعر أنني لم أعش شيئًا ولم أتعلم شيئًا، معرفتي عن معظم الأمور تساوي معرفة تلميذ صغير في المدرسة. معرفتي ضحلة ولن تعينني على إجابة السؤال الثاني."[2] صار كل اختبار خاص من هذا المنظور ما هو إلا مرحلة في اختبار أشمل ومستمر، اختبار الحياة نفسها، في أبسط المناسبات يهدده الكشف عن جهله. جعل كافكا

سيف القاضي المسلط عليه في هيئة الممتحن جزءاً من أسطورته الخاصة، ويبدو أنه أدمج هذه الصورة بشكل أكبر في نصوصه الأدبية، عن رمزية المذنب قانونيًا، التي تعد اليوم أهم ما يميز أعمال كافكا. لا يواجه جميع أبطاله نظمًا قانونية بيروقراطية، ولكن أغلبيتهم في مواقف امتحان وابتلاء قدري، ليسوا مستعدين لها، ويخفقون فيها – سواء قاوموا أم لم يقاوموا.

يقاوم الشاب الذي بلغ الثامنة عشرة، ويواجه خوفه الطاغي من الامتحان بمخالفة واعية للقواعد، يبرهن ذلك على إصرار متزايد لدى كافكا ومرونة اكتسبها في مرحلة المراهقة. لم يعد في حالة الانعزال الخارجي، التي كان عليها وقت أن دفع والداه المال لمتدرب تشيكي من أجل تسليته. وتؤكد ثقة مجموعة من طلاب المرحلة الثانوية في كافكا، وإشراكه في عملية محفوفة بالمخاطر كهذه (كان من الممكن أن تنتهي بالفصل من المدرسة)، على أنه أحرز تقدمًا في إدماجه الاجتماعي. صار لكافكا أصدقاء، ويمكن الاعتماد عليه، حتى إن كان مجرد تابع.

لم يبقَ لنا من سنوات الدراسة الأخيرة إلا بقايا ذكريات وخلفيات فكرية بسيطة وحفنة من الأسماء بعضها غير معروف: أقل بكثير مما هو مطلوب لنسج سيناريو للأحداث، ناهيك باستنباط منطق يحكم تطور شخصية كافكا. كانت هناك شخصيات مرحلية في حياة كافكا لا نعرف عنها شيئًا. من كان "أوتو شتوير" على سبيل المثال؟ كتب كافكا عن روايته الحكم: "كنت أفكر لحظات وصف الصديقِ في الغربة كثيرًا في "شتوير"، قابلته بعد مرور ثلاثة أشهر على كتابة الرواية، فحكى لي أنه خطب فتاته من ثلاثة أشهر تحديدًا."[٣] كان تلميذًا "راسبًا" دخل

فصل كافكا قبل شهادة "الماتورا" بعامين، ظل كافكا يعرف أخباره بعد ذلك – ليس لدينا معلومات أكثر من ذلك.

هناك أيضًا الرياضي "كاميل جيبيان"، ابن الطبيب، الذي قضى كافكا معه معظم سنوات الدراسة، كان "يحبه جدًا" على حد قوله لاحقًا، وظل بعد الحصول على شهادة "الماتورا" صديقًا مقربًا، مسموحًا له بدخول شقة كافكا في أي وقت دون استئذان. ليس لدينا رسائل ولا تدوينات حوله، لأن طالب الحقوق انتحر وهو في الثانية والعشرين من عمره – زعم "هوجو هيشت" أنه بسبب خوفه من الامتحانات، في حين أن أسرته ادعت أن السبب قصة حب مؤلمة.[4]

لا تمثل صداقة كافكا مع "إيفالد برشيبرام" لغزًا بدرجة أقل، كان ينتمي إلى أسرة من العلماء ميسورة الحال، معروفة في براغ وتتحدث اللغة الألمانية. لم يكن لـ "برشيبرام" اهتمامات أدبية أو فنية خاصة، ولكنه كان مولعًا بالزهور، مما كان يثير سخرية أقرانه ويشعر كافكا بالملل. ولكن كان "برشيبرام" هو الصديق المهذب والمتحفظ والمتأنق، الذي كان يزور كافكا كثيرًا، حتى في مرحلة الدراسة الجامعية. حل كافكا أيضًا ضيفًا على فيلا عائلة "برشيبرام" في ضاحية "بوبنتش"، حيث كان يتنزه مع "إيفالد" في حدائق الزهور الخاصة به، وتعرف إلى إخوته الثلاثة الأكبر منه عمرًا –جميعهم أكاديميون– وأبيه "أوتو برشيبرام" الذي فقد زوجتين. لم يكن يعرف حينها أنه كان يقف أمام رئيسه اللاحق في العمل. تعرف وقتها لأول مرة على الحياة اليومية لطبقة الألمان اليهود من البرجوازية العليا، هؤلاء الذين كانوا يتحكمون في الحياة العامة في براغ. دخل وسط بيئة ليبرالية، يلتقي فيها في كل لحظة بأساتذة وأطباء متخصصين وكبار المحامين، لم يبهره هذا وحده،

بل أيضًا والديه، فهذه العلاقات كانت ثمينة. مع الأخذ في الاعتبار أن المنشأ لم يعد له في هذه الدوائر المندمجة دور يذكر، كما أن التجار اليهود المحافظين لم يتفهموا الأسلوب العملي الذي تخلى من خلاله أشخاص مثل "برشيبرام" عن اليهودية، من أجل الترقي في المجال الأكاديمي.

من المؤكد أن هذه الملاحظات تركت تأثيرًا مشتتًا في نفس كافكا أيضًا. برهن خروج "إيفالد برشيبرام" عن الديانة اليهودية وهو في الثامنة عشرة من عمره، وبموافقة أسرته، على مرونة اجتماعية، ما كانت إلا لتبهره: بالتأكيد كان سيثير حفيظة آل كافكا بخطوة كهذه، وهو ابنهم الوحيد. على الرغم من وجود بعض الحالات المشابهة في محيط الأسرة، إلا أن فرانز كان سيدفن بهذه الخطوة كل التقاليد، بل ويقتلع جذوره الاجتماعية أيضًا. ولكن من ناحية أخرى لم تعنِ خطوة كهذه لدى اليهود البرجوازيين "اعترافًا"، بل كانت ببساطة خطوة نحو التأقلم. اعتنق "برشيبرام" الديانة الكاثوليكية، أي ديانة الدولة النمساوية، وفي الأغلب لم تجذبه كما لم تجذب كافكا أيضًا. يصعب علينا تصور أن هذه القرارات الانتهازية كانت تتخذ دون مناقشتها مع الأصدقاء.

وصل كافكا إلى مرحلة عمرية كان يصعب معها القبول بسهولة بالتناقضات بين السلوك الخارجي والقناعة الداخلية، بين الأخلاق والممارسات الحياتية، بين الرؤية والاعترافات الشفهية المنتظرة، إنها مرحلة عمرية يسعد خلالها المرء بتهميش أي سلطة بقوة الحجة ونشر "الحقائق". هذا ما واجهه "هوجو برجمان"، الذي مر مثل كافكا بحالات "الاندفاع نحو رفض التأقلم"، ولكنه يصير دون إرادته مدافعًا عن الأمور الدينية حينما تكون موضوعًا للأحاديث.

مر "برجمان" بمراحل انسجام قوية مع الديانة اليهودية لدرجة أنه كان يهتم بالفكر الصهيوني منذ عمر الخامسة عشرة، في حين أن كافكا دخل في مرحلة تنوير عنيفة أدت به إلى مجال الإلحاد الصريح. يبدو أنه كان يستمتع في هذه المرحلة بإضعاف أي حجة على الوجود الإلهي. ظن كافكا لاحقًا أنه كان دون وعي يقلد أسلوب "برجمان" في الاستعانة ببراهين "من التوراة"، ولكن يتذكر الأخير بوضوح أنه كان يجد صعوبة بالغة في مواجهة هجوم كافكا الجدلي عليه والحفاظ على معتقداته.•

مثل غيرها لا نملك لهذه الصداقة المبكرة سوى بعض شظايا الذكريات، لا يمكن استخلاص صورة واقعية منها. ولكن يبدو أن نظرة كافكا إلى "برجمان" طيب القلب والمكافح، الذي كان يحاول التعويض عن فقر أسرته بجد كبير (وإعطاء دروس بمقابل مادي) كانت نظرة استعلائية بعض الشيء. دون لاحقًا: "كان وهو صبي سهل المنال في كل شيء، ولكن ربما ليس في كل شيء، وخيالي المريض صور لي ذلك."[٦] إنه دليل واضح على استمتاع كافكا بتميزه الاجتماعي وما صاحبه من سلطة. كان يبهر "برجمان" بقدرته على الوقوف معصوب العينين أمام أي مكتبة وذكر جميع عناوين مؤلفات أي كاتب يذكر "برجمان" اسمه. لم يكن الأخير يعرف أن كافكا درس على مدار ساعات فهارس دور النشر وتقاريرها السنوية، وكان لديه معلومات دقيقة عن أحدث الإصدارات. (كانت هواية مفضلة لديه بقية عمره). سخر كافكا أيضًا من الحماس الذي تحلى به الصهاينة الأوائل ومعهم "برجمان": لا يكون تحقيق هدف دولة خاصة بهم من خلال تأسيس نادٍ، ولا من خلال الانسجام مع يهود الريف، الذين كانوا يبهرون "برجمان" في أثناء زياراته لحظيرة عمه الصغيرة كل صيف. كان كافكا يعتبر ذلك سذاجة فكرية، وعبر لصديقه

عن ذلك بكل وضوح. لم يتأثر "برجمان" بذلك كثيرًا، وكان أحيانًا يقدم لكافكا حصالة صندوق القومية الصهيونية "كيرين كايامت"، جاء رد فعل مفاجئ لكافكا على هذا التصرف في مرة من المرات، وهما في حديقة عامة. أعطى "برجمان" عصاه وقال له: "إن نجحت في وضع العصا على منخارك، وتمكنت في شق طريقك وسط المشاة، فسأعطيك قرشًا لصالح "كيرين كايامت"." نجح بالفعل، ودفع كافكا ضاحكًا.[٧]

ضحك معه، تعود "برجمان" على المزحات التي كانت تطلق على الجماعة الدينية الصهيونية الصغيرة: "إن سقط سقف أحد المقاهي، فستكون نهاية الصهيونية البراغية." – هذا ما كان يسمعه هو وأقرانه مرارًا. شعر بالإهانة من أفكار كافكا، تظهر رسالة مطولة إلى صديقه – في مرحلة شهادة "الماتورا" أو بعدها– بعض الشعور بالمرارة، التي كان من الصعب إذابتها في الحديث الشفهي. كتب "برجمان" إلى كافكا: "إن رأيت مجذوبًا أمامي، لديه فكرة مترسخة داخله، لا أسخر منه، ففكرته هذه جزء من حياته. صهيونيتي هي بالنسبة لك "فكرة مترسخة" لديك عني. قد لا تعرف أنها أيضًا جزء من حياتي، ولكن هذه هي الحقيقة." يواصل حديثه مستشرفًا المستقبل:

"كنت تبحث منذ الطفولة دون وعي عن مضمون لحياتك. وهذا ما كنت أفعله أيضًا، ولكنك كنت مختلفًا عني. تستطيع أن تنطلق نحو الشمس وتبسط أحلامك في السماء. ماذا كان يمكن أن يشل قوتك؟ كنت دائمًا معتمدًا على نفسك، وهذا هو مصدر قوتك لتكون لوحدك. وماذا عني؟ لم أحلم كثيرًا، وإن حلمت لا تبتعد أحلامي كثيرًا، لأن

الواقع المرير ألا أتخطى الأهداف المتاح تحقيقها لي. كنت أبحث وأبحث.. لم يكن لديِّ قوة الوقوف وحدي، مثلك أنت."[٨]

ظل "برجان" بالفعل شخصية غير واثقة من نفسها، لا ترى في نفسها "القدرة على الإبداع"، كان في رحلة بحث أبدية ومهتمًا اهتمامًا بالغًا بما يمليه عليه الآخرون. لا نجد فيما ترك تقارير المحاضرات المختصرة فحسب، بل أيضًا تقارير عن المحاضرات بالآلة الكاتبة أعدت بعناية فائقة. تعود "برجان" منذ صغره على سلوك لافت، أنه كان يدون أمام الجميع مضمون أحاديثه مع الآخرين.[٩]

كان كافكا بلا شك الروح الأكثر حيوية، لا يتلقى ما يراه ويسمعه فحسب، بل ينسج منه شيئًا جديدًا، ويجعله دون عناء جزءاً من عالمه الخيالي – كانت قدرة تمكن في مرحلة النضوج من تعزيزها، لتضفي على أعماله الأدبية انطباعًا غير صحيح بأن إبداعاته جاءت سريعة ودون مقدمات. في واقع الأمر تعرض كافكا بالطبع لتأثيرات فكرية وثقافية متنوعة، لم يعِها إلا جزئيًا حينما واجهها في سن صغيرة بسلامة نية. يتذكر "برجان" مرحلة قصيرة للحماس الوطني الألماني، التي عاشها مع كافكا، تُوجت بالاشتراك في اتحاد طلاب متآمر – أشبه "بالفقاعة"– حيث انتهت مرحلة كافكا بوصفه وطنيًا سريعًا، إذ لم تكن الطقوس المأخوذة عن اتحادات الطلاب "الرائدة" والمتشبعة بالجعة لترضيه. تم إقصاء الصديقين من المجموعة حينما أصرا على عدم النهوض لحظة غناء نشيد المعركة الوطني الألماني "الحراسة على نهر الراين".[١٠] نجد في السنوات اللاحقة، وخاصة في أوقات الحرب، بعض التصريحات لكافكا التي توضح تعاطفه الكامل مع الدولة المتعددة

العرقيات التي يحكمها الجانب الألماني. لا يعد هذا أمرًا مفاجئًا، إذ كانت لديه بوصفه يهوديًا أسباب وجيهة للقلق من سقوط إمبراطورية الهابسبورج، أو للقلق من أي تغيير عنيف. ولكن لا نجد أي أثر لتفكير قومي بارز، إذ ظل لديه مناعة ضد هذا الفيروس.

كان لإعجاب كافكا بالتوجهات الاشتراكية في مرحلة ما طابع فكري أعمق، صحيح أنها تأثرت في النمسا بالنموذج الألماني، ولكن كان لجماعات العمال التشيك دور كبير (مما ترتب عليه إبعاد كلمة "النمسا" وقت تأسيس حزب العمال الديمقراطي الاجتماعي في بداية عام ١٨٨٩). مستبعد أن يكون كافكا قد اهتم بكتابات ماركس، ولكن كان له زميل دراسة اسمه "رودلف إيلوفي"، اعتبر نفسه منتميًا إلى الحركة اليمينية التشيكية. هذا الشخص المتواضع والخبير في الكتابات النظرية، لم يخبر كافكا بالتطورات السياسية فحسب، ولكن كان له تأثير أعمق بكثير عن اليوتوبيا الصهيونية التي آمن بها "برجمان". وضع كافكا ذات مرة زهرة القرنفل الاشتراكية في بزته، كانت لفتة شقية وخطيرة، لأنها قادرة على جلب المتاعب في المدرسة وفي المنزل. زهرة القرنفل تمثل في منطقة البلدة القديمة رمزًا للعمالة المنظمة، التي اعتبرها هيرمان كافكا عدوة له. كان سيشعر بالإحراج من هذا التضامن الرسمي لابنه مع هذه الفئة، كما أنها كانت ستؤكد على ريبة الأب في انضمام الصبي المنحرف إلى "حزب العمالة"، التي كان يعاملها معاملة لطيفة.[11]

يمكننا تخيل سعادة الطالب الثانوي باختبارات الشجاعة هذه، سعادته بتخطيه لمخاوفه في بعض الأحيان. ولكن اهتمامه "بالقضية الاجتماعية"، الذي أثارته المناقشات مع "إيلوفي"، لم يكن جديدًا تمامًا. كان لكافكا منذ طفولته اهتمام عميق بأقدار البشر، الذين عانوا التبعية

في حياتهم مثله. عرف أن هؤلاء وجدوا ـ وهم بلا سلطة ـ سبلًا لمساعدة أنفسهم، وأن من بينهم شخصيات حاسمة، تكاتفت برغبة حرة وبتضحيات شخصية من أجل فك قيود من هم أضعف منهم. لم يجعل هذا الانبهار من كافكا اشتراكيًا. ولكنه ظل طوال حياته محتفظًا بنظرة واضحة وخالية من الأحكام المسبقة للشعارات الإنسانية التي حركت اليمين السياسي، كانت نظرة غير مألوفة في بيئة كانت تساوي بين الاشتراكيين والخونة. أكثر الكتب التي كان يحب في الأغلب إهداءها كتابه المفضل البسيط أدبيًا مذكرات اشتراكية لصاحبته "ليلي باون". تابع باستمتاع أنشطة المشهد التشيكي الفوضوي (دون المشاركة كما شاع)[١٢]، استمع كافكا باهتمام إلى محاضرة "هوجو أرفين كيش" المتحمسة عن أهداف الحركة الشيوعية بعد الحرب والثورة، ولخص بجدية: "في واقع الأمر لا يفصلني شيء عنكم."[١٣]

ظل التفكير من خلال مصطلحات اجتماعية وسياسية واقتصادية أمرًا غريبًا على كافكا، ولكنه انفتح مبكرًا على أخلاقيات يحكمها أساس اجتماعي، وصار يدرك إدراكًا دقيقًا الظلم الموجود بالفعل. توجه بالدرجة الأولى ضد أبيه، كان يكفي الاعتراف بحقوق من لا سلطة له لاستفزازه، فعل كافكا ذلك لفترة طويلة عن قناعة، وعن عِناد أيضًا. أتاحت أصول هذه النزعة إلى مناهضة السلطوية، ومحاولات الانفصال عن الأب، لكافكا رؤى دقيقة لجوهر السلطة، كان هذا أعمق مما يمكن أن تقدمه له أي سياسة حزبية. على عكس الفوضويين الذين أرادوا إزاحة كل شيء من طريقهم، فهم أن السلطة لا تولد الكبت فحسب، بل تخلق مجالات خطيرة يتم خلالها تقبل هذه السلطة، والشعور في كنفها بالأمان الفكري، إنها إغراءات لا يمكن التخلص منها بانتخابات حرة أو إعادة توزيع للممتلكات.

ولكن هل هناك أمل في الحركات التنويرية؟ يمثل النقد السياسي العنيف مع منعطف القرن جزءاً من جبهة ثقافية أشمل، كانت تحارب الممنوعات الفكرية، والأيديولوجيات المتحجرة، الأخلاقيات الزائفة التي تحكمها المصالح. كان لأهوال الحرب العالمية الأولى تأثير في الصورة المنقولة عن العقدين اللذين سبقا الحرب، إذ بدت أنها فترة هادئة، ولكن الأرجح أن هذه المرحلة —التي كانت فيصلية في تشكُّل فكر كافكا— كانت مرحلة خيبة أمل مستدامة. على خلاف صدمة الحركة التنويرية لكانط، التي أصابت قبلها بقرن الدوائر الأكاديمية فحسب، تعرض المجتمع بأكمله في زمن الصحافة الجماهيرية لهذه الهزة الأيديولوجية – حتى مع تبسيط نظريات داروين ونيتشه وفرويد وأينشتاين في شكل مشوه، بعيد تمامًا عن العلوم المتخصصة.

لعل النجاح الساحق لنظرية الارتقاء لصاحبها داروين خير مثال على ذلك. لم يتخط عدد الذين امتلكوا في أوروبا معرفة في العلوم الطبيعية تكفي لاستيعاب عواقب نظرية داروين وتقدير الأدلة المقدمة، بضع مئات، ولكن عرف كل قارئ للجرائد فجأة أن "الإنسان أصله قرد"، مما ترتب عليه تقليص للدور المميز للإنسان (و"للخلق" إجمالًا) في الطبيعة، وبلبلة أصابت القسيس والحاخام على السواء في لحظات المطالبة بالتفسيرات. لم تقدر المدارس —بما فيها المدارس الثانوية الحكومية— على تجاهل الأمر على المدى البعيد، مما عرض كافكا لموقف تعليمي متناقض: تجاهلت الكتب العتيقة لعلم الأحياء التي حكم عليه بدراستها موضوع الارتقاء تمامًا، في حين أن المدرس المختص "جوتفالد" سمح لنفسه بشرح الموضوع للتلاميذ، دون أدنى مراعاة لزملائه من كلية علوم الدين، الذين كانوا يعيدون في حصة الدين الأمور إلى نصابها مرة أخرى. ألمح "جوتفالد" في الأغلب إلى أن

المسألة متعلقة بهجوم مباشر على الموروثات الدينية، وكان الخوف في حصة اللغة الألمانية كبيرًا، لدرجة شطب نظرية داروين من قائمة موضوعات التدريبات الشفهية الملزمة للتلاميذ. ولكن انتشر خبر أن هناك في ألمانيا شخصًا، عالم حيوانات اسمه "إرنست هاكل"، ينشر أفكار داروين بلسان سليط، خرج من تحت غطاء الخطاب الأكاديمي، ليستنتج بوضوح -بعيد عن نهج الأساتذة- العواقب. وضع داروين الفتيل، وقام "هاكل" بإشعاله. صدر كتابه الأكثر مبيعًا "ألغاز العالم" في التوقيت المناسب لكافكا ذي السادسة العشرة، اشترى الكتاب وقرأ بشغف "هاكل"، الفيلسوف المبتدئ الذي محا تاريخ الخليقة بأكمله، وشطب الخالق اليهودي-المسيحي، ونعته متهكمًا بأنه "من فئة الفقاريات التي لا وجود لها". كانت هذه أشبه بذخيرة جديدة في المعركة الدائرة مع المهادنين بشكل عام، ومع "برجمان" بشكل خاص.

لم يدرك كافكا الشاب في الأغلب الجوانب المظلمة للداروينية في شكلها المعمم، كما ظهرت عند "هاكل": نقل مبدأ الانتقاء على كائنات اجتماعية ("الداروينية الاجتماعية")، خفض تصنيف الجنس البشري، ليقترب من الحيوانات، وتقديم تفسيرات ساذجة للعمليات النفسية -هذه الهفوات الفكرية داخل عواصف التنوير، التي قامت مع نهاية القرن التاسع، لم تلفت النظر إليها، وظهرت عواقبها القاتلة بعدها بعقود. لم يهتم كافكا بها بأي حال من الأحوال؛ لأن المعركة حول الداروينية دارت في ساحة قرر الابتعاد عنها: العلوم الطبيعية، لم يتوقع منها توجيهًا عميق الفكر يجيب عن التساؤلات المطروحة بإلحاح في مرحلة النضوج. لم يهتم كافكا بألغاز العالم، ولكن بألغاز حياته هو وأقداره الشخصية.

في هذه المرحلة الحاسمة للبحث عن الهوية، وحيث تعلقت المسألة بما هو أكثر من البحث عن رؤية صحيحة للحياة، كان محظوظًا بالعثور على رفيق لأحاديثه – شخص كان يجب التودد إليه أولًا. هو موجود في صورة فوتوغرافية التقطت للفصل في عام ١٨٩٨: "أوسكار بولاك"، ابن لتاجر لم ينجح كثيرًا ومتوفى، شاب عالم في الكونيات، باهتمامات لا حصر لها، يمارس التجديف ورائد في التزحلق على الجليد وعازف للعود. يحمل كافكا في الصورة ملامحَ طفولية واضحة، في حين أن "بولاك" من عمره نفسه وينظر إلى الكاميرا مثل طالب جامعي، واثق من نفسه، مسترخٍ ومتشكك في آن واحد. رافق كافكا هذه العقلية الراجحة، ربما كانت المرة الأولى والأخيرة التي يقبل خلالها ودون شروط بشخص وحيد، بوصفه معلمًا ومصدرًا للطاقة الفكرية في آن واحد، بل كان يسعى لتقمص فكره، في منتهى الجد مرة، وفي هزل مرة أخرى. لا نعرف شيئًا عن الصفات التي جذبت كافكا – ترك لنا ثلاث عشرة رسالة وبقايا رسائل إلى "بولاك"، ولكن ليس لدينا ولا سطر واحد من ردوده.[١٤] من الواضح أنه وثق فيه ثقة غير معتادة، ووجد فيه "الأخ الأكبر"، الذي يمكن البوح له بما لا يقوله أي شخص في محيطه. كانت تؤرقه مسألة، ما يمكن أن يقدمه لـ "بولاك" في المقابل. ألم يشعر هذا الشخص المحلل واللبق، سريع البديهة والناقد اللاذع، بالملل مع هذا التابع الساذج؟

"لا تؤمن بأنني السبب في قدرك السعيد. ربما كان الوضع كالتالي: تحدث حكيم –تخشاه حتى حكمته نفسها– إلى مجذوبٍ، عن أمور قد تبدو بعيدة. حينما انتهى الحديث، وحينما أراد المجذوب العودة إلى منزله في برج

الحمام، احتضنه الآخر وأخذ يقبله: شكرًا، شكرًا، شكرًا. لماذا؟ حماقة المجذوب كانت كبيرة لدرجة أنها أظهرت للحكيم عظمة حكمته."[١٥]

كان كافكا يبالغ، حرفيته في المبالغة ظهرت مبكرًا في مزحات كهذه – ولكن تكمن فيها بذرة صدق. كان يجلس بالفعل في "برج حمامه" الفكري، ولم يتمكن بعد من إدماج المتطلبات العديدة الإلهاءات مع أصوات داخلية وخارجية، مع ذكريات وتصورات، لتشكل تجربة متصلة، وإخضاعها لرغبة مركزية. أما "الحكيم" "أوسكار بولاك" فكان يسير بإصرار في طريقه، يلتقط ما يجده، ثم يدمجه في معرفته، أو يتخلص منه. هو الذي شرح لكافكا أهمية الداروينية، ومنحه معرفة كبيرة في مجال تاريخ الفن (الذي صار لاحقًا تخصصه). يبدو أن المحادثات مع "بولاك" هي التي أوضحت لكافكا إشكالية جماليات التذوق الأدبي.

من أهم أدوات الثقافة الفنية في هذه السنوات مجلة، أعلنت في عنوانها عن توجهها المعياري: حارس الفن، مجلة نصف شهرية في الآداب والمسرح والموسيقى والفنون التربوية والتطبيقية. كان للناشر "فرديناند أفيناريوس" –الذي قام بتأسيس المجلة في عام ١٨٨٧ـ أهداف تربوية شعبية، ولذلك لم تكن المجلة تخدم احتياجات الصفوة المثقفة، بل تتوجه إلى الطبقة المتوسطة الصاعدة، التي لم يتشكل تذوقها الفني بتفاصيله بعد. لم تشتمل المجلة على أية مقالات نظرية، اهتم "أفيناريوس" بدلًا من ذلك بتوسيع نطاق مصطلح الفن الكلاسيكي، وتشجيع إظهار البعد الفني في شتى مجالات التعبير الإنساني: الفن التربوي، مثل الملابس وتأثيث المنزل وتجارة الأعمال

الفنية – اعتبر التغذية والنظافة العامة لأهميتهما للحياة المدنية جزءاً منه أيضًا. الكلمة الصغيرة التي اعتبرتها مجلة حارس الفن الأهم والأقدر هي صفة "الحقيقية": يجب على كل شيء أن يكون حقيقيًا: بداية من السمات القومية ("فكاهة إنجليزية حقيقية"، "إخلاص ألماني حقيقي")، مرورًا باللغة التعبيرية للعمل الفني (مجرد اللعب بالأشكال لا يمثل عملًا حقيقيًا)، وانتهاءً بالشكل الجميل لقطعة أثاث، إذ يكمن جمالها في تحقيقها لغرضها. هذا المسعى إلى الإصلاح الشامل في جميع مجالات الحياة، والوعد بتأسيس قومية جديدة أساسها ثقافي، وتزويد طبعات المجلة بلوحات معادة الطباعة ونوت موسيقية كأمثلة: أدت كل هذه العوامل إلى ارتفاع كبير لعدد القراء مع نهاية القرن. كان أمرًا طبيعيًا أن يخطو "أفيناريوس" خطوة أخرى وهو على قمة هذا التوجه بتأسيس رابطة "محبي الفنان دورير"، يجمع فيها المشتركين السنويين لمجلته من أجل تنشيطهم على صعيد السياسة الثقافية. شعر المنتمون إلى هذه الرابطة بأنهم جزء من نخبة فكرية جديدة تملك المستقبل – كان عرضًا لا يقاوم للطبقة المتوسطة التي شعرت بإمكاناتها المحدودة في ظل دولة طبقية.[١٦]

عرف كافكا مجلة حارس الفن من خلال "أوسكار بولاك" أيضًا، وصارت الآراء المتداولة فيها مادة للحديث بينهما. اشترك كافكا في المجلة وهو طالب ثانوي، وعلى الرغم من توجهها القوي نحو القومية الألمانية (والذي كان بولاك يقدره)، كان يقرؤها أيضًا في سنوات لاحقة.[١٧] حجم تأثير المجلة على تطور كافكا بلا حدود؛ عززت مجلة حارس الفن من اهتمامه المكثف طوال حياته بكل مسائل إصلاح الحياة –من التغذية النباتية وإلى علوم التربية الإصلاحية– ومن حبه لبساطة تأثيث المنازل بشكل موظف وبساطة الملابس، والأشياء المستخدمة أيضًا، ربما تكون

المجلة هي الدافع لكل هذه الاهتمامات. يبوح أسلوبه اللغوي المتكلف في رسائله المبكرة بوضوح أصلها، كتب إلى صديق مرتحل: "حينما يطير شخص بحذاء الأميال السبعة، متجاوزًا به الغابات البوهيمية، والغابات في ولاية "تورينغن"، يصعب الإمساك به، أو لمس طرف معطفه، لذلك هو لا يكون إنسانًا شريرًا." لغة الأساطير هذه كانت متداولة في مجلة حارس الفن، وإصرار كافكا على استخدام هذه اللغة القديمة يظهر أن المسألة ليست مجرد سخرية.[18]

من الصعب تحديد حجم تأثير المجلة على علاقة كافكا بالأدب أو كتاباته الأدبية نفسها. لم يسمح كافكا طويلًا بنشر محاولاته المبكرة والمستفيضة –منها مشروعا رواية ومجموعة قصصية بعنوان "الطفل والمدينة"– وشارك بوصفه مستمعًا صامتًا في دوائر صغيرة من المهتمين بالأدب من زملائه، الذين كانوا يكتبون أعمالًا شعرية ودرامية. بعد مرور عامين على حصوله على شهادة "الماتورا" قرر عرض معظم –أو كل– ما كتب منذ مرحلة المراهقة على "أوسكار بولاك" صاحب الرؤية الناقدة، على الرغم من أن كافكا رأى "الجزء الأكبر من النص مقززًا"، بل وأن لغته "مبالغ فيها للغاية". كل هذه النصوص –يتحدث كافكا عن "بضعة آلاف من السطور"– مفقودة، وبفضل فكرته المبدعة بإرسال خطاب في هيئة عمل نثري صغير إلى "بولاك"، عرفنا شيئًا عن أسلوب كتاباته في مرحلة الشباب. إنها "قصة معقدة عن شخص طويل القامة، خجول وعما لا يبوح به في قلبه"، إنه مشهد عبثي عن حالة من الانفصام تصيب بطل القصة، فيما يبدو هو تصوير للذات. الموضوع الأدبي هنا ليس بجديد (وسوف يتناوله كافكا مرة أخرى)، ولكن هذه المجموعة من التفاصيل العبثية والاستعارات المبالغ فيها كانت بعيدة كل البعد عن تصورات نواب التحرير في مجلة حارس الفن –المتأثرين بأدب "موريكة" – عن "التعبير

الحقيقي": تتدلى ساقان طويلتان من النافذة، لأن المكان في الحجرة لا يكفي، تخرج الكلمات من الفم مثل "رجال متأنقين بأحذية لامعة ورابطات عنق إنجليزية"، أما الحديث المباشر فلا يبدو مفهومًا على الإطلاق.[19]

يلهو كافكا، والشيء الوحيد الذي يجعل هذا العمل غير المنشور متماسكًا هو حبه الفائق لإبداع صورٍ بلاغية. صار لكافكا إحساسٌ واعٍ بالشكل الفني في سنوات النضج، وبات للمستحيل حضور غير متكلف. ولكن حتى إن وضعنا ذلك في الاعتبار، لا يمكننا وصف تأثير مجلة حارس الفن عليه وصفًا محددًا، على الرغم من تقاطع المساحات بين الجانب الأيديولوجي والفني بشكل كبير. حب الأشكال السردية البسيطة، واحتقار التصنع والزخرفة اللغوية على حساب "الحقيقة" الأدبية، عدم الاكتراث بفكرة الفن من أجل الفن، وبطليعة فنية تحيط نفسها برموز غامضة وضجيج لافت: لم يحب كافكا أو ينفر من كل هذا لمجرد أن مجلة حارس الوطن أعلنت عنه كمبادئ في سياق الإصلاحات الحياتية. كان هنا لتأثيرات متنوعة أخرى دور كبير: ولع مدرس اللغة الألمانية الشاب (يوزيف فيهان" —الذي صار لاحقًا أستاذًا للأدب في براغ- بالأدباء "هيبل" و"جوته"، فضلًا عن تجارب عديدة في المسرح الألماني الجديد، ذي المستوى الفني العالي، والمسرح القومي التشيكي المنافس له، وأخيرًا وليس آخرًا قراءة الصحف الهامة التي كانت متاحة في المقاهي الأفضل حالًا: مثل صحيفة "نوية دويتشة روندشاو" (لاحقًا "نوية روندشاو") لدار نشر "س. فيشر"، التي كانت تمنح معلومات عن الإصدارات الجديدة والنقاشات الأدبية الدائرة من منظور أكثر انفتاحًا، كما كانت تغطي أيضًا إصدارات على المستوى الأوروبي.[20]

على الرغم من اتساع أفق كافكا الأدبي سريعًا وعدم ملاءمة هوامش مجلة حارس الفن التعليمية لمستواه، إلا أنه ظل يفضل مجموعة الأعمال النموذجية التي كانت المجلة تحددها. نجد فيما ترك منشورات لرابطة "محبي الفنان دورير"، فضلًا عن "مجموعة الشعر الألمانية" التي أصدرها "أفيناريوس"، التي تجاهلت الحداثة الأدبية وقتها، وظل كافكا ينصح بقراءتها حتى عام ١٩٢٢. لم يجد مقابلًا لهذا الوفاء، لأن أكثر المقالات الناقدة غباءً -والتي تناولت أعماله- ظهرت في العدد السنوي للدليل الأدبي الذي تصدره رابطة "محبي الفنان دورير"، إذ يقول عن رواية إنها "تفتقد للخيال، ومملة".[٢١]

لم تكن صدفة، بنفس قدر ثقة مجلة حارس الفن في نفسها، عندما تمنح أو تمنع شهادات الأصلية الأدبية، كان أيضًا حجم الغموض وضيق الأفق في أحكامها الفنية على أعمال أدبية جديدة، إذ لم تملك بعد المصطلحات المناسبة لتوصيفها. ظلت ظاهرة "نيتشه" على سبيل المثال حالة تثير الارتباك، اتسعت مساحة تأثيره على الجيل الجديد، والأدب المعاصر بدرجة كبيرة مع منعطف القرن، حالت دون التخلص منه باعتباره مجرد "تقليعة" (وهو مصطلح مفضل لدى محرري مجلة "حارس الفن"). لا يمكن أيضًا غض البصر عن أن "نيتشه" كان يعظم "الحياة"، ويبغض كل ما هو رخيص، وعالي الصوت، ومصطنع، إذ تعد جميعها نقاطَ تلاقٍ مع الإصلاحات الحياتية – وكانت كلها حججًا تدعم دعوته إلى المشاركة في تأسيس مجلة "حارس الفن" (ولكنه رفض). ما كان يعارض هذه المشاركة أرستقراطيته الفكرية، هجومه الطائش، سمعته المخيفة بوصفه ملحدًا وعدميًا، والأسوأ من كل ذلك، نقده اللاذع للأخلاقيات، التي كان يرجع مصدرها، حتى الدوافع الاجتماعية المحترمة منها، مثل الشعور بالآخرين وحب الآخر،

إلى مصادر نفسية معكرة الصفو، كما اعتبر أي نوع من القومية ضربًا من ضروب العبث.[٢٢] كان كل شيء لدى "نيتشه" في حالة حراك ولا يمكن الاعتماد عليه، لا شيء أكيدًا وجيدًا سوى اللحظة التي نعيشها – لم يكن عجيبًا أنه وصف بدقة الشعور الحياتي المضطرب الذي تملك المراهقين، وكذلك ترددات نفسياتهم، مما أثار موجة إعجاب كبيرة به. سمحت مقولات "نيتشه" بإحراز "التقدم" على السلطات الدينية والدنيوية، كان لنبرة الفخر التي صاحبت حالات الإحباط تأثير ملطف على البرودة الناتجة عن هذا الإحباط. لم يقاوم كافكا أيضًا هذه التجربة طويلًا.

كان ذلك في أثناء إحدى عطلات المدرسة في عام ١٩٠٠، عندما قام آل كافكا بتأجير شقة مصيف: بعيدة ووسط الخضرة، ولكنها قريبة أيضًا بالقدر الكافي لمتابعة المحل في براغ. وقع الاختيار على منطقة فيلات اسمها "روستوك"، على مسافة عشرة كيلومترات من النهر. كان كافكا يعرف من رحلة مدرسية سابقة أن المنطقة بها مسبح، ولكن لم يكن ذلك الشيء الوحيد اللطيف الذي يمكن أن يقوم به صاحب الأعوام السبعة عشر، إذ كان للمؤجر السيد "كون"، رئيس مكتب البريد، ابنة جميلة في مثل عمره اسمها سلمى، وانبهرت سريعًا بذكاء ومعرفة فرانز. وصل الإعجاب لدرجة أن أهل الطرفين انشغلوا بدرجة كبيرة في وضع الحدود للمراهقين، ومنع أي لقاء خفي بينهما. كان الصيف طويلًا والفرص كثيرة. اتفق سلمى وفرانز على التسلل ليلًا، عندما ينام الجميع، إلى الحديقة المترامية الأطراف، حيث كانت هناك دكة على بداية الهضبة، تسمح برؤية تفريعة لنهر "المولداو" المتلألئ تحت ضوء القمر. غابة صغيرة أمامهما، وعلى مسافة بعيدة من كل المنازل، وعلى طرف ساحة فضاء أخرج كافكا –على ضوء شمعة– كتاب زرادشت

للكاتب "نيتشه" من جيبه، ليقرأ بصوت عالٍ ما كان يلقيه وحده طوال النهار.

لم يذكر كافكا أولى نزواته هذه -التي نعرف عنها- في رسائله أو مذكراته اليومية. يمكننا توقع أن لقاءه بالكاتب "نيتشه" ظل له تأثير أكبر من مجرد مستمعة شغوف. ولكن لدينا دليلًا قويًا، أثرًا تركه، إذ وَدَّعَ التجربة الحالمة في "روستوك" بكتابته في ألبوم ذكريات سلمى، كتب نصًا يحمل طابع زرادشت المتشكك في اللغة، متأثرًا بالقراءة المشتركة التي سبقت كتابته. كانت كلمات غير شخصية وغريبة، لن تلفت انتباه الأهل المترقبين، ولكنها توحي بثقة متبادلة وخفية:

"يا لعدد الكلمات المدونة في هذا الكتاب! من المفترض أنها تحمل الذكرى، كأن الكلمات قادرة على حمل الذكرى! لا يمكن للكلمات تسلق الجبال، ولا جلب الكنوز من قمم الجبال أو من جوفها! ولكن هناك ذكرى حية تلمس كل ما يستحق أن يبقى في الذاكرة بيد حانية. عندما تتصاعد ألسنة اللهب من هذا الرماد، بحرارة وتوهج قوي، تنظرين إليها، كأن السحر قد أسرك، ثم...

لا يمكن كتابة هذه الذكريات البريئة بيد غير ماهرة وحرفية غليظة، يمكن كتابتها فقط على هذه الأوراق البيضاء البسيطة. هذا ما فعلته في ٤ سبتمبر ١٩٠٠.

فرانز كافكا"[٢٣]

درجاته في اللغة اليونانية: تستحق التقدير (إذ وقعت معجزة)، حصل على الدرجة نفسها في مواد اللغة التشيكية، والجغرافيا،

والتاريخ، والفيزياء، ومدخل إلى العلوم الفلسفية. أما باقي المواد فحصل فيها على درجة مقبول، من بينها اللغة الألمانية، وهو أمر يثير التساؤلات حول أديب مستقبلي. ماذا حدث؟ لم يكن موضوع التعبير في الامتحان التحريري لشهادة "الماتورا" مناسبًا لإظهار براعته الأدبية: "ما هي مميزات موقع النمسا الجغرافي وسط العالم؟" - كان سؤالًا صعبًا على كافكا ولم تحضره أية أفكار. لا يمكن فهم الموقع الجغرافي المميز، الذي تتمتع به النمسا، من النظرة الأولى. فضلًا عن أن العبارة الشهيرة التي يرددها كل ممتحن من كتاب "فالنشتاين" للأديب "شيلر" - "للنمساوي وطن يحبه، ولديه كل الأسباب لحبه."- كانت جميلة ولكنها لا تفيد وقت البحث عن حجج. من المؤسف عدم إمكانية سؤال القيصر نفسه؛ إذ وصل إلى المدينة في يونيو ١٩٠١ -أي بعد مرور أربعة أسابيع على الامتحانات الشفوية- مر بعين متفحصة على طلاب الثانوي الذين اصطفوا لتحيته، كأنه يريد التأكيد على أن الدولة تنتظر منهم أداء ما. بالتأكيد هي صدفة أثرت في نفس كافكا أيضًا.

تجاوز في نهاية الأمر درجة اللغة الألمانية، لعل الأمر الأهم هو النجاة من الامتحانات الشفوية، التي دامت لأربعة أيام، وكانت تشبه التحقيقات الشرطية، التي تستغرق أكثر من ساعة. مجرد استيعاب أن هذه المحاكمة، التي حلم بها في رعب على مدار سنوات، صارت خلفه وليس أمامه، كانت فكرة من شأنها تغيير ألوان العالم من حوله. تقدم اثنان وعشرون طالبًا للامتحان، ونجح ثمانية عشر، كان هو من بينهم.

بصرف النظر عنه هو، لم يتشكك أي شخص في العائلة في إمكانية نجاحه. كان فرانز مجدًا، وفي يده باستمرار كتاب يقرؤه. ولكن كان

بالطبع يومًا مميزًا لآل كافكا، لأن ابنهم الوحيد أنجز ما لم يحققوه هم أنفسهم. لم تكن شهادة "الماتورا" تأكيدًا على نجاح أداء فردي، ولكنها بمنزلة الختم الرسمي على أن المستقبل المشرق ينتظر هذه العائلة.

لقد استحق فرانز هدية عن جدارة، وأبدت الأسرة كرمًا شديدًا، إذ كانت الهدية رحلة إلى البحر، أول رحلة كبيرة يقوم بها وحده، كفكرة أولى عن الاستقلال، الذي سيناله مستقبلًا. لم ترغب العائلة بالطبع في تركه وحده تمامًا، لذا أبدى الأخ غير الشقيق لأمه زيجفريد لوفي استعداده لمرافقة ابن أخته، بالقدر الذي يسمح به عمله كطبيب أرياف في المدينة المورافية الصغيرة "تريش". قضى كافكا هناك جزءًا من عطلته الصيفية السابقة، ويبدو أنهما اتفقا حينها على تفاصيل الرحلة. كان الخال زيجفريد شخصًا يمكن الحديث إليه: ربما كان صاحب الأربعة والثلاثين عامًا جافًا بعض الشيء ظاهريًا، ولكنه أكثر ثقافة وانفتاحًا من جميع أقاربه ناحية الأب. كان زيجفريد لوفي –بوصفه طبيب أرياف وطبيبًا لثلاثة مصانع نسيج– شخصًا محبوبًا، ولذلك علاقة بأنه اهتم بما هو أكثر من مدارس الطب التقليدية. كان له اهتمامات كبيرة بسبل العلاج الطبيعة (من المؤكد أن كافكا قد قام بأول تدريباته الجسدية في مدينة تريش الصيفية)، كان يملك مكتبة محترمة، ويعد أول الأطباء الذين ركبوا دراجة نارية –وليس حنطورًا– لزيارة مرضاهم. قضاء بضعة أسابيع على شاطئ بحر الشمال، مع رجل بهذه المواصفات، بالتأكيد لن تكون عطلة مملة، حتى وإن لعب العم دور المراقب أحيانًا.

بدأ فرانز رحلته إلى "هيلجولاند" وهو في الثامنة عشرة من عمره وحيدًا: أول رحلة قطار طويلة، أول إقامة في فندق، أول رؤية للبحر، وأول رحلة بالسفينة. حضر زيجفريد لوفي بعدها بأسبوع واحد، وقضيا

معا أربعة أيام فوق الجزيرة، التي صارت ملكًا لألمانيا قبلها بأحد عشر عامًا. واصلا بعد ذلك رحلتهما بالباخرة الدولابية إلى "نوردرناي". لا نعرف من قام باختيار هذه الأماكن: ربما كانت هناك علاقات شخصية بين لوفي وطبيب منطقة السباحة في "هيلجولاند"، الذي استضافه فترة إقامته. أما منطقة السباحة الاستشفائية "نوردرناي" فكانت مفضلة لدى النمساويين، فضلًا عن الدعاية المكثفة لها في الجرائد الألمانية في براغ. كانت الإقامة في الفنادق وخدمة المطاعم متوفرة وبأسعار مختلفة، وعلى عكس الجزر الفريزية الأخرى، جرى هنا الترحيب بالضوف اليهود وصارت سمعة "نوردرناي" أنها "جزيرة اليهود"[٢٤]، إذ توفر معبد يهودي، فضلًا عن تقديم المطاعم للأكل اليهودي الحلال. اتسمت الحياة هناك بالأناقة، كان يحضر من هم من طبقة النبلاء العليا في بروسيا: حفلات رقص وموسيقى يومية، مسرح ملكي، وممشى على البحر وفقًا للنموذج الإنجليزي، حتى المقهى النمساوي كان موجودًا. شهد فرانز وخاله عرضًا مذهلًا للألعاب النارية يوم ١٨ أغسطس الموافق لعيد ميلاد قيصرهما. كان الهواء الطلق والمياه هما الأهم في نظر الباحثين عن إصلاح الحياة، لذلك قاما -من أجل مد العطلة- بالانتقال من فندق "سوم رايخس آدلر" إلى البنزيون المتواضع "فريزيا"، الذي يبعد بضع دقائق عن شاطئ الرجال. كان شعورًا مختلفًا عن ألواح الخشب اللزجة في مدرسة السباحة المدنية. عرف كافكا هنا لأول مرة الشعور المثير بالسباحة في البحر، على الرغم من صرامة القواعد، الصوت الأجش لمراقبي السباحة وصفاراتهم، التي كانت تمنع أي شخص من الدخول إلى منطقة الأمواج العاتية، أو الحاجز الفاصل لشاطئ النساء، الذي كان عرضه خمسمائة متر.[٢٥] يتلو ذلك الجلوس على كراسي الشاطئ المؤجرة والقراءة والأحاديث المطولة. على الرغم من الطقس الرائع الذي دام لأسابيع،

كان من الصعب تجاهل المشاكل، التي تركها في المنزل: بالأخص السؤال عن مصير هذا الشاب المعبأ الآن بكل هذه المعارف الإنسانية. قدم الخال الخبير في أمور الحياة نصائحه، واستمع ابن أخته إليه في اهتمام. كانت لحظات فاصلة بالتأكيد، ولكننا لا نعرف شيئًا عن مضمونها.

تغير الطقس على الشاطئ فجأة مع نهاية أغسطس، وحزما حقائبهما وسط الأمطار والعواصف، ليعود فرانز مرة أخرى إلى براغ. كان لديه مادة كافية للحديث، وخلفت قصصه عن المصيف في بحر البلطيق "الأنيق" (هكذا كانوا يصفونه وقتها) انطباعًا جيدًا لدى أسرته، لدرجة أن هيرمان كافكا نقل لقاءه العائلي الصيفي مع إخوانه إلى "نوردرناي". ولكن لم تستمر الأجواء الإيجابية طويلًا؛ إذ وصلهم خبر صادم وغير متوقع، أظهر مرة أخرى السعادة الهشة لهذه الأسرة. أطلق ابن عم فرانز -أوسكار كافكا ذو الأعوام السبعة عشر- الرصاص على نفسه.[٢٦] أراد دخول الحياة العسكرية، وكان قد أنهى مرحلة تأهيلية في سلاح المشاة، وتقدم إلى مدرسة الفرسان صاحبة السمعة الطيبة في "فايسكيرشن" المورافية (هرانتسيا على الحدود مع مورافيا). يبدو أنه دخل الامتحان بشعور مشابه للشعور الذي انتاب قريبه طالب المرحلة الثانوية في براغ. لم يكن يأمل في الدراسة نفسها، بل في بزة الفارس الأنيقة، التي كانت تشبه زي الضابط. شاءت الأقدار شيئًا مختلفًا في "فايسكيرشن": لم ينجح في الامتحان.

فلتذهب الدراسات الجرمانية إلى الجحيم

"أريد الحياة، من يبتسم هناك؟"

"يرؤشي اورتن"

"جلست منذ سنوات عديدة مرت -في حزن- عند تل "باترشين". «كنت أقيم رغباتي في الحياة، ولعل أكثر الرغبات جاذبية هي اكتساب قناعة بأن للحياة مراحل سقوط وصعود، وأنها في النهاية -بمنتهى الوضوح- حالة من العدم والحلم والتحليق عاليًا. يتطلب إقناع الآخرين بذلك صياغة مكتوبة. إنها أمنية جميلة، لو كنت قادرًا على تمنيها بشكل صحيح. مثل أمنية في تجميع دقيق ومنظم لمنضدة بالمطرقة، ولكن القيام بذلك دون أن تفعل شيئًا بالفعل. لا يحكم مبدأ: "لا يساوي الدق بالمطرقة شيئًا"، بل مبدأ: "الدق بالمطرقة هو دق حقيقي، ولكنه لا يساوي شيئًا". يصير الدق بذلك أكثر قوة وإصرارًا، وربما أكثر جنونًا. ولكنه لم يقدر على صياغة أمنيته بهذا الشكل، لأن أمنيته لم تكن أمنية، بل حالة من الدفاع والتبسيط للعدم، ربما أراد أن يمنح هذا العدم مسحة حيوية. كان يخطو خطواته الأولى والواعية نحو هذا العدم، الذي صار عالمه لاحقًا.» كان نوعًا من الوداع حينها، وداع لأوهام الشباب، التي لم تخدعه مباشرة، ولكن جاء الخداع

في هيئة حديث السلطات من حوله إليه. تولدت من هنا ضرورة "الأمنية".[١٠]

لم تكن رؤية كافكا قد اتضحت بعد، ولكن ما اكتشفه كافكا في هذا المكان –أجمل أماكن براغ على نهر "المولداو"، وأمامه بانوراما للمدينة- بوصفه أمنيته الجوهرية، التي وعاها لأول مرة بكل أبعادها، ما هو إلا توصيف لحالة الزن البوذية: الوعي التام بأبسط الأشياء، وإدراك فنائها في الوقت نفسه. كما يعترف هنا متذكرًا، كان بالتأكيد قادرًا على تمني هذه "الرؤية للحياة" بشرط صياغتها أدبيًا ليأسر بها الآخرين – ما كانت لترضيه بوصفها "رؤية للحياة" أو "موقفًا تجاهها". إنها الأعمال الأدبية، وليس الدين أو النظريات الفلسفية، التي أكسبته قناعة بأن الحياة الصاخبة التي تمناها من ناحية، والعدم الذي يخيم على كل الكائنات الحية –وعليه هو بشكل خاص– من ناحية أخرى، ليسا ظاهرتين متناقضتين. بل على العكس: تتطلب الظواهر العابرة تركيزًا أعلى، كما أن خلفية الفراغ الأسود تظهر التفاصيل بشكل أكثر حدة، أيًا كان محل النظر إليها. كان هذا هو حال "جوته"، وحال "فلوبير"، الذي تعرف على أعماله في هذه المرحلة. بدا لكافكا أن تجلي الوجود والعدم في اللحظة نفسها، وفي الكائن نفسه، كأنه دليل على الكمال الذي تستحقه الحياة البشرية.

كان عليه أولًا اتخاذ قرار يتسم بالدنيوية والصعوبة في الوقت ذاته، بالدنيوية لأنه لم يكن له سوى علاقة سطحية بالأحلام التي استحضرها كافكا عند تل "باترشين"، وبالصعوبة لأن توقيته مبكر ويصعب تحمل مسؤولية تبعاته في هذه المرحلة. تعلقت المسألة باختيار توجهه الدراسي

وبالتالي الوظيفة، التي سيكسب منها قوت يومه. كانت دراسة فرانز أمرًا منتهيًا، وانتهى حلم تسليم المحل إلى حامل لقب العائلة – ولكن استرشد الوالدان في نصائحهما بالمكسب المادي والاجتماعي المتوقع، وبأمثلة إيجابية من محيط العائلة. تعلقت المسألة بالنسبة لهما فقط باختيار خط وظيفي، ونجاح فرانز في إعالة أسرته المستقبلية. على الرغم من معرفتهما السطحية بقوانين العمل الأكاديمي، إلا أن والدي كافكا كانا يدركان جيدًا حجم الاضطهاد، الذي يعاني منه اليهود في القطاع الحكومي. كانت هناك أسباب قوية للعدد الفائق للأكاديميين اليهود، الذين يعملون أعمالًا "حرة"، مثل الأطباء والمحامين. كان من المفترض أن يفهم فرانز هذا جيدًا، حينما قرر ذكر دراسة "الفلسفة" في كلية الآداب كرغبة وظيفية في السجل الرسمي للحاصلين على شهادة "الماتورا". ما هي النتيجة المتوقعة؟ صحيح أن هناك أساتذة يهودًا، وأن عددًا قد زاد قليلًا مقارنة بالجيل الذي سبقه. ولكنه لم يكن سرًا أن اليهود الذين ينالون وظيفة القطاع الحكومي يتمتعون بحماية عالية، فضلًا عن أن المتقدمين اليهود يسمعون بانتظام وعلى الملأ –عند الدخول في دائرة الاختيار- نصيحة "القبول بالتعميد". لم تنشأ مؤسسة بعد معنية بتقديم الاستشارة الجامعية، بعض المؤسسات اليهودية كانت تقدم محاضرات يمكن الاستعانة بها، ولكن كل كلمة مسموعة من المراقبين، لذلك لم تقَل الحقيقة هنا –دون رتوش– عن المتاعب التي يواجهها الأكاديميون اليهود.

كان من السهل على هيرمان كافكا وضع فرانز -المعتمد عليه ماديًا والذي لم يبلغ سن الرشد بعد– تحت ضغوط. ولكن الطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها الآن لم تعتَد ذلك، ونظرًا لجهله كان سيتسبب ذلك في موقف محرج للغاية. لم يبقَ له في نهاية الأمر سوى الإشارة إلى

الأكاديميين في المحيط العائلي، الذين عمل معظمهم في المجال الحقوقي. كانت من مميزات هذه الدراسة تعدد اختيارات فرص العمل لسنوات قادمة، إذ كان المحامون مطلوبين، ليس في قاعات المحاكم والمحاضرات فحسب، بل أيضًا في الشركات الكبرى. ولكن لم يكن فرانز مستعدًا بعد لإجراء هذا التأقلم المؤلف والحاسم في هذا التوقيت. كان يبحث عن سبلٍ بديلة، ولم يكن وحده في هذا الشأن.

جرت في الأغلب مشاورات مع زملائه حول قضية وظيفة المستقبل. ولكن اختلفت ظروف كل واحد منهم، حتى مع الاهتمام المشترك بالفلسفة والأدب. كان الأول على الفصل ولسنوات عديدة - "إميل أوتيتس" - شخصًا تغلبه مشاعره، ولم يكن كافكا له تقديرًا كبيرًا، كان من عائلة ميسورة الحال، وسمحت ظروفه بدراسة الفلسفة (قبل لاحقًا بالتعميد، وصار أستاذًا جامعيًا). قرر "جيبيان" دراسة الحقوق، وكذلك "برشيبرام"، معتمدًا على الدعم العلمي المتخصص من أخيه الأكبر، الذي حصل لتوه على درجة الدكتوراه. أما "بولاك"، و"برجمان"، وكافكا فلم يجدوا لدى أسرهم الدعم المادي والعلمي، الذي من شأنه ضمان اختيار حر لوظيفة المستقبل. لم يشعر أحدهم برغبة في توظيف موهبته اللغوية لصالح التلاعبات اللفظية للمحاماة. فضلوا في هذه الحالة -بما أنهم مضطرون لممارسة أي وظيفة- اختيار أحد العلوم الصاعدة، ليقدموا شيئًا مفيدًا، دون الخضوع لرغبات بيروقراطية متحجرة أو زبائن متعنتين. لا نعرف من صاحب الفكرة، ولكن جاء القرار الحاسم بعد الحصول على شهادة "الماتورا" بوقت وجيز: قرر الثلاثة البدء في دراسة علوم الكيمياء معا. تجمع الثلاثة أمام معهد الكيمياء الألماني الكائن في زقاق "كرانكنهاوس جاسه" رقم ٣ يوم الأول من أكتوبر عام ١٩٠١،

صادف اليوم الذي حصل فيه كافكا على حق المواطنة في براغ. كان البروفسور "جيدو جولدشميت" في انتظارهم.

كان عنوانًا شهيرًا، إذ حصل هذا اليهودي المعتنق للمسيحية على جائزة للعلماء النمساويين "جائزة لين"، ويعد العمل تحت إشرافه دفعة مستقبلية هامة. ولكن اتضح أن تفكير الشبان الثلاثة قد اتسم بالسطحية. صحيح أنهم تعرفوا على شكل المعامل الكيميائية الحديثة خلال رحلتهم المدرسية إلى معرض المستحضرات الطبية قبلها بخمس سنوات، كما كان الدعم العلمي متاحًا بشكل أساسي، إذ تقدم المبتدئون شخصيًا إلى رئيس المعهد ليوافق على دخولهم. ولكن لم يفهموا أن الكيمياء ليست للحفظ فقط -كما تعودوا- بل للممارسة. "التدريبات الكيميائية"، أي خمس عشرة ساعة من الوقوف في المعمل، والتعامل مع أنابيب الاختبار، والتدريب على روتينيات تقنية، لا يعرفها أي منهم بشكل مفصل، فضلًا عن ساعتين من "التدريب المتنوع" في الفيزياء التجريبية. كافكا، الذي قدم نفسه في "نوردرناي" بوصفه "طالبًا للكيمياء"[٢]، كان أول المستسلمين: حول بعد ثلاثة أسابيع إلى كلية الحقوق، وقرر "بولاك" دراسة مادته المفضلة تاريخ الفن. تحمل "برجمان" فصلين دراسيين في المعمل، وحصل على أفضل الدرجات، ولكنه لحق بمن سبقه وتحول إلى دراسة الفلسفة. كان دومًا محدودًا في فرص اختياره، لأنه معفى بحكم حالته المادية من المصروفات، وعليه في المقابل تقديم أسباب لقراراته.

كانت تجربة جديدة على كافكا، ولها أهمية أكبر من سياقها: أول تجربة فشل حقيقية، وليست مفترضة، وكان عليه التعامل معها والدفاع عنها في مواجهة نظرات أفراد عائلته. ما كاد أن ينال حرية الاختيار،

ليجد نفسه مجددًا تحت ضغوط متجددة من أجل التكيف مع الواقع: إن فشل في تقديم فكرة مبتكرة وواقعية عن مستقبله الوظيفي، فسيصعب رفض النصائح الحسنة النوايا التي يقدمها له المحامون في العائلة. ظل كافكا ينتظر هذه الفكرة، التي لم تحضره، فقرر إنهاء هذه المناقشات المزعجة، ولو بالتحويل الشكلي إلى كلية الحقوق.

كتب كافكا إلى أبيه لاحقًا أن حرية اختيار مستقبله الوظيفي كانت حرية ظاهرية، لم يتمكن من الاستمتاع بها، نظرًا للضغوط العائلية وضعف شعوره بقيمة ذاته. كانت هذه حقيقة: لم يكن للشاب -صاحب الثمانية عشر عامًا- أي تصور واضح للشكل الاجتماعي لمستقبله الوظيفي، لم يتخيل أن المجتمع لديه فرصة عمل مفيدة له، يكون لها دور بخلاف الحفاظ على الوضع الاجتماعي. لم يتخلص ولسنوات من قناعته أنه لا توجد وظيفة مناسبة له.[٣]

ولكن لم يكن هذا الضعف مستشريًا، كما اعتقد كافكا لاحقًا في تقييمه. كان الطالب الشاب يفرق بدقة بين ما يثير اهتمامه ومالا يثير اهتمامه. لم يكن على استعداد لإخضاع طاقته وحبه للمعرفة لسلطة المتطلبات العملية للحياة الوظيفية. لو أن والديه أخذا وقتًا أكبر في الشهور التالية لمتابعة تطوره، وكانت لديهما المعرفة المطلوبة، لاكتشفا أنه كان يحضر المحاضرات الإجبارية في كلية الحقوق، في حين أنه رافق باهتمام صديقه "أوسكار بولاك"، لسماع محاضرات عن "تاريخ الفن الألماني" أو "تاريخ المعمار". كما تعرف كافكا على أكثر الشخصيات تفردًا في جامعة براغ الألمانية، الفيلسوف والأديب "كريستيان فون إرنفيلز"، الذي شارك في تأسيس النظرية الجشطالتية، حضر محاضراته التي كانت تمتد لأربع ساعات عن "الفلسفة العملية"، إذ كانت

المحاضرات في الفلسفة ملزمة للحقوقيين، ولم يحزن كافكا لذلك بالتأكيد.

المناقشات العائلية التي دارت حول البداية الدراسية المضطربة لكافكا لم تترك أثرًا، ولكنه شعر بمقاومة بالتأكيد، خاصة حينما أعلن بعد مرور فصل دراسي واحد عن ضجره من تاريخ القانون الروماني. كانت أولى محاولاته الحاسمة للخلاص، وترك السبل الممهدة ليقرر مصيره بنفسه، ولم تكن محاولة محكومًا عليها بالفشل التام، إذ كان لنموذج "بولاك" القوي وتشجيعه له دور حاسم. تنوع موضوعات محاضرات كلية الآداب، التي زارها كافكا في الفصل الدراسي الصيفي لعام ١٩٠٢ يؤكد على ذلك: محاضرات في تاريخ الفن، وتاريخ الأدب، وعلم النفس، والتدريبات النحوية والأسلوبية، فضلًا عن محاضرة حول "جماليات الدراما الموسيقية"، التي زارها كافكا –ليس لاهتمامه بالموضوع ربما– ولكن ليشاهد "إرينفيلز" اللطيف والمسلي في أثناء التدريس. استغرقت مُجملًا لمحاضرات التي زارها في هذا الفصل الدراسي نحو تسع وعشرين ساعة – إنه عبء يوازي في حجمه المجهود الذي بذل في المرحلة الثانوية، ليثبت للجميع أنه جاد فيما يفعل.[٤]

ولكن تراجع هذا الحماس سريعًا، وكان لذلك أسباب مقنعة، ولكن لم يفهمها والداه. كان له اهتمام –ليس محصورًا– ولكنه متزايد بالأدب، ولم يتخلَّ عن فكرة أن وظيفة المستقبل يجب أن يكون لها علاقة بهذا الاهتمام. ولكن اصطدم حلمه بواقع الجامعة الأليم، لأن ما كان يطلق عليه علم الأدب هنا بدا له بائسًا وبلا أي إلهام، مما جعله يفكر في الهروب مجددًا بعد مرور شهور قليلة.

تحمل شخص يدعى "أوجست زاور" المسؤولية الأكبر عن هذه الدوامة: أستاذ جامعي ذو سلطة طاغية، تحكم في الدراسات الجرمانية في براغ، وكان له تأثير على السياسة التعليمية ممتد إلى خارج حدود منطقة بوهيميا. كان "زاور" معروفًا بوصفه المؤسس لمشاريع إصدار أعمال أدبية كبيرة (مثل أعمال "جريلبارسر" و"شتيفتر")، وصاحب فكرة ورئيس تحرير مجلات علمية ("العمل الألماني"، "أويفوريون")، وأخيرًا -وليس آخرًا- زوج الشاعرة البراغية الشابة "هيدا زاور" (والتي كان والدها "ألويز ريزاخ"، متخصصًا في الدراسات الكلاسيكية، وأشرف على امتحان "الماتورا" الذي اجتازه كافكا". ترجع شهرة "زاور" في الأوساط البرجوازية الألمانية في براغ إلى "معركته" التي خاضها لحماية "الكيان الألماني" من التجاوزات السلافية. كان يتعامل مع تاريخ الأدب بوصفه جزءاً من علم الشعوب، وكأن النصوص الأدبية تعكس طبيعة "الفصيل" الألماني فقط، وصفات المناطق التي يسكنونها – كان هذا دومًا السياق الذي استدعاه للتأكيد على استقلالية الأدب النمساوي. هذا ما سمعه كافكا أيضًا في محاضرات "زاور" عن "تاريخ الأدب الألماني"، وسريعًا ما شعر بالنفور من هذا التأكيد المستمر والمتطاول على إنجازات الثقافة الألمانية، لدرجة أنه قرر الذهاب إلى جامعة أخرى، أو التخلي عن الدراسات الجرمانية تمامًا. كتب عنها إلى "أوسكار بولاك": "فلتذهب إلى الجحيم."، وقدم تبريرًا لصبه هذه اللعنات اللاذعة على البروفسور "زاور"، الذي -"رحمه الله"- قد "تجاوزه فرانز كافكا"، (ولكن ليست هذه اللعنات موثقة للأسف).[٥]

أدرك أنه لن يتعلم كثيرًا عن الأدب على أيدي هؤلاء الموظفين في خدمة مدرسة القومية الألمانية، ولكن ظل كافكا حائرًا أمام قضية

العواقب المترتبة على ذلك. كان "باول كيش" – أحد الإخوة الأربعة "للصحفي الرحالة" "هوجو أرفين كيش" – هو الوحيد من فصله الذي تجرأ واختار الأدب بوصفه تخصصه الأساسي. ظل كافكا على اتصال بصديقه "باول"، الذي بدت عليه اهتمامات أدبية أيضًا، تطورت إلى صداقة لها طابع صبياني، وحينما قرر "باول كيش" بعد مرور فصلين دراسين استكمال دراسته في ميونيخ، كان كافكا على استعداد لمرافقته. ولكن تعددت أصوات الناصحين باسم الحكمة في صيف هذا العام، ١٩٠٢، إذ تعرف والداه في أثناء عطلة صيفية قصيرة في "ليبوخ" على نهر "إلبة" إلى طبيب أرياف من "تريش"، وقضيا عنده بضعة أيام. كما استعان كافكا بخاله ألفريد لوفي، الذي جاء في زيارة للعائلة، رئيس السكك الحديدية في مدريد وصاحب الخبرات الدولية، الذي توجه إليه "بطلب عجيب، بل أيضًا سؤال عن إمكانية المساعدة، وقيادتي إلى سبيل لبداية جديدة تمامًا".[٦]

لم يتمكن لوفي من تحقيق طلبه في هذه المرحلة بعد، ولكن ليس من الصعب التكهن بأن رجل الأعمال العملي لم ينصحه بالاستمرار في الدراسات الجرمانية، ولا بترك منزل الوالدين قبل التوقيت المناسب لذلك. لم يجد أي مساندة لأي حلول جذرية من "أوسكار بولاك" أيضًا، الذي فضل مبدئيًا البقاء في براغ، ولم يحسم بذلك أموره إلا في اللحظات الأخيرة. طلب كافكا في يوم ١٣ أكتوبر جوازًا للسفر إلى ميونيخ، وصدر بعد مرور أربعة أيام. ولكن غادر القطار من دون كافكا، لأنه عاد إلى المدرجات الخشنة لقاعات المحاضرات. حملت دفاتره عناوينَ مختلفة: قانون الإلزام، والقانون الخاص الألماني، وقانون الكنيسة، والقانون الدولي. فاجأ الجميع وعاد إلى المكان المتوقع منه أن يجلس فيه.

تعد جامعة براغ –الأقدم في وسط أوروبا– حالة سياسية وتعليمية فريدة من نوعها؛ لأنها تكونت منذ عشرين عامًا وقتها من مؤسستين مستقلتين قانونًا، تعملان معًا على مساحة ضيقة: الجامعة الألمانية شارل فرديناند، والجامعة البوهيمية شارل فرديناند، لم يكن هناك بديل لهذا الانقسام، إذ أصر التشيكيون على حقهم المكفول دستوريًا بالمساواة في استخدام لغتهم في التعليم، بينما زادت مخاوف الجانب الألماني من أن تزايد عدد الطلاب التشيك سيؤدي إلى تسليم جامعة شارل بالكامل إليهم. كانت المصيبة الأقل حجمًا هي مساعدة التشيك على أن يكون لهم جامعة خاصة بهم، ومقر ثقافي قومي جديد، بعد تشييد المسرح القومي الجديد في شكل مبهر.

تحدثت الصحافة عن "انقسام"، في حين أن الجانب الألماني لم يفكر في التنازل طواعية عن أي موارد، بل كان على استعداد للموافقة على إنشاء جامعة براغية ثانية، على أن تسعى هذه الجامعة إلى العثور على موارد أخرى.[٧] كانت الحجة المذكورة أن معاهد العلوم الطبيعية بتجهيزاتها المكثفة لا يمكن تقسيمها، فضلًا عن استحالة تقسيم الجهاز الإداري، واللجوء إلى مضاعفة عدده. كما زاد الاحتياج إلى القاعات وغرف الموظفين، والتي لم تكن متاحة بالقدر المطلوب في منطقة البلدة القديمة. لم يبقَ في النهاية خيار سوى القبول ـوعلى مضض– بالاستخدام المشترك لأهم المباني: مبنى "كارولينوم"، بوصفه المبنى التاريخي الأصلي، ومبنى "كليميتينوم"، الذي اشتمل دوره الثاني على المكتبة. حدث في أثناء سنوات دراسة كافكا أن الخطوط الفاصلة كانت تمر بمنطقة الدرج في المباني. لم تتحسن العلاقات المتوترة في هذه الظروف؛ لأن التقارب الحتمي المتزايد "مع الآخر" كان من شأنه تصعيد رغبة واضحة في إقامة الحدود. توصلوا في مبنى "كليمينتينوم" إلى حل

طريف، ألا وهو دخول الطلاب الألمان والتشيك من بوابات مختلفة: مجموعة من ناحية زقاق "أيزن جاسه"، والأخرى من منطقة "أوبست ماركت". تناوب الجانبان في استخدام قاعة الاحتفالات بحسب الأرقام الفردية والزوجية، وتم تطبيق النظام نفسه في استخدام المكتبة الجامعية.

وصل عدد الطلاب في الجامعة التشيكية مع بداية القرن العشرين إلى ٣١٠٠ طالب، أما الجامعة الألمانية فوصل طلابها إلى ١٣٠٠ طالب، وكان من المفترض بقاء هذه النسبة على وضعها مع بقاء حالة الانقسام. ظل المستوى العلمي للكليات الألمانية أفضل حالًا، إذ جرى تعيين الأساتذة في الوظائف الشاغرة من جميع البلدان الناطقة باللغة الألمانية، ومثل ذلك ضرورة؛ لأن كثيرًا ما كان الأساتذة الألمان يغادرون المدينة بعد وقت وجيز؛ لعدم شعورهم بالارتياح في هذه العزلة اللغوية. أما النخبة المحدودة لمجموعة التشيك العلمية فأخلصوا لعاصمتهم، ولكنهم ظلوا في مكانة أكاديمية أقل على المستوى الدولي. زاد على ذلك نزعة القوميات الناشئة إلى رؤية الآخر من خلال الذات: وهي رؤية محدودة، كانت سريعًا ما تنقلب فكرًا إقليميًا ضيقًا، ظهر عند التشيك أكثر من الألمان. من كان يدرس الجرمانيات في الجامعة التشيكية مثلًا، تعرف على نقاط التلاقي بين الأدب الألماني والأدب التشيكي، أما دراسة الموضوع نفسه لدى البروفسور "زاور" بحوله إلى جزء صغير من البحث الشامل في "الحضارة".[8] كانت كثرة المواد التعليمية الألمانية مؤشرًا للتفوق، ولم تقدر الكليات التشيكية على المنافسة في هذا السياق، حتى بعد مرور عدة عقود. لم يصدر كتاب عن القانون الخاص الروماني باللغة التشيكية إلا في عام ١٩٠١، وكتاب تعليمي في قانون العقوبات إلا في عام ١٩١٢. لم يربط في هذا التوقيت شيء بين الجامعتين سوى الاسم ذي الرمزية العظيمة، بعد إعلان قيام الجمهورية

التشيكوسلوفاكية تمزق هذا الرابط، ولم يسمح إلا للجامعة التشيكية بحمل اسم مؤسسها "شارل الرابع".[٩]

عرف كافكا لحظة دخوله لأول مرة في أكتوبر ١٩٠١ قاعات المحاضرات الكثيبة والباردة، أن ما ينتظره هنا ليست مجرد "قائمة من المحاضرات" (كان مصطلحًا جديدًا تمامًا). كانت الملاقات بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب متشعبة وأكثر قربًا مقارنة بالمدرسة الثانوية، كما أن الحياة الأكاديمية كانت –مقارنة بالوقت الحاضر- تجري في وسط اجتماعي محدود: كان معروفًا من يزور أي محاضرات، ومن المشاركون في الاتحادات والاحتفالات والمجموعات – يتم تسجيل كل شيء، ولم يكن مجرد السباحة مع التيار بهوية مجهولة هو المطلوب، أو ذا فائدة في نجاح الحياة الجامعية.

ليست الحياة الطلابية وقتًا قضاه على هامش بداية الحياة العملية، بل كانت تمثل شكلًا اجتماعيًا، له قواعد ونظم تحكمه، الانسحاب منها كان سيترتب عليه انعزال كافكا الكامل. اتحادات الطلاب العديدة كانت جزءاً من حياة طلاب الجامعة الباحثين عن حالة جدال. عثرت هذه الاتحادات على هويتها الجمعية في العديد من الطقوس الصاخبة المقامة علنًا، كان من أهم هذه الطقوس التجول في تجمعات كبيرة أيام الأحد بزي موحد، وهو ما كان يطلق عليه "النزهة". كما بذلوا قصارى جهدهم من أجل الحفاظ على تجانسهم الوطني والديني. كان لدى كافكا فكرة عن مجريات الأمور في مجموعات الرجال هذه من خلال "مجموعات التلاميذ" السرية، ولم تكن هذه التجارب جذابة بالقدر الذي يجعله يرغب في الانضمام إلى هذه الاتحادات الطلابية –

حتى إن كانت يهودية، كانوا يطلقون فيها الأغاني، ويتبارزون فيها، ويتناولون فيها الجعة، كله بحسب "الأوامر الصادرة".

ما أثار اهتمام كافكا بشكل أكبر منظمة أكثر شمولية، كانت معنية بمصالح الطلاب، ودعم المعرفة العامة، والشؤون الثقافية، أطلق عليها اسم "قاعة القراءة وإلقاء الخطب للطلاب الألمان ببراغ"، أو الاسم المختصر "القاعة". كانت تجمعًا لا يرى فرقًا بين الانتماء إلى الهيئة نفسها أو إلى "الاتحادات الطلابية" الحرة، الفيصل هو الإسهام الفردي. كان لاتحاد القاعة توجه قومي ألماني بالطبع، واعتبر نفسه قلعة ثقافية في مواجهة التأثير المتزايد للتشيك. ولكنه كان طابعًا ألمانيًا متحررًا، تحكمه مبادئ عام ١٨٤٨، ولا يمكن جمعه مع خيالات معادية للسامية أو عنصرية: حملت شعار "الحرية الألمانية"، وكان شعارًا مناسبًا لليهود المثقفين الواعين بالتقاليد، الذين كانوا يعيشون في محيط البلدة القديمة. لم ينضم الطلاب ذوو النزعة الألمانية الشوفينية إلى اتحاد القاعة، بل نظموا مجموعتهم في اتحاد آخر، أطلق على نفسه اسم "جيرمانيا"، يعد اتحادًا موازيًا كان قد انفصل قبلها بعشر سنوات عن اتحاد القاعة، ووافق على وجه السرعة بإضافة "فقرة تخص الجنس الآري"، مما أدى إلى إقصاء اليهود من العضوية. أما الطلاب القادمون من المناطق الناطقة باللغة الألمانية في شمال بوهيميا ومورافيا والسوديت، فشعروا بانسجام في هذا الاتحاد.

أمن كافكا من هؤلاء في اتحاد القاعة، ولم يتردد للحظة في الانضمام إليه. تقدم بعد التسجيل في الجامعة مباشرة إلى "لجنة الاتحاد"، التي كان مقرها في شارع "فرديناند شتراسه" ("نارودني ترشيدا" باللغة التشيكية)، وقع على الاستمارة ودفع أربع كرونات

رسومًا للتسجيل. عُلِّقَ اسمه على سبورة سوداء تخص الاتحاد لمدة أسبوع للتأكد من صحة انتمائه الوطني. وُجِّهَت إليه بعد ذلك في منتصف نوفمبر دعوة للقاء داخلي، وكان المطلوب الوقوف مع باقي الأعضاء الجدد ببزة سوداء أمام لوحة الاتحاد ليؤكد بمصافحة وكلمة شرف على "ولائه الألماني" – كان طقسًا منظمًا في تفاصيله بدقة في لائحة الاتحاد. ارتدى بعد ذلك –وكما هو متبع في الاتحادات الطلابية– شريطًا على صدره، يحمل الألوان الثلاثة الأسود والأحمر والذهبي، وتاريخ عام ١٨٤٨. ارتدى كافكا هذا الشريط أكثر من مرة في مناسبات احتفالية، وفي الشارع أيضًا. تتذكر المربية أنه دخل عليها ذات مرة في المطبخ بشريط الوطنية الألمانية ليودعها "بتحية صارمة".[١٠]

لم يتقبل كافكا الطابع الأيديولوجي لدوره الجديد فحسب، بل من الوارد أيضًا أنه مال إلى استعراضه العسكري – لقد نشأ في عالم اعتاد ظواهر مثل البزات الرسمية، والأعلام، ورمزية الألوان. كانت تتمتع ببراءة ما، وتأثيرها الدعائي المثير كان له أهمية لا بأس بها. ولكن لم يركز كافكا على هذه اللعبة، مثل صديقه "باول كيش" مثلًا، الذي كان يتبختر بعد اجتيازه امتحانات شهادة "الأبيتور" بالزي الرسمي لاتحادات الطلاب. تعزيز هوية المجموعة وتنشيطها من خلال إقصاء الآخرين والتقليل من شأنهم، كانت فكرة غريبة عليه. كانت الندية تثير ملل كافكا، اعتبرها بلاء، ولم يعرف السعادة بها على الإطلاق.

صحيح أن اللقاء بشخصيات مختلفة تمامًا في اتحاد "القاعة" الليبرالي أمر وارد، خاصة المجموعة القيادية، مجلس الإدارة الذي تكون من طلاب من النخبة. كان همهم الأكبر هو إظهار هويتهم الألمانية، كانوا بحاجة إلى أصوات أعضاء الاتحاد، ودعم

الأساتذة الألمان ذوي النزعة الوطنية الألمانية، وكان بعضهم أعضاء شرفيين في اتحاد القاعة، ولم يرغبوا لذلك في ظهورهم بوصفهم أشخاصًا تقبل بأنصاف حلول. من الطريف أن يظهر قريب لكافكا -ابن عمه الأكبر- بوصفه متحدثًا بارعًا ومخططًا متحمسًا: إنه طالب الحقوق الذي يكبره بعامين، برونو كافكا، الذي حصل على درجة الدكتوراه في عام ١٩٠٤ (خرج في العام نفسه من الطائفة اليهودية)، وتقلد مناصبَ قيادية. كان فرانز يكن لحيوية هذا الشخص الناجح -من الفرع الوجيه لعائلة كافكا- مشاعر الإعجاب عن بعد، في حين أن برونو لم يعر القادم الجديد الهادئ أي اهتمام.[١١]

لم يكن للأعضاء الخمسمائة في اتحاد "القاعة" علاقة بالقيادات إلا في المناسبات الرسمية، أما الحياة الاجتماعية فكانت تجري أحداثها في "أقسام" تجمع فيها عشرات الطلاب أصحاب الاهتمامات المشتركة، حيث كانت المعاملات أقل رسمية، حتى إن ظلوا يستخدمون اللغة الرسمية الملزمة. انضم كافكا إلى "قسم الأدب والفنون". على الرغم من إتاحة المشاركة في أكثر من قسم، إلا أنه غالبًا لم يشرف "قسم الحقوق وعلوم الدول" (حيث كان ابن عمه يقود المجموعة) بزيارة واحدة، ينطبق ذلك أيضًا على أقسام الهندسة والطب ولعبة الشطرنج والمبارزة.

التقى طلاب الأقسام المختلفة في مكتبة اتحاد القاعة الغنية بالكتب والمنظمة بعناية، إذ كانت تتلقى التبرعات من جميع أنحاء المنطقة الناطقة باللغة الألمانية. على عكس مكتبة الجامعة قدمت أحدث الإصدارات الأدبية، إلى جانب ستمائة جريدة ومجلة، وشرائح الخبز المدهونة بالزبدة الغنية، التي كان يعدها أمين المكتبة. من المؤكد أن هذا المخزون الثقافي المتاح مثل لكافكا أهمية كبرى؛ لأن ما يملكه في المنزل كان بسيطًا، فضلًا

عن أن الإصدارات الأدبية الجديدة لم تكن في متناول يده، بحكم اعتماده على مصروفه من والديه.[12] "زولا"، و"شنيتسلر"، و"فيلبراندت"، و"تولستوي"، و"زودرمان"، و"هاوبتمان"، و"إيبسن": إنها الأسماء التي احتلت قمة قائمة أكثر الكتب "الأدبية" استعارة من مكتبة القاعة، ومن المؤكد أن هؤلاء الأدباء هم مادة أحاديث الأعضاء الخمسين في القسم الأدبي. وجد كافكا هنا فرصة لفتح أفقه الأدبي، والانشغال المكثف بأحدث التوجهات، بعيدًا عن مقترحات التربية الوطنية لمجلة حارس الفن. كما تعرف إلى طلاب من تخصصات مختلفة، ما كان ليلتقي بهم في قاعات المحاضرات -بعضهم من كلية الهندسة- وتجمعوا ليهتموا بتنمية معارفهم.

نظمت أقسام اتحاد "القاعة" نفسها كأنها اتحادات قائمة بذاتها: كان هناك رئيس ونائب، وأمين خزينة، وشخص مسؤول عن كتابة محاضر الاجتماعات الرسمية. كما تولى شخص في كل فصل دراسي مهمة التواصل مع الاتحاد، كانت مهمته "نقل أخبار الأدب والفنون"، وأخيرًا شخص مسؤول عن الشؤون الإعلامية، مهمته الإعلان عن الفعاليات الرسمية في الجرائد الرسمية في الوقت المناسب.

نظم قسم الأدب والفنون العديد من هذه المحاضرات والقراءات في أثناء الفصل الدراسي، دعا إلى الحضور ضيوفًا ألمانًا وسيدات، أعضاء القسم أنفسهم كانوا يلقون هذه المحاضرات (مما فسر اسم "محاضرات اتحاد القاعة"). وثقت المحاضر المناقشات التي تلت هذه المحاضرات في شكل مختصر، ولكنها لا تذكر تعليقات لكافكا.[13] يبدو أن تحفظه قد أثار بعض التعجب في هذه الدوائر أيضًا، إذ كان هناك اقتراح مازح بإنشاء قسم فرعي تحت مسمى "الحياة الخفية".[14] ولكنه من المؤكد أنه

خرج أيضًا عن دور المراقب المعتاد، إذ وقع عليه الاختيار ليكون المسؤول الإعلامي عن الفنون في الفصل الدراسي الخامس، خلفًا لصديقه "أوسكار بولاك"؛ الذي غادر براغ وقتها، ثم المسؤول الإعلامي عن الأدب في الفصل الدراسي السادس.

لا نعرف شيئًا عن كيفية ممارسته لهذه المهام، ولكن تعكس هذه التوليفة غير المتوقعة اهتماماته بشكل دقيق. اهتم كافكا في مراحل دراسته الأولى اهتمامًا مكثفًا بالفنون التعبيرية، ولم يرَ اللغة الأدبية بوصفها مجال تحقق هويته الأوحد، بل ظن نفسه موهوبًا في الرسم، وكان يملأ هوامش دفاتر المحاضرات برسوماته. كتب لاحقًا بحنين ساخر أنه كان "رسامًا عظيمًا" في يوم من الأيام، وأن حصص الرسم المدرسية قد أفسدت موهبته، تلك الموهبة التي منحته لفترات شعورًا بالرضا الكامل.[١٥]

ليس غريبًا أن يكون موضوع المحاضرة الوحيدة التي كاد كافكا يلقيها في سنوات دراسته عن موضوع فني معاصر، وليس عن موضوع أدبي. لقد تأثر، مثل سائر المواطنين المثقفين من جيله، بالرسومات اليابانية والنقوشات الخشبية الملونة، التي قام الخطاط وصاحب الحرفة الفنية "إميل أورليك" -اليهودي القادم من براغ- بإبداعها أو جلبها من اليابان، وعرضها بشكل أثار الانتباه في معارض ومحاضرات مصحوبة بصور ضوئية.[١٦] أثارت عروض "أورليك" حماس أنصار مصلحي الحياة: بعد أن كانت الرؤية السائدة أن "النزعة اليابانية" مجرد بدعة فرنسية، بدا أن منهج مجلة حارس الفن، الذي سعى إلى إصباغ الحياة اليومية بصبغة جمالية، قد تحقق في اليابان على نحو يحتذى به.

لدينا مؤشرات قوية إلى أن المناقشات التي دارت في "قسم الأدب والفن" حول الأوراق اليابانية قد اتخذت سريعًا توجهًا ناقدًا للحياة المتمدنة. فبعد محاضرة متحمسة ألقاها طالب الحقوق والرسام "ماكس هورب" —صاحب العشرين عامًا— في نوفمبر عام ١٩٠٢ عن "أورليك"، اتخذ "أوسكار بولاك" بعدها بأسبوعين خطوة تالية وقدم الموضوع من منظور إصلاحي. نجد في محضر هذه الجلسة المكتوب بأسلوب غير حرفي: "انطلاقًا من المعرض الياباني للسيد "إميل أورليك" يتحدث السيد "بولاك" عن عجز هذا الزمن عن الحس الجمالي، إذ نرى الجمال فيما هو بعيد عنا، ولكن لا نرى ما هو حولنا في الطبيعة القريبة. يتحدث المحاضر عن عجز الثقافة —الثقافة بوصفها عكس الحضارة— ويظهر مدى تقدم اليابانيين في هذا الشأن." لا يوضح المحاضر مدى مشاركة كافكا في النقاش الذي دار بعدها، ولكننا نجد مع نهاية الجلسة إعلانًا مفاجئًا وعفويًا منه عن محاضرة ينوي إلقاءها ليضيف إلى محاضرة صديقه "بولاك" مناقشة في جوهر الموضوع: عنوان المحاضرة "اليابان ونحن"، ببساطة وطموح في الوقت ذاته.

لم يفِ كافكا بوعده، ولكن يظهر هذا الموقف قدرته على التحمس لقضية ما دامت تلمسه عن قرب، وقدرته على الخروج عن حالة الدفاع الاجتماعية التي كان يعيشها – لدرجة أن سلوكه هذا جاء في حضور سيدة، الفنانة "إيدا فروبند"، التي سيلتقي كافكا بها لاحقًا أكثر من مرة. جاءت لحضور محاضرة "بولاك" بوصفها ضيفة، وكانت لها تعليقات على المحاضرة. ولكن لماذا كل هذه الإثارة؟ كان كافكا يدرك بالطبع أن الأعمال الفنية اليابانية ليست مجرد تعبير عن الحياة، وأن التقنيات الفنية التي تعلمها "أورليك" في اليابان ليست أقل تعقيدًا مما كان يدرس في الأكاديميات الأوروبية. "أوتامارو"، و"هيروشيجة"،

و"هوكوساي"، لم يكن هؤلاء مجرد "رسامين للطبيعة"، مثلما ننعت المطربين المبتدئين بأنهم "مطربو الطبيعة". كلفتهم أعمالهم عناءً كبيرًا، ولكن تتميز هذه الأعمال ببساطة آسرة، حيث يبدو الجانب التقني للفن مُلغىً تمامًا. تكفيهم حركة وحيدة لينفذوا إلى جوهر شخص أو مشهد في الطبيعة. كما أن للوحاتهم "سطحًا منبسطًا" خاصًا يوحي بتميز من الدرجة الثانية، تميز الاختزال الأقصى. قرأ كافكا قبلها بعدة أيام في تقرير حرره "أورليك": "قدوتهم في تصوير ما هو جوهري، كلما كانت الأدوات بسيطة، زاد تركيز الفنان، وتقدير أعماله. يستغرق التفكير وقتًا طويلًا، والرسم وقتًا قصيرًا، إذ تتكون الصور -الصور الأشهر على الإطلاق- من بضعة خطوط قليلة بالفرشاة."[١٧] يمكننا تقييم الرسومات التي خلفها كافكا، خاصة رسوماته بشخصياته الشهيرة المتكونة من خطوط قليلة، بوصفها محاولات ناجحة لاتباع نزعة الاكتفاء بالحد الأدنى، في شكل خاص به. ربما عرف كافكا في مواجهة الفن الياباني لأول مرة الفكرة المحررة أن اختيار الأشكال الفنية البسيطة لا يعني بالضرورة الانحدار إلى "الفن الشعبي". كانت هذه خطوة هامة تجاوزت الطابع التعليمي المتحذلق لمجلة حارس الفن - وإن كان كافكا لم يصل بعد لتصور حول كيفية نقل هذه الأفكار إلى عالم اللغة الأدبية.

لم يكن ذلك هو الدافع الوحيد المؤثر الذي قدمه قسم الأدب لكافكا في خريف عام ١٩٠٢. ظهرت في الجلسة التأسيسية -التي كانت تُعقد مع بداية الفصل الدراسي- وجوه جديدة: أول دفعة بعد كافكا، خريجو مدارس في بوهيميا ومورافيا، من بينهم البعض من هم من المدرسة الثانوية في منطقة البلدة القديمة، ربما كان يتذكرهم قليلًا. طالب حقوق ذكي للغاية، اسمه "فيليكس فيلتش"، من المحتمل أنه حضر مع كافكا حصص الدين المشتركة بين فرقتين دراسيتين، أو ربما قد لمحه في

المعبد اليهودي. كان "فيلتش" هذا صديقًا لشخص جديد أيضًا، شاب لبق ولافت للأنظار: اسمه ماكس برود، في الثامنة عشرة من عمره، بدا مثل قزم بحكم جسده الضئيل وكتفه غريبة الشكل بعض الشيء، ما عزز من غرابة هذا الشخص ارتداؤه لنظارة مثبتة فوق أنفه، جعلته يبدو مثل علّامة، وهو ما لم يتسق مع ملامحه الشابة الناعمة.

لم تثقل كاهل برود فيما يبدو أي مشاعر نقص، كان يشعر بالراحة وسط بعض الأصدقاء، الذين ألفهم من المدرسة الثانوية "شتيفان جيمنازيوم"، والذين حضروا معه إلى الجامعة. شارك بحماس في مناقشات أول اجتماع لقسم الأدب، في توقيت لم يكن قد حلف اليمين بالإخلاص الألماني بعد. تبرع للقيام بمهمة التغطية الإعلامية للأحداث الفنية وكتابة المحضر، كما أعلن عن إلقاء محاضرة، يبدو أنها كانت جاهزة لديه، إذ أعرب عن استعداده لإلقائها خلال أربعة أيام. دارت أقاويل أنه لم يكتفِ بذلك فقط، بل شارك أيضًا في قسم الموسيقى، حيث تولى مهمة "متابعة الشؤون المالية"، وتمت الموافقة على مشاركته في حفلة موسيقية أكاديمية رسمية. كان برود الصغير يدرس الحقوق. هل أساء تقدير حجم وقت الفراغ المتاح مع متطلبات الدراسة؟

كان معتادًا أن يلقي الطلاب محاضرات عن أعمال أدبية أو مسرحية أو معرض فني، حتى الانطباعات التي خلفتها رحلة إلى إيطاليا كانت سببًا كافيًا للوقوف على منبر المحاضرة. أما الموضوعات التي أعلن عنها "بولاك" أو كافكا، فكانت نادرة، لأنها تطلبت ثقة زائدة في النفس وحماسًا عاليًا. لم تمثل هذه الأمور عائقًا أمام برود. أراد التحدث عما شغله كثيرًا في الأعوام الثلاثة الماضية، إلى جانب المذاكرة وحصص

عزف البيانو التي لا حصر لها: كانت فلسفة "شوبنهاور". قرأ كل كلمة من الإصدار الكامل لأعماله في ستة أجزاء عن دار نشر "ريكلام" مرارًا وتكرارًا، وكأنه نص مقدس، كان يحفظ الكثير منه عن ظهر قلب. قرأ عن شوبنهاور، وقرأ كل الكتاب الذين صنفهم شوبنهاور بوصفهم قادرين على إرضاء القارئ. وهذا ما أراد أن يحاضر عنه: ليس العنصر التاريخي لأعماله أو أي موضوع علمي، بل عن الظاهرة في المجمل، عن "قدر ومستقبل فلسفة شوبنهاور".

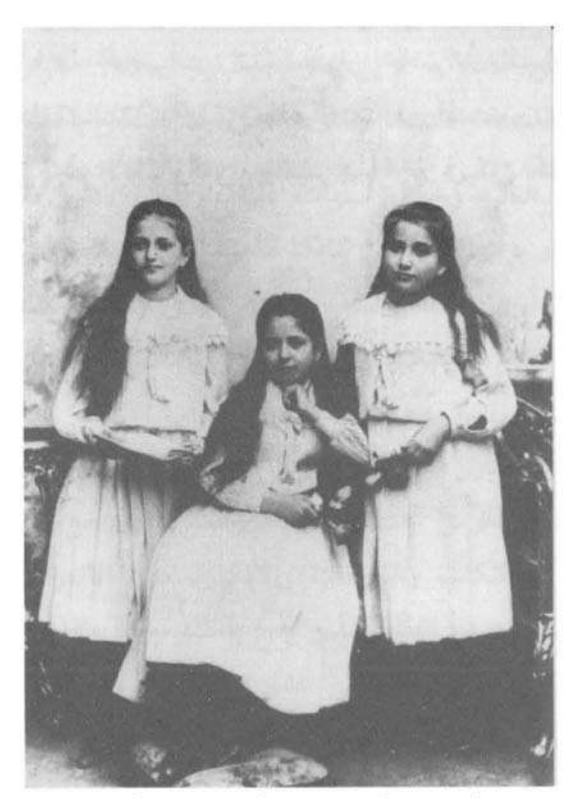
من سوء الحظ أنه لا يوجد توثيق لمساء هذا اليوم، ٢٣ أكتوبر ١٩٠٢، الذي سيظل ذا أهمية لكافكا وبرود على السواء. لا محضر ولا التدوينات الأصلية للمُحاضر أو شاهد عيان مستقل. وجد برود لاحقًا صعوبة في تصنيف الحدث زمنيًا، ولكنه تذكّر أنه هاجم نقد نيتشه لشوبنهاور بشدة. بحسب القناعة القوية لهذا الشاب الحيوي فإن فهم المذهب الحتمي لشوبنهاور سيترتب عليه استحالة رفضه لأسباب موضوعية. فهم نيتشه شوبنهاور من خلال استشهادات، التقليل من شأن من كان معلمه في الماضي له إذًا أسباب أخرى: التنافس، الشعور الزائد بالذات.. أيًا كان. اُتهِمَ نيتشه في كل الأحوال بعدم الصدق، والخيانة، كان نيتشه "محتالًا".[18]

كانت نبرة عنيفة، لم يرغب حتى كافكا الحذر في قبولها صامتًا. لم يمضِ على صيفه الذي قضاه مع نيتشه وعمله زرادشت سوى عامين – هل يريد هذا الشاب إقناعه الآن بأن كتاب القرن هذا من صنع محتال؟ اعترض كافكا وعارض، ولكننا لا نعرف إن شاركه الحاضرون الرأي، كان "بولاك" حاضرًا في الأغلب. ولكن لم يهدأ له بال، وواصل الحديث مع برود بعد انتهاء المحاضرة، إذ خرجا معًا في هذه الليلة

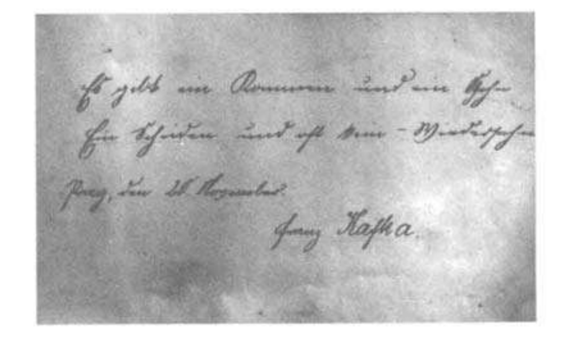
المطرة والباردة، ليوصل كل واحد منهما الآخر إلى منزله، يذهبان إلى شارع "شالِن جاسه"، ثم إلى شارع "سيلتنر جاسه"، مرارًا وتكرارًا. تحدثا عن الفلسفة والأدب، وتشاجرا حول علاقة الفن بالحياة.

للمرة الثانية وخلال سنوات قليلة، للمرة الثانية بعد التقرب إلى "أوسكار بولاك"، يعيش كافكا ظاهرة إنسانية تناقض جميع تجاربه، التي أظلمت أرجاء عالمه النفسي. ما يلتقي به في هذه اللحظات مواهب متعددة، لا تقوم باستهلاك وشل نفسها في تأملات، بل تمارس حياتها بحيوية، بحيوية زائدة، دون التشكك في قدراتها الذاتية، وبرغبة وطاقة تثيران الحيرة. كان من الممكن إذًا التمتع بالموهبة والحس المرهف والثقافة، دون الخرس تحت وطأة هذا الحمل، كان من الممكن الحياة وسط عالم من الكتب واللوحات والأفكار، دون الانعزال عن واقع الآخرين. ظل مصدر الطاقة الذي سمح بذلك مبهمًا وغامضًا، ويؤرق كافكا ذا الأعوام التسعة عشر منذ فترة طويلة. كانت كلمة "الحيوية" هي كلمة العصر، التي وصفت الحالة بدقة، وضعت موهبة كل من بولاك وبرود المتمثلة في حيويتهما باقي الحاضرين في الظل. ولكنها لم تكن وحدها الحاسمة، فالأب تمتع بالحيوية، وكذلك التلميذ الذي رحل إلى أمريكا خوفًا من شهادة الماتورا، والذي توفي الآن. دار السؤال المهم حول كيفية الجمع بين تلك الحيوية والقدرة على التأمل في جسد واحد، دون أن تقضي الواحدة منها على الأخرى. لم يقدر برود على تقديم تفسير لذلك، ولكنه أظهر بسذاجة ساحرة أن ذلك ممكن. كان برود آسرًا، لأنه كان يدفع بنفسه إلى الأمام، متجاوزًا كل التناقضات والتضاربات. نعت للتو أكثر فلاسفة العصر تأثيرًا بأنه محتال، لمجرد أنه تحيز لرأي بأسلوب خاطئ. أعلن برود عن محاضرته التالية، التي ستدور حول انحياز النقد الفلسفي وافتقاده للموضوعية.

لقد صدق برود في وعده، وقف يوم ١١ يناير ١٩٠٣ مرة أخرى على منبر قاعة المحاضرات. اتسم عنوان محاضراته بالبساطة "بعض الأمور المتعلقة بالنقد"، ولكن جاء العديد من المستمعين. هبت رياح التغيير على قسم الأدب والفن، وانتشر هذا الخبر في كل مكان.



أخوات كافكا من اليسار: فالي، وإيلي، وأوتلا



تدوينة في أوتوغراف "هوجو برجمان"، ١٨٩٧

Pag. 11.

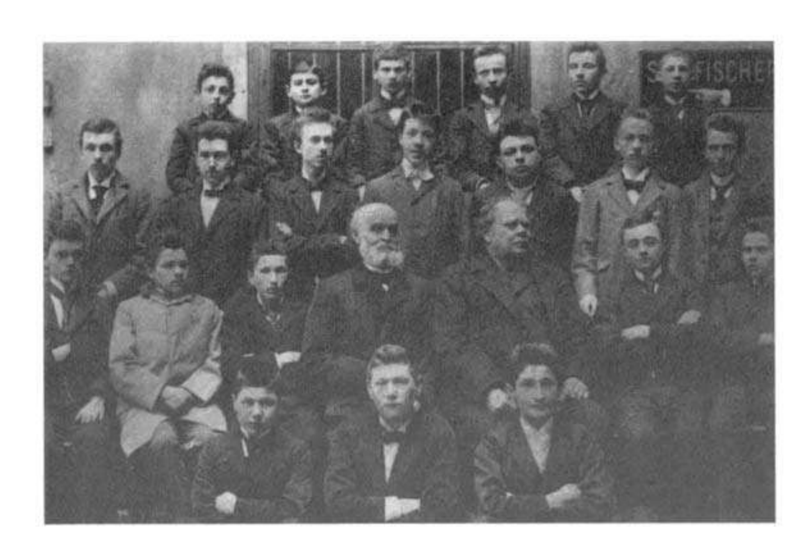
Des Schülers	Schulgeld zahlend oder befreit mit Erlaß	Kategorie des Eintrittes
Familienname: Kafka	I. Sem. zahlend	I
Vorname: Franz	II. Sem. zahlend	
Tag und Jahr der Geburt: 3. Juli 1883	**Stipendium:** Name, Betrag, Verleihung	Auszug aus dem von außen mitgebrachten Zeugnis
Geburtsort: Prag		
Vaterland: Böhmen		
Religionsbekenntnis: mosaisch		
Muttersprache: deutsch		

	des Vaters (der Mutter)	des Vormundes	des verantwortlichen Aufsehers	des Quartiergebers
Name	Hermann			
Stand	Kaufmann		Die Eltern	
Wohnort (Wohnung)	Prag		1, Zeltnergasse 602-3	

	I. Semester	II. Semester	Anmerkungen
Allgemeine Fortgangsclasse:	erste	erste	
Locations-Nummer:	unter — locierten Schülern der —	unter — locierten Schülern der —	
Sittliches Betragen:	befriedigend	befriedigend	
Fleiß:	befriedigend	befriedigend	
Leistungen in den einzelnen Unterrichtsgegenständen:			
Religionslehre:	lobenswert	lobenswert	
Lateinische Sprache:	lobenswert	lobenswert	
Griechische Sprache:	befriedigend	befriedigend	
Deutsche Sprache (als Unterrichtssprache):	lobenswert	lobenswert	
Geographie u. Geschichte:	lobenswert	lobenswert	
Mathematik:	befriedigend	genügend	
Naturgeschichte (Zoologie):	befriedigend	befriedigend	
Physik:	—	—	
Philosophische Propädeutik:	—	—	
	—	—	
	—	—	
Freie Lehrgegenstände: Böhmische Sprache	lobenswert	lobenswert	
Kalligraphie	befriedigend	befriedigend	
	—	—	
	—	—	
	—	—	
Äußere Form der schriftlichen Arbeiten	verständlich	verständlich	Erhielt ein Zeugnis über das I. Sem. ... II. Sem. ...
Zahl der versäumten Lehrstunden	15; davon nicht gerechtfertigt —	13; davon nicht gerechtfertigt —	

Nr. 634. Formular B. [illegible]

شهادة من المدرسة الثانوية في منطقة البلدة القديمة



صورة للفصل، ١٨٩٧/٩٨، (فرانز كافكا في الصف الأخير، التلميذ الثاني من اليسار)



فرانز كافكا وهو طالب "الأبيتور"، ١٩٠١



اوسكار بولاك



إيفالد بريبرام



هوجو هيشت



بأول كيش

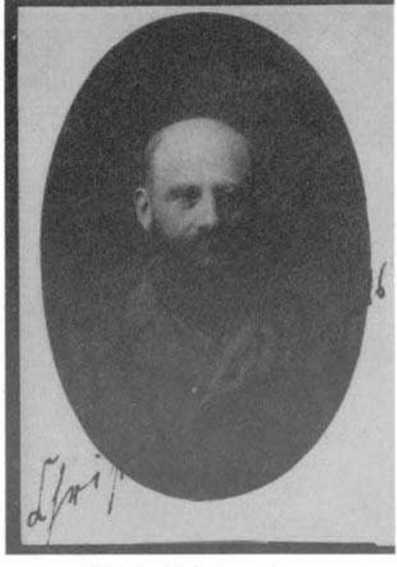
من اليسار: ماكس فانتا، اوتو فانتا، إلزه برجمان (مولودة باسم فانتا)، هوجو برجمان، ويرتا فانتا



ماكس برود، حوالي ١٩٠٢

زقاق "سلتنر جاسه"، منزل "الملوك الثلاثة" (وسط الصورة)، عنوان اسرة كافكا حتى مايو ١٩٠٧

"مدرسة السباحة المدنية" في براغ



كريستيان فون إرنفيلز



برونو كافكا



هانز جروس



هوجو سالوس



باول ليبين



جوستاف مايرينك في براغ

الصديق ماكس

"نعد سرًا لأنفسنا
ولا أريد معرفته."

"جرهارد بولت"

صدرت أول سيرة ذاتية عن فرانز كافكا في عام ١٩٣٧ في براغ، كانت بقلم صديقه ماكس برود وحملت عنوانًا ثانيا هو "ذكريات ومستندات". لم تكن بالفعل سيرة ذاتية قائمة على أبحاث ذاتية في تاريخ السيرة الحياتية وتاريخ الأدب، بل قام برود بتقييم ذكرياته الخاصة، ورسائله ومذكراته، مستندًا إلى بعض الأحاديث مع الأقارب (لم تكن بشكل هادف)، ومدونات غير منشورة لكافكا. أثارت هذه السيرة الذاتية ظاهريًا انطباعًا لافتًا بشرعيتها، لأنها كانت بالشكل نفسه للإصدار الأول والكامل لأعمال كافكا، "النصوص المجمعة" في ستة أعداد، التي كان قد أصدرها برود في سنوات سابقة. كان برود صديق العمر، كان برود هو الناشر، كان برود هو المعلق الشرعي، الذي حق له وضع خط النهاية مبدئيًا بإصدار عدد سابع من تأليفه.

أثار هذا التطلع الاحتكاري، الذي عززه أسلوب برود التعليمي، شعورًا بالانزعاج، حتى لدى القراء، الذين كانوا على استعداد لقبول تفسيراته للأعمال الأدبية. كتب المنشد "لودفيج هارد"، والذي كان صديقًا قريبًا من كافكا، عن أن برود يتصرف في السيرة الذاتية كأنه

وصي: يظهر قلقًا من ترك القارئ مع كافكا وحده.[2] كان رد "فالتر بنيامين" أكثر عنفًا، إذ اعتبر تفسيرات برود الدينية بلا منطق، ودفعه "جيرشوم شوليم" إلى كتابة مقالة نقدية عن السيرة الذاتية. كان هدف نقد "بنيامين" المدمر هو سلوك برود اللاغي لجميع الحدود، وأنه يوحد جميع نصوص كافكا، ويقلل في الوقت ذاته من شأن أي تأويل آخر للنصوص. لم تنشر هذه المقالة النقدية إلا بعد مرور عقود، ولكن في حياة برود. بلغت ذروة تعليقاته في أن صداقة كافكا مع هذا الرجل لا تعد أبسط أسرار حياته.[3]

مثل ذلك استفزازًا يحث على الاعتراض بالطبع، ليس فضل برود في إنقاذ معظم أعمال كافكا من الدمار وأخذها إلى المنفى محل شك. على خلفية هذا الإنجاز –الذي كانت طبيعته أخلاقية أكثر منها موضوعية- بدا استنكار "بنيامين" كأنه إهانة. هل كان يجب على كافكا اختيار أصدقائه بعين أكثر نقدًا؟ أجاب كاتب السيرة الذاتية لكافكا "إرنست بافل" في غضب أن هذه الفكرة لا تخطر إلا على بال مثقف "يقطن عالم الأفكار"، وليس على دراية بقوانين المعايشة الإنسانية: "إنه لم يفهم برود، الذي اتسم بإنسانية صادقة: كان يحب الحياة. شغفه بالحياة يفسر تفاؤله القوي – كانت هذه هي السمة التي افتقدها كافكا في نفسه بشدة."[4]

تبدو مشاعر الضغينة التي يكنها "بافل" تجاه عقلية "بنيامين" ساذجة، تمامًا مثل تصور أن كافكا تمنى لنفسه "التفاؤل القوي". لقد أتاحت أكثر من مناسبة على مدار عشرين عامًا فرصًا لكافكا ليفهم أن "تفكير برود الإيجابي" لم يكن سليمًا تمامًا، وأنه دفع ثمنه بكبت مشاعره، كما أدى به إلى توقعات خاطئة، وقرارات غير صائبة، ومواقف عامة سببت له إحراجًا. عجز كافكا عن الفصل بين

الإنجازات الملموسة لأي شخص وبين نواياه وشخصيته، وعدم رغبته في ذلك أيضًا مثل حقيقة تنطبق على جميع علاقاته الاجتماعية. إن كان أمر جيدًا، فلا يعني هذا بالضرورة أن الأمر الآخر سيئ - لا يختلف الأمر في الحكم على الأطفال، في علم التربية الإصلاحية خاصة، حيث تتمتع النتيجة الملموسة بقيمة أقل من النية الطيبة، والقدرة على التعلم والتحمس. ما كان كافكا ليقتنع بالقول المأثور الساخر بأن "النية الطيبة عكس ما هو طيب بالفعل". كان اهتمام برود المقبل على الحياة شيئًا يحسبه له، بل وكان يطلب منه أيضًا الاعتراف بالنوايا الطيبة للآخرين، حتى إن تصرف هؤلاء بوصفهم خصومًا.

من سمات برود اللافتة للأنظار قدرته على التحمس، ونقل هذه المشاعر إلى العالم من حوله. ما كان يثير حماسه هي أعمال فنية لا تحظى بالتقدير الكافي، ولكنها كانت تتلقى من معجبها البراغي دعمًا بلا حدود - لم يستفد كافكا في العقود التالية وحده من هذا الدعم. "فرانز فيرفل" و"ياروسلاف هاشيك"، و"ليوش يناشيك"، و"كارل نيلزن"، جميعهم نالوا دعم برود الحازم والحاسم، إلى جانب سلسلة من الكتاب والملحنين، لا نعرفهم اليوم. بمجرد وقوع اختيار برود على عمل لشخص آخر، وإعلانه عن "اكتشاف"، لا يكل أو يمل "لإنجاح" هذا العمل، دون المطالبة بأي مقابل. لا يفكر لحظتها في مدى فهم هذا الشخص الثالث لتزكيته، أو في مدى الإحراج الذي قد يسببه للممدوح. لقد مر كافكا بهذه التجربة مرارًا وتكرارًا: نجح برود الشاب في عرض رسومات كافكا على دائرة من الرسامين البراغيين، ليظهر صديقه بوصفه "فنانًا عظيمًا".[٥]

انهال برود برسائل التوصية والمطالبات الملحة على رؤوس مندوبي الحياة الثقافية الذين توصل إليهم، من بينهم أدباء وكتاب مسرح وناشرون وصحفيون، لم يتواصل معهم قبلها ولو بسطر واحد. ترتب على ذلك تشعب مستمر وقوي لمراسلاته، وتوسع في دائرة تأثيره عبر حدود براغ. كانت له قبل عام ١٩١٠ علاقات جيدة بالأوساط الأدبية في برلين وفيينا، وكان برود من وجهة نظر هذه المراكز الثقافية صوت الأقاليم بالنسبة لهم، الذي يشرح لهم الأحداث الجارية في براغ النائمة أحيانًا، والصاخبة بثنائيتها القومية في أحيان أخرى. ليس بوصفه وصيًا على تركة كافكا، بل قبل قيام الحرب العالمية الأولى، ظهر برود في دور مزدوج خاص كأديب وكهمزة وصل. يمكن مقارنته بالصحفي المتعدد في كتاباته "هيرمان بار" في فيينا، الذي كان له تأثير أشمل وكان أكثر اندماجًا في أوساط المهنية الأدبية.

فسر برود عدم نجاح مساعيه المجدة في كل الأحوال بعوائق موضوعية وضعف النفس البشرية: خوف الناشرين من المخاطرة، وغيرة الكتاب المخضرمين من المنافسة، وعدم مبالاة النقاد بكل ما هو جديد، وأخيرًا التأثير الكامن للأحكام المسبقة على قوميات أخرى. تمكن برود من ذكر أمثلة ملموسة وتجارب لكل هذه العناصر المقاومة، وبدا أنهم يزيدون يومًا بعد يوم، لدرجة أنه استعرض "حياة مليئة بالمعارك" في سيرته الذاتية التي حملت الاسم ذاته، وتناولت في معظمها هذه المعارك، التي تحدى خلالها بقلب صادق ظاهرة التثاقل الجبار، وذلك للضرورة القصوى، بوصفه "مهاجمًا رغم أنفه".[٦]

وصف "كارل كراوس" ذات مرة هذا النمط المكروه من "المتحذلقين"، الذي يتميز باستخدام زائد للصور البلاغية الواصفة

للمعركة: ''يكون هذا المتحذلق.. دائمًا محاربًا: يرفع سيفه، ثم يلقي به ساعيًا لحلول سلمية، يرفع شعارات، ويخوض المعارك مكشوف الوجه.''[٧] كان هذا النمط بصوره البلاغية حول ''المعركة الفكرية'' ظاهرة منتشرة في النمسا وألمانيا في سنوات ما قبل الحرب، بل كانت تعبر عن الطابع الثقافي لهذا العصر. لهذا السبب تحديدًا بدت ذكريات برود، التي كتبها بعد مرور عقود، كأنها تكرر إشارات لزمن مضى، وتتوجه بفراستها الفكرية إلى الماضي. أراد برود العجوز أن يكون على حق، ويحاسب ''كراوس'' و''فيرفل''، وكل هؤلاء الذين أظهروا قبل نصف قرن مضى عدم عرفانهم وكراهيتهم، مهما كان الموقف بسيطًا. صحيح أن سوء التفاهم كان واردًا، وكان برود على استعداد في بعض الأحيان للاعتراف بها، ولكنها كانت دومًا محطات على طريق الوصول إلى الحقيقة، تليها مراحل متقدمة لاكتشاف الحقيقة. يكتب برود ببراءة مسلوبة السلاح: ''هذا ما تكرر في حياتي، أنني توصلت من خلال أخطاء فادحة ارتكبتها بإصرار، إلى بعض (!!) الآراء الصائبة.'' أكد في العبارة نفسها على أن ''شوبنهاور'' قد ''ضل طريقه'' وأن ''نيتشه'' ظل بعد مماته بفترة طويلة شخصًا ''جديرًا بالمحاربة''.[٨]

كان برود يحب هذا اللغو عن آرائه في الحياة، وكان جزء لا بأس به من عمله السردي يعج بهذه الآراء، منذ البداية بروايته "المخاطرة الكبرى" ١٩١٨. كان لهذه الآراء وقع مختلف ومسلٍ عندما كان يتفوه بها وهو في العشرين من عمره، إنها وقاحات هجومية وارتجالات للشاب برود، أراد من خلالها استعراض قراءاته وعدم خوفه من أي مرجعية فلسفية، كان لها تأثير منعش، حتى إن لم تجد قبولًا موضوعيًا – خاصة على خلفية نظام تعليمي يحث على التلقين والتكيف. عدَّ برود في

هذه المرحلة العمرية الإصرار العقيم على الرأي بوصفه عادة منفرة لمن استقرت أوضاعهم، من أجل الدفاع عن مصادر أرباحهم. أما هو فوجد متعة في استغلال مواهبه التي وجدها في نفسه، وأراد التعرف على حدودها، حتى إن بدا غير متسق مع نفسه، ومبالغًا في بعض الأحوال.

كانت تعد مغالطة مراهقة من جانبه، تمسك بها طويلًا، تمثلت في إصرار برود على عدم الاعتراف بالفرق الجوهري بين الموهبة بوصفه متلقيًا والموهبة الإبداعية. كان من الممكن الاستماع إليه عازفًا للبيانو، إذ عزف المقاطع الكلاسيكية، وسمع العديد منها في حفلات حية – ماذا إذًا يمنعه من تأليف المقطوعات بنفسه؟ ألف عشرات المقطوعات الأوبرالية، بداية من "أغاني جوته" وانتهاءً "برقصات ريفية يهودية". لا يختلف الحال بالنسبة للفلسفة: لقد درس "أفلاطون"، و"كانط"، و"شوبنهاور"، و"نيتشه" – أليس ذلك كافيًا ليقدم "آراءه" الفلسفية باسمه؟ تجرأ برود لاحقًا، وقدم مع "فيلتش" عملًا في الأسس الفلسفية، وشعر بالإهانة من عدم تأثير الكتاب، الذي كان متوقعًا. اتبع المنطق نفسه في المجال الأدبي. كان يدرك براعته اللغوية، وتفاعله مع النصوص الأدبية، التي كانت تحركه وتغيره. كان هذا كافيًا بالنسبة له ليصدر أول ديوان وأول عمل مسرحي بوصفه شيئًا منطقيًا وضروريًا. قام برود مبكرًا بأمور، كان الآخرون يحلمون بها فقط.

كان لديه يقين بأن إحدى هذه المواهب ستكلل بالنجاح، ظلت مع استمرار هذا اليقين معاركه أشبه بتدريبات مرحة، كان كافكا يحب مشاهدتها. افتقدت نزواته النرجسية إلى قوة تعيد إليها التوازن. كان برود يدرك أنه "طفل معجزة"، هذا ما أكد عليه والداه مبكرًا.[9] ولكن يحتاج الأطفال المعجزة أيضًا وقتًا للنضوج والتركيز والكمال الحرفي للاستفادة

من كامل إمكاناته، وهم بحاجة أيضًا إلى حس يستشعر توقيت عجزهم عن إنجاز ما هو قد يكون في مقدورهم. لم يقدر برود على الاعتراف بهذه الشكوك الذاتية وما يصحبها من نزعة إلى الكمال -كانت لدى كافكا في شكل مفرط- بوصفها دوافع للإبداع، بل اعتبرها نقاط ضعف وعادات سيئة. يبدو أن نجاحاته الأولى قد أكدت على ذلك. كان هو الأول في محيط أصدقائه الكُتَّاب الذي عُرف وسط جمهور براغ المهتم بالأدب، والأول الذي نشر رواية، والأول الذي أثار الاهتمام داخل بوهيميا وخارجها.

ولكن جاء هذا الاهتمام العام مبكرًا في حياة برود، إذ شجعه على نشاطه الصاخب، الذي ثبت بعد مرور سنوات قليلة أنه يشتت قدراته ومواهبه تشتيتًا رهيبًا. برود، الوسيط والمستشار، الذي قدم خدماته الداعمة للأدباء، لم يجد فيما يخص حياته المهنية نصيحة طيبة. رأى أن الأمور تسير ببطء، وأن مساعيه إلى امتهان وظيفة الكاتب الحر فشلت، عد نفسه عامًا قبل بداية الحرب العالمية الأولى، بعدما نشر خمسة عشر كتابًا، "في مرحلة البدايات".[١٠] ولكن بدلًا من مواجهة هذا الشعور بالركود بشحذ الهمم والعمل المركز، لجأ برود إلى وسائل التسويق لشخصه. انهال على رؤساء التحرير والناشرين بمقترحات جديدة، واستغل كل فرصة لمخاطبة كتاب مشهورين، واقتراح قراءة أحدث إصداراته. حدث ذلك مع الكاتب "أرتور شنيتسلر" مثلًا، كان يقطن براغ وقتها وكان له رد فعل بارد حينما كتب إلى زوجته "أولجا": "برود، هذا الصديق القبيح، الزائف، الذي يدفعه الطموح المقنع، على الرغم من كل الإمكانات والقدرات فهو حالة ميئوس منها."[١١]

في هذا التوقيت -بعد اللقاء الأول مع كافكا بعشر سنوات- كان حماس برود الأدبي صادقًا، حتى إن تعذر على "شنيتسلر" فهم أن المسألة تتعلق بما هو أكثر من مجرد حسابات خالصة. اكتسب، مع طول انتظار شهرة النجاح الحقيقية، عادة متناقضة يصعب فهمها: ظل من ناحية محافظًا على علاقته المتحمسة بكل ما هو نتاج فني – حتى سنوات عمره الأخيرة – ولكنه من ناحية أخرى لم يستطع كتمان قلة صبره، بل ومرارته من جراء النجاح المحدود الذي حظيت به أعماله. كان عليه الاعتراف لنفسه، وقت المقارنة بين أعماله وأعمال كبار الأدباء، بأن كافكا ربما هو الأجدر بدخول قائمة الأفضل في يوم من الأيام، أما هو فلا. قال بطل رواية "المخاطرة الكبرى": "نعم، أؤلف، وأعمل بشغف، وأعمل بدون حظ، بمعنى آخر بدون عبقرية."[١٢] يجد برود أعماله، لحظة مقارنتها بالأعمال الأدبية المعاصرة، لا تلقى التقدير الذي تستحقه، بل ويُساء فهمها. بقي على ظنه حتى منتصف العشرينيات بأن المشكلة في دار النشر، لأن كتبه لا تباع بالأعداد التي تستحقها، كما هو الحال مع أعمال الأدباء الناجحين مثل "هاينريش مان" أو "شتيفان زفايج".

لم يكن لدى برود القدرة أيضًا على مراعاة التصنيفات الاجتماعية في تفكيره، بدا أعمى النظر أمام أي صراعات ليس لها تفسير في شخصيات وتصرفات الأفراد، بل في الاختلافات الأيديولوجية والثقافية للجماعات الكبرى. عد الصراعات من هذا النوع حالات من سوء الفهم، يمكن التخلص منها بالإصرار على توضيحها – ما هذا إلا مثال على "تفاؤل" برود المعهود، الذي جعله وسط كل الاحتكاكات القومية بين الألمان والتشيك محتفظًا بحب الطرفين له. ظهر الجانب الآخر لهذا المنهج، حينما كان برود يصف التناقضات المنطقية والموضوعية –

مثل الاعتراض على أعماله، أو قناعاته الصهيونية لاحقًا– على أنها مجرد سوء تفاهم، يمكن "تصحيحه" بمنتهى البساطة، ولذلك لا يجب السكوت عنها. لم يكنّ برود حبًا خاصًا للاحتفاظ بالكلمة الأخيرة في المنازعات الشديدة فحسب، بل كان أيضًا –وعلى عكس كافكا التام- يعلق على نصوصه، ويقدم معها التأويل الصحيح الأوحد لها. أقدم برود على تصرف غير موفق ومذهل، فريد من نوعه في الأدب المعاصر، من خلال روايته "أرنولد بير" ١٩١٢: ألحق بالكتاب في طبعته الأولى كلمة افتتاحية، ليعترض على اللوم الذي وُجه إلى روايته "اليهوديات" ١٩١١، حتى لا يؤثر بالسلب على تلقي رواية "أرنولد بير". قدم إذًا ضمنيًا للقارئ إرشادات لكيفية قراءة النص على سبيل التحسب، فهو الأقدر على معرفة نواياه لكتابة العمل الأدبي.[١٣]

بدت هذه المحاولات لخلق حالة من احتكار التفسير والدفاع عنها، في سنوات برود الأولى بوصفها لفتة منعشة، تقلب العلاقة الهيراركية المعتادة بين الكاتب والناقد رأسًا على عقب: لم يعد الكاتب يلعب دور الجاهل بالنظريات، الذي يتقبل في رضوخ حكم الناقد، بل صار يتدخل بصوت عالٍ في تفاصيل نقده. ولكن صاحب هذا الاحتجاج الهجومي حالة قوية من الإصرار على الرأي وعدم الصبر، مما أفقد برود في نهاية الأمر جزءاً من سمعته، بوصفه ممثلًا عن كافكا ومتحكمًا في تاريخه.

شجع صديقه طوال حياته على الكتابة، التي دفعت بعمله هو الأدبي إلى الظل، إنها تجربة تراجيكوميدية ألمت ببرود بلا شك. لا يمكننا التصور بأن متعته بهذه الشهرة الثانوية لم يشُبها شعور عميق بالإحباط. في

هذا الوضع الغامض والعجيب -الذي كان يصلح مادة لرواية أدبية- لم يكن لدى برود، المتفائل المجادل، رد فعل آخر سوى الوقاحة في حالة دفاع، تحجرت حتى صارت عادة لديه. بدت لفتاته المحتقرة، التي وجهها إلى "المتخصصين في كافكا الذين يظهرون في كل مكان، بمكتباتهم المتواضعة"، مبتذلة. حالة الكبت والتلاعب بالحقائق أحيانًا، التي كان يحاول من خلالها الحفاظ على وضعه، كانت تنبئ بوقوع كارثة، لم يقدر على التعبير عنها. كانت سمته أنه يفضل الصالح العام على مصلحته الشخصية، ولكنه لم يملك الاطمئنان ليتحمل تبعات هذه السمة.

ولد ماكس برود في ٢٧ مايو ١٨٨٤ في براغ، أي عامًا بعد كافكا، ولكن كان لأصوله تأثير مميز في التعليم والمرونة الاجتماعية، مقارنة بصديقه الأكبر عمرًا، والذي لم يصل إلى المستوى نفسه. تمتع آل برود -اليهود المتحدثون باللغة الألمانية أيضًا- بوضع سعى آل كافكا إلى تحقيقه: كانوا مواطنين في أوضاع مستقرة. ينتمي أدولف برود، الموظف المصرفي، إلى أسرة مقيمة في براغ منذ قرون، وبدأ صعوده على السلم الاجتماعي من درجة، كان على هيرمان كافكا الوصول إليها أولًا، وبذل من أجلها كل ما في وسعه، حتى لا يرتد إلى وضع أقل درجة. صحيح أن آل برود عانوا بداية أيضًا من المشاكل المادية، ولم ينالوا استقلالهم بحكم الدخل الذي تتمتع به الطبقة البرجوازية العليا إلا بعد حلول منعطف القرن، وذلك بعد ترقي أدولف برود في إدارة المصرف المتحد البوهيمي. لم يعرف ماكس قاع الفقر والتهديد بالسقوط الاجتماعي، اللذين كانا يُعرضان على فرانز وأخواته بانتظام يومي، ربما عرفهما بوصفهما إمكانية بعيدة، مثل نهاية العالم على سبيل المثال. كان والده مسؤولًا كبيرًا في مؤسسة قوية، معتمدًا عليها، ولكن لديه دخلًا ثابتًا، وفرصًا للترقي الوظيفي، ويقين الانتماء إلى شريحة

اجتماعية لها مستقبل. أما والد فرانز فكان يتأرجح في الأجواء الشديدة البرودة لما يطلق عليه المنافسة الحرة، على حسابه الخاص، ومثقلًا بحمل المسؤولية الكبير، الذي لا يسمح بالحرية الحقيقية ولا في الأحلام. من المؤكد أن الصديقين حاولا التفاهم على الرغم من اختلاف خبراتهما الجوهرية وما ارتبط بها من عواقب نفسية. عمق هذا الاختلاف، حقيقة أن كافكا كان عدو ووارث أبيه في الوقت ذاته، وارثًا لا يضمن أي شيء، يعذبه فناء ما يملكه الإنسان تمامًا مثلما يعذب التاجر ضيق الأفق ـ كلها أمور من الصعب على برود فهمها. كان يحاول إقناع كافكا بعدم المبالغة في تقدير دور الأب، وما ارتبط بذلك من خيالات تدمر الذات.[١٥] نعرف نتيجة هذه المحاولات.

لا نعرف إذا كان كافكا قد فهم بدقة عالم صديقه الوجداني، إذ لا نجد في مذكراته ورسائله أية خواطر حول نشأة برود. كان يحسده وهو طالب، وقف كافكا في الأغلب منبهرًا في الدور الأعلى لرقم واحد من شارع "شالن جاسه"، حيث أحيط بمدونات النغمات الموسيقية والمكتبة المنزلية، التي كانت مخصصة لماكس وأخواته الأصغر عمرًا "أوتو" و"صوفي" وهم أطفال. بالدهشة نفسها رأى الوالدين وهما يصطحبان أبناءهما ببديهية إلى العروض المسرحية والأوبرالية، ويقدمان إلى الأكبر عمرًا النصيحة الطيبة في سياق اهتماماته المتنوعة والمتغيرة. الوظيفة المضمونة بالدخل الثابت مطلوبة، وعلى الرغم من فخر نائب مدير المصرف أدولف برود بقائمة الإصدارات لابنه، إلا أنه كان سيرفض أي امتهان للفن في وقت مبكر. كان على الطفل المعجزة دراسة الحقوق أولًا قبل الوصول إلى مرحلة الشهرة. خصص له من أجل ذلك مصروف يد ضخمًا، ينفقه حسب رغبته.

مرت سنوات قليلة إلى أن دخل كافكا منزل آل برود بانتظام، فهم وقتها سريعًا أن هذا العالم قد يكون أفضل، ولكنه ليس مثاليًا. أذهله هذا التناقض الشديد بين والدي برود والاضطرابات المستمرة، التي لا تخفَى على الزوار طويلًا. كان أدولف برود رجلًا خجولًا ولينًا، ناعمًا في بعض الأحوال، ولكنه محافظ على الشكل العام، فلا يحب الحديث الصريح والصوت العالي، وقلما يعبر عن مشاعره صراحة. أما "فاني برود" (المولودة باسم "روزنفيلد") —التي هربت من أمها العدوانية في قرية شمال غرب بوهيميا إلى براغ— فكانت تشع حيوية، ومتسلطة ومتقلبة المزاج، تتأرجح مع أبنائها بين الحنان والصرامة. كانت تحب الغناء فسمع ماكس برود وهو رضيع نغمات عذبة، كما جربت حظها ممثلة على مسرح محبي الفن، وعملت لفترة في براغ "عارضة أزياء" في محل للملابس. يبدو أنها أحبت التأثير الاستعراضي، ولم يمنعها الزواج ومسؤولية ثلاثة أبناء من تعزيز هذه الرغبة، التي اتخذت شكلًا مرضيًا. استسلمت فاني برود لحالات من الهستيريا، عانت منها الحلقة الأضعف في المنزل: الخادمات اللاتي تم توظيفهن على فترات ازدادت قصرًا، يجدن استقبالًا حافلًا، ثم يُطردن بضجيج جبار. انتشر الحديث حول هذه المشاهد المحرجة، وأدت في نهاية الأمر إلى أن مكاتب التوظيف الجادة وضعت آل كافكا على قائمتهم السوداء، مما تسبب لرب العائلة ـ المعروف بأدبه— في عذاب من نوع خاص بالتأكيد. شاهد الأطفال هذه الأحداث دون فهم، كلما تقدم بهم العمر، شاهدوا أباهم —المثير للشفقة الذي تضعه زوجته في مأزق ـ وهو يفقد سلطته يومًا بعد يوم. فاني برود، التي لم يبقَ لها نشاط مقبول اجتماعيًا سوى حب الموسيقى، انتهى بها المطاف إلى العلاج النفسي والتنقل بين البنزيونات ـ كانت نهاية

أثارت تساؤلات أخلاقية، فعلى الرغم من الوبال الذي جلبته للعائلة، كان ماكس يشعر تجاهها بالامتنان الشديد.

كان طفلًا يصيبه المرض كثيرًا، نجا بأعجوبة من الحصبة والحمى القرمزية والدفتيريا، وتنبأ له أستاذ في الطب متأثر بالنظرية الداروينية أنه لن يعيش طويلًا. بدا أن هذا الحكم المدمر سيتحقق، عندما ظهرت عليه، وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره، أعراض واضحة لمرض الحداب، وهو اعوجاج في العمود الفقري، مع تعقيد إضافي تمثل في سقوط رأس ورقبة الطفل بين كتفيه. قال طبيب الأسرة، الذي لا يعرف شيئًا عن علاج العظام، أنه لا أمل في العلاج، ووجد الوالدان أنفسهما أمام وضع بائس: أنهما لن يقدما إلى الحياة "طفلًا معجزة"، بل "أحدبَ" يحافظان بالكاد على بقائه حيًا. يبدو أن الصغير يدين بالفعل لها ولبحثها المتحمس بفضل النجاة من هذا القدر. بعد أن علمت بوجود طبيب عظام مبتدئ وناجح في جنوب ألمانيا، معادٍ لمدارس الطب التقليدية، أخرجت الطفل وهو في السادسة من عمره من المدرسة وأخذته إلى مصحة "فريدريش هيسينج" في "أوجسبورج-جوجينجن".

لم يكن "هيسنج" طبيبًا بل "مضمدًا"، أحرز تقدمًا حاسمًا بوصفه حرفيًا في مجال الأجهزة الطبية. لم يكتفِ مع ذلك بتقديم أحدث الوسائل التقنية المساعدة إلى الأطباء المصرح لهم بممارسة المهنة، بل كان يشخص ويعالج المرضى على مسؤوليته الخاصة، في مصحات مريحة تنافس أجواؤها أجواء المصحات الشهيرة. كان العلاج لدى "هيسنج" باهظ الثمن، وكذلك المقاويم التي كان يصنعها فرديًا، لم تجد في دقتها منافسًا

على مدار عقود، كما أنها أغنت عن التدخل الجراحي، مما خيب آمال أطباء العظام التقليديين.

حصل ماكس الصغير في "جوجينجن" على "مقوام هيسنجن" الشهير، الذي صُنعَ من الصلب المغلف بالجلد، وأُلحق به حزام قوي للرقبة يثبت الرأس. كما أصر على إبقاء ماكس لمدة ستة أشهر في المصحة، ببرنامج حركة ونظام غذائي، إلى أن سمح بعودته إلى المنزل مرتديًا المقوام.[١٦] سُمح لماكس بالانضمام مجددًا إلى زملائه ودخول السنة الثانية الابتدائية، ولكن لفت الأنظار إليه بمثبت الرأس الذي كان ظاهرًا، وأثار الاستفسارات. ظل برود في مرحلة الدراسة الابتدائية – وبعدها بعام أو اثنين– ظاهرة غريبة. بما أنه لم يرغب في اليأس من حالته، كان عليه إدماج إعاقته في رؤيته لذاته، وإظهار نفسه كحالة "تثير الاهتمام". أتى التصحيح الطبي في نهاية الأمر بثماره، ولم يلفت الاعوجاج البسيط للعمود الفقري الأنظار، كما أثار برود اهتمام الآخرين بتفوقه على الفصل بأكمله. أثقلت الديون كاهل والديه، واضطر والده إلى العمل الإضافي في المساء ليسدد ديونه تدريجيًا.

إنقاذ برود بفضل أم متحمسة، وأب لم يبدِ أي سخط على الإطلاق على الرغم من حمله الثقيل، من المؤكد أنها قصة شغلت بال كافكا على أكثر من مستوى. ماذا لو حدث له الشيء ذاته؟ كان سيعتمد على عمه، طبيب الأرياف، دون غيره؛ لأن والديه منغمسان في أعمال المحل، ولا يمكنهما اصطحاب ابنهما لعدة شهور إلى الخارج، ناهيك بعدم قدرتهما المالية. من المدهش أن ماكس لم يجتَز هذه القيود ـ التي دامت لسنوات وما صاحبها من ألم ـ دون أي ضرر نفسي فحسب، بل خرج من هذه التجربة شبه الكارثية بمكسب تميزه، إذ أثبت قدرًا

من الحيوية والقدرة على التأقلم، كان يفتقدها كافكا. والأكثر إدهاشًا: علاقة برود بجسده، الذي تسبب له في آلام وخرج من هذه التجربة بإعاقة جزئية لن تزول، كانت علاقة أقل تعقيدًا مقارنة بكافكا. اتخذت العلاقات الغرامية والاستمتاع الجنسي حيزًا لا بأس به من تفكير وحياة برود. ربما فكر كافكا بين الحين والآخر أن "المعاق" يحاول في أعماق نفسه المختلة إثبات قدرة خاصة، إلا أنه كان يجسد برود على سعادته الحسية وإيجابيتها البسيطة والبريئة، واستمتاعه بها دون خوف أو ندم.

إن قرب كافكا من ماكس برود -مع اختلاف درجاته- كان يشوبه غموض، ونظرًا للاختلافات العديدة والعجيبة التي صاغت هذه الصداقة، فإنها أثارت تعجب "فالتر بنيامين" عن حق. أظهر كافكا هنا نمطًا سلوكيًا لحياته، سيكرره بتنويعات مختلفة، وسيورطه في علاقات أكثر غموضًا وتناقضًا، نذكر هنا معركته التي دامت لسنوات من أجل الفوز بالموظفة فيليس باور من برلين. كان كافكا يشعر بالقرب مع أشخاص يشاركهم حيويتهم الفائقة، دون أن يشعر بأية ضغوط: حيوات غريبة عليه، يتصل بتيارات طاقتها، ولكن دون فقدان التحكم في جرعة الطاقة التي يستقبلها. لم تكن الحيوية وحدها كافية إذًا، طالبهم أيضًا بقدر عالٍ من الصبر، خاصة لتحمل فترات من البعد. كان لدى ماكس برود -وهو شعلة من الطاقة- هذه القدرة، أو بالأحرى: اكتسبها من خلال تعاملاته مع كافكا. (تقدم صداقة كافكا مع إرنست فايس المثال المضاد، إذ رفض هذا الطلب وحصل على رسالة وداع مباشرة.) [١٧]

قد نعكس العبارة المأثورة للكاتب "بنيامين"، ونطرح تساؤلًا حول أسباب ماكس برود لقبول هذه المتطلبات، وهو الأكثر نشاطًا اجتماعيًا والأكثر استقلالًا. لماذا احتاج كافكا؟ السؤال دقيق، ولا يمكننا الإجابة بحسم بحسب المادة البسيطة الموجودة لدينا. ولكن ما يلفت الانتباه حماس برود الشديد في سنوات لاحقة، حينما كان يعظم من شأن هذه الصداقة، ويبعد عنها أية شبهة تتعلق بمصلحة نفسية.

كان لبرود في المدرسة الثانوية "شتيفانز جيمنازيوم" صديق عبر سنوات عديدة، يكن له كل الإعجاب، ويدون كل ملاحظاته الشفهية بدقة، لدرجة أن برود صار له دفتر ملاحظات حي يرافقه. كان اسمه "ماكس بويمل"، صبي صغير وممتلئ، ولكنه نشيط. لم يشارك في التأليف المراهق لأبيات الشعر، ولكنه صار مبكرًا مستمعًا متنبهًا، ومرهف الحس، شارك برود على مدار عقد كامل القراءات وزيارة المسارح. لم تتأثر هذه العلاقة الوطيدة حينما أجبر برود مع خريف عام ١٩٠٢ على استذكار مادة الحقوق، في حين درس "بويمل"، الذي ظل متميزًا لفترة وهو يدرس الفلسفة والآداب الألمانية ونظريات الموسيقى (اضطر لاحقًا إلى القبول بوظيفة في المصرف نفسه الذي عمل به والد برود). ظل برود و"بويمل" يلتقيان في سنوات الجامعة يوميًا، أكثر من مرة أحيانًا، كما رافق "بويمل" في فخر أول إصدارات صديقه الذي يحمل اسمه نفسه.[١٨]

كانت وفاة هذا الرفيق في السادسة والعشرين من عمره -في الأغلب بسبب قصور في القلب- أول تجربة فراق صادمة في حياة برود. كان "بويمل" مرآته، أفضل مستمع ومصحح وديع، ليس لديه طموح للإبداع، فلم يكن منافسًا بالنسبة له. يبدو أن صداقة "بويمل" كانت

لبرود، المهاجم الطموح، مثل مجال للحماية وللراحة، مجال يسمح بالحديث دون خوف أو تحفظ، يمكن مقارنته بالشرنقة المريحة للعلاقة الزوجية. ما يؤكد على ذلك هو بحث برود السريع، تحت تأثير الصدمة الأولى، عن بديل، وعثوره على كافكا.

"... المنعطف الحاسم: ـ مات أقرب أصدقاء كريستوف الذي رافقه في أثناء السنوات الثماني للمدرسة الثانوية. ذهب كريستوف بحزن دفين، بعد مرور أيام قليلة على الجنازة، إلى نزهة مسائية مع ريتشارد جارتا. منطقة "كلاين زايتة"، عند المخرج المظلم للقصر المتجه لأعلى. سأل متلعثمًا: "هل تريد أن تكون بديلًا عنه؟". طرح السؤال وهو يعرف مع الحزن الدفين في قلبه أنه يطلب المستحيل، ويفهم أن جارتا لا يجيب، وأن حتى الأشخاص ـالأقل رقة عنهـ لا يقدرون على تقديم إجابة لهذا السؤال. ومع ذلك للسؤال شرعيته، وتكمن فيه شجاعة وخير، ويقدر جارتا ذلك جيدًا، ولكنه لا يجد إجابة سوى الصمت الطويل. لا يتطرق الحديث لاحقًا إلى السؤال أو الإجابة التي لم تطرح. ولكن صار السلام باليد منذ هذه الليلة أكثر قوة وأطول وقتًا."

هذا ما قَصَّه برود في روايته سحر الحب، التي صدرت في عام ١٩٢٨، سعى النقاد إلى تفسير الشخصية الفنية ريتشارد جارتا، "مصلح هذا الزمان"، لأول قراء الرواية بوصفها شخصية فرانز كافكا، وأن برود يقدم هنا صديق العمر الثاني الذي فقده. (رفض برود اتهامه بعدم الإحسان، معللًا ذلك بسوء فهم لنواياه، كما اعتاد دائمًا أن يصرح.)[١٩] هناك العديد من التجارب المشتركة بين

كريستوف/ رينشارد، أي ماكس/ فرانس، التي نجدها منقولة بواقعية إلى داخل أحداث الرواية. لذلك فإن طرح هذا السؤال –الغادر والمتخطي للحدود ـ في لحظات الضيق الأولى وارد تمامًا. بدأت صداقة كافكا وبرود في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠٣، وتعمقت في عام ١٩٠٤، بعد مغادرة "أوسكار بولاك" لبراغ فترة طويلة، إذ كان مستشار برود في جميع أمور الفن. صار كافكا أقرب أصدقاء برود في عام ١٩٠٨، بعد وفاة "ماكس بويمل"، متعمدًا أن يخلفه في دوره، ولكن لم يرضَ برود عنه تمامًا، إذ دوَّن بعد مرور عام ونصف على الصدمة: "لو أن "بويمل" على قيد الحياة، ما اضطررت إلى تدوين كل هذا. كنت أستطيع البوح له بكل شيء!!!!!" خمس علامات تعجب.[٢٠]

تمسك برود طوال حياته برؤية للصداقة غير مفهومة نفسيًا، كما قدمها في صورة مبالغ فيها في روايته سحر الحب، مما ورطه في تناقضات لافتة للأنظار. كان على هذه الصداقة أن تنمو أولًا، فهي لم "تشتعل نيرانها منذ البداية"، كما بدا لبرود، كما أنه لم ير كافكا يوميًا أيام الدراسة كما ادعى، حتى إن شعر بقدرة كافكا الخاصة على التهدئة والمواساة.[٢١] كان كافكا، مثل "بويمل"، رجلًا لا يطلب لنفسه مساحة خاصة، صديقًا يجيد الاستماع وقادرًا على الحماس دون تحفظ، كما أنه لم يعرف فكرة المنافسة المدفوعة بطموح شخصي. لم يهدد كافكا أحدًا، ولا حتى برود في طموحاته الأدبية العالية. ظل لا يقدم نتاجًا أدبيًا، وتحدث لفترة طويلة عن تجربته بوصفه قارئًا فقط، وليس عن محاولاته الأدبية. لم يكن لدى برود أدنى فكرة عما كان مخفيًا أسفل الدفاتر التي تبعثرت فوق مكتب كافكا. لم يجد سببًا للشك، فتأجلت المفاجأة التي ستغير حياتهما معًا.

إغـــواءات

"من يتقن السباحة
لا يجذبه شيء سوى الأعماق."
فريدريش هيبل، المذكرات

فراش، إلى جانبه خزانة صغيرة، ومنضدة للغسل، ورف يحمل بعض الكتب، وخزانة ملابس وإلى جانبها دراجة، مكتب قدم متهالك، ومقعد. الحوائط خاوية، باستثناء صورة من مجلة حارس الفن، عليها فلاح يحرث أرضه، وصورة مجسمة لمشهد من العهد الكلاسيكي: إحدى رفيقات "ديونيسوس" بثوب فضفاض. يبقى الباب المؤدي إلى غرفة الطعام -عادة- مفتوحًا، وكذلك النافذة، حتى في أثناء أمسيات الخريف الباردة.

هذا المكان، الذي لا يصلح لاستقبال الضيوف، ويشبه في طابعه طابع غرف فنادق المدن الصغرى، هو محل سكن طالب الحقوق فرانز كافكا. إنه يرتدي بنطالًا وخفًا منزليًا مريحًا، وفانلة بيضاء خفيفة ومفتوحة عند الرقبة، فتظهر ضلوعه البارزة. يبدو أن هذا الشاب النحيف لا يعرف الشعور بالبرد. يأتي زميله ماكس برود ليدرسا معًا عمل أفلاطون بروتاغوراس، على سبيل التسلية والحفاظ على

معرفتهما باللغة اليونانية. يسخر من صديقه المرتعش من البرد، الذي يرفض خلع معطفه قبل إغلاق النافذة.

عادة، تكون الغرفة خاوية طوال النهار، خاصة في الصيف. يعود كافكا من محاضراته ببزته الغامقة وقبعته؛ ليغير ملابسه في الحال، ويذهب إلى مدرسة السباحة المدنية، حيث يقضي ما تبقى من يومه هناك. حولت حمامات الشمس، التي لا حصر لها، لون بشرته إلى لون داكن لافت. كتب، مع مطلع عام ١٩٠٣، إلى صديق يدرس في ميونيخ[١] أنه لا يفعل شيئًا في براغ منذ عشرين عامًا سوى الاستجمام. ليست هذه بمزحة؛ إذ يمثل ذلك رأي أبيه أيضًا. بعد مرور أسابيع قليلة سينتهي هذا الوضع؛ لأن امتحان الدولة الأول في الحقوق ينذر بقدومه. يظل كتاب تاريخ القانون الروماني، الذي يتعذر نقله بجزأيه وصفحاته التي تعدت ٢٥٠٠ صفحة، مفتوحًا على المكتب. يجب على كافكا الاستذكار، يذهب ويجيء في الغرفة لساعات، يكرر قراءة مقاطع بعينها، يلقي نظرات سريعة من النافذة إلى زقاق "سيلتنر جاسه" الذي يعج بالحياة، ثم يعود إلى السير في الغرفة كأنه داخل زنزانة.

إنه يوم حار على غير العادة، تقف شابة على مدخل محل للملابس الجاهزة على الجهة المقابلة، حيث تعمل بائعة في المحل. رآها كافكا أكثر من مرة، ويبدو أن الطالب قد لفت نظرها هي الأخرى؛ لأنها ترفع نظرها إليه باستمرار، وتراقبه وهو يقوم بجولاته المبهمة. تلتقي نظراتهما أخيرًا على مسافة عشرين مترًا. تعطيه إشارة: يمكنه في الساعة الثامنة مساءً، وقت إغلاق المحل، المرور عليها لاصطحابها. يستطيع كافكا القيام بذلك في مساء اليوم ذاته، إن أراد ذلك.

يقف في الشارع مع حلول المساء في الموعد المحدد، على غير عادته، في حالة قلق وانتظار، ولكنه يفاجأ بصعوبات غير متوقعة: إنه ليس الوحيد الذي يقف في انتظار الفتاة، هناك رجل آخر ينتظر قبله. تخرج من المحل، وتتأبط ذراع الرجل الغريب، ولكنها تعطي إشارة لكافكا أن يتبعهما دون لفت الأنظار إليه. يتحرك هذا الجمع الصغير في اتجاه جزيرة "شوتسن إينزل"، يجلس الاثنان حول منضدة في الخلاء، ويطلبان الجعة، بمزيج من مشاعر الجرأة والفضول والخوف يقع اختيار كافكا على منضدة بالقرب منهما، يطلب المشروب ذاته، ويراقب، وينتظر، وينصت إلى حديثهما. يدفعون، بعد وهلة، الحساب في الوقت ذاته، ثم يتحركون بخطوات بطيئة إلى شقة السيدة الشابة في منطقة "فلايش ماركت". يودعها الغريب وتدخل إلى المنزل، لتعود، بعد قليل، إلى الشارع، ويسمح لكافكا أخيرًا بأن يقدم نفسه. يدرك سريعًا أنها تعرف ما تريد معرفة دقيقة. طلبت ألا يكون ذلك هنا في البلدة القديمة، حيث يعرفها الكثيرون. يعبر كافكا مع السيدة الشابة النهر إلى منطقة "كلاين زايتة". هناك فندق لا تطرح إدارته الكثير من الأسئلة.

"كان هذا كله، ونحن أمام الفندق، مغريًا ومثيرًا ومقززًا في الوقت ذاته، ولم تختلف الحال داخل الفندق كثيرًا. ومع ذلك، شعرت، ونحن نعبر جسر "كارلس بروكة" في الصباح -وكان الطقس لا يزال حارًا وجميلًا- بالسعادة، ولكن بسبب خلاصي من متطلبات جسدي، ولأن المسألة لم تكن أكثر بشاعة، وأكثر قذارة. أظن أنني قضيت مع هذه الفتاة ليلتين أخريين، وكانتا بجودة الليلة الأولى نفسها. ولكن حينما

لهوت مع فتاة أخرى في أثناء العطلة الصيفية، عدت لا أطيق النظر إلى فتاة المحل في براغ. لم أتحدث معها بكلمة واحدة، وصارت -من وجهة نظري- عدوتي اللدودة، مع أنها فتاة طيبة، وظلت تلاحقني بنظراتها التي لا تفهم شيئًا. لا أريد القول إن سبب هذه الكراهية الوحيد هو تصرف صغير بشع، ولا كلمة بسيطة قذرة -لا يستحقان الذكر-، صدرا عنها في براءة -بالتأكيد لا-، ولكنهما ظلا في الذاكرة، وعرفت في التو أنني لن أنساهما، وعرفت أيضًا في الوقت ذاته -أو هكذا ظننت- عدم وجود ضرورة ظاهريًا لهذا الشيء البشع وهذا الشيء القذر، ولكن لهما ارتباطًا خفيًا بالوضع في المجمل، وأنهما -كان تصرفها البسيط وكلمتها البسيطة رمزين بسيطين لهما- جذباني بعنف إلى هذا الفندق، الذي كنت سأتفاداه بكل ما أوتيت من قوة."[٢]

إذًا، كانت هذه هي "ليلة كافكا الأولى"، وفي الأغلب أول تجربة جنسية له؛ إذ لم يشارك في المغامرات الجنسية التي كان يقوم بها تلاميذ المرحلة الثانوية، حتى عندما نجحوا في إدخاله إلى ملهى ليلي، ظل متحفظًا على نحو ساخر (وهو في حقيقة الأمر خائف).[٣] لم يحلم صاحب العشرين عامًا قط بأنه سيحكي لإحدى السيدات، في يوم من الأيام، تجربة الفندق بملابساتها المحرجة.

يحمل تقريره، الذي وجهه إلى "ميلانا يسانسكا" بعد مرور سبعة عشر عامًا، آثارًا واضحة لتجميل الذات، ترجع بدورها إلى سلسلة من الإخفاقات الجنسية. باستعراضه للماضي، تبدو المسألة، بالنسبة لكافكا، كأن التذبذب بين الرغبة وخيبة الأمل لا نهاية له، كأنه لم يعش لحظة سعادة جنسية وحيدة، وكأن اللون "القذر" للجنس هو السبب

في انجذابه ونفوره في آن واحد. ما كان لهذا المتأخر في نضوجه الجنسي أن يتفادى الفندق في منطقة "كلاين زايتة" "بكل ما أوتي من قوة"، حتى إن سيطر سيطرة كاملة على "السلطة الفائقة" للجنس ـ هذا ما تنفيه تجاربه في السنوات المقبلة. عدم القدرة على إدماج الحياة الجنسية في صورته المتشكلة عن ذاته، واعتبارها غير طاهرة جسديًا وأخلاقيًا، وعدم القدرة على التواصل الإنساني مع النساء اللاتي تورطن معه في هذه القذارة. إنها جميعًا ظواهر معادية للاستمتاع الحسي وكارهة للنساء، وكان يعاني منها ملايين الرجال في الطبقة البرجوازية معاناة نفسية شديدة؛ إذ لم تنمّ تربيتهم قدرتهم على السعادة الجنسية.

ظهر، قبل الليلة الأولى لكافكا بأسابيع قليلة في المكتبات، دليل يرشد إلى فهم هذه الظاهرة فهمًا قاطعًا: كتاب يحوي ستمائة صفحة، عنوانه: الجنس والطباع. يكبر مؤلفه "أوتو فاينينجر" كافكا بثلاث سنوات، خرج من اليهودية، وانتحر في خريف العام نفسه. كان عمل "فاينينجر"، وهو نص رسالته لنيل لدرجة الدكتوراه، بمنزلة انقلاب فكري لم يسبق له مثيل؛ دعم من خلاله الحياة الجنسية الذكورية التي تسيطر عليها المخاوف، بدوافع ميتافيزيقية، كما قلل، في الوقت ذاته، من الإنجازات الواضحة للمرأة وقتها في مجال المساواة ونيل الحقوق. لم تكن الحيلة المنهجية، التي لجأ إليها "فاينينجر"، ليضرب ضربته الذكورية المدافعة، حيلة جديدة تمامًا، ولكن لم يتقن كاتب ناقد لعصره هذه الحيلة، بهذه البراعة وهذا الإصرار، كما أتقنها هو. لم يتناول الرجال والنساء من جيل بعينه في دراسته الجنسية، بل تحدث عن الأنوثة أو الذكورة عمومًا، بوصفهما "فكرة" أو "نمطًا نموذجيًا". استخدم "فاينينجر" اختصارين يرمزان إلى المؤنث والمذكر؛ ليمنع أي سوء فهم، وليؤكد على الوقار الأكاديمي الذي تتمتع به دراسته —

لتبتعد آراؤه في شكلها النمطي عن أي سلوكيات لأفراد أحياء قابلة للمراقبة.

مميزات هذه الرؤية "النمطية" للأمور معروفة منذ زمن طويل: إنها تحمي الأحكام المسبقة والكراهيات الدفينة من أي هجوم عليها، وتوفر الكثير من الجهد في تقديم حجج قائمة على خبرة علمية. يمثل استخدام حالة المفرد، دائمًا، نوعًا من التأمين البلاغي في هذا السياق: الحديث عن الشباب عمومًا (وليس عن شباب بعينهم)، عن التشيكي، وعن الموظف، واليهودي بالطبع. ينسب إليهم كل ما يخطر على البال، دون الالتزام بتقديم أي أدلة؛ لأنها مجرد توصيفات نمطية لا تنطبق بالضرورة في كل الأحوال. كان الحديث عن المرأة عمومًا، أو عن الأنثى –كما كان يفعل "فرويد" – هو أفضل مجال يناسب هذا الأسلوب من التفكير. ادعى "فاينينجر" –بمنتهى الجدية– أن المرأة لا تملك شعورًا بالذات، وليس لديها أي تصور عن الحقوق، والحقيقة، والتفرد، والأخلاقيات. لا ينبهر مطلقًا بأن بعض النساء قادرات على هذه الإنجازات الفكرية، لأنهن، في هذا الحالة، لسن "إناثًا"، وبعيدات كل البعد عن النمط "الأنثوي" الخالص، أو بمفهوم "فاينينجر"، يملكن نسبة عالية من المادة الذكورية. يترتب، على ذلك، إمكانية احترام نساء بعينهن، دون التخلي عن احتقار الجنس النسائي. يستطيع مشجع فكر "فاينينجر" أن يقول بكل ثقة: "ليس لدي مانع من التعامل مع النساء، فضمن مجموعة أصدقائي المقربين نساء أيضًا."

إنه نمط فكري يقدم الراحة العقلية، ولكن له ثمنًا غاليًا؛ إذ ينطلق من مفهوم للأنوثة والذكورة بوصفهما مادتين سائلتين، تمتزجان داخل كل فرد

على نحو متميز ومتغير. لجأ "فاينينجر" إلى مفهوم عام للازدواجية الجنسية لا يعتمد على الباثولوجيا، ولعب في شكل مشابه دورًا في التحليل النفسي أيضًا[٤]؛ إذ لم يكن كاره النساء التقليدي لهذا العصر ليتقبل هذا المفهوم بسهولة. ترتب عليه أن يتحمل الرجل مهمة حياتية شاقة، على الرغم من تفوقه الفطري: التغلب على تأثير العنصر الأنثوي - والتعامل مع العدو القابع داخله. قدم "فاينينجر" من هذا المنظور تفسيرات تبرر قابلية الرجال للإغواء، على الرغم من تمثيلهم للفكر والأخلاق، وقبولهم "بالقذارة" و"الدناءة"، كما كانت لديه إجابات جاهزة عن سؤال ناقد عن قدرة الرجل، مع هذه الاختلافات الجذرية و"الأساسية"، على طرح تصورات عن الوجدان الأنثوي. كان الحل سهلًا: على العقل المفكر مراقبة الجانب الأنثوي داخله؛ ليحكم على الأنثى عمومًا. وفي اتساق مع أفكاره، توصل "فاينينجر" إلى قناعة مبهرة بأن "كراهية المرأة ليست سوى كراهية، لم يتخلص المرء منها بعد، تجاه كيانه الجنسي".[٥]

لاقى عمل "فاينينجر" نجاحًا ساحقًا وممتدًا، إذ صدرت في حياة كافكا خمس وعشرون طبعة، كما صار المادة الأساسية للأحاديث الدائرة في المقاهي حول الأمور الجنسية، أكثر من نظريات "فرويد"، التي لم تجد لنفسها مكانًا في سياق المعرفة العامة إلا ببطء، وفي شكل مبسط. أما "فاينينجر" فعده الجميع عبقريًا، قدم صورة دقيقة وغير مسبوقة لظواهرية الأنثى. أغفل هذا الادعاء الحقيقة الواضحة بأن هذا الشاب قام، في الأغلب، بتجميع الأمثال المطروحة من دروس الرقص وفي بيوت الدعارة.[٦] لقد تجرأ، وقال ما يفكر فيه معظم الرجال: إن الأنثى كيان ناقص تدفعه غرائزه، ولا يمكنها الخروج من هذه الحالة جزئيًا إلا بالتقليد، وإنكار أنوثتها.

لعل الأمر الخطير في تلقي هذا الكتاب، المدعي للفلسفية، صحة وصف "فاينينجر" لبعض نتائج تربية الإناث في المجتمعات البرجوازية، مما جعل القارئ يتغاضى عن التعميمات العبثية للكاتب وآرائه المضطربة نفسيًا. الاهتمام الزائد بالمظهر الجسدي، والتدلل المعتاد، وغيرة النساء من بعضهن، والسؤال القاهر حول أطراف العلاقات المختلفة ـ ألا يركز الكيان الأنثوي، من خلال كل هذا، تركيزًا كاملًا على عملية التكاثر دون سواها؟ أليست الصفات الأنثوية المحمودة، مثل القدرة على حب الأمومة المتناهي، مجرد شعور غريزي؟ لاقت جرأة "فاينينجر" على الحديث الناقد عن أخلاقيات العصر استحسانًا كبيرًا. لا يجب القبول دون شرط بجميع أحكامه الأخلاقية والجمالية. كتب "كارل كراوس" إلى "فاينينجر": "يوافق عاشق النساء، بحماس، على جميع حجج كل احتقار النساء." قدم بذلك لجيل كامل من الرجال دليلًا تحمسوا لقراءته.[7] المرأة بوصفها راعية للحياة، والرجل ممثلًا للفكر. كانت فكرة يقبل بها الجميع دون الالتزام بالعزوف الكامل عن الجنس اللطيف -وإن كان للأسف ساذجًا- كما فعل طالب الدكتوراه العبقري والمضطرب المقيم في فيينا.

التفسيرات التي قدمها "فاينينجر" للأنوثة مُدَّعية للعلمية، وغارقة في أساطير ساذجة، ولكنها تخطت في تأثيرها حدود العالم الذي تعكسه، ونجد لها آثارًا لدى المعادين للمبادرات النسائية في عقود السبعينيات. على الرغم من أن "جوتفريد بين" منحه أهمية أكبر من كافكا في عام ١٩٤٩[8]، فإن "فاينينجر" لم يعد، بعد الحرب العالمية الثانية، صالحًا للإشارة إليه، ولكن لم يرجع السبب في ذلك إلى أي تقدم طرأ على

الخطاب الجنسي، بل بسبب منهجه القاتل المعادي للسامية، الذي انتهجه داخل فصل إضافي في كتابه، كان من الصعب قبوله بوصفه أسلوبه العام. خصص فصلًا بأكمله، في رسالة الدكتوراه الجنس والطباع، لأفكار ناقدة للشخصية اليهودية قائمة على نظريات عرقية. كان أمرًا يثير الدهشة، ولكن الأمر الذي جعل كتاب القرن يفقد مصداقيته هو التشابه التام بين حديث "فاينينجر" عن "الفكرة المطلقة لليهودية" وشعارات النازيين التي تحدثت عن إبادة اليهودية، كأنها مجرد قتل لفكرة ما.

لم يبقَ كتاب الجنس والطباع في مكتبة كافكا البسيطة، ولكن من المؤكد أنه عرف أسس الكتاب، وتابع مناقشته من خلال مجلة الشعلة للكاتب "كارل كراوس". أبدى، قبل سنوات قليلة من وفاته، اهتمامًا بأفكاره[٩]، ولكن لا مجال لطرح سؤال عن تأثير مباشر، أو عن تلقٍ مباشرٍ عاطفي أو إبداعي؛ إذ استعان الاثنان بالمخزون نفسه من الخرافات المجتمعية حول الأنثى، بما تحويه من مشاعر خوف منها. لا يوجد تفسير آخر لظهور شخصيات نسائية عديدة مضطربة وخطيرة، ولها سلوك حيواني في بعض الأحيان، في أعمال كافكا –غير المكتملة منها أيضًا– إذ تبدو كأنها خرجت لتوها من كتاب "فاينينجر": المطربة السمينة "برونيلا" في رواية "المفقود"، وزوجة حارس المحكمة "ليني"، و"السيدة الجريئة" التي تسكن عند النائب العام "هاسترار" في رواية "المحاكمة"، وخادمات منطقة "بروكن هوف" في رواية "القصر". وصل كافكا في كل مرة إلى حدود ما يمكن تناوله في سياق أسلوب كتابته الواقعية، ولعل التصويبات في مسودات رواياته دليل على أن صور النساء التي ظهرت في عملية الكتابة كانت أكثر تطرفًا، وكان عليه التخفيف من حدتها؛ حتى لا تتخطى السياق

السردي. تبلورت في هذا العصر، من واقع المخيلة الجمعية لهذا المجتمع، قائمة بأنماط نسائية متنوعة (مثل الأم، والعاهرة، والمرأة اللعوب، والفتاة التي مرت بتجارب جنسية عابرة، والفتاة الوديعة، والأخت، والسيدة المثقفة، والقديسة"، ولم يستطع كافكا الامتناع عن توظيفها، لا من خلال تحفظه الساخر، ولا من خلال اجتهاده الفكري. كان يكره مصطلح العصر: "النمط"، ولكنه لم يملك في لقائه بالنساء إلا اللجوء إلى تحليلهن في إثارة وخوف؛ ليكشف عن سمات نمطية، ويتحكم في اختلافهن الذي يسبب له القلق.

ومع ذلك، نجح كافكا في الخروج من مجال تأثير أسلوب "فاينينجر" المجنون والكاره للنساء. بدا أن العديد من الشواهد الاجتماعية تؤكد على أن النساء لسن شخصيات متفردة مركبة، وأن قدراتهن البيولوجية تشير إلى أن الطبيعة (أو الخالق) أرادت بهن شيئًا آخر. لا يمكن تجاهل أنهن يمثلن ما هو أبعد من كونهن شخصيات متفردة – الحياة، القدر، الطبيعة، أيًا كان المسمى. كان هذا هو الرأي السائد للرجال متوسطي التعليم. كما تُظهر المراسلات اللاحقة بين كافكا وبرود أننا هنا بصدد فكر أساسي قامت عليه كل المحادثات المتعلقة بالنساء، حتى مع اختلاف الممارسات الحياتية. ولكن السؤال الحاسم حول ضرورة ربط هذا الفكر بعملية الحط من شأن المرأة على الصعيد الأخلاقي والوجودي كان مطروحًا. لم يرد كافكا فهم هذا الجانب، ولم يقتنع أن أي امرأة في محيط حياته متورطة في صراعات داخلية مؤلمة مثله هو. شعوره بأنه يقف خارج نطاق الحياة، وأن عليه العثور على مدخل إلى الحياة مرة أخرى، كان يمثل تجربة شكلت هويته، وبؤرة لتفسير ذاته. أبدى اهتمامًا مندهشًا برجال حالهم مشابهة له، مثل "جريلبارسر" و"كيركفور"، أما النساء فلا. إنهن يمثلن

الحياة، ويسكنّ المجال الذي يسعى التمساء الآخرون إلى الوصول إليه. كان لهذا القرب من الحياة جاذبية مخيفة، ولكنه قدرة جوهرية للنساء، ولم تكن مدعاة للاحتقار. تتميز النساء، من وجهة نظر كافكا، بتفوق حياتي يؤهلهن، في أحلك الظروف، لإنقاذ الرجال، بل ومنحهم "الخلاص" أيضًا – إنهم رجال يتورطون في متاهات فكرية وعاطفية، لا تريد النساء معرفة أي شيء عنها. تساءل كافكا، مع اقتراب نهايته، عن الثمن الذي تدفعه النساء مقابل هذه القدرة الطبيعية الغامضة، ومدى تقديرهن لمدى فداحة هذا الثمن وتدميره لحياتهن. يظهر ذلك جليًا من خلال التحول الملحوظ لشخصياته النسائية اللاتي ينضجن تدريجيًا، ويصبحن كيانات مستقلة. تستسلم النساء في رواية "المحاكمة" لقدرهن النوعي، دون أي نوع من التحليل العقلي لوضعهن. ليست هناك متهمات إذًا، ولا مجال لهن من الأساس. أما في رواية "القصر" فيخلق كافكا، من خلال ابنة صانع الأحذية "أماليا"، لأول مرة شخصية نسائية ترفض هذه اللعبة في مجملها، ويبدو أن بعض نساء القرية يأملن ـعلى الرغم من علاقتهن المتعددة بالقصرـ التخلص من الفتنة التي أصابتهن بسبب الرجل الغريب والعاجز السيد "ك.".[11]

مر كافكا بالتجارب نفسها التي يمر بها أي رجل: تجارب سعيدة، وأخرى تعيسة، تجارب يشوبها التحفظ، وأخرى كلها شغف. اعترف إلى "فيليس باور"، لاحقًا، بأنه التقى فتيات "أحببتهن بعض الشيء، وكنت مرحًا معهن، وتمكنت من هجرتهن في بساطة، أو وجدت نفسي مهجورًا دون أدنى شعور بالألم. لم أحب امرأة حبًا هزني داخليًا إلا مرة واحدة، ومر على هذه التجربة سبع أو ثماني سنوات."[12] يشير، هنا، إلى تجربة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٥، وكانت داخل مصحة في منطقة واقعة بين "بوهيميا" و"شليزن" اسمها "سوك مانتل" ("ظلاتا

هوري" باللغة التشيكية)، ولعلها من أهم العناصر المجهولة في سيرة كافكا الحياتية. ليست لدينا مراسلات، ولا تدوينات تمنحنا بعض التفاصيل، ولا نعرف اسم هذه السيدة، ولا محل نشأتها. كتب كافكا، في أثناء إجازته الصيفية، بمرح "أنه قضى وقتًا طويلًا في صحبة الجنس اللطيف، وأن مشاعر الحيوية قد غلبته." كما يلمح، في تعليق لاحق له أمام برود، إلى أنها كانت تجربة جديدة عليه، ولم تكن عابرة على الإطلاق: اعترف أنه شعر في "سوك مانتل"، لأول مرة، "بألفة" مع سيدة، "كانت سيدة، وكنت صبيًّا".[١٣] يشير عدم حديث كافكا عن "فتاة" إلى أنها كانت الأكبر عمرًا، يمكننا التنبؤ، من واقع سجلات الزوار في المصحة، بأنها لم تكن ضمن المرضى، ولكن ليس هذا مؤكدًا أيضًا. ما نعرفه أن القصة لم تنتهِ بانتهاء الفترة التي قضياها معًا، والتي لم تتجاوز ثلاثة أسابيع ونصفًا. سافر مجددًا، في الصيف التالي، إلى "سوك مانتل"، حيث كان على موعد هناك؛ إذ وصلته بطاقة بريدية في ظرف مغلق: "إنها غابة، ويمكننا أن نشعر بالسعادة داخلها، أرجوك أن تأتي!" التوقيع غير واضح، وباقي التفاصيل مجهولة.[١٤]

لدينا صورة أوضح عن المغازلات مع "فيليس باور" التي اعترف بها كافكا، ونسبها إلى فترة مضت. كان يستطيع -في محيط أصدقائه- الحديث عن هذه "المغامرات"، التي ظلت تحت سيطرته العاطفية، بأسلوب أكثر مباشرة. إنها تثير حواس المستمعين بعض الشيء، كما اتسق الحديث الساخر عن الفتيات مع قواعد "الإتيكيت في الأحاديث الجنسية"، التي تعلمها كافكا طواعية، وتخلى عنها في وقت لاحق. ولكن كان له منذ البداية أسلوب خاص، يدخل في تفاصيل فيزيولوجية تبتعد عن الإثارة، واستمر على هذا الأسلوب في مذكراته، أسلوب تتبدل، من خلاله، الأدوار بين التجربة ذاتها والحديث عنها، وكأن اللقاء مع شخص آخر

ليس هو جوهر المسألة، بل مراقبته والحديث عنه. كتب من "تريش" في منطقة مورافيا -وهو في أحد المصايف- إلى ماكس برود:

"أنا هنا منذ ستة أيام مضت، وقضيت معظم وقتي مع فتاتين صغيرتين، في منتهى الذكاء، طالبتين لهما اتجاه ديمقراطي اجتماعي، تطبق كل واحدة منهما على فمها؛ حتى لا تضطر في كل مناسبة إلى الإعراب عن مبادئها وقناعاتها. واحدة اسمها "أجاتة"، والأخرى "هيدفيج". "أجاتة" قبيحة، و"هيدفيج" أيضًا، "هـ." قصيرة وسمينة، وجنتاها حمراوان، ومتكتلتان، وأسنانها الأمامية العليا كبيرة الحجم، ولا تسمح بغلق الفم، ولا للفك الأسفل أن يكون صغير الحجم. إنها تعاني من قصر النظر، وليس السبب في ذلك لفتتها الجميلة، التي تضع بها نظارتها فوق أنفها، الذي يتألف طرفه من مساحات جميلة. حلمت الليلة بساقيها القصيرتين والسمينتين. أكتشف، بشكل غير مباشر، جمال فتاة، وأقع في حبها."[15]

كانت السخرية من الجسد الأنثوي وسيلة فعالة لمقاومة الخوف، والإبقاء، من خلال هذا الأسلوب، على الحديث أطول فترة ممكنة عن أكثر الموضوعات إثارة، دون أن يبدو المتحدث شخصًا أحمق. من المؤكد أن برود -المفعم بالأحاسيس- لم يلتقِ، من قبل، بشخص وقع لتوه في الحب، ويتحدث عن أسنان بارزة، وفك أسفل، وساقين سمينتين، والأغرب أن علاقة حب صغيرة -بقبلات ورسائل- نشأت بين كافكا وهذه الفتاة، التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وذات توجه ديمقراطي اجتماعي. كان اسمها "هيدفيج فايلر"، يهودية من فيينا، التقى بها، في أثناء الإجازة الصيفية، عند خاله "زيجفريد"، طبيب

الأرياف، ويبدو أنها كانت تعرفه أيضًا. كانت "تريش" تبعث على الحياة، ونسمات الصيف المنعشة تمنح حريات، وفي الأحوال الطبيعية كان التجول بصحبة رجل حتى منتصف الليل في الحدائق المظلمة، على سبيل المثال، محظورًا على "هيدفيج".

بقاء هذه القصص الغرامية على حالها بعد الإجازة أمر مشكوك فيه، وليس لدينا دليل على لقاء آخر بين الاثنين. وعلى الرغم من مخاطبتها بكلمة "حبي"، أو "فتاتي الحبيبة"، في رسائله -ردودها على هذه الرسائل ليست موجودة- فقد كانت هذه الرسائل من براغ قائمة على مشاعر الصداقة وليس الحب؛ لأن التناقض بين الاهتمامات والشخصيات ظهر سريعًا. ساند كافكا، في سنوات لاحقة، السيدات الشابات في معاركهن من أجل التعليم والدراسة، بمشاعر بالغة التفهم. أما في مراحل التقارب العمري، بوصفه أخًا لثلاث فتيات بمستوى تعليميّ متواضع، لم يعِ المعنى الوجودي لهذه الهموم. لم يدفعه تعطش "هيدفيج فايلر" للتعليم، وسعيها -من خلال التعلم- إلى تجاوز ظروفها الاجتماعية المتواضعة، إلى إبداء كلمة تشجيع واحدة. أما هي، فلم تفهم حياته المفتقرة إلى هدف، وهو رجل بهذا القدر من التعليم، لا يحركه القدر الجمعي، ولا يشعر بمسؤولية اجتماعية، كما يصير عدم التكافؤ في علاقتهما ملموسًا، حينما تطالب هذا المراقب للبشر بإبداء اهتمام أكبر بالبشر، فيجيبها: "أنا لا أقرأ جريدة العمال، ولست إنسانًا طيبًا."[١٦]

أكانت هذه سخرية أم رثاء لحاله؟ لم تكن "هيدفيج فايلر" تدرك أن كافكا كان يتدرب هنا على بلاغيات أسلوب احتقار الذات، الذي أتقنه، لاحقًا، في مراسلات تفوق هذه أهمية. حتى مع إضافته لبعض

السطور الأدبية من تأليفه –ليظهر نوعًا مختلفًا من الاهتمام بالبشر– فإن تأثير هذه اللفتات المتثاقلة لم يكن تأثيرًا متحمسًا على الإطلاق، لا سيما على فتاة شابة تساوي بين التعليم والحماس، وتفخر بانتمائها إلى النخبة اليمينية المنظمة، وتجسد التقدم والإنسانية.

دخلت "هيدفيج" مدرسة الفتيات "الليسيوم"، وحصلت على شهادة "الأبيتور" من الخارج، ودرست فصلين دراسيين في الآداب الجرمانية والرومانية. دفعتها علاقتها بكافكا إلى التفكير في استكمال دراستها في براغ، وكان يُفترض أن يقنع "زيجفريد لوفي" أسرتها في فيينا بهذه الخطوة. شارك كافكا في الاستعدادات بنشر إعلانات في الصحف، بعرض من خلالها قدراتها الفائقة، بوصفها مدرسة منزلية، أو جليسة تتمتع بثقافة متميزة. ولكنها بقيت في نهاية الأمر في فيينا، ولم تزر كافكا. كتب إليها في آخر خطاب موجود لدينا:

"أفهم حالك، فحجم ما تريدين تعلمه يفوق العقل، ومن حقك أن تضطربي، دون أن يلومك أحد. ولكن انظري إلى خطواتك التي تتقدم إلى الأمام، لديك هدف لن يفلت منك مثلما يحدث مع الفتيات. حتى إن قاومت، سيسعدك هذا الهدف. أما أنا فسأظل أدور في عالمي الخاص، وسوف أعذب البشر من حولي لفترة، إن حاولوا الاقتراب مني، لا أكثر من ذلك."[١٧]

جاءت هذه المحاولة المتحفظة للدخول إلى عالمها متأخرة. انقطع الاتصال سريعًا، وطلبت بعد مرور عام، في أثناء زيارة لبراغ، في

خطاب إلى كافكا أن تسترد جميع رسائلها. قام بذلك بالفعل، موجهًا مراسلاته إلى "الآنسة الفاضلة". لا نعرف إذا كان قد واجه اختفاءها من حياته "بألم أقل"، ولكن من المؤكد أن التجربة الصيفية في "تريش" لم تنحفر داخله مثل صورة السيدة التي أحبها في "سوك ماتتل". لم يذكر "هيدفيج" مرة أخرى، وفاتته آخر التفاصيل غير المتوقعة في هذه القصة: حصلت فتاته ذات التوجه الديمقراطي الاجتماعي على رسالة الدكتوراه في عام ١٩١٥ بدراسة عن الكاتب "جريلبارسر".

دوائر مُطَّلِعة
"أوتيتس"، و"فيلتش"، و"فانتا"، و"برجمان"

"الحقائق جزء من المسألة وليست جزءًا من الحل."

فيتغنشتاين، الرسالة المنطقية الفلسفية

"... لم أملك حرية اختيار الوظيفة. كنت أدرك: لن أعبأ بأي شيء في هذا الشأن الرئيسي، مثل جميع مواد المرحلة الثانوية. تعلقت المسألة، إذًا، بالعثور على وظيفة تسمح لي بهذه اللامبالاة، دون جرح كرامتي. كانت الحقوق هي أقرب الخيارات. محاولات مضادة صغيرة لكرامتي والآمال المجنونة –مثل دراسة الكيمياء لمدة أسبوعين، والآداب الألمانية لمدة نصف عام– أسفرت عن التأكيد على القناعة الرئيسية. درست الحقوق إذًا، وترتب على ذلك أنني كنت أقضي شهورًا قبل الامتحانات –مع ضغط عصبي كبير- أتغذى على نشارة الخشب التي مضغتها آلاف الأفواه قبلي. بدأت أستحسن المذاق بعد مرور فترة، تمامًا مثل المرحلة الثانوية سابقًا، والوظيفة لاحقًا؛ لمواءمة هذه الظروف لوضعي. أظهرت تفهمًا مدهشًا للأوضاع؛ إذ كانت لدي منذ الطفولة صورة متوقعة واضحة عن التعليم والوظيفة. لم أتوقع أي إنقاذ، تخليت عن كل شيء."[١]

توجه بكشف الحساب هذا إلى هيرمان كافكا، الذي هز رأسه نافيًا بالتأكيد: لا، لم تكن المسألة بهذه السهولة، ولا حديث عن توقع أو تخلٍّ. ألم يهدد فرانز مرارًا بالذهاب إلى ميونيخ؟ من المؤكد أنه لم يرغب في الذهاب إلى هناك لدفع دراسته للحقوق إلى الأمام. بدأ بهذه القصة في خريف ١٩٠٢، كان جواز السفر في جيبه، ثم تراجع في آخر لحظة. ظن الجميع، في الخريف التالي، أنه تقبل الأمر، ثم بدأت المناقشات من جديد. تحلى بإصرار غريب ومريب على تنفيذ خطته. من السهل التنبؤ بالسبب الخفي لهذه السرعة في التحرك: إن تغيير الجامعة سيتيح له مغادرة منزل الأسرة لأسباب موضوعية ودون إهانة، ليبدأ حياة أكثر استقلالًا. هل يجب عليه طرح هذا الموضوع علنًا؟

جاءت فكرة الذهاب إلى ميونيخ من خلال "باول كيش"، الذي استمع هناك، لمدة فصل دراسي كامل، إلى محاضرات الآداب الجرمانية، ثم عاد، في صيف ١٩٠٣، إلى براغ. درس أول الفصل "إميل أوتيتس" لفترة أيضًا في ميونيخ، ويبدو أن حديث الاثنين عن الحياة في المدينة الكبرى البافارية مَثَّلَ إغراءً كبيرًا لكافكا: مدينة الفنون والمسرح، والنهضة الأدبية، مدينة بمجموعات بوهيمية متشعبة، لا تشكل مجتمعات متآمرة مثلما هي الحال في برلين، بل تحتل رسميًا في منطقة "شفابينج" حيًا كاملًا. كما أن التوجهات لهذا المشهد، بما تحمله أحيانًا من طابع فوضوي، خلقت جوًا عامًا ينبئ ببداية جديدة تمامًا، تشمل جميع نواحي الحياة. لم يكن من قبيل الصدفة أن تكون ميونيخ مركزًا للفن الجديد، كما أن مجلة "الشباب"، التي منحت اسمها لهذه الحركة الفنية، صدرت هنا، لأول مرة، عام ١٨٩٦. كانت ميونيخ،

فضلًا عن ذلك، قلعة الجرائد والمجلات الساخرة المصورة؛ إذ صدر هنا قبل الحرب، بخلاف مجلة "سيمبليسيموس" المعروفة، أكثر من ستين عنوانًا آخر في هذا المجال. كما كانت هي المدينة التي استوردت المسرح السياسي، بوصفه شكلًا فنيًا جديدًا ومهاجمًا، من باريس، ووصلت به من خلال عمل "الجلادين الأحد عشر" إلى قمة الإنتاج الفني. كانت عبارة "توماس مان" "ميونيخ منورة"، التي صارت لاحقًا شعارًا سياحيًا، تعكس لحظة كتابتها، عام ١٩٠٢، الحقيقة: المدينة الوحيدة في منطقة الدول الناطقة باللغة الألمانية، التي كان لها نصيب من سحر باريس، كما بدا أنها ستسبق المروجين للحداثة في كلٍّ من برلين وفيينا.

لم يرجع السبب في ذلك إلى الأعداد الواضحة للرسامين، والموسيقيين، والأدباء، وفناني المسرح المقيمين في ميونيخ فقط، ولا إلى تنوع دور النشر، ومحال بيع الكتب القديمة وتجارة الفنون، وإنما لما تمتعت به المدينة من طابع العالمية الشابة والبراقة، بخلاف التوجهات القومية في براغ، على سبيل المثال، التي كانت سريعًا ما تزعج في الخلفية كل من يأتي إليها، وكان لها طابع محلي. تجمع الفنانون الألفان، الذين أقاموا في ميونيخ، في جاليات للمهاجرين (كان أشهرهم كاندينسكي ويافلنسكي)، ولم يلتقِ زوار المقاهي الأدبية بأدباء مثل "هاينريش مان"، و"فيداكيند"، و"ريلكه" و"جيورجة" (بدائرة المثقفين من حوله، والمعروفين باسم "كوسميكر") فحسب، ولكن ارتاد هذه المقاهي أدباء أجانب أيضًا، ولا سيما الأدباء الفرنسيون. عرفت منطقة "شفابنج"، على المستوى الدولي، بوصفها مكانًا داخل مجتمع عمراني يتيح المجال لحيوات غير تقليدية، مثل حياة "فاني زو ريفنتلوف" التي لم تكن ممكنة في سياق آخر. لقد كانت كاتبة ورسامة وممثلة، كما عُرفت بوصفها "كونتيسة شفابنج"، كما كانت ساخرة

وواثقة في نفسها، وعضوة "نادي الفنانات الألمانيات" البراغي المهتم بالثقافة اهتمامًا بريئًا.

توجه كافكا، في نوفمبر ١٩٠٣، إلى مدينة الفنون الشهيرة، ليتعرف عليها بنفسه. أجر غرفة في بنزيون في شارع "سوفين شتراسه"، غرفة مطلة على الحديقة النباتية، بالقرب من محطة القطار الرئيسية، لمدة أحد عشر أو اثني عشر يومًا –تكفل خاله، طبيب الأرياف، في الأغلب، بنقود السفر.[٢] أسباب القيام بهذه الرحلة، وسط الفصل الدراسي، غير معروفة، إذ لم يلتفت إلى الخمسين ساعة من المحاضرات التي ستفوته وعليه تعويضها لاحقًا. هل أراد زيارة المحاضرات في جامعة لودفيج ماكسيمليان؟ هذا أمر وارد؛ لأنه كان في صحبة "إميل أوتيتس"، الذي ربما قدم له المشورة، وأعطاه انطباعات أولى. لم يبقَ من عشرات البطاقات البريدية، التي أرسلها كافكا من هناك، إلا عدد قليل، ولا تذكر واحدة منها الجامعة بكلمة، كما ابتعد عن "أوتيتس"، الذي يستعرض معرفته، ليتلقى انطباعاته عن المدينة دون إزعاج. كتب إلى "باول كيش": "لم أتعرف في يومين إلا على قشور ميونيخ، وأمورٍ صغيرة في جوهر المدينة. أبدأ من الغد في التوغل داخل المجتمع – سوف أستفيد كثيرًا من ميونيخ."[٣]

لا يوحي هذا بأي نوع من الالتزام، كأنه مجرد مسافر يسعى إلى الثقافة في مدينة أراد الدراسة فيها قبل عام. زار مقهى "لويتبولد" الضخم المزين بالبرونز والرخام، الذي تذكر قاعاته بالأعمدة المزركشة بقاعات الكنائس، كما زار مطعم "ديشتلاي" في شارع "توركن شتراسه ٨١"، وهو مطعم أسطوري في "شفابنج"، يرتاده الأدباء، ويعج بدخان كثيف وروائح النبيذ، كما زار

عرض ''الجلادين الأحد عشر'' في شارع ''توركن شتراسه ٢٨''، ولكن دون مشاهدة أستاذ ''الشعر التطبيقي''، ''فرنك فيداكيند''، الذي كان قد انفصل عن المجموعة قبلها.[٤] من المتوقع أن يكون كافكا قد زار أيضًا ثالث علم من أعلام المدينة الشهير في المنطقة المجاورة، إنها ''حانة ''سيمبليسيسموس'' التي تقدم النبيذ والقهوة والجعة'' في شارع ''توركن شتراسه ٥٦''. أعلنت عن نفسها بوصفها ''حانة الفنانين''، وكان لها ''أديبها الخاص''، ''يواخيم رينجلناتس''، الذي كان يلقي أشعاره كل مساء. يبدو أن الوقت لم يسمح ''بالتسلل'' إلى صالة البولينج الأدبية الشهيرة ''التيار'' الموجودة في شارع ''توركن شتراسه ٣٤''، ولكن من المؤكد أن كافكا قضى بضع ساعات في متحف الفن الحديث؛ لأن ''أوتيتس''، المولع بالفن، كان سيستغرب، بصرف النظر عن اهتماماته الفنية الخاصة، وكذلك زملاؤه من اتحاد ''قاعة القراءة وإلقاء الخطب''، أن تفوت ''المسؤول عن تغطية الأخبار الفنية'' المنتخب حديثًا هذه الزيارة السياحية. تحدث كافكا عن كل هذه التجارب (في سياق محاضرة ألقاها في ميونيخ عام ١٩١٦)، بوصفها ''ذكريات شبابية يائسة''. ربما يعطي ذلك انطباعًا مغلوطًا: من المؤكد أنه استمتع بميونيخ، ولكن عاد بلا أمل في مستقبل هناك. لقد اضطر إلى القبول بافتقاره الاتصالات الداخلية والخارجية التي تمنحه مكانة أكبر من مجرد كونه سائحًا هناك.[٥]

لم يجب ''باول كيش'' بسطر واحد على تقارير كافكا الواردة من ميونيخ، ومن المؤكد أن كافكا المستاء لاحظ عدم اقتصار المسألة على مجرد الإهمال. صارت ميونيخ، بالنسبة لـ ''كيش''، ماضيًا، ولم يعد تحرر هذه المدينة المدهش يجذبه، كما كان متوقعًا بحسب اهتماماته الأدبية. يرجع السبب في ذلك إلى تحول موقف ''كيش'' المتزايد إلى نزعة

ألمانية وطنية متشددة، إذ شعر في النادي الألماني البراغي براحة أكثر من شارع "توركن شتراسه" في منطقة "شفابنج"، كما وجد في "أوجست زاور" معلمًا مناسبًا. جاء الابتعاد المنطقي عن كافكا سريعًا، خاصة وأن اتحاد الطلاب "ساكسونيا" الذي ارتبط به "كيش"، لم يشارك اتحاد "قاعة القراءة وإلقاء الخطب" في أي من مبادئه. كانت رؤية "كيش"، في سنوات لاحقة، تصيب كافكا بالرعب من كثرة الندبات التي أصابته في مبارزات اتحاد الطلاب، وجلبت له اسم الدعابة "شميسو".[٦]

تلاشت الصداقات القديمة، التي تعود إلى سنوات المدرسة، شيئًا فشيئًا، لتحل محلها علاقات جديدة أدخلت كافكا -الذي ظل لسنوات في دور المتفرج- بشكل أعمق إلى داخل حياة براغ الثقافية. مهد له ماكس برود الطريق إلى هذه العلاقات، ليس فقط بسبب تقدمه على كافكا بسنوات في اتصالاته المتنوعة ببيئات ثقافية مختلفة، ولكن لما يشعر به كذلك من السعادة حين يقدم أصدقاءه للتعارف، وحين ينسج شبكة من الاتصالات. بدا أن طاقة برود الاجتماعية بلا حدود، وقد أتاحت له هذه الطاقة الدخول في مجموعات قائمة، ليصير سريعًا في قلب هذه المجموعات. هذا ما حدث مثلًا مع دائرة أصدقاء زميل الدراسة "فيليكس فيلتش"، الذي التقى به مجددًا في كلية الحقوق.

كان "فيلتش" الطويل والنحيف ابن تاجر أقمشة يهودي ميسور الحال بعض الشيء، وكان من حسن حظه -مثل برود الذي كان في عمره- اهتمام والديه بالفنون والموسيقى. أحبا مشهد عزف الموسيقى وقراءة الأدب ومناقشته في منزلهما. نظما يومًا ثابتًا في الأسبوع، كل أحد يحضر أصدقاء "فيليكس" إلى زقاق "جيمسن

جاسه" ("كامسيكوفا" باللغة التشيكية) رقم ٤، وظلت هذه المجموعة منتظمة في لقائها إلى ما بعد مرحلة شهادة "الماتورا". انضم إليهم برود بالطبع، وكان يحضر معه معارفه، ونشأت، في فترة وجيزة، مجموعة حيوية، يقودها برود بكلمته، ومنتظمة في لقاءاتها لفترات طويلة في صالون عائلة "فيلتش". تعرف كافكا، في الأغلب مع بداية عام ١٩٠٣، إلى الطالب الجامعي الجديد "فيليكس فيلتش" وعائلته، ولكن لم تنشأ علاقة وطيدة؛ لأن كافكا لم يهو النشاط المربك للمعجبين ببرود. نجد، بين الرسائل القليلة التي لدينا، والتي تؤرخ لهذه المرحلة، إشارة رمزية –ولكنها مفهومة– إلى هذا السياق.[٧] كان كافكا يفضل الأحاديث المكثفة مع قلة من المقربين، في حين أنه يميل إلى حالة من أحلام اليقظة، عندما يواجه عددًا كبيرًا من الوجوه والأصوات، فيبدو أنه عديم الإحساس، أو متقمص دور المراقب؛ إذ يجلس في صمت مع ابتسامة تعلو وجهه، وفي حالة من التركيز الشديد. يوحي في الحالتين بأنه شخصية متحفظة، كما أكدت ملابسه الرسمية والمهندمة هذا الانطباع.

لذا، تطلب التعامل معه بعضًا من الصبر والتعاطف؛ حتى لا تُفسر عاداته بوصفها تعاليًا على الناس. حَوَّلَته، فضلًا عن ذلك، قلة اهتمامه بالموسيقى إلى مستمع ومتفرج: برود وأخوه "أوتو" كانا يتقنان العزف بأربع أياد على البيانو، وكان للأخت "سوفي برود" صوت عذب. عزف "فيلتش" الكمان بإتقان، وصاحبته أخته الصغيرة "بيتا" على البيانو. لم يكن لدى كافكا شيء يقدمه في هذا البرنامج الذي نال إعجاب أصدقاء الأسرة، ولم يكن حاضرًا أيضًا في ساعات المذاكرة الجماعية بعدها؛ لأن محتوى الدراسة، الذي انشغل به كل من برود و"فيلتش"، قد سبقهم إليه منذ فصلين دراسيين. لم يبقَ له

إلا ترك دفاتره لهما، تلك الدفاتر التي اشتهرت لاحقًا بالرسومات على هوامشها.

لم يكن "فيليكس فيلتش" قط أول الفصل (إذ لم يحصل على أفضل درجة إلا في مادتي اللغة الألمانية والدين). ولكن ما لاحظته دائرة معارفه الجديدة تعدد قراءاته الفلسفية، التي لاقت تقدير ماكس برود – متعدد المواهب- نفسه. لقد كان يشاركهم في القدر المحتوم -دراسة الحقوق- رغم شغف "فيلتش" بالعلوم الفلسفية. لم يستخلص منها شعارات أيديولوجية أو أفكارًا صالحة للتوظيف الأدبي، كما كان يفعل الهجومي برود. كان يحب الأبحاث الفلسفية وخطابها الأكاديمي دون غرض، ودون تطلعات أدبية. كان له طابع منهجي صارم بعض الشيء، كما كان متحفظًا دون تعالٍ، وذا حس فكاهي جاف أثار إعجاب كافكا. كان للاثنين ثلاث أخوات صغريات، ربما كان ذلك موضوعًا لأحاديث مشتركة تقارن بين أوضاعهما. لكن العلاقة استغرقت وقتًا طويلًا إلى أن صارت صداقة مقربة؛ إذ احتاج كافكا إلى تسع سنوات ليعرض عليه، في إحدى الرسائل، الاستغناء عن صيغة الاحترام بينهما.[٨]

ظل "فيلتش" شخصية هامة، وتطورت العلاقة إلى ألفة متبادلة، لدرجة أن مشاكله الزوجية، وقصص مرض كافكا الدرامية، كانت مثار أحاديث صريحة بينهما. ومع ذلك، لم تصل هذه الصداقة إلى قوة علاقته ببرود، فذكريات "فيلتش" عن كافكا ضعيفة، والسبب يكمن جزئيًا في عدم دراية "فيلتش" بقضية الكتابة بوصفها تعبيرًا عن الذات، وما ارتبط بها من عذابات الإنتاج الأدبي. بحث الاثنان عن الحقيقة بشكل قاطع، كانت المسألة بالنسبة لكافكا متعلقة بالتعبير اللغوي

والتصويري، وصحبها تحفظ شخصي وأزمة ثقة عميقة في اللغة، أزمة كانت قضية العصر مع منعطف القرن. أما اهتمام "فيلتش" فانصب على تقديم حلول لمشكلات فلسفية، ورأى أن الوصول إلى هذه الحلول ممكن من خلال تنظيم وتدريب دقيق لتفكيره. كان "فيلتش" يشعر بالثقة في اللغة، لدرجة أن هذه الثقة اجتازت دون خسائر صدمة "نيتشه" العنيفة التي شككت في القدرة على المعرفة، وذلك على النقيض من كافكا، الذي ناقش في أول لقاء مع برود -ولاحقًا مع "فيلتش" - "رسائل شاندو" للكاتب "هوجو فون هوفمانزتال". نُشِرَ النص قبلها بأربعة أيام في جريدة برلينية، وشكك تشكيكًا عنيفًا في قدرة اللغة على تجاوز التعميمات العامة، والوصول إلى حقيقة الأشياء في هذا العالم.[٩]

اختلفت السبل التي سلكها كل من كافكا و"فيلتش" – ولكن لا ينطبق ذلك بالضرورة على الأهداف التي سعى إليها كل منهما. اهتم كافكا بالتفكير الفلسفي أيضًا، وظهر، من خلال مرحلة انبهاره بعمل زرادشت، انجذابه لكتاب يجمعون بين الأدب والفلسفة. كتب إلى "أوسكار بولاك": "بعض الكتابات مثل مفتاح إلى قاعات غريبة في قصر نفسي."[١٠] لم يكن السبب في هذا التصريح قصيدة أو رواية قرأها، بل قراءة أعمال الراهب الدومينيكاني "إيكهارت فون هوخهايم" (المعروف باسم "مايستر إيكهارت")، وكذلك كتابات عالم الطبيعة وفلسفة الطبيعة "جوستاف تيودور فيشنر"، وعمله الرئيسي "زند أفستا" (أو "عن أحوال السماء والدار الآخرة" ١٨٥١) الذي صدر حينها في طبعة جديدة. لم يهتم كافكا "بفرضيات" هؤلاء الكُتّاب بوصفها مكونات رؤية متآلفة وصحيحة حول العالم، فمن المستبعد، مثلًا، أن يكون قد "آمن" بنظرية "فيشنر" القائلة: بأن كل

كائن له روح في هذا العالم، وفهمها حرفيًا. كان كافكا يرى هذه الحركات الفكرية المبهرة بعيون القارئ الأدبية، أي أنه يراقب بانتباه حجم تناغم الخواطر. حينما يجد تجاوبًا مكثفًا، يستنتج وجود حقيقة برؤية ذاتية لم يكن قد اكتشفها بعد. لم يسعه إلا استيعاب هذه العمليات على هيئة صور. ولعل القصر، بوصفه مجازًا يعبر عن متاهات الحالة النفسية، هو أول اختراعاته الأدبية العظيمة.

هذا التحرك، على الحد الفاصل بين الأدب والفلسفة، كان أمرًا معتادًا في المحيط الثقافي لكافكا: لقد عاشه في مناقشات اتحاد "قاعة القراءة وإلقاء الخطب" مع ماكس برود، فضلًا عن حلقة نقاش خاصة ومعروفة على مستوى المدينة، كان "أوسكار بولاك" قد أدخل كافكا إليها في الفصل الدراسي الثالث. كان "صالونًا" بالمفهوم الكلاسيكي؛ أسسته الأختان "برتا فانتا" و"إيدا فرويند"؛ إذ كان لهما اهتمام بالثقافة، ودعتا إلى هذا الصالون كل أسبوعين في شقة عائلة "فانتا" في ميدان "فينسلس بلاتس" بداية، ثم -بعد الانتقال- في منزل "زوم أينهورن"، الذي يقع على الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة. كان المنزل ملك "برتا"، وتزوجت فيه، كما أقيمت داخله، في الدور الأرضي، صيدلية خاصة بالعائلة. كانت "برتا فانتا"، صاحبة الثمانية والثلاثين عامًا، قارئة مطلعة، ومعروفة على المستوى الجامعي؛ إذ كانت تحضر المحاضرات الفلسفية، ولم تخشَ الحضور الطاغي لشباب متشبع معرفيًا، وربما هم في عمر أبنائها. تُظهر تعليقاتها، ومذكراتها التي بقيت أجزاء منها[11]، أن اهتمامها لم يكن منصبًا بالدرجة الأولى على مشكلات التخصص الفلسفي، بل على قضية معنى الحياة، ومحاولات منحها صبغة "فكرية". كانت تنتمي إلى آخر جيل من النساء حُرِمَ، بموجب القانون، من الحصول على تعليم مدرسي وجامعي معترف به،

وظهر هذا التخلف –مع كل محاولات تجاوزه بالرغبة في التعليم– عبر تصريحات عاطفية، ساذجة وغير واضحة، تؤكد على وضعهن بوصفهن مبتدئات. افتقر الصالون، في سنواته الأولى، إلى الانفتاح الثقافي على العالم، وعلق كافكا نفسه، بتهكم وسخرية، على لقاءات هذه الحلقة المحلية ونبيذها السيئ، ومقاعدها الخشنة، والاضطرار إلى تحمل تدريبات الغناء والاستماع في ذوق إلى المحاولات الأدبية للعائلة المضيفة[١٢]، ناهيك بصاحب المنزل، "ماكس فانتا"، الصيدلي شارد الذهن، الذي كان يحضر اللقاءات التي دعت إليها زوجته دون فهم وفي حالة من الصمت. حضور كافكا هذه اللقاءات دون صحبة "بولاك"، و"هوجو برجمان" لاحقًا، أمر مشكوك فيه.

تخللت اللقاءات لدى آل فانتا محاضرات عن الفلسفة أيضًا ألقاها ضيوف متمكنون. الانبهار بالفيلسوف "نيتشه" كان أمرًا طبيعيًا في هذا المنزل المهتم بالإصلاحات الفكرية. كانت محاضرة الصحفي وشاهد العيان "إرنست هورنيفر"، الذي راقب "نيتشه" المريض والصامت في ثمن، وكتب رثاءه، حدثًا جللًا حضره كافكا.[١٣] كما كانت القضايا الفلسفية الأكاديمية محل نقاش واسع في سياق ظواهر النظريات النفسية لأكثر الفلاسفة النمساويين شهرة وتأثيرًا "فرانز برنتانو". حاول "برنتانو"، من خلال نظرية شاملة للوعي الإنساني، الربط بين التفكير والإدراك في علاقة ديالكتيكية. قدمت نظريته أساسًا جديدًا للتفكير الفلسفي، وأراد تلاميذه المتجمعون في براغ التخلص من كل النظريات السابقة، بما في ذلك حركة المثالية الألمانية من "كانط" إلى "هيجل". حمل تلميذا "برنتانو"، الأستاذان في كلية الآداب الألمانية "كريستيان فون إرينفيلز" و"أنطون مارتي"، مشاعر احترام جمة لمعلمهم، بحيث يجد المراقب لهذا الموقف تشابهًا مع المشاعر

السائدة داخل الجماعات الدينية. اعتكف "برنتانو" صاحب الستين عامًا، وبدأ يفقد بصره في مدينة "فلورنس"، وتوافد عليه مريدوه في رحلات أشبه برحلات الحج. تلقى في براغ محاضرات حول الملاحظات المدونة هناك في حماس، وتُناقش، داخل دوائر أتباعه المخلصين فقط بالطبع، وكان من بينهم أيضًا "هوجو برجمان"، و"إميل أوتيتس" العائد من ميونيخ.

أسست مجموعة أنصار "برنتانو" حلقة نقاش مسائية خاصة بها، حلقة نقاش فلسفية تعرضت، بتفاصيل أكثر، لمشكلات التخصص مقارنة بصالون "فانتا": سمت نفسها لاحقًا "حلقة نقاش لوفر"؛ إذ كانوا يجتمعون، في أثناء الفصل الدراسي، كل أسبوعين، وكان ذلك مع بداية خريف ١٩٠٤، في غرفة خلفية لمقهى "لوفر"، الذي افتُتح حديثًا في شارع "فرديناند شتراسه". كانت هذه الحلقة، في بدايتها، فعالية غير رسمية، ووجد الضيوف الجدد سهولة في المشاركة: شارك خمسة من فصل كافكا القديم في المرحلة الثانوية مشاركة منتظمة، منهم "أوتيتس" النبيه، الذي لم يسمع شيئًا عن "برنتانو" في أثناء فترة بقائه في ميونيخ، كما لم يتحدث في محيط مجموعته المثقفة الجديدة عن نشره لديوانين وهو في التاسعة عشرة من عمره، وأنه تحدث سابقًا عن "ألغاز الحياة الأخيرة".[١٤] لم تتعلق النقاشات هنا بأحاديث فلسفية حرة، ولكن حكمت هذه النقاشات الملاقات بين التلميذ والأستاذ: طبيعة اختيار محاضرات الأساتذة واختيار المشرفين، والاستشهاد بأبحاثهم، ونقدها، من يدعم أو يهاجم من، كانت كلها شؤونًا خاصة تمثل المعيار الحاكم للمناقشات الفلسفية. النتيجة الطبيعية لهذه العملية هو التعظيم من شأن "برنتانو" على حساب فلاسفة مجددين آخرين، كالفيلسوف "إرنست ماخ" مثلًا، الذي اتبع منهج الفلسفة الوضعية،

والذي دَرَّسَ لسنوات عديدة في جامعة براغ، وتقلد منصب رئيس الجامعة في عامي ١٨٧٩ و١٨٨٠، ولكنه نادرًا ما يذكر في مذكرات أصدقاء كافكا. ظل "ماخ" حتى عام ١٨٩٥ رئيسًا لمعهد الدراسات الفيزيائية في براغ، إلى أن حصل في فيينا على الأستاذية في الفلسفة، مخلفًا وراءه في براغ تلاميذ في العلوم الطبيعية، ولكن ليس في الفلسفة. أدى هذا الفراغ في سياق الخطاب الأكاديمي إلى حالة من عدم التواصل، على الرغم من وجود العديد من نقاط التلاقي الموضوعية.[١٥]

سادت، إذًا، في "حلقة نقاش اللوفر" مدرسة فلسفية وحيدة، وبالتالي، جذبت مجموعة محددة من الطلاب ذات اهتمامات خاصة دون سواها، أما دخول أشخاص مثل ماكس برود فكان محل انتقاد متزايد. لجأت محاضرات "أنطون مارتي" إلى وسائل انتقائية أكثر قوة؛ إذ كانت محاضرات جامعية، ولكنه كان يلقيها في شقته الخاصة المطلة على حديقة "شتاد بارك"؛ ليؤكد بذلك على تفردها. كان ظهور "برتا فانتا" وأختها "إيدا" في مقهى "اللوفر" أمرًا طبيعيًا، أما محاضرات "مارتي"، التي تناولت أبحاث الطلاب العلمية، فلم تكن متاحة بالنسبة لهما. قاد هذه المحاضرات أكثر تلاميذه موهبة، الذين كتبوا رسائل الدكتوراه لاحقًا تحت إشرافه، مثل "برجمان" و"أوتيتس".

يعد حجم مشاركة كافكا في عمل هذه المجموعات محل نزاع؛ فقد حضر، على مدار عقد، صالون "فانتا"، ولكن بشكل غير منتظم، وبعد إلحاح من أصدقائه. بحسب ما يذكره برود، لم تكن الحال مختلفة مع حلقة نقاش "لوفر"، على الرغم من معرفة كافكا بالأسس العلمية من دروس الفلسفة في المرحلة الثانوية ومن محاضرات "مارتي" و"إيرينفيلز"[١٦]، فقد ظل في دور المراقب، الذي

قلما يبدي تعليقًا على النقاش. لم يحسب أيضًا ضمن المواهب الفلسفية المعترف بها؛ إذ رسب في امتحان اختياري في إحدى مواد "مارتي"، وذلك على الرغم من مساعدة "برجمان" له، ولم يدخل في دائرة المشاركين الأساسية. ولكنه عدَّ، من ناحية أخرى، الفلسفة في سياق "خواطر فلسفية" ضمن "مباهج" الحياة المتنوعة، التي ضحى بها من أجل الكتابة الأدبية[١٧]. يمكن وصف سنوات نضج كافكا بأنها مرحلة التداخل المركب للاهتمامات الفلسفية والفنية، قراءته المتحمسة للفيلسوف "نيتشه"، وحضوره محاضرة "مدخل إلى تاريخ الفلسفة الحديثة" في شتاء ١٩٠٤/ ١٩٠٥. كان في هذه المرحلة بعيدًا كل البعد عن الصفائية الأدبية في سنواته اللاحقة. إذًا، لم يكن من قبيل الصدفة أن يتعرض النص الوحيد الموجود لكافكا الذي يتناول مصطلحات "برنتانو" لموضوع جوهر التجربة الجمالية. كان هذا النص غير المكتمل -خمس صفحات مكتوبة بالقلم الرصاص- محاولة لتقديم نقد ممنهج حول مقالة برود "عن علم الجمال". على الرغم من أن كافكا يقتحم هنا مجالًا غريبًا عليه، وأن حججه غير مقنعة على الإطلاق، فإن نصه يحوي فقرة ذات صلة بإنتاجه الأدبي اللاحق:

"المطلوب، إذًا، شرح مصطلح "إدراك الشعور الجمالي" على نحو أكثر تفصيلًا، مع العلم أنه لم ينتشر بعد انتشارًا مكثفًا. كيف ينشأ هذا الشعور باللذة، وما يميزه عن السعادة باكتشاف جديد، أو خبر من بلد بعيد أو من أي مجال علمي."[١٨]

لو كان كافكا قد قرر مواصلة دراسته في ميونيخ، لتعلم الكثير في هذه المسألة مقارنة بحلقة النقاش في مقهى "اللوفر"؛ لأن الأستاذ

المعاصر المتخصص في تجارب اللذة الجمالية هو الفيلسوف وعالم النفس "تيودر ليبس" المقيم في ميونيخ، الذي أصدر في العام نفسه، الذي طرح فيه كافكا سؤاله، عمله المتكون من جزأين علم الجمال. لم يستهل "ليبس" عمله هذا بفصل عن "الشعور باللذة" فحسب، ولكنه سبق كافكا، بزمن طويل، إلى التفكير في تفسير للمصطلح المطروح. كتب "ليبس" عام ١٨٨٣: "يوازي إدراك الشعور الجمالي يقين تام بأن هذا المضمون له ضرورة جمالية في سياق محدد." – يماثل هذا الوصف مضمون مصطلح "دليل" الإدراك الداخلي، الذي منحه أنصار "برنتانو" نوعًا من القداسة.[١٩]

كان مع برود الحق في إبداء تحفظه المتكرر على محاولات إثبات تأثير نظرية الإدراك للعالم "برنتانو" في أعمال كافكا الأدبية: لم تكن "التأثيرات" في أعمال كافكا عادة بهذه المباشرة، وبالتالي، كانت الحجج المتجمعة في هذه الدراسات ضعيفة. ولكن يبالغ برود، من ناحية أخرى، في زعمه أن عمل كافكا الفلسفي، غير المكتمل، يناقض بعنف مدرسة "برنتانو"، ناهيك بإعلانه بأن كافكا فقد اهتمامه في عام ١٩٠٣ بالفلسفة المنهجية، ولم يطرح اسم "برنتانو" في مناقشاته المتخصصة معه. وجود هذه الملحوظة الناقدة، التي لم يسلمها كافكا إليه في صمت بالتأكيد، تنفي هذا الزعم.[٢٠]

انبهر كافكا بأنصار مدرسة "برنتانو" الذين لمس لديهم قدرًا من المرونة الفكرية. لم يكن "مارتي"، الذي لم يكن له أي اهتمام أدبي رغم كتاباته في الفلسفة اللغوية، من بينهم بالتأكيد، ولا المساعدان التابعان له، المدرس "أوسكار كراوس" (الذي كتب قصيدة "مايريادة") و"ألفريد كاستيل" كذلك. كانا يحبان الحديث المازح بين الرجال، ولكن هذا الوضع

يتغير سريعًا حينما تتعلق المسألة بالنصوص المقدسة "لعلم النفس الوصفي".

كان "كريستيان فون إرنفيلز" مدرسًا من نوع آخر؛ كان ضخمًا، بنظارة، وذقن، ومعطف غريب المعالم. تشهده يتجول في أزقة براغ بخطوة سريعة ويداه خلف ظهره، وتصحبه مجموعات من طلابه الذين يناقشون أستاذهم حتى وصوله إلى مدخل منزله. حضر "إيرنفيلز"، عام ١٨٩٦، إلى براغ، وكان يتحدث عن معلمه السابق "فرانز برنتانو" ـ الذي كان يتبادل معه الرسائل الودية ـ باحترام شديد، ولكن ذلك لم يمنعه من اتخاذ تعاليم الأستاذ أساسًا لأبحاث مستقلة تمامًا، بوصفه أحد رواد نظرية التعلم بالاستبصار (النظرية الجشطالتية). لم يشارك في حلقة نقاش "لوفر"، وسعى إلى إنشاء جمعية فلسفية خاصة به في براغ، ولكنه فشل. تخطت اهتمامات "إيرنفيلز" حدود الخطاب الأكاديمي: كان من أتباع "فاجنر" المتحمسين، وانشغل بالنظريات العرقية من أجل تحسين التركيب الجيني للإنسان، كما نشر كتابًا مربكًا في مجال علم الأخلاق الجنسي، معلنًا، من خلاله، عن انتهاء فكرة الزواج الأحادي. حاول تقديم نصوص مسرحية وأوبرالية، وكتب في أثناء الحرب العالمية عمله أصول الكون، المتأثر بفن "فاجنر"، كما جرب حظه في مجال الرياضيات (مع أنه اعتقد ـ بحسب نادرة قيلت عنه ـ أن قاعدة فيثاغورث هي أحد إنجازات القرن العشرين)[٢١]، وفكر، لاحقًا وبمنتهى الجدية، في الدعوة إلى دين عالمي جديد، يكون قائده الرئيس التشيكي "مازاريك"، وهو أحد تلاميذ "برنتانو"! كتب برود ـ وهو محق ـ عن "القوى الفائقة والعبقرية بمفهومها الخاص"[٢٢] لهذه الظاهرة، ولكن كان لتفكير "إرنفيلز" طابع رجعي وانهزامي. كان، على المستوى الشخصي، شخصًا منفتحًا، يفكر في تصرفاته، ويمثل، على المستوى

الخارجي، نمط المصلح المثقف، الذي لا يهتم بالسياق الأخلاقي أو السياسي، ولا يبالي بما هو "ممكن"، وينساق وراء تفكيره الخاص الذي قد يؤدي به إلى متاهات مضحكة في مدينته الفاضلة.

كان "إيرنفيلز" من الشخصيات الأولى الخارجة عن المألوف التي أحبها كافكا بشكل خاص: خلقت هذه الشخصيات في دفاعها عن قضاياها سذاجة وحماسًا -بصرف النظر عن الآراء العلمية والقواعد الاجتماعية- وأحاطت بهم هالة من الصدق أثرت في نفسه كثيرًا، حتى إن بدا هذا الشخص محل الإعجاب شخصًا أحمق، يورط نفسه في فرضيات تفتقر إلى المنطق. عَدَّ كافكا هذا الإصرار الشاذ طابعًا شخصيًا، رغبة في عدم التكيف، وتعبيرًا عن استقلالية حارب الشخص المعني من أجلها كثيرًا. كان هذا العناد نفسه يصيبه بالنفور حينما ينظم نفسه، ويتحول إلى سلوك يشبه سلوك الجماعات الدينية، ويبدأ في ممارسة الضغوط على من هو مختلف. كان لكافكا حس خاص بكشف ألاعيب هذه السلطة، كما قدمت المعارك الأكاديمية الجديدة خير مثال عليها كل يوم، حتى في الغرف الخلفية لمقهى "لوفر".

قدم ماكس برود نفسه، حين ظهر في حلقة النقاش هذه لأول مرة -ربما بتقديم من كافكا الذي كان يشارك في الحلقة منذ فترة- بوصفه مناصرًا قويًا لفلسفة "شوبنهاور"، وأنه لن يتخلى عن أفكار أستاذه، ولكنه على استعداد لدراسة أعمال "برنتانو" المشوقة بجدية ودون تحفظ. كان هذا الإعلان عن تقديره كافيًا بوصفه جواز مرور إلى المشاركة في حلقة النقاش، خاصة بعد تسجيل اسمه في محاضرة البروفسور "مارتي". كان يُنظر إلى برود بوصفه مبتدئًا بريئًا، يمكن تشكيله، وسوف يجد لاحقًا الطريق الصحيح. حتى عندما زعم في إحدى محاضراته أن علم

الأخلاق القائم على البرهان بحسب "برنتانو" غير ممكن؛ لأن الأخلاق قائمة، بحسب "شوبنهاور"، على الشعور بالشفقة، ولا تنبع من التفكير -حتى بعد هذا الإعلان العنيد، اكتفوا بالتقليل من شأن هذه المصطلحات، بوصفها تنتمي إلى مرحلة ما قبل الحداثة المفتقدة للمنطق.

برود، الذي نظر إلى حلقة نقاش "لوفر" بوصفها ساحة للتدريب على التفكير الفلسفي، تخطى الخط الأحمر حينما نشر أفكاره الناقدة رسميًا. فقد نشر، خلال شهور قليلة في عام ١٩٠٥، في جريدة أسبوعية برلينية اسمها الحاضر، نصين أدبيين، تسببا في شعور أنصار "برنتانو" بالمرارة: يحمل النص الأول عنوان لماذا يغني العصفور؟ ويتناول (بدون ذكر أسماء) المناقشات العقيمة في منزل "مارتي" الخاص، حيث لم يكن الاهتمام بالحقيقة الفلسفية، بل بالتباهي أمام الأستاذ. أما في النص الثاني، قصة تحت عنوان توأمي الروح، تصف الشخصية المحورية، فيلسوف لا يفهم شيئًا، نفسها بهذه الكلمات: "تعرف أنني مناهض للروحانيات، ومن أنصار "برنتانو"." كان هذا كافيًا.

وجد برود، عند الزيارة التالية لمقهى "لوفر" في صحبة كافكا، نسخة من جريدة الحاضر فوق المنضدة التي اعتاد الجلوس عليها، وذلك تمهيدًا لمحاكمته. وجه "أوتيتس" و"برجمان"، المدعيان الرئيسيان، لبرود تهمة السخرية من "برنتانو" وتلاميذه في جريدة أدبية، لم يسعف برود اعتراضه بأن رأيه الناقد معروف للجميع. لم يكن قد فهم بعد أن هناك اختلافًا كبيرًا بين التعليق الشفهي ونشر رأيه كتابة. لقد أدرك ذلك في هذه اللحظة على نحو صادم. يظل التعليق الشفهي قابلًا للتشكيل، أو التأكيد عليه، أو تغيير معناه، أو نسيانه بحسب الرغبة، كلها أمور ممكنة. أما المضمون المطبوع فلا يمكن التهوين من شأنه؛ لقد صار

موجودًا، ومعرضًا لسوء الفهم، ولا يمكن الغفران له. إنه المشهد الهجومي الأول في حياة برود؛ إذ كان، في السابق، محفوظًا من هذه التجارب، وعرف، في هذه اللحظة، المقاومة المريرة التي يمارسها العالم من حوله. تتمثل قوة هذه الضربة في أنها جاءت من رفقائه الذين تحولوا إلى الجبهة الأخرى. كتب بعد مرور سبع سنوات: "كم أنهم هزوا ثقتي بنفسي من أعماقها؛ ظننت نفسي مجرمًا."[٢٣]

امتدت المناقشات الساخنة حول كيفية التعامل مع هذا المجرم لساعات، ولم يرتفع صوت للدفاع عنه، لا سيما بعد الكشف عن تقديم برود مضمون وصفه لمحاضرة "مارتي" في شكل كتابه الأول المنشور، وهي خطوة لم يملك لحظتها التراجع عنها. مال كافكا إلى برود وهمس في أذنه قائلًا: إن أفضل قرار هو الانسحاب إلى الأبد. هذا ما حدث بالفعل، وذهب معهما "فيلتش"، الذي ابتعد، لاحقًا، عن حلقة النقاش. وصل برود من أنصار "برنتانو" خطاب يعلمه رسميًا باستبعاده من "حلقة النقاش العلمية في مقهى "لوفر"، مع التأكيد في الوقت ذاته على السماح له بمواصلة المشاركة في صالون "فانتا"؛ لعدم الرغبة في قطع "الاتصالات الشخصية" معه. تأرجح برود بين مشاعر الدمار وكبريائه المجروح، ولم يستطع قبول هذا العرض. حتى مساندة كافكا له كانت مصحوبة بمرارة؛ إذ أصر على نزاهة شخص المدعي "برجمان".[٢٤] جاء التصالح بعد مرور سنوات —تصالح حقيقي مع "برجمان"، وشكلي مع "أوتيتس". عادت "برتا فانتا" إلى كتابة الدعوات اللطيفة.

شعر برود بنوع من الارتياح بالتأكيد، حينما توقف عمل حلقة نقاش "لوفر" خلال العامين التاليين؛ إذ صار صالون "فانتا"، في الوقت ذاته، أكثر تشابهًا مع المحاضرات الفلسفية. توقفت المجموعة عن

ممارسة ألعاب اجتماعية، مثل لعبة الرهن، كما لم يكرروا كثيرًا الحفلات التنكرية، التي ارتدى خلالها كافكا وبرود الزي الرسمي لرجال السلك الدبلوماسي. التقت المجموعة، بدلًا من ذلك، لقراءة الأعمال، وصارت، في سنوات لاحقة، محاضرات دورية: عمل "كانط" ملاحظات أولية عن أي ميتافيزيقيا مستقبلية، وعمل نقد العقل الخالص، وكذلك عمل "فيشته" علوم المعرفة، وعمل "هيجل" ظاهريات الروح. كانت كلها نصوصًا لم تحسبها مجموعة "برنتانو" جديرة بالمناقشة. لم تظهر شخصيات مثل "أوتيتس" مرة أخرى، متبعًا بذلك قناعاته، وصار "هوجو برجمان"، بدلًا من ذلك، هو المتحكم في البرنامج: تحول من مناصر متعصب لـ"برنتانو" إلى مناصر معتدل. كان يعرف -إلى جانب "فيلتش" - كل الأعمال النموذجية لعصر المثالية، وتمكن من شرحها بوضوح، لدرجة أن ابن العائلة في المنزل، "أوتو" الذي كان طالبًا بطيء الفهم، كان يدرك بقدر ما شرحه. أما كافكا، الذي وجد في هذا التعليم الممنهج أسلوب تعليم مدرسيًّا، لم يحضر إلا نادرًا، على الرغم من رجاء برود المتكرر.

كان هناك سبب آخر لتولي "برجمان" رئاسة الصالون سريعًا ودون منازع: صار عضوًا في العائلة بخطبته الهادئة، في مايو ١٩٠٤، ابنة عائلة "فانتا"، "إلزه"، التي كانت في السابعة عشرة من عمرها. وقعت هذه العلاقة تحت ضغوط شديدة لفترة طويلة؛ لأن تصورات الوالدين عن زوج المستقبل للابنة "إلزه" كانت شديدة الاختلاف. سعدت "برتا فانتا" بوجود شاب جاد بهذا الثقافة الشاملة في محيط العائلة، أما السيد الصيدلاني فاعترض على هذا المتقدم الذي لا يملك أي موارد، ولم يستطع والداه سداد المصروفات الدراسية، كما اختار

من بين التخصصات العلمية مادة لا تدر عليه خارج أسوار الجامعة مليمًا واحدًا.

على عكس آل كافكا، لم تتوقف المسألة لدى آل فانتا عند مجرد العثور على زوج "يعول" ابنتهم، فقد ضمنوا، منذ فترة طويلة، المحافظة على استقلالية ابنتهم في العلاقة الزوجية، فعلى الرغم من درجاتها المتواضعة دخلت "القسم الثانوي" لمدرسة الفتيات في براغ "الليسيوم"، التي أنشئت عام ١٨٩٨. حضرت هناك حصصًا مدرسية في اللغة اللاتينية واليونانية، وتمكنت، على هذا الأساس، قبل الخطبة بأشهر قليلة، من اجتياز "امتحان استثنائي لممارسة الصيدلة" بدرجات نجاح ضعيفة. صارت، مع نهاية عام ١٩٠٣، "متدربة" في صيدلية أبيها، وحصلت، لاحقًا، بالفعل على درجة الماجستير في الصيدلة. لم يكفل لها هذا الوضع الحد الأدنى للمعيشة فحسب، بل كفل لها أيضًا تولي شؤون الصيدلية نوعًا من يسر الحال، بصرف النظر عن مستقبل عريسها المهني. ولكن لم تسعد "برتا فانتا"، بالطبع، بفكرة أن ابنتها ستعول في المستقبل معلمًا، أما "ماكس فانتا" فكان يراقب تطورات الوضع المهني لزوج ابنته المستقبلي بارتياب شديد (متناسيًا أنه حصل على الصيدلية من خلال مهر زوجته).

كانت لديه أسباب وجيهة لذلك، فبعد إضاعة عام كامل في معهد الدراسات الكيميائية، ركز "برجمان" كل جهوده على الفلسفة، ودخول السلك الأكاديمي؛ إذ كان اهتمامه بالمادتين الفرعيتين، الفيزياء والرياضيات، اهتمامًا فلسفيًا وليس بهدف التخصص. كان أداؤه متميزًا، تعلم -بالتزام كعادته منذ الطفولة- كثيرًا وسريعًا. حصل، في ديسمبر ١٩٠٥، على درجة الدكتوراه، برسالة، تحت إشراف

البروفسور "مارتي"، عنوانها: "نظرية الذرة في القرن التاسع عشر: دراسة في إشكالية تاريخ الفلسفة"، ليسبق بذلك كافكا بستة أشهر. كانت مناسبة لطيفة، عناق وقبلات بين الأسرتين، ولكن قبل الانتقال إلى الخطوة التالية المطلوبة، أي الحصول على رخصة التدريس، توالت العقبات التي لم يتوقعها أحد؛ لأن "برجمان" يعيش حياة مزدوجة.

كان معروفًا وسط زملاء الدراسة بهوسه بالصهيونية، ولاقى، من وراء ذلك، الكثير من السخرية ومحاولات إقناعه بالعدول عن الفكرة، كما حاول كافكا معه. تخلى الجميع، بعد فترة، عن هذه المحاولات، وبعد الحصول علي شهادة "الماتورا"، وشق الطريق في الحياة، اكتفوا بهز رؤوسهم عند سماع أخبار عن نشاط "برجمان" في هذا الشأن. صحيح أنه لم يمارس الدعاية لأفكاره في محيط الأصدقاء القدامى، أو زملاء الدراسة الجدد، ولكن عرف الجميع أن هذا الموهوب رفض العضوية في أهم منتدى ثقافي للطلاب الألمان "اتحاد قاعة القراءة وإلقاء الخطب".

كان ينتمي، هو وأخوه الأكبر "أرتور"، إلى منظمة منافسة، الاتحاد الصغير نسبيًا "للطلاب اليهود"، الذي أنشئ عام ١٨٩٩ بتوجه يهودي قومي وصهيوني، كما اتخذ المتمرد اليهودي "بار كوخبا" اسمًا له. تولى "برجمان"، منذ الفصل الدراسي الأول وهو في الثامنة عشرة من عمره، رئاسة اتحاد "بار كوخبا"، ونجح، بمبادرة شخصية منه، في التواصل مع اتحادات مشابهة في مدن نمساوية أخرى، مع الحفاظ على الدور القيادي لطلاب براغ، وعلى رأسهم "برجمان".[٢٥]

لم تخفَ نشاطاته هذه على الدوائر العلمية التي كان يتواصل معها، خاصة بعد نشره مقالات صهيونية وإلقائه المحاضرات، لينتقل بذلك من

مجال القناعات إلى مجال العمل السياسي. عرف الجميع في صالون "فانتا"، وفي دائرة "برنتانو"، ومحيط معلمي "برجمان"، بالأمر. ولكن لم تكن الصهيونية موضوعًا مسموحًا بتداوله في هذه السياقات، ولذلك فضل الجميع -ما دام "برجمان" لا يتجاوز حدود الأدب بخلط الأمور- التعامل مع الوضع بسرية، وكأنه مسألة شخصية، كما كان يُتَعَامَل مع هفوات البروفسور "إيرنفلز" في طرح آرائه. أصبح الموقف، في عام ١٩٠٤، محرجًا لجميع الأطراف، حينما طالب "اتحاد قاعة القراءة وإلقاء الخطب" بنفي اتحاد "بار كوخبا" من حرم الجامعة الألمانية في براغ؛ لأنه يتنافى مع الفكر الألماني لهذه المؤسسة. تعرض كل من كافكا، و"فيلتش"، وبرود، وغيرهم لموقف محرج بانتمائهم إلى اتحاد يحاول منع اتحاد آخر، يديره صديق، من ممارسة عمله. لم تنجح هذه المحاولة (ولا محاولة شبيهة تكررت بعدها بثلاث سنوات)، ولم يضطروا لذلك إلى القلق من هواية "برجمان" للصهيونية. ستصيب كافكا، بعد عقد تقريبًا، دهشة من قدرات "برجمان" الخطابية، إذ يبدو أنه لم يلحظها من قبل[٢٦] - مما يعد مؤشرًا يؤكد على عدم اكتراثه، هو وغيره، باهتمامات هذا الصديق. سعى "برجمان" نفسه إلى هذا الوضع؛ لعدم رغبته في سماع المزيد من التعليقات الساخرة. تجنب الخوض في موضوعات بعينها، أو استخدام مصطلحات معينة، ما دامت خارج مجموعته الصهيونية. لم يستنكر أحد في محيطه هذا الصمت، ولم يستفسر أحد جديًا عن أهداف هذا الصهيوني، ولم يهتم أحد بمعرفة أهم الشخصيات التي تمثلهم. وقف ماكس برود ذات يوم مندهشًا أمام صورة معلقة في غرفة "برجمان"، رجل بهندام عصري وذقن آشورية كثيفة. سأله عن هوية هذا الشخص. "تيودور هيرتسل"، "ومن تيودور هيرتسل؟".[٢٧]

لم يستطع معلمو "برجمان"، الذين اهتموا بمستقبله، تجاهل هذه الحياة المزدوجة لفترة طويلة، وأدركوا استحالة حصوله على الأستاذية من جامعة براغية بوصفه يهوديًا، كما أن نشاطه الترويجي للقومية اليهودية كان ينسف أي محاولة لاستثنائه من الأساس. وضعه "أنطون مارتي" تحت ضغوط خاصة، وجعله -شرطًا لاستمرار الدعم- يتنازل بعد الحصول على درجة الدكتوراه عن عضوية اتحاد "بار كوخبا"، ويمتنع عن إلقاء محاضرات عامة. ولكن لم يكن ذلك كافيًا على الإطلاق. ألم يدرك "برجمان" صعوبة حصوله على الاثنين معا، وأن حياته الأكاديمية ستنتهي قبل بدايتها في حالة عدم اعتناقه المسيحية؟ لم يملك مثله الأعلى في الفلسفة "فرانز برنتانو" زعم شيء مخالف، عندما التقى به لأول مرة بعد الدكتوراه، وكان بحسب رسائله يقدره تقديرًا جمًا. كان "برنتانو" نفسه في سابق عهده قسيسًا كاثوليكيًا، وضحية اختلاف قدري بين الدين وسياسات التعليم. لقد انتهت حياته الأكاديمية مبكرًا؛ بسبب تعصب ديني كانت براغ تعرفه جيدًا.[٢٨] هذا الشاب الموهوب، والمناصر لفلسفة تقوم على العقلانية ومراقبة الذات بدقة، لم يفهم أسبابه التي دفعته لعدم القيام بما هو منطقي، إنه "تغيير بسيط" سيؤدي به إلى الأستاذية. هذا ما فعله "أوتيتس"، ماذا يمنعه إذًا؟ ظل "برنتانو" يتحدث لساعات إلى "برجمان" الصامت، حدثه في خطابات عن الوحشية الأخلاقية لإنجيل العهد القديم، التي لا يمكن لعالم جاد أن يصدقها ـ ولكن دون جدوى.[٢٩]

إذًا، كان هذا هو الرجل الذي أرادت "برتا فانتا" ائتمانه على ابنتها "إلزه". ليس من العسير تخيل النقاشات التي دارت في منزل آل فانتا، خاصة مع المستقبل المجهول لهذه الزيجة المرتقبة. وقعت "إلزه" نفسها في حب "هوجو"؛ إذ كان يأسرها بأسلوبه، حتى

إن امتنع بصرامة عن أي رومانسيات قبل الزواج. أعجبت بأن والديها ينصتان إليه بوصفه معلمًا. كان هناك زوار آخرون للصالون أعجبت بهم أيضًا، كان كافكا أحدهم، ولكن لم يكن هناك سبب في هذه السنوات المبكرة يدعو "برجمان" للغيرة، على الرغم من وجود قصائد حب موجهة إلى "ف. ك." في أوراقها. مقارنة بجديته وقدرته الفائقة على الإقناع، لم يمثل أي صديق منافسًا لخطيبها. من الصعب تحديد مدى اقتناعها بمبادئ "برجمان" قناعة حرة، دون تعليمات منه. ترجع تربيتها المتحررة، المائلة إلى الاندماج في المجتمع المحيط، عدم سهولة الانتقال إلى هذا العالم الجديد؛ إذ كان عليها تقبل الملاحظات الجارحة داخل أسرتها، بسبب "حبيبها التلمودي" (كما كانت تطلق عليه أحيانًا).[٣٠]

احتاج "برجمان" إلى أي وظيفة ليتزوج، ولذلك، صار، في مارس ١٩٠٦، متدربًا في مكتبة جامعة براغ؛ وظيفة جلبت له بعض الكرونات، وتركت له قدرًا من الطاقة ليعمل على إصداراته الفلسفية. صدر في ١٩٠٨، عام زواجه من "إلزه فانتا"، كتاب "دراسات في إشكالية برهان الإدراك الباطن". كان عملًا يدل من عنوانه على نشأته في ورشة "برنتانو"، وقد استعان به "برجمان" جواز مرور إلى جامعات أخرى، خاصة في الرايخ الألماني، حيث لم يضطهد اليهود حينها اضطهادًا ممنهجًا. سافر برسائل توصية إلى "هالة"، و"ماربورج"، و"فرنكفورت"، و"إرلانجن"، و"توبينجن"، كما تحدث في "جوتينجن" إلى عالم الفلسفة الظواهرية "إدموند هوسرل"، الذي يعد أهم تلاميذ "برنتانو". وجد استقبالًا لطيفًا في كل مكان ذهب إليه، ولكنه لم يجد بابًا مفتوحًا إلى طريق الأستاذية. ظل "هوجو برجمان" في وضع عبثي، المتدرب صاحب المؤهلات العليا، سبع سنوات كاملة.

ترقى، مع بداية عام ١٩١٣، ليصير موظفًا مساعدًا في المكتبة، براتب أقل من راتب كافكا بكثير، ولكنه لم يعد وقتها في حاجة إلى الترقية؛ إذ باتت هناك، بعد الزواج، ثروة تحت تصرفه لا تقل عن مرتب أستاذ جامعي. ما كان كل الجد والتعليم والتوصيات العلمية ليحميه من السقوط في قاع البرجوازية بوصفه صهيونيًّا، لولا ضربة الحظ بزيجة أنقذته، ولكن مع عجزه عن منح زوجته الوضع الاجتماعي المأمول.[٣١] جمعت صداقة دامت عقودًا بين والدي كافكا ووالدي "برجمان"، وكان هذا الوضع بمنزلة جرس إنذار أكد بقوة على صواب تفكيرهم العملي: كان من الممكن أن يصير حال كافكا مثل حال "برجمان"، لولا إقناعهما له بالعدول عن خرافات الدراسات الجرمانية والفلسفية، ولولا قيادتهما له إلى الطريق الصحيح، الذي يضمن لشخص مثله التقدم المهني، شخص يؤمن "بدين موسى". كان يجب الشكوى من افتقاده حرية الاختيار المهني. صحيح، ولكن لم يملكها يهودي قط.

سيادة وشفاء

"تقولون عني إنني بخيل
أعطوني إذًا ما أبذره."

جوته، الديوان الغربي الشرقي

انتهى عصر الإجازات الصيفية التلقائية، وقريبًا ستبدأ في حياة كافكا مرحلة دور الاستشفاء والمصحات. ولكن لم تختلف الظروف كثيرًا؛ لأن ترك محل الخردوات أسابيع أو أشهرًا تحت إشراف شخص غريب لم يكن واردًا على الإطلاق، على الرغم من تخلي آل كافكا عن محلهم، في مايو ١٩٠٦، وانتقالهم على مسافة قريبة إلى الدور الأول في زقاق "سلتنر جاسه" رقم ١٢، ليتحولوا إلى بيع الجملة. صارت مواعيد العمل أكثر مرونة، ولكن كبر حجم التجارة، وصار الاعتماد أكثر على القروض، إنها مسؤولية ضاغطة.

كان ثمن رحلات الاستجمام المتاحة في تكلفتها المادية هو السفر بشكل منفصل عن باقي أفراد العائلة، أي الاستجمام أيضًا –طواعية- من العائلة نفسها. في صيف ١٩٠٢، على سبيل المثال، حينما أخذت جولي كافكا ابنتها إيلي ذات الاثني عشر عامًا إلى "مارين باد" (التي كان ينطقها البراغيون مع التشديد على المقطع الأول: "مآرين باد").

كانت، في الأغلب، المرة الأولى التي يتمتعون فيها بأماكن الاستشفاء الأنيقة. سافر هيرمان كافكا، عام ١٩٠٥، دون عائلته إلى "نوردرناي"؛ ليستجم في محيط أقاربه، وليهدئ قلبه المتوتر. يبدو أن هذه الإجازات المنفصلة تكررت في سنوات أخرى؛ لأن كافكا كتب في خطاب إلى الوالد: "أنا لم أزرك قط في "فرانزنس باد"". ـ صياغة تشير إلى تكرار زيارات الأب المنفصلة إلى دور الاستشفاء.

لم تكن الإصابة بالمرض شرطًا لزيارة أماكن الاستشفاء في غرب بوهيميا المعروفة بمثلث المسابح "كارلس باد، مارين باد، فرانزنس باد"، بل على العكس: من كان يؤكد هنا على صحته الجيدة، وحضوره بسبب إجهاد العمل، كان يكتسب وجاهة اجتماعية، خاصة هؤلاء الذين كانوا يملكون المال ليتنقلوا من فندق استشفائي إلى آخر بسبب "التوتر"، الذي كان يعد مرض العصر في مرحلة منعطف القرن. كانت مناطق الاستشفاء أماكن للتعارف بين الجنسين، وسوقًا للزواج أيضًا، ووجد هنا هؤلاء المعذبون، ميسورو الحال من عائلات محترمة، فرصًا جيدة. اتسمت طرق التعامل بالاسترخاء، كما أضفت عالمية، غير مألوفة، حيوية خاصة على هذا الأماكن؛ إذ تصل قطارات تحمل أطعمة فاخرة من أوستند، وباريس، وإسطنبول. كانت كلها عناصر تؤكد عليها الصحف المعنية بهذا المجال وقوائم مناطق الاستجمام. أعطت حفلات الموسيقى والرقص، والعروض المسرحية، فضلًا عن ملاعب التنس والجولف، مجالًا للتواصل. كانت المماشي القليلة، التي تعج بالحياة، ملتقى في مواعيد ثابتة لتجاذب أطراف الحديث باسترخاء عن العلل المشتركة وكيفية علاجها، أو للسخرية من النزلاء القلائل، الذين لم يلتزموا بتعليمات الحركة البدنية، وركبوا الخناطير التي تتحرك بعجلها في هدوء. أوصى الأطباء بنزهات تتخللها

برامج نزهات، تصحبها أنشطة جسدية بنسب مجهود مختلفة ("برنامج علاج مارين باد")، واستحمام بحركة واستحمام بالطمي، وبرامج شرب من مياه الينابيع المحلية. ثم يجري بعدها تدمير التأثير المطلوب بعدها بالتهام أكوام من الكعكات بالكريمة. حمل النزلاء أكواب الشرب في أيديهم؛ من أجل التأكيد على أن هدف الزيارة ليس التسلية، كما استخدموا الموازين المتاحة في كل مكان. ولكن، مع كل ذلك، تمحورت التجربة الذاتية حول الرفاهية المتمدنة على خلفية طبيعة مصطنعة للغاية. "مقاهٍ راقية، تحصل فيها على كل أنواع الصحف، وتجد في بعض المطاعم طعامًا لا بأس به، ولم يكن المسرح سيئًا –تلتقي ببعض الشخصيات– وعليك تحمل الهواء المنعش هناك."[1]

كانت أعداد اليهود في مناطق الاستجمام البوهيمية فائقة –قدرها طبيبٌ عملَ لسنوات في "كارلس باد" بنحو خمسين بالمائة[2]. والأسباب واضحة. اعتاد اليهود من الطبقة البرجوازية تجميع أسرهم المتفرقة في لقاءات وزيارات دورية، وكانت هذه الأماكن المخصصة لقضاء العطلات مناسبة تمامًا، خاصة مع سهولة الوصول إلى موقعها في بوهيميا من جميع الاتجاهات. ومن ناحية أخرى، كانت خطورة التعرض لمضايقات مناهضة للسامية أقل درجة بمناطق الاستجمام في الحضر، مقارنة بالمصايف في المناطق الريفية. من البديهي أن تطلق، في "كارلس باد" أيضًا، المزحات المعروفة عن اليهود، التي انتقلت من جيل سياحي إلى آخر ("توجد هنا كنيسة للكاثوليك، وكنيسة روسية للروس، ومعبد يهودي لنزلاء المصحة.")، ولكن ازدهار خدمات البنية التحتية بفضل عمل العديد من الأطباء اليهود[3]، والفنادق ذات الإدارة اليهودية، والمطاعم التي تقدم الوجبات الكوشر، فضلًا عن مستشفيات

الطوارئ اليهودية: قدم كل هذا مجالًا لحماية اليهود هنا -حتى المتأقلمين منهم- وكان ذلك محل تقديرهم.

كانت رواتب الأطباء العاملين في أماكن الاستشفاء جيدة، لكن عملهم كان مصحوبًا بالكثير من الإحباط. فمن ناحية، كان لديهم مرضى مصابون بمرض الداء السكري الخطير مثلًا في حالات حرجة، ولكنهم يأتون إلى مناطق الاستشفاء في مراحل متقدمة، بعد فشل طبيب الأسرة في العلاج. كما اضطر هؤلاء الأطباء، من ناحية أخرى، إلى الوقوف عاجزين أمام مرضى آخرين، قد تكون حالاتهم أقل خطورة، ولكنهم يضربون بكل التحذيرات عرض الحائط، فيواصلون في أثناء رحلة العلاج عاداتهم في الحضر من تدخين، واحتساء الخمور، وتناول لحم الخنزير المحمر، فلا تكون رحلة علاج على الإطلاق.

مارس الأطباء داخل المستشفيات سلطات أكثر تأثيرًا؛ لأن المرضى كانوا نزلاء، فتحكموا في برنامجهم اليومي وتغذيتهم تحكمًا أكبر، ليست هناك مقاهٍ ولا مطاعم، بل موائد طويلة تقدم الوجبات بنظام. وليست هناك سباقات خيل، ولا ألعاب حظ، بل "تدريبات" تتكرر يوميًا، إلى أن يحفظها المرضى عن ظهر قلب. تزايدت قوة مقاومة هذا البرنامج الطبي، خاصة بعد ظهور سيل من الكتابات الطبية المبسطة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تحث المرضى على التخلي عن قصورهم. زاد عدد المرضى الراغبين في أخذ رأيهم في أمور تتعلق بأجسادهم، وطالبوا بأسباب واضحة للإجراءات الطبية، ووجدوا صعوبة في تقبل الإجراءات المعتادة في المستشفيات الكبيرة. كتب كافكا، لاحقًا، وصفًا لما يحدث في هذه المستشفيات: "كأنها مؤسسة جديدة تعمل في خدمة الجسد."، عالم ثانٍ

من العمل، لا يسمح بالتأمل، تمامًا مثل العالم الأول. "يفضل الابتعاد عن المستشفيات." ـ إنها ملاحظة تثير الاهتمام؛ إذ لم يمر وقتها كافكا بعد بتجربة التعامل مع الطب التقليدي في المستشفيات.[٤]

كان، وهو شاب، على استعداد أكبر لقبول التدخلات الطبية، وما صاحبها من عبء اجتماعي، تلك التي كانت جزءاً من رحلات الاستشفاء. لعل السبب في ذلك يرجع إلى شعور غامض بعدم بالارتياح تجاه جسده: طول القامة، والنحافة، واضطراباته وعذابه من آلام المعدة والهضم. هل كان مجرد مرض بالوهم، عندما يركز شاب في العشرين مع جسده باحثًا عن أي شكوى، في حين أنه يبدو في صحة جيدة، ويمارس السباحة بمهارة؟ كان الاشتباه في المرض بالوهم واردًا، ونجد كافكا قد سجله ضمن قائمة ذنوبه التي كان يعتني بملئها بدقة.[٥] ولكن ليست هذه الصورة المتشائمة عن ذاته غريبة تمامًا؛ إذ وجد ما أكد عليها رسميًا: حينما عرض لأول مرة على لجنة الكشف الطبي للجيش –غالبًا في عام ١٩٠٥ـ حصل على نتيجة مخجلة؛ إنه لا يصلح للخدمة العسكرية؛ "بسبب ضعفه".

لفت، في الأغلب، خال كافكا زيجفريد، طبيب الأرياف، نظره إلى أن ضعف البنية ليس قدره، وأنه مسؤول عن لياقته البدنية. ولكن لم تجدِ التعليمات الطبية المعتادة شيئًا؛ لأنها تتعلق بجسد قد مرض بالفعل، أو كان مريضًا، وأرسل من جانبه إشارات تحذيرية واضحة. الإجراءات الوقائية الحقة لا تنتظر إشارات تحذيرية مكثفة، بل تعمل على الجسد الصحيح، الذي تحاول تحصينه من كل التهديدات المستقبلية للحياة في الحضر والتقدم في السن.

كانت كلمة السر "أسلوب حياة متسقًا مع الطبيعة"، وترتب على ذلك "سبل علاج طبيعية" صارت جزءًا من نظام جديد لا يتعامل مع مرضى، بل مع بشر. من تخلى عن رؤية الطب التقليدي لجسده لصالح رؤية "أشمل"، (كما أطلق عليها لاحقًا)، كان يغوص في عالم مثالي، يرى فيه أن أبسط أشكال الحياة قابلة للتحسين: أسلوب النوم، والتنفس، وتوظيف الصوت، والمضغ، والهضم، والجلوس، والوقوف، والمشي - كان كل هذا قابلًا للتجويد، ويجب تنسيقه مع متطلبات الطبيعة. وبما أن الحياة المدنية في عصر الحداثة تعرقل عملية تحسين الذات، من خلال قيود متعددة وعادات مضرة، صارت الحياة الاجتماعية أيضًا محل الدراسة: يجب أن تخضع الحياة نفسها، وليس حياة الفرد، لعملية نقد وتجديد شامل. إصلاح الحياة مهمة لا تنتهي.

أدرك كافكا، لاحقًا، أن هذه الحركة قد تصير ضيقة الأفق. ولكنها أتاحت له، في البداية، تجربة أشكال حياة جديدة ومدهشة، وهو أمر ناسبه تمامًا؛ إذ سمحت له بفرص لا حصر لها للانفصال عن الحياة الأسرية اليومية؛ لإظهار اختلافه، وجذب قدر من الاهتمام إليه، اهتمام لم يجده في سياق طموحاته الأدبية. لعل أولى مزايا طب العلاج الطبيعي لكافكا كانت حتمية الابتعاد عن أنظار الأسرة لأيام وأسابيع؛ لأسباب علاجية، أو ربما لتبدو كذلك.

لم يقم كافكا قط برحلة إجازة وحده، وحتى في صيف ١٩٠٣ -وهو الصيف الذي تعرف فيه لأول مرة إلى فتاة براغية- كان تحت مراقبة لا تنقطع. اختارت الأسرة لآخر إجازاتها الصيفية المشتركة مسبحًا صغيرًا على نهر "إلبة"، اسمه "زلازيل" ("دولني زلازلي" باللغة التشيكية)، بالقرب من منطقة "أوسينج": كان يبعد ثلاث ساعات ونصفًا عن براغ،

ومناسبًا لزيارات الأب في عطلة نهاية الأسبوع. يبدو أن كافكا شعر هنا بالتناقض الشديد بين إحساسه بجسده وهيئة هذا الجسد: شعر، من ناحية، بقوة نابعة من الحياة في الهواء الطلق، نزهات طويلة، وجولات بالدراجة، والسباحة في النهر، ولعب التنس مع فتاة جميلة اسمها "ستيلا" – كانت بمنزلة ولادة من جديد بعد عناء امتحان تاريخ الحقوق الذي حبسه لأسابيع في غرفته. ولكنه واجه، من ناحية أخرى، أسلوبًا متحررًا للحياة على الشاطئ، يسمح للسيدات بإظهار سيقانهن، فاضطر إلى الظهور شبه عار أمام "ستيلا" وصديقاتها، فضلًا عن المربية "آنا" التي كانت تكبره بعامين فقط، ولم تره إلا بملابس المنزل أو البزة الداكنة اللون. يبدو أن ذكريات قديمة قد استيقظت، حينما وقف صبي هزيل على شاطئ النهر مترقبًا في خوف وخجل، ومتطلعًا إلى اختفاء البشر ليمنحوه مساحة خاصة به – هل كان النهر ذاته؟ قدرته على الحديث إلى النساء شغلته لدرجة أنه ذكرها، خصوصًا، في رسالة إلى صديقه "بولاك".[٦]

شعر، مع ذلك، بعدم الارتياح والاضطراب وسط الضجيج، ولم يتحقق الاسترخاء بعد الانتهاء من الامتحان، ليوقظ رغبته وقدرته على الكتابة من جديد. ولكن كيف السبيل إلى الخروج من هنا، دون الاضطرار إلى قضاء باقي الصيف –الذي سيكون باردًا وممطرًا- في سجن براغ؟ من خلال إقناع الوالدين بأن الطالب المرهق بحاجة إلى إشراف طبي.

إذًا، يجب دخول المصحة، وقد وقع الاختيار على المصحة التي أنشئت، عام ١٨٨٨، في مدينة "دريسدن" "فايزر هيرش"، والتي كان يديرها "هاينريش لاهمان"، أحد أهم رواد علاج الطب الطبيعي.

كانت "برتا فانتا" هناك من قبل، وربما تكون نصحت كافكا بالذهاب أيضًا، وربما يكون طبيب الأرياف في "تريش" هو السبب. من المؤكد أن حججه كانت مقنعة؛ لأن برنامج العلاج لدى "لاهمان" كان باهظ الثمن: تكلفت الإقامة، والمأكل، والتدريبات، والخدمات الاستشارية، من عشرين إلى خمسة وعشرين ماركًا يوميًا، وهو مبلغ لا يغطي مرتب شهر كامل لمهني ألماني، أو موظف متوسط، أسبوعًا واحدًا في المصحة.

يتوجه سنويًا أكثر من ثلاثة آلاف مريض إلى "فايزر هيرش"، زاد عددهم لاحقًا، ولم يسمح هذا التدفق بتسكين جميع النزلاء في مباني المصحة. كانت تؤجر الفيلات المحيطة، واضطر بعض النزلاء إلى السكن في البنسيونات في المواسم ـ هذا ما حدث مع كافكا، الذي لم يحجز قبلها بفترة طويلة، ولكنه وجد غرفة شاغرة في بنسيون "إيبرت"، الذي كان يقع على مسافة عشرين دقيقة (فيلا تقع في شارع "بيسمارك شتراسه" رقم ٤، وصار اليوم شارع "فولفس هوجل شتراسه" رقم ٤"). لا نعرف الفترة الزمنية التي قضاها هناك، ولكن مراسلاته تشير إلى أنها لم تتجاوز الأسبوعين.

ولكن انبهر كافكا بما وجد؛ إذ كان الأجنبي الوحيد، وتمتع، في الأغلب، بمعاملة شخصية من "لاهمان". (كان هناك طبيبان آخران، فضلًا عن طبيبة، مما أدهش معظم النزلاء). من المؤكد أنه اندهش بالعلاقة التي وجدها بين المرضى والأطباء: إن استراح طبيب منهم لوهلة في المكان المخصص لهم في الحديقة، فلا مانع من الانضمام إليه وطرح الأسئلة. كان على المريض حينها تقبل المواعظ التي تخرج عن الإطار الطبي. عدّ "لاهمان" ومعاونوه أنفسهم النقيض التام لأطباء المصحات البوهيمية المخضرمين؛ إذ كانوا مصلحين أصحاب رسالة، ولم يكتفوا

لذلك بدور واعظ الأحد الطبي، ولم يرغبوا في علاج الأعراض، بل في علاج اغتراب الجسد الإنساني عن بيئته الطبيعية بسبب الحياة في الحضر، التي كانت هي السبب في كل هذه الأعراض، بل وجميع "الأمراض الشعبية". سيقول كافكا لاحقًا: "هناك مرض واحد لا أكثر، يطارده الطب الأعمى عبر غابات لا تنتهي."[٧] وجد في "دريسدن" من لا يقدم هذا التصور باقتدار فحسب، بل يترجمه أيضًا لبرنامج شامل من الممارسات الحياتية. قام بذلك مجموعة من الأطباء المتخصصين، الذين كانوا على دراية دقيقة بطب التشريح وعلم وظائف الأعضاء في الجسم الإنساني. لقد مثلوا، بذلك، النقيض التام "للمعالجين المربيين بالطب الطبيعي"، الذين تعرف كافكا عليهم لاحقًا.

كان لمساحات التلاقي العديدة بين الإنسان والطبيعة أهمية في هذا السياق، منها الضوء والهواء، اللذان كان "ينغمس" فيهما. علق كافكا ساخرًا أن تأثيره يفوق تأثير الجعة.[٨] كان لمصحة "لاهمان" (أي "أكواخ الضوء والهواء")، التي صممت بفتحات في اتجاهات عدة، ويمكن البقاء داخلها حتى مع تقلبات الطقس. وُزعت هذه الأكواخ على ساحة من الحدائق، وجرى الفصل بين الجنسين؛ ليُعرض المرضى أكبر مساحة من أجسادهم للهواء. صاحب ذلك تدريبات وألعاب مشتركة، مع درجات حرارة تصل إلى الصفر. تعرضوا في الصيف لقدر من أشعة الشمس التي لم يعتادوها. لم تكن تجربة روتينية في عام ١٩٠٠، وكان مدى تحملها محل نزاع، لدرجة أن بلاغًا قدم في "لاهمان"؛ إذ أصيب مريض بضربة شمس عادية، وظن أنها الحمى القرمزية التي كان يجب الإبلاغ عنها.

كان مستبعدًا أن يحدث ذلك لكافكا، فقد حضر من الإجازة الصيفية بسمرة شمس، ولم يكن بحاجة إلى إقناعه بإيجابية الحركة في

الخلاء. ولكن كان برنامج الإصلاح بالعلاج الطبيعي جديدًا عليه، وعلى الرغم من تعرفه على أمثلة بسيطة، فقد أخذ العادات التي تعلمها في "دريسدن" معه إلى منزل آل كافكا: النوافذ مفتوحة باستمرار، النوم على قاعدة خشنة (كان كافكا يضع المرتبة على الأرض بجانب فراشه، فلا تفهم الخادمات في صباح اليوم التالي ما حدث)، فضلًا عن عاداته الغريبة في الطعام، التي أرهقت أسرته والخدم معًا.

كان لحركة العلاج الطبيعي، التي تبناها "لاهمان"، دور قيادي في مجالين: في مجال تجديد الأزياء -الذي نوقش بحدة في التسعينيات- ومجال برنامج الغذاء النباتي. لا نعرف شيئًا عن مدى التزام كافكا بالأفكار الإصلاحية عند شرائه الملابس الجديدة: الياقات الناعمة المفتوحة الموصى بها لتسهيل التنفس لم تناسب وضعه الوظيفي، ولم يناسبه أي شيء يلفت الأنظار إليه. ولكنه ارتدى، في الأغلب، الملابس الداخلية القطنية، التي كان يدعو إليها "لاهمان" بقوة (ويبيعها أيضًا). كانت تدعم إخراج الحرارة من الجسد، وكذلك إخراج "السموم الذاتية" من خلال التعرق. كان القطن محل نقاش جاد في صالون "برتا فانتا"، التي كانت ترتدي الملابس الإصلاحية أيضًا.

لدينا ما يوثق تحول كافكا إلى برنامج الغذاء النباتي توثيقًا أفضل. لم يحسب "لاهمان" هذا قرارًا جيدًا فحسب، بل سعى إلى جعله جذابًا وقابلًا للتطبيق من خلال مطبخ خاص بالمصحة، له إدارة معقدة، وزرع المنتجات تحت إشرافه شخصيًا. لم يشأ أن يبتعد المرضى عن الصلصات الدسمة المعتادة فحسب، بل أن يغيروا كذلك من عاداتهم الغذائية بثبات مستمر. أخرج "لاهمان"، بإشراف دقيق منه، كتابًا للطهو الصحي مخصصًا لنزلاء المصحة بعد خروجهم، أوضح، في مقدمته، أن دراسة

نظريات الغذاء الخاصة بهذا البرنامج أمر مطلوب. هدفت هذه النظرية إلى الحفاظ على المعادن (لم تكن الفيتامينات معروفة حينها)، من خلال طريقة إعداد بسيطة للطعام تحصن الجسد ضد الأمراض. لا يطلب الاستغناء عن اللحوم مباشرة، ولكن قوائم الطعام، التي أعدها "لاهمان" لأيام العام كله، لا تضم وجبة لحوم واحدة. قُدّم للنزلاء، الذين حملوا هذا الكتاب معهم في أثناء العودة وأعطوه للطاهيات في المنزل، بودنج السبانخ، وفطائر حبوب الشوفان، والعدس الحامض، واليخني النباتي، ومعجون الأرز، مع الكثير من الفاكهة، وأصناف التوت والفاكهة المحلية.

كانت بداية هذا النظام في منزل آل كافكا بداية بسيطة: كعكة مصنوعة بطريقة "لاهمان" على الفطور معدة خصيصًا لفرانز. لبى المطبخ، على مدار السنوات التالية، طلباته الخاصة، مما يشير إلى تفهم جولي كافكا لهواية ابنها الجديدة - كان عليها تصديق فكرة "ضعف معدته"، كما أكدت نتيجة الكشف الطبي على ضرورة تقوية جسده جذريًا. لم يفهم رب العائلة، على الإطلاق، أن تأتي هذه التقوية من خلال الأوراق الخضراء، والمكسرات واللوز، والفاكهة المحلية واللبن الحامض: كان اللحم، بالنسبة لهيرمان كافكا، هو أساس أي وجبة والعنصر الأقيم؛ فقد جاء من بيئة تقيس حجم الرفاهية بمقارنة عدد الأيام بوجبات اللحم. بدا له نظام غذائي متكون من عناصر جانبية فقط أمرًا مجنونًا، تمامًا مثل الأشخاص الذين يقبلون بإفساد سعادتهم بالطعام من خلال هذه الأفكار. صحيح أن الاعتدال له أسباب وجيهة؛ فالأطباء يطالبون باستمرار بالاعتدال، ولكن الاستغناء أمر مختلف. فهم هيرمان كافكا أن رفض هذا المتعة، التي حارب من أجلها، يساوي تشكيكًا في هذه الحرب، وفي أسس فلسفته الاجتماعية نفسها.

التغذية النباتية لكافكا كانت إهانة لا تبدو منطقية؛ لأنها قيد متعمد، لا يوفر مليمًا، بل ويستنفد كثيرًا من الوقت والمجهود. لا عجب أن هيرمان كافكا احتاج إلى سنوات ليعتاد هذا الوضع، ولو قليلًا. كان امتناع كافكا الصارم عن الأدوية والتطعيمات هو إعلانًا عن نفور جديد، بسبب طب العلاج الطبيعي، التزم به بقية حياته، ويبدو أنه ترك انطباعًا بالتكبر لدى أبيه وباقي أفراد العائلة. زعم فرانز أنه يفهم أكثر من طبيب العائلة، وأكثر من العديد من الصيادلة. لم يقتنعوا، حتى مع سماع صوت الخال زيجفريد، الذي كان يدافع عن فرانز في بعض الأحيان.

من أين جاء بكل هذا التعنت؟ اهتمام كافكا في هذه السنوات المبكرة بالأفكار العامة في مجال الطب، الذي انشغل "بمحاربة" الأعراض في هذا الوقت، أمر مشكوك فيه. لم تجذبه إصلاحات طب العلاج الطبيعي، بوصفها رؤية جديدة للعالم، أو بوصفها نظرية للطب البديل، بل بوصفها شكلًا جديدًا للحياة ذاتها، بوصفها إصلاحًا للحياة يتواءم تمامًا مع احتياجاته تَواؤُمًا مدهشًا، لدرجة أن شعورًا بالانتماء تولد لديه على الفور. الضوء والهواء بدلًا من العقارات المعقدة باهظة الثمن دون جدوى: كان لهذا التصور بُعد بلاغي. التعامل مع الحياة ببساطة، أو الأفضل: التبسيط الواعي، حينما يثقل حمل الحياة في الحضر، وجذب الأنظار إلى ما هو بسيط وقريب من حياتنا اليومية، والعثور من خلاله على أكثر الأشياء قيمة. ألم تكن هذه أبسط مبادئ الفن الياباني، الذي أعجب به كافكا، وفن الرواية الأوروبية بقمة أعمالها؟ قد يسمى هذا زهدًا، ولكنه زهد داخل إطار دنيوي، لا علاقة له مطلقًا بالأخلاق وجلد الذات، إنه تدريب على اعتياد التركيز: التركيز على القليل الذي يعد جوهريًا.[٩]

جنى كافكا مكسبًا نفسيًا آخر من إصلاحات طب العلاج الطبيعي، تمثل في وضع اجتماعي متناقض. فمن ناحية، كانت الحركة قد نضجت (خاصة في الرايخ الألماني) تنظيميًا، ونجحت عمليًا، أي يمكن التوحد معها نفسيًا ورسميًا، دون التشكك في احتمالية الانتماء إلى مجموعة من الجماعات الدينية، ولكن لم تكن الفكرة المحورية لهذه الحركة تقوم على الاندماج الاجتماعي، بل على الفردية العنيفة: طالبت بالاهتمام المتواصل بالنفس، وحاربت أي محاولة لتوكيل شخص آخر للقيام بهذه المهمة – سواء كانوا "متخصصين" أو مؤسسات. كل فرد استوعب أسس علوم العلاج الطبيعي تمتع بسيادة متأصلة بعمق في تجربته الشخصية، أكثر من أي شكل من أشكال الحرية السياسية أو الفلسفية. يبدو أن هذا الوعد باستعادة السيطرة على النفس من خلال قوته الذاتية كان أمرًا شديد الإغراء لكافكا، الذي لم يكن بارعًا اجتماعيًا، وكان الكبت يعذبه. شاب الفكرة نوع من الهروب الساذج بالتأكيد، ومن المؤكد أن كافكا لاحظ ذلك في مرحلة ما – على أقصى تقدير حينما رضي أنصار الإصلاح الألماني بدخول الحرب العالمية الأولى بالحماس نفسه الذي شعر به الآخرون للمشاركة في حدث غير صحي على الإطلاق. صارت نرجسية هذه الحركة المتأصلة تثير شكوك كافكا أكثر فأكثر، فكلما أدرك لاحقًا إشكالية طبيعته الانعزالية وحياته بوصفه "أعزب"، رأى صورة أكثر وضوحًا لتفاهة هذا القلق المستمر، وافتقاره إلى الاجتماعية. ظهر ذلك جليًا في الكتب الاسترشادية المنتشرة، التي لم تترك، ولو حركة جسدية واحدة، دون وصفها بدقة، بدايةً من عدد حركات المضغ (حركة "سن الأسنان" المشبوهة التي كان يمارسها كافكا على مدار سنوات)، إلى وضع الجلوس المناسب في أثناء التبرز. كتب كافكا، عام ١٩١١، أن طب العلاج الطبيعي "وكل ما

يتعلق به" قد أفرز نمطًا بشريًا جديدًا، وبعد وصف هذا النمط من منظور علم الفراسة، يضيف: "علاج صحتهم كأنها مرض، أو كأنها إنجاز."[10]

كشف هذه الممارسات المتوهمة بالمرض، ومع ذلك استمر فيها. هل هناك اعتراض منطقي على القاعدة الأولى لكل علم لعلاج الطب الطبيعي، أن مكافحة المرض تكون بالوقاية منه؟ كانت الوقاية الدفاعية هي جوهر استراتيجية حياة كافكا منذ الطفولة، ولم يجد شيئًا أكثر إقناعًا من ذلك، كان الإغراء بتقوية الجسم يجذبه. كم تمنى في مدرسة السباحة المدنية إظهار بعض العضلات؛ ليصرف الأنظار عن مظهر جسده اليافع. اشترى كافكا كتاب تدريب العضلات الشهير للرياضي "أويجين ساندوف"، ولكنه أدرك سريعًا أن المتطلبات هنا مرتبطة بسيرك، وليس بصحة.[11] البرنامج المنتشر للرياضي ومدرس المرحلة الثانوية "يوهان بيلر مولر" (١٨٦٦ـ١٩٣٨) كان أقرب للمنطق وصالحًا للحياة اليومية؛ إذ كان يهدف، من خلال تدريباته المنزلية، إلى القوة، وتحسين الحركة على حد سواء، ووصل خلال أعوام قليلة إلى نجاح عالمي. زعم "مولر" أن ربع ساعة يوميًا كافية للحصول على جسم صحي، وقوي، وقادر على المقاومة. لم يقدم، في العديد من الفعاليات، تدريباته الرياضية فحسب؛ ليبرهن على هذه النظرية المدهشة، بل قدم أيضًا النتيجة: جسده بوصفه تجسيدًا للتدريب والقدرة الفائقة على الحركة. هذا ما حدث في نوفمبر ١٩٠٦ في براغ، داخل قاعة المرايا المزدحمة في البيت الألماني، في حضور الأساتذة وشخصيات عامة محترمة، والعديد من ممثلات "العالم النسائي". من المستبعد أن يفوت كافكا هذه الفرصة المدهشة: مُحاضر بملابس السباحة ونوافذ القاعة مفتوحة، أمر ما كان

ليحدث في العقد الماضي، ودليل حي على نفاذ فكرة السيادة الجسدية إلى الثقافة العامة في الحياة اليومية.

لم يصدق أي شخص أن جسد "مولر" الرياضي سببه بعض دقائق التدريب اليومية فقط (إذ كان يمارس أنواعًا رياضية أخرى ممارسة مكثفة). ولكن فكرة استخدام الجسد، بوصفه ساحة للإعلان لجذب الأنصار في المستقبل من خلال عرض نموذج بعيد المنال، كانت فكرة جديدة وناجحة، لدرجة أن مصطلح "ممارسات مولر" استخدم بديلًا لمصطلح "التدريب". كان "مولر" يملك قدرة أكبر على الإقناع من "ساندوف"، الممارس لرياضة كمال الأجسام، والقادر على رفع فرس لأعلى؛ لأنه فهم كيفية استغلال الخطاب القائم حول إصلاح الحياة، واستخدمه قاعدة لأفكاره: أضاف إلى برنامجه تدريبات للتنفس، وغسل بمياه بدرجات حرارة مناسبة، كما أصدر كتابًا بتعليمات صحية في عام ١٩٠٧، وتحدث عن السعادة الحياتية على أساس أسلوب حياة مرتبط بالطبيعة. لم تفد كافكا معنويات مدرس الرياضة كثيرًا، ولكنه وجد الراحة في تدريبات "مولر"، التي صارت عادة استمر عليها عقدًا كاملًا. في عام ١٩١٠، كتب إلى برود، ساخرًا، أن آلام البطن لديه متسقة مع "شخص صار قويًا بفضل "مولر"" – يعد هذا مؤشرًا إلى انتمائه إلى مجموعة "مولر" الرياضية منذ فترة طويلة، علمًا بأنه يجب التعامل بمفهوم أوسع مع فكرة "الجسد القوي". كان كافكا يأمل في بناء جسدي مرن، وماهر، وقادر على المبادرة، مثلما يراه لدى الرياضيين المتمرسين. اقترب من تحقيق هذا الهدف أكثر من أي شخص في محيط معارفه؛ إذ كان يمارس السباحة والتجديف بانتظام، وكانت لديه دراجة، ويقوم مع أصدقائه بنزهات تمتد ساعات دون تعب. مارس لعبة "التنس على العشب" في ملاعب براغ ـ أحيانًا مع برود ـ كما تلقى،

في عام ١٩١٠، دروسًا في الفروسية، غالبًا بسبب تحمسه بعد زيارة لسباق خيل. تفوق في "تريش" على نفسه بمحاولة جريئة، ما كان ليقدم عليها أحد من أصدقائه، إذ ركب دراجة خاله البخارية، وراح يلهو بهذا الجهاز الحديث لأسابيع على مرأى من المحبة "هيدفيج فايلر". كان سكان الريف يحتقرون هذا الجهاز بوصفه "شيطانًا ذا رائحة كريهة"، ولعلهم محقون في ذلك.[12]

كان اهتمام كافكا منصبًا على الجسد المعزز بالمناعة أكثر من الجسد القوي، وكان هذا موضوعًا هامًا لإصلاحات طب العلاج الطبيعي تجري مناقشته منذ عقود من جانب المتخصصين. توجه هذا النقاش، بالدرجة الأولى، ضد أسلوب الحياة البرجوازية المثير للمرض في شقق تستعين بالتدفئة ثلاثة أرباع العام، فتمنع عن الأطفال التعرض لنفحات الهواء. طالب أول المصلحين بتعزيز المناعة من خلال التعرض بانتظام لمحفزات قوية، مثل "المعالج بالماء" "زيباستيان كنايب" الذي أوصى بزخات باردة. كان "طبيب الماء" الأسطوري من منطقة "شيليزن" (فينستز بريزنتز) أكثر عنفًا؛ إذ كان يجبر مرضاه على الاستحمام بالماء البارد في الشتاء. رفض "هاينريش لاهمان" هذه الوسائل؛ لأنه كان يعدها غير مفيدة للجسد. يأتي التعزيز المستدام للمناعة، من وجهة نظره، من خلال تغيير مستمر لأسلوب الحياة، والتعرض باستمرار للهواء والضوء. اقتنع كافكا بهذه الفكرة، كما لم يجد زعم "لاهمان"، أن هذا الأسلوب يحمي من أمراض البرد تمامًا، نوعًا من المبالغة، على الرغم من افتقار التعليل إلى أي نوع من العلمية.[13] بعد مرور عام أو عامين على تجربة المصحة في "دريسدن"، شاهد كافكا مباراة كرة قدم -مرتديًا البزة ورابطة العنق كالعادة- وتعجب من ارتداء اللاعبين قمصانًا رياضية خفيفة على الرغم من

برودة الطقس. كان هذا مثلًا يحتذى به: من يلتزم بهذا الأسلوب في الحياة، فليس بحاجة إلى مصحات. وبعد قضاء عدد لا حصر له من ليالي الشتاء أمام النوافذ المفتوحة، اقترب كافكا بالفعل قليلًا من مثله الأعلى، وافتخر، في شتاء عامي ١٩٠٧ و١٩٠٨، باستغنائه عن القفازات حتى مع "تجمد أطراف أصابعه". كما كشف لاحقًا، في فخر أمام مجموعة من الأصدقاء، عن ارتدائه لمعطف خفيف في البرد الشديد، ولا شيء مطلقًا تحت البنطال. كما وصف نفسه لفيليس باور —ليس في جدية تامة— بأنه "مجنون من حديد، معزز المناعة، لا يمكن أن يشعر بالبرودة".[١٤]

ليس في جدية تامة؟ من يراقب كافكا لا يسعه التأكد من ذلك. ظل في سنوات لاحقة يطلب النصيحة الطبية من معالجين مبتدئين لم يستطع أصدقاؤه عدّهم جادين، كما تبنى نظريات طبية وجدوها تمثل خطورة على حياته. شعر الجميع بأن البرنامج الإصلاحي لعلاج الطب الطبيعي قد لمس وترًا هامًا داخله، وليس التفسير الوحيد لذلك هو مجرد إعجاب المرضى بالوهم بهذا العالم الطبي الموازي. صحيح أن المنتمي إلى هذه المجموعة صار لديه رخصة للانشغال بجسده بكل التفاصيل، وعده قضية جوهرية تحتاج اهتمامًا كاملًا، ولكنها رخصة لانشغال آخر، قد يكون مفتاحًا لفهم أسباب تعلق كافكا بهذه النزعة الغريبة، رخصة مراقبة أجساد الآخرين، ليست مراقبة لتعبيراتها فحسب، بل مراقبة لجميع التفاصيل النفسية الخاصة وتقييمها، بأسلوب بعيد عن الجنس، ولا يمثل خطورة. هل تعلَّم كافكا هذه النظرة داخل المصحات وارد؟ أليس من الأوقع أنه وجد هنا ما يضفي عليها الشرعية فحسب؟

نلحظ بقوة، أن موضوع العلاج بالوسائل الطبيعية، الذي كان لسنوات عنصرًا هامًا في رؤية كافكا لذاته، لا يذكر في أعماله مطلقًا، على الرغم من اعتياده إدراج بعض تفاصيل حياته الشخصية في نصوصه الأدبية. لا يبحث بطل من أبطاله عن علاج في مصحة، ولا يتناول أحدهم طعامًا نباتيًا، كما لا يلعن أحدهم عن جهل الأطباء (كما كان يفعل مؤلفهم). "يوسف ك." يشكو، بعد لحظات من القبض عليه، من غياب الفطور، ولكن لا يشكو من منعه من ممارسة التدريبات الرياضية، ناهيك بالقرية الواقعة عند الجبل الذي يحمل القصر، التي لا يقطنها طبيب واحد. لن يخطر ببال أي قارئ درس أعمال كافكا، ولا يعرف شيئًا عن سيرته الذاتية، أن هذا الكاتب كان يحلم بتأسيس اتحاد للعلاج بالوسائل الطبيعية.[١٥] تظل هذه المنطقة شاغرة في مجمل أعمال كافكا، تمامًا مثل اليهودية، وغيرها من المناطق الأخرى التي تعد أكثر قربًا من أن يطلق عليها أسماء. (لا توجد شخصية الأب في رواية "المحاكمة")

ما تطرحه الأعمال هي نظرة متحفظة، دقيقة ومجزأة في الوقت ذاته، على الشكل الجسماني لشخصيات حقيقية ومخترعة. يذكرنا عزل بعض المناطق الجسدية، ووصف كافكا لها بموضوعية منفعلة في مذكراته، بنظرة الطبيب الذي يقوم بمسح ضوئي لسطح مريضه، دون أن يدركه بوصفه جسدًا. يتحدث عن "أنف حاد منحدر، وعلاقة هندسية تربط بينه وبين الصدر المتدلل والبطن الصلبة"، وعن "وجنتين متورمتين حمراوين في وجه هزيل هرب منه الدم"، و"أسنان علوية عريضة وكبيرة، تجعل الوجه الكبير والمسطح يبدو مدببًا"، كما يذكر "عظمة ربط ضعيفة بين الفخذ الأعلى والساق"، ويلحظ على مديره في العمل "جلدًا مشدودًا لصلعته لا يمت بصلة لتجاعيد جبينه

الرقيقة"، وبرأسه صيوان أذن ملمسه "خشن وبارد وندي مثل الورقة".[١٦] كانت تربطه علاقة عميقة، وربما لايدركها، بهذا النوع من استكشاف الجسد، كان يشمل اللفتات والإشارات الجسدية، التي جعلت شخصيات كافكا تبدو مثل الممثلين. الكثير من العاملين في مجال العلاج بالوسائل الطبيعية، من بينهم "لاهمان"، كانوا يعملون بقناعة أن المراقبة الدقيقة وغير المتحفظة للمريض كفيلة، في كثير من الحالات، بتشخيص أسبابه له، دون اللجوء إلى الكشف الطبي المعتاد. لو أنهم على حق، لصار كافكا طبيب مصحة ناجحًا.

هل عليه العودة إلى مصحة "لاهمان"؟ كانت أسرته أقل كرمًا في العام التالي، فليس هناك امتحان اجتازه ليكافأ عليه. لدينا خطاب وحيد يشير إلى مشاركته في إجازة صيفية لبضعة أسابيع.[١٧] كان من الممكن أن يلتقي بالكاتب "ريلكه" في دريسدن عام ١٩٠٥، وبالكاتب "توماس مان" في عام ١٩٠٦، ومن المؤكد أن كافكا كان سينظر إلى جولة بولينج في الخلاء، بملابس السباحة مع أستاذ الأدب، على أنها قمة تجاربه الحياتية. ولكن مصحة "فايزر هيرش" كانت باهظة الثمن، وما تمناه كافكا كانت توليفة من الاستجمام، والاستشفاء، والحياة الاجتماعية الحرة، دون أن يُحدث يوم إضافي فرقًا في الحساب. لم تقدم المصحات الأخرى، المنتشرة في هذا الوقت، هذه التوليفة؛ فقد كان المعالجون بالوسائل الطبيعية ذوو النزعة التشددية –مثل "ماكسيميليان بيرشر-بريتر" في زيوريخ- يخضعون مرضاهم لنظام غذائي صارم، ويطفئون الأنوار في التاسعة مساء.[١٨]

لا نعرف تحديدًا تفاصيل المطويات التي درسها كافكا، ولكنه نجح في صيف عام ١٩٠٥ في إقناع أسرته ببركات "مصحة مائية" تقع داخل

دار استشفاء في الغابة في منطقة "زوكمانتل"، ولم يدرك وقتها أن ما ينتظره هو استجمام من نوع آخر. بدا أن "زوكمانتل"، التي كانت اقتراح خاله، تتيح حلًا وسطًا مريحًا. كانت الوسائل العلاجية المطبقة هنا تتبع طب العلاج الطبيعي من ناحية: مدير المصحة، الدكتور "لودفيج شفاينبورج"، أصدر في هذا الوقت كتابًا بعنوان الدليل العام والمتخصص للعلاج المائي. كان متخصصًا في العلاج المائي، ولكنه قدم أيضًا مجموعة من وسائل العلاج الجسدية ونظم غذاء مختلفة. ساد في "زوكمانتل"، من ناحية أخرى، نظام أقل صرامة بالمقارنة بمصحات أخرى، النزهات الإجبارية، والتدريبات مرتين أو ثلاث مرات على الأكثر، والوقت المتبقي متاح للحياة الاجتماعية. قاعة الطعام كبيرة ومخصصة لجميع النزلاء، وهناك رواق معد للتنزه في حالات الطقس السيِّئ، وصالون مخصص للأمسيات، وقاعة للقراءة، وصالة بأجهزة تدريب لمن يرغب. إنها توليفة تناسب كافكا تمامًا.

تعرف على البشر، وكان في صحبة مستمرة ومشغولًا، لدرجة أنه لم يكتب لماكس برود طوال عدة أسابيع. كرر الرحلة في السنة التالية، ومكث أكثر من شهر، وجدد لعبة الصمت. جاءه نداء أنثوي، وتعرف على الحب، الذي لم يعرفه قبلها إلا من خلال القراءة. إنه أقوى سبل العلاج الطبيعي، ولكن أمر غريب، ألا يذكر ذلك في أي من الكتب الاسترشادية.

المشهد الداخلي: "وصف لمعركة"

"لا نرى منه إلا أجزاء
شيء أشبه بالذيل، وقلب يخفق
إنه قطع، وأجزاء."

لوري أندرسون، قطع وأجزاء*

"لعل امتلاكنا كُتّابًا يطرحون بفنهم وقسوتهم جوانب مختلفة تزين الوجود علامة على ازدهار ثقافة الكتابة الألمانية. ينتمي "هاينريش مان"، و"فيديكيند"، و"مايرينك"، و"فرانز كافكا"، وغيرهم، مع كاتب هذا النص "فرانز بلاي"، إلى هذه المجموعة المقدسة. أسعد بهم وأدين لهم بالشكر؛ لأنني شاهد على أعمالهم الجميلة والمحزنة."[1]

إنها كلمات ماكس برود، بلا شك. ألفها كافكا منذ سنوات عديدة. لم يقرأ هذه العبارات مع بداية عام ١٩٠٧ في الجريدة البرلينية الأسبوعية الحاضر للمرة الأولى؛ إذ كان برود صاحب الاثنين والعشرين عامًا يكتب فيها بانتظام. ولكن الصديق تفوق هذه المرة على نفسه؛ لأنه

* ترجمة عن اللغة الإنجليزية، والأصل الإنجليزي في النص هو :

We see him only in parts
The flash of a tail, his beating heart
He´s in pieces, in parts
Laurie Anderson, PIECES AND PARTS

فاجأ قرّاءه بلغز سيشغلهم لفترة. "هاينريش مان"، و"فيديكيند"، و"مايرينك". كلها أسماء قادرة على إثارة الضجة، ومعروفة لمن يطالع الكتابات الصحفية. ولكن فرانز كافكا، من هو كافكا بحق السماء؟

كانت فكرة جديدة على الممدوح أن يملك "قسوة يزين بها الوجود"، فضلًا عن كون أعماله "جميلة" و"محزنة". وصف غامض قد ينطبق على بعض أدباء حركة "الديكادُنس" الفرنسية، مثل "دو جاردين"، و"هويزمان"، و"لافورج" – ولكن ما علاقته هو بكل هذا؟ ما أبهره، أيضًا، انتماؤه إلى مجموعة أدبية، دون كتابة سطر واحد، جنبًا إلى جنب مع أدباء يكتبون على الأقل رواية، أو عملًا مسرحيًا، أو مجموعة قصصية في السنة. قد تنزعج من كل هذا الهراء، أو تأخذ المسألة بوصفها مزحة مستفزة، خرجت عن الحدود قليلًا. ظل كافكا هادئًا، واختار الحل الثاني. كتب إلى برود وهو ينظر إلى التقويم: "حسنًا، لقد حل موعد الكرنفال في أجمل أشكاله." تساءل، بعد هذا الإعلان، عن محل انتشار اسمه الأدبي. لن يحدث ذلك في ألمانيا في الأغلب؛ إذ لا يقرأ شخص مقال نقد أدبي حتى السطر الأخير. قرر كافكا في حسم: "ليست هذه هي الشهرة، ولكن الوضع مختلف في محافظات بحر البلطيق، والحال أفضل في أمريكا، أو المستعمرات الألمانية؛ لأن الألماني هناك يقرأ الجريدة بكل تفاصيلها. مواطن شهرتي ستكون إذًا "دار السلام"، أو "أوجيجي"، أو "فيندهول". «!»" لم ينتبه في حصة الجغرافيا، لأن عاصمة "جنوب غرب إفريقيا الألمانية" كانت مدينة "فيندهوك".[٢]

ربما كان الاعتراف لبرود بمحاولاته الأدبية خطأ. لقد تردد كافكا كثيرًا. كان مستمعًا لطيفًا ومنتبهًا مرحبًا به في صالون

عائلات "فيلتش" و"فانتا"، ولكن لم يخطر بباله الإعلان عن محاولاته الأدبية، ولم يتوقع أي شخص أن يصبر أديبًا. كان "أوسكار بولاك" هو الصديق الذي استأمنه على مجموعة من النصوص، وليس برود، متقبلًا حكمه الأدبي القاسي دون سند. لم يعرف برود شيئًا عن هذا الأمر: لا عن هذا الدفاتر، ولا عن القراءات في حجرة "بولاك" ومحتوى نقده. صحيح أن كافكا تحدث مع برود عن الأدب –إذ كان يراه أكثر مما يرى "بولاك"، وكان برود ينشر بالفعل أعمالًا أدبية – ولكن هذه النقاشات كانت حادة، تمامًا مثل مناقشاتهما الأدبية. كيف له أن يقيم ميول برود العجيبة، وتفضيله للتزيين الجمالي، والأفكار الغربية، والتأثيرات الخادعة، وكل شيء بعيد عن الأدب الكلاسيكي؟ تألفت هذه "المجموعة المقدسة" من أدباء لا يمثلون لكافكا قدوة على الإطلاق، ولم يكن ليدخل هذا الاتحاد طواعية، وكان برود يدرك ذلك جيدًا.

"مايرينك"، على سبيل المثال، الذي يذكر إلى جانب اسم كافكا في خطاب المديح، أعجب به برود منذ اللحظة الأولى؛ إذ كان يقرأ أعماله الهزلية في جريدة "سيمبليسيسيموس" وهو طالب في الثانوية، ويستشهد بنصوصه في أحاديثه المبكرة مع كافكا؛ ليعرض مثالًا لمفهومه عن الجمال الأدبي: "فراشات في حجم الكف بألوان صاخبة، ورسومات عجيبة، استقرت بأجنحة مفتوحة فوق أزهار ساكنة، مثل كتاب سحر مفتوح." كانت هذه فقرة من كتاب موت البنفسج، وهو عمل نثري مخيف؛ تنتشر فيه كلمة قاتلة قادمة من وادٍ في التبت في الكرة الأرضية، ولا ينجو إلا فاقدو السمع. اكفهر وجه كافكا، "رائحة أحجار رطبة في ممر منزل". ذكر هذه العبارة، التي التقطها من عمل "هوفمانزتال" حديث عن الشعر، وصمت طويلًا؛ ليعطي هذه

الكلمات البسيطة مساحة للتأثير. كان هذا هو الأدب، لبساطته ودقته، مثل خط مرسوم بفرشاة يابانية؛ لأنه يقدم الحقيقة في شكل أعلى تركيزًا: خلاصة الحقيقة.[٣]

أقنع برود بقراءة عمل "فلوبير" التربية العاطفية معًا، بلغته الأصلية بالفرنسية. تصور كافكا أن الانغماس في نثر "فلوبير" سيمنحه مناعة مستقبلية ضد الفراشات الملونة للكاتب "جوستاف مايرينك". كان بينهما اتفاق على مبدأ أنه لا مجال للقبول بأداء متوسط في العمل النثري: تطلب المجهود الإبداعي اللازم للدراما والشعر نفسه، والاحتياج إلى الكمال اللغوي نفسه، وقدم مبدع رواية "مدام بوفاري" ـالرواية الأم لعصر الحداثةـ الدليل الدامغ على ذلك. أقدم "ألفريد كير" على الدعاية للكاتب "فلوبير" قائلًا إنه "ليس كاتبًا روائيًا، بل قطعة من شيكسبير". لم تكن خطوة مطلوبة على الإطلاق؛ فهذا أسلوب مدرسي اللغة الألمانية، أو هؤلاء المقلدين مثل الكاتب المحلي "هوجو سالوس"، الذي لفت انتباه ماكس برود ـالكثير الكتابةـ إلى أن كل كلمة في القصيدة "تقف على المنصة". ألا ينطبق ذلك على فن الكلمة عمومًا؟[٤]

يبدو أن هناك نوعًا من الشخصيات المهتمة بالأدب، لها مع اللغة علاقة مكثفة، وعلاقة مُهملة في الوقت ذاته. اكتشف كافكا مرغمًا أن صديقه من هذه النوعية. قرأ برود في جد الأعمال البارعة للكاتب "فلوبير"، ثم ذهب إلى مقهى "الكونتيننتال"، حيث جلس "مايرينك" وسط معجبيه. كانت مفاجأة سعيدة لبرود أن مثله الأعلى في الأدب يقيم في براغ، وزاد على ذلك أنه كان في الوقت ذاته يمتلك مصرفًا خاصًا، ويطلق على نفسه اسم "جوستاف ماير". تورط منذ سنوات في عملية نصب غامضة، وقُبض عليه في سياق التحريات

لعدة أشهر. كان بريئًا بالطبع، وذلك بحسب رأي والد برود، الذي كُلفَ من جانب المحكمة، بوصفه خبيرًا في الحسابات ونائب مدير مصرف، بمراجعة صفقات "ماير"، والذي كان يمد ابنه المعجب بكل التفاصيل. حُكم، بالفعل، ببراءة "ماير"، ولكن تدمرت حياته الوظيفية؛ فقد فشل في عقد أي صفقات في براغ، وخرجت من شرنقة "ماير" فراشة اسمها "مايرينك"؛ أديب يستفز محيطه الاجتماعي.

لم يهتم كافكا الشاب بشخصية "مايرينك"؛ إذ عدّه كاتبًا من الدرجة الثالثة، شخصًا يبحث عن الضجة. كان كافكا الأنضج سيقابله بانبهار أكبر. كان "مايرينك" شخصية فنية، شخصية مركبة، لا تمت للمثل الأعلى البرجوازي للشخصية المتكاملة بصلة، وإنما يمثل نمطًا من عصر مستقبلي: إنه رجل المال، والأدب، والتنجيم، والرياضة، كل هذا معًا. لم يكن مصدر حياة صاحب المصرف سابقًا معروفًا؛ فقد وقعت شقة "مايرينك" في أرخص أحياء براغ، ولكنها كانت تعج بالكتب النادرة والقطع النادرة، مثل تمثال بوذا البرونزي، ومرايا سحرية، وكرسي اعتراف أصلي.* كان يحتقر سلطات الدولة، تمامًا مثلما يحتقر الهاربين من المواجهة، والمرتدين لثوب الإصلاح. يقوم "مايرينك" بتجارب خيميائية، ويؤمن بتناسخ الأرواح والظواهر الخارقة، وكان عضوًا في تنظيمات ثيوصوفية سرية، كما كان من أفضل لاعبي الشطرنج في المدينة، ومن أفضل المجدفين في البلد كلها. يكتب وينشر قصصًا دون أدنى معرفة بالكلاسيكيات الأدبية. سلوكه سلوك ضابط، تكبر واضح، ولكنه يخجل في الوقت ذاته من إلقاء أعماله. حينما دعاه برود إلى قراءة لأعماله في الاتحاد الطلابي "قاعة القراءة والخطابة"، أجاب "مايرينك" أنه يحب الحضور، ولكن الأفضل أن يلقي برود -المتمرس في الخطابة- النصوص. هذا ما حدث بالفعل في

٢٤ يناير ١٩٠٤: كانت الفرصة الوحيدة التي تصافح فيها كافكا و"مايرينك"، وتبادلا بعض الكلمات. غادر "مايرينك"، بعدها بفترة وجيزة، "أسوار سجن" براغ، التي قضى فيها عشرين عامًا وسط "أجواء تسودها الكراهية".[٦]

ضمت الطبعة الأولى للسيرة الذاتية لبرود، "حياة مثيرة للجدل" ١٩٦٠، فصلًا كاملًا عن "مايرينك"، يوضح، على نحو ما، أسباب ارتباط برود الطويل به: لاقت الأعمال الأدبية المبكرة لبرود، التي كتبها وهو طالب في الثانوية، رفضًا متكررًا من رئاسات التحرير، كما كان "هوجو سالوس"، صاحب التأثير القوي، يعطيه دروسًا، ولكن لا يدعمه حقًا، إلى أن قدمه "مايرينك" إلى مجلة الأدب وصاحبها "ياكوب هيجنر".[٧] أمر غريب أن يقوم برود، قبل وفاته بوقت وجيز، بشطب هذا الفصل كاملًا، كما صدرت سائر الطبعات دون تقدير لشخص "مايرينك": كان تلاعبًا كبير الحجم في ماضيه، وغريبًا على شخصية برود، ولا يمكن تفسيره إلا بوصفه رغبة حاسمة في الابتعاد. ربما أراد برود، في سنواته الأخيرة، رد شبهة الإعجاب بشخصية أدبية ساخرة وغامضة، ولا تملك إلا كتابًا وحيدًا من الكتب الأكثر مبيعًا، ولا يزال باقيًا في الذاكرة، "جولام" ١٩١٥. كان ذلك سيثير الشكوك حول زعمه بأنه الموكل إليه إدارة شؤون أعمال كافكا وتقديم تفسيراتها.

لم يعرف برود شيئًا عن كتابات كافكا الأدبية إلا بعد مرور سنوات وبمحض الصدفة. اعترف له الصديق في عام ١٩٠٦ —في الوقت نفسه الذي أصدر فيه برود مجموعته النثرية الأولى "الموت للموتى!"— بأنه شارك في مسابقة أدبية للجريدة اليومية الصادرة في فيينا "الزمن". القصة

المقدمة (في الأغلب تحت عنوان "براغي سماء في أزقة ضيقة") لم تلق قبولًا وظلت مفقودة. أثارت المسألة اهتمام برود بالطبع. كافكا، المؤدب والرافض لأي حلول وسط في الفن، أقدم بالفعل على هذه الخطوة. كانت بداية للعبة دامت مدى الحياة، وشغلت علم الأدب أكثر من قرن كامل: طالب برود، منذ هذه اللحظة، بالاطلاع على نصوص كافكا، الذي كان يرفض إظهارها، أو كان يظهرها مترددًا، ورقة تلو الأخرى.[8]

زاد احتياج كافكا إلى التعبير عن نفسه، كلما زاد ابتعاد من كان يقدم له الدعم الأدبي في الماضي. اشتكى، مع نهاية عام ١٩٠٣، إلى "بولاك": "لا يريد الرب أن أكتب، ولكنني مرغم على ذلك، إنها حالة من الاضطراب، فالرب أقوى، وتحوي القضية سوء حظ أكبر مما قد تتصور."[9] صحيح أن كافكا تجاوز هذه النغمة الصبيانية، ولكنه لم يتجاوز احتياجه الخفي إلى علاقة خاصة على المستوى النفسي والفكري. لم تتحمل، مع ذلك، علاقته بـ "بولاك" البُعد، ولم يستطع أي من أصدقائه ملء هذا المكان؛ إذ لم تتخذ مشكلات التعبير اللغوي الأهمية القصوى نفسها، التي كانت بدورها أساسًا لهذه الاعترافات. أدرك كافكا أن عليه البحث عن طريق جديد إلى الآخرين، وأن عليه إثبات شيء ما ليفهمه الآخرون. ومن هنا جاءت فكرة النشر في جريدة الزمن؛ ليبهر العامة. فشلت هذه الخطة، التي لم يناقشها مع أي شخص، كما ظهرت من خلالها "النزعة إلى السرية" للصديق، التي كان يشكو منها برود لاحقًا. اضطر كافكا إلى القبول باحتياجه إلى برود ليخطو خطواته الأولى نحو منصة إعلامية تقدمه.

كان لدى كافكا نفور شديد تجاه الإفصاح عن أعمال غير مكتملة، أو مشاريع أدبية لم تتشكل أو تولد بعد. ما الأعمال التي عرضها على برود ليدخله في مجموعة أدبية "مقدسة"؟ لا تقدم المراسلات القليلة الموثقة لهذه المرحلة —وهي عبارة عن بعض البطاقات البريدية وبطاقات التعارف- أي دليل، ولو بسيط، وليست لدينا مذكرات لكافكا أو برود في هذه المرحلة. ليس لدينا، من ناحية أخرى، ما يفيد أن كافكا قد أحرق، بعد ١٩٠٦، أي مسودات. لذلك، يعد تَذَكُّر برود للموقف حينها هو الأوقع: كتب في الكلمة الختامية للنشر الأول، عام ١٩٣٦، لنص "وصف لمعركة" أنه أول نص أدبي ألفه كافكا. إذًا، هذا هو العمل الذي نشر بعد وفاته، ولم يجد إلا أصداء بسيطة، ويبقى اليوم في ظل رواياته الثلاث غير المكتملة، ولا يمثل إلا دورًا على صعيد التأريخ الأدبي.

ما يثير الدهشة، حقًا، أن عمل "وصف لمعركة" هو أول عمل لكافكا لدينا، وهو آخر نص نشر له كاملًا. انشغل كافكا بهذا النص أكثر من أي مخطط أدبي آخر؛ إذ قضى معه سبع سنوات، أو ربما أيضًا ثماني أو تسعًا. يطلق اليوم "النسخة أ" على نص أعده بخط يده تخطى مائة صفحة، ثم اعتقد، في عام ١٩٠٩، أن عليه إنقاذ هذا المشروع بتغيير شامل من خلال "النسخة ب" – كانت محاولة تخلى عنها بعد مرور سنتين.[١٠] قد يبدو لكافكا، باستعراض ماضيه، أنه قضى عقدًا كاملًا بين بداية دراسته وبداية عمله الأدبي في عام ١٩١٢ متمسكًا برؤية أدبية واحدة، أي أنه شغل نفسه بها -حتى مع العمل البسيط على نصوص أخرى- أكثر من المطلوب. تنصهر هذه الرؤية مع حياته الماضية نفسها، في لحظة لاحقة يسترجع خلالها ماضيه – إنه استعراض الماضي في عام ١٩٢٠ الذي يشار إليه كثيرًا: يتذكر أنه جلس فوق تل "بترين"، وفكر في أمنياته في الحياة. "تبلورت أهم أمنية جاذبة في اكتساب رؤية للحياة «وضرورة

إقناع المحيطين به كتابة»، رؤية تحتفظ الحياة من خلالها بحالات السقوط الصعبة والصعود، ويكون التعامل معها في الوقت ذاته -بالوضوح نفسه- بوصفها عدمًا، أو حلمًا، أو حالة من التحليق."[11] كانت لديه، بلا شك، أمنيات رؤيته للحياة حينها، ليصف في الوقت ذاته للموضوع الأدبي الذي سيشغله: الحياة بلحظات السقوط والصعود، بأحلامها المحلقة، بفنائها وصعوباتها. لو أن كافكا ادعى، في عام ١٩٢٠، أنه كان ينوي، قبل عقدين فوق تل "بترين"، كتابة عمل "وصف لمعركة" لكان صادقًا.

لا نعرف شيئًا عن الراوي -سوى أنه في الثالثة والعشرين من عمره و"ليس لديه اسم بعد"- يختار شخصًا من دائرة معارفه ينتمي إلى صحبة كبيرة، ليقوم معه بنزهة ليلية في براغ الشتوية. (يرد، وللمرة الوحيدة في أعمال كافكا، ذكر جميع أسماء الشوارع والميادين بشكل صحيح). يحاول أربعة رجال عراة حمل رجل، جسده غريب الشكل، عبر النهر، ولكنهم يغرقون جميعًا. يذهب رجل آخر يوميًا إلى الكنيسة ليؤدي الصلاة على نحو لافت للغاية. هذه هي الأحداث تقريبًا. لا نعرف شيئًا عن معركة، عن مضمونها أو هدفها، كما لا نعرف سببًا لنزهة الشخصين المؤدية لتل "بترين" - هي تسلية خاصة مميزة، يدمجها كافكا في جميع أعماله.

أطلق هو نفسه على هذا العمل النثري "رواية قصيرة"، ومن المؤكد أنه أدرك مبالغته باستخدام هذا المصطلح الواصف للنوع الأدبي.[12] بحسب تفسير "جوته" للرواية القصيرة أنها تدور حول "حدث لم نسمع عنه من قبل"، لم يكن لهذه الرواية مثيل في تاريخ الأدب. لا يوجد حدث في رواية كافكا، ناهيك بوجود حدث لم نسمع عنه من قبل، إلا إذا اعتبرنا مغادرة الراوي -فجأة ودون مقدمات- للواقع ودخوله في عالم موازٍ، ورجوعه لاحقًا دون مقدمات أيضًا، حدثًا لم نسمع عنه من قبل. ما هذا العالم الموازي سوى عالم خيالي،

مخزون داخلي لا حدود له من الصور والشخوص والكلمات، والأبواب إليه ليست محكمة الغلق، كما ينفذ إليه بطل الوصف بحسب رغبته، ويتحلى داخله بقدرات إلهية، يستطيع، من خلالها، تغيير كل ما يقابله وفقًا لأهوائه: الفلك، والطبيعة، وأشكال الضروب، وجسده نفسه. مجال الانتقال إلى هذا العالم مبهم، لدرجة أنه يصعب اكتشافه مع القراءة الأولى، أو يُساء فهمه. يسأل الراوي نفسه، وهو يتنزه مع صديقه في ليالي براغ، "لماذا تتنزه مع هذا الإنسان؟ أنت لا تحبه ولا تكرهه؛ لأن سعادته تكمن في مجرد فتاة «... » اتركه يتحدث، واستمع أنت بأسلوبك، قلها بصوت خافت: هكذا ستحمي نفسك على أفضل وجه." ينهي كافكا هنا المقطع الأول من ثلاثة مقاطع، ويُعَنْوِن المقطع التالي بالعبارة التالية: "مُضحكات، أو الدليل على استحالة الحياة." يضيف مقطعًا فرعيًّا بعنوان: "ركوب الخيل" ويستطرد:

"قفزت، ببراعة غير مألوفة، فوق كتفي صديقي، وضربته بيدي في ظهره حتى مشى خببًا. حينما كان يضرب الأرض بقدميه معربًا عن ضيقه، أو يتوقف أحيانًا، كنت أضربه بحذائي في بطنه لأدفعه للحركة. نجحت في ذلك، ووصلنا سريعًا إلى قلب منطقة غير مكتملة حل فيها المساء."[١٣]

لا يتغير أسلوب السرد في هذا المقطع. تمنحنا صفحتان بسيطتان المعلومة الهامة التي تفيد أن هذا "المشهد المضحك" يحدث في خيال الراوي فقط. براعته "غير مألوفة"؛ لأنها من وحي تخاريفه، ومصطلح "منطقة غير مكتملة" لا يكون منطقيًّا إلا إذا جاء من منظور شخص يحلم، أو من منظور الخالق الجبار.

يصير هذا العالم الداخلي غير واضح؛ بسبب طبقاته المتمددة والمتداخلة: يلتقي الراوي بالرجل "السمين"، الذي يظهر بمجموعة تحمله

عند المنحدر في النهر. يصف الأخير -في لحظات يجرفه فيها النهر- "مصليًا"، وهذا المصلي يتذكر لقاء بشخص مخمور. إنه هيكل متدرج يدعمه كافكا بنظام عناوين ينقسم إلى ثلاثة فروع ("اا، 3، أ")، ولكنه لا يسهل على القارئ مطلقًا؛ إذ تتناقض اصطناعية هذا الهيكل مع العالم الخيالي المطروح في المقطع الثاني، وكأنه قصر خرافي محاط بالإسقالات: أمر مشتت للانتباه، ومخيب للأمل. من المنطقي قيام كافكا، في محاولة ثانية، بتبسيط هيكل "قصته القصيرة": ظلت النسخة "ب" عملًا غير مكتمل، كتبها في الأغلب عام ١٩٠٩ بالخط اللاتيني، وتكونت من مقاطع رئيسية، كما شُطِبَتْ قصة الرجل السمين وغرقه في النهر.

صار عمل "وصف لمعركة" قضية الدراسات الجرمانية، التي انشغلت بالاختلافات بين النسختين، وكذلك بالسؤال عما إذا كان كافكا يقترب بنسخته الثانية، التي اشتملت على حوارات أطول وفقرات أكثر "تأملًا"، من منهجه الأدبي الذي اتبعه في أعماله اللاحقة. تظهر، هنا بالفعل، بعض الموتيفات المميزة لقصصه، ولكنها منعزلة، وقدرتها الأدبية محدودة، مثل استعارة المعركة، التي لعبت دورًا محوريًا في أسطورة كافكا الخاصة، ولكنها تظل في "وصف لمعركة" غير واضحة المعالم بشكل خاص: وعد لم يوفِ به. من ناحية أخرى، تكتسب بعض المواضع أهمية؛ إذ ترسم، باقتضاب، صورة للتشتت المتزايد للذات: "بمجرد خروجنا إلى الهواء الطلق، غمرني شعور واضح بالحيوية." يصير الراوي، بـ"وضوح"، كائنًا منفصلًا عن نفسه؛ إنها عملية انفصال تتخذ هنا -وعلى نحو متكرر في أعمال كافكا اللاحقة- بعدًا جسديًا يثير الضحك: "أصابني شعور بالخجل، بمجرد أن ضربته ضربة تشجيع على ظهره، رفعت يدي مضطربًا. بدت يدي لي بلا فائدة، فوضعتها في جيب معطفي."[١٤٠]

كما يلاحظ استغناء كافكا عن تقديم أي تفسيرات منطقية للعلاقات العاطفية بين البشر: قبلات، ونوبات بكاء مفاجئة، وحالات خوف وملل، لا يفهم القارئ أسبابها. يمارس كافكا أسلوب قص مناقضًا لعلم النفس؛ إذ يسجل هذه التقلبات، ولكنه لا يمهد لها، ولا يعلق عليها. تنقلب، في النسخة "ب"، مشاعر الراوي تجاه رفيقه (الذي لا يحمل اسمًا أيضًا) سريعًا ودون أسباب، لدرجة أن القارئ تسيطر عليه فكرة وجود قرين، أو تجسيد لمقاومة نفسية. خفف كافكا، في أعماله اللاحقة، من حدة جرأة هذا الأسلوب في عمل "وصف لمعركة" من خلال الاستعانة بدرجات أقوى من البرود - لكن ذلك جاء وفق متطلبات فنية متعلقة بنوايا سردية مختلفة. العالم الذي تتحرك داخله شخصيات عمل "وصف لمعركة" عالم مضطرب، تتأرجح الشخصيات مثل مراكب غير آمنة. لذلك، فإن الشعور السائد والصورة الأدبية الغالبة هي "مرض دوار البحر فوق أرض يابسة".[١٥] أما الأرض، التي تتحرك فوقها شخصيات روايتي "المحاكمة" أو "القصر"، فلا تتأرجح، ولكنها تتذبذب، كأن الكارثة تقترب، أو كأنها بالقرب من مركز قوة جبارة وغير مرئية.

ظل كافكا غير راضٍ عن النسخة الثانية، ويبدو أنه أدرك، مع تفكيك النسخة "أ"، أن أجزاء النص تفتقر إلى الاندماج. إنه عبارة عن سلسلة من الأفكار المختلفة في عمقها، متفككة، ويمكن لذلك تحريكها وتبديلها أو شطبها، دون تغيير جوهري للنسق السردي. لا يسعنا إلا التكهن بالنموذج الذي احتذى به كافكا؛ لأن فكرة البناء الشبيه بالفسيفساء في عمل "وصف لمعركة" تبدو فكرة جديدة في سياق التجارب الأدبية لهذا العصر. نلحظ تأثيرًا للكاتب "هوفمانزتال"؛ لأن فقرة في النص تشير إلى عمل "خطاب شاندو" المتشكك في اللغة. فكرة

الرجل السمين، الذي يُحمل "بطريقة شرقية" عبر النهر، قد تكون مستوحاة من فن الجرافيك الياباني. ولكن كافكا بعيد تمامًا عن تقنية سرد "فلوبير" أو "توماس مان"؛ إذ يبدو عمل "وصف لمعركة" مثل لعبة هزلية في مسرح العرائس مقارنة بثراء التفاصيل النفسية والواقعية لهذين الكاتبين. يبدو أن كافكا كان لا يعد هذا الكمال -الذي يأتي تتويجًا لتطور ما- نموذجًا يسعى إليه. جاء على لسان برود أنه كان يشير، مرارًا وبإعجاب شديد، إلى أول عبارة في قصة "توماس مان" القصيرة "حسن الحظ": "اصمتوا! نريد أن ننظر إلى داخل هذه الروح." قرأ هذه العبارة في جريدة "نوية روندشاو" في الرابع من يناير عام ١٩٠٤، غالبًا في أثناء عمله على نص "وصف لمعركة". ننظر عند كافكا أيضًا إلى داخل روح، ولكن ما نراه ليست "دراسة" ـكما ذكر "مان" في عنوان نصه الفرعي- بل نرى باقة من الأشكال والألوان، فيلمًا، يخلفنا في حيرة من أمرنا، مثل فيلم تسجيلي دون تعليق عن مكان غريب في الطبيعة، أو صور لحالة من النشوة بعد تناول المخدرات. لم يقم كافكا، من البداية، بمحاولة تقليد العظماء، بل كان يقوم بتجارب لأسلوب كتابة خاص. لم يكن هذا الأسلوب قد أثبت قدراته الأدبية بعد، وكان كافكا يستكشف إمكانات هذا الأسلوب الفنية دون الاسترشاد بنموذج سابق. ولكن في وقت قريب سيشتهر اسم كافكا، بوصفه ممثلًا سريًا لطليعة الحركة الأدبية. لقد مهد العمل الإعلامي الأول الخجول الطريق لهذا الشاب البراغي.

كانت براغ مركزًا إداريًا نمساويًا، ومدينة تشيكية صناعية كبرى - ولكن من منظور الصناعة الأدبية، كانت براغ في هذا المجال بعيدة تمامًا. افتقرت عاصمة بوهيميا إلى مجلة ذات أهمية في هذا المجال، أو دار نشر تستحق الذكر. الشخصيات الأدبية الشهيرة، مثل "هوجو سالوس"، وعدوه اللدود "فريدريش أدلر" الذي كان يكبره بسنوات

عدة، "هاينريش تيفيليز"، الكاتب المسرحي ورئيس تحرير "براغر تاج بلات"، كانوا يعيشون جميعًا في منطقة خاصة خارج الحدود. كانت لهم أهمية محلية بوصفهم نقادًا، ومحرري مقالات، ومحاضرين، ورؤساء مجالس إدارات الاتحادات الداعمة للثقافة، لكن أعمالهم كانت تنشر في الرايخ الألماني. لم يكن في دائرة معارفهم القريبة أهم ممثلي شبكات التواصل الأدبية، بل ضمت محامين، وصحفيين، ورجال أعمال، ومسرحيين، وكانوا جميعهم يقيمون في براغ. نشأت صداقات لطيفة، وعميقة في بعض الأحوال، مع أدباء تشيكيين، كالوطني الألماني "فريدريش أدلر" مع "ياروسلاف فرخليتسكي" على سبيل المثال. ولكن ظلت هذه الاتصالات اتصالات شبه خاصة، دون أي تمثيل إعلامي. لم يبق أمام الأدباء الألمان المقيمين في براغ، ممن كانوا يبحثون عن سبل للتواصل –دون مغادرة المدينة لفترة طويلة– إلا المراسلات، والرحلات المنتظمة إلى الناشرين والزملاء في فيينا، وميونيخ، ولايبتزيج، وبرلين.

انطبق هذا الوضع على كبار الشخصيات المنتمين إلى الاتحاد البرجوازي للأدباء والفنانين "كونكورديا"، تمامًا مثل حركة الأدب البوهيمية الصغيرة، التي أطلقت على نفسها اسم "شباب براغ"، وصارت، في سنوات ما قبل ١٩٠٠، "اتحاد الفن التربوي الألماني". جذب هؤلاء الرومانسيون الجدد اهتمام "مايرينك" أيضًا، وقبلوا فكرة أن يكون طبيب أمراض النساء "سالوس"، أو المحامي "أدلر"، أدباء بالمعنى الكلاسيكي؛ لأنهم لا يخاطرون بشيء، ويكتسبون شعبيتهم لهذا السبب تحديدًا. ولكن ما لم يلقَ قبول "شباب براغ" ابتعاد المقلدين الجدد –الطاغين على الساحة– عن الجوانب الغامضة للتجربة الإنسانية، مثل الجنون، والانحراف الجنسي، والثمالة، والجريمة، على الرغم من

أن كتابًا مثل "بودلير" و"بو" * قد أثبتوا، منذ فترة طويلة، أن هذه "الموضوعات" قابلة للتشكيل اللغوي المتمايز.

لم يجمع بين المنتمين إلى هذه المجموعة شيء سوى الموقف الرافض لهذه الظاهرة، في حين اختلفت المحاولات الفردية لتحقيق هذه البداية الجديدة تمامًا، لدرجة أن التعرف على شكل مميز، قد يكون قابلًا للمقارنة بالنظرية الجمالية المؤثرة لمجموعة "شباب فيينا"، بات أمرًا صعبًا. "فيكتور هادفيجر" –من أكثر الشخصيات اللافتة للنظر في حركة البوهيمية في براغ– خلق لنفسه أسلوبًا شعريًّا مهد الطريق أمام حركة التعبيرية الأدبية. أما موظف مصلحة البريد الكاثوليكي "بول ليبين" فأحب الهجاء، وأنتج قصائد غنائية. للكاتب "ليبين" جانب مظلم؛ الشعور بالاشمئزاز من الحياة الدنيوية، الاكتئاب، التنجيمية، ممارسات جنسية تحكمها اضطرابات نفسية. تعرف القراء على هذا الجانب في رواياته: رواية "دانيال يزوز" بالخليط المشين من الطقوس الدينية والطقوس السادية ١٩٠٥، وبالأخص رواية "ذهاب سيفرين إلى الظلام" ١٩١٤، التي يحيي من خلالها -في توقيت غير مناسب وللمرة الأخيرة- مجموعة أوهام مستهلكة عن "براغ الساحرة". كانت الصداقة مع أدباء تشيكيين لهم التوجهات ذاتها أمرًا بديهيًّا بالنسبة لهذه المجموعة. اتخذ "ليبين" دور الوسيط الإعلامي؛ فكان يكتب مقالات لصحف تشيكية، ويترجم أعمالًا تشيكية، وينشر مقالات عن الفن والأدب التشيكي - كان بلا شك مثالًا يحتذى به بالنسبة لبرود.

كان هناك فارق فني واجتماعي بين "كونكورديا" و"شباب براغ"، ولكن ظل الاثنان ظاهرتين هامشيتين على الصعيد الأدبي. لم

---

* المقصود الكاتب (إدغار آلان بو)

يفلح من هم أصغر عمرًا في خلق تأثير يخرج عن نطاق حدود براغ. لم تصدر صحفهم الطليمية إلا في أعداد قليلة (على الرغم من احتوائها على قصائد للشاعر "ريلكه")، كما أن المدن الألمانية الكبرى كانت لها قوة جذب لا تقاوم. حتى كافكا، الذي كان يعمل بداية في عزلة وسرية، شعر بذلك. وعلى الرغم من عدم تأثره بانحلال المحيط الثقافي، أو ربما لهذا السبب تحديدًا، لم يهتم بالمبالغات الجنسية للكاتب "ليبين"، ولا القصائد الربيعية للكاتب "سالوس"، كما أنه قاوم فكرة التواصل مع أي أديب من الأدباء لمجرد توسيع قائمة اتصالاته. على العكس تمامًا ماكس برود، الذي كان يبحث عن اتصالات داعمة، وعدّ انتهاء "شباب براغ" جاء مبكرًا. كان برود في مرحلة ينشئ خلالها أولى شبكات التواصل بمساعدة زملاء الدراسة وأصدقاء الجامعة. "هادفيجر"، الذي كان يقود جبهة المعارضة الأدبية بعد صدور عمله "قصائد" ١٩٠٠، ذهب إلى برلين دون أن يتعرف على الموهبة الصاعدة التي كانت في التاسعة عشرة. ترك "مايرينك" المدينة أيضًا، قبل أن تتسنى لبرود فرصة لإقامة علاقة زمالة مستمرة.

يبدو أن برود فهم مبكرًا عدم اتساق العلاقات المحدودة داخل الساحة الأدبية الصغيرة في براغ مع مجالات التأثير الواسعة التي كان يأملها. لم يكن يفكر في الهروب مثل كافكا، بل كان يشعر بالحرية، وراضيًا بوضعه؛ إذ عززت مشاركته في مناقشات دوائر عديدة من ثقته في نفسه. ما كان ليقبل بمبادلة يكون بمقتضاها جزءاً من الحركة البوهيمية في برلين ومقاهيها الشهيرة، حيث لا يعرف أحدًا، وكان سيبقى لسنوات الدخيل القادم من الريف. إذًا، كان على برود، من أجل فتح الأبواب إلى العالم الخارجي، الاستعانة بالاستراتيجية المعهودة؛ أي المراسلات البريدية. نجح بالفعل وحده، ودون أي وسيط، في التواصل البريدي مع

عدد كبير في وقت قصير للغاية. مع بلوغه الخامسة والعشرين، صارت قائمة اتصالاته طويلة للغاية، وكان يحتفظ في مكتبه بردود "ريتشارد ديمل"، و"هوجو فون هوفمانزتال"، و"هيرمان هيسة"، و"ريكاردا هوخ"، و"توماس وهاينريش مان"، و"راينر ماريا ريلكه"، و"فرانك فيديكيند"، فضلًا عن رؤساء التحرير والنقاد والناشرين، وكذلك العديد من عناوين العاملين في مجال المسرح والموسيقى. ترك برود أكثر من ألف رسالة، فقط في السنوات العشر الأولى لنشاطه الأدبي. أظهر "نشاطًا فائقًا" -إنها أكثر صفة اقترنت بشخص برود- لدرجة أنه كان بحاجة إلى سكرتير خاص. استغل مناصبه في اتحاد "قاعة القراءة وإلقاء الخطب" للطلاب الألمان؛ إذ كان يرسل طلبات رسمية، دون أن يفصح مبدئيًا عن تطلعاته الأدبية. كان العنوان الأول للمحاضرات الأدبية هو البيت الألماني بالطبع؛ إذ تجمع هناك المواطنون القادرون ماليًا، في حين أن دعوة الأدباء العظام إلى جلسات قراءة في الجامعة كانت أمرًا غاية في الصعوبة. لم تملك "القاعة" ميزانية تسمح بهذه الرفاهية، ولم يكن ظهور الأديب المتواضع "ليلينكرون"، في أبريل ١٩٠٤، ممكنًا، لولا طلب التبرعات. (دفع برود عشرين كرونة، في حين دفع كافكا عشر كرونات).

ما يلفت الانتباه هو فشل برود في تحويل هذه المراسلات، التي لا حصر لها، إلى صداقات، أو مجموعات عمل على الأقل. كان برود يمدح أكثر الأدباء شهرة، ويدعوهم، ويهديهم كتبه، ولكن يبدو أنهم لم يقتنعوا بأن المبتدئ البراغي قد يكون شريكًا مثيرًا في الحوار، وانتهت، لذلك، هذه المراسلات سريعًا، وكانت، في بعض الأحيان، تعود بسبب حدث ما. كان الاستثناء الوحيد، والأهم في حياة برود، علاقته بالصحفي المقيم في ميونيخ "فرانز بلاي"، كان يكبره بثلاثة عشر عامًا، وكان من الكتاب القلائل من ألمانيا، الذين يأتون بين الحين والآخر إلى

براغ، دون المطالبة بسداد نفقات السفر. نشأت هذه العلاقة من خلال تبادل المقالات الناقدة -البناءة في نقدها- واتضحت سريعًا اهتماماتهما الأدبية المشتركة: الحركة الرمزية الفرنسية، والفن الجديد، وأخيرًا وليس آخرًا، الأدب الجنسي. نال الكاتب التأثيري "جول لافورج"، الذي توفي مبكرًا بمرض السل، إعجاب كل من برود و"بلاي"، لدرجة أنهما ترجما معًا نصوصًا بسيطة من أعماله (مثل نص "بيرو"، ونص "المهرج" ١٩٠٩). أعجب "بلاي"، رجل الأدب المحب للثقافة الفرنسية، بمحاولات برود تقليد لامبالاة "لافورج" المصطنعة في أول أعماله.

شارك برود مشاركة حيوية، بوصفه قارئًا وكاتبًا، في مجلات "بلاي" العديدة والمتميزة؛ إذ لم يقم أي رجل إعلام ألماني بإنشاء هذا العدد الضخم من المجلات وإنهائها في هذه المرحلة الزمنية. تقاسم برود مع كافكا اشتراك مجلتي "الأماتيست" (١٩٠٥-١٩٠٦) و"الأوبال" ١٩٠٧. كانت المجلتان معروفتين بتخطيهما الحدود بموضوعات إباحية، ونشرهما لصورٍ جنسية "صريحة"، وإن كانت مرسومة بأسلوب الفن الجديد على نحو كاريكاتيري. كان الحصول عليها بموجب اشتراك، وظلت داخل منزل آل كافكا في جزء مغلق من مكتبة الكتب. يبدو أن "بلاي" كان يبحث عن سبيل لإحياء الثقافة الحسية، كما وجدها مجسدة باقتدار في عصر النهضة، ولكن في عصر تشبع من الحديث عن الجنس نظريًا (بأسلوي علمي زائف) صارت هذه الفكرة بلا أهمية. تبرهن القصائد الحسية التي نشرها ماكس برود في هاتين المجلتين على ذلك، كان من المفترض أن تنشر هذه القصائد في مجموعة صغيرة عام ١٩٠٧ تحت عنوان "طريق العاشق". (بعد تغيير العنوان الأصلي "إروتيس"، مع صورة موجزة للعنوان مستوحاة من

الفن الياباني، قام كافكا بتصميمها)[١٦] ظلت الفجوة كبيرة بين حسية "بوكاتشيو" أو "فرانسوا فيلون" البريئة، و"الخبرة بالنساء" التي امتزج خلالها الجد والهزل لدى "لافورج"، وبرود، و"بلاي"، مع تقديم أنماط نفسية مركبة.

من المؤكد أن "بلاي" المثقف الشامل، صاحب الحس الأدبي المميز، قد لاحظ هذا التناقض سريعًا. اكتفى بمجلتين تتناولان موضوعات حسية تناولًا راقيًا، وأسس في مرحلة، أوشكت خلالها مجلة "الأوبال" على الانتهاء، مجلة جديدة تتناول، بالدرجة الأولى، أحدث إصدارات الأدب المعاصر. كانت مجلة تصدر كل شهرين، وكان مستوى الإخراج والمستوى الفني لها راقيين، وكان يطلق عليها هيبريون. كانت الظروف المحيطة بالبداية أفضل في هذه المرة؛ لأن المجلة لن تستفز شرطة الآداب العامة للتدخل من ناحية، وتبرع الكاتب وصاحب المصرف الغني "كارل شتيرنهايم" بعشرة آلاف مارك ميزانية أولى، مما ضمن تمويل العديد من الأعداد القادمة. كما صار هناك أمل في أن تستكمل هذه المجلة مسيرة مجلتين مؤثرتين في مرحلة منعطف القرن، بان والجزيرة، كانت لهما ميزانية كبيرة أيضًا، وتمنى الكثير من محبي الأدب عودتهما مرة أخرى.

كانت الخطة مقنعة، وأعجب بها الأصدقاء في براغ. في زيارة للكاتب "بلاي" في صيف ١٩٠٧، لم يتفق على تعاون برود فحسب، ولكن تمكن "بلاي" الفصيح والمثير للاهتمام[١٧] من إقناع كافكا بتقديم مقتطفات من أعماله: أجزاء من عمله "وصف لمعركة"، ونصوص قصيرة أخرى، صدرت في العدد الأول من مجلة هيبريون في مارس ١٩٠٨، على أربع صفحات، وتحت عنوان "تأمل". هذا يعني أنه بعد عام كامل من إعلان برود عن وجود عبقري مجهول، صار التعرف

على "فرانز كافكا" ممكنًا، من خلال نصوصه المنشورة مع أعمال كل من "ريلكه"، و"هوفمانزتال"، و"هاينريش مان"، و"شتيرن هايم"، و"فيرهارن":

"حينما نتجول ليلًا داخل زقاقٍ، ونشاهد رجلًا آتيًا من بعيد نحونا – بسبب ليلة بدرية والطريق الصاعد أمامنا. فلن نمسك به، حتى إن كان ضعيفًا ومهلهل الملابس، حتى إن ركض شخص آخر خلفه صارخًا، سنتركه يمضي.

لأن الليل قد حل، وليس لنا ذنب في أن الطريق يصعد أمامنا في ليلة بدرية، فربما يعقد الاثنان مسابقة من باب التسلية، ربما يتعقب الاثنان شخصًا ثالثًا، ربما يُطارد الأول دون ذنب، ربما يريد الثاني ارتكاب جريمة قتل وسنشاركه في هذه الجريمة، ربما لا يعرف الاثنان شيئًا عن بعضهما، ويركض كل واحد منهما على مسؤوليته إلى فراشه، ربما هما من السائرين نيامًا، وربما يحمل الأول سلاحًا.

سيُسمح لنا أخيرًا بعدم الشعور بالإرهاق، ألم نتناول قدرًا كافيًا من الخمر؟ نحن سعداء بأن الثاني قد غاب عن أعيننا."[١٨]

كان أول عمل منشور له وهو في الرابعة والعشرين من عمره، ومما لا شك فيه أن كافكا قد شعر بالتشجيع: هل من الممكن استئناف عمله الأدبي "وصف لمعركة"؟ كان في حالة مزاجية تدفعه إلى تسليم "بلاي" نصين آخرين للعدد التالي: حديث مع مصلٍّ، وحديث مع مخمورٍ (سيندم كثيرًا على هذه الخطوة في فترة لاحقة).[١٩] لم تصدر نصوص أكثر من ذلك في مجلة هيبيريون؛ إذ ظل مشروع الرواية سرًا

مخفيًا عن الجمهور، مما جعل النقاد القلائل، الذين انتبهوا لكافكا، يصنفونه بوصفه كاتبًا للنثر القصير.

دفع ذلك إلى عقد المقارنات: يعد "بيتر ألتنبرج" و"روبرت فالزر" أستاذي هذا النوع الأدبي؛ أحدهما نمساوي والآخر سويسري، وهما شخصيتان معروفتان بتميزهما، وبصعوبة التعامل معهما أدبيًا وشخصيًا. لاحظ النقاد الأوائل أن كافكا لا علاقة له بالرتوش التأثيرية للكاتب "ألتنبرج"، ولا أيضًا بفيض المشاعر، الذي تمتزج فيه السخرية بالألم، ويعبر عنه بكم هائل من الشَرَط وعلامات التعجب.[20] أما التشابه بين أسلوبه وأسلوب "فالزر" فكان ملحوظًا بقوة، للدرجة أن التساؤل حول "فرانز كافكا"، بوصفه اسمًا مستعارًا للكاتب "روبرت فالزر"، صار مطروحًا –لم تكن فكرة غريبة؛ لأن أول داعم للكاتب "فالزر" المجهول في بداياته كان هو "فرانز بلاي". هدأ "بلاي" من روع أحد القراء: "كافكا ليس "فالزر"، وإنما هو شاب في براغ يحمل هذا الاسم بالفعل." حتى الكاتب "روبرت موزيل" علق على صدور أول كتاب لكافكا تأملات، معبرًا عن "انزعاجه" من أنه يبدو "مثل حالة خاصة لنمط "فالزر"، ومن المفترض أن يبقى أسلوب "فالزر" خاصًا به؛ لأنه لا يصلح للسيطرة على هذا النوع الأدبي."[21]

لا يمكن الإجابة عن السؤال حول مدى تأثير "فالزر" على كافكا إجابة قاطعة –لأنه تأثر، في فترة الكتابة الطويلة لعمل "وصف لمعركة"، بالعديد من القراءات الجديدة. لم يصلح الكتاب الأول المنشور للكاتب "فالزر" تحت عنوان "مقالات فريتز كوخر" عام ١٩٠٤، بأسلوبه النثري البسيط والمقلد، مثلًا يحتذي به كافكا، كما أنه، في

الأغلب، لم يعرفه في مرحلة وضع فكرة "وصف لمعركة". نشر "فالزر" نصوصه النثرية القصيرة في جريدة "نوبة روندشاو" ابتداء من عام ١٩٠٧، وكان ذلك في فترة تمكن كافكا خلالها من إلقاء مقاطع كاملة من عمله. يذكر ماكس برود أنه في هذه المرحلة أيضًا اكتشف "فالزر"، وصار يستشهد بمواضع من نصه، وهو في منتهى السعادة.[٢٢] قد يكون التأثر به واردًا في النصوص التي سلمها كافكا لمجلة هيبريون، ولا علاقة لهذه النصوص بعمل "وصف لمعركة"، ولا نعرف لها توقيتًا محددًا. من المحتمل أيضًا تَعَرُّف كافكا، هنا ولأول مرة، على القيمة الجمالية الخاصة بالنصوص النثرية القصيرة وتنوع أشكالها. ابتعدت أعماله اللاحقة، بداية بمشروع رواية "المفقود"، عن مجال تأثير "فالزر"، تاركًا خلفه وللأبد اللعب السريع "بالانطباعات" واللقطات اللحظية، ليدون في عام ١٩١٧ ما يفيد نفوره من "الاستخدام المبهم للاستعارات التجريدية" في روايات "فالزر".[٢٣]

لم يعرف أول قراء كافكا أنه قد عقد النية، مع عمله "وصف لمعركة"، على القيام بشيء سيتطلب منه مجهودًا ذهنيًا كبيرًا، وهو ما لم يخطر على بال "فالزر" قط: الدخول مباشرة إلى منطقة الخيال. يتعامل الكاتب، عادة، مع "مناطق غير مكتملة بعد"؛ هي المادة التي يجدها داخله، والتي تنتظر منه أن يشكلها، ويلقي الضوء عليها، ويلونها، في سياق تسيطر عليه حرفة الكتابة الأدبية التي تميز الكاتب عن الشخص الحالم. اتضح له ذلك بعد قراءة الأديب "هيبل"؛ إذ قرأ، وهو في العشرين من عمره، مذكراته، التي صدرت في أربعة أجزاء، بنهم شديد. صرح بعدها مباشرة، في رسالة إلى "بولاك" يُستشهد بها كثيرًا، أن مهمة الأدب الأساسية هي فتح هذا المجال المتميز أمام القارئ:

"إن لم يوقظنا الكتاب الذي نقرؤه بضربة فوق رؤوسنا، فلماذا نقرؤه إذًا؟ ليسعدنا، كما كتبت أنت؟ يا إلهي، سنكون بدون كتب سعداء أيضًا، ويمكننا كتابة الكتب التي تسعدنا، في أقسى الظروف، بأنفسنا. ولكننا بحاجة إلى الكتب، التي تحل علينا مثل المصيبة. تؤلمنا، مثلما يؤلمنا موت شخص أحببناه أكثر من أنفسنا، مثلما يؤلمنا النفي إلى داخل الغابات، بعيدًا عن كل البشر، مثلما يؤلمنا الانتحار. الكتاب مثل فأس تضرب البحر المتجمد داخلنا. هذا ما أؤمن به."[٢٤٠]

كان هذا هو البرنامج، وبما أنه بدأ جديًا في تنفيذه، فقد أدرك أن هذه الفأس يجب أن تنفذ إلى البحر المتجمد داخل الكاتب أولًا. عليها كسر القشرة الخارجية، ثم الغوص في الظلام لإخراج الكنوز سليمة إلى النور: كانت هذه هي الصور التي أمسك بها كافكا؛ ليعبر بها في أفكار عن الحدث الحاسم الذي يخلق الأدب. وجد سريعًا لهذا الحدث مصطلحًا يعبر عنه: كتابتي.

حقوقي حاصل على الدكتوراه يبحث عن عمل

"تتحمل كل شيء
بمجرد حدوثه."

"صافو"

ثلاثة أصوات لصالح كافكا، وصوت ضده. لقد حدث، لأول مرة في حياته، ما كان يتوقعه منذ الطفولة؛ شخصية سيادية غير مقتنعة بامتلاكه القدرات المطلوبة التي تؤهله للترقي، على الأقل في هذه اللحظة؛ لأن معرفته "بالقانون المدني النمساوي، وقانون التجارة وتغيير العملة، وقانون القضايا المدنية والجنائية" كانت معرفة منقوصة، لدرجة أن الاختيار بين توقيفه أو إنجاحه بدرجة "مقبول" كانت مسألة متوقفة على مزاج الممتحنين ورغبتهم.

صحيح أنه فشل في مساعيه، لكن من هذا المحامي الذي حاول، في السابع من نوفمبر ١٩٠٥، اعتراض طريق الطالب كافكا؟ جلس أربعة أساتذة في أول امتحان دكتوراه أمامه، وكان اثنان منهم قادرين على القيام بهذه العرقلة: المتخصص في حالات الإفلاس، الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد، "أنطون ريتلين"، الذي لا يبدو عليه في هذه المرحلة انقلابه على النازيين لاحقًا واقترابه من منصب المستشار، والآخر هو "هوراس كرازنو بولسكي"، صاحب الصوت الأجش، الذي

يخشاه الطلاب في الامتحانات؛ حقوقي مدني يدافع، باستماتة وحماس، عن دولة القانون الحرة، ولكن كان يراه أنصار "برنتانو" في براغ حليفًا للشر.[١] ما كان كافكا ليشكو من هذه النتيجة المتواضعة؛ لأنه أدرك سريعًا، بعد اجتيازه امتحان تاريخ الحقوق مع انتهاء الفصل الدراسي الرابع بتقدير "مقبول"، أن الجزء الثاني للدراسة المتعلق "بالقضاء" سيكون أكثر صعوبة، وسيدفع به إلى حافة قدراته على الإدراك النظري، وعلى ضبط النفس.

يرجع السبب في ذلك، من ناحية، إلى الكم الهائل للمادة التعليمية، والتي تدرس تدريسًا أحادي الجانب. لم يُفصل في هذا العصر -مع منعطف القرن- بين القانون، وعلوم الدولة، والاقتصاد السياسي. ترتب على ذلك أن كافكا لم يستمع فقط تسع ساعات أسبوعيًّا إلى محاضرات القانون النمساوي الخاص وتفسيرات "كرازنوبولسكي" الدقيقة للقوانين، بل أيضًا إلى محاضرات عن علم الاقتصاد القومي، وسياسات الاقتصاد القومي، والمالية العامة، و"العلوم الإحصائية العامة والنمساوية" أيضًا. كانت حال هذه المحاضرات، من ناحية أخرى، بائسة؛ إذ لم تهتم إلا بتفسير المصطلحات وتنظيمها، ولم يفكر المحاضرون، ولو للحظة، في قضايا تتعلق بالبعد الاجتماعي والسياسات الاجتماعية. كان هناك نوع من الأساتذة يقرأ من سنة لأخرى التدوينات نفسها، ويتثاءب على المنبر، ويمتنع عن التواصل البصري مع الحضور، أو يقوم بإلغاء محاضرة، دون إنذار سابق؛ لارتباطه بمواعيد أكثر أهمية. أما مكافآت الامتحان، التي كان يحصل عليها الأساتذة مباشرة من الطلاب، فيجري تحصيلها في موعدها بدقة. "جيدو كيش"، المؤرخ القانوني المهتم بالتقدير الشخصي، الذي

درس بعد كافكا سنوات قليلة في براغ أيضًا، ووجد الأوضاع نفسها، تحدث في مذكراته عن هذه الأوضاع "المهينة والكارثية".[٢]

لم تكن القراءة المستقلة مطلوبة بأي شكل من الأشكال، ولا حتى من أجل الدكتوراه والحصول على اللقب القانوني. من المؤكد أن الانطباع المترسخ لدى الطلاب هو أن الامتحان أهم من المحاضرة، خاصة الامتحانات النهائية الثلاثة. شاب هذا الاستنتاج مخاطرة أدت إلى عدم رؤية الأساتذة إلا لعدد بسيط من طلاب الحقوق الألمان، الذين بلغ عددهم المسجل نحو سبعمائة طالب. بعد مرور أسابيع قليلة على بداية الفصل الدراسي، كانوا يلقون محاضراتهم أمام صفوف شبه فارغة. انتشرت مذكرات، جُمعت من شخص ما بأسلوب مختزل، وصيغت (مقابل أجر في معظم الأحوال) في محاضرات نصية. كان من المفضل عدم إظهارها في قاعات المحاضرات، ولكن تأجيل قراءتها قبل الامتحان كان أمرًا مريحًا للغاية. يبدو أن كافكا فضل هذه الطريقة أيضًا؛ إذ كان لديه "مذكرات كرازنوبولسكي"، وغيرها من المذكرات. نجد في رسائله، على نحو ملحوظ، آثار هذه المذاكرة المتأخرة: لا يجرؤ كافكا، مثلًا، على زيارة المقاهي قبل ستة أسابيع من الامتحان الأول، الذي كاد يرسب فيه؛ خوفًا من تأثير ذلك على "استذكاره" في اليوم التالي، أو عبارة من كتاب تدوينات مفقود يقول فيها إنه "يذاكر" منذ السادسة صباحًا.[٣]

لم تكن هناك نماذج مضيئة في هذه الأجواء الرتيبة، وقلما حضر طلاب من كليات أخرى، أو مواطنون مهتمون بالثقافة، ولو بالخطأ، إلى قاعات محاضرات كلية الحقوق. ظهور قاضي التحقيقات السابق "هانز جروس" هو الحدث الوحيد الذي كان يثير المناقشات

داخل "المجتمع" أيضًا؛ بسبب شهرته، وكثرة الجدال الدائر حوله، بوصفه مؤسسًا لعلم الجريمة المنهجي، وبوصفه عالم نفس في الجريمة، ومؤلفًا لـ"دليل قضاة التحقيق وموظفي الشرطة والضباط" ١٨٩٣، الذي تُرجم إلى عشرات اللغات الأخرى، والذي نقحه باستمرار، وأضاف العديد من الأمثلة التوضيحية. حضر كافكا محاضرات "جروس" في "قانون العقوبات المادي"، و"قانون العقوبات النمساوي"، و"تاريخ الفلسفة الحقوقية"، فضلًا عن تدريب في قانون العقوبات؛ أي ست عشرة ساعة أسبوعية. قبل "جروس"، عام ١٩٠٥، بوظيفة الأستاذية التي عرضت عليه في مدينته "جراتس"، وكان ذلك خبرًا سيئًا لكافكا؛ لأن هذا الممتحن تحديدًا كان متفهمًا ومهتمًا بمنطق الأمور أكثر من الحفظ عن ظهر قلب.

لا تبوح شهادات كافكا عن حياته، ولا مذكرات برود، بشيء عن البروفسور "جروس". هذا أمر مؤسف، خاصة أن صورة "جروس"، أمام الرأي العام، وفي نظر كافكا أيضًا، قد تأثرت سلبًا بعد مرور عقد؛ بسبب صراع دار بين الأكاديمي المخضرم وابنه "أوتو"، الطبيب ذي الميول الفوضوية، وأحد تلاميذ "فرويد" المغضوب عليهم. أخرج "أوتو جروس"، في عام ١٩١٣، بواسطة الشرطة وبطلب من أبيه، من شقته في برلين، وأودع مصحة نفسية في النمسا، دون أن توجه إليه تهمة محددة. من المؤكد أن هذا الحدث قد أثر في فكرة رواية "المحاكمة" لكافكا، ولكن يبقى السؤال المثير عن مدى تأثير تفكير "هانز جروس" الجنائي في رواية كافكا بلا إجابة محددة.

طالب "جروس" ألا ينشغل القضاة ووكلاء النيابة بالتصنيف القانوني فقط لأي عمل إجرامي، بل أيضًا بشخصية الجاني، والجناة عمومًا. كانت هذه المطالبة تذكر بالفكرة المثيرة للجدل للطبيب الشرعي "سيزارة لومبروزو"، المقيم في "تورينو"، والذي قام بتنميط الجناة، زاعمًا تحديد "المجرم بالفطرة" من خلال قياس حجم الجمجمة.[٤] كانت هذه الرؤية الأنثروبولوجية جديدة تمامًا في مرحلة منعطف القرن؛ إذ شككت في معنى العقوبة، وأثارت حفيظة القانونيين الجنائيين بشكل كبير، ومنهم المتحررون. كان لهم الحق في الانزعاج من تعويم حدود تخصصهم ومنظومة العدل عبر أفكار مشكوك في علميتها. عزز "جروس" من هذا القلق من خلال خطوة هامة اتخذها، وتفوقت على "لومبروزو"، بإعلانه في محاضراته عن أن القانون لا يمثل وحده المادة الدراسية، بل الحياة نفسها. كان من المدهش أنه يقوم من خلال المجلة العلمية التي يصدرها، "أرشيف الأنثروبولوجيا الجنائية وعلم الجريمة"، بفهرسة المجتمع من الزاوية القانونية: كانت الأبحاث تتناول ألوان الشعر، وقراءة الطالع، ودفاتر التوفير المزورة، والأكاذيب المعتادة، والأوشمة، ومرض الهستيريا، وثغرات في الذاكرة، وأحجام الأجساد، والطوابع، وشظايا الزجاج، وكلاب الشرطة، وأشعة "رونتجن"، وكذلك أحجام تصرفات الأطفال والسكارى و"المتكسين". إن "علم الجريمة" الحديث، كما مثله "جروس"، المتداخل هنا مع علم البحث الجنائي، كان يرى جميع المعارف في مجال العلوم الطبيعية والبشرية ذات أهمية، ولذلك لم يقتنع بمجرد تصحيح المنظومة المجتمعية المدمرة، ولكنه طالب بالبحث في وعي الجاني؛ ليخرج بآليات للوقاية. الجهات القضائية، التي يصفها كافكا في رواية "المحاكمة"، هي اليوتوبيا المجسدة لهذا التصور: لا ينصب اهتمامها

بالدرجة الأولى على المخالفات المحددة التي يمكن "معاقبتها"، بل تنفذ، ببديهية كبيرة، إلى الحياة، وإلى نفسية الجاني؛ لتتعرف على "مسؤوليته الجنائية"، و"قابليته للتقويم". صح علم الجريمة المستنير بهذه التدخلات وقتنها، من خلال تقدمه السريع في التحلي بالعلمية من ناحية؛ أي الاستفادة بأحدث المعارف في علم الاجتماع، وعلم النفس والتحليل النفسي؛ إذ كان "جروس" يقرأ في الكبر أعمال "فرويد"، كما قدمت، من ناحية أخرى، تبريرات اجتماعية منطقية للتعديات الإجرامية. كان كافكا يستشعر مناطق الظل التنويرية هذه بحساسية كبيرة. تحمس، في سنوات لاحقة، لفكرة "جروس" بإصدار أوراق عن محاربة إرادة السلطة، ولم يرجع السبب الوحيد في ذلك إلى صراعاتهما مع الأب.°

كتب كافكا لاحقًا: "الإجبار على الاستذكار أمر مفزع، فضلًا عن ارتعاشي طوال الوقت. أعرف ذلك. أتذكر جيدًا أنني كنت أظن أنني سأتعثر بين حالات الانتحار غير المكتملة. تنتهي في كل لحظة من المذاكرة، لتبدأ في الحال من جديد، وتقف في محور هذا العالم الحزين." لم يكن يبالغ بالفعل في هذه المرة، ولكن إن كان يعيش بالفعل هذه الحالة، فلماذا كان يستذكر وحده قبل الامتحان؟ ألم يتعرف، في قاعات المحاضرات، أو اتحاد "قاعة القراءة"، أو في دوائر محبي "برنتانو"، على طلاب من عمره؛ يخففون عنه أعباءه؟ تعامل ماكس برود، الذي حصل على درجة الدكتوراه بعده بعام وبأفضل الدرجات، بأسلوب مختلف مع هذه المشكلة. كان يستعد للامتحان مع "فيليكس فيلتش"، الذي كان يستفيد من موهبته في المنطق الشكلي بلا شك. هل كان كافكا يخجل من جهله، وعدم اهتمامه، وثقافته المحدودة؟

هذا التوقع أقرب إلى الحقيقة، خاصة عندما نسمع عن مقاومته لحضور المحاضرات الإلزامية في الاقتصاد القومي، التي كان يلقيها المحاضر "ألفريد فيبر". حضر "فيبر"، الذي كان في السادسة والثلاثين من عمره، عام ١٩٠٤ من برلين إلى براغ، ولم يكن كافكا وقتها واقعًا تحت ضغوط امتحان الدكتوراه. ومع ذلك، تجاهل هذا الحماس من حوله تجاه محاضرات "فيبر" الحيوية، التي ألقاها بحرية، متخطيًا بها حدود التخصص. اقتنع برود المتحمس بالتبرع بعمل أبحاث إحصائية؛ ليكون قريبًا من مثله الأعلى الجديد، في حين ابتعد كافكا عن قاعة المحاضرات المزدحمة، التي كانت الأكبر في مبنى "كارولينوم"، وأيضًا عن محاضرات "فيبر" في علم الاجتماع، التي ألقاها في قصر "كلام-جلاس". يبدو أن كثرة النظريات في هذه المحاضرات كانت تفوق طاقة كافكا؛ إذ لم تناقش نصوصًا أساسية في علم الاجتماع، مثل كتاب "فرديناند تونيز" "المجموعة والمجتمع" ١٨٨٧، فحسب، بل ناقشت كذلك أعمالًا في علم الأحياء التطوري، حول قضية توريث الصفات المكتسبة، ومسألة نقل آليات الانتقاء التي قدمها "داروين" إلى عالم الاقتصاد والمجتمع عمومًا. كان "فيبر" يعكف، في الوقت ذاته، على نظرية عامة للمناطق الصناعية، ولم يدرك كافكا حينها أن هذا موضوع ستكون له أهمية في حياته الوظيفية في المستقبل. كان "ألفريد فيبر" حينها ـ في هذه المرحلة تحديدًا، وعلى النقيض من أخيه الأشهر "ماكس" – مقتنعًا بالأهمية الشاملة للعلوم الاجتماعية، لدرجة أن الصراع الوارد بين العلم المتحرر والمجتمع الليبرالي لم يخطر على باله. كتب برود متذكرًا محاضرات "فيبر": "بوضوح، لم يدرك المعلم حينها، ولا التلاميذ، حيوية الموضوعات التي كنا نناقشها. لقد كنا نربِّت على

كلاب الجحيم، التي بدأت في جذب قيودها."[٧] كان من الممكن زعم الشيء ذاته عن "هانز جروس".

لم يكن غياب كافكا تصرفًا ذكيًا؛ لأن محاضرات "فيبر" لم تكن من أجل التسلية الفكرية فحسب؛ بل درست أيضًا أساسيات الاقتصاد القومي، الذي كان جزءًا من امتحان الدكتوراه بلا شك. وبما أن كافكا قرر عقد امتحانه الثاني في وقت مبكر، في مارس ١٩٠٦، فلم يبقَ له اختيار سوى قراءة ملاحظات برود، التي دونها في محاضرات "فيبر"، على عجالة. كتب إلى برود، في اليوم التالي للامتحان، متنفسًا الصعداء: "أنقذتني هذه الأوراق؛ إذ بدوت مثل مرآة لـ "فيبر"، بصبغته النمساوية، وهذا الكم من المعلومات التي درسها في الأشهر الستة الماضية، وأنا لا أملك إلا أوراقك الصغيرة في ذاكرتي، ولكنني حققت تطابقًا جميلًا. كانت تجارب الآخرين مبهجة أيضًا، وإن كانت بعيدة تمامًا عن مجال المعرفة."[٨] هذه النغمة المبهجة خداعة؛ لأن كافكا اقترب بشدة، في هذا الامتحان الصعب حول موضوع "قانون الدولة العام والنمساوي، والقانون الدولي، والاقتصاد القومي" من منطقة الفشل. لم يستمتع اثنان من خمسة ممتحنين بأداء كافكا مطلقًا، وطلبوا إعادة الامتحان، وكان أقرب موعد بعد ثلاثة أشهر، في حين اتفق الثلاثة الآخرون على منحه درجة "مقبول". لقد ساعدوا، بذلك، كافكا على تخطي أكبر حاجز أمامه؛ لأن الامتحان الثالث والأخير كان أقل صعوبة: كانت مواد الامتحان هي "القانون الروماني، والقانون الكنسي، والقانون الألماني"؛ أي لم يكن عليه سوى إعادة مضغ "نشارة الخشب"، التي سبق مضغها في الفصول الدراسية الأربعة الأولى. كان هذا شيئًا مؤلمًا، ولكنها مشكلة كم. كان قادرًا على مواجهتها وحده دون مساعدة الآخرين، على الرغم من تمرد معدته على مدار أيام

كاملة. اجتاز كافكا الامتحان بالفعل: أربعة ممتحنين ودرجة "مقبول" أربع مرات. حصل كافكا، في ١٨ يونيو ١٩٠٦، في احتفالية أقيمت في قاعة "كارولينوم"، على درجة الدكتوراه. وقف إلى جانبه "داعم"؛ شخص يُختار اختيارًا عشوائيًا يقدمه إلى رئيس الجامعة، وكان هذا الداعم هو "ألفريد فيبر".

كانت للدرجات الشرفية والدرجات الأكاديمية أهمية مبالغ فيها في النمسا، بوصفها عاملًا للتصنيف الاجتماعي، ووجدت احترامًا، حتى إن لعبت العلاقات دورًا أساسيًا في الحصول عليها. كانت هذه الألقاب تستخدم في الحياة اليومية كأنها جزء من الاسم (مما أدى إلى نشأة أسطورة حول فعلية ارتباطها بالاسم)؛ فقد اعتاد المعارف، منذ سنوات طويلة، على استخدام صيغ مخاطبة مثل "عزيزي المستشار الملكي". كان كافكا "السيد الدكتور" على مدار ثمانية عشر عامًا من عمره: هكذا كان يتلقى التحية في الشارع، ويُخاطب في المكتب والرسائل، دون أن يترعج من ذلك، أو يلفت انتباهه. الاستغناء عن هذه الصيغة كان أمرًا غير وارد؛ لأنه كان سيثير شعورًا بالإحراج، تمامًا مثل رفع الكلفة في المخاطبة في توقيت مبكر. لا يفسر ذلك على أنه تواضع، بل عاطفة زائدة، أو وقاحة. كانت، في المقام الأول، درجة ممنوحة، وقد حصل عليها في المقام الثاني، وهذا يعني ارتقاء في السلم الاجتماعي، وتفسيرًا جديدًا للوضع الاجتماعي؛ أي ليس شأنًا خاصًا. لم يترق كافكا وحده، بل ارتقت العائلة بأسرها، ومعهم زوجة المستقبل: جلس الدكتور معهم على المائدة، وكان أصدقاؤه جميعًا من الدكاترة أيضًا؛ أي أن تكاليف التعليم الباهظة قد أتت بثمارها، بشرط أن يعرف الجميع الخبر.

"يتشرف فرانز كافكا بالإعلان
عن حصوله على درجة الدكتوراه في الحقوق
يوم الاثنين الموافق ١٨ يونيو ١٩٠٦
من الجامعة الألمانية كارل فريدريش في براغ.
براغ، يوليو ١٩٠٦."

بطاقة مطبوعة أرسلت إلى أفراد الأسرة الكبيرة، والأصدقاء والمعارف، والزبائن. كان هذا جزءاً من اللعبة.

مما لا شك فيه أن مشاعر الارتياح والفخر صاحبت كافكا وهو يرسل هذه البطاقة. سعد بنظرات الاستحسان من أمه وأخواته، وأبيه أيضًا؛ إذ أتاحت هذه الأجواء الإيجابية فترة هدنة قصيرة، وهي حالة لا تتكرر كثيرًا في هذه العائلة. ولكن من المؤكد أن كافكا قد أدرك رمزية هذا الإجراء، وأنه لن تترتب عليه تغييرات عملية كبيرة. لن تغير درجة الدكتوراه شيئًا من اعتماده المادي على الأسرة. دفعت الأسرة، بالطبع، تكاليف رحلته الثانية إلى "زوك مانتل"، حيث كانت تنتظره حبيبة العام الماضي. لم تبعث درجة الدكتوراه أيضًا بأي نور إلى المستقبل الوظيفي الغامض. تقدم كافكا، قبل الامتحان مبدئيًا، بطلب للتدرب في مكتب محاماة "ريتشارد لوفي"، الموجود على الطريق الدائري المطوق بالبلدة القديمة، والمتخصص في الدفاع الجنائي. كان هذا التدريب يجلب له مصروف يده فقط. كان على المحامي الراغب في العمل الحكومي قضاء سنة تدريبية في المحكمة، ولكنها كانت أعمالًا مؤجلة الدفع، واكتفى منها في هذه المرحلة. صار ملزمًا باتخاذ قرار سريع في المستقبل القريب.

لم يكن المصطلح قد نشأ بعد، ولكن المجتمع النمساوي صار، مع منعطف القرن، "مجتمعًا منتجًا"؛ يهتم بالألقاب الأكاديمية بوصفها مطلبًا مجتمعيًا، وربما يفضلها، ولكنه لا يميزها ماديًا. قرأ كافكا في جريدة "براغر تاج بلات": "حتى الدوائر الجامعية المحافظة تدرك حقيقة أن درجة الدكتوراه في الحقوق في النمسا ليست لها متطلبات خاصة، أو أن هذه المتطلبات صارت شكليات فارغة."[٩] كان هذا أمرًا محبطًا، ولكن لا يمكن إنكاره، والشعور به واضح في مقابلات التوظيف. لم يحصل حامل شهادة الدكتوراه المبتدئ، في القطاع الخاص، على مرتب أفضل من البائع، كما سيحرم كافكا، في القطاع العام، من الوظائف المثيرة للاهتمام؛ بسبب درجة "مقبول" التي حصل عليها في الامتحان النهائي؛ فضلًا عن حرمان اليهود من الوظائف في مواقع المسؤولية، مثل وظيفة القاضي. كان تغيير الدين، من أجل تسهيل أمور الحياة، قضية شائكة لم تحسم في محيط معارف كافكا بعد. لا نستطيع، من المصادر القليلة المتاحة، استنتاج هل كان رفض برود، و"فيلتش"، وكافكا، هذه الخطوة عن قناعة، أم لسبب آخر.

كانوا جميعًا في المأزق نفسه، لكن كافكا كان أقلهم استعدادًا للقبول بالحلول الوسط. قال لبرود إن من يأخذ قضية الأدب على محمل الجد، فلن يجد علاقة بين العمل الأدبي والوظيفة التقليدية. وبسؤاله عن إمكانية كسب المال بمهام كتابية محترمة، مثل الصحافة والنقد، كان يجيب بأنه غير قادر على القيام بذلك. ندم برود، لاحقًا، على تأثره بموقف صديقه المتصلب "لسنوات عديدة"، وكان محقًا في ذلك[١٠]؛ لأن أنشطته في النشر في أثناء الدراسة جلبت له فرصًا وظيفية أكثر من كافكا، المجهول أدبيًا آنذاك. كان عليه التحلي بالجرأة، ولكن عدم رغبته

في مغادرة براغ كانت، غالبًا، هي السبب في عدم إقدامه، لسنوات طويلة، على تجربة الاعتماد على الكتابة الأدبية مصدرًا للحياة.

اتفق الاثنان على أن القبول بالوظيفة "العادية" مشروط ببذل أقل طاقة ممكنة؛ أي وظيفة بساعات عمل محتملة. من المؤكد أن كافكا قد بذل مجهودًا لإقناع أسرته الجاهلة بأن وظيفة المحامي غير مناسبة له على الإطلاق؛ ففرص اليهودي الحاصل على درجة الدكتوراه في الحقوق في نيل الوجاهة والرفاهية قليلة للغاية. كان المحامي اليهودي نمطًا لافتًا؛ دخل إلى سجل المعادين للسامية بوصفه ذكيًّا، وعديم الضمير. كان لكافكا تحفظاته أيضًا، وحينما وصف، في سنوات لاحقة، رسالة له على أنها "رسالة محام"، لم يقصد أي شيء إيجابي. الأرجح أن الشاب، صاحب الثلاثة والعشرين عامًا، كان يخشى العبء الوظيفي، والمسؤولية الاجتماعية، وساعات العمل غير المنتظمة، والإجبار على الظهور الرسمي. لقد أبعده كل هذا عن مجال المحاماة، على الرغم من النماذج المضيئة في العائلة، التي كانت بتواتر ذكرها بالتأكيد.

لم يلُح في الأفق بعد أي حل مُرض؛ فقبل كافكا، في ١ أكتوبر ١٩٠٦، بوظيفة متدرب قانوني، غير مدفوعة الأجر، في محكمة دائرة مختصة بالأحوال المدنية والجنائية، ثم في المحكمة الكلية لبراغ من منتصف مارس. لم يكن لهذه الوظيفة متطلبات كثيرة، فالكثير من الفترات بعد الظهر كانت بلا مهام، ويظهر عدم تأثره بهذه السنة أن الحياة العملية القضائية لم تلهمه بأي شكل من الأشكال. كان يعرف اللغة الرسمية للإمبراطورية النمساوية المجرية منذ فترة طويلة، وكذلك أسلوب الكتابة في ملفات التحقيق الشرطية، ومذكرات أسباب الحكم القضائية. بدأ كافكا يشعر بالاسترخاء، ويستمتع بأوقات الفراغ ونهاية الجداول

الصارمة، لتتكرر زيارته إلى المقاهي والحانات. ولكنه شعر قريبًا، على عكس المتوقع، أن هذه الحرية -بلا رؤية مستقبلية- لا تساعده على "الكتابة" التي توقفت منذ فترة طويلة. تخلى مبدئيًّا عن عمل "وصف لمعركة"، وبدأ مشروع رواية جديدة، "استعدادات لحفل عرس في الريف"، دون أن يتقدم خطوة للأمام. كان مقتنعًا أن ماكس برود كان سيأخذه الحماس، ويستغل هذه السنة المريحة ليشق طريقه بوصفه كاتبًا حرًّا. لم ينجح هو في اتخاذ خطوة وحيدة في هذا الاتجاه، واعترف، مع نهاية سنة المحكمة، بأنه في هذه المهلة الأخيرة المتاحة له "لم ينه أي شيء".[11]

ربما كان هناك مخرج لم يخطر على بال أي شخص في محيط كافكا. ماذا لو ربط اختيار الوظيفة باختيار محل إقامة جديد؟ شاهد كافكا بعينيه، في سياق زيارة لابن عمه من باراجواي، الفرص الأسطورية التي تمنحها الحياة لمن لديه القدرة على اقتناصها. لم يترك أوتو كافكا من مدينة "كولين" -وهو الابن الأكبر لفيليب أخي هيرمان- والديه ومدينة طفولته، وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة فحسب، بل ترك البلد والقارة بأكملها، وهاجر عبر فرنسا إلى أمريكا الجنوبية. شغل وظائف مختلفة ليكسب قوت يومه، إلى أن صار رجل أعمال (وأسس في عام ١٩١١ شركة تصدير في نيويورك). إذًا، هذا ممكن دون التعرض لأي عقوبة. لقد انبهر كافكا لدرجة أنه ألح على ابن عمه أن يبقى ليلة أخرى في براغ؛ ليعرفه إلى برود.[12]

يقف هذا الإنسان بأقدام ثابتة في الحياة منذ طليعة شبابه، في حين أنه هو قد بلغ الرابعة والعشرين دون أدنى تصور عن مستقبله، ولا يملك إلا ورقة مختومة تفيد أنه "دكتور". تناقض هذه الأقدار صارخ،

وسيشغل كافكا لفترة طويلة. لم يكن قد صنع ماله الخاص بعد، واللغات الأجنبية التي أتقنها كانت أقل اللغات فائدة. كان في حالات مرض أفراد العائلة –وهو أمر بات متكررًا– يقف دون مقاومة في محل الخردوات الذي يملكه والداه؛ ليقوم لبضع ساعات بدور ابن المدير.

شعر كافكا، في يونيو ١٩٠٧، بقيود هذا الأسلوب الحياتي على نحو مؤلم، حينما انتقلت الأسرة، مرة أخرى، إلى سكن جديد، على الرغم من حيوية هذا التغيير. تركت الأسرة، لأول مرة، قلب البلدة القديمة وانتقلت من زقاق "سيلتنر جاسه" إلى الدور الأعلى في عمارة سكنية في آخر شارع "نيكلاس شتراسه" ("ميكولاشسكا ترشيدا" باللغة التشيكية، ويطلق عليه اليوم "برشيزسكا"). كان شارعًا جديدًا واسعًا؛ أنشئ في إطار تجديدات الغيتو، وربط بين الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة ونهر "المولداو". شقة بأربع غرف، وحمام، وغرفة للخادمة، ومخزن للتموين الغذائي، وشرفتين، وشرفة مغلقة ومصعد. كان هذا وضعًا أفضل، بحسب رؤية كافكا أيضًا؛ لأن الشقة لم تعد تطل على شارع تجاري ضيق ومزدحم، بل على نهر وحدائق "البلفيدير" المقابلة على الناحية الأخرى، التي كانت من أماكنه المفضلة في براغ. بعد بناء جسر "تشاخ" في العام التالي، كان يصل هناك في غضون دقائق قليلة. لم يخطر، في الأغلب، ببال أي من أفراد الأسرة، أو ببال كافكا شخصيًا، أن ينسحب من هذا الانتقال، ويبحث لنفسه عن سكن آخر في المدينة. كان سيجد صعوبة في تبرير هذا التبذير، بوصفه موظفًا صغيرًا، ناهيك بانعدام موارده الخاصة. ألم يكن أكثر حظًا من غيره؟ كانت للأخ الأكبر غرفة خاصة، في حين انحشرت أخواته الثلاث –أكبرهن في السابعة عشرة– في غرفة مشتركة. سيكون لغرفته هذه دور في تاريخ الأدب لاحقًا؛ لأنها بثلاثة أبواب، مخترقة من

ضوضاء المطبخ والحركة المضطربة في الممر. صارت "المقر الرئيس للضجيج في الشقة بأكملها". كانت هذه الغرفة ممرًا بين غرفة المعيشة وغرفة الوالدين، مما كان يعرض الابن الشاب على نحو محرج لخصوصيات والديه. يبدو أن هذه المسألة لم تخطر على بالهما مطلقًا؛ إذ كان الدخول إلى غرفة نومهما ممكنًا عبر المطبخ أو الحمام، ولكنهما لم يفعلا ذلك."[١٣]

ابن عمه القادم من باراجواي، الضوضاء في الشقة، أعمال الكتابة المملة في الحكمة: كان لدى كافكا، في عام ١٩٠٧، من الأسباب ما يكفي للتفكير في مستقبله الوظيفي بعناية أكبر وفعالية أكثر. كان طبيب الأرياف من "تريش" هو الشخص الوحيد من العائلة الذي يمكن التحدث إليه صراحة حول آماله ومخاوفه. لم تكن صدفة أن تأتيه الأفكار الجديدة في أثناء رحلة صيفية إلى هناك، متأثرًا بركوب الدراجة النارية ورفقة صديقته الجديدة "هيدفيج فايلر". حاول برود التهدئة من روعه، زاعمًا أن الوظيفة التقليدية لن تشتته، ما دام قد تعود عليها. اعترض كافكا مدونًا:

"سوف أضع نفسي، خلال ساعات العمل الست، في وضع محرج. أعتقد أنك ترى كل شيء ممكنًا حينما تؤمن بقدرتي على القيام بهذه المهمة.

المن والسلوى في المساء، ولكن هل السلوى كافية للسعادة، أم أن قليلًا من الحظ مطلوب أيضًا؟

لا، في حالة عدم تحسن ظروفي حتى أكتوبر القادم، سوف ألتحق بدورات الأكاديمية التجارية لخريجي الثانوية العامة، وسوف أتعلم اللغة الإسبانية إلى جانب الإنجليزية والفرنسية. سيكون جميلًا أن تشاركني هذه

التجربة. تفوقك عليَّ في التعليم سأعوضه بقلة صبري. ربما سيوفر خالي لنا فرصة في إسبانيا، أو نرحل إلى أمريكا اللاتينية، أو الأزور، أو ماديرا."[١٤]

استذكار مرة أخرى؟ يا لها من شجاعة؛ لأن الدورات المقدمة من الأكاديمية التجارية في براغ لم تكن مخصصة للحاصلين على الدكتوراه، بل لحاملي شهادة الماتورا الراغبين في العمل التجاري الحر دون دراسة – كان الحقوقيان سيثيران الانتباه بلا شك. عرف برود كيفية دخول فكرة أمريكا اللاتينية إلى رأس كافكا، ولم يلتفت إليها، بل قبل، على مضض، بوظيفة في المديرية المالية لمنطقة "كوموتاو" (أو "كوموتوف")، وهي مدينة صناعية صغيرة تقع عند جبال الخام؛ يصلها في ثلاث ساعات بالقطار. استنفد جميع الأسباب ليعيش عالة على أبيه، وفضل الحل الأكثر أخلاقية بصرف الدخل البسيط على العودة أسبوعيًا بالقطار "إلى المنزل". لكن برود أحس بأنه سمكة خرجت من الماء. تحمل اختلاف "كوموتاو" عن "ماديرا"، ولكنه لم يحتمل الابتعاد عن أقرب أصدقائه في هذا المنفى –لا سيما "ماكس بويمل" – وعن حلقات النقاش، التي كان يحظى داخلها بالقبول والاحترام. من المؤكد أنه تخلى بعد أسابيع قليلة عن زعمه بأن العمل الإبداعي يعوض عن الوظيفة البسيطة. اعترف، قبل نهاية العام، بأن تحقيق هذه المعادلة يفوق قدراته. قدم استقالته، وعاد إلى براغ، وركز مجهوده في نص روايته الأولى، التي كان عليه نشرها في السنة التالية.[١٥]

وجد كافكا، في هذه الأثناء، فرصًا جديدة؛ إذ كان النجاح في عالم الاقتصاد الكبير، بالحصول على بعض الدورات السريعة في

المحاسبة، وبضع حصص في اللغة الإسبانية، محل شك. أنشأت وزارة التجارة، منذ عقد، أكاديمية ذات مستوى أعلى في فيينا، وكان هدف "أكاديمية التصدير" الصريح هو انطلاق النمسا إلى التجارة العالمية، وتقديم الخريجين على المستوى الدولي. كانت الأكاديمية تأخذ حاملي شهادة "الماتورا"، واستغرقت الدراسة ستة فصول دراسية، ولكن ما علمه كافكا أن الأكاديمية تقدم أيضًا للمحامين دورات تستغرق عامًا؛ تدرس، فضلًا عن نظريات الحسابات وتطبيقها، علوم البضائع، وقانون العملة وإصدار الشيكات، وكذلك أصول المراسلات التجارية على الصعيد الدولي، وتدريبات محادثة باللغات الأجنبية. هذا ما احتاجه كافكا تحديدًا؛ ليبتعد عن براغ مسافة أبعد من جبال الخام. كتب، مع بداية سبتمبر ١٩٠٧، بعد عودته من "تريش" بعدة أيام، إلى "هيدفيج فايلر" أنه "ربما" يذهب إلى فيينا، كما أشار، في ١١ سبتمبر، إلى دخوله المرتقب أكاديمية التصدير، وكأنه قرار نهائي: "سوف أنشغل بعمل مرهق للغاية، ولكنني راضٍ عنه."[١٦]

بمفاهيم علم الاجتماع، كان كافكا في طريقه للقيام بخطوة غاية في الحداثة ومميزة لعصره، هي الانتقال من طبقة البرجوازية المثقفة إلى طبقة البرجوازية التجارية، أو بالأحرى الانتقال من طابور انتظار البرجوازية المثقفة إلى طابور انتظار البرجوازية التجارية. ربما سيتضح، لاحقًا، أن معظم ما تعلمه بعناء في المدرسة الثانوية والجامعة يمثل عبئًا على كاهله، وأن عليه الرجوع على طريق تأهيله خطوات للوراء لتحويل مساره. كان قرارًا مصيريًا له أبعاد كبيرة، ويبدو أن كافكا اتخذه دون الشعور بأي ألم، ودون تردد طويل. هل كان للإرث الأبوي في التجارة دور؟ من المؤكد أن الوالدين رأيا المسألة على هذا النحو، ولم يكن لديهما سبب لدفعه إلى السلك الوظيفي، إن ظهرت عليه ميول تجارية. ولكن،

بحسب التجربة السابقة، من الغباء تركه وحده مع قراراته المترددة. ولذلك، لجأت جولي إلى أخيها ألفريد، وطلبت منه المساعدة. لقد حسم هذا الخال المقيم في مدريد، الذي يرجو منه كافكا تحقيق أمانيه الخرافية، هذه المسألة.

اقترح ألفريد لوفي، في سبتمبر ١٩٠٧، اقتراحًا ـفي توقيت غير موفق مع قرار كافكا بالذهاب إلى فيناـ كان يصعب رفضه. ماذا لو تمكن من إدخال كافكا مجال شركات التأمين؟ كان مجالًا حديثًا صاعدًا؛ يسمح بدخول اليهود، وقد تم تدويله، ولذلك سيتيح، بحسب الرغبة القائمة، العمل في الخارج – بشرط العثور على شركة تقدم له فرصة تعلم المهنة، واكتساب المعرفة الأساسية من الممارسة العملية. كان لوفي على علاقة بشخص يمكنه المساعدة؛ إنه "يوزيف فايس برجر"، ممثل الشركة الدولية للتأمين "أسيكوراتسيوني جنرالي" في مدريد، وهي الشركة التي كانت تمتلك فرعًا فخمًا في ميدان "فينسلس بلاتس" ببراغ. أقام والد "فايزبرجر"، السيد "أرنولد"، في براغ، متقلدًا منصبًا محترمًا، هو منصب نائب القنصل الأمريكي. إذًا، كان لتوصيات هذا الرجل وزن، ولا أمل في الحصول على وظيفة من وظائف "جنرالي" المرغوبة، دون توصية قوية وشخصية، بل وضمان شخصي. كانت هذه الوظائف تفتح أمام الطموحين فرصًا تداعب أحلام موظفي الحكومة النمساوية. من المؤكد أن نائب القنصل قد اهتم بشأن أسرة كافكا، ويبدو أيضًا أن كافكا قد عبر بوضوح عن رغباته. نجد، لاحقًا، في إخبارية واردة من وكالة شركة التأمين في براغ إلى مركز الشركة في "تريست" ما يلي: "نسعى إلى تعيين السيد الدكتور كافكا في قسم التأمين على الحياة، ليلحق، فيما بعد، بالخدمة الخارجية." كانت الخدمة الخارجية هي الكلمة الفاصلة، وشكر كافكا "فايس

برجر" بحرارة. فتح اللقاء مع رئيسه في العمل –الذي دعمه نائب القنصل أيضًا– آفاقًا واسعة أمام كافكا؛ إذ اتضحت الرغبة في الارتباط بالوظيفة على المدى البعيد. جرى التأكيد على إمكانية بقاء كافكا، بمجرد تعيينه، مدى الحياة في شركة "أسيكوراتسيوني جنرالي".[١٧]

لم يبق أمام حالة تبني كافكا سوى حاجز أخير: كشف طبي رسمي واستطلاع دقيق للغاية، كما لم يقم بهما كافكا من قبل. تقرير هذا الكشف بصفحاته الست موجود، ومؤرخ بتاريخ ١ أكتوبر ١٩٠٧؛ أي قبل دخول كافكا الخدمة بيوم واحد. جاءت النتائج مثل قياس جنائي دقيق لجسده، كمًا وكيفًا. الطول ١٨١ سنتيمترًا، والوزن ٦١ كيلوجرامًا، والنبض ٧٨، ويصل إلى ٨٤ مع الحركة، ومعدل التنفس ١٦، ومحيط الرقبة ٣٧ سنتيمترًا، ومحيط البطن في مستوى السرة ٧٢ سنتيمترًا. لا تعليق على العمود الفقري، والوضع الغذائي العام "متوسط الضعف"، والصوت نقي وقوي، ولون الوجه شاحب، ولكنه حيوي، لون الشعر بني غامق (أسود بحسب جواز السفر). البشرة ملساء، ولا توجد ندبات، والأسنان بحالة جيدة. لم يعان الدكتور كافكا في السنوات العشر الماضية من أي أمراض، أو عاهات (حقيقي)، ولم يدخل مصحات، أو دور استشفاء قط (غير صحيح). الشهية والهضم طبيعيان، والتبول كذلك. كان على كافكا إثبات ذلك أمام أعين الطبيب ("منتظم"، "لونه أصفر مثل الزبد"). الانطباع العام: "يبدو يافعًا".

كانت هذه النتائج، وما ارتبط بها من استنتاجات، أمرًا شديد السرية، ولم تكن متاحة لاطلاع المرشحين للوظيفة، وبالتالي، لم يعرف كافكا شيئًا عن أن صاحب العمل المستقبلي لم يهتم بماضيه البيولوجي

فحسب (عدد الإخوة المتوفين وأسباب الوفاة؟)، بل أيضًا بعمره الافتراضي. كان نص أحد الأسئلة: "ما الأمراض المتوقع إصابة الشخص -السليم حاليًا- بها مستقبلًا؟ من المؤكد أن كافكا سيؤمن على حياته، فهذا أقل شيء كانت شركة "جنرالي" تتوقعه من موظفيها. ولكن لم تجد هذه الأسئلة النظرية إجابات منطقية، وهرب الطبيب منها بعبارة معتادة: كافكا "رجل رقيق، ولكنه بصحة تامة" - كانت الصفات ذاتها التي استخدمتها أم كافكا في مذكراتها.

كان من الممكن أن يكون الحكم في هذه المرحلة أكثر صرامة؛ لأن تشوهًا بسيطًا في قفصه الصدري كان يشير إلى إصابة كافكا في طفولته بمرض الكساح، ويبدو أن الكشف بالتسمع على الرئتين أظهر نوعًا من الضعف، فضلًا عن أن حجم القفص الصدري لم يزد على أربعة سنتيمترات مع النفس العميق - كانت بنية غير طبيعية، حتى مع نحافته الشديدة. كانت احتمالية إصابته في المستقبل بمرض في الرئة كبيرة، ولكن هل هذه الاحتمالية الكبيرة سبب كافٍ لسلب هذا الشاب العفي فرصة التوظيف؟[١٨]

ظل كافكا متفائلًا لفترة، لم يحلم بالنجاح الوظيفي، بل بالحرية وبهواء مناطق جديدة في العالم، والتزم بتحقيق هذا الوعد كلما سمح واقع العمل في المكتب بذلك. كتب إلى "هيدفيج فايلر" متحمسًا: "أتمنى الجلوس على مقاعد في بلاد بعيدة؛ حتى أرى من نافذة المكتب حقول قصب السكر، أو مدافن المسلمين. أهتم بعالم التأمينات، ولكن مهمتي الأولى هناك تبعث على الحزن." بعد مرور عدة أيام، قلص من حجم توقعاته: كتب أنه، في الأغلب، سيذهب إلى "تريست" أولًا، وعليه تعلم اللغة الإيطالية. نظر كافكا من نافذة

مكتبه، في الدور الأعلى للقصر الذي كان مقرًا لشركة التأمين، إلى الفناء الخلفي. استيقظ كافكا، ووجد نفسه فجأة "في مكان غير مناسب".[19]

من المؤكد أنه شعر بما هو مقدم عليه وهو يملأ استمارات التعيين؛ إذ لم يقدم المعلومات المعتادة عن مؤهلاته فحسب، بل وقع ليقدم تأكيدًا على استعداده للعمل تحت ظروف ضاغطة وغير قابلة للتفاوض: ساعات عمل إضافية غير مدفوعة الأجر، وإجازة لمدة أسبوعين كل سنتين، ومهلة إقالة وجيزة، ولا حق في مناقشة النقل إلى مكان آخر، ولا وظائف إضافية. زد على ذلك مرتبًا شهريًا ضئيلًا يساوي ثمانين كرونة؛ أي مرتب "عمالة مساعدة"، مقابل ساعات عمل منتظمة يوميًا من الثامنة وحتى الثانية عشرة، ومن الثانية بعد الظهر إلى السادسة مساء، ستة أيام في الأسبوع. لم يكن مسموحًا بترك أغراض شخصية في المكتب: كانت إشارة إلى أن التقليل الأبوي من شأن الموظفين أمر معتاد.[20] علم كافكا، بالإضافة إلى ذلك، بضرورة تخليه عن الكتابة بخط اللغة الألمانية. قام بذلك طواعية، وبدأ، منذ عام ١٩٠٨، في كتابة رسائله، ومذكراته، ونصوصه الأدبية، بالخط اللاتيني المتعارف على قراءته دوليًا.

يتسم اهتمام كافكا بعالم التأمينات بالمصداقية، فقد كان يعرف، بالطبع، أن المسألة تتعلق بالربح، وليس بالعمل الاجتماعي التطوعي. كانت شركة "أسيكوراتسيوني جنرالي"، التي تأسست في عام ١٨٣١، فرعًا لشركة أوروبية كبرى، وشركة مساهمة منذ عقدين. من أهم "منتجات" الشركة التأمين على الحياة، والتأمين ضد الحريق والسرقة، ولكن "جنرالي" بحثت عن مجالات جديدة تدرّ ربحًا، مثل

التأمين في أثناء السفر. فهم كافكا، سريعًا، أن هذه العروض تجد نجاحًا؛ لأنها تعد بتقليص حجم خوف الناس من الحياة. قارن، في حواره مع برود، بين التأمين و"دين الشعوب البدائية، التي كانت تؤمن بقدرة الأعمال على صرف الوبال"[٢١] –إنها ملاحظة صائبة، إن استدعينا الشعارات الدعائية، بوعودها الساحرة والكاذبة، بحياة "خالية من الهموم". يسعى التأمين، بكل حال من الأحوال، إلى توزيع تبعات المصائب الشخصية على كواهل أشخاص عدة، ويحول المصيبة إلى حالة من التكافل الاجتماعي، وهذا هو الاختلاف مقارنة بقانون العقوبات، الذي يعول على المسؤولية الشخصية وحدها، ولا يعترف بالمخاطر الهيكلية إلا بوصفها "ظروفًا مُخفِّفة". كان هذا التضامن هو جوهر أي تأمين عادل، وبات فكرة حاضرة في الوعي الجمعي مع منعطف القرن؛ فقد كانت شركات التأمين تتمتع بسمعة المؤسسات الحديثة والمتقدمة اجتماعيًا (حتى إن كان التأمين على الحياة يمثل، في هذا الوقت، رفاهية برجوازية). ما أثار الجدل، بالتأكيد، هو ترك هذا الدور الهام على صعيد السياسة الاجتماعية لشركات خاصة، تلك التي أثارت الريبة بتكديسها لكم هائل من الاحتياطي، وتدقيق مبالغ فيه في "حالات الضرر"، مما أدى إلى تأسيس كيانات تمثل المصالح المشتركة للمؤمن عليهم. تكررت النزاعات في المحاكم حول عقود التأمين، أو الوعود المريبة "للمندوبين المتجولين" الباحثين عن عقد الصفقات، لدرجة أن القضاة، حتى المتحفظين منهم، قد طالبوا شركات التأمين بإظهار سخاء أكثر في تعاملاتهم. زادت حدة النقد العام بعد أول انتخابات "عامة" للبرلمان في فيينا في مايو ١٩٠٧ (التي لم يشارك فيها كافكا؛ لعدم بلوغه السن القانونية للانتخاب بفارق أسابيع قليلة). فاز الديموقراطيون الاجتماعيون فوزًا واضحًا، وكانوا من أنصار التأميم

الكامل لقطاع التأمين، ووضعوا هذا الموضوع، باستمرار، على قائمة جدول أعمالهم.

دخل كافكا إلى عالم حافل بالقضايا الساخنة على صعيد السياسة الاجتماعية. حتى إن لم يدرك ذلك في غمرة سعادته الأولى بمستقبله الواعد، فإن التناقض بين حداثة هذا المجال وأسلوب التعامل السلطوي والمناهض للاجتماعية -المعادي للإنسانية في بعض الأحوال- كان واضحًا وضوح الشمس. أدرك كافكا مذعورًا أن نبرة التعامل في المكاتب لم تكن أفضل من نبرة أبيه في المحل: يصرخ المدير في وجه المخطئ ويوبخه - مما خلق حالة كامنة من الإهانة، التي يصعب تحملها، مع أن كافكا حالفه الحظ في مدير شاب ذي ثقافة أدبية، اسمه "إرنست أيزنر"، كان داعمًا محبًا وصديقًا له. لم يقتنع أيضًا أن وجود كافكا، مرهف الحس والمدافع عن نفسه، وسط هذه الأجواء الصعبة هو المكان الصحيح؛ إذ كان يقارنه بشخصية "سيمون"، الذي كان يتنقل في رواية "الإخوة تانر" للكاتب "فالزر" من وظيفة لأخرى، ولكنه كان يطالبه أيضًا بالانضباط والأداء في العمل. لم يفهم "أيزنر" ضيق كافكا الشديد، بعد فترة قصيرة، من الساعات المكتبية الطويلة، وكان كافكا لذلك حريصًا في إبداء الشكوى. ولكن حينما استحضر هذه الأجواء بعد سنوات، تركزت في مشهد أدبي مرعب، يقيِّم فيه مدير شركة تأمين، بلامبالاة واستهزاء، متقدمًا مسكينًا: "سأكون صريحًا معك وأقول لك في الحال: أنت لا تعجبني، نحن بحاجة إلى خدم من نوع آخر. ولكن اخضع أولًا للكشف. اذهب، لن يفيد الترجي في شيء، فأنا لست مخولًا لتوزيع صكوك الغفران. أنت تريد إنجاز كل العمل المطلوب، يريد الجميع ذلك بالتأكيد. ليس هذا وسامًا يميزك عن

الآخرين، بل يشير إلى قلة تقديرك لنفسك.'' شمار هذه المؤسسة هو التقدم.[٢٢]

لم يمض شهر، إلا وكان كافكا يبحث عن وظيفة يستطيع تحملها. نتوقع من إشاراته أنه حاول غير مرة -لكن خوفه من وصول الخبر إلى المديرين كان كبيرًا، بل إن وصوله إلى نائب القنصل ''فايزبرجر'' أمر محرج، بعد أن قدم إليه شكره الحار. وضع أكبر آماله على مديرية البريد، التي تعد أكثر الأماكن مللًا. لن ترسله إلى مدينة ''ماديرا'' بالتأكيد، ولكنه سيحصل، على الأقل، على حريته في الثانية ظهرًا كل يوم. في إشارة واضحة أحبطت آمال كافكا سريعًا، تقدم للوظيفة، وخضع للكشف الطبي، ورُفض. ظل هذا هو وضعه المبدئي. دخل الشتاء، وعلى الرغم من محاولات كافكا تسلية نفسه، في أثناء أوقات الفراغ، بكل المتع المتاحة في المدينة، فإنه دخل في حالة من اليأس، ولم يملك السيطرة عليها إلا بالانعزال لأيام عديدة. هل عليه تقليد برود الشجاع؟ كان يواجه المشكلة ذاتها، ولكنه نجح في الهروب من هذه الوظيفة الثقيلة قبل أن يقدموا له بديلًا (إذ نجح في الحصول على وظيفة في قسم شؤون الأفراد بمكتب البريد الرئيسي). لم يجرؤ كافكا على مناورة خطيرة كهذه؛ إذ كانت ستدفع به إلى مواجهات جديدة مع أهله، ولكن بدون مساعدة خارجية جديدة، أو ضربة حظ، سيظل في هذا المأزق.

هذا ما حدث في عام ١٩٠٨، وكانت اليد المساعدة هي يد زميل الدراسة ''إيفالد بريبرام''. دارت بينهما، بعد انتهاء الدراسة، أحاديث متكررة حول المستقبل الوظيفي، وتحدث الصديق المهموم إلى برود أيضًا – مشيرًا إلى أن كافكا لا يجب عليه جلب المصيبة لنفسه، واللجوء إلى

تغيير دينه إن تطلب الأمر ذلك. اتضح، لاحقًا، أن هذا الاختيار غير متاح، وفكر "بريبرام"، لذلك، في الاستعانة بوالده لإنقاذ الموقف.

كان "أوتو بريبرام" في الرابعة والستين من عمره، دارسًا للحقوق، مارس المحاماة لفترة، ثم قرر، بعد ذلك، تغيير مجال عمله إلى مجال الصناعة؛ إذ تدرج ووصل إلى وظيفة رئيس مجلس إدارة شركة براغ المساهمة لصناعة الماكينات؛ شركة قوية تعد أكبر منافس لشركات "شكودا". كان لـ "بريبرام"، فضلًا عن ذلك، نشاط في مجال التأمينات الاجتماعية، الذي أثار حينها كثيرًا من الصراعات السياسية. نجح، بطبعه المتزن والأبوي، في المحافظة على الحوار مع الألمان والتشيك، ومع أصحاب العمل والعاملين على السواء. انتخب، عام ١٨٩٣، من قبل أصحاب الأعمال ذوي النفوذ ليمثلهم في مجلس إدارة شركة التأمين البراغية ضد حوادث العمل؛ ليصبح، بعد مرور أربع سنوات، نقيبًا، ويطلق موظفو التأمين عليه لقب "الرئيس".

كان لمجلس الإدارة، الذي تألف بالتساوي من ممثلي الصناعة والدولة، دور المراقبة، ولكن لم يكن له تأثير مباشر على العمليات اليومية، ولا على السياسات المتعلقة بشؤون الأفراد العاملين في مجال التأمين ضد الحوادث، كما لم ير العاملون هذا الرئيس في طرقات المبنى إلا في المناسبات الرسمية. ومع ذلك، فإن لكلمة الرئيس وزنها، وحينما يرشح "بريبرام" اسمًا، يجب على قسم شؤون الأفراد إبداء أسباب مقنعة لرفضه. لم تكن هناك فرصة متاحة لكافكا للدخول بدون هذه اللفتة القادمة من "أعلى". كانت شركة التأمين ضد حوادث العمل مؤسسة تُعامل العاملين لديها على أنهم موظفون بشكل رسمي — وكان هذا الامتياز كافيًا لإقصاء اليهود من التوظيف. تقدم كافكا، غالبًا مع

بداية يونيو، إلى "أوتو بريبرام" للوظيفة[٢٣]، ولم يعبأ رجل الأعمال الكاثوليكي بأصله اليهودي، كما عرف بالتأكيد -في هذه اللحظة على أقصى تقدير- أن صديق ابنه ينتمي إلى الديانة اليهودية، وقرر، مع ذلك، ترشيح كافكا للوظيفة.

ساعد كافكا إتقانه للغة التشيكية؛ إذ التزمت شركة التأمين ضد الحوادث بحيادها اللغوي: كانت المراسلات والملفات باللغة الألمانية أو التشيكية، بحسب الحالة (وهي قدرة أنقذت في سنوات لاحقة الوظيفة والمعاش). لعل الأهم هو نجاح كافكا في تحسين قدراته بوصفه متخصصًا في التأمين. بما أن مجال التأمين الاجتماعي مثل ظاهرة جديدة، ولكنها تطورت سريعًا، وباتت "علمًا" مركبًا، فقد قدمت شركة التأمين البراغية ضد الحوادث دورات متخصصة؛ يقوم الموظفون خلالها بدور المعلم. لم تقدم هذه الدورات المعلومات الأساسية في المحاسبة فحسب (كان كافكا قد تعلمها بالفعل)، بل قدمت كذلك معلومات عن نظم تأمين العمال على المستوى الأوروبي. من المؤكد أنه أجبر نفسه على تسجيل اسمه؛ لأن هذه الدورات المسائية المرغوبة، التي كانت تعقد في أكاديمية براغ التجارية، تجاوزت مدتها ثلاثة أشهر ونصفًا؛ أي إنه تعرض، من شهر فبراير وحتى شهر مايو، لضغوط مضاعفة، بلا فترات استراحة، وامتحانات تقيس تقدمه، مثلما كانت الحال سابقًا. لكن كافكا، فيما يبدو، قد فهم أن هذه المرة هي فرصته الأخيرة لكسب قوت يومه تحت ظروف تسمح بعمله الأدبي. لم يتحمل هذا الوضع فحسب، بل أنهى الدورات الأربع التي شارك فيها بدرجة "امتياز" -شجعه المعلمون بالتأكيد؛ إذ أعجب كافكا بأنهم زملاؤه ورؤساؤه في العمل مستقبلًا. كانوا من فئة الموظفين التي لها اهتمامات بالسياسة الاجتماعية، لا يقيسون نجاحهم بأقساط الفوائد،

كما لم يجدوا ضرورة لاستخدام التهديدات في محيط العمل. كان أحد هؤلاء المعلمين "زيجموند فلايشمان" هو اليهودي الوحيد بين ٢٦٠ في شركة التأمين ضد الحوادث.[٢٤]

لا نعرف شيئًا عن كيفية إقناع كافكا لشركة "أسيكوراتسيوني جنرالي" بالمشاركة في هذه الدورات المرهقة، ولكن فهم الجميع، وعلى أقصى تقدير، مع استقالته المفاجئة واختفائه في منتصف يوليو عام ١٩٠٨ -مع شهادة طبية مضحكة تفيد "اضطرابه" و"قابلية قلبه للانفعال"- أن تصرف كافكا كان تصرفًا استراتيجيًا، وأنه أعد له منذ شهور. فتحت له الدورات، ودعم الرئيس "بريبرام"، أبوابًا جديدة، وكُلل طلب التوظيف بلغتين في ٣٠ يونيو، والمقابلة بعدها بعدة أيام، بالنجاح: شركة تأمين براغ ضد حوادث العمل وإصاباته قدمت إلى الدكتور كافكا، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وظيفة "موظف مساعد"، على سبيل الاختبار، وبأجر يومي يساوي ثلاث كرونات.[٢٥]

يبدو لنا اليوم طريق كافكا إلى الحياة العملية متعثرًا ومعقدًا. من الصعب تحديد لحظات الاختيار، وكذلك تحديد أسباب تفضيله أشكالًا حياتية بعينها، وعدم تحمسه لأشكال أخرى إلا لفترة وجيزة. يبدو أنه دُفع، مثل الكثيرين من جيله، إلى أدوار اجتماعية معينة، وأن الصدف كانت أكثر تأثيرًا من القرارات الواعية. افتقد كافكا إلى أفكار عملية ومثل أعلى؛ ولذلك لم تظهر رغبته في شق طريق خاص به إلا من خلال مواقف المقاومة، والنفور، و"التعنت" الذي اشتهر به. كان كافكا يعرف بدقة ما لا يريده: لم يفكر حتى في وظيفة المحاماة، ورفض أيضًا إغراء استغلال موهبته اللغوية ماديًا. قضاء أمسية هادئة بلا التزامات كان بالنسبة له أهم من الوعود بالحياة المرفهة، أو الجلوس

على "مقعد في بلاد بعيدة". لم يفهم، طوال حياته، السعادة بعقد الصفقات. يبدو، في كثير من الأحيان، سلبيًا ومعتمدًا على الآخرين، ولكنه كان حاسمًا فيما لا يرغب فيه، حتى إن قاده ذلك إلى حالة من التمزق النفسي، كما وقع في سنوات لاحقة، كأنه كان يحمل بوصلة لا تشير إلا إلى الاتجاهات الخاطئة بدقة متناهية.

نشرت صحيفة "نوية روندشاو" في يونيو لعام ١٩٠٥ -قبل امتحانات كافكا النهائية- مقالة كبيرة لخبيرة الإصلاح التربوي "إلين كاي": "ازدهار الروح من خلال فن الحياة". قرأ كافكا المقالة بنهم؛ إذ انشغل بقضية اتخاذ قرارات عملية على المدى البعيد، تتماشى مع فكر إصلاح الحياة، ولم يجد إجابات لدى "نيتشه"، ولا مجلة "حارس الفن" المتأملة. لم تكن مقترحات "كاي" تبدو، للوهلة الأولى، واعدة؛ تشرح: "لن تصير متقنًا لفن الحياة دون تحقيق التزاماتك، فلا يوجد فنان تشكيلي ينقصه الحس الشكلي." حسنًا! يتحدث الجميع عن الالتزامات؛ الوالدان، والمدرسون، والأساتذة، والرؤساء في العمل. أين الفارق الكبير إذًا؟ تستطرد "كاي" قائلة: "ولكن لن يصير، من ناحية أخرى، شخصًا متقنًا لفن الحياة؛ لأنه يحقق التزاماته في كل مكان يوضع فيه، ويقبل بأي قدر يكتب له، معتبرًا ذلك هو أسمى الأهداف الأخلاقية «... » دفع التصور العقيم للالتزام، بوجوب تحقيقه في أي مكان يوضع فيه الإنسان، إلى غض البصر عن التصور المثمر للالتزام، الذي يسمح باختيار الأماكن التي نفضلها." عبارة معقدة، ولكنها تحوي فكرة تستحق قص العبارة ووضعها في إطار على الحائط (دفع ذلك المتردد أيضًا في اتخاذ قراراته، الكاتب "موزيل"، إلى نقل هذه الفقرة إلى مذكراته اليومية).[٢٦] لم تطالب الفقرة بحرية الاختيار فحسب -فهو مطلب يوافق عليه أي مواطن بسيط موافقة نظرية- بل

حددت "كاي" المسؤولية بوصفها مسؤولية عن النفس؛ لتصير كل المطالب الأخرى الخارجية في مرتبة ثانوية. لم يجعل كافكا حرية فارغة، بل حرية ذات مضمون وذات هدف، دستورًا لحياته؛ ليظل بذلك مصلحًا للحياة حتى نهاية عمره. الالتزام باختيار مكانه: إنه شعار السنوات القادمة، الذي سيدفعه إلى قراءة الكثير من السير الذاتية.

حصل كافكا، في صباح الرابع من يوليو عام ١٩٠٨، للتو على الدعوة المرتقبة من شركة التأمين ضد حوادث العمل؛ ليكتشف مثالًا آخر لنماذج حياتية مذهلة يقدمها العالم إلى من يقدم بحسم على التمتع بحريته الداخلية. كان أحد عناوين جريدة "براجر تاج بلات": "شخص من منطقة "رابش برج" يصير من الهنود الحمر." نجح "هيرمان ليهمان"، ألماني من بوهيميا، في الاعتراف به رسميًا بوصفه منتميًا إلى الهنود الحمر في "أوكلاهوما"؛ إذ كان في السابق ابنًا بالتبني لشيخ قبيلة "كومانشي" الشهيرة. كانت مجموعة الأباتشي قد اختطفته وهو في الحادية عشرة من عمره، ونسي اللغة الألمانية لفترة، ليقرر، وهو شخص ناضج، تجاوز حاجز ثقافي صعب، مع كل من زوجته وأبنائه، ويقيم وسط الكومانشي. كان، بالنسبة لكافكا المحب لقصص المغامرات، خبرًا مثيرًا بالتأكيد. الانتماء إلى الهنود الحمر ممكن، تمامًا مثل وظيفة شركة التأمين: بالحسم، وإبداء الرغبة، واتخاذ القرار. قام شخص هنا باختيار مكانه، وأثار ذلك التفكير والأحلام.[٢٧]

بعد مرور فترة وجيزة -لا نعرف توقيتًا محددًا- أمسك كافكا بقلمه، ودوَّن فقرة نثرية صغيرة، تتألف من عبارة وحيدة موزونة الإيقاع. نشرها في كتابه الأول تأملات تحت عنوان الرغبة في الانتماء إلى الهنود الحمر:

"يا ليتني كنت من الهنود الحمر، على استعداد باستمرار، ممتطيًا فرسًا راكضًا، بميل في الهواء، أرتعش رعشة قصيرة فوق الأرض المهتزة، إلى أن أترك المهاميز؛ لأنها لم تعد موجودة، وأترك اللجام؛ لأنه لم يعد موجودًا، وأرى الأرض المنبسطة ومجتزة العشب، لا رقبة، ولا رأس، لفرس أمامي."

لدى العاهرات

"الحب لا يساوي شيئًا بلا روح،
وتبدأ من هنا الصعوبات."

بول فاليري، الدفاتر، ١٩٢٧–٢٨

"بما أنني مشغول والشمس مشرقة، خطرت على بالي في المكتب فكرة رائعة، وتكاليف تنفيذها بسيطة. نستطيع، بدلًا من السهرة الطويلة المخطط لها يوم الاثنين، أن نعقد لقاء في الصباح؛ نلتقي، في الخامسة أو الخامسة والنصف، عند تمثال "ماريا" –لن تنقصنا النساء– ونذهب إلى "تروكاديرو"، أو "كوخل باد"، أو "الدورادو". نستطيع -إن كان ذلك مناسبًا- تناول فنجان من القهوة في حديقة على نهر المولداو، متكئين على كتف "يوسكي". كلا الأمرين محمودان. لن نبدو في مظهر سيئ؛ لأن هناك من المليونيرات والأغنياء من لا يملكون في السادسة صباحًا مالًا، ونكون بذلك وصلنا إلى آخر حانة، بعد أن قضينا على باقي الحانات؛ لأننا بحاجة إلى فنجان صغير من القهوة، وبما أننا كنا من المليونيرات –ربما ما زلنا كذلك، من يدري ذلك في الصباح– لدينا القدرة على دفع ثمن فنجان آخر.

كما ترى، لن نحتاج لهذه المسألة أكثر من حافظة نقود خاوية، وأستطيع أن أعيرك إياها، إن أحببت. إن منعتك قلة الشجاعة، وقلة البخل، وقلة الحماس عن هذه المغامرة، فلا تكتب شيئًا، وقابلني يوم الاثنين في التاسعة مساء. أما إذا أحببت المشاركة، فأرسل إلي بطاقة بالأنبوب الهوائي عارضًا شروطك. رأيت في طريقي إلى "الدورادو" هذا الأمير من "مونتي نجرو"، وظننت أن الأمور كلها مرتبة، نستطيع أن نفطر أولًا بالفتاتين، اللتين أعجبت بهما."[١٠]

نعد رسائل كافكا، التي أرسلها في حالة مزاجية جيدة، نادرة، وهذه الرسالة هي الأعجب ضمن رسائله النادرة؛ إذ لم يكتبها وهو في عطلة، أو مع نهاية يوم العمل، بل كتبها وهو في مكتب "أسيكوراتسيوني جنرالي"، في يوم العطلة الأسبوعية الوحيد، الذي كان يجبر فيه على قضاء ساعات إضافية غير مدفوعة الأجر: كان يكتب، في رأس خطاباته الداخلية، أن المرسل هو "القسم الحزين للعمل الصباحي يوم الأحد".

لدينا إشارات إلى حياة كافكا الليلية في سياقات أخرى، ولكنها قليلة، وتوحي بأنه كان خبيرًا في العالم المتشعب للمقاهي والحانات، والملاهي الليلية، أكثر من كونه خبيرًا في قاعات المسارح، والحفلات الموسيقية، والمحاضرات. كتب في مرة إلى "هيدفيج فايلر"، وهو في حالة تردد، أنه يلتهم ساعات الفراغ القليلة "مثل حيوان شرس". لا يقدم توضيحًا حينما يكتب لاحقًا متذكرًا: "مرحلة التنزه التي مضى عليها زمن؛ إذ قضيت ليالي عديدة في الحانات دون تناول أي مشروبات. كانت أماكن رائعة بحسب أسمائها: "تروكاديرو"، و"الدورادو". اعترف لـ"فيليس باور": "كنت سابقًا رحالة، خاصة في السنة التي عملت خلالها في شركة التأمين الخاصة، ولكني لم أكن متحمسًا، بل

حزينًا، أريد التخفيف من حدة تعاسة اليوم التالي بالنعاس والشعور بالندم."[٢] كانت نبرته هنا تختلف عن دعوته المتحمسه لبرود.

كانت الحانات بمنزلة أماكن ترفيهية، ومفتوحة، بالفعل، حتى الساعات الأولى من النهار، تقدم الوجبات الباردة مع النبيذ والشامبانيا، أكثر المشروبات المطلوبة. كانت هذه مهمة النادلات و"الرفيقات" اللاتي جلسن على موائد الزبائن –معظمهم من الرجال– من أجل زيادة الإيرادات. كانت "أكثر حانات براغ حجمًا وأناقة" –بحسب الدعاية– هي حانة "تروكاديرو" المطلة على سوق الفاكهة، وكان لها "فريق فني" يتغير كل فترة. أما ضيوف حانة "الدورادو"، في الدور الأسفل لأحد القصور في زقاق "أويست جاسه"، فكان البرنامج الترفيهي المقدم إليهم باللغة الفرنسية والإنجليزية يصحبه عازف بيانو ثابت. كان المناخ العام مسترخيًا، والعلاقات مع الزبائن علاقات أسرية؛ فالتلامس مسموح به، والدعارة شبه موجودة. السواتر والحجرات المنفصلة متاحة، ولكن لم يأت معظم الزبائن للدفع مقابل ممارسة الجنس؛ لأنه كان أرخص في أماكن أخرى، ولكن من أجل الاستمتاع بالصحبة في أجواء حسية مع النبيذ، والتبغ، والموسيقى، وضيوف من مستويات اجتماعية مختلفة. ذات مرة، كتب كافكا، ببراءة، أنه "دخل فجأة وسط مجموعة من الضباط، وأشخاص من برلين، وفرنسيين، ورسامين، ومطربين، وقضيت معهم ساعات المساء في مرح، ليس ساعات المساء فحسب بالتأكيد" – كانت الصحبة الاجتماعية المعتادة في الحانات، ولكن كافكا ينسى ذكر النساء بالطبع.[٣]

يؤكد خطابه المدهش إلى برود على رحلاته الليلية الممتدة، التي كان ينتقل خلالها من حانة إلى أخرى حتى ساعات الصباح الأولى، دون

مراعاة لساعات العمل المرهقة التي تليها مباشرة. مقارنة بحياته المتأقلمة حتى هذه اللحظة، كانت هذه شطحات اجتماعية سوف يقوم بها وحده في وقت قريب. الاعتقاد بأنه كان متفرجًا فحسب يعد أسطورة؛ إذ لا يبتعد شخص في هذه الأماكن عن الشرب، كما أنه لم يقدر على سحب نفسه من مآدب الشمبانيا. كانت الشمبانيا، في هذا العالم الليلي الموازي، بمنزلة العملة؛ كانت جائزة المراهنة الكتابية، التي عقدها كافكا على بقائه بعد مرور عشر سنوات أعزب، عبارة عن مجموعة من زجاجات الشمبانيا باهظة الثمن (كان من الممكن المطالبة بها فعلًا).[4] ليس صعبًا أن نتخيل تعليقات الأم على هذا السلوك، أو التغيير المرتبك للملابس في الصباح الباكر؛ لأن البزة التي تفوح منها روائح التبغ والكحول كانت ستُقابل باللوم في المكاتب المعقمة لشركة "أسيكوراتسيوني جنرالي".

لم يجد سعادته في هذه الليالي المرهقة بالتأكيد؛ لأنها أبعدته عن الأنشطة التي تبعث على سعادة أكثر استدامة؛ القراءة، والكتابة، والإلقاء، كما سلبته المبرر الوحيد الذي سيقبله ضميره ليعادل العمل الشاق الذي يقوم به بوصفه موظفًا صغيرًا. ولكن لم يكن كافكا ذلك الإمعة المكتئب، شارب الخمور، فاقد الرغبة في الحياة، كما كان يحاول أن يرسم صورة لنفسه لاحقًا. تؤكد بعض الأمور على العكس؛ إذ كان للعامين أو الثلاثة، التي قضاها في حانات براغ، تأثير منعش ومخفف؛ لأنها أتاحت له التعامل الحر الذي لم يعتده مع النساء. كان في حاجة ماسة لهذا الأمر، على عكس برود مثلًا، الذي لم يخشَ أي إحراج، أو رفض عاطفي على الإطلاق. منطقة التواصل الاجتماعي بين الجنسين — أي قواعد الغزل، والأحاديث المهتمة، والدلال، والتقارب الجنسي — بالنسبة لكافكا، بقلة خبرته وطبيعته الدفاعية، منطقة شائكة، لدرجة

أن إحدى الخادمات اعتقدت في سنوات لاحقة أنه صبي، ولم يرجع السبب في ذلك إلى مظهره، بل إلى سلوكه "المفتقد للرجولة".[٥] حررته الحانة من هذه الطقوس المزعجة؛ فهنا التعامل الحر والمنسجم مع النساء ممكن؛ إذ يعرضن أنفسهن سلعة أو هدية بحسب المزاج والرغبة، وحينما يأتي موظف تأمين لطيف ليستند على كتفهن، فلا يبدين اعتراضًا.

كان هذا يغذي أوهام العلاقات الغرامية، التي قد تتطور إلى أبعد من ذلك. ومنذ هذه اللحظة، صارت الملاهي الليلية تمثل خطورة على كافكا، ومصدرًا لتعاسته. يكتب برود: "أتذكر غرامه بنادلة في حانة اسمها "هانزي". قال عنها، ذات مرة، إن كتيبة من الفرسان قد مروا على جسدها. كان كافكا في منتهى التعاسة؛ بسبب هذه العلاقة." يبدو هذا منطقيًا؛ لأن كافكا ظل يتذكر ضحكة "هانزي"، حتى بعد مرور أربع سنوات. لم يعرض برود نفسه لهذا النوع من الارتباط؛ إذ وجد متعته القصوى، بل وأهم شاغل في حياته لفترة، في حب الفتيات "المحترمات"، وإغرائهن بزيارته في شقة مؤجرة خصيصًا لمواعيده الغرامية. (دفع ثمن ذلك بخوفه المستمر من حدوث حمل). أما علاقاته بالعاهرات، فنعرف من مذكراته المبكرة، التي لم تنشر، أنها ظلت في أضيق الحدود، وأنه ظل في إطارها غير قادر جنسيًا. عجز كافكا، على عكس صديقه، عن اعتياد التفرقة بين احتياجاته الاجتماعية، والغرامية، والجنسية، وكان يتعامل مع العاهرات، اللاتي انجذب إليهن، مثلما يتعامل مع حبيباته الشريفات. لم يعبأ بانتهاز الفتيات لفرصة التصوير معه؛ فقد سمح بالتقاط صورة له مع النادلة "يوليانة سوكول" (أو "هانزي")، ذات الواحد والعشرين عامًا، التي كانت تطلق عليه "فرانزي". كان يزورها في غرفتها،

ويقضي معها أيامًا في الفراش (ذكرت هذه الجزئية في رواية "المحاكمة").
اصطحب امرأة أخرى في مساء الأحد، قبل عيد العنصرة في عام ١٩٠٨، إلى "معرض اليوبيل الدولي" في منطقة "باوم جاردن"، الذي صاحبته الحفلات الموسيقية، وعروض الأفلام، والإضاءات الاحتفالية. كانت محاولات التقارب هذه بلا مستقبل، وقام بها قبلها بعام، في الفترة نفسها التي كان يراسل فيها صديقته "هيدفيج فايلر" المقيمة في فيينا. كان كافكا قد وقع، حينها، في غرام نادلة في حانة "تروكادبرو"، تشبه، بحسب شهادة برود، في ضخامتها "تمثال جيرمانيا، كما تظهر على طوابع الرايخ الألماني". عرض عليها، على مسمع من الآخرين، تأجير شقة لها، على الرغم من عدم التقارب القوي بينهما. علق برود على ذلك ناقدًا: ابتسم "كأنه يسخر من الموقف؛ إنه تصرف متحفظ غريب، ليس جادًا، على الرغم من حبه لها".[٦]

استغرب أصدقاء كافكا سلوكه المحط من شأنه الاجتماعي مع هؤلاء النساء بالتأكيد؛ إذ كان يغامر، من ناحية، بإصابته بأمراض الحب، وسهولة افتضاح أمره وسط براغ الصغيرة من ناحية أخرى، حيث تلتقي بالأصدقاء والمعارف في كل مكان. لم تكن هناك خطوط فاصلة تفصل أحياء الدعارة عن غيرها، كما هي الحال اليوم. كانت الدعارة تجارة حاضرة في الشوارع السكنية العامة، وانتشرت الشكوى حينما أغلقت أكثر من نصف هذه الصالونات في مرحلة تجديد حي "يوزيف شتاد"، أو انتقلت إلى أحياء أخرى؛ مما أدى إلى وقوف هؤلاء الفتيات في الشارع. انخفض عدد التصاريح الشرطية التي مُنحت لبيوت الدعارة، ثم توقفت تمامًا مع السنوات الأولى للقرن الجديد. أدى ذلك إلى انتشار الدعارة غير المسجلة، التي لا تُراقب مراقبة صحيّة، فضلًا عن ظهورها في المشهد العام للمدينة. يتذكر كافكا التفسيرات التي

كانت تقدم له وهو طفل، أن أكثر النساء أناقة هن "أسوؤهن". كان هذا السؤال أكثر تكرارًا في الجيل التالي؛ لأن عدد هؤلاء النساء زاد في ممشى شارع "فرديناند شتراسه" والأزقة الجانبية بالقرب من منزل الوالدين. عرف كافكا الإجابة الآن، وكان يتعمد، بعد نضوجه، السير من خلال هذه الأزقة؛ ليشاهد النساء ويتمتع، مثل سائر الرجال، بإمكانية الحصول على أي واحدة منهن في أي وقت. [٧]

ولكن كان هناك أيضًا مكان أسطوري، يصارع بوجوده منذ عقود محيطه البرجوازي: إنه صالون "جولد شميت"، الذي أطلق عليه "جوجو"، ويقع في زقاق "جيمزن جاسه" ("كامزيكوفا أوليشكا" باللغة التشيكية)، بجانب منزل عائلة "فيلتش" ومحلها. كان "جوجو" بيت دعارة راقيًا، وقد تحول، مع منعطف القرن، إلى ملتقى للحركة البوهيمية الأدبية – أيضًا بالنسبة لأشخاص لديهم القدرة المالية على طلب فنجان من القهوة مقابل أربع كرونات (وهو مبلغ يكفي لوجبة فاخرة في أي مكان آخر). كان للمكان عازف بيانو ماهر، وفتيات راقصات، كما عقدت، في الغرف الخلفية المؤمنة بسواتر سميكة، مسابقات الحظ غير القانونية، أو استقبلت هذه الغرف الزبائن من الطبقة الأعلى (مثل الكونت شارل، الذي صار لاحقًا القيصر). كان من الزبائن المترددين على المكان "باول ليبين"، وماكس برود، و"إيجون إرفين كيش"، و"إرنست بولاك"، و"فرانز فيرفل" الشاب، الذي كان يطلق عليه "كاروزو" *، ويثير إعجاب النساء الحاضرات. [٨]

زار كافكا، في الأغلب، "جوجو" بوصفه مزارًا سياحيًا معروفًا في المدينة، وإن كنا لا نملك شواهد على ذلك، لكن من المؤكد أنه زار

---

* المقصود المطرب الأوبرالي (إرنستو كاروزو).

بيت الدعارة "سوها" مرات متكررة، وهو مكان أقل تكلفة وتألقًا. يصف أجواءه في مذكراته اليومية:

"كنت، قبل أمس الأول، في بيت دعارة "سوها"؛ هذه اليهودية صاحبة الوجه النحيف والذقن الحادة، ولكنها تبدو، بقصة شعر مموج وكثيف، أكثر عرضًا. تؤدي ثلاثة أبواب من الجناح الداخلي إلى الصالون، كأن الضيوف في غرفة حرس فوق خشبة المسرح. المشروبات فوق المنضدة، ولكن لا يتناولها أحد. فتاة بوجه مسطح وفستان حاد الأطراف، لا يتحرك إلا تحت الكنار. ترتدي بعضهن، الآن ومنذ فترة، ملابس العرائس الخشبية في مسرح الأطفال، تلك التي تباع في أسواق أعياد الميلاد. فساتين مكشكشة بلون ذهبي مُلصق، غير مثبتة بالخيط، يمكن إزالته، فيتفتت بين أصابعك. تأتي صاحبة المكان بشعرها الأشقر المشدود، بطبقاته المقززة، وأنفها المعوج. علاقة هندسية ما بين أنفها وصدرها المتدلي، وبطنها المتحجرة. تشكو من الصداع بسبب زحام يوم السبت، الذي يعني بالنسبة لها شيئًا."

جاءت ملاحظاته هذه في عام ١٩١١، لكن كافكا يتذكر أحداثًا كانت "منذ فترة"؛ ليثبت اعتياده هذه الأماكن تمامًا، مثل ملحوظة أخرى ترجع إلى الفترة نفسها يقول فيها "إن بيوت الدعارة تذكره بالأمازيونات".[٩] وقع كافكا، لعدة سنوات، ضحية لهذا "التنميط الجنسي"، الذي احتقره لاحقًا؛ أي التحكم في الخدمات التي تقدمها العاهرة واستهلاكها، كأنها تقوم بوظيفة النادلة أو جليسة الأطفال. يكتب صديقه برود في مذكراته عن الإثارة على صدر إحدى العاهرات. أما ملاحظات كافكا فيشوبها كلها الإحباط؛ إذ ينظر إلى هذا الهوى المباع على أنه رخيص، وبضاعة زائدة تقدم بأسلوب سيئ. وجد

صعوبة، حتى في حالة الإثارة الجنسية، في أن يرى شيئًا أكثر مما هو موجود في وضح النهار، ولم يستسلم لتأثير اللمسة الإنسانية إلا دقائق قليلة.

تفوق، بذلك، على المراقبة الدقيقة لعالم النساء، ووصفهن، وتنميطهن، كما كان معتادًا في هذه المرحلة، وكما نجده في مذكرات برود مثلًا. لم يأتِ هذا الحديث نتاجًا لمسافة واعية، بل محاولة لخلق هذه المسافة، والسيطرة على الخوف الدفين من الجنس. قدم "فاينينجر" الجانب التنظيري لهذه الظاهرة. يكتسب هذا الخوف قوة أكبر، كلما تجاهل الفرد الجانب الجنسي في إدراكه لذاته؛ أي كلما ابتعد الفرد عن تأثير هذه المشاعر التي قد تدمر حياته البرجوازية المؤَمَّنَة. رصدت حركة إصلاح الحياة هذا الاغتراب عن الذات باستنكار؛ لما له من تأثير رهيب على الأخلاقيات والصحة العامة. أما التحليل النفسي فنفذ إلى طبقة أكثر عمقًا؛ ليجد في هذه الظاهرة مفتاحًا لفهم الأمراض النفسية.

عرف كافكا هذا الخوف أيضًا، وتؤكد تدويناته في المذكرات اليومية أن حجم وعيه بهذا الخوف كان كبيرًا. أدرك ذاته المتخبطة، وخطورة حدودها الهشة، داخليًّا وخارجيًا. أدرك الجانب المريض للجنس الناضج المحتقر اجتماعيًا؛ هذه الرغبات التي انصهرت في شكل لا نعرفه، محبوسة بعناء داخل حدود الوعي. يبدو أنه كان يرى كل خبايا الأنا السفلى لـ "فرويد"، رؤية واضحة، من المنظور المميز للمحلل. عايش ما كان الآخرون يحلمون به: مشاهد جنسية مثلية، وتلصصًا، واستفضاحية، وفيتيشية جنسية، واستمتاعًا بالجنس "القذر"، ودمجًا بين مشاعر الألم، والتقزز، والرغبة. نفى

كافكا هذه التجارب الداخلية إلى داخل حدود النص؛ كان هذا أسلوبه لاستعادة السيطرة؛ إذ لا يفلح في كبتها أو صرفها. جاءت، من هنا، الفقرات المحرجة العديدة، التي كان كافكا يقلل من حدتها أحيانًا في أعماله، دون أن يجردها تمامًا من برود الانحراف الجنسي. لا نجد في نصوصه "مواضع" مثيرة؛ إذ تبدو التفاصيل الجسدية معزولة، ومسلطًا عليها ضوء مبالغ فيه. تثير المواضع الجنسية الشفقة، والشعور بعدم الراحة الجسدية: سواء "العاهرات المسنات الممتلئات" اللاتي ينجذب إليهن في شوارع براغ، والسيدة اللاهثة "برونيلدة" في رواية "المفقود" "بيديها الصغيرتين السمينتين"، والرجل والفتاة المتدحرجان في برك البيرة في رواية "القصر".[١٠]

لا تنشأ هذه المواضع المحرجة؛ بسبب عجز كافكا عن الشعور بالإثارة، بل لأن عملية الكتابة، وليست الكتابة الأدبية دون غيرها، تفتح أمامه الأبواب إلى عالمه الداخلي الدفين. يؤدي ذلك ـعلى جانب القارئ الذي لا يعرف سوى قناع الكاتبـ إلى خداع بصري. يعد هذا من أسباب التكهنات المتكررة والعنيدة حول الشذوذ الجنسي، التي أرهقت نصوصه، وحياته الشخصية أيضًا. تخطئ هذه المحاولات التفسيرية؛ لأنها تفتقر إلى الرؤية الناقدة للنصوص، ولا تراعي إيقاع كتابته ودورها. حينما يستسلم كافكا لسيل التجارب التي يمر بها على مدار أيام وأسابيع، يتوقف عن السرد، ولا يكتب إلا باختصار، أو قد لا يكتب مطلقًا. لا نجد، لهذا السبب، في تدويناته إلا آثارًا بسيطة، أو فراغات لافتة للقاءاته السعيدة مع النساء في "زوك مانتل"، ولاحقًا في "ريفا"، وعلاقته بالفتاة "جولي فوريسك". في ظل إيمان كافكا بخرافة أنه منعًا للمصائب لا يجب الإفصاح عن سعادتك، لا نعرف تحديدًا مرات تكرار هذه المراحل الصامتة والهادئة في حياته. الانتقال من

المراقبة العامة إلى مراقبة الذات، وهي حالة كافكا الطبيعية، تؤدي حتمًا إلى هذه المشاعر الشاذة المزعجة، التي لا يمكن التعبير عنها اجتماعيًا، بل جماليًا. لا يمكن التحكم في هذه الشؤون شديدة الخصوصية إلابالكتابة ليلًا على المكتب.

أدرك كافكا أن هناك من يتخلص من هذه التوترات بأسلوب أكثر هجومية، ولكن لم يجد نفسه قادرًا على تطبيق ذلك. لم يحسد صديقه ماكس على قدرته الصريحة على الاستمتاع؛ لأنه وجد في ذلك نوعًا من الإدمان، والعجز عن رؤية الواقع. التقى الاثنان، في عام ١٩١١، بشخصية كاريكاتورية تعبر عن الإفراط الجنسي؛ تفوق هذا الشخص على برود بمراحل، وراقبه كافكا مستمتعًا ومندهشًا باهتمام كبير: كان المدرس الخاص "أنطون باخينجر"، القادم من مدينة "ليتز"، متخصصًا في علم الشعوب، وجامعًا مهووسًا بكل شيء. شخصية مجنونة وثرثارة؛ غمر الاثنين بقصصه عن الطوابع، والأختام المستخدمة في الكتب، والتعويذات، والزهريات، وأحزمة العفة، فضلًا عن الصور العارية "لحبيباته" العديدات، اللاتي كان يفضلهن "ممتلئات"، ويرى أنه يقدم إليهن خدمات جليلة. يستنتج كافكا بموضوعية: "تلخصت حياته في جمع الأشياء والمعاشرة الجنسية." يبرهن حجم تدويناته، وتفاصيلها، على أنه انبهر بحيوية هذا الشخص الجريئة، على الرغم من الأمور "القذرة"، والمضحكة أيضًا، التي سيطرت على "باخينجر". يستعين كافكا بمفردات لغته العنيفة، وكأنه أراد (ولو لمرة وحيدة) تجربة هذا الشعور عند استخدام هذه الألفاظ: "يعد جسد المرأة الحامل أجمل الأجساد، ويستمتع بمضاجعته." يقاوم كافكا، بشجاعة، مباهاة "باخينجر" بفحولته: "تثير قصصه عن قدرته الجنسية تساؤلات حول قدرته على إدخال عضوه

الكبير ببطء في أجساد النساء. كان في زمن قد فات بارعًا في إرهاق النساء حتى الاستسلام التام، يصِرن بلا روح، حيوانات. أستطيع تخيل هذا الاستسلام." يبدو أن برود قد فزع من قراءة هذه الفقرات في مذكرات كافكا أول مرة: قرر أنها غير صالحة للنشر.[١١]

واجه كافكا، من خلال "باخينجر"، جامع الأشياء، نموذجًا لتجربة الجنس دون أي حواجز؛ فلا يخشى الاقتراب من الشذوذ، ولا يهتم بالأسلوب اللغوي المعتاد في تناول هذا الموضوع، ناهيك بوقاحته، التي لم يستوعبها كافكا، في عرض هذه القصص على غرباء؛ مما أضفى غرابة أكبر على هذه التجربة. التعرف على "باخينجر" جاء من خلال رسام الجرافيك والكاتب "ألفريد كوبين"، الشخصية مرهفة الحس، الذي شارك كافكا اهتمامه بالأحلام، والدوافع الكامنة في اللاوعي، والذي تخلص من خوفه من الجنس عن طريق إدخاله في "مشاهد جهنمية" (وهو عنوان أحد أعماله). كان "باخينجر" يتعامل، إذًا، مع شخصيات مثقفة؛ فقد عرف "فرانز بلاي" عن قرب أيضًا، ولكنه لم يفهم توترهم المبدع، ولا أبعاد حالات الكبت التي أصابتهم. كانوا يعدون الجنس أكثر قضايا الحياة الإنسانية تعقيدًا. أما "باخينجر" المتهور والمتعجل، فقد أظهر شراهة طاغية في جمع التجارب الجنسية، وظن أنه عرف فريسته تحديدًا، ولكنه وقع في خطأ طوال حياته. لم يكن "باخينجر" يشعر بالسعادة، تمامًا مثل "كوبين"، أو كافكا. للسعادة شكل مختلف، حتى إن عجز عن إدراك رتابة ما يقوم به وإصابته بالهوس.

تعجب كافكا، ثم أعرض عنه. فهم "باخينجر"؛ لأنه هو نفسه كان "ينجذب إلى نصف أجساد الفتيات"[١٢] التي يراها، كما اعترف

لاحقًا. ولكنه لم ينس قط أن هذا الانجذاب يقوده عبر الهاوية إلى الجانب الآخر، حيث لا ينتظره "حيوان مستسلم"، ولا "كائن شهواني"، بل كائن دافئ، لديه مشاعر، يتحدث ويفكر، وله قصته الخاصة، وهواجسه الخاصة. لا يعينه الجنس وحده على تجاوز هذه الهاوية؛ لأن الرغبات لا يمكن الإفصاح عنها، وبمجرد استيعابها تؤدي بك إلى الوحدة. كان هذا قانونًا ثابتًا في إدراكه لذاته. عرف كافكا الشاب أن هذه الوحدة كانت تدفع به إلى عاهرات مثل "هانزي" و"بوسكي"، وأن الوحدة أيضًا كانت تبعده عنهن —حتى إن تمكن من فصل التواصل الجسدي عن التواصل الإنساني لفترة قصيرة. قام، في صيف ١٩٠٨، برحلة لعدة أيام إلى غابات بوهيميا، قبل دخوله شركة التأمين ضد حوادث العمر، وتحدث خلالها إلى عاهرة في الشارع. كتب بعدها إلى برود:

"لا يحبني أحد، وأنا أيضًا لا أحب أحدًا، الثانية نتيجة للأولى. ما يعزيني الآن هو قراءة كتابك. لم أشعر بكل هذه التعاسة منذ فترة طويلة، دون أسباب. كلما قرأت أتشبث بالكتاب، مع أنه لا يريد مساعدة التعساء. فيما عدا ذلك، أبحث بشدة عمن يلامسني بلطف، فذهبت بالأمس مع عاهرة إلى فندق. لم تكن وصلت إلى الاكتئاب؛ بسبب سنها، ولكنها شعرت بالأسى، وإن لم تتعجب، من أن العاهرات لا يجدن المعاملة الطيبة مثل النساء في العلاقات الغرامية. لم أواسِها؛ لأنها لم تواسني أيضًا."[١٣]

المقاهي، والجيشا، والفن، ودور العرض

"ـ هل تعرف موسيقى مرحة؟
ـ أنا؟ لا."
فرانز شوبرت متحدثًا إلى يوزيف ديساور

"يسعى رجل إلى تحقيق فكرة لقاء مجموعة من البشر، دون توجيه دعوة إليهم. يرى هؤلاء البشر بعضهم؛ يتحدثون، ويراقب بعضهم بعضًا، دون معرفة سابقة. يختار كل شخص وجبته بحسب رغباته الفردية، دون أن يقع عبء على أحد. يمكن الظهور والاختفاء بحسب الرغبة، ولا يوجد التزام تجاه صاحب المكان، وهو، مع ذلك، مُرحب به دون نفاق. حينما ينجح، في النهاية، في تحقيق هذه الفكرة العجيبة، يكتشف القارئ أن هدف هذه المحاولة كان إنقاذ الوحيدين في هذا العالم، وأنها أتت باختراع أول مقهى في التاريخ."

إنها بنية قصة خطرت على بال كافكا، دون أن يستكمل كتابتها، ولكن بدت له الفكرة مميزة بالقدر الكافي لقصها شفويًا. كتبها "أوسكار باوم"، الذي كان يبوح له ببعض مشاريعه الأدبية قبل كتابة عباراتها الأولى، وهو أمر نادر الحدوث.[1]

يبدو أنه أدرك وضوح لعبة الأفكار واعتمادها على فكرة وحيدة؛ مما لا يسمح بعرضها أدبيًا. أي قارئ مطلع بعض الشيء سيتذكر أمثولة "شوبنهاور" البسيطة عن الشباهم؛ تلك الحيوانات التي تشعر بالبرد في وحدتها، ثم تتألم من وخز الأشواك حينما تقترب من بعضها. كان المقهى، وخاصة في شكله النمساوي الفخم، يقدم أحد الحلول البارعة، التي أفرزها المجتمع البرجوازي، لمشكلة التباعد الاجتماعي: مؤسسة تتيح صحبة يُعتمد عليها، ولكنها غير ملزمة على الإطلاق. عرف كل مرتادي المقاهي ذلك جيدًا، ولكن ما كان معظمهم ليقبل بكلمة "الخلاص" لوصف تحقيق احتياجاتهم الاجتماعية إلا في سياق ساخر. كان الإقرار بأن الجلوس في المقهى سببه عدم تحمل البقاء وحيدًا صعبًا. ادعى "نيتشه" أننا كثيرًا ما ندخل في الصحبة، حتى لا نضطر للاستيقاظ من غفوتنا. قلة من البشر تقبل هذا الوصف لحالتها. [٢]

ترجع شعبية المقاهي الكبيرة إلى الإمكانات العديدة، التي تتيحها في تحديد حجم التقارب الاجتماعي بحسب الرغبة الشخصية. يجلس بعض الضيوف طوال المساء في ركن هادئ، لا يتحدثون إلى أي شخص آخر، يراقبون الحياة الاجتماعية بصبر، ولا يعد الآخرون ذلك غريبًا. ينقل نمط آخر، الأرامل والعزاب المتقدمون في العمر، جزءًا من حياته الخاصة إلى المقهى؛ إذ يجلس يوميًا في التوقيت نفسه والمكان ذاته، ويتناول المشروبات والمأكولات نفسها، ويقرأ الجرائد نفسها، ويدخن السيجار نفسه، ويخدمه نادل يعرف منذ سنوات طلباته الخاصة، وينقل إليه آخر الأخبار. كان العمل الذهني أمرًا مقبولًا في المقهى، بل ويُقدم إليه كل الدعم المطلوب: قدمت المقاهي الكبيرة لمرتاديها الدوريات، فضلًا عن الجرائد اليومية؛ من بينها أفضل المجلات الأدبية. أمر طبيعي أن يُطلب من النادل إحضار كتيب رحلات تصدره جمعية السكك الحديدية

النمساوية المجربة، أو أعداد من موسوعة المحادثة. يستغرق المهتمون بهذه القراءات في عالمهم، ولا تشغلهم فناجينهم التي صارت فارغة.

كانت الصحبة، بمفهومها الدقيق، متاحة، دون أي نوع من الإلزام: البقاء في المجموعة الخاصة متاح، والانضمام إلى موائد السمر نصف المفتوحة متاح أيضًا؛ حيث يجلس التجار، والموظفون، والصحفيون، والأدباء معًا. كما يمكن التجول بين الموائد، أو الدخول إلى إحدى الغرف الجانبية المحجوزة للعب البلياردو، والشطرنج، والكروت؛ من أجل المشاركة في اللعب أو الاكتفاء بالمشاهدة، كل بحسب رغبته. في هذا المنطقة الآمنة وشبه العامة لا يخشى أحد الاحتكاكات الاجتماعية؛ إذ كان اجتماع العاملين في البورصة والمنتمين إلى الطليعة الأدبية في المكان ذاته ممكنًا، أما المواطنون العاديون والعمال فكانوا يفضلون البقاء (فيما بينهم في الحانات). قدمت المقاهي البراغية فرصة لتجاهل التناقضات القومية؛ إذ كان الانضمام إلى مقاهٍ بعينها، يرتادها الألمان أو التشيك، يتيح الاستمتاع الدافئ بسماع اللغة الأم. لم يفضل أصحاب المقاهي إقامة هذه الجزر القومية بالطبع؛ لأنها كانت تبعد فئة بأكملها عن ارتياد مقاهيهم، ولكن لم يكن من الصعب تجنب ذلك على أرض تحكمها الصراعات السياسية، حتى إن اختارت المقاهي لنفسها، عن وعي، أسماء لا توحي بأي انتماءات، مثل "أركو"، و"كونتيننتال"، و"كورزو"، و"أديسون"، و"سافوي"، و"فيكتوريا". بالطبع، تجاهل المنتمون إلى مجموعات الحداثة الأدبية هذه الخطوط الفاصلة، غير المرئية، وبالأحرى شخصيات شغوفة بنقل الثقافة مثل ماكس برود، أو صديقه موظف البنك والمترجم "أوتو بيك".

لم يبعد دخان السيجار، وضجيج التجمعات البشرية، كافكا عن ارتياد المقاهي؛ إذ تعرض، بالتأكيد، لتحديات أصعب في أثناء زياراته الليلية إلى الحانات، وإن كنا لا نعرف طبيعة المشروبات التي كان يتناولها (لم تكن القهوة بالتأكيد). مما لا شك فيه أن هذه الساحة، المنظمة اجتماعيًّا بعناية كبيرة، قد توافقت مع حبه لمراقبة الحياة من حوله، وتفضيله للقرب المحسوب، كما انجذب للمجلات المعروضة هناك، تلك التي كانت تشغله بالساعات. لم يكن له مكان ثابت، كما توضح الترتيبات للقاء برود المتاحة لدينا. كان يفضل المقهى في المساء أو ليلًا؛ لأن كافكا كان يحب قضاء ساعات النهار المتاحة له في الخلاء، ما دام الطقس يسمح بذلك. عادة، يكون اللقاء بالزملاء، والأقارب البعيدين، وزوار المدينة من الخارج، في المقهى، خاصة وأن السكن في شقة خاصة لم يكن معتادًا وسط دائرة الأصدقاء، باستثناء "أوسكار باوم". كانت هذه فرصة ليعرف ماكس برود كافكا بشخصيات فنية وصحفية؛ مثل الإعلامي النشيط "أوتو بيك".

صار المقهى ساحة مفضلة للقاء الأجيال المختلفة أيضًا، في عام١٩٠٨/ ١٩٠٩ مثلًا؛ حيث التقى بخريجي المدرسة الثانوية الواعدين أدبيًّا: "فيلي هاز"، و"باول كورفيلد"، و"فرانز فيرفل"، الذين استقروا في مقهى "أكرو"، خاصة في "قاعة القراءة" (زقاق "فلاستر جاسه"، بالقرب من محطة القطار الرسمية). عرض عليهم برود أن يكون مرشدهم؛ فقد كان من أول مكتشفي موهبة "فيرفل" الشعرية في براغ؛ إذ وجد متعة فنية جديدة في أسلوبه المؤثر بسبب براءته وصدقه. أعجب، فضلًا عن ذلك، بوقاحة هؤلاء الشباب وتحررهم، وتغاضى عن عدم نضج "فيرفل"، حينما استهزأ بأعمال كافكا النثرية ("لن تخرج شهرته

عن نطاق منطقة بودنباخ!")[3]. ظلت علاقة كافكا نفسه بهذه المجموعة علاقة مستقلة لفترة طويلة، وكان يحضر إلى مقهى "أكرو" بين الحين والآخر، وكذلك بعد بداية الحرب. يبدو أنه لم يعجب بقصائد الطبيعة التي كان يشدو بها "فيرفل" فحسب، بل وجد الألفة أيضًا مع "هاز"، الذي تمكن من تأسيس "اتحاد هيردر" بدعم من الصندوق اليهودي "بناي بريث". أرادت هذه المجموعة، وأغلبها من الطلاب، تجاوز حدود الثقافة القومية، ونافست في ذلك، بلا أمل، "اتحاد القاعة للقراءة وإلقاء الخطب". كانت "أوراق هردر" هي المجلة الصادرة عن الاتحاد، ولكن ظلت، مثل الاتحاد، مهددة ماليًا وتنظيميًا؛ إذ لم تصدر إلا في أربعة أعداد فقط. أثار الاتحاد، مع ذلك، اهتمام كافكا، وإلا ما كان ليسمح لـ "هاز" بنشر نصين، وإن لم تكن نصوصًا حيوية بالنسبة له. المحاضرة الوحيدة شبه العامة، التي تبرع كافكا بإلقائها مع نهاية عام ١٩١٢، جاءت بمبادرة من اتحاد "هيردر".[4]

إذا نظرنا إلى كافكا بوصفه أديب الألفية، أو الأديب الكلاسيكي العالمي الذي يمثل عصر الحداثة، نتعجب من قلة انتقائه للعرض الثقافي المتاح في عصره. صحيح أنه درس أعمال "فلوبير" و"توماس مان"؛ لأنه عدهما مثالين أدبيين يحتذى بهما، ولكنه قرأ، أيضًا، سيرًا حياتية متوسطة الجودة، إذا كانت تثير اهتمامه الشخصي، كما ظل، حتى وهو شخص ناضج، يسعد بقراءة قصص الهنود الحمر. لم يذهب كافكا إلى المتاحف إلا فيما ندر، على الرغم من معرفته بتاريخ الفن، أما دور الأوبرا وحفلات الموسيقى السيمفونية فلم يزرها مطلقًا. حتى زيارات المتاحف التي نعرف عنها، بدت كأنها بلا انتقاء، لا نشعر بأي حب خاص أو شغف بالمسرح وأشكاله الدرامية، على الرغم من أن أكبر مسارح براغ -المسرح التشيكي القومي (منذ ١٨٨٣) والمسرح الألماني

الجديد- كانا يستضيفان أكبر الفرق المسرحية. كان كافكا يحب فقط الحضور العاطفي للممثلين، والراقصين، والمغنين، دون النظر إلى السياق الذي يقدمون فيه أعمالهم. عندما تعرف على فريق التمثيل اليهودي في مقهى "سافوي" مثلًا، اهتم بتدوين انطباعاته في مذكراته في عدة صفحات. أما الإنجازات الثقافية رفيعة المستوى فلم يظهر اهتمامًا منظمًا بها، ولم يعبأ مطلقًا بما يقرؤه، ويسمعه، ويشاهده المحيطون به. كان يتابع المشهد بوصفه هاويًا، وبعيون طفل في بعض الأحيان. بصرف النظر عن الأدب الروائي، لم يكن هناك مجال آخر يعرفه جيدًا. إنه اكتشاف مذهل، خاصة عندما ننظر إلى تأثيره العالمي، عبر أصداء عديدة وصلت إلى المسرح والفن التربوي في القرن العشرين.

أما إذا نظرنا إلى كافكا في سياق المعاصرين له وجهلهم، يتكون لدينا انطباع مختلف. تمثلت هويته الاجتماعية في شخص متخصص في مجال التأمين، مؤهل أكاديميًا، وله اهتمامات أدبية، خلفيته آتية من البرجوازية الصغرى. قياسًا بهذا الوصف، فإن سلوكه في الاستهلاك الثقافي ليس لافتًا. كان يعرف، بالتأكيد، أن القدرة على التفرقة بين الفن "الحقيقي" والفن "الشعبي" هي صفة أساسية للشخصية البرجوازية المميزة: جاءت محاولات المدرسة الثانوية لتشكيل شخصيته في هذا السياق، وكذلك مجلة حارس الفن. أما احتقار الفن الشعبي فكان بعيدًا تمامًا عن أسرته، ولم يتبنه كافكا أيضًا؛ إذ أحب في الفن قيم الخير والحق والجمال، بالإضافة إلى كل ما هو مثير، ومضحك، ومنعش، وحسي، ومؤثر. كان يملك المعايير، وهذا ما ميزه عن والديه. أما فصل معايشة الفن عن الانطباع الحسي، وتأثير اللحظة، وتأثره الشخصي، فكانت قدرة على التجريد لم يملكها، ولم يسع لامتلاكها. كتب في أثناء زيارته الأولى لبرلين: "ماكس، شاهدت عرضًا لعمل هاملت، أو الأفضل:

سمعت "باسرمان"، أقسم إن ملامح وجهي تتغير بمعدل كل ربع ساعة، وأضطر، من حين لآخر، إلى توجيه أنظاري بعيدًا عن خشبة المسرح، إلى المقاعد الخاوية في اللوج؛ لألملم شتات نفسي." كان كافكا سيتعثر في إجابته إن سأله برود عن جودة العرض المسرحي، بصرف النظر عن الأداء المعبر لنجم المسرح "ألبيرت باسرمان" وصوته الأجش. *

تأتي الروايات الهابطة في ذيل قائمة الأعمال الفنية التي كان المجتمع البرجوازي يتذوقها، إلى جانب كل التقديمات الفنية القائمة على فكرة الإثارة. لا يقدم "فنان القناصة"، ولا "فنان الأرجوحة"، فنًا حقًا. قدم كافكا، حول سعي الأخير البريء إلى الكمال، قصة صغيرة "العذاب الأول". ينطبق ذلك، أيضًا، على عمل فنان الجوع؛ هذا المسمى الوظيفي الذي انطوى على لمحة أبدية من السخرية البرجوازية. يبدو أن كافكا قد مال إلى هذه الأشكال الواقعة على الحد الفاصل بين الفن والاستعراض، التي كانت تتسم كثيرًا بالغرابة. نجد منه استجابة سريعة حينما تجمعت هذه الأشكال في مكان واحد؛ مثل معرض اليوبيل الدولي في عام ١٩٠٨، الذي زاره –أكثر من مرة فيما يبدو– مع صديقة، ومع برود. استمتع هنا، في الأغلب، بأول الأفلام الصوتية التي كانت تخرج أصواتها –المصنعة يدويًا- داخل القاعات من خلف شاشة العرض، ولكنه زار أيضًا نموذج قرية حبشية؛ إذ عرض عشرات من السود أناشيدهم الوطنية، وكذلك حفلة شاي أقامتها سيدات الجيشا اليابانيات، اللاتي جئن خصيصًا من أجل ذلك. شكل عرض هذه الغرائب عنصرًا هامًا في صناعة الترفيه التجارية؛ لأن قلة من البشر أتيحت لهم فرص لرؤية المناطق البعيدة. ولكن ما أثار اهتمام كافكا كان أبعد من المفاجأة والغرابة. كان يندمج في مشاهدة الأشخاص بألوان بشرتهم المختلفة وثقافاتهم الغريبة، وكان يستمع، لساعات، إلى

شخص يتحدث عن فلسطين، أو اليابان، أو أمريكا: كأنه قد عايش واقعيًا –ولم يحلم– حياة مختلفة تمامًا على هذا الكوكب، وقد كان هذا مصدرًا للسلوان. كتب إلى "فيليس باور"، لاحقًا، أنه يفهم "رقصات الزنوج" أكثر من الغناء والتصفيق المزعجين، عندما يحاول والده تسلية حفيده. [٦] كان يقصد ما يقول بجدية؛ كان هذا المشهد الغريب يفتح آفاقًا لرؤى مثالية، فضلًا عن مضمونه الترفيهي.

"أستطيع فعل ما تفعله الفرنسية؛ ليس حظها أوفر مني لكونها فرنسية، لفتاة فيينا الأناقة نفسها." كانت ترنيمة تتردد أكثر منها أغنية، والتنورات الفضفاضة التي تتأرجح مع السيقان المرفوعة لأعلى سريعًا. وصف برود هذا العرض الفني بأنه يعبر عن "حكمة المقهى الغنائي". ظلت هذه العروض مناسبة للصغار، ومن الممكن مشاهدتها في صحبة فتاة. [٧]

المقهى الغنائي، ومسرح المنوعات، والكباريهات؛ استخدمت المصطلحات الفرنسية لتسمية الأماكن الترفيهية التي تقدم هذا النوع من الفن. تكشف الإعلانات اليومية في جرائد براغ عن التنوع المذهل في هذه العروض الفنية. المغنيات بأصوات مدربة، إلى جانب الكوميديانات، والمونولوجيست، والمذيعين الثرثارين. قدمت المشاهد الساخرة و"المثيرة"، والراقصات "الهنديات" مع المغنيات السمراوات، وفقرات خلع الملابس، التي كانت تسمى "رقصات بالطرحة"، والأوبريت المنوع من فصل واحد، والفنانين اليابانيين. كان يأتي، في بعض الأحيان، أشهر الفنانين من فيينا؛ مثل المغنية "ميلا مارس"، عضوة في كباريه الفن الجديد "جهنم"، أو الممثل وفنان الكباريه السياسي الرائد "إيجون فريدل"، الذي كان يُقدم على لافتات الإعلان

بلقب الدكتور. كتب كافكا إلى "فيليس باور": "أملك حسًا لهذا النوع من الفن؛ أدركه، دون سبب واضح، إدراكًا شاملًا، وأستمتع به بإثارة بالغة." اعترف، أيضًا، أنه ذهب إلى مقهى غنائي ما كان "ليصطحب زوجته إليه" -يلمح، هنا، إلى زوجة برود "إلزه تاوسيج"، التي كانت كثيرًا ما تأتي معهم. أرسلت إليه وصفًا مفصلًا لأمسية لمسرح المنوعات؛ لتداعبه بكل الفقرات المثيرة التي فاتته لعدم حضوره: القزم "فردي"، مسرحية من فصل واحد "لم تكن داعرة تقريبًا"، وممثل تخفى في شخصية القيصر "فرانز يوزيف"، وممثل "كوميدي" كانت فقرته بها إشارات إلى سياقات أخرى، وراقصة عارية، وفريق من فيينا يعزف موسيقى "شرامل". تفرق أعضاء الفرقة وسط الجمهور، منتظرين تلقي الإكرامية منهم. [٨]

لم يجلس هذا الجمهور في مقاعد المسرح، بل حول موائد مثل المطعم. قلما يجد الفنان الهدوء المطلوب للعرض؛ إذ كان الجمهور يأكل ويشرب ويتسامر، ويسير النُدل وسط القاعة ليأخذوا الطلبات، ويحملون الأطباق محدثين ضجيجًا عاليًا. زادت عوامل التشويش، كلما ابتعد المشاهد عن المسرح، كما زادت كثافة الدخان، الذي قد يرى من خلاله بعض السيقان العارية. ولكن سمح نظام الجلوس هذا بأن يراقب الضيوف بعضهم البعض، بدلًا من متابعة العرض. عندما يقع أحدهم من فوق مقعده بسبب الملل، يجد الضيف المجاور له يدون وصفًا للحدث في دفتر مذكراته اليومية. [٩]

المتوقع أن يكون ماكس برود -بأذنه المتمرسة موسيقيًا- قد وجد ضالته في مسارح المنوعات البراغية، إلا أن ملاحظاته الساخرة ومذكراته تشير إلى أنه كان يتخلص، خارج سياق قاعات المسرح

والموسيقى الجادة، من دور الناقد، وينتقل إلى نوع آخر من التلقي، مثل شخص ناضج يزور عرضًا للأطفال، ويستسلم للأجواء، متجاهلًا الأداء الدرامي والموسيقي، الذي لا يستحق النقد من وجهة نظره. كان هذا يميزه تمييزًا واضحًا عن كافكا، الذي كان يحتفظ بنظرته الجادة للعالم من حوله، ليقبل أيضًا بممثلين متوسطي الأداء، أو أغانٍ بسيطة، ما دام قد اندمج معها. كان هذا سلوكًا غريبًا على برود. ولكن عرف كافكا، مع ذلك، الفرق بين الفن الهاوي والفن المحترف معرفة دقيقة. زار، في مايو عام ١٩٠٩، عرضًا لفرقة باليه قيصرية روسية، آتية من "سانت بيترز بورج"، وظل بعدها يحلم شهورًا "بالراقصة المتوحشة" "إيفجينيا إدواردوفا"، التي أبهرت، بأدائها لرقصة "الجاردا"، جميع عواصم أوروبا الغربية. كتب، بعد مرور أربع سنوات، عن الفرقة نفسها:" "نيينسكي" و"كياست" شخصيتان لا يشوبهما خطأ واحد؛ تكمن في جوهر فنهما قدرة على التحكم معتادة لدى هذا النوع من البشر."[١٠٠]

كان كل من المقهى الغنائي ومسرح المنوعات منطقة خاصة للترفيه البرجوازي في الحياة العامة المعاصرة، ولكن حرمت هذه الأماكن الاعتراف الثقافي؛ بسبب خلفيتها الجنسية، حتى إن تحدث الأشخاص المنتمون إلى المشهد عن "الفن" الذي يقدمونه، ولكن ظهر عنصر جذب جديد ومختلف مثل تحديًا للمشهد الثقافي، وتهديدًا له أيضًا: صناعة السينما. عُرضت، في البداية، أفلام لا تتجاوز مدتها بضع دقائق داخل الأسواق السنوية، أو دور العرض المتنقلة، بوصفها ظاهرة تقنية مثيرة للفضول، وقيمتها الترفيهية كاذبة، وتزول سريعًا، ولكن حب الأطفال والشباب لهذا الوسيط الجديد جعل تصنيف هذا العرض ضمن أشكال الفن المتنقل أمرًا بديهيًا. تغير هذا الوضع، مع بداية عام

١٩٠٥، حينما صارت دور العرض ثابتة في العديد من المدن الكبرى، وصارت تنافس أماكن الترفيه المحلية بشدة، وتنافس أيضًا بعضها البعض في وقت لاحق. بعد مرور عام واحد فقط، نالت السينما اعتراف السياسة الثقافية، وأخضعت الدولة مضمون الأفلام لهيئة الرقابة على المسرح.

يجلس زائر دور العرض السينمائي، مثل المسرح، في قاعة مظلمة، وسط صفوف من المقاعد الثابتة، وبما أن تقديم المشروبات غير متاح (باستثناء دور العرض الرخيصة فقط، التي كانت تقدم الجعة)، فعليه التركيز في العرض، ولا يستطيع التحكم فيه بالتصفيق أو الصياح المستنكر. المشاهد هنا –مثل المسرح– وحده مع نفسه، ويكتسب ذلك أهمية، كلما طالت مدة الفيلم ومضمون قصته؛ لأنه يغري المشاهد بالاستسلام للوهم المصنوع تقنيًا. كان هذا النوع من التذوق الثقافي غريبًا على العمال خصوصًا؛ إذ طالبوا بمشاهد تتغير سريعًا، وقاوموا بداية الفيلم الروائي الطويل. أمر غريب أن النقد البرجوازي المحافظ ازداد حدة كلما ازدادت الأفلام فنية في مدة العرض، وتعقدت، وتعمقت أحداثها الدرامية. وصلت المناقشات حول مصطلح "فن السينما"، في عام ١٩١٣، إلى ذروتها، حينما ظهر أول الأفلام عن الأعمال الأدبية. صار المسرح في هذه المرحلة أكبر الأعداء للسينما. سخر ماكس برود، في عام ١٩٠٩ في أحد هوامش كتاباته، من أن صناعة السينما تقلد "بدقة بالغة" تقاليد المسرح؛ كوخ الخزينة، وغرفة حفظ المعاطف، والبرنامج المطبوع، وموظف قاعة العرض.[11] ولكن سرعان ما وجهت أكثر دور العرض السينمائي رفاهية في برلين وباريس الدعوة إلى حضور العرض الأول، وقدم خبراء التسويق أول نجوم الأفلام؛ مما منح مصطلح الشهرة بُعدًا جديدًا: كان رؤية هؤلاء النجوم

أكثر تكرارًا، ورخصًا، وقربًا، مقارنة بمشاهير فن المسرح. لم يكن ثمة تأثير سلبي لعدم سماع أصواتهم وسط هذا العرض الحسي الجارف، بل كانت له، على النقيض، هالة خاصة. عرف، خلال شهور قليلة، كل صبي الممثلة "أستا نيلزن"، علمًا بأن رقصتها المشبوهة "رقصة الأباخن" في فيلم "القاع" (١٩١٠) لم تكن صالحة لمشاهدة الأطفال. (وجدت هذه الرقصة تقليدًا متحمسًا في بيت دعارة "جوجو" البراغي).

لم يفت على كافكا، بالتأكيد، الجدال الدائر في سياق السياسة الثقافية؛ إذ تعرضت الصحافة اليومية لهذا الموضوع، فضلًا عن جريدة المسرح البرلينية؛ التي كان يقرؤها بانتظام، وخصصت للفيلم عددًا من مقالاتها الناقدة. ولكن يبدو أنه لم يهتم بالتساؤل الأساسي، عما إذا كانت هذه الرجفة المرهقة للعين، التي يصاحبها عزف على البيانو أو عزف أوركسترالي، تقدم فنًا جديدًا. مثل مسرح المنوعات، والمسرح اليهودي لاحقًا، لم يكن لديه في قاعة السينما أي تحفظات برجوازية؛ فقد سمح بالتأثير الجسدي المباشر لما هو معروض عليه. كان يراقب بدقة ذهنية بالغة، وينجذب في الوقت ذاته عاطفيًا، لدرجة البكاء، على الرغم من أن الدراما السينمائية -حتى المتميز منها- اتسمت بشخصياتها وأحداثها السطحية بالبدائية، مقارنة بثراء المعاني الذي يتيحه الأدب. ما يثير دهشة أكبر أن كافكا كان زائرًا شغوفًا لدور العرض السينمائية، في وقت لم تكن الأفلام الروائية قد انتشرت بعد، كما أن لافتات الإعلانات عن الأفلام كانت تداعب أحلام اليقظة داخله، ويفتقدها بشدة في عطلة الصيف. [١٢]

أدرك، مع كل ذلك، العيوب التقنية للعرض التي شابت هذا الوسيط الذي لم يصل إلى مرحلة النضوج بعد: القفزات المضطربة بين

الأزمنة والأماكن، والإسراع في الأحداث المناقض للطبيعة، والتأثير السلبي والمشتت للقص المتكرر، وتغيير الرؤى الدرامية. لم يعد كافكا كل ذلك ثمنًا للتقدم، ولا تعبيرًا مناسبًا عن أسلوب حياة حديث، سريع الإيقاع ميكانيكيًا، و"مثير للأعصاب". عقد مقارنة عملية بين قدرات السينما التي تتيح مساحات للإدراك وماكينات صنع الخيال الأقدم عمرًا. زار، في بداية ١٩١١، عرضًا للشرائح بتقنية قديمة في منطقة "فريدلاند"، أُطلق عليه اسم "بانوراما القيصر"، وكان هذا العرض يقدم صورًا ملونة ومجسمة لمناطق في جميع أنحاء العالم، تصاحبها أحيانًا الموسيقى، التي تخرج من الماكينة أيضًا. أتاحت هذه البانوراما خمسة وعشرين مقعدًا على شكل دائري، تعرض الصور من خلال صندوق للمشاهدة، وتتغير في هدوء كل خمس وأربعين ثانية.

لم يزر كافكا هذا العرض المصور منذ سنوات عديدة، ولذلك عدّ ما رآه جديدًا ومدهشًا. لخص ما شاهد على النحو التالي: "الصور، هنا، أكثر حيوية من دار العرض السينمائي؛ إذ تترك للنظرة هدوء الواقع. أما السينمائي فيضفي على الواقع، الذي ننظر إليه، اضطراب الحركة، ويعد هدوء النظرة أكثر أهمية." يكتشف، أيضًا، أن مشاهدة الشرائح تقربه أكثر من الواقع الذي يعايشه، مقارنة بالمحاضرة التي يسمعها عن الموضوع ذاته –إنه امتياز خاص يمنحه لسلطة الصورة، وتقليل من شأن "الصورة" اللغوية. ليست صدفة في الأغلب، ومن المؤكد أن محادثات بين الصديقين أدت بماكس برود، في العام التالي، إلى نشر مقالة صغيرة؛ يصف من خلالها "بانوراما القيصر" على أنها منشأة لطيفة مرتبطة بذكريات الطفولة، ولكن محكوم عليها تحت وطأة ضغط المنافسة مع السينما بالانتهاء: "كانت تمثل متعة لأجدادنا". عكس كافكا هذه الرؤية التي يحكمها الحنين إلى الماضي، متسائلًا: ألا يمكننا

إنقاذ أهم ما يميز "بانوراما القيصر"؛ أي إدراك أبعاد المكان، ودمجه في الفن السينمائي، في شكل "مدمج للسينما والأشكال التجسيمية". كان يحلم، هنا، بالسينما ثلاثية الأبعاد ولا شيء آخر، دون أن يعرف أن "توماس إديسون"، مؤسس صناعة السينما، قد خطرت بباله الفكرة التقنية ذاتها، ولكن قبله بعقدين.[١٣]

بدأ في براغ العصر الجديد في سبتمبر من عام ١٩٠٧، حينما افتتح أول دار عرض سينمائية ثابتة داخل مبنى يسمى "سمكة الكراكي الزرقاء" في زقاق "كارلز جاسه"، أعلن عن دار العرض بوصفها "مسرحًا للصور الفوتوغرافية الحية". في البداية، كان هناك معلق على الأحداث؛ يقرأ العناوين الفرعية، ويشير بعصا إلى الشخصيات المشاركة في الأحداث على الشاشة، مثلما كانت الحال في أيام دور السينما المتنقلة. افتتح، في الشتاء التالي، مسرح "أورز الكهربائي" في مبنى مقهى "الشرق" الكائن في زقاق "هيبرنر جاسه"، وكان يقدم في اليوم أكثر من عرض، مدته ساعة تقريبًا – صار، فيما بعد، "سينما الشرق الكبرى". كان المعروض عبارة عن مادة مجموعة عشوائيًا من المواد التسجيلية والمشاهد: شلالات "فيكتوريا" في إفريقيا، ومسابقات في "ليفربول"، ورهينة لدى البدو، والكلب بوصفه لصًا، والبطل "بيتس" في حلبة المصارعة، وفرس مجنون، ومجموعة كبيرة من المشاهد الكوميدية. كان كافكا يعرف هذه البرامج، وعلى دراية بأحدث العروض، وكان يقدم في المنزل، بالتمثيل الإيمائي، مضمون ما شاهده، ويشجع أخواته (وفي الأغلب والديه أيضًا) على زيارة السينما. في عام ١٩٠٨؛ أي في فترة كان العرض في براغ محدودًا، كتب إلى "إلزه تاوسيج" رسالة ليذكرها بأمسية في السينما مخطط لها، ويتضح، من خلالها، أنه قد شاهد الأفلام الصغيرة المعلن عنها من قبل: من بينها

فيلم الضابط الظمآن، الذي يصير مع نهاية الفيلم مخمورًا، أكثر من المتهم الذي يقوده إلى قسم الشرطة، وفيلم الحارس الملكي المهذب، الذي يُحكم عليه بالموت ظلمًا، ثم تنقذه غجرية شابة في اللحظات الأخيرة.[١٤]

كان كافكا يتذوق هذه العروض البسيطة، دون أن تصيبه بالبلاهة، هذا ما اتفق عليه مع أصدقائه، الذين ربطتهم جميعهم بالعروض السينمائية الجديدة علاقة وطيدة، ولكنها علاقة ساخرة. شارك كل من ماكس برود، و"أوتو بيك"، و"فرانز بلاي" في كتاب السينما، الذي أصدره "كورت بينتوس"، وهو أول مجموعة "نصوص سينمائية"؛ قدموا من خلالها نوعًا جديدًا من النصوص. صدرت المجموعة لدى "كورت فولف"، وكان قرارًا شائكًا لا يفيد، بالضرورة، سمعتهم الأدبية؛ إذ كان النقاش العام الدائر حول القيمة الفنية للسينما متأججًا، وزاده سخونة "خيانة" بعض الأدباء المرموقين، الذين سمحوا –مقابل مبالغ مغرية- بتحويل نصوصهم الأدبية إلى أعمال سينمائية، دون أن يكون لهم أي سلطة على تغيير النص: وصل، في عام ١٩١٣، كل من عمل "أطلنطيس" للكاتب "جيرهارد هاوبتمان" -كان الفيلم الأكثر تكلفة والأطول وقتًا- وعمل "نزوات" للكاتب "أرتور شنيتسلر" إلى دور العرض السينمائية. تمكن أدباء براغ من متابعة نشأة فيلم سينمائي عن قرب؛ إذ صورت معظم المشاهد الخارجية لفيلم "طالب من براغ" ("باول فيجنر" في دور البطولة) في براغ، في منطقة "هرادشين" على سبيل المثال.

لم يشعر الأدباء وحدهم باحتقار صفوة المثقفين لفن السينما، بل طال هذا الاحتقار ممثلي المسرح أيضًا، وربما بصورة أكبر، خاصة هؤلاء الذين قبلوا بالعمل لصالح هذه التقنية الجديدة. كان خبرًا صادمًا أن يقبل الممثل الشهير "ألبيرت باسرمان"، صاحب الستة والأربعين عامًا، الذي وصلت شهرته لدرجة تقليد المعجبين له، بدور البطولة في فيلم سينمائي: عمل "الآخر"، الذي يتناول موضوع "جيكل وهايد". كان عملًا مسرحيًا في الأصل، وقد كتب مؤلفه "باول ليندو" السيناريو أيضًا. دافع "باسرمان" عن قراره في الصحافة، ولكنه تجنب الدخول في النقاش الدائر حول اختلاف الجودة الفنية، غير أنه ادعى، بدلًا من ذلك، أن المتطلبات التمثيلية للفيلم لم تتغير إلا تغيرًا بسيطًا – لم يكن ذلك مقنعًا بشكل كبير؛ لأن أي هاوٍ كان يلاحظ الاختلاف في حركة الممثلين الذين لهم خلفية مسرحية عن هؤلاء الذين تعلموا التمثيل أمام الكاميرا. قرأ كافكا، أيضًا، هذا التعليق الصغير عندما أعيد نشره في جريدة "بوهيميا" في يناير لعام ١٩١٣. أصابه الحماس، حينما سمع عن اقتراب موعد ظهور "باسرمان" على الشاشة. حان الموعد مع بداية مارس، وكتب إلى "فيليس باور" :

"وقفت، اليوم، مع ماكس، وزوجته، و"فيلتش" في الحجرة المؤدية إلى قاعة العرض السينمائية «... » حيث كانت هناك صور معروضة من مشاهد فيلم "الآخر". قرأت عنه بالتأكيد؛ سيقوم "باسرمان" بدور في الفيلم، وسيعرض، هنا، الأسبوع القادم. لقد تأثرت كثيرًا، حينما رأيت "ب" على إعلان وهو جالس على الكرسي، مثلما حدث في برلين، وكنت أمسك بكل من ماكس، أو زوجته، أو "فيلتش"، وأسحبهم رغمًا عنهم للوقوف أمام هذا الإعلان. لم تحظَ الصور الفوتوغرافية بإعجاب كبير مني؛ إذ كان واضحًا

أنه يمثل في عمل مأساوي. اتبعت المشاهد المصورة اختراعًا تقنيًا قديمًا لصناعة السينما؛ فاللقطات اللحظية لفرس قافز جميلة في معظم الأحيان، أما الوجه البشري المكفهر لمجرم، حتى إن كان وجه "باسرمان"، قد لا يوحي بأي شيء. قلت لنفسي: يبدو أن "ب" قد تورط في هذا العمل الذي لا يليق به، ولكنه عايش الأحداث في العمل، وحمل إثارتها، من البداية وحتى النهاية، في قلبه، وما يعيشه هذا الإنسان يستحق، دون شك، مشاعر الحب. حكمي في هذا الشأن صائب، حتى إن كان يفوق حدود قدراتي. كنت أنتظر منذ وهلة فتح البوابة، وأتأمل الليل من حولي، وتذكرت الصور الفوتوغرافية للممثل "ب"، متعاطفًا معه كأنه أتعس إنسان في الوجود. أتصور أن الاستمتاع باللعبة قد انتهى؛ الفيلم انتهى، ولن يتسنى للممثل "ب" فرض تأثيره عليه، ولا يجب عليه إدراك أنه سمح بسوء استغلاله، ولكن بإمكانه، مع تأمل الفيلم، إدراك عدم جدوى مجهوده الجبار – ولا أبالغ في شعوري بالتعاطف. سيتقدم به العمر، وسيصير أكثر ضعفًا، وسيُزاح الكرسي الذي يجلس عليه، وسيختفي مع الزمن المنسي. كم أنا مخطئ! يكمن، هنا، خلل في حكمي، حتى مع انتهاء الفيلم، سيظل "باسرمان" هو الشخص ذاته وهو عائد إلى منزله. حينما ينسحب كلية، سيكون الأمر بالفعل كذلك، وسيغيب، ولكنه ليس مثل طبيعة غيابي أنا، الذي أتهم به الآخرين أيضًا. أحوم حول نفسي، مثل طائر منعته لعنة ساحرة عن عشه، ولكنه يظل يحوم حول العش الفارغ، ولا يغفل عنه."[١٥٥]

إنه أكثر تعليقات كافكا عن السينما حجمًا وترابطًا. لم يكن سبب التعليق مشاهدة الفيلم، بل مجرد رؤية صور لبعض المشاهد. يظهر كافكا بوصفه خبيرًا؛ يعرف الاختراعات "القديمة" في هذا الوسيط

الذي لم يتخطَ عمره جيلًا واحدًا، كما أنه على علم بالاتهام الموجه إلى "باسرمان" بأنه "سلم نفسه"، وسمح "بسوء استغلاله" – وجد نفسه، بعد عدة أيام من مشاهدة الفيلم، مؤيدًا لهذا الحكم.[١٦] ولكنه لم يهتم بالعمل والعرض بالأساس، تمامًا مثلما فعل مع عرض هاملت في برلين. إنه الممثل الذي يجذبه، ويتمايش معه لدرجة ربطه بتجربته الشخصية. تمثل السينما، لكافكا، وسيطًا يغمر أحاسيسه، ويقربه إلى حياة وظروف غريبة عليه، بأسلوب لا يعرفه المسرح – بداية من تأمل لافتات الإعلانات المتميزة، وانتهاءً بإعادة سرد المضمون الذي شاهده وتأليفه.

كانت السينما تدفعه إلى نسج هذا الخيال، ولدينا توثيق ـوقع مصادفةً ـ لإحدى هذه اللحظات (إنه اكتشاف للممثل والسينمائي "هانز ميشلر"). كان الفيلم الساقط والمشبوه "الجارية البيضاء" يعرض منذ يوم ١٧ فبراير ١٩١١ في أكثر من دور عرض في براغ. تتلقى سيدة شابة وعودًا كاذبة، يترتب عليها أنها تُساق، دون رغبة شخصية منها، إلى أحد بيوت الدعارة، ولكنها تجد من ينقذها من هذا المهر القسري. بعد مشاهدة كافكا للفيلم بأيام قليلة، ذَكّرَته مسافرة معه في القطار بشخصية "تاجرة الجواري" الشريرة. يقنع برود، في أثناء رحلة قصيرة إلى ميونيخ، شابة، تعرفا إليها في القطار، بأن ترافقهما في جولة للمدينة بسيارة الأجرة. يدون كافكا: "نركب السيارة، والموقف غاية في الإحراج؛ إذ يذكرني بفيلم "الجارية البيضاء"؛ إذ يدفع مجموعة من الرجال الغرباء بالبطلة البريئة، ليلًا على باب خروج محطة القطار، إلى سيارة، ويخطفونها." إنه تذكر مدهش، خاصة وأن هذا المشهد لا يستغرق أكثر من ثلاث ثوانٍ في الفيلم، ولكنه يظهر، بالفعل، شيئًا مختلفًا تمامًا، لا يلفت الانتباه: المخططة اللئيمة

وضحيتها، التي يعترض طريقها، من سلم محطة القطار إلى سيارة الأجرة، رجلان من المارة "صدفة"، ثم يستقلون معًا السيارة (دون إجبارها في هذه اللحظة). يتذكر كافكا، إذًا، الصورة ذاتها (امرأتين ورجلين)، بتفاصيلها وليس معناها؛ إذ يحدد هذا المعنى بحسب رغبته في لحظة التذكر، وفقًا لأفكاره المتداعية. من الواضح أنه جامع للقطات الشاشة، وهذا الشغف هو الذي يربط في عيونه لافتات الإعلانات الخاصة بالأفلام واللقطات اللحظية بالفيلم نفسه: يصل هذا الاقتراب لدرجة أنه قادر على تحويل الفيلم، المحدد زمنيًا، إلى مجموعة من الصور، ثم يعايش هذه الصور مرة أخرى. يستطرد: "يمر عجل السيارة فوق الأسفلت المبلل، مثل ماكينة السينما؛ ها هي "الجارية البيضاء" مرة أخرى."[17]

اغترب كافكا، في أثناء السنوات المظلمة للحرب العالمية الأولى، عن متع المقهى الغنائي، ومسرح المنوعات، والحانات. صارت زياراته للمقاهي نادرة، ويبدو أنه في أثناء إقامته في المصحات، التي امتدت شهورًا، بعيدًا عن حياة المدينة الليلية، لم يفتقد وسائل الترفيه البرجوازية، ولا مسارح براغ الكبرى. أما اهتمامه بالسينما فظل مستمرًا؛ فبحسب ذكريات برود، شاهد فيلم "أبي طويل السيقان" من بطولة "ماري بيكفورد" في عام ١٩١٩ أكثر من مرة: إنها قصة تحرُّر فتاة، كان ينصح أصدقاءه، وأخواته المتزوجات في هذه المرحلة، بمشاهدة الفيلم.[18]

كان فيلمه الأخير مجرد حلم. كان البراغيون يستمتعون بهذا الفيلم ونجاحه الساحق، في حين أن عرضه الأول في ألمانيا تأخر إلى بداية نوفمبر عام ١٩٢٣ في برلين، وكان من الممكن أن يصل كافكا إلى دور

العرض بالترام. ولكنه لم يجرؤ على الدخول في جموع المشاهدين؛ فنوبات السعال والحمى كانت تمثل تهديدًا له. كتب إلى عائلته: "صرت حيوانًا منزليًا، حتى السينما لا أعرف عنها شيئًا." كان يبالغ قليلًا؛ إذ تابع برنامج العروض السينمائية من خلال الجرائد اليومية، وتعجب، في بداية يناير، من امتداد عرض هذا الفيلم الاستعراضي القادم من هوليوود لشهور. [١٩] كان سيستمتع بهذا العرض مع صديقته الأخيرة، دورا ديامنت، بالتأكيد؛ إذ كان فيلمًا يبكي ويضحك معًا، ولكنهما لم يتمكنا من ذلك قبل رحلة كافكا الأخيرة: إنه فيلم "الطفل" للممثل "شارلي شابلن".

الموظف المساعد المثالي

"الصناعة هي أقسى عقوبات الرب."

يوزيف روت، فندق سافوي

لم يصادف رئيس شركة التأمين البراغية ضد حوادث العمل، السيد "أوتو بريبرام"، ذو الخمسة والستين عامًا، في حياته المهنية الطويلة موقفًا مشابهًا. حضر ثلاثة موظفين إلى مكتبه ليقدموا له، وفقًا للذوق العام، شكرهم الشخصي على ترقيتهم إلى درجة "كاتب". تسمحلهم هذه الدرجة، مستقبلًا، "بكتابة" المخاطبات الرسمية ونصوص أخرى، وإرسالها مباشرة للتوقيع إلى رئيس الشركة؛ أي إنها مستندات رسمية تترتب عليها مسؤوليات مالية قانونية للشركة، ولكن لا يجب أن تراجع كل عبارة فيها. لم تعن هذه الترقية التدرج في السلم الوظيفي؛ أي زيادة الراتب والحصول على حق المعاش فحسب - امتيازات يستغرق الحصول عليها في الهيكل الوظيفي النمساوي سنوات طويلة- بل كانت، قبل كل شيء، دليلًا على الثقة. كان أمرًا طبيعيًا أن يتجه الحاصلون على هذا التقدير، على هيئة وفد صغير، إلى مكتب الرئيس؛ ليلقوا كلمة الشكر المعتادة، التي قوبلت بالعبارات التشجيعية وإيماءات الرأس الرحيمة، تمامًا مثلما يحدث، عادة، في الزيارات

الملكية. لم يكن مقبولًا، على الإطلاق، أن يقوم أصغرهم عمرًا بإزعاج هذه الرسميات بضحكه الطفولي المستمر، الذي يبدو بلا أسباب.

ليست نوبات الضحك التي تأتي في غير سياقها في مواقف جادة أمرًا غريبًا: يحاول الشخص، قدر الإمكان، ألا يلفت الأنظار إليه، وأن يبحث عن عامل تشتيت يسمح له باسترداد سيطرته على الموقف. ظل كافكا التعيس عاجزًا، ولمدة دقائق طويلة تعذبه، عن التوقف عن الضحك، على الرغم من توتره المتزايد. النظر إلى بطن الرئيس المتحرك بنعومة كان كافيًا لإشعال الموقف، فضلًا عن العبارات الفارغة التي حفظها ورددها: ضحك كافكا في وجه رئيسه الأعلى مباشرة. لم ينجح مطلقًا –وهو يحاول السيطرة على هذا الضحك- في التركيز على تعبيرات وجوه زملائه؛ إذ وجدهم يضحكون مثله:

"حينما ردد بحركات يده كلمات تعد، عمومًا، من التفاهات (وهنا بشكل خاص)، صار الموقف فوق طاقة احتمالي. نسيت الدنيا، التي كانت دومًا حاضرة في عيوني، وبدأت في الضحك بصوت عالٍ، مثلما يضحك تلاميذ المرحلة الابتدائية، الجالسون على دككهم، من القلب. صمت الجميع، وصرت أنا بضحكي محور الاهتمام. كانت أضحك وركبتاي ترتجفان من وطأة الخوف، وصار زملائي يضحكون معي، ولكن لم يصل ضحكهم لقبح ضحكي المتمرس، ولم يلمح ضحكهم أحد. كنت أضرب صدري بيدي اليمنى؛ لإدراكي جريمتي من ناحية (متذكرًا يوم الصلح)، ولإخراج هذا الضحك من صدري من ناحية أخرى. قدمت اعتذارات لضحكي، وكانت كلها مقنعة، ولكنها ظلت غير مفهومة من كثرة ضحكاتي. اضطرب الرئيس، ولكنه وجد من وسائل المساعدة الممنوحة له ما ينهي هذا الموقف، عبارة تفسر

ضحكي الهستيري إنسانيًا؛ أظن أنه بسبب مزحة كان قد أطلقها منذ فترة طويلة، ثم تركنا في عجالة. خرجت، أولًا من المكتب، شخصًا لا يقهر، وبضحكة كبيرة، ولكنني متعثر في خطواتي، وفي منتهى التعاسة."

ذهب إلى ماكس برود؛ ليحكي ما حدث، وذهب إلى "إيفالد بريبرام"؛ ليطلب منه، بحق السماء، كلمة طيبة يقولها عنه إلى أبيه. وكتب رسالة إلى الرئيس المهان أيضًا، ولكنه لم ينسَ، قط، هذا العمل الذي لا يغفر، وحوله، لذلك، في رسالة لاحقة إلى مسرحية كوميدية هزلية من فصل واحد. [١]

تعود هذه النادرة إلى يوم ٢٨ أبريل ١٩١٠، وظل الزملاء يضحكون عليها بعدها بسنوات، ولكن يبدو أنها قد صدمت كافكا، الذي كان يخشى المواجهة مع السلطات. يعمل يهوديان فقط بالشركة، ثم يتصرف أحدهما بهذا الشكل، وتكون الضحية شخصًا يدين له بتعيينه في الشركة على الرغم من عيوبه. لم يعاقب كافكا على هذا التصرف، إذ لم يحصل على خطاب لوم، كما أن ملفه الشخصي لا يشير إلى أي هجوم تعرض له من قبل الشركة. كان لأدائه الوظيفي الفضل في ذلك، ولقد أدرك ذلك جيدًا.

مع فرض التأمين ضد حوادث العمل، والتأمين الصحي (الذي كان يغطي عدم القدرة على القيام بالعمل)، قامت المملكة الواقعة على نهر الدانوب في عام ١٨٨٩ بإجراء تحديثي هام؛ للتعامل مع الحركة الصناعية المتسارعة، وما صاحبها من توترات مجتمعية. كان أصحاب الأعمال يؤمِّنون على أنفسهم من قبل طواعية ضد حوادث العمل، ولكن كانت الدولة ترفض القيام بأي دعاية في هذا السياق؛ إذ عدت

قطاع التأمين الخاص جشعًا، ولا يخشى الدخول في قضايا عديدة، فضلًا عن تكاليف التأمين الخاصة الباهظة لوظائف أكثر خطورة، بل ورفض التأمين عليها في بعض الأحيان. في سياق آخر، اتفق المحافظون والاشتراكيون على أن كسب المال من وراء الكوارث عمل مشين، وكانوا يستندون، في هذا الرأي، إلى قامة في الخارج؛ المستشار الألماني. أعلن "بيسمارك"، في أثناء النقاش الدائر حول القوانين الاجتماعية التي طبقت في الرايخ الألماني قبلها بست سنوات: "أريد التعبير عن مبدأ مفاده أننا لا نقبل بأن تكون الحوادث والمصائب أساسًا مناسبًا لأرباح الفوائد والحصص، وأننا نسعى لتوفير التأمين ضد هذه المصائب بأقل ثمن ممكن." كما أضاف حجة مدهشة، مفادها أن الدولة، التي لا تعترف بذلك، عليها التخلي عن رعاية الفقراء والتعليم الإلزامي لصالح الشركات المساهمة. [٢]

لم تفضل السياسة النمساوية، عمومًا، هذه الكلمات الصريحة على مستوى سياسي عالٍ، ولكن نشأت، هنا، كتلة قوية من المصلحين الاجتماعيين المسيحيين، الذين دعوا إلى نموذج مجتمعي يقدم رعاية أبوية، وينظرون إلى المجتمعات الرأسمالية بوصفها سرطانًا متفشيًا. ولكن طالت، مع ذلك، فترة المباحثات في فيينا، وكذلك عملية تحديد المسؤوليات البيروقراطية، إلى أن وصلوا إلى تفعيل هذه الإصلاحات الضرورية. أُسست سبع شركات تأمين على المستوى المحلي –كانت أهمها في براغ– وكانت لها صلاحيات مثل الجهات الحكومية، ولكن بإدارة مستقلة، ويطلق عليها مصطلح "نصف حكومي". تشكلت مجالس الإدارة من ممثلين من العاملين، وأصحاب الأعمال، وممثلي الدولة. لذلك، كان كافكا محقًا حينما حذر خطيبته بقوله إنه "ليس موظفًا بشكل كامل"[٣]؛ لأنه كان بالفعل يحصل على مرتبه وتأميناته،

دون أن يكون "موظفًا حكوميًا". ولكنه كان، عمليًا، موظفًا حكوميًا بالفعل. ربما ظنت بعض الدوائر المراقبة للموقف، التي لا تملك معلومات كافية مثل والديه، أنه بانتقاله، من شركة "أسيكوراتسيوني جنرالي" إلى شركة التأمين ضد حوادث العمل، لم يغير إلا صاحب العمل، في حين أنه ما زال يعمل في المجال نفسه. انتقل كافكا، في واقع الأمر، وفي سياق السياسة الاجتماعية، من جبهة إلى أخرى؛ إذ لم يعد يعمل في خدمة هامش صافي الربح المجرد، بل في خدمة مصالح المؤمن عليهم، وسوف يكون لذلك تأثير كبير على حياته الوظيفية اليومية.

كان كافكا يعي تمامًا أنه، بحسب معايير رؤسائه السابقين، صار الآن موظفًا لشركة مفلسة باستمرار، لن تنجو في الشهور الثلاثة القادمة دون الحصول على أموال الضرائب. كانت شركة التأمين ضد الحوادث الحكومية تعاني عجزًا في ميزانيتها؛ ففي أول عام لكافكا في الوظيفة، بلغ هذا العجز ثلاثة ملايين ونصفًا من الكرونات في براغ فقط، ومن ثم جرى الحديث في أوساط رجال الصناعة، والسياسيين الأحرار أيضًا، عن فشل هذا الإصلاح. ولكن ما سبب هذا الفشل؟ عدّ أصحاب الأعمال سداد العاملين لعشرة في المائة فقط من مبلغ التأمين، وتحملهم هم باقي المبلغ، نوعًا من الظلم بالطبع. ولكن مع إعادة الحسابات، يتكشف أن هذا التأمين الجديد لا يمثل سوى واحد ونصف في المائة من متوسط الزيادة في الأجور. حاول أصحاب الأعمال، مع ذلك، تخفيض هذا الالتزام المعقول، والهروب منه أيضًا، بكل السبل السياسية المتاحة؛ إذ أصرت جميع القطاعات على أن تقدير مخاطر الحوادث في مجالها كان تقديرًا ظالمًا (في حين أن العكس كان هو الصحيح). كان من الممكن أن تقدم الإحصائيات الدقيقة عن الحوادث حججًا قوية لمواجهة هذه المعارضة، ولكن لم تتوفر هذه الإحصائيات بعد. كان التغيير هنا مطلبًا أساسيًا؛ لذا

بحثت شركات التأمين عن موظفين لا يفهمون الجانب التقني، أو يظهرون حماسهم للعمل فحسب، بل قادرين، كذلك، على التوصل لاتفاقات رابحة مع نوعية مزعجة من العملاء؛ أي عن موظفين بأفكار جديدة.

الخوف من المسؤولية، وضغوط العمل، وساعات العمل الإضافية؛ لم يكن كل هذا معطيات مناسبة للعمل في شركة تأمين اجتماعية، ولم يكن ذلك، أيضًا، هو المكان المناسب لنمط الموظف الهادئ، الذي تعرضه اليوم "مزحات الموظفين" بشكل كاريكاتيري، خادم الدولة المتشبث باللوائح، والمتجنب لكل حركة مستقلة. انطبق ذلك على المؤسسات في بوهيميا بشكل خاص؛ لأن هذا البلد التابع لإمبراطورية هابسبورج لم يمر، منذ عقود، بتحول سريع إلى الصناعة، ممتد إلى المناطق الريفية، فحسب، بل إن التنافس بين القوميتين قد خلق هنا، أيضًا، العديد من الأوضاع المعقدة إداريًا، التي لا يمكن حلها إلا بمهارات خاصة وقدرة صابرة على الحوار. كانت هناك اتحادات لرجال أعمال ألمان وتشيكيين، ومحافظ ألماني، وغرف تجارية يسيطر عليها التشيك، وحتى في تنظيمات العمال لم يكن في حالات الصراع واضحًا ما إذا كانوا سيمثلون حزبهم ("الديمقراطي الاجتماعي" خصوصًا)، أم طبقتهم الاجتماعية، أم قوميتهم.

مدى توغل هذه الجبهات داخل شركات التأمين البراغية أمر غير معلوم؛ إذ كانت هذه المؤسسات، بحسب لائحتها، متجاوزة للقوميات، وملتزمة بالحيادية التامة، ولكن ليست الجهات الحكومية الرسمية مناطق خالية تمامًا من الأيديولوجيات، حتى إن لم تعين من هم أصحاب نزعة قومية صريحة، فقد كانت هناك قواعد خاصة لا تختلف عن تلك القائمة في مكاتب براغ الأخرى: عمل التشيك والألمان جنبًا إلى جنب، ولكن

كان كل طرف يراقب الآخر، ويفضل في حال مناقشة موضوعات بعينها -مثل القومية- أن تكون مناقشات خاصة؛ إذ لم يكن "التسييس" أمرًا مرغوبًا، خاصة حينما تكمن خطورة في ذلك، مثل الاشتباكات بالأيدي التي كانت تحدث "خارج المكاتب" بين الألمان والتشيك. مر كافكا بمواقف مماثلة مرات عديدة، وإن لم يقع التصعيد الذي حدث في المدينة في عام ١٨٩٧ مرة أخرى خلال هذا العقد، حينما اضطرت العائلة إلى تحصين منزلها بمتاريس. لم يتكرر هذا النمط مرة أخرى إلا مع بداية ديسمبر، كأنهم مدربون "تاريخيًا": "الاستفزاز" من خلال طلاب ألمان أصحاب توجه قومي، مجموعة تشيكية تقذف الحجارة، وإسقاط للافتات المحلات الألمانية، واشتباكات في منطقة "جرابن" وميدان "فينسلس بلاتس"، ثم إسقاط للحربات، وتدخل لعساكر الجيش بخيولهم، ثم يصدر القيصر الأحكام العرفية – ثم يعم الهدوء فجأة.

لم يتأثر مبنى شركة التأمين بالأحداث، وظل زجاج النوافذ سليمًا. ولكن شاب هذا الحفاظ على التعامل في المكتب، والتواصل الهادئ بين الألمان والتشيك، شيء غير طبيعي، حينما نتذكر أن الدماء تسيل على مسافة مئات قليلة من الأمتار، وأن التشيك، البالغ عددهم في براغ ٤١٥٠٠٠ وقتها، كانوا يستطيعون طرد الألمان، البالغ عددهم ٣٥٠٠٠، بمنتهى السهولة من المدينة -ولكن حال ضعف تخطيطهم دون حدوث ذلك، كما حللت الصحف الألمانية. عرف كافكا من الصحافة أن ابن عمه الأكبر الألماني، قوي البنيان، برونو كافكا، الذي صار وقتها مدرسًا بالجامعة، قد تعرض لضرب مبرح في الشارع. وعرف أن المسألة موجهة، مرة أخرى، ضد اليهود. لم يكن كل ذلك موضوعًا لأحاديث المكتب، ولكن بعض الموظفين، الذين كانوا يهزون، علنًا، رؤوسهم في قلق، لم تتسم آراؤهم بالحياد قطعًا. كانت النزعة القومية

كامنة هنا؛ مثل سائر المكاتب في براغ، وسيتضح بعد الحرب العالمية عدم تخلصهم منها على نحو فج؛ إذ اتُّهِم المديرون الألمان بالنصب؛ لأنهم فضلوا التعامل مع الشركات الألمانية. [4]

قد تكون لهذه الحجة منطقها على الصعيد السياسي، ولكنها كانت حجة ساذجة على الصعيد الموضوعي. التجمعات القومية داخل كل فريق كانت تحب الإتيان بحجة تفضيل الشركات الألمانية أو التشيكية؛ لتبرز إنجازاتها الشخصية، ولكنها كانت ضربًا من الخيال في كثير من الأحيان. كان لكل جانب قطاعاته التي تميز فيها: التشيك في مجال صناعة الماكينات والإنتاج الغذائي، والألمان في صناعة المنسوجات وصناعة الزجاج والسيراميك، فضلًا عن وجود اختلافات في المناطق: سادت القوى الألمانية أطراف غرب بوهيميا، في حين أن الصناعة التشيكية توطنت في مركز بوهيميا، بما في ذلك براغ. ولكن ما الشركة التشيكية تحديدًا؟ الشركات الهامة كانت تعمل بشكل متزايد برأس مال من الأسهم مجهولة الملكية، وتَكَثَّف وجود أصحابه في عاصمة الرايخ فينا، وليس في بوهيميا على الإطلاق – وإن كان جميع الموظفين يتحدثون التشيكية. غير أن رجل أعمال ألمانيًا في منطقة "رايشنبرج" – مدينة صغيرة في منطقة صناعية، سيتعرف عليها كافكا لاحقًا– فضل عدم تعيين الألمان والاستعانة بالتشيكيين المتنقلين إلى المدينة؛ لأنهم قبلوا برواتب أقل، في حين أن "الزملاء الألمان "قبلوا –طواعية أو رغمًا عنهم– بأعمال على الجانب الآخر من الحدود في منطقة "ساكسونيا".

كان الاقتصاد البوهيمي منطقة ملغمة؛ تشابكت فيها الصراعات بين الألمان والتشيك، بين رجال الأعمال والعمال، بين المصانع الكبرى والحرف متوسطة الحجم، بين المناطق وفروع الصناعات المختلفة، وحتى

بين المذاهب. كان تشابكًا قد أدى إلى اضطراب للرؤية لدرجة أن أي إجراء حكومي شامل، مثل التأمين الصحي أو التأمين ضد الحوادث، كان بحاجة إلى أعصاب قوية ليطبقها متحكمًا في هدوء. كان كافكا يدرك تمامًا ما ينتظره؛ لأن هذه الأوضاع المتردية كانت معروفة رسميًا. لم يعد أي قارئ للجرائد يؤمن بخرافة الأحرار أن "التنافس" العام سيدعم انتعاش بوهيميا على المستوى المادي؛ وبالتالي على المستوى الاجتماعي. حتى القاموس النمساوي لعلوم الدولة كان لديه تفسير أفضل للموقف:

"إنها ظاهرة تستحق الاهتمام؛ فقانون التأمين ضد الحوادث لم ينجح، خلال تطبيقه في الخمسة عشر عامًا الماضية، في الاندماج؛ إذ لم يتمكن من نيل رضا أي من المجموعات الواردة. اشتكى هؤلاء جميعًا بصوت عالٍ: المؤسسات التي تحملت عبئًا كبيرًا بسبب قانون التأمين ضد الحوادث، والمؤمن عليهم، سواء من دفع مبالغ قانونية بسيطة أو من أعفي من سداد المبالغ في مؤسسات عديدة، وشركات التأمين ضد الحوادث، وأخيرًا وليس آخرًا الجهات الرسمية المسؤولة عن تنفيذ القانون. بدلًا من تسوية القانون للتناقضات الاجتماعية، اشتعلت بين الدوائر المهتمة حرب الجميع ضد الجميع. «... » تمثل شركات التأمين التي لا تعاني من أي نوع من الديون هدف هذا الهجوم، وتنعت، علنًا، بأنها المؤسسة "الأكثر إثارة للبغض"."[٥]

توجه كافكا، صباح يوم ٣٠ يوليو عام ١٩٠٨، في الساعة الثامنة إلا الربع صباحًا، لأول مرة إلى مقر عمله الجديد. كان الطقس دافئًا، ولكنه معكر ورطب، وضبابي بعض الشيء. سار بطول زقاق "نيكلاس جاسه"، وعبر الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، ثم قطع زقاق "سيلتنر جاسه" بطوله كاملًا، ليمر على بعض المنازل التي

سكنها قبل ذلك، ويمر من أمام برج "بولفر" أيضًا. بعد أن عبر ميدان "برزيفز بلاتس"، توجه إلى شارع "بوريتشر شتراسه" ("نا بورشيتشي" باللغة التشيكية)، ليصل إلى مبنى من خمسة أدوار، ببوابتين وقبة ضخمة، وبواجهة فاخرة شبه كلاسيكية. كان هذا هو مقر شركة تأمين العمال ضد الحوادث في المملكة البوهيمية في براغ، كُتب اسم الشركة بحروف ضخمة وبلغتين على واجهة المبنى كاملة. كان للمبنى بالداخل مصعد واسع، ولكنه ثقيل الحركة، وعامل خاص بالمصعد. كافكا، الذي كان يتأخر دومًا بضع دقائق، فضل لاحقًا الركض على السلم، على الرغم من أن مكتبه كان في الدور الأعلى.

إنه يعاني، منذ بضعة أيام، حالة من الاكتئاب، وكان من الصعب عليه شرح هذه الحالة لعائلته وأصدقائه. ألم تتحقق، للتو، أكبر أمنياته؟ لقد حصل، بوصفه يهوديًا، "ببساطة"، على وظيفة مطلوبة للغاية؛ لا يذهب للعمل إلا مرة واحدة، ويقضي ست ساعات. إنها وظيفة لا تتطلب دراسة الملفات -كما اضطر ماكس برود لأن يفعل لسنوات عديدة في إدارة البريد ببراغ- بل كان الجمع بين مجالات عديدة في عمله متاحًا؛ مجالات مفيدة اجتماعيًا تمنحه الشعور الشخصي بالنجاح والاندماج فيما يقوم به. منحته الدورات المسائية عن تقنيات التأمين، التي عرفته برؤسائه في المستقبل، صورة دقيقة لما ينتظره في مكان عمله الجديد: كانت مؤسسة تعمل في مناطق شائكة اجتماعيًا، ولكن توفرت له كل سبل الأمان.

لم يشعر بالسعادة مع كل هذا. قضى أيام استجمام قليلة في منطقة غابات بوهيميا، وذكرته، مرة أخرى، على نحو مؤلم بشكل السعادة الحقيقي: "تطير الفراشات هناك على مستوى طيران السنونو عندنا

نفسه." اختفت البلاد الغربية، التي كان يحلم بها، خلف الأفق، في الأغلب إلى الأبد. الحياة في مدينة أخرى؟ أمر غير وارد على المدى الطويل، لا يمكن التفكير فيه في السنوات المقبلة. لقد علق في براغ؛ تلك المدينة التي أراد يومًا إشعال النار فيها. حتى الرحلات التي يستطيع تحملها من ماله الخاص، كانت خاضعة لإطار زمني ضيق، لعقود قادمة. انطبق ذلك على محاولاته الأدبية أيضًا، التي ذهبت مع الريح، في ظل حياة يومية رتيبة، وعقل تشغله هموم العمل. لقد حُددت المسارات، ولم يعد هناك مجال للاختيار. أظلمت مساحة الخيال، التي كانت ساحة للعب بالمشاريع والأحلام والهروب. دخل كافكا، في يوم ٣٠ يوليو ١٩٠٨، إلى عالم الحياة البرجوازية، التي لن يحرره منها سوى إجراء عنيف. كان عنوان دخوله السجن هو "نا بورشيتشي" رقم ٨. قريبًا، سيصير من نوعية البشر التي يمقتها: "تمثل آخر دقيقة عمل نقطة الانطلاق إلى المرح."[٦]"

مر كافكا في شركة التأمين ضد الحوادث بمرحلة اختبار أيضًا؛ إذ عمل، خلالها، "موظفًا مساعدًا" يحصل شهريًا على ١٢٠ كرونة – مرتب عامل مصنع– وضع في أكثر من قسم، ثم قُيِّم داخليًا. بقي، في ملفه الوظيفي، التقييم الذي حصل عليه في "قسم تقنيات التأمين"، الذي قضى فيه شهوره العشرة الأولى. يتضح، من خلال التقييم، أنه انشغل في البداية بموضوعات إحصائية؛ إذ عرف هذا الاختبار لانضباطه في العمل من تجربته في شركة "أسيكوراتسيوني"، وجاءت بعد ذلك المراسلات التي ترتبت على الاحتجاجات الضخمة التي تقدم بها أصحاب الأعمال. من الواضح أن كافكا قد صاغ، في هذه المرحلة المبكرة، النسخة الأولى من خطابات احتجاجات على مبالغ التأمين الباهظة، وجهها أصحاب الأعمال، في مرحلة ثانية، إلى وزارة

الداخلية في فيينا. تسنى له القيام بذلك باللغة الألمانية؛ إذ عادت المراسلات الإدارية الداخلية في النمسا، منذ عام ١٨٩٩، إلى اللغة الألمانية مرة أخرى، بعد أن ألغيت في العام ذاته قرارات "باديني" المتعلقة باللغة. ولكن كانت قدرة كافكا على قراءة المراسلات مع أصحاب المصانع، والمحامين، والمراقبين، وضحايا الحوادث التشيك، وتبادلها في سنوات لاحقة، مؤهلًا له أهمية خاصة.[٧]

يبدو أن رئيسه المباشر في العمل، رئيس القسم الذي يبلغ ٤١ عامًا "أوجين فول"، قد لاحظ سريعًا أن الرجل الجديد ليس موهوبًا لغويًا فحسب، بل قادرًا أيضًا على تقديم حجج قانونية دقيقة مع الوضوح التام في عرضها؛ أي إنه صاحب قدرات خاصة، لا يملكها أحد بهذا التكوين إلا أفضل المحامين. كان بديهيًا أن يكلف الدكتور كافكا، في أقرب وقت، بصياغة النصوص الموجهة إلى الرأي العام وأصحاب القرار السياسي؛ لما تتطلبه من سهولة الاستيعاب، وصحة المضمون في الوقت ذاته.

نجح كافكا، إذًا، في أهم اختباراته بوصفه كاتبًا رسميًا بعد مرور شهور قليلة على تعيينه. كانت المناسبة تقرير الحساب السنوي الذي تقدمه المؤسسة باللغتين الرسميتين. كان التقرير، عادة، عبارة عن كشف حساب، بتعليقات قليلة، ولكن، هذه المرة، كان الهدف منه توضيح موقف المؤسسة من قضية مثيرة للجدل. تعلقت المسألة بالتأمين الإجباري في مجال البناء، الذي أراد محامو أصحاب الأعمال تفسيره في أضيق الحدود؛ إذ رأوا أن واضع القانون لا يريد إلا تأمين العمل في موقع البناء فحسب. ولكن ماذا عن آلاف الموردين؟ الحجار، مثلًا، الذي يعمل مع العديد من المساعدين في ورشته، والحرفيون الذين

يصنعون السقالات والأجزاء المعدنية والبطانات، ثم العمال الذين ينقلون كل هذا إلى موقع البناء؟ كان هؤلاء جميعًا ينتمون إلى فئة "تابعة لمجال البناء"، ولم تكن حوادثها أقل خطورة، وكانت حربًا ضد مقاومة أصحاب الأعمال من أجل فرض التأمين الإجباري: من خلال قرار للمحكمة الإدارية صدر في عام ١٩٠٦ (وصف، في النمسا، بأنه "اعتراف"). حكمت المحكمة ذاتها بالنقيض في بداية عام ١٩٠٨؛ إذ عادت لتستبعد الفئات التابعة لمجال البناء؛ لتجبر شركات التأمين ضد الحوادث على التراجع عن إجراءاتها البيروقراطية. كانت مقالة كافكا المتخصصة علميًا بعنوان حجم التأمين الإجباري في مجال البناء والمجالات التابعة للبناء بمنزلة نداء ضروري للاحتكام إلى العقل؛ إذ لم يقتصر على تحليل قرار المحكمة الأخير والغريب، بمنتهى البرود، بل أوضح لجميع الأطراف أن شركة التأمين لا تملك العمل بكفاءة في ظل هذه الأوضاع القانونية المضطربة، ناهيك بالشعور بفقدان بالثقة، الذي اعترى العمال، بعد عدم اقتناعهم بتوقف دفع التعويضات على التوقيت المحدد لوقوع الحادثة.[٨]

حرر كافكا هذه المقالة مع نهاية عام ١٩٠٨، أي بعد ستة أشهر من تعيينه تقريبًا، وراجعها "أوجين فول"، وحرر مترجم تابع للمؤسسة الترجمة التشيكية. اكتسب هذا المنشور أهميته من توافقه مع الاستراتيجية الجديدة لهذه المؤسسة البراغية؛ مثل إعداد هيكل للعلاقات العامة، ومواجهة سمعتها بوصفها مؤسسة اقتصادية سيئة على نحو فعال. لم تكن الإدارات العامة، عادة، في حاجة إلى هذا النوع من الإجراءات؛ إذ كانوا يتواصلون عبر المراسيم، والإعلانات المنشورة في الصحافة اليومية، التي كانت تغفل كثيرًا في أثناء القراءة. أما شركات التأمين ضد الحوادث فكانت بحاجة إلى التأثير المشترك لمجموعات اجتماعية

واتحادات، من كانوا يستطيعون التنغيص على شركات التأمين، إن أرادوا ذلك. ومن هنا، جاء القرار، بعد صدور الحكم القضائي الخطير المتعلق بمجال البناء، بالتواصل المباشر مع أصحاب الأعمال المعنيين: طُلِبَ منهم الاستمرار في التأمين طواعية؛ لتفادي الظلم، والفوضى، البيروقراطية، من ناحية، ولحماية أنفسهم من خلال التأمين من ناحية أخرى. مثلما كانت الحال في الماضي، كان العمال سيطالبون قضائيًا بتعويضات ومعاش، في حال تعرضهم لحوادث وهم بلا تأمين وبلا ذنب شخصي. بالفعل، لم يُرفض هذا "المنشور"، الذي أُرسل في ٤٠٠٠ نسخة، إلا من ربع الحالات فقط - إنه نجاح للدبلوماسية الجديدة.

كان المنشور الرسمي الثاني لكافكا يهدف إلى الاحتجاج على قرار منفصل عن الواقع، اتُّخِذ في فيينا البعيدة، دون اتفاق مسبق. تعلقت المسألة بمشكلة تقنية ملحة، تولى أمرها الاقتصاد الخاص حتى هذه اللحظة؛ أي التأمين على السيارات، مشتملًا التأمين على السائقين، الذين كانوا في الأصل سائقين، أو ميكانيكيين، معينين في وظيفة ثابتة. على الرغم من كون السيارات من السلع الترفيهية -سيارة عادية من الممكن أن تكلف مديرًا لكافكا أضعاف دخله السنوي مثلًا- فإن عددها قد بلغ الآلاف في النمسا. بدا أنها تكاثرت مثل البشر، وزادت قوتها في الأداء. ترتب، على ذلك، زيادة احتمالية وقوع الحوادث؛ ليس في الشوارع فحسب، بل في الجراجات أيضًا، في أثناء أداء الصيانة المكلفة. ما أتيح لأصحاب السيارات، حتى هذا الوقت، هو التأمين الخاص، أو الدفع من المال الخاص في موقع الحادث، وكان هذا يحدث كثيرًا. كان المطلوب، الآن، هو السيطرة الحكومية على هذه المخاطر الجديدة، التي كان التنبؤ بها صعبًا، فضلًا عن ضخامة رسوم مسؤوليتها القانونية.

ولكن أي الجهات الإدارية ستكلف بهذه الأعمال الجديدة؟ الشركات الحكومية للتأمين ضد الحوادث موجودة، ولكنها مسؤولة، بحسب لائحتها، عن المؤسسات فحسب. تطلب الموقف اللجوء إلى المحامين المعنيين بالشؤون الإدارية، وخطر على بال واحد مجهول منهم فكرة ذكية: ماذا لو اعتبرنا مجموعة من السيارات مؤسسة من رجل واحد، والملاك من أصحاب الأعمال؟ انتهت المشكلة بأناقة، ولكن في يوم الإعلان عن هذا الهراء البيروقراطي، الموافق ٩أغسطس ١٩٠٨، كان المعنيون في شركة التأمين البراغية في حيرة شديدة من أمرهم. كم عدد السيارات في بوهيميا؟ ومن يملكها؟ هل كانوا يتمتعون بالتأمين بالفعل، وهل من الممكن فسخ العقود القديمة، أم سيستمرون فيها؟ وجب، أولًا، العثور على إجابات لهذه التساؤلات من خلال مراسلات ضخمة. كان عزاؤهم الوحيد أن الشركة لن ترسل الموظفين إلى سباق السيارات أيضًا؛ لأن لهؤلاء تأمينًا خاصًا سيستمر.

تُرك العرض الدقيق لعواقب ما حل بشركة التأمين، مرة أخرى، للدكتور كافكا صاحب الأفكار، ونُشر تقييمه في تقرير المحاسبة لعام ١٩٠٨. مثل تقييمه الأول، ينجح في عدم استخدام أي وسائل هجومية، ولكنه أثبت بحجج دقيقة أن المسؤولين في الوزارة ليس لديهم أدنى فكرة عن المعطيات التقنية والقانونية، وأن الإدارة الحكومية في براغ قد تُركت وحدها في مواجهة المؤسسات الثماغاتة. لم يفكر أحد حتى في التفرقة بين السيارات بالمحركات القوية والمحركات الضعيفة. لذلك، لم يتسنَّ لنا تنفيذ القرارات المحددة التي جاءت من فيينا إلا "في إطار قابليتها للتطبيق، وقبول المؤسسات لها"، و"بعد القيام بعدة تعديلات". بذلك، يكون كافكا قد وصل إلى أقصى قدر ممكن من النقد السياسي المتاح في منشور رسمي كهذا.[9] (كان لديه بهذا الحدث مضمون لحكاية

طريفة؛ قد يقصها لصحبة مرحة داخل إحدى سيارات الأجرة، التي انتشرت في شوارع براغ منذ عام ١٩٠٧).

فكرة التعامل مع هذه المشاكل بأسلوب هجومي، وحلها بالتوجه المباشر إلى الأشخاص المعنيين، هي فكرة "روبرت مارشنر"، الحاصل على الدكتوراه في القانون، المحامي وسكرتير شركة التأمين، الذي كان يعمل، في الوقت ذاته، عضو هيئة تدريس في كلية الهندسة الألمانية، ومديرًا للدورات التدريبية المقدمة في الأكاديمية التجارية. "مارشنر"، صاحب الثلاثة والأربعين عامًا، الذي سيلعب دورًا قدريًا في حياة كافكا لاحقًا، دعم في الأغلب تعيينه؛ إذ، مع كثرة عدد المتقدمين، كان الانطباع الشخصي الذي أخذه من الدورات المسائية عنصرًا داعمًا للاختيار. كان هناك استلطاف متبادل بالتأكيد؛ إذ انبهر كافكا بتجسيد الآخر للخبير النشيط، الذي اندمج تمامًا في عمله، ويملك معرفة مفصلة وموهبة تنظيمية، مع عدم إغفال السياق الاجتماعي لعمله. جسد "مارشنر" هذه التوليفة النادرة من التكنوقراطي، والبيروقراطي، والمصلح الاجتماعي الطموح – لم يكن يقف على "الهامش" السياسي، وإلا ما كان ليمثل هذه المؤسسة، ولكنه كان مقتنعًا أن هناك من الوسائل الإدارية ما تتيح تحسين أحوال العمال، وأن تأمينهم الاجتماعي يجب أن يكون في أيادٍ حكومية، وليس تابعًا للاقتصاد الخاص. [١٠] يتجلى موقفه هذا في مجموعة صغيرة من كتاباته المنشورة، التي ثبت صحتها في أثناء سنوات الحرب اللاحقة، حينها قبل طواعية بمهام وظيفة أخرى، مما أخجل تواضع كافكا. اهتمامات مارشنر الأدبية كانت –مثلما حدث في شركة "أسيكوراتسيوني" ـ من عطايا القدر السعيدة، التي سهلت التعاملات مع رؤساء العمل قليلًا، ولكن لم يكن لها دور حاسم على الإطلاق. كان مميزًا لشخص كافكا أنه لم يربط

استلطافه العفوي لأشخاص معينين بوجود اهتمامات مشتركة، أو خبرات بالمجال الفني، ويظهر ذلك جليًا في أحكامه على الزملاء في العمل. مدح زميله "اليهودي الوحيد" "زيجموند فلايشمان"، دون أي سخرية، أو تقليل من شأن "أسلوبه في العمل"، ولم يذكر "عدم اهتمامه بالأدب" إلا على الهامش. [11]

نشأت، فيما يبدو، علاقة خاصة بـ "مارشنر" في مرحلة مبكرة، وإلا فما من تفسير آخر لاختيار كافكا تحديدًا ليحرر كلمة المديح الموجهة باسم الزملاء إلى "مارشنر" بمناسبة توليه منصب مدير الشركة في مارس عام ١٩٠٩؛ إذ كان حينها موظفًا حديثًا في مرحلة الاختبار، ولكن لم يمنعه ذلك من الثناء الشديد على شخص "مارشنر": "يستحق هذا الاختيار الترحيب. هنا، يتقلد رجل منصبًا يليق به فكريًا حقًا، ويحصل هذا المنصب على الشخص المطلوب له." من الصعب تصور أن كافكا قد ألقى هذه الكلمة (حتى مع جهل المحيطين به بميله إلى نوبات الضحك). ما يلفت الانتباه أنه قام -بصرف النظر عن العبارات المعهودة- بوصف قدرات "مارشنر" المتخصصة بأجمل الكلمات، مؤكدًا على مبادئه الاجتماعية؛ ليظهر بصياغته التي اختارها في إلقائه تأثره الداخلي: "سيبهر الخبراء من كتاباته، ومن عمله الوظيفي، ومن شخصيته، بإحساسه القوي والحيوي بوضع العمال، الذين وجدوا فيه صديقًا قديرًا." يبدو أن كافكا قد شعر هنا بالخطر، "ولكنه سيحترم دومًا الحدود، التي ستضعها القوانين والأوضاع الاقتصادية الراهنة لمجهوداته في هذا الاتجاه. لهذا السبب ليس لديه أنداد، بصرف النظر عن المجال العلمي ربما، وإن كان الوضع كذلك فستكون، في الأغلب، ندية تعيسة." [12]

لاحقًا، اشتكى كافكا، مرارًا، من أن عمله في الوظيفة قد جلب له أشباحًا؛ خاصة بسبب نسبة التجريد الكبيرة التي تصاحبه. التعامل مع تصنيفات لدرجة الخطورة ونسب المخاطرة، وتحديد مبالغ التأمين، والمواجهات بالوسائل القانونية والخطابية مع أصحاب الأعمال الرافضين للدفع ـ ظلت هذه هي مهامه التي شغلت معظم ساعات العمل حتى انتهاء حياته الوظيفية. كانت روتينًا بلا روح، ولكن لهذه المراسلات مع الواقع، عبر استمارات إحصائية، جانبًا آخر مضحكًا، لم يفت على كافكا، وألهمه، لاحقًا، على الصعيد الأدبي. المشاهد العبثية لتوزيع الملفات في رواية "القصر" ("لم يرغب في سلوان، بل في ملفات.") ترجع إلى ماكينة البيروقراطية، التي كانت تُغذى بآلاف المستندات يوميًا. تخيل كافكا أن إلهًا إغريقيًا قد ينشغل بإدارة ملفات مملكته لدرجة أنه لن يجد الوقت لرؤية أرجائها: "جلس "بوزايدون" على مكتبه، وظل يقوم بعمليات حسابية."[١٣]

ربما تأثر كافكا، هنا، بتنهيدة أطلقها مديره وهو يحاول السيطرة على حجم عمل يفوق قدراته البشرية؛ إذ لم ير ربما من المناطق الصناعية في بوهيميا ـ التي من المفترض أن يُقيم فيها أوضاعًا أكثر إنسانية ـ أقل من المطلوب لعمله. ولكن كان التعرف على المناطق التي يتولاها الموظفون جزءًا من التدريب الداخلي بالطبع؛ كأن يتعرفوا، مثلًا، على الاختراعات التقنية، وإجراءات الحماية في المناطق نفسها. قام كافكا نفسه، في عام ١٩٠٨، برحلتي عمل؛ رحلة إلى شمال بوهيميا لأكثر من يوم، ورحلة قصيرة إلى منطقة "تشبرنوشيتس" في جنوب براغ، كما كُلِفَ، في سنوات لاحقة، بالعديد من زيارات المواقع والحادثات بمسؤوليات كبيرة. كانت هذه الزيارات، دومًا، في غاية

الحساسية؛ إذ عدَّ مديرو المصانع، وكبار العمال، محامي شركة التأمين القادم من براغ شخصًا بيروقراطيًا غريبًا عن العالم، لا يعرف الكثير عن العمليات التقنية، ودرايته بالمخاطر المزعومة أقل بكثير، ويبالغون في تقدير هذه المخاطر. صحيح أن المفتشين الصناعيين المتخصصين كان لهم حق زيارة المصانع، وإبلاغ شركات التأمين في براغ بملحوظاتهم، ولكن كان من الواضح أن كثيرًا من هؤلاء المفتشين تفاهموا جيدًا مع رجال الأعمال، ولم يتعاونوا، إلا على مضض، مع شركات التأمين. الوسيلة الأفضل لمواجهة هذا العناد كان فرض الاحترام من خلال الحصول على المعرفة التخصصية بشكل ذاتي والإعداد الدقيق.

لم تكن حوادث العمل مجرد أرقام إحصائية، أو احتمالات في مكاتب شركات التأمين. بحسب الإصابة أو الوفاة، يحضر المصابون، أو أسرهم، في زيارات إلى الموظفين المختصين في شركات التأمين؛ لتُتخذ قرارات متعلقة بإجراءات طبية، وتعويضات، أو صرف معاشات، بمشاركة أطباء يعملون داخل شركة التأمين. كان على كافكا التعرف، بالطبع، على هذا الجانب الواقعي للعمل المكتبي، وعمل، لذلك، في أبريل عام ١٩٠٩ ، لعدة أشهر في قسم الحوادث. كانت الأموال، التي كان يجمعها قسمه السابق، تُصرف في قسمه الحالي، وظهر هنا، بوضوح، أكبر أسباب العجز المالي الضخم: يتم، هنا، تسجيل ستين حادثة في المتوسط يوميًا؛ حالات فردية بلا توقف، كلها قضايا مستعجلة، فلا مجال لإنهاء يوم عمل في موعده. هرب كافكا -غالبًا مثل سائر زملائه في العمل- من خلال حس سوداوي للدعابة؛ فكتب، مثلًا، من مكتبه في الساعة الرابعة والنصف عصرًا:

"يا له من عمل أقوم به! بصرف النظر عن باقي العمال، في فرق العمال التي أراعيها في أربعة أحياء؛ يسقطون، مثل السكارى، من السقالات إلى داخل الماكينات. جميع ألواح الخشب تنقلب، جميع أرضيات المنحدرات تتراخى، جميع السلالم تزحلق، ما ترفعه لأعلى يسقط لأسفل، ما تعطيه لأسفل يجعلك تسقط أنت نفسك. يتابك الصداع؛ بسبب الفتيات في مصانع البورسلين، اللاتي يسقطن، بلا انقطاع، على السلالم، وهن يحملن جبالًا من الصحون." [١٤]

بدا ذلك عبثًا، ولكن كان كافكا يعرف، بالطبع، أن هذه الرؤية الكوميدية ليست متاحة إلا على مسافة آمنة. أما الرؤية القريبة، ودراسة كل ملف على حدة، فتمنحان صورة أكثر كآبة؛ بسبب كثرة الإصابات الشديدة بعواقب مستمرة مدى الحياة، كانت تُعوض في أسوأ الظروف -أي عندما تكون الضحية في حاجة إلى الرعاية- بستين في المائة من آخر أجر، وذلك على أقصى تقدير، ناهيك بالحوادث القاتلة التي بلغت في بوهيميا وحدها من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ حالة. بحسب ملفه الوظيفي، عمل كافكا في "قسم المعاشات"؛ أي في بؤرة المستندات لهذه الحالات المأسوية. عدد مرات حديثه إلى الضحايا المصابين، ومواساته للأهل، ومساحات التصرف المتاحة له، وكيفية تعامله معها ليساعد هؤلاء البشر "بأقل بيروقراطية" ممكنة – تظل الإجابات غير محسومة. ولكن المؤكد أنه لم يفلت من التجارب المرتبطة بهذا القسم على المدى الطويل. أدخل، في روايته الأولى "المفقود"، قصة فرعية مؤثرة عن حادثة عمل قاتلة؛ ضحيتها عاملة تسقط من على سقالة غير مؤمنة، ويصيبها لوح خشبي ثقيل -يبدو أن هذه التفاصيل الواقعية جاءت من وحي المراسلات التي ترسخت في ذاكرته. [١٥]

التعامل مع هذه الحوادث، دون السعي إلى منعها، كان، بالقطع، أمرًا يصعب على المدير "مارشنر"، "صديق العمال"، تحمله. قام، قبلها بعشر سنوات، برحلة عمل طويلة إلى ألمانيا، مع زميله الذي سبقه في المنصب؛ لتجميع مادة تتعلق بالوقاية من الحوادث. بما أن هذا الشأن لم يكن من صميم عمل مؤسسة التأمين فلم تتوفر الميزانية المطلوبة لتعيين المتخصصين في هذاالمجال. حتى التهديد الموجه إلى أصحاب المصانع بدفع رسوم أعلى، في حال عدم توفير الحماية الكافية من الحوادث، لم يكن له أي تأثير. توقفت المسألة، إذًا، على القدرات الإبداعية للموظفين المسؤولين، أن يكون لهم بالقدرات المتاحة تأثير على المستوى الإعلامي على الأقل –وكان التبرير المقدم في فيينا أن مصروفات مؤسسة التأمين ستنخفض إذا كتب للتجربة النجاح.

تمت الاستعانة، مجددًا، بالكاتب الناجح الدكتور كافكا. صحيح أنه لم يكن خبيرًا في التأمين ضد الحوادث، ولكن كانت الثقة كبيرة أن يحول المعرفة المتخصصة في المراجع إلى نص مشوق يقنع أصحاب الأعمال الذين لا يقرؤون كثيرًا. نشأت، على هذا النحو، سلسلة من المقالات عن إجراءات الوقاية من وقوع الحوادث، ونشرت في التقارير السنوية للمؤسسة، وكانت فكرة جديدة، صاحبها كافكا في الأغلب، أن ترفق بهذه المقالات رسومات موحية: رسومات لأيادي عمال الخشب المبتورة، التي وقعت تحت سكين "بأربع حواف"، مقارنة بالجروح الأقل التي تحدثها السكين المغطاة في شكلها المستدير "الآمن". أرفق كافكا، لاحقًا، بنص آخر، عنوانه الوقاية من الحوادث في المحاجر، خمس عشرة صورة فوتوغرافية، وعلق عليها، صحيح أن الصور لم تظهر البشر بوضوح، ولكنها كانت مفزعة بالقدر الكافي: كانت وسيلة تربوية سديدة؛ إذ كان العمل في المحاجر تشوبه، إحصائيًا، مخاطر أكبر

من مخاطر تصنيع المتفجرات. طالب، في هذا السياق (الذي جاء بالتأكيد في ضوء الاتفاق مع "مارشنر")، بأن تُصور الحوادث الكبرى في المحاجر فوتوغرافيًا؛ أي أن تؤمن الأدلة بشكل ذاتي. ١٦ (لم يكن أمرًا مفيدًا في حادثة المحجر –المختلفة تمامًا- التي يصفها، بعدها بشهور قليلة، مع نهاية روايته "المحاكمة".)

ظل كافكا "مسؤولًا عن قسم الوقاية من الحوادث والإسعافات الأولية"، وشارك بهذه الصفة في مؤتمر عقد، عام ١٩١٣، في فيينا. [١٧] ولكن الأنشطة القليلة في هذا المجال لم تملأ حياته الوظيفية، وكانت مهارته اللغوية، التي تآلفت مع مهارته القانونية، مطلوبة بشدة في قسم الآليات التأمينية؛ إذ كانت مهمته تصنيف المؤسسات بحسب حجم تكلفة مخاطرها، وبحسب حجم الصراع على تحديد رسوم التأمين. حينما عاد كافكا، في عام ١٩٠٩، إلى هناك، وجد تغييرًا جذريًا في الوضع القائم؛ إذ ألزم أصحاب الأعمال، منذ ستة أشهر، قانونًا، بتقديم قوائم رسمية لمصالحهم والأجور المدفوعة؛ مما أسقط أبسط الوسائل للتهرب من رسوم التأمين. كان إجراءً سريع المفعول؛ جلب للمؤسسة البراغية في العام التالي، ولأول مرة، فائضًا في الميزانية. دفع ذلك أصحاب الأعمال، وبشكل قوي، إلى الاعتراض قانونيًا على تصنيفهم على قائمة المخاطر، وزادت مراسلتهم المتعلقة بالطعن ("الاستئناف") زيادة عنيفة.

كان من الصعب مواجهة هذا الموقف بالمعرفة القانونية المتخصصة فحسب، وحمل قسم الشؤون القانونية أكثر مما يطيق، وتطلب الوضع الجمع بذكاء بين المعرفة القانونية المتخصصة من ناحية، والمعرفة التقنية المتخصصة من ناحية أخرى. تقدم كافكا، بتوصية من "مارشنر"،

بطلب رسمي ليسمح له، مع بداية شهر أكتوبر، وفي أثناء فترات العمل، بحضور محاضرات عن التكنولوجيا الميكانيكية، وصناعة النسيج بشكل خاص، وقد حصل، بالفعل، مع بداية الفصل الدراسي، على الموافقة. ١٨ كانت تخفيفًا كبيرًا للأعباء التي تحملها. لم يتحمل عناء رحلات العمل العديدة المقبلة وحده فحسب، بل اضطر كذلك للتعامل مع أصحاب الأعمال وهم في حالة مزاجية سيئة؛ بسبب الرقابة المشددة، وفكرتهم السيئة عن شركات التأمين. لم تساعد ابتسامة كافكا المجاملة كثيرًا في تلطيف المحادثات، حينما يطلب، في الوقت ذاته، الاطلاع على قوائم الأجور، أو ينذر بضرورة تنفيذ إجراءات الوقاية، ويتابع مدى التزام العمال بها. كتب في الخريف: "... مررت ببضعة أيام صعبة! سافرت في السادسة والنصف صباحًا إلى "جابلونس"، ومن هناك إلى "يوهانزبرج"، ثم إلى "جريتزندورف"، وأنا ذاهب الآن إلى "مافرسدورف"، ثم "رايشنبرج"، ثم "روشليتس"، وفي المساء إلى "روبرسدورف" وأعود منها." ثم كتب، قبل أعياد الميلاد، من المدينة الصناعية "بيلزن" في غرب بوهيميا: "تصورت وضعًا مختلفًا؛ كنت أشعر بالغثيان طوال الوقت، وليست المهام بين حليب الصباح إلى غسل الفم في المساء بمنزلة رحلة استشفاء."١٩

كتب برود، في تدوينة مقتضبة يوم ١٨ أكتوبر عام ١٩٠٩: "كافكا يولول." في الأغلب بسبب المكتب ورحلات العمل، والالتزام "بالمكاتبات الرسمية"، بدلًا من كتابة النصوص الأدبية. هل كان وضعه حقًا بهذا السوء؟ بالإلحاح عليه بالسؤال، ما كان لينكر أن عمله في هذه المؤسسة الكبيرة قد عزز من ثقته بنفسه. بمجرد عبوره، في الثامنة صباحًا، من بوابة مؤسسة التأمين، وتحيته للحارس، يكون قد دخل إلى عالم يحترمه، ويحتاج إليه، ويحمل تصورًا محددًا وإيجابيًا لوضعه

الحالي والمستقبلي -أي على النقيض التام للوضع المعلق والخاص، الذي وجد نفسه عليه بعد الدكتوراه؛ إذ أصيب، حينها، بخيبة أمل في جميع أحلامه وخططه. من المؤكد انبهار والده بوضعه الجديد ومستقبله، الذي تحددت معالمه بشكل أفضل. لعل الهدوء الذي ساد هذه الجبهة من أهم مميزات هذه الوظيفة. لم تبقَ إلا خطوة بسيطة ويحصل على استقلاله المادي عنهم.

خطا كافكا هذه الخطوة التالية في وقتها المناسب وبحماس. تقدم، في ١٧ أغسطس عام ١٩٠٩، إلى رئيس مجلس الإدارة راجيًا "التكرم" بمنحه وظيفة ثابتة، بما أنه قد أمضى عامًا كاملًا في وظيفة الموظف المساعد. لم ينتظر الرد على طلبه بالترقي، الذي كان سيضاعف مرتبه، ليطلب، في الوقت ذاته، إجازة لمدة ثمانية أيام؛ لأنه -وبتأكيد من طبيبه الخاص- "يعاني صداعًا متكررًا؛ بسبب العمل المتواصل على مدار عامين، دون إجازة، وشعوره بالتوتر والعصبية في الفترة الأخيرة". أغفل، ببساطة، أسبوعي الراحة اللذين حصل عليهما في يوليو ١٩٠٨، ولكن كان كافكا يدرك عدم أحقيته في طلب راحة (وأخذها بالفعل بشكل "استثنائي")؛ إذ سمع أن رئيس القسم "فول" قد قضى سنواته الثماني الأولى في مؤسسة التأمين دون يوم إجازة وحيد. ومع ذلك، رغب في القيام برحلة، واتفق مع برود على رحلة مشتركة إلى بحيرة "جاردا". وبما أنه كان واثقًا من الترقية (بسبب موافقة شفهية من "مارشنر" في الأغلب)، ظن أنه قادر على الأكذوبة الصغيرة المتعلقة "بعصبيته"، وقادر، أيضًا، على دفع مقابل رفاهية الرحلة إلى الخارج. ٢٠

سار كل شيء على أفضل وجه. وجد كافكا، عند عودته إلى المكتب في ١٦ سبتمبر، خبر إنهاء فترة الاختبار، والترقية إلى درجة "متدرب في المؤسسة". جمع، في اليوم التالي، أغراضه من مكتبه في قسم الحوادث، وعاد إلى قسمه القديم تحت رعاية "أوجين فول". انتظرته، في الأسبوع التالي، رحلة عمل جديدة، قادته إلى مدينة تقع على حدود شمال بوهيميا، اسمها "تينشن-بودنباخ". لقد سهل على مديره التوسط له. صحيح أن "مارشنر" أدرك، سريعًا، عدم شغف الرجل الجديد بالسياسة الاجتماعية، وقلة موهبته في الإدارة، ولكنه قدر التزام كافكا خير تقدير، كما قدر ذكاءه اللغوي، وقدرته على التعامل بدبلوماسية وإبداع مع الصراعات القائمة. كانت مهارات حيوية في مؤسسة عليها الدفاع باستمرار عن أهداف نشاطها، ولم تخرج بعد من مرحلة الدفاع المجتمعي عن قيمها. ربما لم يدرك "مارشنر" ذلك بعد، ولكنه شعر بجلبه لخبير في الدفاع وتقديم المبررات إلى داخل المؤسسة.

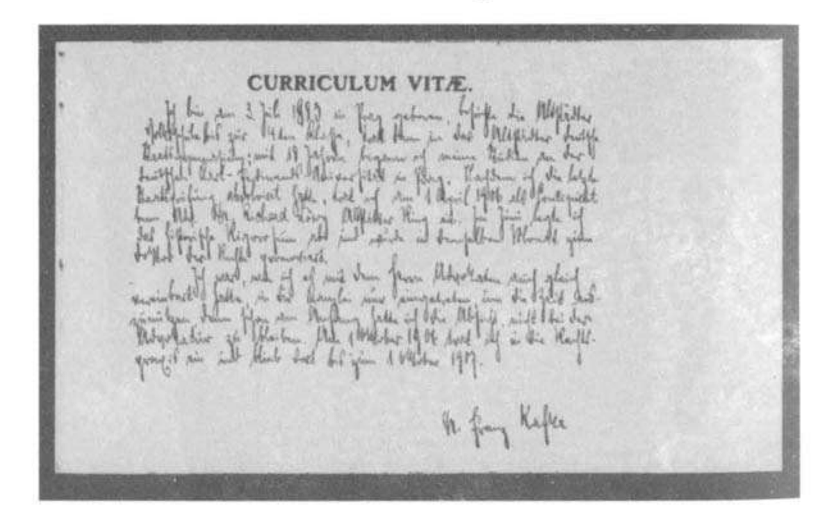
مثل تقييم الرؤساء في العمل الأساسَ الرسميَّ للترقية. كانت أولى الشهادات في حياة كافكا، التي تثير خوفه، حتى إن لم يرها أبدًا. "الجد والحماس: يرتبط لديه مع جده الكبير في العمل اهتمامه المستمر بجميع الأجندات، والعمل في غير ساعات العمل لصالح المؤسسة. مجالات الاستخدام: مناسب بامتياز. ملاحظات عامة: لقد عرفت المذكور، في أثناء فترة تعيينه في قسم ت. «قسم التقنيات التأمينية»، بقدرته الفائقة على الكتابة. "كان هذا هو الرأي الصريح لـ "فول"، وشاركه قسم الحوادث في هذا المديح: "الجد والحماس: لا يكل، ولا يمل، مجد ومتحمس. مجالات الاستخدام: مناسب بامتياز. ملاحظات عامة: الدكتور كافكا موظف مجد باستمرار، ويتميز بموهبة بارزة، وإخلاص

ملحوظ لالتزاماته."٢١ خسارة أنه لم يتمكن من عرض هذا التقييم على والديه؛ إذ لم يعرفا ابنهما بوصفه تجسيدًا للكفاح المستمر. كما أن "قدرته الفائقة على الكتابة" كانت بمنزلة توصية واضحة للترقي إلى الدرجة التالية؛ أي تعيينه كاتبًا. سيحدث ذلك خلال الشهور السبعة القادمة. سعد بذلك، وإن كان يتمنى "كتابة" أشياء أخرى. ولكن أصبحت لديه الآن ـ في حالة تعرفه إلى سيدة، أو لقائه بمدرس سابق أو زميل سابق، أو إزعاج الأقارب له ـ إجابة صادقة نابعة من قلبه وحقيقية عن سؤاله عن هويته. سيردد والداه، بارتياح، الرد ذاته: "ابننا فرانز صار الآن موظفًا."

لم يتبقَّ له إلا اجتياز زيارة الشكر إلى مكتب الرئيس، بالبزة السوداء، ومع زميلين يشعران بالإثارة نفسها. كانت هذه الاحتفاليات تسبب له، منذ فترة طويلة، إزعاجًا كبيرًا، وبدأت باحتفال "بار متسفا"، ودروس الرقص؛ إذ كان يشعر أنه ممثل على حافة السخرية. على أية حال، لم يتوجب عليه الخوف من هذا الرئيس، لقد كان "أوتو بريبرام" شخصيًا، الذي أوصى بتعيينه. وعلى عكس الموقف في شركة "أسيكوراتسيوني جنرالي"، لم يكن، هنا، ما يستدعي الندم على عمل الخير هذا. إذًا، لم تتبقَّ إلا دقائق قليلة وينتهي الأمر، لن يحدث شيء.

Name, Alter und Geburtsort des Candidaten. Name und Charakter des Vaters. Datum des Absolutoriums.	Rigorosum I. Aus dem römischen, kanonischen und deutschen Recht.	Rigorosum II. Aus dem österreichischen Civilrecht, Handels- und Wechselrecht, österreichischen Civilprozess und österr. Strafrecht.	Rigorosum III. Aus dem allgemeinen und österr. Staatsrecht, dem Völkerrecht und der politischen Oekonomie.	Datum der Promotion und Name des Promotors.
Franz Kafka	Am 13. Juni 1906	Am 7. November 1905	Am 16. März 1906	Am 18. Juni 1906

محضر منح كافكا درجة الدكتوراه


CURRICULUM VITÆ.

Dr. Franz Kafka

السيرة الذاتية المقدمة لوظيفة شركة Assicurazioni Generali، ١٩٠٧

من النسخة الأولى لنص "وصف لمعركة"

من النسخة الثانية لنص "وصف لمعركة"



بطاقة التعارف

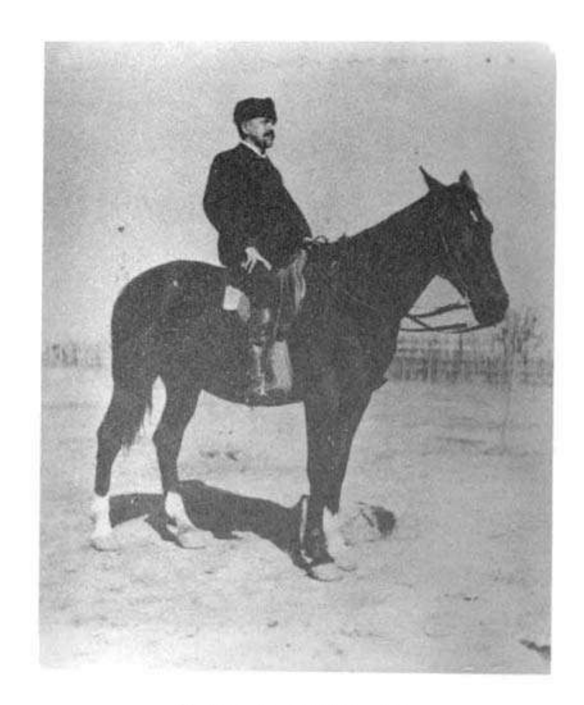
مكتب كافكا

Über jeden Tag soll mindestens eine Zeile
gegen mich gerichtet werden wie man die
Fernrohre jetzt gegen den Kometen richtet. Und
wenn ich dann einmal vor jenem Satze erscheinen
würde hergelockt von jenem Satze, so wie ich
z. B. letzte Weihnachten gewesen bin und wo
ich so weit war, dass ich mich nur noch gerade
fassen konnte und wo ich wirklich auf
der letzten Stufe meiner Leiter schien, die
aber ruhig auf dem Boden stand und an
der Wand. Aber was für ein Boden, was für
eine Wand! Und doch fiel jene Leiter nicht,
so drückten sie meine Füße an den Boden,
so hoben sie meine Füße an die Wand.

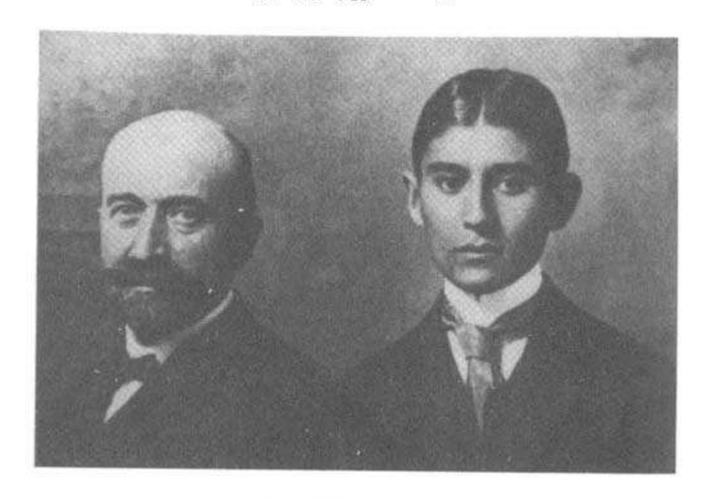
من المذكرات (فنانو الأكروبات على اليسار رآهم كافكا في نوفمبر ١٩٠٩)



كافكا ونادلة الحانة هانزي جولي سوكول، حوالي ١٩٠٧



خال كافكا زيجفريد لوفي

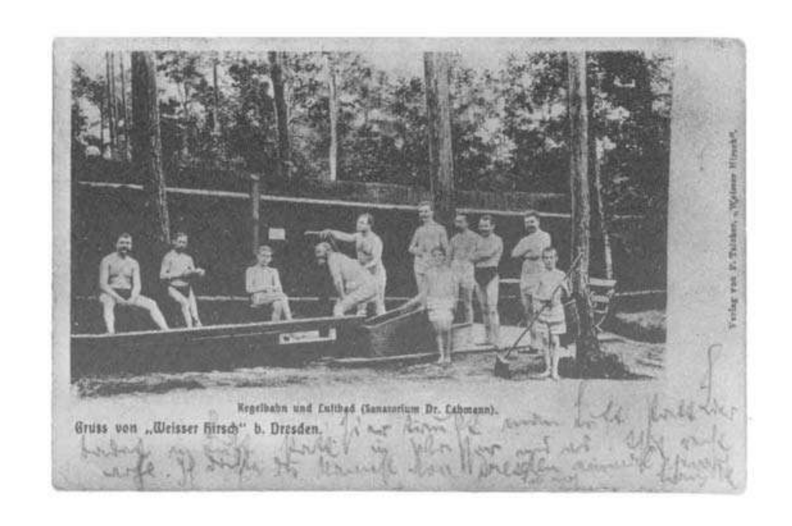


كافكا مع خاله ألفريد لوفي

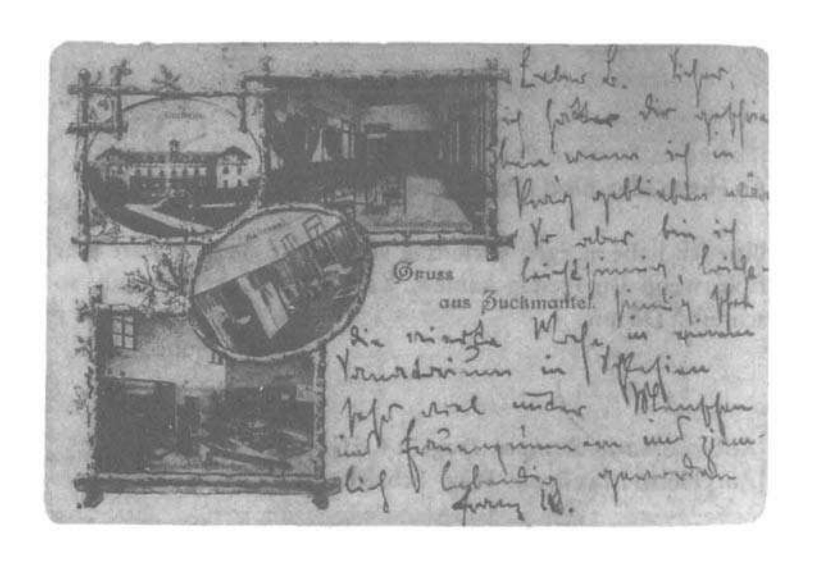

روبرت مارشنر وابنته


أوتو بريبرام


هيدفيج فايلر



بطاقة من مصحة "فايزر هيرش"، اغسطس ١٩٠٣



بطاقة من مصحة زوكمانتل، اغسطس ١٩٠٥

مدرسة الأدباء السرية

"البلاغة والحقيقة تتجاوران
ولكنهما ليستا صديقتين"
"جـان بـاول"

كان كافكا الكاتب الوحيد، تقريبًا، الذي كان له شعار معروف على مستوى العالم. لقد اخترعه مبكرًا، في الشهور الأولى من عام ١٩٠٧ في الأغلب، حينما أنهك من عمل "وصف لمعركة"، وحاول كتابة عمل جديد ومختلف: "استعدادات لحفل عرس في الريف". عبر عنوان العمل عن غرابة وعدم جدية، لم نعهدهما في الكاتب مطلقًا. كان هناك العديد من الروايات التي تتناول حفلات العرس في الريف، أما أن تكون الاستعدادات هي محور العمل، فلا يمكن إلا أن يكون حفلَ عرس ألغي، عرسًا لم يتم، حالة انهزام إذًا. يدرك القارئ ذلك، بالفعل، بعد قراءة فقرات قليلة. لا يدفع شيء بطل الرواية، "إدوارد رابان"، صاحب الثلاثين عامًا، والمقيم في المدينة، إلى زيارة خطيبته "المقيمة في الريف"، سوى أنه قد وعد بظهوره، في حين أنه على استعداد للخضوع لأي عارض تافه لتأجيل الزيارة. يدرك شخص من دائرة معارفه، يصحب "رابان" إلى محطة القطار، ذلك جيدًا من خلال حديث مضطرب يدور بينهما. سيمر هذان الأسبوعان اللذان سيقضيهما وجوبًا مع "بيتي" ("فتاة كبيرة في السن

وجميلة") وأقاربها؛ هذا ما تذكره البطل، ولن يتمكن أقاربه، الذين "سيعذبونه" هناك، من منع ذلك. بتخيل تقنية ذهنية، كان يهرب من خلالها، وهو طفل، حينما يطلب منه المشاركة في "صفقات خطيرة":

"لن أحتاج حتى إلى السفر بنفسي إلى الأرياف؛ ليس هذا مطلوبًا. سوف أرسل جسدي المرتدي للملابس فحسب. حسنًا، سأرسل هذا الجسد المرتدي للملابس. إن ترنح وهو يخرج من باب غرفتي، فلا يعني هذا الترنح خوفًا، بل ينم ذلك عن فناء هذا الجسد. لا يعبر تعثره في خطواته على الدرج عن اضطرابه، أو حينما يسافر متنحبًا إلى الأرياف، أو يتناول عشاءه باكيًا؛ لأنني أرقد في هذا الحين في فراشي، تغطيني بطانيتي البنية والصفراء، المشدودة فوقي، يهف عليَّ الهواء الآتي من النافذة المفتوحة قليلًا.

لقد تحولت، وأنا راقد في فراشي، إلى خنفساء كبيرة؛ أظن أنني خنفساء الأيل، أو خنفساء مايو. «... »

نعم، صرت في حجم خنفساء كبيرة. أتعامل مع الموقف كأنني في حالة بيات شتوي، ضغطت أرجلي الصغيرة إلى بطني. أتلعثم في نطق عدد صغير من الكلمات، وهي تعبر عن تعليمات إلى جسدي الحزين، الذي يقف منحنيًا بالقرب مني. سأنتهي قريبًا، سينحني ويرحل سريعًا، ليؤدي مهمته على أكمل وجه، أما أنا فأنال، هنا، قسطًا من الراحة."[١٠]

كان هذا هو ميلاد شعار شهير، خنفساء في حجم آدمي، ولكن لاحظ كافكا، سريعًا، أنه لا مجال لاستخدامه في نص "استعدادات لحفل عرس في الريف": كانت مجرد لعبة بالأفكار؛ هدفها تسلية

الكاتب وبطله للحظة، ولكنها، بخلاف ذلك، بلا فائدة؛ إذ كان يجب على "رابان" التحرك؛ ولذلك، أعطاه كافكا الحقيبة في يده، وجعله يستقل القطار وسط الطقس الممطر الحزين، ليغادره، مرة أخرى، مع استمرار الأمطار في مدينة ريفية صغيرة. لا نعرف شيئًا عن المحطة التالية؛ لأن المسودة الموجودة تنتهي حينما لا يجد "رابان" من ينتظره في محطة القطار، ثم يركب حنطورًا متجهًا إلى الفندق. ضاعت باقي الأوراق، ولا نعرف، لذلك، ما إذا كان كافكا قد وصل لتقديم عروس المستقبل. هناك محاولتان أخريان (نسخة "ب" ونسخة "ج")، ولكنهما أقصر من الأولى، وتظهران أن كافكا قد تخلى عن فكرة الخنفساء. سيلجأ إليها بعد سنوات، متذكرًا الحرفين المتحركين في اسم "رابان". ستجني شخصية "جريجور سامسا" بالتحول المذهل الشهرة التي لم تستحقها شخصية "رابان" الضعيفة.

قصة الخنفساء ليست مجرد اهتمام بنادرة؛ لأنها تصور التطور الذي مرت به تقنيات كافكا السردية تصويرًا نموذجيًا. يتخلص كافكا، في خطوة أولى بين عمل "وصف لمعركة" وعمل "استعدادات لحفل عرس في الريف"، من تحكمات الخيال: لم يعد العالم الداخلي النفسي مجالًا يتيح الحرية التامة، بل يكون، على العكس تمامًا، مجالًا تنعكس فيه الانفعالات الخارجية. يظل، لذلك، كل ما نعرفه عن مشاعر "رابان" ودوافعه مبهمًا بالنسبة لنا، بعد أن ألغى كافكا فكرة الخنفساء الخيالية، لم يبقَ هنا شيء من السلطة الإبداعية التي اختص بها بطل "وصف لمعركة". كما استبعد كافكا، بكل حزم، في عمل "استعدادات لحفل عرس في الريف" أي صياغة للواقع من منظور الحالة النفسية، و"صبغ هذا الواقع بالحياة". نجد الموضع التالي في النسخة الأولى: "تقدم القطار ببطء، كأنه متردد. "لا يرضى كافكا عن هذه

الصياغة، ويستبدل، في البداية، بكلمة "متردد" كلمة "مُجهد"، ثم يقرر، في النهاية، اللجوء إلى حل آخر؛ يعكس المنظور ويحول التعبير النفسي إلى انطباع: "تقدم القطار ببطء، لدرجة تسمح بتخيل دوران العجل."[٢] تعكس هذه الدقة الحسية انطباعات لا تحصى تقع في ثوانٍ، وتفرض نفسها على "رابان": لفتات إنسانية، وجوهًا، قطع ملابس، شمسيات، مصابيح، مياهًا تتسرسب. لا مجال للإفراط في الخيال. بعد "نجاحه" الأدبي في عام ١٩١٢، في خطوة تالية، نتجت عنها رواية "المسخ"، ينجح كافكا في إدخال الخرافة مرة أخرى إلى سرده القريب من الواقع: من خلال تحديد دقيق لجرعة الخرافة، التي تزداد بذلك أهمية – إذ لا يحدث شيء خرافي في رواية "المسخ" بعد الصفحة الثانية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يلجأ إلى حيلة كانت وقتها مذهلة وصارت اليوم كلاسيكية؛ أي وصف هذه الخنفساء الضخمة، الأغرب على الإطلاق، بالقدر نفسه من الهدوء والوضوح الذي يصف به باقي المشهد المعتاد. اتخذ، بذلك، خطًا مغايرًا للكاتب "ألفريد كوبين"، مثلًا، الذي قال في روايته التعبيرية، الشبيهة بالحلم، "الجانب الآخر" (١٩٠٩): "إن الفن صمام أمان لعالم الخيال." ما كان هذا التصور ليرضيه؛ إذ كانت له توجهات مختلفة تمامًا، حتى بوصفه حالمًا.

أثار كافكا الدهشة وسط أصدقائه مبكرًا، وذلك بحبه للنثر، الذي يشبه العين المتجاوزة الفردية، التي تعكس، بدقة، انطباعات حسية متمايزة، ولا "تسعى" لما هو أبعد من ذلك. مما لا شك فيه أن قراءته المكثفة للكاتب "فلوبير" دفعته إلى الكتابة الجدية؛ إذ سعى، في نص "استعدادات لحفل العرس"، إلى تقليد دقته، وكذلك عرضه المتنوع لوسائل الانتقال في مدينة كبرى، كما نجد في عمله التربية العاطفية.[٣] اعترف كافكا لاحقًا: "قرب هذا الكتاب مني لسنوات طويلة لا يقارن

إلا بعلاقتي باثنين أو ثلاثة من البشر؛ أينما فتحت هذا الكتاب كان يفزعني ويأسرني، وتصورت نفسي الابن الروحي لهذا الأديب، وإن كنت طفلًا بائسًا وأخرق."[٤] تثبت عدد من الكتب عن "فلوبير" محاولات كافكا لمعرفة حقيقة هذا الأب الروحي؛ كان يملك هذه الكتب، أو يهديها إلى ماكس برود بعد قراءتها، الذي تأثر، بدوره أيضًا، بشخصية "فلوبير" لدرجة أنه علق صورة له فوق مكتبه، كما أعلن رسميًا مع بداية عام ١٩٠٨ أن عمل التربية العاطفية هو "كتابه المفضل". دار حديث تافه، بعد ذلك بعام، بين برود وابنة أخي "فلوبير"، "كارولين فرانكلين جرو"، وكتب عنه في جريدة بوهيميا كأنه التقى بكائن من أجواء عليا. بدا ذلك لكافكا "أمرًا مبالغًا فيه".[٥]

وقف طيلة حياته بسخرية على مسافة من هذا النوع من التقديس. أراد أن يتعلم، ويفهم، كيفية خروج الأعمال الفنية، الأعلى مستوى، من خلال ظروف حياتية عادية جدًا، وكان ذلك سبب شغفه الملحوظ، الذي دام طوال عمره، بالسير الحياتية. أراد، بخلاف ذلك، اختبار قدراته الذاتية على السير في هذا الطريق بنفسه. ولكنه ظل، في البداية، متخلفًا عن صرامة البناء في نثر "فلوبير": تظل رؤية الراوي للعالم الخارجي في أعمال كافكا المبكرة مشتتة وبلا تحكم؛ ينصب تركيزه على تفصيلة هنا وهناك، ويغوص فيها بشكل حسي، ولكن دون القدرة على الإمساك بها. توحي بعض المقاطع في نص "استعدادات لحفل العرس" بأنها مجرد قائمة من أجزاء فسيفسائية مثيرة للاهتمام، أجزاء لحركات ما، ولكنها لا تتناسق لتصبح صورة أو مشهدًا. يُستفز القارئ لطرح سؤال عن الرسالة التي تكمن في حركة يد لشخص من المارة، أو للون قبعة ترتديها سيدة، وعلاقة ذلك بالقصة؛ إنه تساؤل لا يطرح مع

قراءة "فلوبير" أبدًا. الأشياء والإشارات قائمة بذاتها، ويبدو أن كافكا لا يملك في هذه المرحلة براعته اللاحقة في نسج شبكة متداخلة من الإشارات.

تجلى ذلك في تفضيله للتقنيات السينمائية، التي كان مهتمًا باستخدامها في هذه المرحلة المبكرة. واجه الفن السينمائي، أيضًا، مشكلة أنه يملك إمكانات جذابة لعرض عمليات ديناميكية، ولكن يخلف عرض سلسلة من الصور انطباعًا بمشاهدة ألبوم من الصور، إن لم يتم قبلها ربطها ربطًا مقنعًا، أو التنسيق بين هذه الصور لتستوعب بالشكل المناسب. لم يجدوا حلولًا أنيقة بعد، ولذلك يبدو مونتاج أول الأفلام الصامتة –من منظور اليوم– غير دقيق، ومضطربًا، ومثيرًا للضحك دون أن يقصد ذلك. ينقل كافكا هذا الأسلوب من السرد السينمائي، الذي يلجأ حتمًا إلى التجزئة، إلى وسيط اللغة؛ ليأخذ ما يصاحبه، أيضًا، من مشكلات تقنية: يحتاج الأديب، الذي يستعين "بمنظورات" مختلفة، إلى قدرات خاصة أيضًا؛ حتى لا يتفتت النص بين يديه، ويتحول إلى تجميعة من الصور. أثبت كافكا، في أعماله اللاحقة، أنه يمكن السيطرة على هذه المشكلة، في السينما أيضًا، من خلال براعة حرفية. نجد في رواية "المفقود" مشهدًا لمطاردة الضابط داخل شارع في مدينة كبرى لـ "كارل روسمان"، الذي يحاول الهروب منه؛ يقص كافكا هذا المشهد بأسلوب سينمائي ملحوظ، ولكن تبقى، مع ذلك، تقنية "المونتاج" غير مرئية.[٦]

قرأ كافكا في مذكرات الكاتب "هيبل" أن "الفن هو الوسيط الوحيد الذي أتواصل من خلاله مع العالم والحياة والطبيعة، وأطلب، أو أدعو، في هذه اللحظة الهامة، ألا تحول ضربة القدر دون خروج

الطاقة الكامنة في صدري لإنجاز هذا العمل!"[٧] قد نجد توقيع كافكا تحت هذه المقولة، وتحت كل كلمة؛ إذ نشأ داخله هو الآخر هذا الشعور "باللحظة الهامة": إن لم يصل الآن، أو في أقرب وقت، وفي سياق الظروف المتاحة، إلى أعلى مراحل الإبداع الأدبي، فمتى إذًا؟ من المؤكد أن نشر "فرانز بلاي" الأول لنص "استعدادات لحفل العرس" في هذا التوقيت قد شجعه، ولكن لم يمنعه هذا النجاح الصغير من رؤية مواطن الضعف في تجاربه الأدبية. على الرغم من قراره بكتابة نسخة ثالثة عام ١٩٠٩، فلم يقبل بحكم أكثر رأفة على عمله، على عكس برود الذي تحمس كثيرًا للعمل، وطلب منه المسودة؛ ليقرأها على حبيبته التي سعدت بالعمل. كانت، في الأغلب، زوجته اللاحقة "إلزه تاوسيج". لم يتأثر كافكا إطلاقًا: "ابق عاقلًا، ليست هذه الآنسة دليلًا على شيء، قد يعجبها النص، أو ربما لا يعجبها على الإطلاق، ويتوقف ذلك على أسلوب إمساكك بخصرها، أو ظهرها، أو رقبتها، أو حركة الدفع المناسبة في هذا الطقس الحار." على الرغم من الإطراء على فحولته، فإن التعليق كان أشبه بالإهانة. اعترف كافكا، بالفعل، أن النص نابع من تجربة شخصية وخاصة، ألم يتخلص منه بعد، وتحدث صراحة: "عن محور الرواية، الذي أعرفه جيدًا، والذي لا أزال أشعر به في ساعات التعاسة."[٨] كان هذا المحور –بلا شك– مشكلة كافكا التي ازدادت وضوحًا؛ أي "عزوبته"، التي صارت حاضرًا مؤلمًا قبلها في لحظات السعادة الغرامية التي عاشها في "زوكمانتل". المقصود بكلمة "في الريف" في العنوان هي مصحة "زوكمانتل". كان ماضيًا بلا مستقبل، وبدأ في هذه اللحظة يتلاشى. لم يعِنه التصوير الكاريكاتوري لذاته، من خلال شخصية "رابان"، على مواجهة ذلك.

مر ماكس برود، هنا، في تعاملة مع أوراق المسودة، بالتجربة المتكررة لاحقًا: لم يفهم أسباب عدم تعامل صديقه مع موهبته تعاملًا أكثر جدية وانتظامًا. هل جاء كاتب من قبل يحترم عملية الكتابة ويحتقر المنتج الملموس بهذا الشكل؟ ظل برود حائرًا في تفسير هذا النقد الذاتي الصارم بوصفه دليلًا على العبقرية، أم أنه حالة بعيدة عن الفن، مدمرة، وتعبر عن اضطراب نفسي. كان يدرك، تمامًا، أن سلوكه هو نفسه يكون أكثر تضاربًا من سلوك كافكا نفسه؛ لأنه أراد نظريًا الحقيقة، ولكنه سمح لنفسه واقعيًا بتجاوزات بوصفه كاتبًا، وكانت تجاوزات بعيدة عن متطلباته، كما أنها لم تخدم الشهرة المأمولة. كان يقبل، دائمًا، بالإطراء المفتقر للرؤية الناقدة؛ إطراء صديق العمر المقرب "ماكس باومل" مثلًا. كان الحوار مع كافكا مختلفًا؛ كان كريمًا في المدح والتشجيع، ولكن نزيهًا في رؤيته للتفاصيل: المراجع اللغوي المثالي، الذي كانت مبادئه الأدبية مزعجة ومفيدة بالقدر نفسه.

تشهد مذكرات برود، وتدويناته الخاصة، أنه تقبل دور كافكا بوصفه ضميره الأدبي بشكل متزايد، ولكنه عرف كيف يتجنب ما يترتب على ذلك من نتائج لرؤيته لذاته، باللجوء إلى كبت هذه النتائج بشكل مذهل. قدم، مثلًا، في صيف عام ١٩١٠، مجموعة من قصائده إلى كافكا، وأراد أن ينشرها في العام ذاته تحت عنوان مذكرات في أبيات شعرية. كان يدرك أن كافكا لا تربطه علاقة خاصة بالشعر، وقد تخلص من محاولاته القليلة في هذا المجال، وبحث عن نماذج يحتذي بها من كتاب النثر، ومع ذلك، قرر برود، تحت التأثير الواضح لنقد كافكا، أن يخفض حجم مذكراته الشعرية لأكثر من نصفها. دوّن في اليوم نفسه: "ينقذ كافكا، صديقي العزيز، كتابي الشعري بشطب ستين قصيدة دون المستوى." قد يكون ما حدث مدعاة لأي كاتب آخر

للاكتئاب: ألا تعلم بكتابتك لقصائد "دون المستوى" فحسب، ولكن أن تقوم أيضًا -في حالة من افتقاد الرؤية- بكتابتها على الآلة الكاتبة، وتظن، حتى الأمس، أنها صالحة للنشر - تطلب هذا الوضع إعادة شاملة لجميع الحسابات، وقد يترتب على ذلك نتائج تؤثر في العمل الأدبي مستقبلًا. لا أثر لكل ذلك لدى برود. صحيح أنه قد ينقد ذاته، ولكن يدعي متباهيًا: "كنت، فيما مضى، أكثر عبقرية من الآن."[٩]

يجب أن نعترف بالصعوبة التي واجهها برود في فهم موقف كافكا تجاه الأعمال التي كان يقدمها إليه. لم تكن الثقة التي سادت العلاقة في سنوات لاحقة قد نضجت بعد، وكثيرًا ما كانت تعليقات كافكا دبلوماسية - كان يدرك أنه لا يملك قدرة تقديم التعليل الدقيق لانطباع عام؛ أي القدرة على النقد الأدبي بالمفهوم الشامل. كثيرًا ما كان يتحمس في لحظات قراءة برود لأعماله، ثم يصدر أحكامًا متحفظة حينما يكون وحده مع هذا العمل. علق على صدور رواية برود "قصر نورنبيجة" (١٩٠٨) بأسلوب يسمح بتفسير في جميع الاتجاهات: "يا له من ضجيج، ضجيج تحت السيطرة."[١٠]

كانت هذه الرواية، "قصر نورنبيجة"، بعنوانها الفرعي رواية "الحياد"، باكورة إنتاج برود: رواية تتبع أيديولوجية، وتقع في خمسمائة صفحة، وتعالج بكثير من الكلمات إشكالية "عقيدة" ما؛ كيفية معايشة هذه العقيدة وأسباب المعاناة منها - اتبع هذا الأسلوب في الكتابة في قصصه الأولى، وعاد إليه مرارًا وتكرارًا. ليست الأحاديث الانفرادية لبطل الرواية، وصاحب القصر "فالدر نورنبيجة"، إلا دراسات في فلسفة "شوبنهاور" ونتائجها في الحياة العملية، في حين أن أحداث الرواية نفسها -الغريبة والقائمة على الأخبار الكاذبة في بعض المواضع-

أشبه بتعليمات لتنفيذ تجربة، تتأكد من خلالها نتائج متوقعة لفلسفة أخلاقية في الحياة، اتخذت نهج "الحياد". لا تعرف شخصية "نورنيبيجة" الوسط؛ يريد الحرية، ولكن لا يعرف هدفها. في عالم يبدو له قدريًا لا يجد أسبابًا كافية تدفعه إلى اختيار اهتمامات، ومهام، وبشر، من قلبه. هو على التوالي زوج راض، ثم مستمتع بالحياة دون مراعاة للآخرين، ثم زاهد، ثم سياسي ثوري، علمًا بأنه لا يقرر التغيير المفاجئ بين هذه الأساليب الحياتية إلا على سبيل تجربة شيء جديد، إذا كان حدوثها على سبيل الصدفة واردًا. قراره المنطقي الوحيد، الذي جاء بكامل إرادته، هو الانتحار.

قبل انتهائه من مسودة الرواية كان برود مقتنعًا أنها "ستدوم لكل العصور". [11] كانت رواية "قصر نورنيبيجة"، بالفعل، روايته الأولى التي أثارت الانتباه خارج براغ، بشكل أكثر تأثيرًا داخل دوائر الطليعة الأدبية في برلين. صار "كورت هيلر"، بشكل خاص، من أكثر المعجبين المتحمسين لبرود؛ إذ رأى أن رواية "قصر نورنيبيجة" تجمع أهم موضوعات حركة التعبيرية الأدبية: الحياة بلا جذور وجودية، وكراهية جميع أشكال الحياة والفن البرجوازية، والمعاناة من الثقافة الشخصية، والاشتياق إلى المباشرة. جاء كل هذا في مشهد تعبيري، ترقص فيه الشخصيات المجسمة، وتحركها قوى الأقدار. حينما أنشأ "هيلر"، في مارس عام ١٩٠٩، "النادي الجديد"، الذي تجمعت فيه حركة التعبيريين المبكرة في برلين، كان في ذهنه "نادي المتمابزين"، الذي جمع، في رواية برود، مجموعة من الأفراد بلا حواجز أخلاقية. نظم "هيلر"، بعدها بعام، أمسية لماكس برود، وألقى، خلالها، محاضرة كلها مديح لرواية "قصر نورنيبيجة". كان من الممكن أن يدرك، في هذه المرحلة، عدم صلاحية برود للعب دور القيادة لحركة أدبية ثورية؛ إذ صدرت، في هذه

الأثناء، "الرواية الصغيرة" خادمة تشيكية، التي لا ينتهج برود فيها أسلوبًا سرديًا تقليديًا فحسب، بل ينسجم في قصة حب بسيطة، يتم خلالها تخطي حواجز معينة: بين الرجل والمرأة، والطالب والخادمة، والألماني والتشيكية. كان سيتعجب معجبوه في برلين بالتأكيد، إن علموا أن روايتي قصر نورنبيجة وخادمة تشيكية قد كُتبا في الوقت نفسه. ما تعرضه الرواية الكبرى بأبعاد ميتافيزيقية من مأزق لا يجد حلًا ترجعه الرواية الصغرى إلى قدر من التناقضات الإنسانية، والتعددية، وسوء التفاهم، الذي يتيح، في بعض الأحوال، حلولًا. يظهر الحب الحسي، هنا، بوصفه المجال الذي يتيح الحياة – تتمثل لمسته الفنية الساخرة في أن البطل الشاب والمنشغل بنفسه، يرسله والده إلى براغ ليتولد لديه إحساس بواقع هذه المدينة المعروفة بأجوائها الاجتماعية القاسية، ويكون الدرس، على غير المتوقع، بين أحضان فتاة تشيكية جميلة، لا تمت للتعليم بصلة.

كان برود في الثالثة والعشرين من عمره حينما كتب هذه الرواية الصغيرة، ولكنه أدرك، بالتأكيد، أنه يتخذ، هنا، موقفًا رسميًا من النزعة القومية القائمة. لفت العنوان انتباه الألمان ذوي الحساسية القومية؛ لأنه يفترض أن يتحدث، بشكل صحيح، عن خادمة "بوهيمية"؛ ولكن كان برود يتحدث دومًا عن "التشيك"؛ يمدح مواهب هذا الشعب، وجمال لغتهم، ويقدم أسبابًا، من منظور علم النفس الاجتماعي والاقتصاد، تبرر مطالبة التشيك بمساحة أكبر، وحقوق أكثر، في موطنهم الأصلي. كسب، بذلك، تأييد أغلب النقاد التشيكيين، الذين لم يجدوا في العمل إلا آثارًا بسيطة للاحتقار الألماني القومي، أما النقاد الألمان، فاتسم رد فعلهم بالبرود والتحفز. لم يسعف برود كثيرًا تأكيده، في جريدة "تاج بلات" البراغية، أنه لا ينوي كتابة رواية سياسية: في براغ لم يكن من الممكن، بمنتهى البساطة، أن تتحدث

رعيًا بكلمات مثل "ألماني"، و"بوهيمي" و"تشيكي" - دون مواجهة القضايا الجوهرية للهوية القومية، ومواجهة التصنيف الأيديولوجي - حتى إن كنت كاتبًا لرواية غرامية. ما زاد من سوء حظ برود أنه، مع بداية ١٩٠٩، قبل صدور رواية "خادمة تشيكية" بوقت بسيط، قد تأزمت الأوضاع في براغ على الصعيد القومي، ووضع البيت الألماني تحت حماية الحربات. ما أصابه بمرارة أكثر السخرية التي تعرض لها، ووصفه بالسذاجة في القضايا السياسية. كتب "ليو هيرمان" في جريدة "الدفاع عن النفس" اليهودية: "يبدو أن الكاتب الشاب يظن أن القضايا القومية يمكن حلها في الفراش."[١٢]

أدرك برود عدم اهتمام أي شخص، بخلاف المشهد الصهيوني المحدود، بهذه الجريدة الصغيرة، ولكنه لم يتمكن، على الإطلاق، من الصمت تجاه ما حدث. طالب "هيرمان" بمناقشة الأمر معًا، وكانت النتيجة مفاجأة غير متوقعة. وجد برود نفسه أمام ناقد يصغره بعامين من ناحية، كما شرح له "هيرمان"، من ناحية أخرى، أن بطل رواية "خادمة تشيكية" ليس ألمانيًا في واقع الأمر، بل نمطًا "لليهودي الغربي" الذي لا يملك جذورًا؛ مما يجعله مرآة مزعجة في عيون القارئ اليهودي. كانت نظرية جريئة، ولكن كان تطبيقها على "فالدر نورنبيجة" ممكنًا أيضًا، ولكن إن تابعنا مذكرات برود المنمقة، نجد أنه قد أدرك، من خلال هذا النقاش، ولأول مرة، أنه يواجه في براغ قضية القوميات الثلاث. إنها قضية معقدة، ولم يفكر فيها، ولو للحظة، في أثناء كتابة الرواية، لكن هذه المشكلة تتسرب إلى داخل النص الأدبي، دون أن يعرف الكاتب أي شيء عنها. كيف له في هذه الظروف أن يحقق مطلب الكاتب "فلوبير" بإخضاع العمل الأدبي لمعايير جمالية دون سواها؟ حاول أن يشرح للصهيوني "ليو هيرمان" مبدأ "عدم

الانحياز" الاجتماعي والسياسي بكل تفاصيله، ولكنه لم يقنعه، بل اقتنع هو نفسه بشيء آخر. انتهت، بذلك، مرحلة "الحياد" القصيرة في حياة برود، التي ظن لتوه أنها تقدم حلولًا لجميع مشكلات الحياة. لم يستطع، بعد عامين من صدور رواية "قصر نورنبيبجة"، أن يستحضر السياق الفكري لنشأة هذه الرواية إلا بصعوبة شديدة وعدم وضوح، ولم يقرأ على الجمهور البراغي من هذه الرواية قط. تنصل، لاحقًا، بإصرار من العمل، بعد تأثره بالأسلوب اللغوي التعبيري، الذي ابتعد عنه فيما بعد. "قلت الموهبة كلما زاد الأسلوب التعبيري."[١٣]

تابع كافكا تحولات صديقه السريعة عن قرب، وعرف جميع تفاصيل تطوره الأدبي، خاصة بعدما اعتادا قراءة أعمال كبار الأدباء النموذجية معًا، وتبادلا قراءة المسودات فيما بينهما. تفوق برود، باستمرار، على طريق التحول إلى الكتابة المحترفة: كانت رواية "خادمة تشيكية" إصداره الرابع، وتبعته مجموعته القصصية "تنشئة المشيقة" بعدها بستة أشهر. لم يملك قائمة إصدارات مدهشة فحسب، بل أقام لنفسه شبكة كثيفة من العلاقات مع الوسائل الإعلامية، ولم ينجح أي شخص في محيطه في منافسته في هذا الشأن؛ يستوي في ذلك الكتاب المخضرمون وكتاب مجموعة "شباب براغ". نشر برود، في عام ١٩٠٩ وحده، العشرات من المقالات، والفهارس، والمقالات النقدية، وأتيح له المجال في العديد من المجلات الثقافية الهامة: مجلات الحاضر، ومارس، والمتذكر، و"نوية ريفو"، و"نوية روندشاو"، وجريدة المسرح، فضلًا عن المجلات المتميزة التي يصدرها "فرانز بلاي"، وغيرها. كان يسانده، أيضًا، شخص موثوق به، "أكسيل يونكر"، الناشر وتاجر الكتب المقيم في برلين، الذي تقبل اتجاهات الأدب الحديث، وتعاون مع الكاتب "ريلكه" من قبل. كان برود ينشر، بالطبع، الكثير من

النصوص الصغيرة، التي كانت تختفي وسط الإصدارات الأدبية اليومية، كما أنها ساعدت على تكوُّن صورة الكاتب الصحفي المشغول؛ يفهم في كل شيء، وليس له طابع مميز. نشأته المضطربة، بوصفه كاتبًا روائيًا، أكدت على هذه السمعة.

لم يشارك كافكا صديقه برود تطلعه الفاشل للانضمام للصف الأول من الكتاب الألمان، ولكنه أعجب بطاقة صديقه، وتفهم، تمامًا، هدفه للخلاص من الروتين الممل للوظائف المكتبية، الذي لم يجد فيه أي حماس، وهدفه لكسب قوت يومه من الكتابة دون غيرها في يوم من الأيام. كان برود يتعامل، في هذا السياق، تعاملًا أكثر استقلالية، وموجهًا نحو هدفه. لم يجد غضاضة في قضاء ساعات العمل الرسمية في مراسلاته الخاصة، أو في الكتابة الأدبية. أصابه الإنذار الذي وجهته له مصلحة البريد في هذا الشأن بالسخط: "يريدون سلبي هذا أيضًا!"[14] لو أن أمرًا مشابهًا قد حدث لكافكا في وظيفته الأعلى مستوى، كان سيعترف بصواب موقف رؤسائه في العمل. لم يسمح لنفسه قط -فيما يتعلق بخططه الأدبية وقراراته الفنية- بالتأثر بأسلوب برود في الجمع بين أكثر من نشاط، أو حتى التأثر بأسلوبه في الكتابة في شكل قابل للإثبات في أعماله. كان يسلك طريقه الخاص، واحتفظ بسيادته بملمحها المتواضع، حتى عندما اتسعت دائرة قرائه والمستمعين شيئًا فشيئًا.

تعرف كافكا، في أثناء سنوات دراسته، إلى "أوسكار باوم"، الكاتب الذي يكبره بشهور قليلة. كان "باوم" صديق "ماكس بويمل" وابن عمه، الذي عرَّفه إلى برود أيضًا، ولكن يبدو أن الاهتمامات الموسيقية المشتركة كانت في البداية أساس العلاقة. حاز "باوم"، ضخم الجثة، عريض المنكبين، صاحب الذقن، رغم

صغر سنه، إعجاب برود سريعًا، ولكن، أيضًا، لصبره على الابتلاء النادر الذي أصابه. "أوسكار باوم"، القادم من مدينة "بيلزن"، وابن التاجر اليهودي، ولد بعين واحدة مبصرة، وفقدها وهو في الحادية عشرة من عمره في أثناء مشاجرة بين تلاميذ ألمان وتشيكيين. اضطر الصبي، الذي صار كفيفًا، إلى ترك أسرته، ومدرسته، والمدينة بأكملها؛ ليستكمل تعليمه في مدرسة يهودية للمكفوفين في فيينا، اسمها "هوهه فارتة". تلقى "باوم"، هنا، دروسًا مكثفة في الموسيقى، كان من بين مدرسيه المؤلف الموسيقي الكفيف "يوزيف لابور"، الذي كان بدوره مدرس "شونبرج" أيضًا. صار "باوم" عازفًا للبيانو، وخبيرًا في التأليف الموسيقي، واجتاز، في عمر التاسعة عشرة، امتحان الدولة لتدريس عزف البيانو والأورغ. عاد "باوم" بعد ذلك إلى والديه، اللذين انتقلا إلى براغ، ولكنه تمكن من الاعتماد على نفسه اعتمادًا كاملًا؛ إذ عمل عازفًا للأورغ في المعبد اليهودي، ومدرسًا خاصًا للموسيقى.

لم يدر ذلك عليه كثيرًا من المال؛ لأن المنافسة كانت كبيرة؛ ولذلك لم يستطع طلب أكثر من كرونتين مقابل درس البيانو، ولكن وجد "باوم" العديد من التلاميذ؛ إذ عُرِفَ عنه قدرته على رفع مستوى تلاميذه لدرجة العزف أمام الجمهور. استطاع "باوم" الانفصال عن أسرته مع نهاية عام ١٩٠٧؛ لينتقل للعيش في شقة مستقلة في زقاق "هاينريش جاسه" ("يندرشيشسكا" باللغة التشيكية) مع "مارجريتة" (أو "جريتة شنابل")، التي كانت تكبره بتسع سنوات. بدأ في هذه المرحلة في الكتابة أيضًا، وعلى الرغم من انبهار برود بمحاولاته الشعرية الأولى، فإنه شجعه على الكتابة الأدبية عن بصره المفقود؛ أي خبراته التي يصعب على القارئ الذي يملك جميع حواسه

استيعابها، كما لم تعرض هذه التجربة الشخصية أدبيًا من قبل. كتب ثلاث قصص، قدم لها برود في مجموعة عنوانها "الحياة على الشاطئ". "مغامرات ويوميات شخص كفيف في الحاضر" (١٩٠٨)، ثم السيرة الذاتية "الحياة في الظلام" (١٩١١)، نشرهما "أكسيل يونكر" في برلين. رد "باوم" الجميل بكتابة مقالات نقدية عن أعمال برود، وإلقاء محاضرة في "اتحاد القاعة للقراءة وإلقاء الخطب" عن أعمال صديقه، ولكنه لم يحقق حلمه بأن تكون الكتابة مصدر دخله، تمامًا مثل برود وكافكا. نجح، في عام ١٩٢٣، أي بعد مرور عشرين عامًا في خدمة سلسلة من الطلاب، في العثور على وظيفة تناسب مواهبه في الاستماع والكتابة: ناقد موسيقي في جريدة "براغر بريسة".[١٥]

تعامل "باوم" وسط أصدقائه بمنتهى السلاسة مع إعاقته، كان يتحدث عنها دون أدنى شعور بالرثاء لنفسه؛ إذ كان يشمئز من التعاطف الإجباري. سيطر على حياته اليومية بمساعدة زوجته، التي كانت تقرأ له، ويمليها نصوصه. استخدم لمسوداته ورقًا سميكًا، وآلة كاتبة للمكفوفين (على طريقة برايل)، واستعان، في بعض الأحيان، لكتابة الرسائل بمرسام للحروف. حساسيته من الحديث عن عاهته كان سببها طموحه الأدبي: كان يتذكر بقوة مشاهد من طفولته؛ ولكنه لم يكن متأكدًا من قدرة القارئ على استشفاف قلة انطباعاته الحسية الحديثة، لم يفضل، لذلك، وصف برود له في بعض المناقشات "بالكاتب الكفيف"، كما سعد، في العشرينيات، بعدم ملاحظة لجنة تحكيم جائزة أدبية لاختلافه عندما راجعت مسودته دون أن تعرف هويته.[١٦] مع صعوبة تحقق ذلك عمليًا، كان يفضل أن تظل إعاقته أمرًا شخصيًا. ألم يكن هناك مؤلفون موسيقيون أصحاب علل سمعية، ولا يزعجهم أحد بذكر إعاقتهم.

يظهر هذا الموقف بوضوح من خلال تذكر "باوم" لأول لقاء جمعه بكافكا؛ كان لقاء رتب له برود بالطبع، لم يعرف "باوم" شكل كافكا على الإطلاق (طلب بالتأكيد، وصفه بدقة) ولكنه ربط بين صوته وإشارة أولى قام بها، ويعد الاثنان مميزين لكافكا. أسلوب استيعاب "باوم" لهما يميز شعوره هو الآخر بنقطة ضعفه:

"تركت الحركة الأولى، التي دخل بها كافكا إلى غرفتي، أكثر الانطباعات عمقًا في نفسي. في أثناء تقدم برود، انحنى أمامي في صمت. قد تظن، في البداية، أن هذا التصرف الشكلي بلا معنى؛ لأنني لا أرى شيئًا. ولكن لمس رأسه، في أثناء انحناء قوي من جانبي في الوقت نفسه، جبيني بشكل خاطف. شعرت بتأثر عاطفي، ولم أفهم في هذه اللحظة السبب كاملًا. كان من أوائل البشر الذين قابلتهم، وتعاملوا مع عجزي بوصفه شأنًا خاصًا، لا يتطلب التكيف أو المراعاة، ولم يغير مطلقًا سلوكه من أجلي. هكذا كان كافكا."[١٧]

كانت هذه المقابلة في خريف عام ١٩٠٤، بحسب رواية "باوم"، ولكن الأمر سيستغرق سنوات -ومراحل لا نعرف عن تفاصيلها شيئًا اليوم- إلى أن تتشكل مجموعة من الأصدقاء، تتكون من برود، و"باوم"، وكافكا، و"فيليكس فيلتش". كانت المجموعة تلتقي في اجتماعات دورية؛ لتقديم تقارير عن القراءات والمشروعات الأدبية، وإلقاء النسخ الأولى، والتعليق عليها، فضلًا عن التأليف الموسيقي في بعض الأحيان. عقدت معظم هذه اللقاءات منذ عام ١٩٠٨ لدى "باوم"؛ لأنه الوحيد الذي كان يملك شقة خاصة، ويرجع الفضل، أيضًا، إلى "باوم" في تثبيت ميعاد اللقاء؛ لوجوب مراعاة جدول نشاطاته. لم تكن هذه اللقاءات حصرية، بل جرى الترحيب

بالصديقات والضيوف الآخرين. أحضر برود، أحيانًا، عشيقته "إلزه تاوسيج"، التي كانت تلقي أعمال "باوم"، كما حضر، أيضًا، "باول ليبين"، و"فرانز فيرفل"، الذي أعجب به كافكا لاحقًا، ودعمه برود أيضًا. [١٨] حوّل برود هذه المجموعة الخاصة –البعيدة عن المقاهي- سريعًا إلى نواة لمجموعة غامضة ومتناقضة، ستحدد لاحقًا معالم الصورة المأخوذة عن الأدب الألماني في براغ. إنه اسم "مجموعة براغ"، الذي اشتهر من خلال مذكرات برود، التي صدرت قبل وفاته بعامين.

في كتاب يحمل عنوان "مجموعة براغ"، يرسم كافكا خريطة أدبية لهذه المجموعة، وهي عبارة عن دوائر متراكزة. يتجمع في "الدائرة المنغلقة" (هذا هو عنوان أحد الفصول) كل من برود، وكافكا، و"باوم"، و"فيلتش"، يلتقون لتناول الشاي والكعك. يحل الكاتب "لودفيج فيندر" محل كافكا بعد وفاته. يتجمع في "الدائرة التالية" الكتاب والأدباء الذين التقوا بهم في مقاهٍ مختلفة، في مقهى "أركو" على وجه الخصوص، مثل "فرانز فيرفل"، و"فيلي هاز"، و"باول كورنفيلد"، والأخوين "فرانز وهانز يانوفيتس"، و"أوتو بيك"، و"رودولف فوكس" وغيرهم. تشمل "دائرة التأثير" المشهد الثقافي البراغي بأكمله، ويحتل ماكس برود محور هذه الخريطة بالطبع؛ لأنه جمع بالفعل بين جميع هؤلاء البشر، وكان، بحسب تقريره، ضامنًا لاتحادهم المستمر.

يطرح ذلك، بالضرورة، سؤالًا حول ما إذا كانت هذه الدوائر تمثل أي شيء بخلاف العلاقة الشخصية الحميمة: برنامج تجديدي يسعى للتأثير المحلي، أو اهتمام فني مشترك، كالذي جمع مجموعة "شباب براغ" مثلًا. كانت تصريحات برود متناقضة في هذا الشأن، وتتغير

بحسب موقفه من الأحداث. ألقى، في يوم ٢٨ يناير لعام ١٩١٠ –أي في مرحلة ازدهرت فيها العلاقات داخل "الدوائر المنغلقة"- محاضرةعن موضوع "حدود التصوير الفني". ادعى، في البداية، استحالة التصوير الأدبي لكل شيء؛ نظرًا لعجز اللغة عن عرض "الحقيقة بكل تفاصيلها التي لا تنتهي". كانت فكرة معاصرة تناولها "هوفمانزتال" في عمله خطاب شاندو تناولًا دقيقًا، فضلًا عن تبلور هذه الفكرة أكاديميًا من خلال عمل "فريتس ماوتنر" مقالات في النقد الأدبي بأجزائه الثلاثة. فاجأ برود الجميع بتصريحه أن المقيمين في براغ قد تجاوزوا هذا التشاؤم الفني:

"يجب أن أبوح لكم بشيء. في براغ مدرسة سرية للأدباء أنتمي إليها. الاهتمام بكل كلمة ومقطع، والعناية بكل شيء، نسير على خطى أستاذنا "فلوبير". نحتذي به في دقة عرضه، واهتمامه بكل تفصيلة، وليس برؤيته السوداوية للحياة. لا نفرق بين الشكل والمضمون."[١٩٠]

تجنب برود، ولأسباب وجيهة، ذكر أعضاء مدرسة الأدباء المرية هذه بالاسم؛ لأنه كان سيعترف في هذه الحالة بوجودهم في القاعة، وعدم توافقهم على أفكاره المعروضة (كما سيتضح في المناقشة التي لحقت بمحاضرته). حتى كافكا طلب الكلمة؛ وهو أمر كان شديد الغرابة، وتساءل في سخرية: "بم يجب أن ينشغل الجمهور، بالأدب أم براحته الشخصية؟" من المؤكد أن الشهود على هذه الأمسية في اتحاد "تقدم النساء" (من بينهم "برتا فانتا" التي كانت ناشطة في الاتحاد) قد تعجبوا، حينما قرأوا، في مقالة لبرود، بعدها بثماني سنوات، أن

مدرسة الأدباء البراغية لم تنشأ قط. كتب في الجريدة الأسبوعية السلام، الصادرة في فيينا:

"صدرت، في هذه الأسابيع، سلسلة من المقالات، تتحدث عن مجموعة من الأدباء في براغ، وكأنهم ليسوا مجرد اختراع لحديث عابر، بل حقيقة قائمة بأبعاد ثلاثية. ما كنت لأواجه هذه الأسطورة الأدبية «... » لولا وصف المازحين لشخصي بأنني مدير، أو منظم هذه "المدرسة" المزعومة. بما أن هذه الإشاعة تنتشر بإصرار، أقر بما يلي: لا أعرف أي شيء عن قيادة مجموعة كهذه «... » كما أرفض تحميلي المسؤولية عن كل ما ينشر في براغ، أو من قبل البراغيين."

لن تكون المرة الوحيدة، التي ينكر فيها برود بهذه الاستفاضة إشاعة، ويكون هو نفسه صاحبها، ولم يمنعه ذلك على الإطلاق، وبعد مرور نصف قرن، من وصف مجموعة براغ بأنها مركز قوة أدبية، وأنه يعتلي عرش هذا المركز، مدعيًا، في وهم، أن الدوائر المتراكزة تجتمع من حوله. الأمر العجيب أن هذه الأسطورة لم تستمر في الصحافة فحسب، بل استمرت، كذلك، في سياق أبحاث تاريخ الأدب لعقود قادمة، على الرغم من الشكوك التي أثيرت حولها في بعض الأحيان—لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار الاختلاف الفني واللغوي والموضوعي الشديد بين إبداعات كافكا وبرود الأدبية، ناهيك بعدم اشتغال "فيليكس فيلتش"، وهو عضو بارز في "الدائرة المنغلقة"، بالأدب أصلًا؛ إذ كان يحرر نصوصًا علمية فقط.

كان لبرود أسباب تدفعه إلى رفض دور الريادة في المشهد الأدبي ببراغ، وعرف المراقبون المعاصرون للمشهد هذه الأسباب بسهولة. جاء صعوده إلى مكانة الأديب المرموق والمعروف على مستوى المدينة سريعًا؛

إذ كان يبحث لنفسه، قبل عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩ بوقت بسيط، عن شخصيات تدعمه أدبيًا، ثم صار هو نفسه مرجعية تفيد شباب الأدباء. لكن برود أدرك، سريعًا، أن جهده المنكر لذاته، وحماسه الصادق، ليسا كافيين لربط هذه المواهب بشخصه على المدى البعيد. لقد أخذوا مكانتهم، وبدؤوا في البحث عن علاقات أخرى، وتكوين دوائرهم الخاصة. التقى الأصدقاء الشباب للكتاب "فرانز فيرفل" و"فيلي هاز" مثلًا في مقهى "أركو" الأسطوري، ليس بوصفهم مجرد مجموعة هامشية انبثقت عن المجموعة التي تلتقي حول "أوسكار باوم"، بل بوصفهم مجموعة باهتمامات ونماذج خاصة، وبأحلام تريد تجاوز براغ بمسافات بعيدة. صحيح أن العلاقات مع هذه المجموعة -التي تجاوزت مرحلة المراهقة- في مقهى "أركو" كانت علاقات طيبة، لكن برود -الحاصل على الدكتوراه في عمر الخامسة والعشرين- وجد نفسه هنا ضيفًا. كما حلت المناسبات التي أظهرت هذه المسافة بوضوح.

لعل الصراع الذي نشأ حول "كارل كراوس"، المؤسس والناشر لمجلة الشعلة في فيينا، كان سببًا في تأزم الموقف. صدر العدد الأول من المجلة في أبريل ١٨٩٩ وسط صخب هائل، ولم يجد كل من برود وكافكا، غالبًا، سببًا لعدّها ظاهرة جديدة تمامًا، أو هجومًا حادًا وناقدًا للغة على الصحافة والقضاء وازدواج المعايير الأخلاقية في الحياة العامة، بل كانت مجلة ساخرة على مستوى عال، لا أكثر. لا تُذكر مجلة الشعلة في مراسلاتهما، ولا نجد في تركة كافكا نسخًا للمجلة؛ فقد كانت أنظارهما موجهة، بشكل أكبر، نحو المشهد الأدبي في برلين، في حين لم يتوقعا من فيينا تطورات مثيرة للانتباه، وتابعا المشهد هناك بين الحين والآخر. سعى برود، على الرغم من ذلك، إلى التواصل الشخصي مع مجلة الشعلة، بالوسائل المعتادة في أجهزة الصحافة نفسها: أرسل

خطابات طيبة إلى الناشر (ثلاثة على الأقل)، مقدمًا معها مقتطفات من أعماله. لم يستجب "كارل كراوس" لمحاولات التواصل هذه، ولم يقبل أعمال برود، كما لم ينشر اسمه في المجلة. اخترع برود فكرة حديث "كراوس" "المحمود" عنه، ومن المؤكد أن وصف "كراوس" له بأنه مجرد "النسخة الرديئة في الرواية الغرامية" للكاتب "فرانز بلاي" قد انتشر في مقهى "أركو" أيضًا. يبرر ذلك السب المفاجئ الذي وجهه برود، في مناسبة هامشية في عام ١٩١١، لشخص "كارل كراوس"؛ إذ نعته بأنه "عقلية متواضعة". جاء رد الفعل المتوقع من فيينا بعد أيام قليلة: "الفكر لا يؤثر مطلقًا في شخص برود". لم تهتم دائرة "أركو"، مع "هاز" و"فيرفل"، مطلقًا بهذه العداءات، بل كانوا من أشد المعجبين في براغ بشخص "كراوس"، كما كان من المعروف أن كافكا قد زار، على الأقل، واحدة من محاضراته. أدرك برود، وبقوة، أنه قد فقد في هذه اللحظة تأثيره على الشباب، وأنه محور لدائرة أدباء وحيدة في براغ. كان هذا يمثل بالنسبة له سببًا كافيًا لرفضه تحمل أي مسؤولية، ولكن ظل كرهه لشخص "كراوس" باقيًا. تحول كافكا، في سنوات لاحقة، إلى قارئ شغوف، وناقدٍ أيضًا، لمجلة الشعلة، أما برود فظل يحتك، حتى عمر متقدم، بهذا الممثل النمطي لليهودية الغربية الساخرة والمقتلع من جذوره، كما كان يصفه برود.

لم يكن جذب كافكا إلى أي مجموعة أمرًا هينًا؛ فقد مرت "برتا فانتا" بهذه التجربة من قبل، وابتعد كافكا عن صالونها الأدبي. يبدو أنه لم يتحمس، في البداية، للقاءات المنتظمة لدى "أوسكار باوم" أيضًا؛ إذ نجد، في مراسلات عديدة مبكرة مع برود، اعتذارات لكافكا عن عدم الحضور، كما لم يهتم كافكا مطلقًا بلقاءات العزف الموسيقي. لم

تأت الألفة مع المجموعة إلا ببطء، ولم تُرفع التعاملات الرسمية إلا بعد مرور سنوات. لكن كافكا أحس مع هذه المجموعة الخاصة بأمان أكبر، مقارنة بالمسرح الاجتماعي الصغير لدى آل فانتا، لدرجة أنه اقتنع بقراءة مقتطفات من محاولاته الأدبية. يتذكر "فيليكس فيلتش" قلة استعداد كافكا لذلك مقارنة بالآخرين، على الرغم من تأثر "أوسكار باوم" -المعتمد على أذنيه- بعدها بسنوات بأسلوب كافكا الشغوف في القراءة: "بسرعة مذهلة، وبقاعدة موسيقية عريضة، وتنوعات في العبارات بين جمل طويلة ومقاطع متصاعدة، وتغيرات ديناميكية في الإلقاء."[٢١] يمثل ذلك تناقضًا ظاهريًا فقط مع طبيعة كافكا المتعقلة؛ لأنه كان يفضل، بالطبع، القراءة من أعمال الأدباء الكلاسيكيين، كما كان يتدرب قبل ذلك في غرفة أخواته. هذا ما أكده برود أيضًا؛ إذ كان، دومًا، يذكر قراءة كافكا وإلقاءه في سياق واحد:

"كان يقرأ أعمال "هامزون"، و"هيسة"، و"كاسنر"، و"فلوبير" بشغف، وأذكر من كتابه المفضلين في سنوات لاحقة: "إميل شتراوس"، و"فيلهيلم شيفر"، و"كاروسا"، وعمل الكاتب "هيبل" "صندوق الكنز"، و"فونتانة"، و"شتيفتر"، وعمل الكاتب "فيلهيلم شباير" "كآبة فصول السنة"، و"جوجول"، و"دوستويفسكي" (الذي كان يفضل من أعماله رواية "الشاب" بشكل خاص). نُشرت الرواية باللغة الألمانية في دور نشر "لانجن"، وقرأ لي مقطعًا عن التسول والثراء. أحب أيضًا "تولستوي"، وروايات "شتريندبرج"، ولكن بشكل خاص الكاتب "كلايست". كان يلقي ضاحكًا وباكيًا "نادرة من آخر حرب في بروسيا". قرأ مرارًا وتكرارًا: "جوته" والإنجيل."[٢٢]

دارت الحوارات الطويلة لدى "باوم" حول هؤلاء الكتاب بالتأكيد؛ إذ يرد، على سبيل المثال، ذكر الكاتب "هامزون" في رسائل كافكا المبكرة، كما ظهرت أعماله، أيضًا، في مكتبة كافكا المتواضعة. لا توجد أعمال لحركة الانحلال الأدبية في فرنسا، ولا أعمال لأدب منعطف القرن في فيينا، ولا شعر، أو آخر الأعمال في برلين. من المؤكد أن هذه الدائرة الصغيرة المعنية بالأدب قد أدركت، سريعًا، الاهتمامات الأدبية الخاصة لكافكا، وأن تركيزه قد انصب على النثر في شكله الكلاسيكي. لولا تجربته الغريبة من خلال نص "وصف لمعركة"، الذي لم يتخلَّ عنه بعد، لعده الجميع من هؤلاء التقليديين المحافظين، الذين يبحثون عن نماذجهم ضمن أعمال الماضي العظيمة فقط، أو أعمال "توماس مان" الذي كان يتصرف بوصفه أديبًا كلاسيكيًا.

لو أن كافكا سمح لأصدقائه بالاطلاع على مذكراته المبكرة، المتاحة منذ عام ١٩٠٩، لاختلف انطباعهم تمامًا. لم تكن مذكرات بالمعنى الحرفي؛ إذ لم يبدأ في كتابة مدوناته إلا مع نهاية عام ١٩١٠؛ فقد استعان بدفاتر ليكتب كل شيء، ويصوغ ما يشغله، بدرجات مختلفة من التأليف الأدبي: انطباعات حسية دقيقة، وتأملات للعائلة، وفي الشارع، وفي مسرح المنوعات، وفي دور العرض السينمائية، وأفكار تلقائية مصورة، وذكريات، وأحلام، وأحلام يقظة، وإدراكات حسية لجسده وأجساد الآخرين، وتعبيرات وإشارات لافتة، وحوارات مع الذات، ومسودات لرسائل، وانطباعاته من قراءات وملخصات، ومحاولات لصياغة تأملات مستفيضة ونصوص قصصية. يتعامل كافكا مع القلم كأنه أمام مسودة أدبية: يُجود، ويستكمل أفكارًا، يشطب، ويصحح، ويصحح في بعض الأحيان علامات الترقيم، أو يشطب عبارات بأكملها، حتى إن كانت تأملات بسيطة لا تمت في شكلها البدائي للأدب

المنشور بصلة. لم تكن هذه مجرد تدريبات ترفيهية، حتى إن كان كافكا يستخدم المذكرات، هنا، ليدخل نفسه في أجواء الكتابة. كان يمارس، هنا، الكتابة بوصفها تعبيرًا عن وجوده، وعيّها أداته المألوفة مثلما يألف الآخرون اللغة الشفهية. حينما يمسك بالقلم، تتملكه الرغبة في الكتابة التفصيلية والدقيقة، الواضحة والصادقة. لا يجب أن يدرك هذا الدافع، لأنه صار جزءًا من نفسه، لدرجة أنه لم يعد يفرق بين الفكرة الأساسية، من ناحية، وشكلها الأدبي من ناحية أخرى. لا يختار ما يناسبه من تجارب داخلية وخارجية ليحقق خطة أدبية مسبقة، ولا يختار، أيضًا، ما يكون له الأهمية الكبرى من منظور "موضوعي". يصمت كافكا، في دفاتره، عن كوارث اجتماعية وقعت. يختار اللحظة التي تحركه، وتدفعه للتفكير، أو اللحظة التي تترك مشاعر متضاربة: يمكن مقارنته بعمل المصور الذي يُقيم، مع نهاية اليوم، حصيلة صوره.

يقرر كافكا: "ما يميز حالة الإلهام الخاصة بي أنني أستطيع فعل أي شيء، بشرط ألا يكون هدفي إتمام عمل بعينه. حينما أكتب، عشوائيًا، عبارة مثل "نظر من النافذة"، فإنها تكون عبارة متكاملة." بمعنى آخر: كل عبارة تأتي بهذه الطريقة هي عبارة أدبية. حتى إن صدرت عنه أعمال لم تكتمل تقنيًا بعد، لكنه عاجز عن الكتابة خارج السياق الأدبي، تمامًا مثلما يستحيل الحديث خارج السياق اللغوي. تعد هذه تجربة جديدة، كما يسجل كافكا، هنا، صراحة، نوعًا من الإلهام، لم ينضج تمامًا إلا مع وصوله لعمر الثلاثين، وستصل "لمرحلة أعلى" من كل ما سبق. لم تبقَ له إلا خطوة صغيرة لتتحول هذه القدرة إلى جوهر كيانه. لا نفهم مطلب كافكا الشهير والصعب -بألا يكون شيء سوى الأدب ولا شيء آخر- إلا على خلفية هذا التطور الذي نفهمه، ونعجب منه، من خلال دفاتره المماثلة لورشة كتابة.

لا نعرف ما إذا كان كافكا قد كتب دفاتر كهذه في سنوات سابقة، ولكن نستبعد هذا الأمر؛ لصعوبة مرحلة العمل الشاق في شركة "أسيكوراتسيوني جنرالي" في أوقات الليل والنهار، فضلًا عن أن نص الإعداد لحفل العرس قد كتب على أوراق جاءت من مصادر مختلفة. ما يلفت الانتباه أن مذكرات برود المتاحة بدأت مع عام ١٩٠٩ أيضًا، ويتضح من أول تدوينة أنها جاءت بعد فترة راحة. بدأت، إذًا، كتابة كافكا وبرود لهذه الدفاتر في التوقيت نفسه. من المؤكد أن برود، الذي لا يخفي شيئًا، قد أخبر أصدقاءه بكتابته للمذكرات، وأن كافكا قد تأثر بالفكرة —وربما يكون العكس قد حدث، وأن كافكا هو صاحب الفكرة. لم تكن تدوينات الاثنين صالحة للقراءة المتبادلة بأية حال من الأحوال، حتى إن حاولا؛ إذ من المؤكد أنها كانت ستثير دهشة كبيرة؛ للفرق الشاسع على المستوى البلاغي.

ما كتبه برود لا يمثل سوى مجموعة من الذكريات القصيرة المكتوبة بأسلوب البطاقات البريدية، أي لا تنم عن أي رغبة في صياغة الشكل، أو في تقديم عمل أدبي. تبدأ المذكرات على النحو التالي: "إلى "ريفا" مع كافكا، حضر "أوتو" بعدنا، إجازة سعيدة!، المسبح!! لا تكتب "أ"، ولم تحضر الموعد الغرامي في اليوم الأخير، قصر "توبلينو"، "سانت جياكامو"، "فارونة"، "أركو"، يومان في "بريسكيا" مع الطيران، "دبنسانو"، لقد عشت الكثير، ولن أنساه أبدًا!" يستمر هذا الأسلوب في الكتابة لسنوات، بحسب المذكرات المتاحة لدينا. لا نجد أي تعبير شخصي، حتى في المواقف التي تكون غاية في الشخصية، وما من شعاع ضوء ينير هذه المتاهة.

أما كافكا فكان مبدعًا، حتى مع عبارته الأولى، بالمعنى الحرفي للكلمة. لا نجد نموذجًا "كلاسيكيًا" ربما يكون قد احتذى به، أو تكون تدويناته قد تأثرت بشكله، ربما بعض التشابه مع نص الجريدة للكاتب "ستاندال"، الذي قرأه قبلها بعامين باللغة الفرنسية. تبقى الحدود بين تدويناته الشخصية وصياغة الأدب غير واضحة، غريب هذا النسج بين التفاصيل الحسية والمشاعر المرتبطة بها. يبدو أن كافكا يخترع طريقة جديدة لكتابة المذكرات، التي تسمح له بالاستمرار في الكتابة مع العمل الأدبي، أو بعده؛ كتابة تظل أدبية، ولكن دون أن تكون عملًا أو سعيًا لتحقيق هدف قصصي. إن صارت قصة، فهذا أمر جميل، سيحدث ذلك مستقبلًا. وإن لم تتحول إلى قصة، حسنًا، فقد "كتب" شيئًا على الأقل. كان كافكا يصف مذكراته بأنها الفناء الداخلي للأدب؛ أبوابه مفتوحة على مصراعيها، سواء في اتجاه الواقع الذي يعيشه ويوثقه بأسماء وتواريخ، أو في اتجاه الخيال الذي يتحكم فيه فنيًا، ويكثفه ليخلق منه أعمالًا. يقضي كافكا ساعات لا حصر لها من عمره في هذا الفناء الداخلي، ويكتب فيه العديد والعديد من رسائله، التي نشأت تحديدًا في هذه المنطقة، التي تتحول فيها السيرة الذاتية إلى الأدب. ليس لعلم النفس، أو علم الجمال، الحق الأوحد في النفاذ إليها. لم تكن أعمال كافكا المبكرة، بل هذه التدوينات في مذكراته في هذه السنوات، هي التي برهنت، ولأول مرة، على وضعه الخاص خارج أي سياق، كل سطر باعد بينه وبين "الدوائر البراغية" العديدة. دخل إلى مدرسة أدباء سرية من نوع آخر، لا يزورها إلا تلميذ واحد، ولا يمكن تقييم مدى تقدمه. كيف كان له أن يشرح للأصدقاء تفاصيل ما يكتب في هذه المذكرات؟

"يتجمد المتفرجون، حينما يمر القطار."

"كلما سلني"*، طار حرف "أ" من العبارة واستقر مثل كرة فوق العشب.

تقتلني جديته؛ رأسه داخل الياقة، وشعره لا يتحرك حول جمجمته، وعضلاته مشدودة في مكانها بالأسفل على وجنتيه.

هل ما زالت الغابة موجودة؟ نعم، تقريبًا. لم أكد ألقي بنظري إلى مسافة عشر خطوات إلى الأمام، حتى أحجمت عن ذلك، وتقيدت داخل الحديث الرتيب.

في الغابة المظلمة، بأرضها اللينة، لم أجد ما يهديني سوى الأبيض، لون ياقته.

طلبت في الحلم من الراقصة "إدواردوفا" أن ترقص "الشاردا" مرة أخرى؛ شريط عريض من الظل أو الضوء انعكس وسط وجهها، بين حافة جبينها السفلى ومنتصف ذقنها.

---

* المقصود 'سألني'.

الهبوط في "بريسكيا"

"تظهر الكثير من الجبال في مظهر أفضل
إن نزعنا عنها قممها."

أ. ي. هاوزمان، رسالة إلى أمه، ١٩٠٠

تقع "ريفا" على بحيرة جنيف، وترى جزر "بوروميو". هذا، إن اعتمدنا على معارف الدكتور كافكا "المتميزة" في الجغرافيا؛ إذ نجح في الربط بين ثلاث بحيرات وثلاث دول في عبارة واحدة.

يبدو أن هذه الرسالة، التي بعث بها مع نهاية صيف ١٩٠٨، قد أثارت المرح لدى متلقيها لفترة طويلة؛ إذ جلس ماكس برود مع أخيه الأصغر "أوتو"، لحظة فتحهما لخطاب كافكا، على الشاطئ الغربي لبحيرة "جاردا"، على أرض نمساوية، ولم يجدا في منطقة قضاء الإجازة "ريفا" في المحيط المائي الممتد حولهما على مسافة كيلومترين، والمحاط بالجبال العالية، جزيرة واحدة. كان الصديق في براغ يمزح إذًا. ربما عليهما اصطحابه، في العام التالي، في هذه الرحلة؛ لتكون معلوماته عن العالم الكبير أكثر تحديدًا. [1]

من المؤكد أن النقاش، الذي دار حول رحلة الجنوب الجماعية هذه، قد امتد شهورًا. تطلب الأمر تخطيطًا دقيقًا؛ بسبب قواعد

الإجازات الصارمة على الأقل. كما كانت تكلفة السفر إلى الخارج باهظة الثمن، حتى بالنسبة لكافكا الموفر بطبعه؛ مما تطلب دعم الأسرة (وإن كنا لا نعرف تفاصيل ذلك). عرف عنه أصدقاؤه أنه ليس الرجل الذي يتخذ قرارات عفوية. حتى ميعاد السفر، المتفق عليه في ٤ سبتمبر ١٩٠٩، ظل مترددًا بشأنه حتى اللحظة الأخيرة، ولكن كان هذا الموعد هو الأنسب، بالفعل، لمد الإجازة أطول فترة ممكنة؛ إذ كان يوم سبت، وتمكن كافكا من مغادرة المكتب في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وجلس بعدها بساعة واحدة في عربة الدرجة الثالثة لقطار متجه إلى ميونيخ. استقل، من هناك، قطارًا ليليًا أوصله إلى مضيق "برينر". استغرقت رحلة القطار إحدى وعشرين ساعة إجمالًا، وسعى إلى عدم إضاعة أي دقيقة من هذه الحرية التي حصل عليها بصعوبة. [٢]

لم يرَ كافكا شجر البرتقال، والليمون، والتين في الطبيعة من قبل، ولا بساتين الزيتون، وشجر السرو، والنخيل، وشجر الغار، والريحان، ونبات الصبار. كان يحلم، منذ عامين، بأن يرى هذه النباتات الغريبة عليه من نافذة مكتبه، لكن حلمه بالعمل في "تريست"، أو أمريكا الجنوبية قد دُفِنَ تحت جبال ملفات التأمين. يسافر الآن، مثل معظم الأوروبيين آنذاك، بوصفه سائحًا باحثًا عن الشمس.

لم يكن كافكا محبًا أو خبيرًا في عالم النباتات، ولكن الطقس، الذي يسمح بالبقاء في الخلاء طوال العام، كان جزءًا أساسيًا من الحياة المثالية التي يفكر فيها. عرف، من خلال إجازات الصيف السنوية الطويلة، نموذجًا للحرية الجسدية، والراحة التي تذيب أي توتر، ولكن أخواته

الثلاث هن من تمتعن بهذه السعادة المريحة للبال، في حين أنه كان يحصي ساعات الإجازة المعدودة.

لذلك، لجأ كافكا، في الصيف، إلى رحلات على أطراف المدينة أو حولها. كان برود يعرفه بالعالم الموازي للترفيه الليلي؛ أما هو فعرف برود بالمسابح، والحدائق، وقضاء أسعد الأوقات فيها، فضلًا عن المطاعم التشيكية الريفية، والنزهات سيرًا على الأقدام لثماني ساعات. لم يكن الوقت كافيًا، في بعض الأحيان، إلا للتنزه في حديقة الأشجار، واستقلال الباخرة المتجهة إلى المصب، إلى حلقة سباق الخيل في "كوخل باد" المعروفة بـ "خوخلة"، ثم إلى "كونيجز زال"، أو "زبرازلاف"، ولكن كافكا نجح، بمهارته التخطيطية أحيانًا، في الإعداد لإجازة في نموذج مصغر تستغرق يومًا واحدًا:

"عزيزي ماكس، لا تكلف نفسك بكتابة بطاقة بريدية إليّ؛ لتبلغني بأنك لن تتمكن من الحضور في الساعة السادسة وخمس دقائق إلى محطة قطار "فرانز يوزيف"؛ لأنه يجب عليك القيام بذلك؛ إذ سيقوم القطار المتجه إلى "فران" في هذا التوقيت تحديدًا. سنخطو، في الساعة الثامنة إلا الربع، أولى خطواتنا في اتجاه "دافلة"، وسنأكل، في العاشرة، فلفلة عند "ليديرار"، وسنتناول، في الثانية عشرة، وجبة الغداء في "ستيشوفيتس". سنتنزه في الغابة، ونتوجه إلى الشلالات من الساعة الثانية وحتى الساعة الرابعة إلا الربع، ثم نركب الباخرة إلى براغ في الساعة السابعة. لا تفكر كثيرًا، واحضر، في الساعة السادسة إلا الربع، إلى محطة القطار."[٣]

إن اتبع برود هذه التعليمات، فإن رحلة مثيرة، عبر شلالات "سانت يوهانس"، في انتظاره (قضي عليها اليوم ببناء سد في

هذه المنطقة). ولكن كانت في انتظاره أيضًا رحلة سير على الأقدام لمسافة عشرين كيلو مترًا، وكان كافكا يخطط لها دائمًا بمنتهى الدقة. كثرت هذه الرحلات مع بداية عام ١٩٠٩، وتكررت مشاركة "فيليكس فيلتش" في هذه الرحلات. أحيانًا ما كان الأصدقاء يقضون نهاية الأسبوع بأكملها في هذه الرحلات، خاصة في الصيف. كانت أجمل المناطق لقضاء هذه العطلات في جنوب براغ، على نهر "المولداو" مباشرة، أو في الوديان الجانبية بمسابحها العديدة، وفي وادي "بيراون" (أو "بيرونكا")، ومناطق العطلة الصيفية "تشيرنوفيتس"، و"فشيرنور"، و"دوبريشوفيتس". كانت منطقة يصل كافكا إليها، خلال ساعة، بالقطار، وظل لسنوات يزورها بانتظام. كان يسبح مع برود و"فيلتش" في "دوبريشوفيتس" خلال عيد العنصرة عام ١٩٠٩، وزار، بعدها، سيركًا ريفيًا، وقطع عشرة كيلومترات سيرًا على الأقدام ليبلغ منطقة "منيشك"، ثم استلقى الجميع قليلًا في الهواء الطلق. خلد برود المتحمس هذه الرحلة في مقالة في مجلة المسرح البرلينية، ولدينا كذلك ما يوثق رحلة في يوم أحد من الصيف نفسه قادتهم إلى المدينة الصغيرة "بيراون".[١]

تمتع وادي "ساساو، سازافا" بمناظر طبيعية خلابة؛ إنه نهر صغير حلزوني، ضحل ولكن قوي الجريان، وانصب في مواجهة منطقة "دافلة" من الجهة الشرقية داخل نهر "المولداو". كان الزوار يستقلون القطار إلى منطقة "سنوحرابي"؛ لتناول الفطور هناك، والاستمتاع بالشمس لمدة عشر ساعات في أفضل الأحوال؛ من أجل العودة إلى المكتب في صباح الاثنين بلون برونزي، مثل لون الفلاح. لم يتحمل أي شخص هذا بالتأكيد. فكرة برود باصطحاب "فرانز فيرفل"، شاب في الثامنة عشرة بشعر أشقر داكن وبشرة بيضاء، من

أجل الاستمتاع معًا بشعره في الطبيعة الخلابة، لم تكن موفقة على الإطلاق.

"سافرنا، في يوم أحد من أيام الصيف الجميلة، إلى نهر "سازافا"، الصافي والذهبي اللون. تجردنا من ملابسنا وسط الغابة، في "مسبح مكشوف"؛ إذ كنا نفضله عن المسابح المدنية. سمعنا، ونحن الآلهة العراة للأنهار والأشجار، الأشعار الرنانة "لصديقنا العالمي"، وسبحنا لساعات طويلة وسط الأمواج. لا ينتهي هذا اليوم الصيفي الميليني الراقي في ذاكرتي. تقتحم والدة "فيرفل" شقتي في اليوم التالي؛ كانت سيدة أنيقة، طويلة القامة، جميلة وبشعر أسود، دائمًا مسيطرة على الموقف ورسمية، رأيتها منفعلة في هذا الموقف الوحيد. صاحت متعجبة من تصرفي؛ إذ يفترض أنني أكبر عمرًا وأرجح عقلًا! قالت إن ابنها قد عاد ببشرة شديدة الاحمرار من وطأة ضربة الشمس التي أصابته، وأنه يرقد بحرارة مرتفعة، ولن يدخل امتحان "الماتورا"."[٥٥]

كان من الممكن أن يجيبها برود بأن الليالي التي يقضيها ابنها في "جوجو" أكثر خطورة من ضربة الشمس البسيطة، ولكنه فضل الصمت. لن يصير "فيرفل"، المحب للمقاهي، شخصًا مغرمًا بالسباحة والطبيعة بأية حال من الأحوال، ولم يخطر ببال أي من المنتمين إلى "مجموعة براغ" أن يصطحبه في إجازة صيفية مرة أخرى.

يستطرد برود في ذكرياته: "عشنا، أنا وكافكا، وقتها بعقيدة غريبة، أننا لن نملك الطبيعة في منطقة ما، دون السباحة والتواصل الجسدي في مياه أنهارها التي تجري بحيوية." هذا ما حدث في "ريفا" بالفعل، احتفل كل من فرانز، وماكس، و"أوتو"، الذي

لحق بهما، بكل يوم من الأيام الخمسة التي قضوها هناك، بالسباحة لفترة طويلة في بحيرة "جاردا". يعبرون، بعد تناول الفطور، شارع "بيازا بيناسينسة"، مرورًا برصيف الميناء (الذي سترسو فيه، بعد سنوات قليلة، السفينة الغامضة "الصائد جريكوس")، وبشارع "بونالة" المغبر (اسمه اليوم "فيا جارجانو")، وصولًا إلى طريق مظلل يؤدي بانحدار إلى الشاطئ وإلى المسبح البسيط "باجني ألا مادونينا". كتب برود، لاحقًا، في مدح هذه المنطقة، أن الساعات التي قضاها هناك على خشب الرصيف المغطى بالطحالب كانت أكثر أوقات حياته سلامًا. كان كافكا، أكثرهم سباحة، يتعش هنا أيضًا؛ إذ كتب إلى أخته "إيلي" بثقة نادرة: "إن كنت مهتمة بسعادتي، فيمكنك الآن الشعور بالرضا."[٦]

عندما تعكر الرياح العنيفة "أورا"، وقت الظهيرة، متعة الاستحمام، إذ لا يخلو دليل سفر من تحذير من هذه العاصفة الحرارية، يقوم الأصدقاء برحلات صغيرة في المناطق المحيطة: إلى قرية الصيادين "توربولة"، حيث وقف الجنود التشيك لمراقبة الحدود القريبة، وإلى منطقة الاستشفاء القريبة "أركو" بطقسها المحلي اللطيف الذي لا تشوبه رياح، وأخيرًا إلى القلعة البحرية "كاستل توبلينو"، حيث التقطت صورة لكافكا مع أوتو برود بنظرته الجادة، وكان يرتدي معطفًا من الصوف، وقبعة عالية بحرف صغير، وحذاءً ضخمًا. كان أوتو هو مكتشف هذه المنطقة الفردوسية، ومن الغريب أنها تمتعت بشهرة أقل لدى السائحين النمساويين مقارنة بالسائحين القادمين من بروسيا، وفرنسا، وروسيا.

جاء أوتو برود إلى هذه المنطقة قبلها بعامين، وتمكن لذلك من اصطحاب أخيه وكافكا إلى أجمل الأماكن بكل الثقة. ربما كانت له في الزيارة الأولى اهتمامات أدبية أيضًا؛ إذ كان معروفًا أن الأديب "هاينريش مان"، الذي أحبه الأخوان بقوة، كان يأتي بانتظام إلى "ريفا"، ويقيم في "مصحة الدكتور فون هارتونجن". نجح وقتها أوتو برود، ذو التسعة عشر عامًا، في التعرف إلى "هاينريش مان"، ودعاه باسم أخيه الأكبر، الذي كان معروفًا وقتها، إلى براغ لإلقاء محاضرة في اتحاد القاعة لقراءة الخطب. التقط صورة له مع الكاتب الشهير فوق مركب شراعي، وأرسل الصورة مفتخرًا مع بطاقة بريدية، في إحدى المرات بتوقيع شخصي من الكاتب المحبب إليه. [٧]

لم يتجاوب كافكا مع النصوص النثرية وكتابات "هاينريش مان" الفنية المستفيضة، على الرغم من حماس ماكس برود لثلاثيته الروائية "الآلهة" التي حاول تقليد تأثيراتها اللافتة في رواية "قصر نورنبيبجة". ولكنه كان مهتمًا بالمصحات. لذلك، فإنه من المؤكد أن السائحين البراغيين الثلاثة قد تفقدوا "مصحة الأمراض العصبية وأمراض السكري" بكل تفاصيلها، وهي مقامة على مساحة شاسعة عند بحيرة. كتب، هنا، أجزاء كبيرة من رواية "الآلهة"، تحت إشراف طبي متخصص لعائلة "فون هارتونجن". كما انشغل "توماس"، شقيق "هاينريش مان"، هنا، بأعماله، وخلد وصفًا للأجواء هناك في الصفحات الأولى لقصته تريستان. كان كافكا يعرف كل هذا، وأعجبته الأحوال هنا، لدرجة أنه، بعدها بسنوات، وفي أثناء رحلته الأولى بمفرده، لم يبحث لدى "هارتونجن" عن الاستجمام فحسب، بل عن نوع من الخلاص أيضًا. [٨]

في صيف عام ١٩٠٩، وقع حدث يصعب تصديقه. هذا الحدث أبعد، لفترة قصيرة، الموضوعات المتعلقة بمناطق الصراع السياسية من الصفحات الأولى للصحافة الأوروبية. كان المهندس الفرنسي وصانع الطائرات "لوي بليريو" أول من أقدم على الطيران من فوق البحر؛ إذ عبر بحر المانش، واحتفل الجميع برحلة الطيران التي دامت نصف ساعة، من شاطئ "كاليه" إلى "دوفر"، بوصفها إنجازًا حضاريًا عظيمًا. تمكن، من قبلها، طيار من البقاء أكثر من ساعتين في الهواء، وطار "بليريو" نفسه مسافات أطول، ولكن لم يكن لكل ذلك أي أهمية أمام هذا العمل الرمزي؛ إذ أدرك الجميع أنه سيغير الجغرافيا السياسية والعسكرية. ما أهمية السفن المحملة بالأسلحة وتثبيت مواقع الحدود، ما دام أنه يمكن تجاوز هذه الحدود بماكينات يتم تركيبها داخل الجراج؟ هل ستبقى إنجلترا جزيرة؟ هل اكتسبت المنطقة الأوروبية، المعقدة في تركيبتها، وبالتالي قضية الأمن، بعدًا ثالثًا؟ طرح هذا العمل الفردي كل هذه القضايا، إنه البطل الأول في القرن العشرين، الذي عرفه العالم بأسره في غضون أيام قليلة.

لم يكن كافكا، أو أصدقاؤه، من المولعين بالتقنيات. تأملوا في المجلات تفاصيل صور إنجازات الطيران الحديثة، ولكن كانت فكرتهم عن كيفية الأداء سطحية. ربما كان كافكا، بوصفه متخصصًا في حوادث العمل، الأقدر على شرح مصطلح "قوة الحصان" للآخرين، وكذلك شرح أهمية الجودة في زيوت المحركات. ما جذب اهتمامهم، حقًا، كانت التجربة الجديدة التي ترتبت على هذه التقنية الحديثة. هناك، إذًا، نوع من البشر امتهن وظيفة تطيح بقوانين معينة للطبيعة، مخاطرين في ذلك بحياتهم. كيف يتحرك هؤلاء البشر؟ كيف يفكرون ويتحدثون؟ من الأسئلة التي طرحت –غالبًا في أثناء رحلاتهم الصيفية الكثيرة– سؤال عن

أكثر اللحظات سعادة في مغامرة "لوي بليريو". هل كان انطلاقه وحيدًا، والشمس المشرقة يلونها الأحمر القاني في ظهره؟ أم هبوطه العنيف أمام مجموعة من الإنجليز السذج، الذين يلوحون له؟ أم تلك الدقائق العشر، التي يصعب تخيلها، التي قضاها على ارتفاع ثمانين مترًا فوق البحر، مسرعًا دون أي هدف، ودون أن يرى حوله شيئًا سوى الضباب والمياه؟

لم يتمكن برود من التخلي عن عاداته: لم يرَ بعينيه طائرة في حياته، ولا حتى وهي نقطة في السماء، ولكنه دوَّنَ ما صوره له خياله، ونشره في تعليق هامشي.[9] لم يمر على هذا التعليق سوى أيام قليلة؛ رأى في هذه اللحظة عنوان الصفحة الرئيسية في الجريدة الإيطالية اليومية "لاسيتينيلا بريسكياتا"، وعرف أن "بليريو" "النبيل" مقيم بالقرب منه، في "بريسكيا" نفسها، وأنه سيعرض فنونه في الطيران في أثناء لقاء كبير للطيران. هل هذا ممكن؟ ألم يقل إن "بليريو" قد أصيب؟ كان قد لجأ، في أثناء أيام الطيران في "ريمز" في نهاية أغسطس، إلى هبوط اضطراري بطائرته المصممة لشخص واحد؛ بسبب حريق في خط البنزين، ولكن بإصابات في يده وكدمات. يبدو أنه يسعى للاستمرار هنا في إيطاليا، وذلك بعد مرور أسبوعين فقط على الحادث، كأن شيئًا لم يكن. قوة أعصاب هذا الرجل مذهلة، ومن المؤكد أن الأمر يستحق القيام بهذه الرحلة؛ لرؤيته عن قرب.

ولكن الوقت ضيق؛ إذ يجب إلغاء حجز الفندق في الحال، وتوديع السباحة والرحيل؛ من أجل اللحاق بمشهد الطيران. يبدو أن كافكا و"أوتو برود" قد أصرًا على هذه الرحلة، في حين أن ماكس كان يفضل الاستمتاع بسلام منطقة "ريفا" لفترة أطول.[10] كان من الواضح أن هذه الرحلة ستكون شاقة، وأنه يجب التفكير في حلول

بديلة، دون أموال كافية في حافظة النقود، ودون أدنى خبرة في التعامل خارج بلادهم، وبقدرات محدودة في اللغة الإيطالية – كل هذا من أجل البقاء لساعات قليلة وسط جموع من البشر، الذين يتصبب منهم العرق، والماكينات المطقطقة. يبدو أن برود قد أصابته الدهشة من عدم انزعاج كافكا من كل هذا: لم يعرفه بهذا الشكل من قبل، بل لم يعرفه أي شخص بهذا الشكل من قبل.

استقل الأصدقاء الباخرة في صباح يوم ١٠ سبتمبر، في الساعة الثامنة إلا الربع، وتوجهوا، بداية، إلى الجانب الإيطالي من البحيرة. لا نجد أي أثر لهذه الرحلة في تركة كافكا – ولكن من المؤكد أن هذه الرحلة، التي استغرقت في بحيرة "جاردا" نحوأربع ساعات ونصف، كانت أكثر رحلات حياته إثارة للإعجاب؛ إذ لم تتح له هذه الرحلة، بين أقصى الشمال والجنوب، رؤى مختلفة على الطبيعة المحيطة بجبال "الألب" فحسب، بل أتاحت عشرات المحطات على الشاطئ الأيمن والأيسر مشاهد جديدة خلابة. رأى كافكا قرى الصيادين، وممشى على الشاطئ، ومنحدرات وحوائط صخرية، وغابات من شجر الليمون والزيتون، ومنازل ملتصقة بالمنحدرات، بخلاف القلاع، والفيلات الفاخرة، وقصر "بالازو بورجيزة" الأسطوري على جزيرة "إزولا دي جاردا". [11] جاءت المحطة الأخيرة في "ديزنزانو"، ولم تبقَ إلا رحلة قصيرة بالقطار، ليقف الثلاثة في ظهيرة اليوم نفسه، وقت الراحة الإيطالية "سييستا"، في مكتب لجنة التنظيم، حيث حصلوا على التذاكر لعرض الطيران، وكذلك حجز الفندق.

كان لماكس برود فكرة مبتكرة في أثناء هذه الرحلة، كانت الكتابة عن الحدث المرتقب أمرًا بديهيًا، ولكن ماذا لو تنافس مع كافكا حول

كتابة أفضل تقرير عن الرحلة؟ كان لديه ما يكفي من الاتصالات داخل الجرائد والمجلات؛ حتى لا تتعارض مقالاتهما. بما أنهم قد فوجئوا، هنا، بمصروفات غير متوقعة، فمن المؤكد أن كافكا سيرحب بأي دخل إضافي. قبل، بالفعل، بالدخول في هذه اللعبة، وبدأ الاثنان في تدوين ملحوظاتهما بهمة، وداعب كل منهما الآخر بإخفاء ملحوظاته بعناية.

"بدا المكان المخصص لإقامتنا، من النظرة الأولى، كأنه المكان الأقذر في العالم، ولكن لم يكن، مع مرور الوقت، بهذا السوء. القاذورات موجودة ولا نتحدث عنها، القاذورات لا تتغير ونألف وجودها؛ إذ ترسخ حياتنا الدنيوية، وتجعلها أكثر استقرارًا. يهرع صاحب المكان من داخل هذه القاذورات إلينا، مفتخرًا بنفسه، ونراه نحن متواضعًا «... ». يجب أن نطرح التساؤل التالي: من له أن يعترض على هذه القاذورات؟!"

أحرز كافكا، بهذا الوصف، تقدمًا جميلًا؛ لأنه الوحيد الذي خطرت على باله فكرة وصف عرض الطيران منذ لحظة الإقامة في غرفة الفندق. لا نعرف إلا منه هو عن سحابة القاذورات المبهرة التي رافقت الأصدقاء في اليوم التالي، في طريقهم عبر منطقة ذات طبيعة مستوية إلى ساحة الطيران "مونتي كياري"، مستقلين قطارًا محليًا يعج بالبشر، ويسير (بحسب مفهومنا اليوم) ببطء شديد، "تحيط بهم سحابة من السخام والأتربة"، بجانب طريق ريفي ضيق غير مجهز، تسير عليه مجموعة ضخمة من الدراجات، والدراجات النارية والسيارات، متجهة جميعًا إلى هدف واحد. كان أول ازدحام مروري بسيارات يعيشه كافكا. (رأى المترجم والمحرر الثقافي "باول فيجلر"، الذي وافق، بعدها بوقت

قصير، على نشر هذه المقالة في الجريدة البراغية اليومية بوهيميا، أن مساحة وصف القاذورات أكبر من المطلوب، لينال شهرة الشخص الوحيد الذي اختصر نصًا وافق كافكا عليه.)[١٢]

جرى التخطيط لعرض الطيران في "بريسكيا-مونتي كياري" منذ بداية العام؛ بهدف تصعيد سباقات السيارات السنوية هناك المعروفة عالميًا. شجع النجاح الإعلامي، الذي أحرزه لقاء الطيارين في "ريمز"، المنظمين الإيطاليين على تحقيق نجاح أكبر. أرادوا التفوق بتحويله من حدث ترفيهي جماهيري إلى فعالية قومية ذات أهمية كبرى. كانت المسابقات والجوائز المالية الكبرى، بالطبع، جزءًا من البرنامج في "بريسكيا": لأقصى سرعة، ولأعلى مسافة طيران، ولأسرع رحلة طيران بمسافر، أو لأسرع رحلة طيران على مسافة خمسين كيلو مترًا. جرى التعاقد مع أشهر الطيارين الدوليين، باستثناء الأخوان "رايت"، المحبين للصفقات؛ إذ فضلا عرض طائراتهما ثنائية السطح في برلين (فضلًا عن عدم سعادتهما برحلة طيران بليريو فوق المانش). كان الهدف تقديم لقاء للصحافة لم يسبق له مثيل في أوروبا؛ يجمع السياسة والعائلات الملكية السامية، وعقول الثقافة والهندسة. نجحت هذه الخطة بالفعل، وجاء الصحفيون من جميع دول العالم (ومن الغريب عدم حضور أي صحفي من النمسا، باستثناء كافكا وبرود). لم يأتو هؤلاء لرؤية أفضل الطيارين والميكانيكيين على مستوى العالم فحسب، بل أيضًا لرؤية أهم أصحاب الأعمال والممولين، والأدباء مثل "جابرييل دانونسيو"، والعاهل الإيطالي "فيتوريو أمانويل الثالث"، وأخيرًا وليس آخرًا الملابس الفاخرة للكونتيسات والأميرات. صارت سعادة المنظمين كاملة في لحظة الحضور المفاجئة لأستاذ الأوبرا الإيطالية، ومحب السيارات السريعة، "جياكومو بوتشيني"، الذي أقام في مطعم أقيم

خصيصًا بجانب ساحة الطيران. أتاح المشهد دومًا ما يستحق الرؤية، وتجولت المناظير المكبرة للمشاهدين بين كل من الماكينات الطائرة والمسرح الرئيسي، الذي غطي بالشمسيات. كان كافكا محقًا في أن هذا الحدث يذكره بسباق الخيل.

اقتضى إعداد التقارير المنشودة رؤية ما يحدث عن قرب؛ لذلك لم تكن أماكن الوقوف الرخيصة على حافة ساحة الطيران مناسبة للزوار القادمين من براغ، حيث تجمع هناك آلاف من البشر كل يوم - ناهيك عن الأتربة التي كانت تهب من ساحة وقوف السيارات الضخمة المجاورة، والتي كان عدد السيارات المتجولة داخلها يفوق عدد السيارات في بوهيميا بأكملها. كانت تكلفة الأماكن المتاحة أمام المنصات وعنابر الإعداد للطيران عشر ليرات يوميًا، أي عُشر مرتب كافكا الشهري: نشاط ترفيهي باهظ الثمن، لا سيما أن إقلاع أول طائرة في الجو تطلب الصبر حتى تحل فترة الظهيرة. قضى كافكا وبرود وقتهما في مراقبة الزائرات الراقيات، وبالطبع مراقبة الطيارين ومساعديهم، في صراعهم مع التصميمات الخشبية الضعيفة والمحركات، التي لا يمكن التكهن بأدائها. عرفا من الصحافة أنه لم يفتهما الكثير في الأيام الماضية: أوضاع الطقس صعبة، وتعديل تصميم الأسلاك المشدودة بشكل مستمر، ومحركات تصيبها السخونة، ومروحيات مكسورة. استنكرت المجموعات الغاضبة الموجودة بالقرب من ساحة الطيران الأحداث بإطلاق الصفير (وكان رد فعل جريدة "جازيتو ديلو سبورت" التعليق الساخر بأن رياضة الطيران لم تنشأ بعد). كان من سوء حظ "بليريو"، أيضًا، أنه سقط في حفرة صغيرة؛ لذا أراد الجميع، في هذا التوقيت، مشاهدة ما يستحق عناء هذه الرحلة. توجهت الأنظار، باستمرار، إلى عمود ترمز ألوان أعلامه إلى رسالات مختلفة يوجهها المنظمون. كان الأحمر يرمز إلى قرب إقلاع

طائرة، في حين أن العلم الأبيض يشير إلى احتمالية رفع العلم الأحمر قريبًا.

كانت المطويات الرسمية تشرح هذه التفاصيل، فضلًا عن تقديمها لمعلومات عن المسابقات المرتقبة، وأسماء الطيارين، وأنواع الطائرات. استعان كل من كافكا وبرود بهذه المادة، ببراعة، في صياغة تقاريرهما. تعجب كافكا، وسخر، خصوصًا، من التناقض الذي نشأ بين الطاقات الخارقة المزعومة لمجموعة الطيارين الحاضرة من ناحية، وظهورهم اليومي هنا بأجسادهم. سخر، مثلًا، من الطيار الأمريكي "جلين كورتيس" بوصفه رجلًا نحيلًا، يجلس وحيدًا وهادئًا أمام عنبره، ويقضي ساعة كاملة في قراءة صفحة وحيدة من الجريدة. يتعرض الجمهور المشهور، أيضًا، لنظرة كافكا الثاقبة. يصف، على سبيل المثال، وجه نجم الموسيقى "بوتشيني" بوصفه "وجهًا حاد الملامح، بأنف مميز لمحتسي الخمور"، أما "جابرييل دانونسيو"، قصير القامة وهزيل الجسد، فكان يحوم في خجل حول أهم عضو في اللجنة؛ "كونت أولدو فريدي"". إنه وصف غاية في الدقة؛ لأن الكاتب المغرور، والمولع بالهندسة، كان يتوسل من أجل مرافقة أي من الطيارين في أثناء رحلة الطيران. لم يتمكن "كورتيس"، الرزين، من التخلص من هذه الشخصية الشهيرة، وسمح لنفسه بممازحة "دانونسيو"، فأتاح له أول تجربة طيران في حياته من خلال قفزة لم يتجاوز طولها أمتارًا قليلة. لم يرَ كافكا هذا المشهد للأسف، كان سيسعده بالتأكيد. أما "دانونسيو" فلم يسعد كثيرًا بتقرير كافكا. قال، لاحقًا، لـ "كورتسيو مالابارت": "إنه يحضر إلى إيطاليا، وليس لديه شيء يقوم به سوى إهانتي."[١٣]

لا يعرض الفيلم المصور المتاح لأيام الطيران في "بريسكيا" سوى ساحة طيران ضخمة وخالية، وتظهر الشخصيات والأشياء في حجم متناهي الصغر لا يسمح بالتعرف عليها، أما تقارير كل من كافكا وبرود فتتميز بوصف أكثر حيوية للأجواء. يهتمان بوصف سلوك الجمهور: توقعاتهم وإحباطاتهم، والشعور بالوطنية تجاه من لم يحالفهم الحظ كثيرًا؛ مثل الضابط الإيطالي "ماريو كالديريرا"، الذي قضى وقتًا أطول في إصلاح طائرته، مقارنة بالوقت الذي قضاه في محاولات الطيران نفسها (ونجح، مع ذلك، في اصطحاب "دانونسيو" العنيد، ووصلا إلى ارتفاع عشرة أمتار، وحصل على جائزتين).

يكتب الصحفيان القادمان من براغ بحيوية ودقة عن الحدث الرئيسي، الذي جلب معظم الحاضرين إلى هنا: ظهور الطيار العابر للمانش. يتساءل كافكا: "سألنا عن "بليريو". أين "بليريو" الذي كنا نفكر فيه طوال الوقت؟" كان يمكن التعرف عليه وهو قادم من بعيد، بأنفه الذي يشبه منقار الصقر وشاربه المتدلي. مظهره برجوازي بسيط؛ لا يتأنق ولا يلفت الانتباه إليه في الشارع، ببنطاله الأزرق الذي يرتديه الميكانيكيون. لم يحظَ بهذه الهالة إلا من خلال أخبار الجرائد. كان هذا هو الرجل الذي طار عبر البحر، وحصل، في المقابل، على جائزة قيمتها ألف جنيه إسترليني، وورد إلى ورشة الطائرات الخاصة به أكثر من مائة طلب للتصنيع. جذب، في هذه اللحظة، أمام عيون الآلاف، طائرته الشهيرة من داخل العنبر، "تراث بليريو ٦" كما يعرفها المتخصصون، أبسط الطائرات في الساحة. تبدو طائرة رقيقة مقارنة بالطائرات ثنائية السطح من تراث "فوازين"، التي كانت موجودة أيضًا. من لم يجد مكانًا على المنصات، مثل كافكا ورفقائه، تسلل إلى منطقة السور على الحدود، وتسلق المقاعد المصنوعة من القش؛ ليتمتع برؤية أفضل لعملية

الإقلاع. كتب برود أنه كان يرتعش لحظة إزاحة الحجر من أمام إطارات طائرته، ولكنه كان، في النهاية، متحمسًا مثل سائر الحضور. كانت كلمات كافكا مختلفة تمامًا، تتخللها لهجة تبجيل:

"الآن، تأتي الطائرة التي عبر بها "بليريو" القناة. لم يُعلن عن ذلك، ولكن الجميع عرفه. بعد توقف طويل، نرى "بليريو" محلقًا في الهواء، الجزء العلوي من جسده مستقيم فوق الجناحين، وساقاه مستقرتان داخل الطائرة، وكأنهما جزء من الماكينة. لقد مالت الشمس، وأضاءت عبر مظلة المنصة الجناحين المحلقين. نظر الجميع إليه باهتمام، ولم يكن في قلوبهم مكان لشخص آخر. يطير في حلقة صغيرة، ثم يظهر في وضع أفقي فوقنا. يرى الجميع، وهم يرفعون رؤوسهم، تأرجح طائرة الطيار الواحد. يسيطر "بليريو" على الموقف ويصعد أكثر. ماذا يحدث؟ شخص مسجون داخل تصميم خشبي على ارتفاع عشرين مترًا من الأرض، ويقاوم خطرًا مخفيًا عرض نفسه له طواعية. أما نحن، فنقف على الهامش، دون أي أهمية، ونشاهد هذا الشخص."

يبدو المشهد، بالنسبة لبرود، كأن الطيار "محمول من غمغمة الآلاف، التي زادت مع اشتعال حماسهم"، أما كافكا فيعكس الرؤية في العبارة الأخيرة، وينظر بعيون "بليريو" إلى جموع البشر في الأسفل، الذين لا يملكون أي حيلة ولا تأثير في الحدث، ويظلون، لذلك، "دون أي أهمية". وصف كافكا أكثر واقعية؛ تقريره سينمائي، كأنه مصحوب بكاميرا متحركة. نجد، هنا، للمرة الأولى -لم يكن عمدًا، أو من خلال التفكير في الأدب الراقي بكل تأكيد- إشارة إلى توجهه نحو أسلوب جديد للسرد. سيتحدث، في نهاية حياته، عن "نوع أرقى من

الملاحظة"، الذي يعده هدفه الأسمى من الكتابة. لقد خطا خطواته الأولى في هذا الشأن في بريسكيا، وليس في عمله "وصف لمعركة". [١٤]

من العجائب الصغيرة للتوثيق التاريخي أن هناك صورة فوتوغرافية للحظة التي يطير فيها "بليريو" بالقرب من كافكا. يمكن التعرف على الطيار من خلال تراث طائرته، في حين أن كافكا يقف، مثل سائر الجمهور، على مقعد، نراه من الخلف يميل إلى الجنب، ولكن التعرف عليه سهل. ظلت هذه الصورة، لعشرات السنوات، مختفية داخل مجموعة لشخص إيطالي مولع بالطيران، ولكن لم يعرف كافكا أو برود شيئًا عنها. [١٥]

كان الوقت كافيًا ليوم آخر في "ريفا"، وللسباحة، للمرة الأخيرة، في البحيرة. ولكن الأمر تطلب، بعد ذلك، الإسراع للسفر مع الفجر، وقضاء يوم وليلة في القطارات والمحطات. نزل الثلاثة، يوم ١٥ سبتمبر في الساعة السابعة صباحًا، من القطار الليلي القادم من ميونيخ إلى براغ. بقي كافكا ساعة أخرى ليغتسل ويغير بزته، ثم هرع إلى المكتب، بلونه البرونزي المعهود، ليعرف، بمجرد وصوله، أنه ترقى لوظيفة "متدرب الشركة". طلب منه الزملاء، في الأغلب، أن يحكي لهم عن الأيام الماضية. كان الزملاء والرؤساء في العمل سيعرفون كل شيء عن هذه الأحداث المثيرة بكل حال من الأحوال: من الجرائد.

يلخص عالم الأدب "بيتر ديمتس" دراسته حول عرض الطيران في "بريسكيا" بأن هذا الحدث يمثل "آخر لحظة مضيئة لبراءة خاصة" في تاريخ فن الطيران البشري. [١٦] لقد كان محقًا، وليس فقط بسبب النشر السريع للقوات العسكرية في المجال الجوي. أتيحت، في "بريسكيا"، الفرصة الأخيرة لمراقبة عملية الطيران عن قرب، بوصفها

تجربة "متكاملة": رأى المتفرجون إفراغ ماكينات الطيران، وتركيبها، وصيانتها. رأوا البشر الذين يعملون على هذه الماكينات ويتحكمون فيها؛ ثلاثة رجال، وأربعة يقفون للإمساك بالماكينة قبل الإقلاع، لم يفرق بين "الموظفين على الأرض" والطيارين: كان كل فرد منهم يقوم بكل شيء؛ مصممو المحركات يطيرون، والطيارون يصلحون المحركات. يتجول الأقارب في المكان، كأنهم جزء من سيرك متنقل، وكان يمكن مراقبة لحظات الحيرة أيضًا. في الوقت نفسه، لم يزل الطيران، آنذاك، قريبًا من التجارب اليومية التقنية؛ مما جعل المشاهدين يفهمون التفاصيل بشكل واضح. كان للطائرات صوت يشبه السيارات، كما أنها تهبط على إطارات مثل إطارات الدراجات. لم تكن هناك ملابس مخصصة للطيارين بعد، ومن أتيح له مرافقة الطيار، كان يرتدي البزة ورابطة العنق، وربما يصادفه سوء الحظ ويتلوث بنطاله برشاش من الزيت الساخن.

ما أنجز كان واضحًا على الأقل: الماكينات لم تزل بطيئة، بشكل أتاح متابعة أداء الطيار بانتباه؛ لم يتمكنوا بعد من الطيران لأبعد، أو لأعلى، أو لفترة أطول، لدرجة تمنع رؤيتهم بالعين المجردة. حتى المحاولة الفاشلة بتخطي الرقم القياسي في ارتفاع الطيران، التي شاهدها كافكا في المساء، وصلت إلى مسافة أفقية قدرها ١١٦ مترًا، الأمر الذي لم يمنع التواصل، بل أتاحت هذه المسافة التلويح للطيار والتصفيق له. وصلت الطائرات، بعدها بعام واحد فقط، إلى ارتفاعات تجاوز ألف متر، وابتعدت بسرعتها، التي بلغت مائة كيلو متر في الساعة، عن أنظار متابعيها. كان هذا التطور السريع السبب في أن لقاءات عرض الطيران، كالتي أقيمت في "بريسكيا" و"ريمز"، لم تعد مفيدة إلا في إطار زمني لا يتجاوز العامين، أو الأعوام الثلاثة القادمة. في وقت قريب، لن يُقدم

للمشاهدين سوى عروض في مناطق هبوط الطيارات بعد أن تقطع مسافات طويلة، أو عروض لطيارين تخصصوا في الإثارة، يقدمون عروضًا يطيرون خلالها في أشكال دائرية أو لأسفل. كانت بمنزلة فقرات في السيرك؛ لا تمت للحلم الأبدي بالطيران بصلة. صار الطيران، مع هذا التصعيد، يمثل خطورة حقيقية. نجا "بليريو"، والعديد من الطيارين، دون إصابات في أثناء عشرات المرات من الهبوط الاضطراري؛ لأنهم ظلوا على اتصال بالأرض بالمفهوم التقني. أما الطيران الحر، دون أي قيود، مع عام ١٩١٠، فكان له العديد من الضحايا.

لم يحلم ماكس برود، بالتأكيد، في "بريسكيا" أنه سيطير بعد خمسين سنة عبر المحيط، بثمن باهظ، ولكن براحة في كابينة واسعة ومكيفة، تخدمه السيدات في زي موحد. في عام ١٩٠٩، كانت هذه صورة لا يمكن تصورها إلا في رواية خيالية. سيتمتع الجميع، مؤقتًا، في الشهور القادمة بعروض الطيارين البريئة هذه. قام ائتلاف تجاري في فيينا بشراء طائرة من طراز الطائرة التي عبر بها "بليريو" القناة نفسه، وكانوا ينقلون هذه اللعبة الكبيرة من مدينة لأخرى. وصلت، في نوفمبر، إلى براغ أيضًا؛ إذ عرضت، لمدة أسبوع، في فندق "بالاس"، بالقرب من الطريق الدائري المطوق للبلدة القديمة، وشاهدها العديد ممن أثارت فضولهم، فضلًا عن فصول مدرسية كاملة. كانت رؤية طائرة تطير فعليًا متاحة بعدها بعدة أسابيع، في يوم ٢ يناير ١٩١٠ في ساحة سباق الخيل "كوخل باد"، حيث دفعت طائرة ثنائية السطح بقوة، ثم سقطت بعد دقائق قليلة متحطمة على الأرض. جاء أكثر من خمسين ألف شخص لمشاهدة هذه الحدث المثير، معظمهم بقطارات خاصة. اتسم

تقرير جريدة "براغر تاجبلات" بالموضوعية: "دمر الحادث الانطباع الإيجابي الذي خلفته الطائرة في أثناء تحليقها."

استمرت القافلة في سيرها، وظل الطيران البشري وكل ما يتعلق به، موضوع الساعة الرمزي في الأدب الحديث في السنوات القادمة: استحضر الكاتب "دانونسيو"، في روايته "ربما وربما لا" (١٩١٠)، الطيار بوصفه المغامر والإنسان الخارق، كما ربطه القرن العشرين في بدايته بأسطورة "إيكاروس" – ولكنه لم يحسن تفسير هذه الأسطورة لحظة ربطها بالنمط الجديد لهؤلاء المهندسين الطائرين، الذين التقى بهم في "بريسكيا". ماكس برود، الذي تبنى فلسفة "نيتشه" المتشككة، كان بعيدًا تمامًا عن التعظيم بهذا الشكل. بطل روايته أرنولد بير، التي تحمل الاسم نفسه (نشرت أيضًا في عام ١٩١٠)، يفشل بجدارة؛ بسبب تنظيم عرض للطيران. أما الطيارون الحقيقيون فقاموا بدمقرطة أو عسكرة الطيران، وأخذوا معهم على متن طائراتهم الكاميرات، وجوالات البريد، وأخيرًا الأسلحة. صار "بليريو" رجل أعمال، اشترى مصنع طائرات، وأنتج، في أثناء الحرب العالمية، طائرات مقاتلة وقاذفة للقنابل. أدار "كالديريرا" مدرسة للطيارين، وأنتج "كورتيس" محركات للطائرات معقدة التصميم. كان الأخير، الأمريكي الجنسية، سيندهش، قطعًا، إن سمع الأخبار العظيمة الخاصة "بالراكب" الذي رافقه يومًا. لم ينجح "دانونسيو" في الحصول على رخصة الطيران، ولكنه ألقى بيديه قنابل صغيرة على مواقع نمساوية، وتوج نشاطه، بوصفه طيارًا مرافقًا في أغسطس عام ١٩١٨، برحلة طيران خطيرة، استمرت ثماني ساعات، وألقى، خلالها، بمنشورات كتبها بنفسه على مركز العدو، في العاصمة فيينا، وذلك من ارتفاع بلغ ثلاثة آلاف متر.

لم يهتم كافكا بأعمال من هذا النوع، أو بالأنشطة المتجاوزة للحدود، التي سعت إلى تخطي رقم قياسي، ولم يتم التحكم فيها إلا باستخدام ساعة الإيقاف. كما لم تثره الإنجازات التقنية، التي ابتعدت عن مجال الإدراك الحسي. كان قادرًا على تخيل حالة الوحدة عند القيام برحلة إلى القطب الجنوبي، ولم تشغله، لحظتها، خطوط العرض التي يجتازها الإنسان. اهتم بسباقات الخيل، أما سباقات السيارات فلا. ليس لدينا لذلك ما يدل على مشاهدته لطيار في أثناء عمله مرة أخرى. أتيحت له الفرصة لذلك، ولكن يبدو أنه لم يستغلها. أنتجت، في عام وفاته، طائرات تتخطى مائة متر في الثانية. لم يتبقَّ، في هذه الحالة، شيء للمشاهدة.

مَثَّلَ الطيران البشري لكافكا حركة في مجال حر تشبه السباحة. كانت حركة يجب استيعابها جسديًا؛ ليكون لها تأثير روحي. ولكن يعترض طريق هذه التجربة الجسدية جهاز يفصل الجسم البشري عن عناصر الطبيعة، وبذلك عن التجربة ذاتها. لو أن الماكينة بسيطة، بالقدر الذي يسمح بالانصهار معها، كما لاحظ كافكا في أثناء مشاهدة "بليريو"، لفتحت آفاقًا لتجربة جديدة تمامًا. كان سيعد رحلة الطيران داخل طائرة ركاب بعيدة عن فكرة الطيران، تمامًا مثل ركوب الغواصة، الأمر الذي لا يمت لتجربة السباحة بصلة.

دون كافكا، في مارس عام ١٩١٧، أي بعد رحلة "بريسكيا" بثماني سنوات، قصة تحكي عن رحلة طيران. يتحدث، في هذه القصة، عن تدريبات طيران ممنهجة تتكرر مرات عديدة من أجل التحضير لرحلة كبيرة. هدف الرحلة هي "بلاد الجنوب"، ربما إيطاليا، أو أبعد من ذلك. ولكن لا يحلم الطيار بطائرة ثنائية السطح، أو اجتياز

اختبار الطيران، وإنما يفكر في أمر آخر. يقوم بترويض طائر كبير، ومع حلول الربيع سيمتطي هذا الطائر متجهًا إلى "الأجواء اللطيفة في الجنوب المشرق"، دون مروحية، ودون ضجيج، ودون متفرجين، ودون عودة.[١٧]

في قلب الغرب

"تجول في المدينة
لا داعي للوقوف مفتخرًا
أضف صوتك إلى المجموع."

فريق الإنسانية، صوت الجموع*

فقد ماكس برود أعصابه هذه المرة. لقد استنفد أيام إجازاته بوصفه موظفًا في مصلحة البريد المركزية. لم تتح له، في عام ١٩٠٩، إلا أيام قليلة في "ريفا" و"بريسكيا". كما وصله خبر نقله إلى مكتب بريد عادي؛ مما سيضطره، في المستقبل، إلى قضاء فترات بعد الظهر في المكتب. قدرة المتفائلين على تحمل المصاعب لها حدودها أيضًا؛ إذ كانت له، منذ فترة طويلة، خطط مختلفة تمامًا، وكان يحتاج إلى الحركة بحرية. ألم يحن الوقت لزيارة باريس؟ ما زال يهتم، اهتمامًا كبيرًا، بأعمال "فلوبير" وشهادات عن حياته، ولكنه اضطر، مؤخرًا، إلى

---

* ترجمة عن اللغة الإنجليزية، والأصل الإنجليزي في النص هو:

Get around town
No need to stand proud
Add your voice to the sound of the crowd
The Human League, SOUND OF THE CROWD

الاعتراف لابنة أخي الأخير بأنه لم يزر قط أماكن الأحداث الأصلية. متى سيكون الوقت مناسبًا؟ قرر برود، مع بداية نوفمبر، أن يفعل ما يحلو له، متجاهلًا خبر نقله. ذهب إلى محطة القطار، بدلًا من الذهاب إلى المكتب، واستقل قطارًا يقطع مسافات بعيدة؛ يصحبه صديق من براغ، هو الرسام والحافر على الحجر "جورج كارس" المقيم في "مونتمارتر". قضى برود أيامًا قليلة في باريس، ثم قاده "كارس" إلى بعض المعارض الفنية، والمقاهي، والحانات الليلية. بعث إليه والده يخبره بأن أمره قد انكشف. عاد برود، وتم تحويله للتحقيق، وفكر في الانتحار. ظل، لفترة طويلة، لا يعرف مصير الوظيفة، هل سيدفع ثمن هذه الرحلة المتعجلة بالإقالة؟ اقتصر الأمر على لفت نظر كتابي. يبدو أن موظف التحقيق كانت له اهتمامات أدبية، وحاول منع وقوع مصيبة.[1]

لعل ظروفه الصعبة هي السبب في عدم انبهاره الساذج بباريس، مثل السائحين المحبين للأدب والفنون؛ إذ لم يسجل شيئًا باهتمام سوى العادات اليومية، والإشارات، والروائح، والأصوات، والعبارات – كأنه يفكر في الانتقال للعيش هنا. لم يفت عليه أنه، بجانب كثافة الانطباعات، وجد أمورًا كثيرة في هذا المحيط الجديد تبعث على الارتياح والفضول. قارن، مثلًا، وهو غاية في التعجب من نفسه، بين المقهى المميز في فندق براغ "النجمة الزرقاء" ومقهى باريسي بسيط، صاخب وغير مكيف، ولكنه شعر بالارتياح داخله: "هكذا تغيرت المفاهيم." لخص في نهاية هذه الرحلة: "لا نرى، هنا، منازل جديدة، ولا أي نوع من الفخامة [...] لماذا، إذًا، نعد هنا محور العالم؟ ـ إنهم

البشر [...]. شعوري أن هذا يمثل الحقيقة؛ من المربح أن أؤكد على الحكم العام المعروف عن باريس."[٢٠٠]

إنهم البشر: يبدو أن تصور برود وكافكا عن كم البشر الذين قدموا إلى باريس في الفترة الماضية، باحثين عن حريتهم (من روسيا وحدها ٢٥٠٠٠ شخص)، كان تصورًا غير دقيق. كان هذا "الحكم العام" حكمًا سياسيًا بالدرجة الأولى، وكان يتفوه به في براغ هؤلاء المثقفون الباحثون عن توجهات بعيدة عن مجالات تأثير السلطة الألمانية. كانت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع العاصمة النمساوية هي الأقوى؛ إذ أقام، مع منعطف القرن، نحو ربع مليون شخص، لغتهم الأم هي التشيكية، في فيينا، ولكن كان ثمن التأقلم في عاصمة الهابسبورج مرتبطًا بقبول الإهانة. كان يجب على من يرغب في البقاء في فيينا، والتمتع بحقوق المواطنة، القسم بأنه سيقوم بكل ما في وسعه من أجل الحفاظ على الطابع الألماني للمدينة (بدا ذلك عجيبًا بلكنته التشيكية). كان لذلك التطلع التقدمي للبرجوازية التشيكية إلى "الغرب قلب" العالم، باريس، أكثر جاذبية. تجسدت هذه القدوة، تجسدًا ملموسًا، في النموذج المصغر لبرج إيفل، الذي أقيم في منطقة "لاورينسيبرج". صارت العاصمة العالمية، باريس، الملاذ الثقافي، وكذلك الملاذ الوطني والسياسي في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ إذ فتحت أبوابها على مصراعيها للاجئين القادمين من التشيك.

شاركوا، بذلك، في إرساء ثقافة أوروبية رائدة، ومن الواضح أنها لم تقتصر على الماضي فحسب، بل امتدت، كذلك، للمستقبل الذي ينتظرها: بدا استنتاج "فالتر بنيامين"، أن باريس كانت عاصمة القرن التاسع عشر، متعجلًا، ومثار تعجب معظم المثقفين في أغلب

الأحيان. تراكمت، في المقاهي النمساوية، أكوام من مجلات الأزياء الفرنسية، وتوجهت أنظار الرجال المتحمسين للهندسة، حينما كانوا يتحدثون عن مستقبل الطيران، إلى باريس. سيطرت الشركات الباريسية كذلك على الفيلم الأوروبي، وتبعًا على وسيط المستقبل للثقافة، التي تخاطب الجماهير، خاصة مجموعة "باتيه" التي كانت تمتلك شركة فرعية في فيينا؛ لم تستطع الاستديوهات الأمريكية الجبارة منافستها. كان كل قارئ للإعلانات يعرف أن المقرات الرئيسية للشركات العالمية توجد في باريس: عطور "روجر وجاليه"، وإطارات "ميشلين"، وسيارات "كليمون بايارد".

ثقافة المنوعات الفرنسية، التي عرفتها براغ باستضافة هذه الحفلات الناجحة لديها، عززت من أسطورة باريس بوصفها مدينة الحب، والعاصمة الوحيدة التي أنتجت ثقافة جنسية صالحة للجماهير. لا يوجد زائر لباريس لا تعكر هذه التوقعات صفو نظرته لهذه المدينة. دوَّن برود ملحوظة مفادها أنه لم يفهم مصطلح "libertinage" فهمًا حقيقيًا إلا حينما شاهد الباريسيات "المضحكات" (كان يقصد العاهرات في قاعة رقص "المولين دو لا جاليت"). عزز من سيولة هذا التصور أنه، فيما يبدو، لم يتداخل في أي مكان في العالم الجنس والإبداع مثلما تداخلا في بعض أرجاء باريس. تمتع حي "مونبارناس"، مثلًا، بسمعة الملهم لفن الرسم الحديث. كان اللقاء بعباقرة فن الرسم متاحًا في أي مقهى هناك، وفي أي وقت من الليل أو النهار. من المؤكد أن برود قد رأى، في سياق تعرفه على تجار الفن هناك، أعمال الذين تخلوا عن الحركة التعبيرية، مثل "بيكاسو"، و"براك"، و"ليجير"، و"ماتيس"، و"بونار". [٣] لم تلفت حركة التكعيبية الفنية الأنظار إليها إلا منذ شهور قليلة، ورأى برود، هناك، أصول بعض النماذج الأولى من لغة الشكل الثورية هذه

(قامت المجموعة الفنية "تردوشابني"، في العام التالي، باستيراد هذه الحركة إلى براغ).

من المؤكد أنه ذهب دون استعداد مسبق إلى باريس، وأن ضيق الوقت لم يسمح بترتيب متأن لانطباعاته الأولى، ناهيك بمتابعة اهتماماته الأدبية والموسيقية، التي كان ينوي، بلا شك، وضعها في برنامجه أيضًا. لم يجد برود، في الأغلب، أي صعوبة في إقناع أخيه وكافكا بضرورة القيام بهذه الرحلة التثقيفية معًا، ولكن، في هذه المرة، بشكل أكثر استقلالًا، وبعد تخطيط محكم. ألم يتحدث كافكا من قبل عن رغبته في الذهاب لمدة عام كامل إلى باريس؟ كان ذلك في مرحلة بحثه عن العمل، حينما أوحى له مجموعة من الفرنسيين، في إحدى الحانات، بهذه الفكرة، وظلت هذه الفكرة حاضرة في ذهنه. زار الأصدقاء، في يناير عام ١٩١٠، أي بعد مرور شهرين على عودة برود، محاضرة مصورة عن باريس، حيث دار الحديث، إلى جانب السياسة والثقافة، حول الموضوع الذي يصعب تجنبه، أي "سيدات باريس"، وذلك "بأسلوب متخصص وراقٍ". [٤]

ظل عدم الإلمام باللغة يمثل العائق الرئيسي؛ إذ لم تكن الارتجالات اللغوية المستعينة بمعرفة اللغة اللاتينية، التي كانوا يلجؤون إليها أحيانًا في "بريسكيا"، مفيدة في باريس على الإطلاق. صحيح أن برود وكافكا قد درسا، في هذه الأثناء، عملًا آخر للكاتب "فلوبير" بلغته الأصلية "إغواءات القديس أنطوان"، كما كان برود يترجم عن الفرنسية، لكن النطق والقدرة على المحادثة لم يسعفاهم، وتسببا في مواقف محرجة. قبل تحديد موعد للسفر، التقوا، في بداية يوليو، على أقصى تقدير بالرسام "فيلي نوفاك" للتدريب على اللغة الفرنسية، كما

أخذوا، في الفترة ما بين منتصف أغسطس ونهاية أكتوبر، دروسًا في اللغة الفرنسية مع مدرسة.

يبدو أن برود قد ارتاح لاهتمام كافكا الجاد بخططهم المشتركة؛ إذ صار صديقه أصعب في تعاملاته، وغير لطيف. كان كافكا يشكو دائمًا من المرض، وبدلًا من شرح معاناته النفسية كان يصفها بصور متناقضة، دون ذكرها مباشرة. كتب إلى برود:

"كل ما أملك موجه ضدي، وكل ما هو موجه ضدي لم يعد ملكي. على سبيل المثال معدتي التي تؤلمني لم تعد معدتي؛ لأنها لا تختلف اختلافًا جوهريًا، عن أي شخص غريب أراد أن يبرحني ضربًا. هذه هي حالي دومًا، أنا عبارة عن حقن تدخل في جسدي، وإن قاومتها بعنف، يترتب على ذلك غرز الإبر بشكل أفضل في جسدي. أريد، أحيانًا، أن أقول إن الله وحده يعلم حجم شعوري بالألم؛ لأنني، مع ضرورة إلحاق الألم بنفسي، لا أصل لمرحلة استيعاب هذا الألم. ولكن يجب أن أعترف لنفسي بيقيني أنني أكثر الأشخاص بعدًا عن الألم [...] عزيزي ماكس، يجب عليك تصديق ذلك، كنت في الظهيرة جاهزًا للشعور بالألم بترتيب دقيق. لن أسمح، من الآن وصاعدًا بأن يقنعني أي شخص بأمر مختلف: إن طلقة الرصاص هي أفضل حل. سأطلق الرصاص لأختفي من الساحة، التي لم أعد موجودًا بها بالفعل. حسنًا، هذا جبن، وسيظل هكذا، حتى إن لم يسمح الموقف ببدائل أخرى. هذا الموقف قائم هنا، لدينا هنا موقف يجب أن يزول بأي ثمن. ولكن لا يوجد مَن يزيله عن جبن، أما الشجاعة فتحول هذا الموقف إلى حالة من التشنج. سيبقى الموقف على حاله، لا تقلق."[٥]

لا يفهم أحد ما يريد قوله، ومن المؤكد أن لعبة كافكا مع الحلول العنيفة، إذ لم تكن المرة الأخيرة، قد بدت لبرود عملًا طائشًا. إنها، في الأغلب، دراما داخلية، تلك التي دفعت بكافكا إلى متاهة من الأفكار. ولكن أي عنوان تحمله هذه الدراما؟ لم تكن العاطفية الزائدة؛ لأنها ليست من طبع كافكا. لقد عاش هذه المعاناة دون شك، ولكن لم يفهم برود هذه النتائج الكئيبة التي توصل إليها كافكا. لاحظ، في مذكراته، كلمة "مصيبة" غير مرة، ولم ينجح في تحديد ما يكمن وراءها. هو نفسه فكر للحظة في إنهاء حياته، ولكن كان السبب في ذلك حدثًا محددًا، رد عليه بتصرف محدد؛ ليخرج من هذا الموقف الصعب من باب خلفي آخر. حزم حقيبته وغادر، وزالت لحظة الجنون في زخم التجارب الجديدة. أما كافكا فكان ينكر صلاحية هذه الإجراءات المتحمسة لحالته هو؛ مما جعل الحوار معه أكثر صعوبة. ما الأمور التي لا تزال تجذب اهتمامه؟ لم يفلح برود في اكتشاف ذلك، لا في أثناء الاستحمام في النهر صيفًا، ولا في أثناء التجديف في نهر "المولداو". ابتعد كافكا، نهائيًا، عن عمله "وصف لمعركة"، الذي كلفه عناءً كبيرًا على مدار سنوات، وكان يفترض أن يكون إصدارًا ضخمًا. ترك المسودة لصديقه، مؤكدًا له سعادته بخروج هذه الأوراق من المنزل. كانت إشارة مدمرة في عيون برود، الذي كان يخشى تأثره بهذه الحالة. كم كانت حواراته مع "فيليكس فيلتش"، مثلًا، مختلفة، وتبعث على الحيوية؛ إذ ذكرته، لفترة، بالحماس البريء، وشغف المعرفة في مرحلة المدرسة الثانوية، التي أدت بهم إلى عمل فلسفي مشترك. كان برود يستمتع بلقاءات العمل هذه: "بعيدًا عن تشاؤم كافكا"، كما دوّن في مذكراته.

تشير الشهادات القليلة الموجودة على حياته إلى أن كافكا كان يمر، بالفعل، في أثناء هذه الأشهر، بتحول نفسي؛ يمكن تفسيره بوصفه

أزمة، ويمكن تفسيره، كذلك، بوصفه طفرة عاشها في مرحلة النضوج. لم يستطع بعد في هذه المرحلة إطلاق المسميات، ولكنه يعاني من عدم التجانس الداخلي، ومن التشتت الفكري والإدراكي، لدرجة أنه عدَّ جسده "شخصًا غريبًا" عليه. لم تكن هذه الحالات جديدة عليه تمامًا؛ إذ توحي نصوصه المبكرة بذلك في وضوح كافٍ، ولكن لم تصدر عنه من قبل عبارة تنذر بالخطر، مثل "لو كنت أنا أنا". إنها لحظة يومض فيه شغفه المعتاد بالتلاعب بالصور، ولكنه حديث فيه جدية عميقة. من المؤكد أن برود قد أصابه الرعب من حقيقة أن كافكا يبلغه بهذا المضمون في رسالة، وعلى مسافة لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار - ناهيك بـ"الطلقة" المذكورة في النهاية. هل كان هذا الخبر موجهًا له بالفعل؟ أم أنها أمور كان يجب على كافكا تفسيرها لنفسه أولًا؟

"أخيرًا، وبعد مرور خمسة أشهر من عمري، لم أكتب، خلالها، أي شيء يرضيني، لن يعوضني عنها أي شيء، حتى إن وجب ذلك على الجميع، تأتيني الآن فكرة الحديث إلى نفسي. لا تزال هذه إجابتي حينما كنت أسأل نفسي عن حق، لا يزال هناك شيء يمكن أن يخرج من كومة القش هذه، التي تحولت لها منذ خمسة أشهر. قدري أن أشتعل في الصيف وأحترق، بسرعة قبل أن ترمش عيون المشاهدين. ليت هذا يحدث لي! بل عشرة أضعافه؛ لأنني لا أشعر بالندم على هذه المرحلة التعيسة. حالتي ليست تعيسة ولا سعيدة، ليست عدم اكتراث، ولا ضعفًا، ولا إجهادًا، ولا نوعًا مختلفًا من الاهتمام، ما ذلك إذًا؟ عدم معرفتي بذلك له علاقة بعجزي عن الكتابة [...] ليس هذا كل شيء بالطبع، ولن تدفعني هذه الكلمة الموجهة إليّ إلى الحديث عن الأمر. ولكن سيوجه إليّ كل يوم سطر على الأقل، كما نصوب، الآن، المنظار إلى المذنبات.

[...] لا يمكن أن تصل لشيء حينما تتخلى عن نفسك، ولكن ما الذي نفتقده، بخلاف ذلك، في الدائرة المحيطة بك؟ أجيب عن هذا التساؤل: أفضّل جلد نفسي داخل هذه الدائرة على جلدها خارجها، ولكن أين تقع هذا الدائرة بحقِ الجحيم؟ رأيتها، لفترة، كأنها مرسومة بالطباشير على الأرض، أما الآن فتحوم حولي، أو قد لا تحوم على الإطلاق.

الصورة اللغوية تفرض نفسها: لم يعد كافكا واعيًا بنفسه، يعيش خارج "دائرته"، لدرجة أنه مهدد بفقدان ذاته، ولكنه سريعًا ما يتبنى الاستراتيجية التي سيتضح، لاحقًا، أنها الاستراتيجية الصحيحة: الحديث مع نفسه، وطرح الأسئلة، وإعادة الربط بين الأجزاء، أي إلغاء عملية التجزئة. سيصير هذا هو الدور الرئيسي لمذكراته، وأيضًا لبعض رسائله الغريبة، حتى إن لم ينجح في إرسال سطر كل يوم إلى نفسه أو "ضدها". سيكون ذلك جوهر صورة سيطورها تطويرًا هائلًا، لديه، الآن، ولأول مرة، تصور واضح عن المهمة التي سيقوم بها. سيظل يتابع منطق هذه الصور، وسيحب هذه اللعبة، ولكنه لن يحب التلاعب بالصور: ستكتسب صوره واستعاراته صرامة، وحسمًا، وقوة تحليلية. لقد وصل إلى مفترق طرق في مراحل تطوره، حتى إن لم يعرف في ربيع عام ١٩١٠، عنه شيئًا، ولم يتوقع، أيضًا، أن النجاح الحاسم آتٍ في غضون عامين.

كانت هذه هي الأجواء التي سيرى، خلالها، باريس أخيرًا. كانت لديه رغبة كافية في القيام برحلة. لقد مر على رحلة "بريسكيا" عام، أثقلت، خلاله، مهام العمل في شركة التأمين ضد الحوادث كاهله. كانت مرحلة "إعادة ترتيب الأوضاع" التي كان يخشاها الجميع؛ تحديث تقديرات نسب المخاطر في العديد من المصانع في بوهيميا، وكما هو

معتاد، كان يتعين الدفاع، أيضًا، عن "تصنيفات المخاطر" الجديدة هذه أمام طوفان لا ينقطع من الشكاوى. شارك كافكا في هذه العملية، التي استمرت حتى سبتمبر، لأول مرة، وكان عليه بوصفه "كاتبًا" حديث التعيين أن يقابل أصحاب الأعمال الغاضبين مقابلة شخصية. كان هذا موقفًا يعزز من تفكيره في الهروب؛ مما جعله يقدم على رحلته يوم السبت الموافق ٨ أكتوبر، على الرغم من مشاكله الصحية التي ظهرت مؤخرًا. كان كافكا يعاني من التواء في إحدى أصابع قدمه، وهو ما تسبب في تورم قدمه كاملة، فضلًا عن دمامل مؤلمة في ظهره. جلب لنفسه، في أولى محطات رحلته في "نورمبرج"، أشرطة لاصقة جديدة. واصل، يوم الأحد، رحلته بالقطار، عابرًا الحدود عند "شتراسبورج"، ليصل كل من كافكا، وماكس وأوتو برود في الساعة العاشرة مساء إلى محطة القطار الشرقية في باريس. ذهبوا، بعدها، إلى فندق صغير ورخيص بالقرب من "مونتمارتر"، كان برود قد نزل فيه في العام الماضي.[٧]

لم يستخدم كافكا دفتر مذكراته إلا نادرًا، ولكن تدوينات برود، التي كتبها في أثناء وجوده في باريس، تقدم معلومات عامة عن الأماكن، والطرق، والتوقيتات. لم يجد الأصدقاء ضرورة للقيام بجميع تحركاتهم في المدينة معًا، بما أن فترة بقائهم امتدت ثلاثة أسابيع. تجول كافكا لساعات وحده، عابرًا "المونتمارتر"، والشوارع الكبرى، ليصل إلى قوس النصر، وفي الأغلب إلى كاتدرائية مصابي الحرب أيضًا، حيث تمكن، بعد فتح السرداب، من رؤية مدفن نابليون الأول. عرض المتحف التاريخي، القريب من هذه المنطقة، وثائق ومقتنيات خرجت من محيط الديكتاتور. يبدو، إذًا، أن الانطباعات الحسية في مواقع الأحداث الأصلية هي التي أثارت اهتمام كافكا المستمر بشخصية نابليون، وليس مجرد المنهج المدرسي لمادة التاريخ. درس، لاحقًا، جميع

مفولاته المجمعة، وخلق من نابليون شخصية مناقضة لذاته، هو شخص قلب موازين العالم؛ لأنه لبى نداء "قوى الشر" داخله دون أي تردد. [٨]

عاش كافكا صدمة الرحلة الأولى بالمترو وحده، كان متزعجًا من ضجيج العربات وهي تطقطق في الأنابيب المظلمة تحت الأرض، يتزاحم داخلها سكان المدينة غير مبالين؛ إذ اعتادوا هذه التقنية الجديدة منذ عقد مضى. زاروا، معًا، قصر "التويليري"، وحدائق "لوكسمبور"، ومجموعات اللوحات في متحف اللوفر، ومتحف "كارنافاليه". يتذكر برود انبهار كافكا بلوحة للفيلسوف "فولتير": هذه اللوحة التي تصور الفيلسوف في المرحلة التي يصل فيها لقمة أدائه؛ أي حين يملي النصوص في الصباح بملابس النوم، وبهيئة غير مهندمة. [٩] لم يكن هناك مفر -خاصة مع التوقعات في الوطن بتقديم تقارير عن الرحلة- من القيام بزيارة أكثر المزارات السياحية جذبًا: برج "إيفل"، الذي لم يمضِ على إنشائه سوى عقدين من الزمن. تمكنوا من الصعود إلى المستوى الأول سيرًا على الأقدام، كانوا على ارتفاع ستين مترًا (وهو ما يوازي ارتفاع برج إيفل البراغي)، وتجولوا في القاعات المخصصة للزيارة وسط ضجيج من الأصوات الأجنبية. يبدو أن كافكا قد حفظ المشهد المطل على قصر "تروكاديرو"، الذي كان يقع على مسافة قريبة، وهو قصر مخصص للعروض، ويشتمل، الآن، على متاحف، وقاعة احتفال ضخمة، ومرصد. جاء من هنا، إذًا، اسم الحانة البراغية، التي ارتبطت بها لحظات سعيدة وأخرى مؤلمة. يتذكر كافكا هذا المبنى الكبير مجددًا، بعد مرور ست سنوات، لحظة كتابته قصة الدكتور "بوكافالوس"، المحامي الذي يتعين عليه الإشراف على "قضية ضخمة" في مبنى ضخم، "إنه "التروكاديرو" في باريس". [١٠]

التقى الأصدقاء، عادة، لتناول الطعام في فرع تابع لسلسلة مطاعم "دوفال"، أدهشتهم النادلات بمظهرهن التقليدي، وزيهن الموحد بالمآزر والقبعات الصغيرة؛ إذ لم تكن هذه الظاهرة واردة في براغ؛ حيث كان تقديم الخدمة مقتصرًا في المطاعم المحترمة على الرجال فقط. قدمت على الموائد الوجبات الخفيفة في كميات بسيطة، تنزل على الموائد سريعًا، ويمكن دفع ثمنها على الخزينة. بدت هذه الأجواء، في البداية، غير شخصية، ولكنها نالت إعجاب السياح المترددين؛ لأن الأمور كانت متماثلة في جميع المطاعم من هذا النوع. شارك كافكا، أيضًا، في أنشطة التسوق الحتمية، ليجد، هنا أيضا، من أسماء الشركات الأسطورية، التي كان يقرؤها، أحيانًا، في إعلانات الجرائد البراغية، كأنها نداء بعيد يغري بالقدوم إلى هنا. أتيح، في كل أنحاء أوروبا، طلب البضاعة من "أكبر متاجر اللوفر"، الذي كان يعد أكبر المتاجر في العالم وأجملها بحسب تعريف المؤسسة لنفسها. كان دخول كافكا إلى قاعات ساحة القصر الملكي الضخمة والمضيئة، بالتأكيد، لحظة مثيرة لم يعشها من قبل. هنا، وجد، في الأغلب، رابطة العنق الأنيقة، التي ارتداها، لاحقًا، في صورة فوتوغرافية ببراغ، أو ربما اشتراها من أحد المتاجر العديدة في "طريق الأوبرا"، حيث كان السياح يواصلون نزهتهم.

كانت العاصمة الكبرى، باريس، تمثل لكافكا، مثل سائر المثقفين الأجانب، مجالًا تتعدد فيه المحددات؛ حيث تتداخل الأنظمة التاريخية، والثقافية، والحياتية. كان يمكن وضع العلامات في الخريطة على المزارات السياحية التي يرشحها دليل "باديكر"، ثم القيام بزيارتها بحسب خطة سير مريحة ومُختارة بدقة. كان هذا هو أسلوب السياح للتعرف على باريس، وقد تبنى الزوار القادمون من براغ، عادة، هذا الأسلوب

أيضًا. ولكنهم وجدوا على هذا الطريق شوارع، وميادين، وأبنية، قد عرفوها من قبل من خلال قراءة الأدب الفرنسي، وكانوا، في بعض الأحيان، يقصدون هذه الأماكن تحديدًا؛ ليشعروا بالهالة التي منحها الخيال الأدبي المكثف للواقع، حتى في الأماكن التي لا تعد مزارات سياحية. ينطبق ذلك، خصوصًا، على طبوغرافية "فلوبير"، سواء في حياته أو في أعماله. زعم برود، بعد عودته مباشرة، أنه لم يدرك في باريس، في بعض الأحيان، سوى الأماكن التي ذكرته بالكاتب "فلوبير" [١١] – وهي مبالغة تُغفر؛ لأنها معتادة في هذه المواقف. ننسى توقيت رؤية "نوتردام" وعدد مراتها، ولكن نتذكر، بقوة، نواصي الشوارع، التي أيقظت الذكريات. شارع "مونتمارتر" – ألم يقع هناك متجر الأعمال الفنية، الذي يملكه "موسيو أرنو"، وحيث تمنى "فريدريك" هباء الاقتراب من زوجة الأول؟ بالقرب يقع "المقهى الإنجليزي"، الكبير والراقي، ألم يعانق في غرفة منفصلة العاهرة "روزانيت"؟ صحيح أن كل هذا من وحي الخيال والأدب، ولكن لك أن تتخيل أن مؤلف هذه المشاهد في عمل التربية العاطفية كان يرتاد هذا المقهى. (هُدِم المبنى بعدها بثلاث سنوات).

لم تُذكر هذه الشبكة الثانية من المواقع المتميزة في أي دليل سياحي، بل خلقتها فقط التجارب التثقيفية وتجارب القراءة. كانت خيالات يرجع أصلها إلى القرن التاسع، واتسمت بالهشاشة؛ لأن حركة التوسع العمراني الجبارة في الحاضر قد فرضت نفسها باستمرار وبصوت مسموع: كثافة المرور، والضوضاء المصاحبة، التي ظلت تطارد كافكا في أحلامه في براغ (عجلة القيادة كانت، بعكس بوهيميا، على اليمين)، بالإضافة إلى الشوارع الواسعة التي دعت إلى نوع جديد من التنزه دون هدف ومراقبة الآخرين، وهو ما لم يكن متاحًا في براغ، ووسائل الترفيه

الحديثة، مثل صالون الجراموفون "باتيه"، الذي بحث كافكا عنه، وأخيرًا سكان المدن بإشاراتهم، وعاداتهم، وطباعهم الغريبة.[١٢] تحول كل متر مربع من باريس، في إطار هذه الشبكة الكثيفة من الاتصالات، إلى مكان "يستحق المشاهدة"، لا تفيد، هنا، المقترحات أو خرائط الطرق، بل التركيز والتفكير فقط فيما تراه.

ثم نجد، بعد ذلك، حياة باريس الليلية؛ عبارة عن برنامج من الترفيه والوعود. في هذا العالم الموازي، الذي تحييه أنوار الإعلانات وأعمدة الإنارة بالغاز، يتحرك ساكن المدينة بحسب وضعه الاجتماعي وإمكاناته المادية، أما السائح الساذج فكان يبحث عما هو قريب من الواقع، ما يتسم بالطابع الباريسي، ولا يبحث عن التوليفة التي تقدم إليه خصيصًا. كانت التحذيرات موجودة: كتبت جريدة "براغر تاجبلات"، قبلها بسبع سنوات، عن أن "المولين روج" الأسطوري، الذي يتحدث عنه أي دليل عن باريس باستفاضة، لم يعد يتمتع بطابعه الباريسي، وأن هناك انحدارًا في فنون الرقص المقدمة.[١٣] تجنب كافكا وبرود، بالفعل، الذهاب إلى هذه الساحة الدولية للمشاهدة؛ لأنهم فضلوا رؤية الأماكن التي يرفه فيها "الباريسي" عن نفسه.

قد تكون التكلفة باهظة، فقد أفزعتهم الأسعار في "فوليه برجير" في الأمسية الأولى؛ إذ تكلف مجرد الجلوس على إحدى الموائد الصغيرة ستة فرنكات، ناهيك بالمشروبات الإجبارية. اكتفوا لذلك، على سبيل الاستثناء، بأماكن الوقوف، وتابعوا البرنامج المتنوع، الذي صاحبته الأوركسترا. لم يكن هذا البرنامج، على عكس ادعاء دليل "باديكر"، مخصصًا للرجال فقط: فقد شمل الرياضيين، وراكبي الدراجة، وراقصتين شهيرتين، وباليه الساحرات في أربعة مشاهد،

وعشرات من "الفتيات الطائرات"، وممثلًا من إنجلترا يجسد كلبًا بمنتهى الدقة، والمهرج البهلواني "هومستي بومستي"، قُدِّم بوصفه "أكثر الرجال إضحاكًا في العالم". كان كافكا يعرف هذه البرامج المنوعة منذ سنوات، وإن كان العرض، هنا، أكثر تكلفة من العروض المقلدة في براغ. شارك، هنا، فنانون من الأوبرا الساخرة؛ إذ جمعوا بين الثقافة الراقية والثقافة الجماهيرية، ومثلوا نمطًا لم يكن قد انتشر في النمسا بعد. ظل الالتزام بمعايير ممارسة الفن البرجوازي هو الشيء المميز لبرامج الترفيه في باريس، وليس، ما توقعه أي زائر مخطئ الظن، نوعًا من "التحرر". كان الخط الفاصل بين الإثارة والجنس واضحًا وملزمًا؛ التعري مسموح به في أضيق الحدود، وأي تصرف جنسي كان من المحرمات. استبعد في "المولين روج"، منذ ثلاث سنوات مضت، عرض البانتومايم "حلم مصر"، "كوليت" الأسطورية قبلت "ميسي مورني" ، زميلتها وحبيبتها، على المسرح. أثار ذلك غضب الشرطة والجمهور معًا.

لم يكن إتقان اللغة الفرنسية مطلوبًا، ولم يتزعج كافكا وبرود من عدم فهمهما لكثير من التلميحات. انطبق ذلك، خصوصًا، على الكوبليهات والاسكتشات التي شاهداها في مسرح "لاسيجال" في حي "المونتمارتر"، الشهير والفظ بعض الشيء: مجموعة تتناول الطعام فوق برج "إيفل"، وتنتظر سقوط العالم بسبب "مُذنَّب هالي"، ومجموعة من السياح البريطانيين تعرضت لعملية نصب، فضلًا عن السخرية الاجتماعية بتلميحات إلى الحياة السياسية اليومية، التي لم تكن لتمر على الرقابة في براغ. شاهدا عرضًا في مسرح "فودفيل"، حيث جذبتهما إلى هناك الراقصة والممثلة العالمية "بولير". ثم استمتعا بأمسية في مسرح "أوديون"، حيث شاهدا عمل "مانيت سالومون" المقتبس من رواية للأخوين "جونكور" تحمل

الاسم نفسه. لم يصدق كل منهما عينيه عندما شاهدا مجموعة من المصفقين المستأجرين، وقائدهم الذي يأمر وينهى بصوت عالٍ على مرأى من الجميع – كانت مسرحية عبثية كما دوّن الاثنان لاحقًا.

كان برنامجًا مرهقًا تحمله كافكا، بما في ذلك رحلة جماعية إلى المقاهي الليلية، امتدت إلى الساعات الأولى من الصباح. ولكن مرضه الجلدي كان ينغص عليه حياته. لجأ، مرة أو مرتين، إلى العلاج المؤقت في إحدى العيادات الطبية، ولكن حالة الدمامل ازدادت سوءًا، وكان يتحتم عليه العودة إلى الفندق متى انحل الشريط اللاصق. كان استمرار الوضع على هذا النحو صعبًا للغاية. كان برنامج الأحد الموافق ١٦ أكتوبر، وهو اليوم السابع في باريس، يشتمل على زيارة لقبر "برليوز"، مع مشاهدة عرض مسائي لأحد أعماله؛ هو لعنة فاوست. لم تجذب كافكا فكرة جلوسه لفترة طويلة في أثناء العرض على الإطلاق؛ لأنه سيعجز عن التركيز في العرض. قرر، لذلك، قضاء اليوم وحده، تجول على طريق "الإليزيه"، وشاهد عرضًا لمسرح "جيجنول"، هو مسرح عرائس شهير يفترش على ساحة خاوية على الطريق. استقل، بعدها، المترو ليصل إلى "بوى دو بولونيا".

جذبه سباق الخيل في ساحة السباق "لونج شامب"، التي وقعت على الجانب الغربي من الحديقة، بالقرب من نهر "السين". قضى ساعات مثيرة مع هذه الرياضة الراقية، وتأملاته في الأجناس المختلفة. عرف سباقات الخيل في براغ و"كوخل باد" من قبل؛ إذ زار، هناك، مع بداية العام، غير مرة سباقًا، فضلًا عن دروس الفروسية التي كان يحضرها. ألهمته هذه التجربة كتابة قطعة نثرية صغيرة وساخرة: "حينما تفكر مليًا، لا تجد ما يثيرك لتكون الأول في السباق". "لونج

شامب" كانت تجربة جديدة تمامًا؛ استوعب المكان أكثر من مائة ألف مشاهد، وصفوفًا لا تنتهي من شبابيك الرهان (التي ابتعد كافكا عنها)، وشاشات عرض أتوماتيكية، ومنصات ضخمة مغطاة ومحاطة بأسوار ضخمة، وموقعًا مخصصًا للرؤساء داخل جناح منفصل متعدد الطوابق. سجل كافكا كل مظاهر الرفاهية هذه، التي لا تتيحها إلا مدينة عالمية، لسنوات عديدة في ذاكرته التخيلية، واسترجع هذه الصور في أولى روايته. يعيش بطل رواية "المفقود" منعطفًا ينقذ حياته في "مسرح أوكلاهوما" «!!»، "أكبر مسرح في العالم"، يأتي العاملون في هذا المسرح من "ساحة سباق"، واللافت أنها تقع بالقرب من محطة المترو. [١٤]

تشاور كافكا، بعد هذه التجربة، مع الأصدقاء، وقرر السفر في اليوم التالي. لم تعد المسألة مجدية؛ فقد غلبه الألم والرغبة في الحك، كما أن البرنامج شمل -أيضًا- رحلة إلى "روين"، محل ميلاد "فلوبير"، ومنزله في "كروازيه"، وبعد ذلك إلى "لو هافر"، ولم يرغب أن يكون عبئًا على أحد. اصطحبه برود إلى محطة القطار. كانت نهاية مزعجة، ولكنها ليست كارثية؛ لأنها ليست الزيارة الأخيرة إلى هذه المدينة بالتأكيد. [١٥]

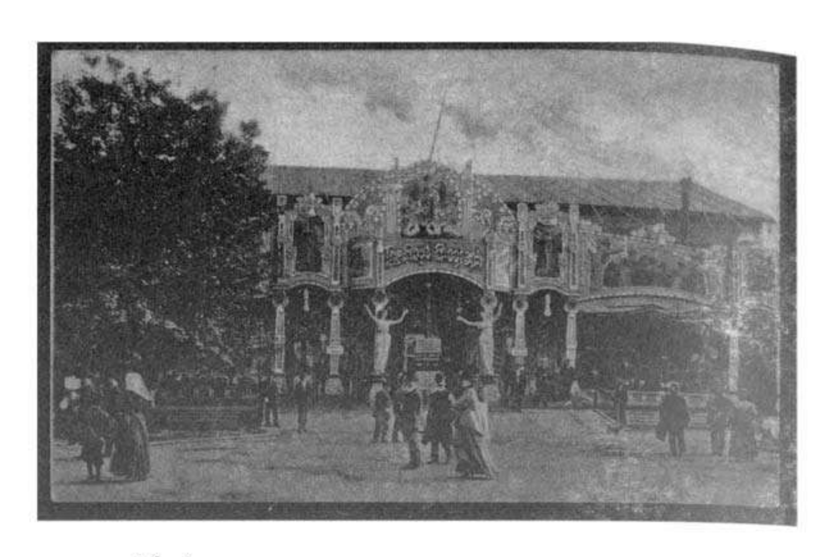
يثير ظهور كافكا في براغ، في موعد مبكر عن الموعد المتوقع، الدهشة، ولكن سيتضح صواب قراره. هز طبيب المنزل رأسه لحظة رؤيته ظهر كافكا، وقرر أن الأشرطة اللاصقة لم تعد كافية لعلاج القرح العديدة والطفح الجلدي المنتشر. لم يملك، بدلًا من علاج الأسباب، سوى الوعد بالتحسن؛ إذ لم تكن المضادات الحيوية متاحة بعد. أمر برباط قوي مشبع بالمراهم ليغطي الجزء العلوي من جسد كافكا. قرر، على الرغم من استحالة الحركة وعذاب الجلوس بهذا الوضع، العودة

إلى المكتب لإنقاذ ولو أيام قليلة من أيام الإجازة الثمينة. استغل هذه الأيام، بعدها بأسابيع قليلة، لزيارة برلين للمرة الأولى في حياته.

بعد رحيل صديقهما الحريص، انتقل كل من ماكس وأوتو برود إلى فندق "جراند أوتيل لا بريير". سمح كافكا لنفسه بدعابة خاصة. أرسل إليهما ثلاث بطاقات بريدية في الغربة، من براغ إلى باريس، وفي اليوم نفسه وبنص متواصل.[١٦] بطاقة بقطعة فنية تشيكية، وبطاقة تعرض فتاة يابانية بزي تقليدي، وبطاقة تعرض مبنى شركة التأمين ضد حوادث العمل. كانت البطاقات البريدية، التي تعرض صورًا للفرع الذي يعمل به برود، قد نفدت في هذه اللحظة.

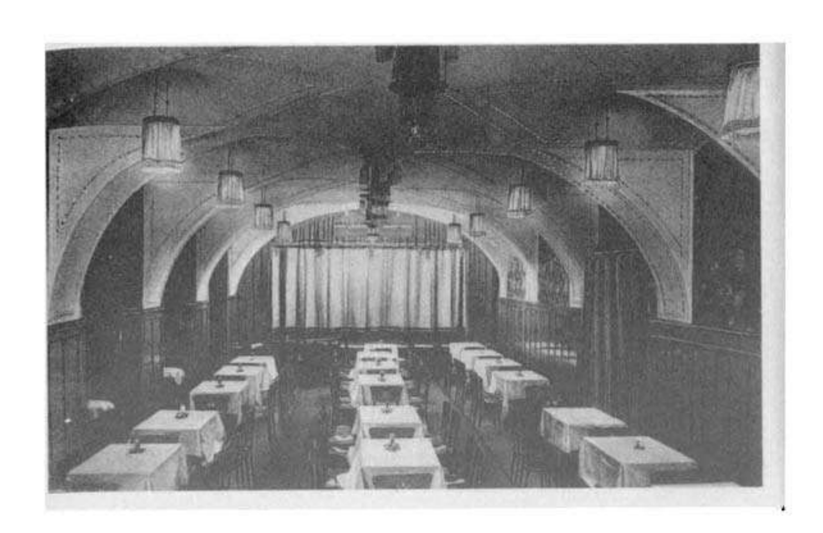


زقاق "سيلتنر جاسه" ١٢ مع محل الخردوات لأسرة كافكا في الدور الأول (مع بداية مايو ١٩٠٦)



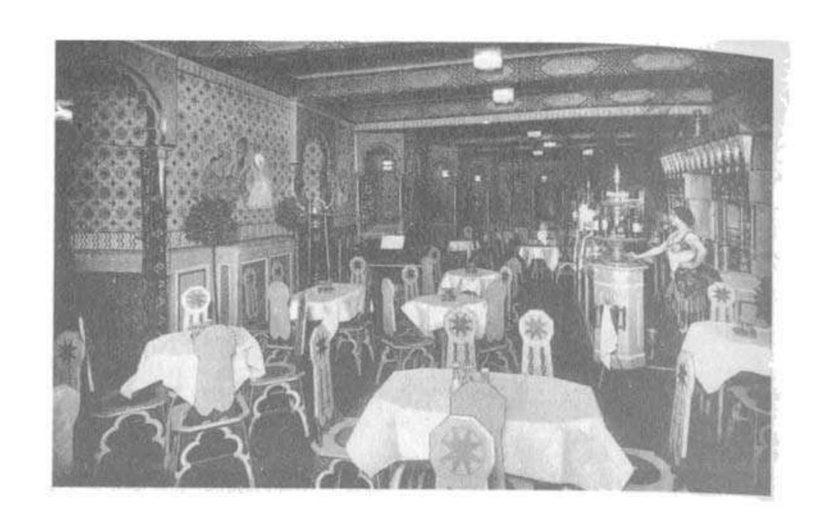
مدخل دار عرض السينما في معرض براغ الاحتفالي في عام ١٩٠٨

مقهى اللوفر، ١٩١٠

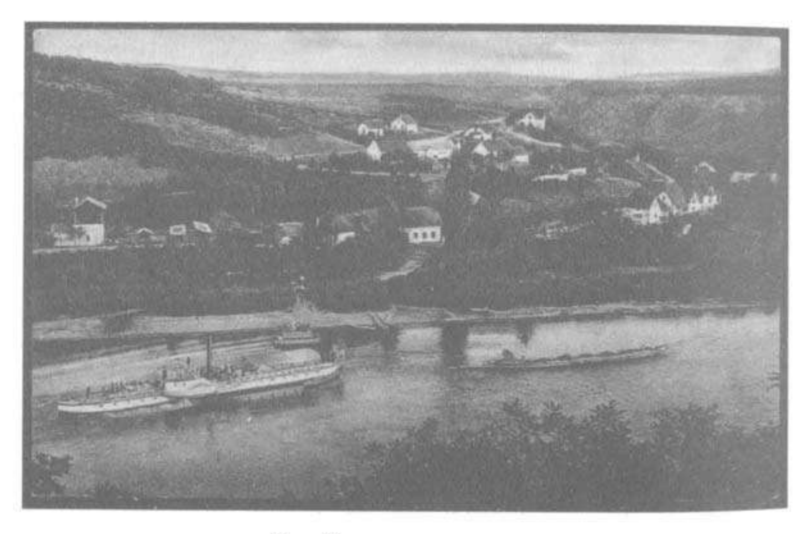


مسرح المنوعات "شات نوار"، ١٩١٣

مقهى اركو



حانة الشرق، ١٩١٢



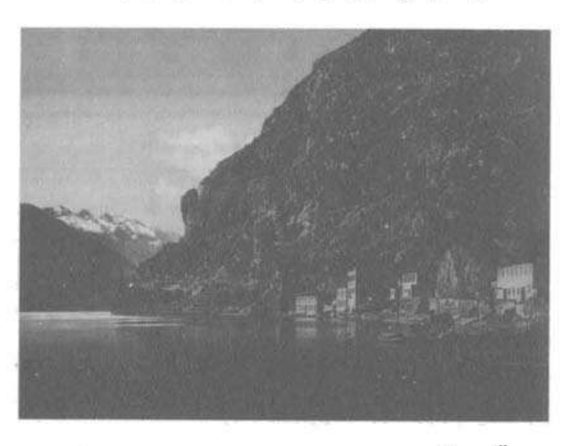
نهر المولداو عند منطقة "داقلة"



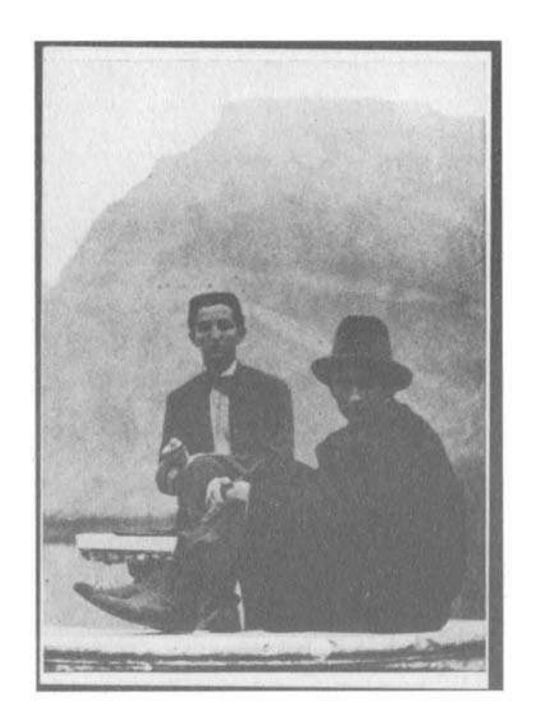
تشيرنوشيتس على شاطئ نهر "بيراون"

لويس بليريو

بليريو يطير من امام كافكا، في ساحة طيران "مونتي كياري"، ١١ سبتمبر ١٩٠٩
(يقف كافكا على الكرسي، فوق الزائر الذي نراه من الجنب في مقدمة الصورة)



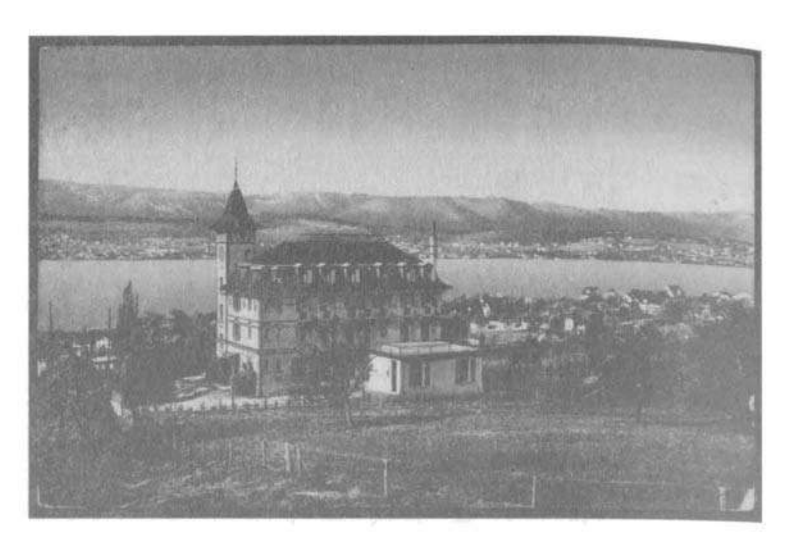
ريفا على بحير "جاردا": على اليسار في الخلفية منطقة السباحة التي زارها كل من كافكا وماكس برود



إوتو برود وكافكا في "كاستل دوبلينو" في ريفا، ١٩٠٩



زحام بميدان الأوبرا في باريس، حوالي ١٩١٠



المبنى الرئيسي لمصحة "إرلنباخ" على بحيرة "زيورخ"



رسومات لكافكا بالقلم الرصاص: صورة للأم وصورة لنفسه، حوالي ١٩١١

أفكار وأشباح
"بوبر"، و"شتاينر"، و"أينشتاين"

"يعتمد الحكم الجيد على الخبرة
وتأتي الخبرة على أساس الحكم السيئ."
"دويل برانزون" *

"السيد الدكتور المحترم! حتى لا ننسى جلساتنا الروحية، قمنا بحجز البدروم في مقهى "أركو" لمساء اليوم. أرجو التفضل، مشكورًا، بإبلاغ السادة الآخرين، أتمنى أن يكون الحضور ممكنًا... تحيات "فرانز فيرفل" ". لا، لم يكن ترتيب الموعد في هذا الوقت الوجيز ممكنًا بالنسبة للدكتور برود. دخل وقتها –في ربيع عام ١٩١٠- في علاقتين غراميتين في الوقت نفسه؛ مما شغله بدرجة كبيرة، فضلًا عن صعوبة إبلاغ "السادة الآخرين". طلب، لذلك، من "فيرفل" تأجيل اللقاء أربعة أيام، واستغل هذه الفترة لعمل الدعاية. التقت مجموعة كبيرة من البشر، مساء السبت، في مقهى "أركو"، ونزلوا معًا إلى البدروم، وتجمعوا حول منضدة مستديرة، واضعين أياديهم على القرص، بحيث

---

* ترجمة عن اللغة الإنجليزية، والأصل الإنجليزي في النص هو:

Good judgement comes from experience
Experience comes from bad judgement
(Doyle Brunson)

تلامست أصابعهم وشكلت دائرة مغلقة. تبرع أحدهم بالقيام بدور "الوسيط" لينادي الأرواح، ويتواصل معهم، ثم كان عليهم الانتظار. دون برود لاحقًا في الليل: "روحانيات حمقاء في البدروم."[١٠]

كانت لديه خبرة بهذه الجلسات؛ لأنه شارك، منذ سنوات حين كان "فيرفل" وأصدقاؤه تلاميذ في المدرسة، في تجارب السحر المستفيضة، التي كان يقوم بها "جوستاف مايرينك"، كما عقد "آل فانتا"، في بعض الأحيان، أمسيات تنجيمية، تصاحبها قراءات في نصوص مرتبطة بالموضوع. لم يتعين إخفاء هذا الأمر، تحريك المناضد، والتنجيم، والحديث إلى "الأرواح الزائرة"، التي يبلغ رسائلها أشخاص لديهم "موهبة في دور الوسيط"، كانت ظواهر تمثل أحدث الصيحات في براغ، لدرجة أن دوائر الشخصيات الهامة في المدينة شاركوا فيها. لم يكن التعامل الجدي مع هذه الطقوس من الأهمية بمكان: كانت المسألة مسلية على كل الأحوال، وكان المشاركون يشعرون بالقشعريرة لحدوث أي شيء مفاجئ في أي لحظة، وقنع المشاركون بالتفسير القائل إن هذه الظواهر تشوبها حقيقة ما. أدى ذلك إلى توقعات مبهرة صدرت عن أفراد من أصحاب التعليم المتميز. فعلى سبيل المثال، ادعت "إلزه برجمان" -التي درست الصيدلة- أنها شاهدت منضدة ثقيلة وهي تطير وسط الغرفة، "ثم تهبط بهدوء غريب لتستقر على الأرض"، وحينما التقت والدتها "برتا فانتا" مع "مايرينك" "طارت فرشاة الملابس من النافذة، ثم عادت من نافذة أخرى". كان ماكس برود يفضل الاختباء خلف حاجز من السخرية حينما كان يتحدث عن هذه التجارب، فقد تناول، على سبيل المثال، في مقالة عن "العوالم العليا" جلسة روحانية عاشها في الشقة البرجوازية التي يملكها "آل فيرفل". كانت ليلة درامية وطويلة، طلبت خلالها سيدة مجهولة من صربيا، بإشارات قرع

وحركات للمنضدة، المساعدة من أجل طفلها المحتضر. ورغم إقرار برود بأنه كان يشارك في لعبة اجتماعية قائمة على الإيحاء الذاتي، فقد اعترف لقراء الجريدة أنهم قاموا، مع لحظات الانفعال الأولى، بإرسال تلغراف إلى شرطة بلجراد، في الساعة الثالثة صباحًا. [٢]

تقليعة الحركة التنجيمية، التي سيطرت، مع نهاية القرن التاسع عشر، على الأجواء الغربية كاملة، كانت، بلا شك، ظاهرة تعويضية: إجابة على الاضطراب المتزايد في العالم، والعلاقات الاجتماعية التي لم تعد مباشرة وأشبه بالصفقات، والسيطرة المتزايدة للعلوم الطبيعية والهندسية، شديدة التخصصية والاستقلالية، وانهيار القيم الاجتماعية والدينية. صحيح أن مساحة مجال التجربة قد زادت لغالبية البشر بفضل التعليم، والسفر، ووسائل الترفيه الجماهيرية، ولكن كثيرًا ما صاحب هذه المدخلات المتزايدة شعور بنقص في التجربة الحيوية، و"تسطيح" عام للحياة. كانت حركة التنجيمية رد فعل على هذا الفراغ، مثلها مثل حركة إصلاح الحياة. ليس من قبيل الصدفة أن يتزامن ترسخ الحركتين اجتماعيًا، ويحدث بينهما تداخل، فضلًا عن أشكال متطرفة للحركتين اتخذت طابع الجماعات الدينية.

الحركة الروحانية، التي سمحت بقنوات اتصال بشرية عابرة للبعدين المكاني والزمني، بل عابرة لحاجز الموت أيضًا، كانت ظاهرة غريبة. سخر "أدورنو" من هؤلاء "الأفراد الأغبياء" الذين يتأثرون بهذه المشاهد التمثيلية: "لم يقدم العالم الآخر في الحركة الروحانية، منذ بدايتها، شيئًا يذكر سوى تحيات الجدة المتوفاة أو تنبؤ برحلة قادمة."[٣] على عكس الخيمياء، التي شغلت "مايرينك"، لم تكن الحركة الروحانية، في عام ١٩٠٠، مجرد حركة متخلفة، تتجاهل تقدم المعرفة

العلمية. تمثلت قوة حجة هذه الحركة المتجددة في أن المستحيل صار ممكنًا، في عصر كان على المتمين إلى العالم الغربي تقبل أحداث "مستحيلة" تمامًا. كان من الصعب أن يتخيل الجيل الماضي سماع صوت شخص ميت بوسائط تقنية —سمح الجراموفون بحدوث هذه المعجزة يوميًا. لم يتخيل الأجداد ـأيضًاـ إمكانية التواصل الشفهي مع شخص موجود في الجانب الآخر من الكرة الأرضية – إلى أن تم تركيب أول كابل عبر للمحيط الأطلنطي. أما السينما فكانت تعرض أجسادًا تبدو حية، وهي عبارة عن نور – هي أشباح إذًا.

وجود كل هذه الظواهر غير الطبيعية، المتخطية للحدود، جعل إقناع جمهور، من أنصاف المتعلمين في العلوم الطبيعية، باستحالة طيران الأشياء وحدها، والتنجيم، وسماع أصوات من العالم الآخر مهمة بالغة الصعوبة. انتشر خبر أن "كل شيء صار نسبيًا"، بحسب أحدث الاكتشافات الفيزيائية، مثل النار في الهشيم، فضلًا عن وجود البعد الرابع، وعدّ أنصار الممارسات السحرية والظواهر "الخارقة" ذلك برهانًا على أفعالهم (وظل هذا الوضع قائمًا لعقود؛ نتيجة عدم وضوح نظرية النسبية). حتى "هوجو برجمان" نفسه، الذي كان ينتقد هوايات أسرة "فانتا" الروحانية، أخذ هذه الظواهر مأخذ الجد، وآمن بخضوعها للبحث التجريبي بشكل أساسي.[4] لم يرغب أحد في أن يوصف بضيق الأفق، وعدم العلمية، أو الإيمان بالخرافات، ولكن اتهام العلوم بضيق الأفق موقف يتسم بالأناقة.

لم تكن مدى واقعية التجارب الروحانية تمثل أهمية لممارستها أو انتشارها، ولذلك لم يشهد "الكشف" علنًا عن أسرار الحيل السحرية تأثيرًا.[5] كانت الرغبة في المشاركة في هذه الحركة الثقافية، أو تجربتها،

أكبر بكثير. نلحظ ذلك في المشهد الثقافي العام في براغ؛ إذ جلس المتدين مع المتشكك الفضولي حول منضدة واحدة، تتشابك أياديهم، منتظرين في انسجام حدوث المعجزة. اقتنع كل من "فيرفل"، و"فيلي هاز"، وبخاصة "باول كورنفيلد"، الذي كان يتبرع بالقيام بدور الوسيط، أنهم يعيشون تجارب حقيقية، في حين أن برود لم يحدد موقفه، معلنًا في سخرية أن الأرواح الشهيرة الآتية من الماضي لا تعرف الإجابة عن أسئلة متخصصة (كان يمكن التأكد من صحة المضمون من أي قاموس). أما كافكا فأبدى تشككًا أكبر. كان من بين "السادة"، الذين يرغب "فيرفل" في مشاركته أحيانًا؛ إذ شارك في بعض الجلسات الروحانية، وسمع، في الأغلب، نداء الأشباح طلبًا للمساعدة من بلجراد. ولكنه لم يكتشف هنا ما يمكن أن يؤثر فيه أكثر من مجرد السعادة بلعبة اجتماعية. قال للصديق "هاز" يومًا: "شروق الشمس كل يوم معجزة، أما أن تتحرك منضدة بعد سوء معاملتها فترة طويلة فليس بمعجزة."[٦]

لم يميز المحيط الثقافي، الذي كان يتحرك فيه كافكا وأصدقاؤه في عام ١٩١٠، اهتمامهم بالألعاب السحرية فحسب – فقد كان هذا الشغف منتشرًا بشكل أكبر في البيئة الفنية والأدبية بميونخ، فضلًا عن وجود العشرات من المجلات المتناولة للسحر في باريس الكبيرة. ما ميز براغ، وجعل منها حالة فريدة، هو هذا المزيج الفكري، الذي جمع في توءم مسالم بين ما يبدو متناقضًا، بل، وأحيانًا، داخل شخصية واحدة. تعمقت "برتا فانتا" في نظرية الإدراك لـ "فرانز برنتانو" بمصطلحاتها الصارمة، وتعمقت في الوقت نفسه ـأيضًاـ في "علوم الحكمة" لـ "هيلينا بلافاتسكي"، التي جمعت بين رغبة في توفيق الأديان ونزعة إلى الجنون. توفيت صاحبة هذه العلوم في عام ١٨٩١، وكانت

من المؤسسين لاتحاد الثيوصوفية. عمل كل من ماكس برود و"فيليكس فيلتش" معًا على إصدار دراسة مشتركة في نظرية المعرفة، عنوانها "الرؤية والمصطلح"، ولم يجدا أي تعارض في ذلك مع حواراتهما مع العالم الآخر، وكان سبب توقفهما عن هذه الحوارات هو شعورهما بالملل. كان "هوجو برجمان"، مثلًا، صهيونيًا ومن مناصري "برنتانو" أيضًا، بالإضافة إلى انحيازه إلى الثيوصوفية، كما مثلها "رودلف شتاينر"، بعد رفضه لها في البداية.

تحدد هذا التمازج الأيديولوجي المتناقض بحسب العلاقات الشخصية مع رواد هذه التوجهات، وليس بحكم التنسيق بين هذه الأفكار. لم يكن سبب اهتمام برود بالصهيونية، مثلًا، قراءته للكتابات المهمة، بل كان سببها الظهور الشخصي لـ "مارتين بوبر" في براغ؛ إذ كان أكثر ممثلي الصهيونية الثقافية تأثيرًا. ألقى "بوبر"، بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٠، ثلاث محاضرات أساسية، كان لها تأثير تخطى حدود دائرة طلاب "بار كوخبا"، الذين دعوه لإلقاء هذه المحاضرات. نشرت المحاضرات الثلاث: "معنى اليهودية"، و"اليهودي وعمله"، و"تجديد اليهودية"، ونجح "بوبر"، بحرفية أيديولوجية، في جذب اهتمام جيل من المستمعين الشباب إلى قضية الهوية اليهودية، معتمدًا على خطاب حركة الشباب وحركة إصلاح الحياة: أعلن أن معايشة اليهودية أكثر أهمية من دراستها، ومعايشتها مباشرة أمر متاح؛ لأن معاناة وصراعات الجمع اليهودي، التي امتدت لألفي عام، ليست مجرد تاريخ، بل هي جزء داخلي من كل فرد يهودي يعيش الحاضر: إنه يجري في دمه.

"لا تتعلق المسألة بالإقرار، أو بالاعتراف بالانتماء إلى فكرة أو حركة، ولكن على المرء، الذي استوعب هذه المُثل، ألا يفكر تفكيرًا

مختلفًا فحسب، بل أن يعيش حقًا بشكل مختلف أيضًا «... » أن يصير في حياته إنسانًا مختلفًا، ويهوديًا مختلفًا؛ لأن هذين الأمرين يتساويان لمن يشعر بهذه الأشياء. المقصود بهذا التطهير، وبهذا التحرر من العناصر الدخيلة، وبهذا النهوض والوقوف على أرض الروح اليهودية «... » المقصود هو إنقاذ الذات، أن يحرر كل مِنّا نفسه وينقذها."[٧]

نبرة الواعظ هذه، والتفويض بإنقاذ الذات، يرجع أصلهما، بلا شك، إلى عمل نيتشه زرادشت. كان لهذا المخدر التأثير نفسه – وخاصة أنه لم يشترط وجود أي معطيات؛ لا قناعات دينية أو سياسية، ولا معرفة بالتقاليد أو المصطلحات المرهقة لأي "نظرية" حول اليهودية. كانت المعايشة الداخلية كافية؛ بشكل أبسط: مجرد الحياة كانت كافية.

يبدو أن كافكا لم يعرف شيئًا عن هذه المحاضرات إلا في شكلها المكتوب، ولم تبهره على عكس برود. لم يكن تفكيره وإحساسه بذاته ليتأثرا بمصطلحات فارغة المضمون. "الروح اليهودية"، و"الدم اليهودي"، مصطلحات رنانة، ولكن رنينها فارغ. ما أثر فيه، بالفعل، هو لقاء اليهود الشرقيين، غير المتأقلمين ثقافيًا، وتعرف الموروث الأدبي اليهودي من خلال أمثلة ملموسة، لدرجة أنه اهتم، إلى حد ما، بمصطلحات الثقافة الصهيونية ومبادئها. لم يكن، في هذا السياق، بعيدًا تمامًا عن هذا الشغف الوجودي الذي تحلى به "بوبر". بحسب مفهوم كافكا، فإن معايشة الذات ومعايشة العالم الخارجي هما الأساس، فأي قناعات لا تقوم على هذه التجارب تبدو مصطنعة، وغير معبرة، وقابلة للاستغناء عنها. لا يوجد شيء حقيقي سوى ما يمكن معايشته، وما أعيشه لا يكتسب صفة الحق إلا من خلال المعايشة: مثل ذلك الجوهر المشترك للعديد من الأيديولوجيات المؤثرة، التي نعرفها وهو شاب،

بداية من الحركة التنجيمية، مرورًا بحركة إصلاح الحياة، ووصولًا إلى حركة "بوبر" "للتجديد اليهودي". يفسر هذا الأساس المشترك قدرة هذه التوجهات والأفكار، المتباعدة لأقصى درجة، على الاجتماع في فكر كافكا، والاجتماع في المشهد الثقافي في براغ لفترة ممتدة. انطبق ذلك على تحضير الأرواح تمامًا مثلما انطبق على الثيوصوفية. لم يكن واردًا على الإطلاق أن يذهب كافكا للقاء "رودلف شتاينر"، لولا العقيدة في قوة المعايشة.

"يعقد اتحاد الثيوصوفية في براغ، الشهر الجاري، حلقة محاضرات عامة؛ يلقيها الفيلسوف «!» وخبير التنجيم الرائع، الدكتور "رودلف شتاينر"، عن "الفيزيولوجيا التنجيمية"، في الفترة من ١٩ إلى ٢٨ مارس «١٩١١» (تحديدًا في الساعة الثامنة مساءً)، وذلك في قاعة الاتحاد التجاري "ميركور"، شارع "نيكلاس شتراسه". التسجيل في سكرتارية قسم براغ، "فاينبرجة"، شارع "بوصل جاسه" ٢، الدور الثاني."[٨]

من الغريب أن يظهر هذا الإعلان إلى جانب إعلان عن محاضرة لـ "كارل كراوس" في جريدة "براغر تاجبلات"، فضلًا عن افتقاده الصواب تمامًا؛ لأن "شتاينر" لم يلقِ إلا محاضرتين عامتين، وكانتا "عامتين" بالمعنى الحرفي للكلمة، في حين أن حضور دروسه عن الفيزيولوجيا التنجيمية، متعددة الأجزاء، تطلب توصية شخصية من دوائر الثيوصوفية. لم يكن حصول كافكا وأصدقائه على هذه التوصية صعبًا. صحيح أنهم ليسوا أعضاءً في "اتحاد الثيوصوفية "أديار" في قسم بوهيميا، الكائن في براغ"، التي كانت تنظم محاضراته، ولكنهم كانوا على اتصال بـ "برتا فانتا"، التي كانت تراسل "شتاينر" منذ فترة

(وأنشأت، في العام التالي، مجموعة عمل للثيوصوفية). كما عرفوا منها أن نجم الثيوصوفية، المتنقل من مدينة لأخرى، الذي يقضي، في جولات محاضراته مع مجموعات محلية، وقتًا أكبر من الوقت الذي يقضيه في منزله ببرلين، قلما يلقي مجموعة محاضرات عن موضوع واحد، وأن أنصاره، الذين يسعون لسماع هذه المحاضرات، يسافرون خلفه في كل مكان. كانت إقامته في براغ لمدة أسبوعين حدثًا جللًا ومشرفًا، وقد حضر، بالفعل، العديد من المستمعين من فيينا، ومن الرايخ الألماني، وحتى من إنجلترا، وبولندا، والدول الإسكندنافية. وصل عدد المتجمعين، في إحدى أكبر قاعات المحاضرات في براغ، إلى خمسمائة شخص، بينهم فئة غير قليلة لغتها الأم هي اللغة التشيكية.

لم يكن "شتاينر"، صاحب الخمسين عامًا، عضوًا فاعلًا في الحركة الثيوصوفية إلا منذ عشر سنوات، ولكن ظهرت عليه جميع علامات الخبير: نحيل بملابس سوداء، ورابطة عنقه منفوخة بشكل لافت، وملامح وجه غير مستوية، ونظرة ثاقبة، وخصلة شعر سوداء طويلة يلقي بها في حركة مميزة إلى الخلف. بدت إشاراته، التي تشبه إشارات الواعظ، وتحكمه في صوته العالي، أمورًا مدروسة، فضلًا عن عدد من الإشارات المتحكمة. كان يظهر "شتاينر"، مثلًا، في موعده الدقيق في خلفية المسرح، ويبقى هناك دون أي حركة، ولا يتوجه إلى المنبر إلا بعد التزام الجمهور الهدوء التام. لدينا محاضراته في شكل توثيق بالكتابة المختصرة فقط، كان يلقيها دون إعداد نص سابق، ولا يمكن مراجعة استشهاداته، ولم يستعن "شتاينر" بأي وسيلة تذكره بمضمون محاضراته، الأمر الذي عزز خلو محاضراته من النزعة الأكاديمية، والانطباع بأنه يعتمد على "الإيحاء" اللحظي. لم يعترض "شتاينر" على تزيين القاعات بعناصر تقديسية كاذبة، ولذلك نجد القاعات مزينة، أحيانًا، برموز

روحانية، في حين جلس الجمهور تحت ضوء خافت، أو على أضواء الشموع. كان "شتاينر" يدرك، بالطبع، أن هذا العرض المبالغ فيه سيشتت أي شخص لا علاقة له بالموضوع، وصدر عن الصحفيين خصوصًا تعليقات ساخرة. لخص "توخولسكي" في مجلة المسرح العالمي: "تريد أن تنادي بصوت عالٍ: شكرًا، لن أشتري شيئًا." حتى "بوبر" وجد أن الأجواء غير محتملة. [٩] ولكن ظل عدد المعارضين، الذين حضروا هذه الفعاليات، قليلًا. أما أتباع "شتاينر"، الذين كانوا، في الأغلب، من السيدات المتقدمات في السن، المنتميات إلى مستوى اجتماعي راقٍ، ويرتدين ملابس حركة إصلاح الحياة، فقد اتفقواعلى أن كاريزما "شتاينر" لا مثيل لها.

لم يهتم "شتاينر" بهذا التقديس الشخصي، وكان في تعاملاته الخاصة شخصًا طبيعيًا، ومتواضعًا، ولطيفًا، وساخرًا من نفسه في بعض الأحيان. نجد هذه القصص النمطية عن الشخصيات القائدة متداولة ـأيضًاـ في محيط "شتاينر"، كما أنها رفعت درجة الإعجاب به. كانت ممارسات الثيوصوفية الاجتماعية هي ممارسات أي جماعة دينية نفسها، وما يصاحبها من نظام طبقي يشمل البطانة، والتنافس الغيور على الانتماء إلى هذه المجموعة (من يسمح له بالجلوس في عربة القطار التي يجلس فيها المعلم نفسها؟)، فضلًا عن الإشارات المتعالية المدعية لامتلاك المعرفة الأفضل. كان "شتاينر" نفسه يؤكد، في كل فرصة، على الطابع العلمي لدراساته، كما أنه اختص نفسه بحق تقديم المشورة إلى أفراد غرباء وقيادتهم إلى الحلول. لم يتخيل أحد "شتاينر" وهو يشارك بكفاءة في نقاش علمي مفتوح. كان المستمعون يدونون أسئلتهم بعد المحاضرة على قطع ورق، تُسلم فوق المنصة، وكان "شتاينر" يختار بنفسه الأسئلة التي تستحق الإجابة. شعر أتباعه بالإطراء، حينما كان

معلمهم يخصص لهذه اللعبة الكثير من الوقت، في حين أنه كان يحمي نفسه بهذه الطريقة من التعليقات الموضوعية المحرجة.

''تهدف الثيوصوفية إلى أن تكون عقيدة ترتقي بالفرد في العالم الروحي، تريد تقديم الحجة العلمية للعقيدة التي تدعي: يكمن خلف ما تقوله لنا حواسنا عن العالم الخارجي، وخلف كل ما يدركه عقلنا عن العالم الخارجي، عالم روحي أرقى، وفي هذا العالم الروحي توجد كل الأسباب لما يقع في عالم الحواس وعالم الفهم.

لن نختلف بذلك، نحن الثيوصوفيين، عن المؤمنين بعقائد أخرى في الحاضر. «... » ليس المهم بالنسبة للثيوصوفية، أو العلوم الإنسانية، الاعتراف بأن العالم الحسي يكمن وراءه عالم خارق للطبيعة، وأن ما وراء الجسد روح، ليس هذا فحسب، المهم أن يدرك الإنسان بدرجات متقدمة -حينما يهيئ روحه لذلك- ماهية ما يكمن خلف العالم الحسي. لا تتفق الثيوصوفية أو العلوم الإنسانية مع الرأي القائل إن: هناك حدودًا للمعرفة الإنسانية.''[١٠]

كانت هذه أفكارًا تفوق قدرات الجمهور في براغ، خاصة الأفراد المتدينين الذين شعروا بنبرة مسيئة للدين: إذ مُنحت، هنا، سيادة بلا حدود للوعي الإنساني، لم تعرفها المسيحية واليهودية إلا في سياقات تصوف هامشية. ولكن عناوين محاضرات ''شتاينر'' العامة في براغ كانت مثيرة ومربكة بعض الشيء لأتباعه: ''كيف ننقد الثيوصوفية؟''، و''كيف ندافع عن الثيوصوفية؟''. كانت مناورات بلاغية جريئة، تشير إلى ثقة بالغة في النفس، وكانت جديرة بجذب بعض المتشككين، الذين أرادوا متابعة كيفية خروج المحاضر من هذا المأزق. بدأ ''شتاينر''، بالفعل، محاضرته بتحذير، ألا تظهر العلوم الإنسانية (وكان يقصد

علومه هو عن الإنسان) في ثوب التعصب والتطرف، بل يجب عليها أخذ اعتراضات خصومها على محمل الجد والتفكير فيها بهدوء، خاصة وأن بعض هذه الاعتراضات، التي تهدف إلى اختبار المعرفة الثيوصوفية، لها ما يبررها. حتى كافكا انبهر بالفكرة، لدرجة أنه دوَّن في مذكراته رد فعله العاطفي الذي راقبه في نفسه:

''محاضرات الثيوصوفية التي ألقاها الدكتور ''رودلف شتاينر برلين''. التأثير البلاغي: مناقشة مريحة لاعتراضات الخصوم، يتعجب المستمع من قوة خصمه، استكمال لمدح هذه الاعتراضات، يعتري المستمع القلق، ويركز تركيزًا تامًا في هذه الاعتراضات، كأنه لا يوجد شيء غيرها. يجد المستمع نقد هذه الأفكار مستحيلًا، ويقبل بأي وصف سطحي لمحاولات الدفاع.

يتسق هذا التأثير البلاغي مع الأوضاع التي تفرضها هذه الأجواء الاحتفالية – أنظر، باستمرار، إلى يدي المفرودة أمامي.''[11]

اكتفى ''شتاينر''، بالطبع، بأمثلة مختارة، وتجنب، بأناقة، أخطر الحجج المهاجمة للعلوم الطبيعية، ولكنه واجه –كما تشير المحاضر- نقطة ضعفه بالطريقة التي وصفها كافكا، وذلك لفترة زمنية طويلة، جعلت المستمع غير المنتبه يتساءل ما إذا كان يحضر الفعالية الصحيحة. تعلق الأمر بالهندوسية، بالكارما وتناسخ الأرواح؛ إذ كانت تمثل، بالنسبة لـ ''شتاينر'' والثيوصوفية، حقائق ثابتة، لا تستوعب بالحواس الخمس، ولكن بنظرة روحية أعلى، بصيرة متمرسة (ميز بينها وبين التنجيم الروحي). تعرض، بالتفصيل، لكل الاعتراضات الممكنة، وأجل تقديم المبررات لنظريته أسبوعًا كاملًا، أي منح فرصة لحجج الخصم أن ينتشر تأثيرها. أوحى كل هذا بقوة واثقة من نفسها، ليست بحاجة إلى الدفاع

المستمر عن منطقتها الفكرية، وكان هذا موقفًا قلما تجده لدى العلماء وهم يقفون على منبر الخطبة. يبدو أن المحاضرة الثانية، التي كانت محاضرة أكثر إيجابية، قد هدأت من روع الجمهور: كانت هناك، إذًا، أدلة على الحياة الأبدية العليا، التي لا يمكن التفاوض عليها، تمامًا مثل الأدلة في العلوم الرياضية. ولكن على الروح أن تهيّئ نفسها لإدراك ذلك من خلال تدريبات تأملية. لعل ذلك هو السبب الرئيسي لصعوبة توفيق هذه الأفكار مع العلوم المترسخة. لم تكمن قوة "شتاينر" في المنطق؛ فقد سلم، دون قيد أو شرط، بوجوده لدى خصومه، بل تمثلت قوته في معرفة تقنيات نفسية تقود الكيان الإنساني بأكمله، وليس العقل وحده، إلى مستوى أعلى في اللعبة الكونية الكبرى.

ركزت ملاحظات كافكا كاملة على الإنسان وأتباعه. إنه يلمح إلى رسالته فقط، ويتجنب، في صرامة، إصدار أي أحكام تقييمية. لو أننا لا نملك شيئًا سوى هذه التأملات، لما عرفنا إذا كان كاتبها يصف متحدثًا متحمسًا أم شخصًا نصابًا. كتب برود، في مقالة صحفية نشرت بعدها بثلاثة أشهر، بعنوان "عوالم عليا": "أنا ـأيضًاـ أهتم "بالعوالم العليا"، في شكلها الأدبي."[١٢٠] كان هذا تحديدًا برنامج كافكا الذي نوقش معه بأشكال عديدة بالتأكيد، والتزم به كافكا، في نهاية الأمر، أكثر من التزام برود به.

هناك، بالتأكيد، نقاط ربط قد شغلت كافكا قبل ظهور "شتاينر"؛ إذ نجد في تركته العديد من إصدارات "شتاينر" المبكرة: "تربية الطفل من منظور العلوم الإنسانية" (١٩٠٧)، و"هاكل، وألغاز العالم والثيوصوفية" (الطبعة الثانية، ١٩٠٩)، و"جدودنا من المحيط الأطلسي" (١٩٠٩)، بخلاف

مقدمة "إدوارد هيرمان" القصيرة إلى "الثيوصوفية المبسطة"، التي صدرت عام ١٨٩٧. هذا يرجع، بالتأكيد، إلى تأثير دائرة "فانتا" عليه، ولكن ما سبب اهتمام كافكا بهذه الموضوعات؟ التقارير الأسطورية عن سكان القارة الغارقة أطلانتس، التي كان يعرفها "شتاينر" معرفة مبهرة؟ لا تثبت تدوينات كافكا ورسائله أن هذه الأساطير الخارجة عن السيطرة قد أثارت اهتمامه، تمامًا مثل مصطلحات "الأثير"، و"الهيئة النجمية"، و"الجسد الأبدي"، التي كانت تعد أبجديات الثيوصوفية، والتي كانت أساس مقال "شتاينر" التربوي. كانت له استنتاجات عملية قامت على أساس مبادئ علم التربية الإصلاحي، حتى إن نفى ذلك: أهمية المثل الأعلى الشخصي مثلًا، وأهمية إخلاص الوالدين وسيادتهم الحرة. فكرة أن الجسد الإنساني ليس مستقلًا، ولا يمكن التعامل معه بشكل منعزل، وأنه يعبر عن شيء روحي: كان كافكا يعرف كل هذا من علوم العلاج الطبيعي. أما "شتاينر" فقد وعد بتقديم أساس نظري لهذه العقيدة من خلال "علم الفيزيولوجيا التنجيمي" الخاص به، على أن يدخل في تفاصيل دقيقة، تصل إلى مرحلة الأعضاء نفسها. ليس غريبًا ألا يرغب كافكا في سماع المحاضرتين العامتين لـ"شتاينر" فحسب، بل يسجل - أيضًا- شخصيًا اسمه لحضور حلقات المحاضرات عن علم الفيزيولوجيا. لا نجد لهذه المحاضرات الثماني إلا آثارًا قليلة في مذكراته، ويبقى بذلك حضوره حتى النهاية غير معلوم. من المستبعد أن تكون شطحات "شتاينر" في السحر قد أفادته في شيء: "الدم بوصفه أداة للكيان الإنساني"، القوى التي تحدد بين الموت والميلاد القادم شكل الجمجمة"، "أعضاء الجسد الداخلية السبعة التي تعكس نظام الكواكب الخارجي". ليس هذا بالتأكيد ما توقعه. [١٣]

تولى كافكا، مرة أخرى، دور المراقب المشارك، وهو ضيف على هذه الصحبة الثيوصوفية التي كانت تلطف من أجواء حلقة المحاضرات. عرف، هنا من مصادر أولى، أن الأستاذ يتناول، يوميًا، لترين من حليب اللوز، ويؤثر في تلاميذه بواسطة توارد الأفكار، وأنه يترجم أعماله إلى اللغة الفرنسية، ويؤلف الأدب والموسيقى، ويعالج، ويعرف تقريبًا كل شيء، لدرجة أن أرواح الأموات تأتي إلى محاضراته؛ لتتعلم شيئًا جديدًا. دوَّن كافكا كل هذا بإخلاص، ودون تعليق من جانبه، كما كان يفعل دومًا حينما يلتقي ببشر بعجز أمامهم عن إثبات الواقع، ومع ذلك لم يشعر بأنه قد انتهى من حالة "شتاينر". كانت حالة "الإدراك العليا"، التي تؤكد عليها الثيوصوفية، موجودة بالفعل، ولم يرتب في ذلك، ولا يمكن تبسيطها بوصفها حدسًا. كانت حالات يرى المرء، خلالها، أشياءً تحت السطح، صورًا تنفذ إلى الجوهر. تحدث "شتاينر" عن أن كل شخص تكمن داخله قوى مخفية، تبقى غير مستغلة في الحياة اليومية، ولكن يمكن فك أسرها بالتأمل. كانت هذه هي تجربة كافكا أيضًا، كانت تلك هي القوى والحالات التي تخلق الأدب، ولا مجال لرؤية جمالية على هذه الدنيا بدونها. ولكن هل الثيوصوفية قادرة على تمهيد طريق، يعتمد عليه، إلى هذه المصادر؟ استقبل "شتاينر"، على مدار يومين، الراغبين في استشارته في فندقه ببراغ. ربما كانت هذه فرصة للوصول إلى رؤية واضحة. سجل برود اسمه للحضور، وفعل كافكا مثله، وأثنت إحدى السيدات من أتباع الثيوصوفية على هذا التصرف؛ لأنه يشير إلى تذكره لحيواته الماضية.[١٤]

"جزء كبير من كياني منجذب إلى الثيوصوفية، ولكنني أخشاها في الوقت ذاته خشية كبيرة. أخشى أن تصيبني باضطراب جديد؛ إذ سيتسبب ذلك في وضع صعب لي؛ لأن تعاستي الحالية سببها

الاضطراب الذي يكمن فيما يلي: سعادتي، وقدراتي، وإمكاناتي في الإفادة، نابعة من الأدب. عشت في سياقه بعض الحالات التي أراها قريبة من حالات التنجيم، التي وصفتها، سيدي الدكتور. كنت، خلالها، أسكن داخل كل فكرة أطرحها، وأحققها، فأشعر أنني لم أصل إلى حدود قدراتي فحسب، بل إلى حدود الإنسانية بأسرها. ينقص هذه الحالة الهدوء الذي يتحلى به المنجم المتحمس، ولكن ليس في كل الأحوال. خلصت إلى ذلك؛ لأنني لم أكتب أفضل نصوصي في هذه الحالة. لا أملك وهب نفسي كاملة للأدب، كما ينبغي، ولهذا أسباب كثيرة. بصرف النظر عن ظروفي العائلية، لا يمكنني العيش من كتابة الأدب، بسبب بطئي في الكتابة، وطبيعة كتاباتي الخاصة، فضلًا عن أن ظروفي الصحية وشخصيتي تمنعاني من القبول بحياة مجهولة المصير في أفضل الأحوال. صرت، لذلك، موظفًا في شركة تأمين اجتماعي. لا تتوافق هاتان الوظيفتان مطلقًا، ولن تسمحا بسعادة مشتركة؛ إذ تصير أصغر سعادة في واحدة منهما تعاسة كبرى للأخرى. إن كتبت، في أمسية، نصًا جيدًا، أكاد أحترق، في اليوم التالي، في المكتب دون أن أنجز شيئًا. يزداد هذا التأرجح سوءًا. أقوم في المكتب بالتزاماتي الخارجية، أما التزاماتي الداخلية فلا، ويتحول كل التزام داخلي لا أحققه إلى تعاسة لا تفارقني. هل أضيف إلى هذين المسعيين الثيوصوفية بوصفها مسعى ثالثًا؟ ألن تكون مصدر إزعاج للاتجاهين، ويكون الاثنان -أيضًا- مصدر إزعاج لها؟ هل سأكون في الحاضر هذا الشخص التعيس الذي سيقضي على الثلاثة معًا؟ جئت، سيدي الدكتور، لأطرح هذا السؤال؛ لأنني أعرف أنني قادر على تحمل هذا الموقف، إن توسمت في ذلك.""[١٥]

لم يسمع سكرتير عام الحركة الثيوصوفية، في الأغلب، هذا الاعتراف المنهج من قبل، ولم يسمعه، أو يقرأه، أي شخص من كافكا أيضًا. تابع "شتاينر" هذه المخاطبة باهتمام، نظر في وجه شريكه في الحوار مباشرة، وأومأ برأسه من حين لآخر، دون أن يلحظ أنه كان خاضعًا لمراقبة دقيقة. وعلى الرغم من محاولة كافكا التركيز في كلمته الصغيرة، التي أعدّها بكل دقة، لم تفت عليه البقع على "بزة" "شتاينر" الداكنة اللون، ولا "الزكام البسيط"، الذي كان يمسح "شتاينر"، باستمرار، آثاره بمنديل. أدرك كافكا أن الاستماع إليه في هذا المكان امتياز، وكان على استعداد للاستجابة، لغويًا وبإشارات جسده، ولكنه لم يشعر بهذا الخضوع، ودوّن ذلك أيضًا.

من الواضح أن كافكا قد خطط لتوثيق هذا اللقاء بدقة في مذكراته؛ لأنه بدأ بعنوان "زيارتي للدكتور شتاينر"، لكنه لم يقدم أكثر من ملخص للجزء الذي ألقاه هو نفسه، ولم يستشعر رغبة في استكمال ما بدأه. كان ماكس برود متشوقًا، بالطبع، لمعرفة مضمون الحديث الذي دار بينهما، وحكى له كافكا "بضحكته المميزة التي تجمع بين الألم والتوتر" أن "شتاينر" لم يفهمه مطلقًا؛ إذ حاول تهدئة كافكا بتوضيح أنه لا يوجد، بالضرورة، تناقض بين المعرفة الروحية والجماليات، وأن لقاءات الثيوصوفيين وطقوسهم "تحفظ الشأن الجمالي جيدًا". يعد هذا تصريحًا مشينًا من شخص "صاحب بصيرة"، وله علاقات داخل الدوائر الأدبية. أكد كافكا لـ "شتاينر"، بأدب، أنه سيرسل إليه مقتطفات من أعماله الأدبية، ثم استأذن.

بحسب ذكريات برود، لم ينشغل كافكا بالثيوصوفية مطلقًا بعد هذه الاستشارة الفاشلة، كما لم يزر أيًا من المحاضرات التي

ألقاها "شتاينر" بدعوة في براغ. أعلن "شتاينر": "هذه الحياة الداخلية الواعية، بمنزلة تنظيم للروح، تُخرج القدرات والقوى من أعماق الروح، والتي لا يعيها الإدراك العادي." هذا تصريح مبهم بعض الشيء، ولكن لا ننكر حقيقته في الجوهر. كتب كافكا بعدها بعامين فقط: "كل ما أملك من قوة، لا تظهر في حالاتها الطبيعية أي عمق، ولكنها تتركز لتصير أدبًا." هل كانت هذه حالة خاصة، وهل يمكن مقارنتها بتجربة أخرى؟ قرر كافكا تغيير النظام: "وما الثيوصوفية إلا بديل عن الأدب"، كانت هذه هي كلمته الأخيرة. ١٦

كانت مصادفة غريبة أن يودع "رودلف شتاينر" أتباعه العديدين في "المدينة الساحرة"، في حين يدخل من الجانب الفكري المعارض شخص إلى الساحة، لا يقل شهرة عنه -وليس لمجرد إلقاء محاضرة. إنه "ألبرت أينشتاين"، الذي كان مدرسًا جامعيًا في زيورخ، وصار، منذ ١ أبريل ١٩١١، أستاذًا للفيزياء النظرية، إنها درجة الأستاذية الأولى في حياته العملية. مثّل مضاعفة راتبه عنصر جذب قويًا للانتقال إلى الجامعة الألمانية في براغ. لكنه لم يعرف المدينة، ولم يكن معدًا لحالة الانعزال العلمي التي كانت تنتظره هنا، ولم يكن أيضًا مستعدًا للأجواء الاجتماعية المسممة بسبب التناحرات القومية. كتب، بعد مرور ستة أسابيع على وصوله، إلى أحد الأصدقاء: "وظيفتي والمعهد الذي أعمل به هما مصدر سعادتي، ولكن البشر غرباء؛ ليسوا بشرًا بمشاعر طبيعية، وإنما خليط غريب من التعالي الطبقي والإذعان. لا توجد نية طيبة تجاه الآخرين، بل ترف مبالغ فيه، وإلى جانبه بؤس متسلل في الشوارع." لم يطرأ أي تحسن على هذا الانطباع في العالم التالي: "لا أجد هنا أي شخصيات." ما أرهقه -أيضًا- البيروقراطية الأسطورية التي عُرفت بها إمبراطورية النمسا والمجر؛ إذ أصابته الدهشة من ضرورة التقدم إلى أعلى

سلطة سياسية، محافظ بوهيميا، من أجل الحصول على مصاريف النظافة للمعهد، هذا على الرغم من قذارة براغ الشديدة مقارنة بزيورخ، من وجهة نظره.[١٧]

سبقت "أينشتاين"، الذي كان حينها في الثانية والثلاثين من عمره، سمعته؛ إذ قيل عنه إن إنجازاته العلمية، قبل حصوله على درجة الدكتوراه، تقارن في تبعاتها بثورة "كوبرنيكوس". ولكن لم تفهم سوى قلة من العلماء ماهية هذه الإنجازات تحديدًا، ولم تختلف هذه الحال وسط الزملاء في براغ. جرت، لذلك، أبحاثه المتعلقة بتطوير نظرية النسبية (التي لم تكن قد وصفت في هذا التوقيت بالنظرية "الخاصة" بعد) على مكتبه المنزلي، في حين أنه كان يلقي محاضراته الأساسية في الجامعة، التي كانت تغطي مجالات مختلفة، ومجالات أكبر من الفيزياء النظرية. ولكن كان الفضول تجاه هذا الرجل العبقري، وحضر، لذلك، جمهور غير متخصص أيضًا محاضراته، التي كانت تتسم بالحيوية، وإن كانت متابعة الكتابة معها من الصعوبة بمكان.

كان "هوجو برجمان"، في الأغلب، الأول من محيط كافكا الذي حضر لـ "أينشتاين"، وسريعًا ما حاوره في مجال التخصص. أما الآخرون فلم يفهموا كثيرًا في الرياضيات، وكانوا بحاجة إلى أن يشرح لهم أينشتاين نظريته في محاضرة علمية مبسطة -أتيحت هذه الفرصة في يوم ٢٤ مايو بقاعة محاضرات المعهد الفيزيائي، واقتنص كل من كافكا وبرود و"فيلتش" هذه الفرصة طواعية. جلست المجموعة، بعد ذلك، مع مساعد "أينشتاين" الخاص "لودفيج هويف"، دمث الخلق، الذي أحضره معه من زيورخ لمدة فصل دراسي، وكان يسعى لتعرف الدوائر الأدبية في براغ. لم يجب "هويف" على أسئلة الجمهور المنبهر المتعلقة

بالنظرية النسبية (التي كانت بلا شك كثيرة) فحسب، بل شرح لهم - أيضًا- الراديوم، والفوتون، وبناء المعادلات التفاضلية، وتصنيع البروتينات، وكذلك الفروق بين نظرية التحليل النفسي لكل من "فرويد" و"سي. جي. يونج"، التي كان يعرفها، معرفة مباشرة، من حوارات شخصية مع "يونج". تزاحمت الأفكار في رأس برود، لدرجة أنه لم يذق طعم النوم في هذه الليلة. تحدث "هويف"، بالطبع، عن بعض الأمور الخاصة لـ "أينشتاين"، الذي كان يغرق تمامًا في معادلاته، فلا يخرجه أي شيء من هذه الحالة، فضلًا عن عدم اهتمامه مطلقًا بمتطلبات وجاهة الأستاذ. نجح في إلقاء محاضرة بالبلوفر، وجاء إلى حفل استقبال، أقيم على شرفه في أحد فنادق براغ، بقميص أزرق، لدرجة أن موظف الاستقبال ظنه عامل الكهرباء الذي كان ينتظره منذ فترة طويلة. [١٨]

بالطبع، اهتم صالون "فانتا" بدعوة هذا الشخص غير التقليدي. توسط "برجمان"، وظهر "أينشتاين"، بالفعل، عدة مرات في منزل "زوم أينهورن"، كما أحضر معه آلة الكمان ليلحن مع برود، أو مع عازفة بيانو متخصصة. تبرع بشرح نظريته، مرة أخرى، أمام عشرين مستمعًا، وذلك دون الاستعانة بالرياضيات قدر الإمكان. لا نعرف شيئًا عن عدد مرات حضور كافكا هذه الأمسيات، أو عن حضوره أساسًا، ولكنه قُدّم، في الأغلب، إلى "أينشتاين". [١٩] لم يجد عالم الفيزياء هذا المجتمع، الذي دخل فيه، لطيفًا دون أية تحفظات؛ لأنه لم يهتم مطلقًا بالأعمال الفلسفية والثيوصوفية، التي كانوا يدرسونها، كما لم يعبأ مطلقًا بالحركة الصهيونية، التي صارت، منذ ظهور "بوبر"، مادة للحديث. تذكر، بعدها بسنوات، "مجموعة صغيرة تلوثت أفكارها بالفلسفة والصهيونية، مجموعة صغيرة من البشر

من القرون الوسطى، بعيدين عن الحياة". لم ينبهر عالم الفيزياء بفكرة أن برود قد استوحى من بعض صفاته شخصية "كيلر" المثيرة للجدل في روايته "طريق تيشو براهه إلى الرب"، رغم قراءته للكتاب "باهتمام كبير".[20]

لم تقلل شكوك "أينشتاين" من عزيمة "برجمان"؛ إذ أخذه إلى محاضرة لـ "رودلف شتاينر": في الأغلب محاضرة "الأعماق الكامنة لحياتنا الروحية" يوم ٢٨ أبريل ١٩١٢، وليس لدينا محضر لهذه المحاضرة. لم يتفاجأ "برجمان"، بكل تأكيد، أن "أينشتاين" اللطيف، ولكن غير الدبلوماسي، قد رفض شاكرًا التعرف إلى "شتاينر"، وخرج ضاحكًا. قال "أينشتاين"، بعدها بعدة أيام، إلى أحد معارفه: "ما هذا الهراء الذي قاله هذا الرجل، فلنُمعن التفكير في هذا الهراء الذي يطلق عليه الإدراك الخارق للطبيعة، إن لم تكن العيون والأذن، يجب أن تكون هناك حاسة أدرك من خلالها أي شيء!"[21]

تذكر كافكا، أحيانًا، هذه المغامرات الخارقة للطبيعة قبل الحرب العالمية. كتب، في صيف عام ١٩١٦، محضرًا مختصرًا لجلسة روحانية، ولم تكن بدايتها مبشرة على الإطلاق:[22]

"الروح: سامحني.
صاحب الكلمة: من أنت؟
الروح: سامحني.
صاحب الكلمة: ماذا تريد؟
الروح: أريد الرحيل.
صاحب الكلمة: لقد وصلت للتو.
الروح: هذا خطأ.

صاحب الكلمة: لا ، ليس خطأ. لقد أتيت وسوف تبقى.
الروح: أصبت للتو بالغثيان.
كان "أينشتاين" سيعجب بهذا الحوار بكل تأكيد."

الأدب والسياحة

"لا نصل إلى القمم في الحياة
لنجلس عليها
ولكن لنستمر في الصعود في هواء أفضل."

هايميتو فون دودارار، السجل

''قرأ ''بيرنهارد كيلرمان'' من أعمالي غير المنشورة، هكذا كانت بدايته. يبدو أنه شخص طيب القلب؛ شعره الواقف كله رمادي تقريبًا، وجد صعوبة في تصفيفه ليصير مستويًا، وأنفه مدبب، كما يرتفع اللحم الذي يكسو عظام وجنتيه وينخفض، كأنه موجة بحر. إنه كاتب متوسط المستوى، ببعض المقاطع الجيدة ''يخرج رجل إلى الممر، يسعل ويبحث من حوله عن وجود شخص آخر''، رجل صادق، يريد أن يقرأ ما وعد به، ولكن لم يسمح له الجمهور بذلك، فزعًا من أول قصة عن مستشفى الأمراض العصبية، ملوا أسلوب القراءة، وخرجوا فرادى وبهمة، على الرغم من التشويق السيء، كأن هناك قراءة أخرى في القاعة المجاورة. شرب، بعد الثلث الأول من القصة، رشفة ماء، فخرج عدد كبير من الجمهور. أصابه الفزع، وكذب بقوله إنه سينتهي في الحال. نهض الجميع فورًا لحظة انتهائه، بعض التصفيق، الذي بدا كأن

شخصًا من الجمهور ظل جالسًا وسط الواقفين وكان يصفق لنفسه. أراد "كيلرمان" قراءة قصة أخرى، ربما أكثر من واحدة، فتح فمه من هول الصدمة؛ بسبب هروب الجمهور. قال، بعد تقديم المشورة له، أريد أن أحكي لكم حكاية خرافية صغيرة، لن نستغرق إلا ربع ساعة، وسنعقد استراحة لمدة خمس دقائق. بقي بعض الأشخاص من الجمهور، وقرأ حكاية خرافية، لها مواضع تبرر خروج أي شخص من الجمهور راكضًا من أول القاعة إلى نهايتها."[١]

لعله أول الأمثلة لأسلوب وصف كافكا الجديد، وأكثرها مرحًا: لا يصف الأشياء بأسلوب لاهٍ من على السطح، ولا يقدم تفاصيل لا حصر لها. يرسم كافكا صورة لشخص، ويتعلم هذا الفن من خلال كتابة المذكرات، ويعي، تمامًا، أنه نوع من أنواع التدرب على الكتابة. الاهتمام الدافئ بالبشر شرط لا غنى له، ولكنه لا يعني، بالضرورة، جني القبول. إنه يسبق الأدب، وقد تبقى قيمة الأدب من دونه محفوظة، أما النصوص الأدبية، التي تستغني عن هذه المشاركة، ولا تظهر إلا لنفسها، فيراها كافكا "تركيبة اصطناعية"، وينحيها جانبًا. كان هذا سببًا جوهريًا لعدم اعتباره مذكراته اليومية مجرد دفتر تدوينات، أو عرضًا تاريخيًا ليومياته. بدأ كافكا يفهم أن هذه الدفاتر ليست مجرد مسرح لخواطره عن نفسه، أو للتيقن من وجوده، بل إنها تعلمه شيئًا سيؤدي به إلى الأدب: نظرة، ورؤية، وأسلوبًا لغويًا وسرديًا. بعد مرور أسبوعين على قراءة "كيلرمان"، وفي آخر أيام إجازته لعام ١٩١٠، الذي كان محجوزًا للعمل الأدبي، أخذ كافكا على نفسه عهدًا "ألا يترك كتابة يومياته أبدًا".[٢]

كانت خطوة مطلوبة بالفعل؛ لأن الاستعارات المحورية، التي ستقوم عليها أعماله الكبرى، كانت تبلورت أمامه، ولكنه لم ينجح بعد في تشكيلها أدبيًا. دوّن: "أسمع نداءً في أذني، يا ليتك تأتين أيتها المحكمة الخفية!" تصيب هذه المقولة كل من قرأ رواية "المحاكمة" بالدهشة الشديدة، ولكن يمر كافكا على هذه الصورة مرور الكرام، ويبدو أن الفكرة القريبة، بأخذ المعنى الحرفي لهذه الاستعارة والتعامل معه أدبيًا بخلق معانٍ متشابكة، لم تخطر على باله بعد. تسقط، لمدة أربع سنوات، في حالة أشبه بالظلام. لا تختلف حال كافكا مع العلاقة بين الأب والابن. الفكرة الواعدة، أن تفشل شخصية هوائية، لم تستقر بعد في الحياة؛ بسبب أب حيوي وسلطوي، كانت فكرة حاضرة بوصفها صورة. ولكن بما أن للفكرة الأولوية قبل الصورة، تبقى الشخصيات مع محاولة الصياغة الأدبية الأولى باهتة، كما يضيع معنى الأحداث، المفتقدة لبراعة العرض، وسط الإيحاءات التي يقدمها عمل عالم المدينة، عمل غير مكتمل، وينتمي إلى قلة من أعمال كافكا الضعيفة. [٣]

لا تختلف هذه الحال من التذبذب مع بداية عام ١٩١١، ولا في الصيف أيضًا. يحاول كافكا، بعد الاستشارة الفاشلة التي قدمها له "شتاينر"، الالتزام الصارم ببرنامج يومي. يقلل من فترات الترفيه الليلية، ويحجز ساعات المساء للجلوس على مكتبه في المنزل، ولكن يبقى بلا أي إنتاج أدبي. يبدأ، مرة أخرى، في الشكوى من العمل في المكتب، خاصة الوقت المسروق، دون تقدم ما يثبت قدراته على العمل الخاص. ينمو، في الوقت ذاته، داخل كافكا شعور بالالتزام الأدبي أو المسؤولية الأدبية، وهو شعور أكبر من مجرد الاستمتاع بقدراته الأدبية، وسوف يحرك مسار حياته قريبًا. لقد وصل، الآن، إلى نهاية العشرينيات، وفهم أنه مهدد بحياة المتفرج. بدأ الأصدقاء الحديث عن

الزواج، فعلتها أخواته، اللاتي لم يهتم بهن، وسيصرن في المستقبل القريب أمهات. عرف كافكا، من أقدار الآخرين، أن الفرص تتلاشى، وتحل محلها الوقائع والقرارات. عرف أنه قد نضج الآن، ولن يمكنه الاعتماد على إجراءات تأجيل أخرى. يتضح أن عليه أن يجعل الأدب، الذي يعده أبعد ما يكون عن الحياة، جوهرًا لحياته، هذا ما سيحاول القيام به. ما كان ينقصه هو تقديم الحجة لهذا القرار المتناقض، الدليل الملموس على أنه لن يذهب إلى الجنون.

تنفرج الأزمة في الصيف، وتزهو الأجواء. يستمتع كافكا بالنور، والهواء، والدفء، والماء، ويجلب الاسترخاء الجسدي، في أثناء السباحة والتجديف، ارتياحًا ملموسًا، لدرجة أنه قادر على الحديث عن "فترة سعادة بسيطة". يغلب شعوره الجسدي على إدراكه، ويحجم، لفترة قصيرة، عن ضرورة اتخاذ القرار. كتب مع منتصف أغسطس: "كانت الفترة الماضية، التي قضيتها دون كتابة كلمة واحدة، مهمة بالنسبة لي؛ لأنني تخليت، في مدارس السباحة في براغ و"كونيجزال" و"تشيرنوشيتس"، عن الخجل من جسدي. أعوض، وأنا في الثامنة والعشرين من عمري، ما فاتني في تربيتي. هذا ما يطلق عليه في السباقات البداية المتأخرة." يتحدث مع برود، باستفاضة، عن رحلة طويلة أخرى إلى الجنوب؛ ليستمتع، مرة أخرى، بسعادة السباحة التي وجدها في "ريفا". سيقومان هما الاثنان بهذه الرحلة، وسيستنفدان إجازتهما السنوية كاملة؛ لذلك فإن خططهما عظيمة. سويسرا، ومدن شمال إيطاليا وبحيراتها، والبحر الأدرياتيكي، والريفيرا الإيطالية.. يريدان رؤية كل هذا، ولكنه أكثر مما هو متاح في ثلاثة أسابيع، وسيضطران، لذلك، إلى الاختيار والإبداع في الحلول.[4]

كانت نيتهما، في هذه المرة، تدوين ملاحظاتهما بشكل أكثر تفصيلًا، لدرجة أن كافكا اقترح أن يكتبا مذكراتهما اليومية بالتوازي؛ حتى يتسنى مراجعة وصف التجربة، واستكمال النواقص بشكل متبادل. لم يفكر في الكتابة الأدبية بالدرجة الأولى، وإنما أراد توظيف الكتابة لصالح الرحلة، واعتقد "أن الرحلة ستكون أفضل، وأنه سيلحظ الأشياء ملاحظة أفضل؛ لأن بعض الكتابة سيخفف عنه." لا يجد، في أثناء قيامه بالرحلة، مع تعرضه لعشرات الآلاف من الانطباعات الحسية، أن مكسب هذا التدريب تحقق فحسب، بل عدّه -أيضًا- الوسيلة الفعّالة الوحيدة للتخلص مما يصحب الرحلات السياحية من تفريغ للمعنى. "السفر من دون الكتابة عمل غير مسؤول، تمامًا مثل الحياة من دون الكتابة. الشعور القاتل «!» بأن الأيام تمر على الوتيرة نفسها."[٥] لا يمكن أن يكون لالتقاط الصور التذكارية، التي يجمعها المسافرون، التأثير نفسه. هذه هي الحجة الجديدة، التي يواجه بها صديقه؛ ليسخر من لقطاته الفوتوغرافية. لا يقتنع برود، ويجد في الحال حجة مضادة: يتساءل عن المخاطرة بفقدان كم هائل من الانطباعات في لحظات الانشغال بالكتابة المستفيضة. أليست هذه الانطباعات سببًا لتدوينات قد تكون أكثر إثارة؟ أليست الكتابة، في أثناء وقوع الأحداث، مثل إغلاق للعين؛ نضطر بعده إلى إعادة ضبط نظرتنا المتنبهة؟ لا يمكن لكافكا إنكار صحة هذه الاعتراضات. أجاب أنه يجب ملاحظة هذا الوضع باستمرار؛ لتحجيم التأثيرات السلبية المصاحبة.[٦]
هل يؤمن بذلك حقًا؟ إنه يتحدث عن السفر الواعي الذي تصحبه الكتابة، ولكنه يفكر، في الوقت ذاته، في أسباب اختلاف الوضع مع سائر أنشطة الحياة. إن اعتبرنا الحياة بدون تدوين الملاحظات عملًا "غير مسؤول"، فسنجد أن اعتراض برود له وجاهته: في اللحظة التي أكتب

فيها، لا أرى سائر التجارب من حولي؛ تتوقف حياتي في هذه اللحظة، ولا أرى الفراغات التي تنشأ في نصي المكتوب، وإنما يراها الآخرون. إنها مشكلة مزعجة للمسافر، وتتعلق بأسلوب إدراكه للأشياء، أما بالنسبة للكاتب فهي بمنزلة تناقض يثير الشك في أهداف ما يقوم به. قضية الجمع بين الأدب والتجربة الحيوية ستشغل كافكا قريبًا من الجانب الأخلاقي، وسوف تعذبه حتى نهاية عمره. لا يعرف ذلك في اللحظات التي تبدأ فيها أكبر رحلات عمره، في ٢٦ أبريل لعام ١٩١١.

نظرت الآنسة "أنجيلا ريهبرجر" من سيارتها الكوبيه إلى رصيف محطة القطار. إنها محطة القطار الرئيسية في "بيلزن"؛ حيث استقلت، منذ قليل، القطار المتجه إلى ميونيخ، الذي توقف هنا لفترة قصيرة؛ ليمنح المسافرين فرصة تناول القهوة، وتحريك أقدامهم قليلًا. يبدو أن الرجلين اللذين وجدت معطفيهما وحقائبهما معها في العربة كانا يقومان بالشيء نفسه.

اتضح أن هذين الشابين المهندمين صديقان، وبدا أنهما غريبان بعض الشيء: أحدهما قصير القامة، يشع حيوية، بنظارة مستديرة على أنفه، والآخر طويل القامة، وهزيل القوام، بأذن بارزة وابتسامة متحفزة، وأشبه بصبي. تحرك القطار، وحرك الهواء، الذي دخل من نافذة العربة، قبعة الآنسة "ريهبرجر" الملفوفة في ورق خفيف، فاستقرت على رأس الرجل القصير القامة، الذي استغل الموقف في الحال لتجاذب أطراف الحديث. كانا موظفين من براغ، يحملان درجة الدكتوراه، ويقومان معًا برحلة إلى إيطاليا، وسعيدين بالهروب لفترة من مكتبيهما. كان لديها هي الأخرى ما يمكن أن تحكيه لهما؛ إنها الفتاة الوحيدة التي تعمل في مكتب هندسي "رائع" في "بيلزن"، وهي الأصغر عمرًا أيضًا؛ لذلك، يطلق

عليها الزملاء "آخر العنقود"، أو "السنونو الصغير". الأجواء مرحة، والجميع يشارك في المقالب: يقومون بتبديل القبعات، ولزق الأقلام في المكاتب، وتثبيت الفطائر بمسامير في الموائد. أجواء رائعة بالفعل. إنها تفكر في المزحة القادمة، وبحاجة لمساعدة معارفها الجدد؛ إذ كانت في طريقها إلى "ترينت"، حيث نقل أبوها الضابط إلى هناك، وتريد رؤية والديها وأختها بعد فترة غياب طويلة. كتبت إلى زملائها بطاقة بريدية أنها ركبت، بالخطأ، القطار من ميونيخ، ووصلت إلى سويسرا، وتطلب من الأستاذين التفضل بإرسال بطاقتها من "زيورخ".. نعم يمكنهما القيام بذلك. وجدوا، فضلًا عن ذلك، موضوعات جميلة كثيرة للحديث. بدا أن الرجل القصير القامة خبير في الموسيقى؛ لأنه كان يعرف، مسبقًا، ما قالته عن عروض "فاجنر"، وغناءها لنغمة بصوت خافت. وبدا أن الرجل الهزيل كان يرى نفسه خبيرًا طبيًّا"؛ لأنه شرح لها أن عليها التخلص من زجاجة مستحضر الحديد الموجودة في حقيبتها. يتطلب العلاج الطبيعي لجسم الإنسان ما هو أكثر من ذلك. ضحكت الآنسة "ريهبرجر"، وتوجه ثلاثتهم إلى عربة الطعام.

وصل القطار في موعده إلى ميونيخ، في العاشرة إلا الربع مساءً، ومن المفترض أنه سيتوقف، هنا، لمدة خمس وأربعين دقيقة، قبل أن يستكمل رحلته إلى سويسرا. أما قطار الآنسة "ريهبرجر"، المتجه إلى "ترينت"، فأمامه ساعة تقريبًا. اقترح قصير القامة، المهذب، فكرة مجنونة: أن يستثمروا هذا الوقت في القيام بجولة في المدينة. وماذا عن الحقائب؟ يمكن وضعها في السيارة الكوبيه، ولكن ماذا عن الأمطار والظلام؟ اقتنع قصير القامة بهذا الاعتراض، وسحب الاثنين تحت أقواس محطة القطار، وهرع لجلب سيارة أجرة. ركبت الآنسة "ريهبرجر" على مضض، ويبدو أن طويل القامة شعر بالإحراج

أيضًا. انطلقت السيارة، ومرت الإطارات من فوق الأسفلت المبلل، وصاح السائق بأسماء المعالم التي كان يمكن رؤيتها نهارًا: فندق "الفصول الأربعة"، تمثال السلام بنافورة الماء، ثم الجامعة، وكنيسة "تيانينر"، وقاعة القيادة العسكرية، ومبنى البلدية الجديد، وقاعة تصنيع الجعة "بشور بروى"، وبوابة "زيندلينجر". استغرقت هذه الجولة السريعة عشرين دقيقة، وتبقى بعض الوقت للاغتسال، وتوصيل الآنسة بحقائبها إلى القطار، حيث تولت سيدة متقدمة في العمر أمرها.

تعجب الشابان، بعد مرور ستة أسابيع، حينما شاهدا الآنسة "ريهبرجر" في الشارع في مدينتهما براغ. لم يتمكنا، حينها، من اكتشاف زيف قصة المكتب الرائع في "بيلزن"، وأنها تعيش، وتعمل بالفعل، في براغ. كانت في مجرد زيارة لأمها، وأخيها، وابنة أخيها حديثة الولادة في "بيلزن". بمن التقت في "ترينت" إذًا؟ ليس بأبيها الضابط بأي حال من الأحوال؛ لأنه شخصية من وحي الخيال؛ إذ كانت الآنسة "ريهبرجر"، في واقع الأمر، ابنة غير شرعية. كما لم تكن -أيضًا- آخر العنقود، وكانت قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها. استغرق اكتشاف كل هذا أكثر من قرن. [٧]

بخلاف كل رحلات كافكا السابقة، لدينا تصور دقيق عن رحلته الصيفية الكبيرة في عام ١٩١١، وشامل لبعض النوادر أيضًا، كما تقدم مذكرات برود المنشورة توازنًا بين الرؤية الخارجية والرؤية الداخلية. كثيرًا ما نجد بعض التأثيرات الكوميدية، التي ارتبطت بالدور المزدوج للمسافرين، وهو دور لم يستوعبه الاثنان طوال الوقت: كانا يتحركان بوصفهما كاتبين منتبهين، ومثقفين، ويتمتعان باللباقة اللغوية، وبوصفهما سائحين، بنصف المعرفة الثقافية المطلوبة، التي تصاحبها

خبرة قليلة في السفر، وبعض التفاصيل التي التقطت عشوائيًا؛ مما يؤدي، حتمًا، إلى الالتباسات والمفاجآت. يعرفان الكثير، ولكن ليس بالضرورة ما يحتاجان إلى معرفته. كان كافكا يعرف، مثلًا، أن في محطتهما الأولى في سويسرا، زيورخ، مطعمًا إصلاحيًا نموذجيًا لا يقدم الكحوليات؛ اسمه "لدى كارل الأكبر". ولكن كانا بحاجة إلى مساعدة ضابط شرطة (ونال المطعم إعجابهما لدرجة أنهما ترددا عليه مرتين في غضون ساعات قليلة). سمعا عن الكاتدرائية الكبرى بوصفها أهم المعالم؛ إذ كانت أكثر المباني الرومانية التي رآها كافكا تأثيرًا، ولكنه لم يكن متأكدًا ما إذا كان تقليدًا معماريًا حديثًا. لم يخطر بباله أن زيارة صباحية في يوم الأحد معناها زيارة للقداس (مما اضطرهما إلى الهروب من خادم الكنيسة الذي أراد إرشادهما إلى أماكن الجلوس). اكتشفا ـ أيضًا ـ أن مكتبة المدينة، التي تشمل مكتب الأديب "جوتفريد كيلر"، تغلق أبوابها يوم الأحد، وظنا، حقًا، أنهما قد يدخلان المكتبة بالضغط على المكتب السياحي لمدينة "زيورخ". تعرضا ـ كذلك ـ للمواقف المزعجة في أثناء زيارتهما لمسبح على بحيرة "زيورخ"؛ إذ كانا بحاجة إلى الاستحمام بعد الرحلة التي استغرقت ليلة وضحاها. كان مسبح الرجال يعج بالشباب خاصة، وسخر كافكا من القاعة الجماعية لخلع الملابس، التي قُدمت بديلًا عن الكبائن الفردية المحجوزة عن آخرها. انطلق كافكا سابحًا في البحيرة، أما برود فبقي خائفًا على الشاطئ، وهاجمه، بعد فترة، المشرف على السباحة وبعض الشباب المتعارك برشاش الماء. كتب ملخصًا: "هذه المدينة ليست مناسبة لي." واصل الصديقان، في المساء، رحلتهما إلى بحيرة "فيرفالد شتيتر"، وإلى مدينة "لوسرن"؛ حيث قدما قمة أعمالهما السياحية. [٨]

ظلت علاقة كافكا بالمال علاقة متناقضة طوال عمره، فظهرت، من ناحية، تأثيرات تربية تاجر له، وابتعد، من ناحية أخرى، عن نسبه إلى طبقته الاجتماعية. ظل بعيدًا عن التمتع بتملك الأشياء في حد ذاتها، وكذلك عن زيادة المال، أو توفيره في حد ذاته. أزعجه، من ناحية ثالثة، الإسراف الملزِم وغير المبرر، حتى إن كانت مبالغ بسيطة، كان هذا الانزعاج يستغرق فترة طويلة، ويؤدي به، في أحيان كثيرة، إلى لوم نفسه: عد كافكا نفسه بخيلًا، ولكن حفظه هذا العداء البرجوازي لكل أشكال الإسراف، وشراء الراحة بالمال، من الاعتماد المفرط على إعانات الأسرة. لم يحسب كافكا سلوك "أوتو جروس"، الذي كان يبيت في فنادق فاخرة ويرسل الحساب إلى أبيه المكروه، سلوكًا غير أخلاقي فحسب، بل غير منطقي أيضًا. يطالب كافكا بزيادة في الأجر حينما يستشعر ظلمًا، ولكنه لا يهتم مطلقًا بالقيمة المجردة والمترجة لأرقام وأعداد.

حينما سمع، في إحدى الأمسيات، في أثناء نزهة مشتركة في ممشى بحيرة "لوسرن"، جلجلة تصدر عن عملات القمار، جذبه مجرد الفضول إلى لعبة اجتماعية. جاءت هذه الجلجلة عبر نوافذ قاعة كبرى (هو اليوم "كازينو لوسرن الأكبر"). لم يتوقع الاثنان الكثير من الحياة الليلية في "لوسرن"، كما أن ثمن تذكرة الدخول لم يتخطَ فرنكًا واحدًا، فلم يكن هناك، إذًا، ما يمنع متابعة هذا اللهو البريء عن قرب. لم يدخل برود ولا كافكا كازينو من قبل، وكان هذا المكان ـ أيضًا ـ بعيدًا عن حياة أبويهما تمامًا؛ لذلك، كان من الأفضل إخفاء هذه الزيارة عنهما، خاصة وأن والد كافكا أصابته، منذ أيام قليلة، آلام في القلب؛ بسبب المشاكل المادية. تخيل فرانز، وهو جالس على مائدة "الروليت"، كان سيصاب، في الأغلب، بأزمة قلبية.

كانت اللعبة المعتادة في "لوسرن" شكلًا مبسطًا للعبة "الروليت" أطلق عليها "بوول"، ويُراهن فيها على الأرقام من واحد إلى تسعة. كان إناء اللعب صلبًا، والكرات الصغيرة المقذوفة داخله من المطاط الصلب، ولكن العبارات المنقولة عن لعبة الروليت الأصلية مسموعة باستمرار، وقام كل من برود وكافكا بتدوينها بدقة: "Messieurs, faites votres jeu–marquez le jeu–les jeux sont faits–sont marqués–rien ne va plus."، انبهر الاثنان -أيضًا- بمهارة المشرفين على اللعبة وسرعتهم؛ إذ كانوا يستخدمون الشوكة المعدنية، أداتهم الوحيدة، استخدامات مختلفة. دوّن برود: "يسحبون بها النقود إليهم، ويقذفون بها إلى الساحات الرابحة، كما يلتقطونها بها، ويقسمونها، ويشيرون بهذه الشوكة أيضًا." هذا ما كتبه كافكا بالحرف أيضًا، كما يصف الاثنان، من ذاكرتيهما، منضدة اللعب. يلاحظ كل منهما -أيضًا- ملل هذه اللعبة؛ إذ لا يمكن معايشة الإثارة والمفاجأة إلا بالمقامرة. ولكن هل يجب عليهما، حقًا، الإقدام على هذه الخطوة؟ كانت القاعة كبيرة، وبها منضدتان للعب، وتجمع حول كل منهما مجموعة من البشر، ولكن هناك من استلقى -أيضًا- فوق المقاعد، أو من تجول في القاعة. لا يلتفت أحد إلى المتفرجين فقط. وقفا عند إحدى النوافذ المفتوحة، التي هبت، من خلالها، نسائم الهواء الباردة، وتشاورا في الأمر. قال برود إن بإمكانهما اللعب دون مخاطرة؛ أي يلعب واحد منهما على الأرقام الفردية والآخر على الأرقام المزدوجة، فتذهب النقود وتجيء، ولكن لا يخسران المبلغ نفسه. كانت فكرة رائعة، وفهمها كافكا في الحال. قام كل واحد منهما على الخزينة بتغيير خمسة فرنكات، تساوي ثمن إيجار الفندق ووجبة المطعم، إلى عملات القمار.

كانت السذاجة الطفولية، التي اتسمت بها هذه "الحيلة"، مبهرة، وأصابت كافكا بإحراج شديد، لدرجة أنه تعامل معها بحالة من الصمت. أقدم الاثنان بالفعل على لعبة، تخسر من خلالها، مهما حاولت؛ خسارة أسرع من لعبة "الروليت". كانت خمسة هي رقم حظ البنك، وفاتت عليهما هذه المعلومة في أثناء تركيزهما في الحركات الأنيقة للمشرف على لعبة القمار. مع الإعلان عن رقم خمسة، يفقد اللاعبون جزءًا من أموالهم، ويعني ذلك أن البنك يكسب على المدى البعيد عشرة بالمائة مما يضعه الضيوف على المفرش الأخضر. لم يبقَ، نظرًا لهذه الهزيمة المتوقعة، شيء أمام الاثنين سوى العودة إلى دور الكاتب. دوَّن برود: "نفقد النقود كأنها تنزلق على منحدر بسيط، أو مثل الماء الذي تفتحه فوق الحوض، وتنصرف في بطء يجعلك تتخيل أنها ما زالت موجودة، توقف السدادة الماء للحظة، ولكن تنصرف كلها في النهاية." يغادران القاعة وهما في حالة إثارة، غاضبين من أنفسهما قبل كل شيء. هل سيعيد المدير إليهما الفرنكات العشرة إن هددا بالانتحار؟ لا، حتى الدعابة السوداوية لن تهدئ من روعهما. الأفضل هو العودة إلى الفندق، وتعويض نوم ثمانٍ وأربعين ساعة، ونسيان كل ما حدث. [٩]

بخلاف معظم السائحين، الذين التقى بهم كافكا وبرود، كانت رحلتهما على طريق محطات البحيرات فقط، وليست جبال الألب: بحيرة "زيورخ"، وبحيرة "فيرفالد شتيتر"، و"لاجو دي لوجانو"، و"لاجو دي كومو"، و"لاجو ماجيورة". كتب الاثنان، بمشاركة داخلية قوية، عن رحلات البواخر، وطبيعة الشواطئ، وفرص الاستحمام في البحيرات، في حين أن فكرة الرحلة سيرًا على الأقدام، أو تحمل عناء رحلات الجبال لمدة أيام، كانت بعيدة عنهما تمامًا. أظهر

كافكا علاقة ساخرة بعالم الجبال، حينما خطرت، في أثناء دخوله سويسرا، بباله فكرة أن أي سويسري سيسعد بتخيل جميع مرتفعات بلده كأنها مساحات مستوية؛ لأن سويسرا ستكون، في هذه الحالة، أكبر مساحة من الرايخ الألماني.[10]

توجها مرة وحيدة، بعد مغادرتهما لمدينة "لوسرن"، إلى أحد المرتفعات، ولكنهما استعانا بقطار الجبل الطائر ليصلا إلى منطقة "ريجي كولم" على ارتفاع ١٨٠٠ متر، بمحال هدايا تذكارية، وجمهور من جميع أنحاء العالم، وفندق خلاب بالقرب من القمة. انبهر البراغيان للحظة بالمشهد الطبيعي الرائع من فوق جبال الألب والمطل على عدد من البحيرات، ولكن ظلت تدويناتهما حيادية، ولم يتذكرا وقوف كل من "جوته" و"فلوبير" قبلهما في هذا المكان. يبدو أنهما قد انزعجا من الأعداد الهائلة من السائحين، ومحادثات الإنجليز التي لم يفهماها. كانا مرهقين، وأزعجهما دفع ثمانية فرنكات لمائدة متميزة في مطعم الفندق؛ أي أنهما دفعا ثمن المشهد، وليس ثمن الوجبة. استغرقت رحلة العودة إلى البحيرة أكثر من ساعة، واستسلم، في أثنائها، برود للنوم. وقعت القبعة من على رأسه، وضحكت الإنجليزيات. وصلا، بعد ذلك بالباخرة، إلى المحطة القادمة "فلولين"، حيث تحسنت حالتهما المزاجية؛ إذ حصلا على غرف نظيفة وهادئة بشرفات، وتناولا، بعد أخذ قسط كافٍ من النوم، فطورهما في شرفة فاخرة مطلة على البحيرة. ولكن ظلت المرتفعات الشاهقة المحيطة تزعج كافكا؛ إذ يبدو أنها كانت تسبب ظلامًا من حوله، وتوقظ حنينه إلى إيطاليا، التي سيصلان إليها قريبًا. كتب إلى أوتلا: "أنا مسجون في "فلولين"؛ أجلس منحنيًا، يكاد أنفي يدخل في قارورة العسل."[11]

لاحقًا، أقر برود، مسترجعًا ذكرياته: "لم أكن في حياتي متزنًا في سعادتي مثلما كنت في أسابيع الرحلة التي قضيتها مع كافكا. تركت كل الهموم والمنغصات خلفي في براغ. صرنا طفلين سعيدين، تخطر ببالنا أغرب المزحات –كنت في سعادة بالغة وأنا أعيش بالقرب من كافكا، وأستمتع مباشرة بأفكاره التي تشع حيوية (حتى أوهامه بالمرض كانت مبدعة وممتعة)."[١٢] لم تكن هذه الفترة النموذجية بلا شوائب تمامًا، ولكن من الواضح أن كافكا قد استرخى تمامًا خلال الأسابيع التي قضاها في الجنوب، وأنه أطلق العنان لموهبته في الدعابة والمرح، كما لم يفعل في المنزل إلا في حضور أخواته. كان يستمتع بالربط المنطقي –في ظاهره فقط– بين الأمور، وبتنفيذ أفكار عبثية، لم يقدر عليها برود، الذي لم يفهم، في هذه اللحظات، مدى جدية صديقه.

كانا يسترجعان، في أثناء نزهة في "فلولين"، أيام الإجازة الأولى، وتحدثا عن السياح الآخرين، الذين يتعرضون للنصب بمبالغ مالية كبيرة؛ بسبب جهلهم. لا يقدم دليل السفر المعتاد الحماية الكافية؛ لأنه لا يتعرض، بشكل وافٍ، للعوائق الفعلية، ولا الخصائص المحلية، ولا خبرات السائحين السابقين. يحصل قارئ دليل "باديكر"، مثلًا، على قائمة بالفنادق والمطاعم، التي لا يعرف عنها شيئًا سوى أسعارها وعناوينها: إنه يختار، إذًا، برؤية قاصرة، ويمكن التوقع أنه سيصاب، في بعض الأحوال، بخيبة الأمل، أو سيحصل على مميزات مفرطة. من لديه القدرة المالية على الإقامة في فنادق فاخرة لا يحتاج إلى هذه المقترحات؛ إذ يسأل عن "أقرب مكان في الساحة" فحسب. أما المسافر من الطبقة المتوسطة فلا يريد، ولا يملك أيضًا، حرية الاختيار؛ إنه بحاجة إلى استشارة مفيدة تضمن رضاءه، وذلك فيما يتعلق بكل تفصيلة وكل خطوة: يريد خارطة طريق جاهزة، ليبدأ رحلته في التو مع

المجموعة. هل هناك أيام بتذاكر مخفضة في المتحف؟ ما اللوحات التي يجب مشاهدتها هناك؟ هل هناك تذاكر مجانية للحفلات الموسيقية؟ هل عليّ استقلال عربة مؤجرة ما دام الترام متوفرًا؟ هل يمكن المخاطرة باستقلال قطار درجة ثالثة إلى إيطاليا؟ ما الأنشطة المتاحة مع سقوط الأمطار؟ كيف يمكنني التعرف على محترفي النصب؟ ما حجم الإكراميات، ولمن أدفعها؟ (أضاف برود أنه يجب دفع الإكرامية لمشرف السباحة). والسؤال الأهم: أين يمكن الحصول على المتعة الجنسية والحسية بأسعار معقولة؟ أي دليل سفر يجيب بحرية عن هذه التساؤلات، ويقدم نصائح مسببة يمكن الاعتماد عليها، سيقضي على دليل "باديكر" تمامًا، كانا كافكا وبرود على يقين من ذلك. سلسلة كهذه سوف تجني الملايين، ولا سيما حين تصدر بلغات عدة.

ازدادت حوارات الاثنين سخونة، وقدم كافكا، خصوصًا، مجموعة كبيرة من الأفكار العملية، دون أي دراية بالعمليات الداخلية في دور النشر، ناهيك بالقاعدة التجارية لأدلة السفر المخضرمة. شملت أفكاره تنظيم المراجعة اللغوية، وعمليات التسويق (بلافتات في مترو باريس!)، وتحديثات منتظمة للدليل يمكن الحصول عليها مقابل الكوبونات. وجد سريعًا اسمًا يسهل حفظه، ليطلقه على السلسلة: "رحلات رخيصة"، و"رحلات رخيصة إلى إيطاليا"، و"رحلات رخيصة إلى باريس". كان مصطلحًا، لا تشوبه، مع منعطف القرن العشرين، أي معانٍ سلبية. كان يذكر بالشعار الإيجابي "رخيص ومناسب"؛ أي الجانب الأخلاقي "للعلاقة المتسقة بين السعر والخدمة المقدمة". من الواضح أن هذا المشروع قد شغل الصديقين على مدار ساعات، وكذلك خلال المحطة التالية لرحلتهما، رحلة بالقطار إلى "جوتهارد"، المبهرة من الناحية التقنية، فضلًا عن

المشاهد الطبيعية الخلابة. دوَّن برود، في اليوم التالي، جميع الأفكار على ورق الخطابات الخاص بفندق "بلفيدير" (المطل على بحيرة "لوجانو")؛ خمس صفحات تصف ''صفقة الملايين''، وملاحظات بخط كافكا، الذي تقدم خطوة أخرى، وكان يفكر في شكل جديد تمامًا يشمل دليلًا لغويًا أيضًا. أوضح استحالة تعلم لغة أجنبية بشكل كامل؛ فدراسة اللغة بتأنٍ، ولكن مع ضعف القدرة على التحدث بها، لا يفيد في أثناء السفر. فكر في البديل التالي: ''إدراج نحو مائتي مصدر من الأفعال، أشبه باللغة المصطنعة ''إسبرانتو''؛ أي استخدام لغة الإشارات في إيطاليا، بنطق واضح، ولن تعوق هذه الطريقة استكمال تعلم اللغة بالأسلوب المعتاد.'' تحول تبادل الأفكار إلى خطة جادة سريعًا، خطوة تجارية جريئة واحدة –من المستحيل اعتراض الأهل عليها– ستحررهما من العمل المكتبي، وتجلب لهما الاستقلال المادي. كان يتعين على برود أن يعد كافكا باستغلال علاقاته بدور النشر، ومحاولة تحقيق هذا الحلم. عرض، بالفعل، هذا المشروع المشترك، في العام التالي، على الناشر الشاب ''إرنست روفولت''. خشي أصحاب المشروع من سرقة أفكارهما، وطالبا بدفع مبلغ مقدم قبل البوح بتفاصيل مشروعهما. انتهى بذلك المشروع الطموح، وعادت مكاسب الملايين إلى عالم الخيال.
١٣

قضى كل من برود وكافكا ساعات عديدة على مائدة مشتركة؛ ليس بهدف التشاور حول مشروعهما السياحي الكبير فحسب، ولكن ـ أيضًاـ لاستكمال مذكراتهما لهذه الرحلة وإتمامها. قررا البقاء لفترة أطول، والاستجمام لبضعة أيام إضافية.

ما زالا يقارنان أي مكان يستقبلهما بذكرياتهما المشتركة في المكان الرائع "ريفا". كتب برود، في اليوم الأول، إلى أخيه: "المكان هنا جميل، ولكن لا مجال للمقارنة بمدينة "ريفا"؛ كانت الأجواء هناك رومانسية، أما هنا فالفنادق كثيرة."[١٤] وقع كافكا -أيضًا- على هذه البطاقة البريدية، ولكنهما سرعان ما أحبا الاستحمام في البحيرة، والأزقة والمحال التجارية في قلب المدينة القديمة، التي تشبه إيطاليا، وشرفتهما في الفندق المطلة على البحيرة مباشرة. كما أتيح لهما الوصول لبحيرة "كومر" خلال ساعتين ونصف؛ لاستقلال الباخرة أو القطار عبر الحدود، وزيارة قصر "كارلوتا"، الذي يقع بالقرب من "تريمسُّو"؛ إذ أشار دليل "باديكر" إلى ضرورة زيارة هذا القصر بمجموعته الفنية وحديقته الفاخرة. كثيرًا ما كانا يغادران منطقة مدينة "لوجانو" المزدحمة سيرًا على الأقدام، على الرغم من درجات الحرارة التي بلغت الثلاثين. حينما وصلا إلى الشاطئ الشمالي، وعبر طريق اصطفت بطوله أشجار الغار والزيتون، وصلا إلى منطقة "جاندريا"، التي اعتلت منحدرًا وأطلت على بحيرة "لوجانو". صار هذا المكان من أهم أماكنهما المفضلة في الجنوب. بعد تجهيز مكانين للجلوس بالأحجار الموجودة هناك في جزء منعزل من الشاطئ، جلس الاثنان لساعات تحت السماء الصافية، وأقدامهما متدلية في الماء. خلد برود هذه اللحظة في قصيدة أهداها إلى كافكا (دون ذكر ضربة الشمس التي تعرض لها). تمنى كافكا نفسه قبل وفاته بشهور قليلة "أن يجلس مرة أخرى تحت شمس لوجانو". [١٥]

"تلتزم كل حكومة بإخطار الحكومات الأخرى، فورًا، بالظهور الأول لحالات الطاعون والكوليرا في مناطقها. يجب أن يرفق بهذا الإخطار، أو يليه سريعًا، معلومات عن محل ظهور المرض، وتوقيته،

ومصدره، وشكله، وعدد حالات الإصابة المؤكدة، وعدد حالات الوفاة." هناك أسباب قوية استدعت الاستشهاد بهذا المقطع من الاتفاقية الصحية الدولية لعام ١٩٠٣ في الجرائد الألمانية والنمساوية. انتشرت الكوليرا الآسيوية، ولم تكن جميع الدول، التي وقعت الاتفاقية، على استعداد للالتزام بها. كان الاستياء موجهًا ضد إيطاليا بالدرجة الأولى: جرى التستر، بحيل إحصائية، على الوفيات اليومية بمرض الكوليرا في "نابولي"، فضلًا عن التعتيم، خاصة أمام الأجانب، على انتشار المرض في "فينيتو" و"لومبارداى". حينما أقام الكاتب "توماس مان"، في مايو عام ١٩١١، بضعة أيام في فندق "ليدو"، لاحظ الإشاعات المنتشرة في "فينيسيا"، وأساليب التعتيم التي تبنتها الجهات المسؤولة في أجهزة المدينة. خلد هذه الأحداث في عمله الموت في فينيسيا، ولكنه لم يعرف شيئًا عن حالات الوفيات الست بالكوليرا، التي وقعت في فترة إقامته القصيرة نفسها، فوق جزيرة وضعت تحت الحجر الصحي وبالقرب منه، اسمها "ساكا سيسولا". [١٦]

تأثر خط سير رحلة كافكا وبرود بالنقاشات الدائرة حول مرض الكوليرا تأثرًا مستدامًا؛ إذ قاموا بشطب الموانئ في شمال إيطاليا من قائمة المزارات السياحية: "تريست"، و"فنيسيا"، و"جنوه".. جميعها مصدر خطورة. تعجب كافكا من سيدة مسنة لفتت نظره في القطار؛ إذ رفضت التنازل عن السفر إلى "جنوه". هل كان يبالغ حقًا في تخوفاته؟ وجد، من ناحية أخرى، سياحًا يحصلون من بلادهم على آخر الأخبار من الجرائد هناك؛ ليتأكدوا من سلامة الأوضاع. كان من الصعب فهم الموقف، ما دامت الجهات المختصة تلتزم الصمت أو تكذب؛ حتى لا تتأثر السياحة.

حينما أراد كافكا وبرود، في صباح الرابع من سبتمبر، مواصلة رحلتهما إلى "ميلانو"، أخبرتهما إحدى فتيات النظافة بالفندق بظهور حالات كوليرا هناك؛ أفشى لها طبيب من برلين بهذا السر. ذهبا سريعًا إلى مكتب السياحة؛ حيث تظاهر الموظفون بجهلهم بالخبر، ولكن وجد الاثنان تأكيدًا للخبر في جريدة "برلينر تاجبلات": سُجلت ١٦ حالة كوليرا في الشهر الماضي. أصاب برود التوتر، وبدأ في تغيير جميع الخطط: ماذا لو تخليا عن رحلة إيطاليا، وقضيا باقي أيام العطلة في باريس حيث الأمان؟ تحمس كافكا، في البداية، للفكرة، ولكنه عاد، بعد وهلة، إلى عقله وإصراره، وأجاب أنه "لا يجب تغيير خط السير هذا التغيير العنيف". [١٧]

اتضح، لاحقًا، أن هذا القرار كان خاطئًا، ولكن لم يعرف كافكا، قبلها، أنه سيكتشف في صديقه جانبًا جديدًا بالغ الضعف. أصابت برود فوبيا العدوى، التي لم تؤثر على قدرته في الحكم على الأمور فحسب، بل احتلت كل أحاديثه. بمجرد وصولهما إلى "ميلانو"، اشترى، من كشك لبيع الجرائد، مطوية تصف مرض الكوليرا وصفًا مرعبًا للغاية، واضطر كافكا، في أثناء سيرهما باتجاه مركز المدينة، إلى إقناعه بأن الطقس الحار هو سبب الفيلات الشاغرة، وقلة الحركة في الشوارع، وليس هروب السكان من الوباء. شعر برود بالصدمة من بيع الفاكهة وعصير الليمون على الأرصفة المغبرة. تقمص، في أثناء مرورهما من أمام أحد المستشفيات، دور المريض المهلوس. جلسا، أخيرًا، على منضدة مقهى يقع في أشهر مراكز الشراء عند ساحة الكاتدرائية. نالت القبب الزجاجية الضخمة التي تغطي المكان إعجاب كافكا، ولكن بمجرد أن ارتاح كافكا قليلًا، عاد مرة أخرى إلى الانتحاب. قرأ في المطوية ملحوظة كارثية، عن ظهور حالات "الموت

الكاذب" لدى بعض مرضى الكوليرا. أصابته فكرة أنه قد يدفن حيًا بالهلع مجددًا. طالب كافكا أن يضمن له عدم حدوث ذلك له على الإطلاق، بطعنة في القلب مثلًا بعد الموت، مثلما حدث مع "جوستاف مالر" مؤخرًا. يتذكر برود لاحقًا "تأثر صديقه حتى البكاء" بهذه الكلمات، في حين أن كافكا كتب عن عدم رضائه عن تقليص مدة البقاء في "ميلانو" بهذه الحادثة، "على الرغم من الاعتراض البسيط من جانبي". لم يشعر برود، في هذا الوقت، بهذه التفاصيل البسيطة، كما لم يلحظ، تقريبًا، أنه يتجاهل رغبات كافكا. [18]

لم توجد، في هذه الأجواء المتوترة، أي أنشطة، كما لم تواسهما الإقامة في فندق "جراند أوتيل متروبول"، الذي يقع مباشرة بجانب الكاتدرائية؛ إذ كان أغلى الفنادق التي سكنها كافكا على الإطلاق. زارا، في المساء، عرضًا مسرحيًا في مسرح "تياترو فوساتي". قاما باختيار ثلاث مسرحيات شعبية، ولكنهما لم يفهما المزحات باللهجة المحلية، وغادرا في منتصف العرض. كما خاب أملهما في الحصول على متعة جنسية بسيطة من أجل الاسترخاء، بعد الليالي الهادئة في سويسرا. بيت الدعارة "أل فيرو إيدن"، الذي ذاع صيته حتى براغ، كان مكانًا محبطًا، لا موسيقى ولا رقص، ولا حتى مشروبات، مجرد صالون بسيط، ساحة للعرض، حضور وانصراف مستمر، كأنهم في قاعة انتظار. تبوح تدوينات كافكا بأنه تأمل العاهرات الكثيرات هنا بدقة، دون أن يشعر بأي إغراء. افتقد برود الأجواء الاجتماعية، كما أن الحنين إلى حبيبته كان يعذبه؛ ولذلك لم يقدم على أي مفاوضات مع السيدات في المكان، و"لم تكن أي منهن مقبولة، ولو نسبيًا". انتهت بهما الليلة بجولة في الشوارع الصاخبة لهذه المدينة الكبرى، مع طقس شديد الحرارة. [19]

عاد برود، في صباح اليوم التالي، إلى موضوعه المفضل: يدعي أن ناموسة قد قرصته، وأصابته بالكوليرا، وأنه يشعر بالمغص الخاص بالأعراض، وأنه يريد الرحيل في الحال. ما زال كافكا صبورًا، وساعد برود، في البداية، في دهان جسده بالفازلين؛ ليحميه من وخزات أخرى، كما أعاره المطهر "أودول"، وأقنعه بالبقاء في المدينة حتى الظهيرة على الأقل. أراد زيارة كاتدرائية ميلانو الضخمة بزخارفها المفرغة المبهرة؛ إذ أدهشته برؤيتها من بعيد، ويبدو أنه قد جمع معلومات عنها. أما برود فقد شغل نفسه بمشكلة الحصول على العملة، وصعد على مضض، مع درجات الحرارة التي وصلت ٣٥ درجة، إلى قمة الكاتدرائية. نظر متجهمًا حوله، ولفت نظر كافكا إلى أنهما ليسا بحاجة إلى زيارة "كاستيلو سفورشيسكو"، التي يقترحها دليل "باديكر"؛ لأنهما شاهداه من أعلى بالفعل. تحدث الصديقان، لاحقًا، عن أكثر الانطباعات تأثيرًا في زيارة ميلانو، التي استغرقت أربعًا وعشرين ساعة. أجاب برود، بنبرة لاذعة، إنه نموذج القطار الذي شاهده في نوافذ أحد متاجر لعب الأطفال؛ إذ كان يسير في دائرة، ولا يصل إلى أي مكان.[٢٠]

لم يكن السفر مع كافكا مسليًا فحسب، بل محفزًا أيضًا على المستوى الفكري. كانت له نظرة منفتحة على أمور بسيطة، ويدخل عنصرًا غير متوقع في تأملات أو تجارب مشتركة، أو يجد صورًا يصف بها حالة ما، دون أن يجبر نفسه على البحث عن فكرة جديدة. كتب وهو ينظر من نافذة السيارة "الكوبيه": "يجب ترك سويسرا لحالها في ساعات الصباح الأولى"، و"تتباعد المسافة بين الساقين وأنت تتجول في شوارع باريس الكبرى". لا يؤمن كافكا، فضلًا عن ذلك، بأي تحفظات اجتماعية أو قومية، وكان ينتمي في ذلك إلى أقلية من أقرانه؛

إذ كان قادرًا على استيعاب الرؤية الفردية لأي شخص. كان له، في المقابل، طباع خاصة، وفاق تحملها حدود صبر برود؛ مما أفسد عليه الإجازة في بعض الأحيان. إن دخل مع كافكا في نقاشات حول شكواه العضوية مثلًا، يجد نفسه متورطًا في حديث عن الأسس الطبية؛ مما يبعدهما عن إيجاد حل للمشكلة. لا نفهم سببًا لعدم تناول كافكا لأدوية تعالج إمساكه المزمن، بدلًا من شكواه المستمرة. كان يعترض، بشدة، على أن تغذيته النباتية، التي كانت تفتقر إلى الألياف، هي السبب في ذلك. كانت المجلات، التي تتناول موضوعات العلاج الطبيعي، التي يحصل عليها باشتراك سنوي، تؤكد ذلك أيضًا. لحسن الحظ، وجد، بعد عودته، في شخص الرسام "ألفريد كوبين" من يشاركه الحديث عن مشكلة الإمساك.[٢١]

إنه تناقض غريب بين تعنته في أمور تتعلق بمبادئ حركة إصلاح الحياة، وهدوء كافكا في تعامله مع المخاطر الحقيقية. لم يسمح لأي عدوى بكتيرية أن تؤثر في حياته؛ لاعتبارها حالة يصعب تصورها. لم يحاول الإمساك ببرود من أجل البقاء في ميلانو –التي أصابتها عدوى الكوليرا المزعومة– فحسب، بل كان يستفز صديقه بتناول عصير الليمون، والآيس، وحلوى التفاح أمام عينيه. كان ينفر من أي نوع من القذارة بشدة؛ لذلك، لم يلمس أي فاكهة غير مغسولة، حتى إن رغب في تناولها. بخلاف ذلك، فإن أي تهديد، مثبت علميًا ولكنه غير مرئي بالعين، يشغل عقله فقط لا أكثر. كان كافكا بحاجة إلى عادات، روتينيات مألوفة له، قد تكون له ردود أفعال موسوسة، ولكن لا تصيبه الفوبيا مثل برود: كان تناقضًا، جرى الحديث تفصيليًا عنه مجددًا بعد مرور ست سنوات، وقت إصابة كافكا بمرض السل.

من المنغصات، التي كانت تقع في أثناء الرحلات، الخلافات التي كانت تحدث؛ بسبب عدم دقة مواعيد كافكا؛ إذ كان ذلك يمثل لغزًا مع قدرته الاجتماعية على الشعور بالآخرين. كان يستشعر الحرج من انتظار الآخرين له، ولكنه، في الوقت ذاته، يسمح بحدوث ذلك؛ ليس لعدم إحساسه بالزمن، أو لتشتت أفكاره، وإنما لعدم قدرته على الإسراع في خطوات يومية من خلال تبسيطها، والتوقف عن أدائها. حتى عندما يستشعر أنه غير قادر على الانتهاء من أمر ما في موعده، لا يستطيع إسقاط خطوة ثانوية، أو تأجيلها. يظل منشغلًا بالأمر الذي لم ينتهِ منه. أدى ذلك، في السنوات الأولى، إلى غضب شديد من جانب برود، الذي كان يهاجم صديقه، بعد انتظاره بالساعات، بالصياح العالي. انتهت هذه المشاهد؛ لتأقلم برود على هذا الوضع، ولكن دون كبت غضبه تمامًا.

قال كافكا لحظة وصولهما الفندق: "أسرع، نحن لن نقضي سوى خمسة أيام في باريس، اغسل وجهك فقط." هرع برود إلى غرفته، ووضع حقائبه، ولم يفعل إلا الضروري، وعاد بعد دقائق قليلة. أما صديقه "فأخرج من الحقيبة كل الرفاهيات، ولم يخرج من الغرفة إلا بعد ترتيب كل شيء." تساءل كافكا عن أسباب الاعتراض على ذلك، وشعر ببراءته هذه المرة، وبدأ حديثًا قانونيًا من محام إلى محام: "كنت أقصد بالغسل غسل الوجه دون سائر الجسد، ولم أكن قد انتهيت منه بعد. لم أفهم اعتراضه، استكملت غسل وجهي، وإن لم يكن بطريقتي المعتادة، في حين جلس ماكس على فراشي منتظرًا، بملابسه المتسخة من رحلة القطار الليلية." تراجع، على الأقل، عن تنظيف الغطاء المتسخ فوق رأس المارة من الشرفة، كان من الممكن أن يقوم بذلك لاحقًا، مع حلول الظلام.[٢٢]

تقلصت بالفعل أيام الإجازة المتبقية، وفقد كافكا الأمل في تعرف باريس بطريقة غير "سياحية"؛ طريقة تختلف عن رحلة العام السابق. رجع السبب في ذلك -أيضًا- إلى عدم التزامهما بالوقت؛ إذ كان من المخطط أن يأخذهما القطار السريع "سيمبلون" إلى فرنسا المنقذة مباشرة. مر الاثنان بالقطار عند "لاجو ماجيورة"، ولم يتمكنا، بعد الساعات المزعجة في "ميلانو" الحارة، من مقاومة هذا المشهد المنعش. نزلا في محطة "شتريزا"، واستأجرا غرفة، وتمتعا لمدة يومين بالسباحة في البحيرة، التي كانت تذكرهما بـ "ريفا". كان شعورهما بالارتياح كبيرًا؛ لدرجة أنهما تعانقا في أثناء وقوفهما في الماء. غريب هذا المشهد بالتأكيد؛ نظرًا للفارق الكبير في الطول بينهما.

تذكرا في "شتريزا" مذكرات الرحلة مجددا، التي لم يهتما بها كما كان متفقًا عليه، وذلك منذ فترة بقائهما في "زيوريخ". كان ينقصهما هدف؛ مهمة محددة ومشتركة. لا نعرف من اقترح الفكرة أولًا، ولكن ماذا لو تحولت هذه التدوينات إلى عمل أدبي، ما يعني الدخول في تفاصيل أكثر، وربطها ربطًا وثيقًا، لتصير مادة لقصة خيالية عن رحلة؛ أي لرواية صغيرة لها بطلان؟ أيقظت الأجواء المحيطة رغبة كافكا في الكتابة مجددًا، ووافق على الفكرة: قررا تدوين تفاصيل أكثر، وكذلك اللقاء بشكل منظم في براغ لصياغة النص. كانت هذه الكتابة المزدوجة تجربة جديدة؛ لأنها فتحت المجال الخاص بعملية الإبداع الأدبي، ولم يعرف كافكا، تحديدًا، مصير حالة الكتابة "الإبداعية"، التي لم تكن قد انتظمت لديه من الأصل. ولكن نجحت هذه التجربة بين برود و"فيليكس فيلتش"، وتحدث برود عن هذا التعاون الموفق؛ مما شجع كافكا على خوض التجربة. تطلب الأمر، الآن، تدوين أهم

الأحداث التي وقعت في ميلانو، وعدم إغفال الفكرة الجديدة وسط زخم الأحداث في باريس.[٢٣]

صارت تدويناتهما أكثر دقة، كما أثبتت أن كافكا وبرود قد قضيا آخر أيام الإجازة معًا في باريس. تعود الاثنان، بشكل أفضل، على طباع الآخر، وقبلا بحلول وسط. تخلى برود، مثلًا، عن جولات التسوق الطويلة، وراعى، في برنامج الموسيقى المسائي، تقديم مادة مرئية لكافكا، الذي لم يهو سماع الموسيقى كثيرًا. وقع الاختيار على أوبرا "كارمن" للموسيقار "بيزيه"، المعروضة في دار "أوبرا كوميك". كان عملًا جديدًا بالنسبة لكافكا، وركز تركيزًا شديدًا في الإشارات الجسدية ورقص بطلة العرض. أما برود فكان يعرف جميع تفاصيل العرض، وعلق عليه بوصفه ناقدًا موسيقيًا محترفًا. راعى الصديقان، في تخطيطهما لباقي الأيام، في البرنامج الترفيهي أن يكون متنوعًا: زارا عرضًا لمسرحية "فيدرا" للكاتب "راسين" في مسرح "الكوميديا الفرنسية" الشهير، وانزعجا من جلوسهما في أرخص الأماكن في المقهى المسرحي "لدى السفراء"، وكذلك من فقرات المنوعات السيئة هناك، وتمتعا في دار عرض سينمائية صغيرة "سينما باتيه" المكتوبة بخط ساحر، بفيلم ساخر عن سرقة الموناليزا (التي أطلق عليها في فرنسا الجوكندا). تجاوبت شركة السينما تجاوبًا سريعًا مع الأحداث المعاصرة؛ إذ لم تمض سوى ثلاثة أسابيع على سرقة اللوحة (التي كانت وقتها شهيرة، ولكنها لم تملك حينها القيمة الرمزية بعد). استدعي، قبلها بيوم واحد، "بابلو بيكاسو" إلى النيابة بوصفه متهمًا. تأكد كل من برود وكافكا، في أثناء زيارتين لمتحف اللوفر هذه المرة، من وجود حائط خالٍ بالفعل، يحدق فيه الزوار كأنه عمل فني بالفعل.

عرفا هذه المدينة العالمية المربكة معرفة أفضل، كما عرفا الفرق الدقيق بين المدينة بوصفها مسرحًا للحياة من ناحية، وبوصفها مسرحًا للأدب من ناحية أخرى. ولكن ظل تأثير أسطورة باريس حاضرًا؛ إذ وجد الاثنان، دومًا، مجالًا للتساؤل عن مدى تأثر انطباعاتهما المباشرة بقراءاتهما السابقة وتوقعاتهما، سواء بالمعنى الإيجابي أو السلبي. هل كان الفنانون في المقهى الثقافي "لدى السفراء" بهذا السوء بالفعل؟ أم نبعت خيبة أملهما من عدم تميز العرض عما يقدم في مسرح براغ الكوميدي؟ أليس انبهارهما، وهما من سكان المدن الكبرى، بمطاعم باريس الصغيرة، المجهزة على نمط وحيد، أمرًا ساذجًا؟ خطرت هذه التحفظات على بالهما في كل مكان، على نهر "السين"، وفي المتجر، وفي بيت دعارة في شارع "رو دي هانوفر"، وفي الترام ذي الطابقين، وحتى في دار عرض سينمائية؛ إذ كتب برود في مقالة عن الرحلة، بعد إعادة اكتساب مسافة من جديد، ما يلي:

"لا يمكن، في الظلام، التفرقة بين قاعة عرض وأخرى. أما نحن، الذين قرروا رؤية أي شيء باريسي بوصفه المميز والأفضل على الإطلاق، نلاحظ سريعًا سعة المكان. ليس هذا كل شيء، اختفاء أفراد من خلال باب مظلم في الخلفية، واعتبار تيار هوائي بارد كأنه ينظم حركة الجمهور هذه. لا، أليس هذا ما يحدث عندنا أيضًا؟ عروض لا تنتهي، أبواب دخول وخروج. لدينا، الآن، رؤية أكثر وضوحًا: حرية البشر في الوقوف في أي مكان متاح، في الممرات بين صفوف المقاعد، على السلم المؤدي إلى جهاز العرض، حتى إلى جانب جهاز العرض مباشرة. هذه أوضاع تتسم بالطابع السياسي الجمهوري، ما كان لجهاز شرطة آخر سوى جهاز الشرطة الفرنسي ليقبل بهذا الوضع. للأعمدة

المديدة في القاعة هذه الحرية الجمهورية نفسها بالطبع، حريتها في حجب الرؤية عن المشاهدين..."[24]

هذا وصف دقيق لحالة الإدراك التي عاشها كل من برود وكافكا في هذه اللحظة، التي انعكست -أيضًا- في تدويناتهما: راقبا واستوعبا، في تركيز شديد، كل شيء مختلف، بما في ذلك أبسط التعليقات في الحياة اليومية. شعر الاثنان، دائمًا، بإغوائهما الدائم لتقديم تقييم لما هو أفضل مما عرفاه في براغ. لاحظا، بعد لحظات التفكير، ضيق أفق هذه الرؤية. حاول كافكا، بعد أسابيع قليلة من العودة، وبعد حوار تقييمي للتجربة مع برود، تصحيح هذه الرؤية. كتب في مذكراته: "نأخذ المدن الغريبة كما هي؛ يعيش البشر هناك دون فهم أسلوب حياتنا، كما لا نفهم نحن -أيضًا- أسلوبهم في الحياة. يجب علينا المقارنة، ولا يمكن مقاومة ذلك، ولكننا ندرك جيدًا أن هذا التقييم بلا قيمة أخلاقية، ولا حتى نفسية..."[25]

من المؤكد أن الاثنين شعرا، في هذه المرة، بقوة كامنة تمنعهما من التنزه المسترخي والنظرة البريئة للمشهد. احتد، منذ الصيف، الصراع بين فرنسا والرايخ الألماني حول الفصل بين تطلعاتهما الاستعمارية. أطلق عليه، لاحقًا، "أزمة المغرب الثانية"، وأنذر الصراع المتوتر بقرب اندلاع حرب (وكانت وكالة أخبار قد أعلنت بالخطأ عن اندلاعها بالفعل). واجه كافكا وبرود، لذلك، عناوين أخبار حربية. على الرغم من أنهما لم يلحظا الموقف نفسه لدى قراء الجرائد في باريس، بخلاف احتقارهم لكل ما هو ألماني، إلا أن الاثنين فضلا ألا يظن الآخرون أنهما من الرايخ الألماني. هل من الممكن إقناع أي وطني متعصب بأن "ألمان بوهيميا" ليسوا "ألمانًا"؟ فضلًا إذًا تحدُث اللغة

التشيكية رسميًا، ولكن اتضح أن قناعهما اللغوي هذا قد أثار الانتباه بشكل أكبر، على سبيل المثال، في أثناء رحلة في بحيرة "لاك إنفريور" في منطقة "بوا دو بولونيا". كتب برود: "تبدو لغتنا التشيكية للآخرين كأنها لغة صينية"، وأضاف صديقه مع قليل من المبالغة: "تعجب الركاب لحظة سماع لغتنا التشيكية، كيف لهم الجلوس مع أشخاص بهذا القدر من الغرابة في سفينة واحدة."[٢٦]

من منطلق حرص الاثنين، وإدراكهما لديناميكية الصراعات القومية، ينبع يقين بأنهما قد التزما بهذا المنهج، خاصة في أثناء رحلتهما الأخيرة التي قادتهما في ترام يعمل بالبخار إلى قصر "فرساي". دون الرجوع إلى دليل السفر، عرفا، بالطبع، أن هذا المكان يمثل للفرنسيين إهانة تاريخية لا مثيل لها. هنا تحديدًا، وليس على أرضه، اتحد عضو الحرب المنتصر في عام ١٨٧٠/ ١٨٧١؛ ليصير الرايخ الألماني أكبر قوة أوروبية منافسة. كان تنصيب "فيلهيلم الأول من بروسيا" قيصرًا ألمانيًا طعنة في "قلب الغرب"؛ إنه جرح ظل يؤلم على مدار أربعة عقود. لم تحظَ، منذ ذلك الحين، أي قاعة مغلقة بالشهرة التي حظيت بها قاعة المرايا في "فرساي"، التي ذُكرت مرارًا في الكتب المدرسية. في سبتمبر لعام ١٩١١ تحديدًا، ومع التهديد بقيام حرب جديدة، تطلب الاعتراف بالجنسية الألمانية في هذه القاعة أعصابًا قوية، وسعادة بالفخر القومي لم يمتلكها كل من كافكا وبرود مطلقًا. لا نعرف كيف عاش الاثنان هذه اللحظة، ولكن كافكا اشترى، بعدها، عرضًا تاريخيًا لشاهد عيان على احتلال باريس، من وجهة نظر فرنسية. دوَّن، في الأيام اللاحقة، العديد من الملحوظات حول هذا الكتاب، وأدرك، في هذه اللحظة على أقصى تقدير، أنه قد دخل إلى مكان ما زال الحساب الجمعي داخله

مفتوحًا؛ إنه حساب ضخم لن يسقط بالتقادم ومرور السنوات. ستذكره الأحداث القادمة بهذا المطلب؛ لأن الكوارث السياسية والعسكرية، التي ستحل قريبًا، ستتوغل على نحو غير متوقع في حياته، وستحرمه من رؤية باريس مرة أخرى طوال حياته. [٢٧]

ولكن ما الانطباع الحسي الأقوى الذي بقي في الأذهان؟ هل هي الطقطقة الغريبة للمترو؟ أم "كارمن" وهي ترقص وتغني؟ المساحة الشاسعة للـ"جراند جاليري" في اللوفر؟ الطائرات والبالونات المحلقة فوق المدينة أحيانًا؟ كم الأطفال الهائل المتواجد ليلًا في الشوارع؟ أم الفتيات العشرون اللاتي وقفن أمامهما في وضع مثير داخل بيت الدعارة، وهن متجردات من ملابسهن؟

إن وضعنا معايير تتعلق بالوصف التفصيلي وفنية العرض، نجد أن حادثًا عاديًا وقع عند التقاطع بين ميدان "بلاس دى دو-أيكو" وشارع "رو دو لوفر" قد شغل كافكا بأدق تفاصيله. اصطدمت سيارة بدراجة بثلاث عجلات تابعة لمخبز، التوت العجلة الأمامية للدراجة بحيث لم تعد صالحة للاستخدام مرة أخرى. استغرق حضور ضابط الشرطة فترة طويلة؛ مما أفسح المجال أمام مسرحية اجتماعية متعددة الطبقات، بيطلين وكورال. تنازع السائق وصبي المخبز في البداية حول قضية الذنب، ولكنهما سريعًا ما عادا إلى هدوئهما وتصالحا، في حين أن أحزابًا قد تشكلت بين المارة المشاهدين، الذين بدؤوا من جديد شرح ملابسات الحادثة بالإشارة إلى السيارة والدراجة، خاصة للمشاهدين الجدد الذين وصلوا إلى مكان الحادث.

انبهر كل من كافكا وبرود بالفارق الرهيب بين هذا الأداء المعقد من ناحية، وتفاهة الحادث من ناحية أخرى، لدرجة أنهما بقيا لمدة

نصف ساعة في المكان، وتابعا العملية المعقدة لتحرير المحضر الشرطي. تفرق بعدها هذا التجمع أخيرًا، ومن كان لديه الوقت والرغبة، وجد على مسافة خطوات الحدث التالي الذي يستحق المناقشة. وقفت، منذ دقائق قليلة، حافلة ضخمة وسط الميدان وهي مائلة بعض الشيء؛ بسبب إطار مكسور فيما يبدو. نزل الركاب من الحافلة، وتجمعوا حول سبب المشكلة، "يجمعهم الشعور الصحيح بعلاقتهم الوثيقة". اكتفى كافكا وبرود بما شاهداه حتى هذه اللحظة؛ إذ كان عليهما، الآن، حلق ذقنهما، والتوجه إلى شركة السياحة.

يجلس فرانز كافكا، في منتصف سبتمبر عام ١٩١١، في قاعة القراءة التابعة لمصحة "إرلينباخ" المطلة على بحيرة "زيورخ". إنه وحده، بعد أن ودع صديقه ماكس برود في محطة القطار الشرقية في باريس، وذلك بعد رحلة غنية بالأحداث امتدت لثلاثة أسابيع. لم يكن أمام برود خيار آخر؛ كان عليه العودة إلى براغ؛ لأن إجازته الوظيفية قد انتهت. أما كافكا فقد حصل على شهادة تفيد تعرضه للإرهاق الشديد من التزامات الوظيفة، وأنه يستحق أسبوع إجازة إضافيًا. درس، منذ شهور، مطوية مصورة للمصحة، وتأكد أنها تتبع أسس العلاج بالوسائل الطبيعية بصرامة: كان يؤمن أنها الوحيدة القادرة على علاجه من التوتر والإمساك المزمن. الطعام نباتي، يجهز بحسب الوصفات المعروفة للدكتور لاهمان في دريسدن. يقدم البرنامج اليومي، الذي يبدأ في الساعة السابعة صباحًا، حمامات الضوء والهواء، وكمادات الماء، والتدليك، وتدريبات رياضية، فضلًا عن الكثير من الراحة."[٢٩]

ألف كافكا هذا البرنامج؛ لخبرته بهذه المصحات. لا يتعجب، إذًا، من الروح الجماعية السائدة هنا، ولا من التعامل بين النزلاء

والأطباء بوصفهم زملاء. هناك، أيضًا، شخصيات غريبة الأطوار، حتى ضمن طاقم العاملين، ولكن ينتهك ـأيضًاـ من يريد البقاء وحيدًا قواعد حركة إصلاح الحياة. لا يمانع كافكا قضاء بضع ساعات في المساء مع رفقاء المعاناة القليلين، الذين حضروا، خصيصًا، في هذا الوقت من العام إلى "إرلينباخ". أحضر مدرس موسيقى شاب آلة "الترومبيت" معه، وكان يعزف بعض المقطوعات. قرأ كاتب مبتدئ مقتطفات من روايته الساخرة، ثم تجمع النزلاء حول الجراموفون، الذي كانت تمتلكه المصحة. تناولوا الوجبات معًا، وساعد الحديث في الموضوعات العديدة، المتصلة بالمعاناة الجسدية وطرق العلاج، على عدم ظهور أي نوع من الخجل الاجتماعي. شارك كافكا في النقاشات المعتادة المتخصصة في علوم الأغذية، على الرغم من صعوبة اللغة الألمانية السويسرية، ودوَّن عناوين كتب طهو نباتية. كان فقط يبتعد، بضمير يؤنبه، عن اللعبات الاجتماعية.

يعرف أن ماكس كان يتابع نشاطه هذا بسخرية وعدم تفهم. ما زال الاتفاق معه على كتابة رواية عن الرحلة قائمًا، كما اتفقا على أن وصف حادث السيارة الصغير بتفاصيله سيصير قصة جميلة، ويمكن عرضها على جريدة "براغر تاجبلات"، أو جريدة "بوهيميا". يتوقع الصديق، بالطبع، أنه سيستغل هذا الأسبوع الشاغر للإنجاز في المشروع المشترك، ولكن يتطلب العمل بالكتابة عزلة اجتماعية، وهي ليست متاحة في "إرلنباخ".

تدلى من سقف غرفة كافكا مصباح كهربائي ضعيف الضوء، ومن يرغب في ضوء أقوى، فعليه دفع مبلغ إضافي. كانت الإضاءة في قاعة القراءة أفضل؛ ولذلك، توجه إلى هناك؛ ليدون بعض الذكريات

والانطباعات عن باريس؛ إذ ربما تصلح، لاحقًا، للتناول الأدبي. لا نستخدم هذه القاعة كثيرًا، على الرغم من الطقس الحار والأمطار. تتجه أنظار كافكا، ذات مرة، إلى ظهر رجل يقرأ الجرائد، وتحضر عدة مرات سيدة عجوز، ومعها ملف للكتابة، ومجموعة من بطاقات لعبة "السوليتير"، التي تشغلها بالساعات. يراقبها، ثم يذكر لها اسمه، ويعلق على أحوال الطقس، ولكن لا يستمر الحوار لثقل سمعها. يعم الهدوء مرة ثانية؛ هو وحده مع سيدة منخرطة في بطاقاتها وساعة تدق. يفكر في باريس، ورحلة القطار الليلية إلى "زيورخ". كانت ليلة مثيرة؛ لأنه سوى نزاعًا بين سيدتين، ولأن منقبًا عن الذهب، يهودي الديانة، كان يحكي له عن حياته. قال هذا الشاب عبارة أعجبت كافكا: "الأهم هو نزولك إلى ماء جارٍ بعد استيقاظك في الصباح."

وضعت السيدة العجوز، ثقيلة السمع، بطاقاتها جانبًا، وأحضرت كوبًا مصنوعًا من القصدير به حليب. جلست، وتحدثت إلى كافكا مباشرة: "ماذا تكتب؟"

كلمة شكر

رافقت "أورزولا كوهلر" مشروع السيرة الحياتية لكافكا بأجزائه الثلاثة، من المسودة الأولى، وحتى الانتهاء من هذا العمل. لم تكن على مدار عقدين، في أثناء وضع تصورات لكل جزء ومراجعة النص لغة ومضمونًا، المحررة الأمينة فحسب، بل كانت -أيضًا- شريكة في الحوار، صبورة ومرهفة الحس، ولا يمكن الاستغناء عنها. أشكرها من كل قلبي، وأهدي لها هذا الجزء المنجز من العمل.

أشكر "يوخن كوهلر" على مراجعته اللغوية الدقيقة لأعمالي، وذلك على مدار سنوات. لم تسهم دقته، وملحوظاته، ومقترحاته العديدة، في تجويد النص فحسب؛ بل كانت تشعرني، دومًا، بالأمان، وتخفف من أعبائي.

أشكر الأشخاص التالين على النقاشات، والملاحظات، ومساعدتهم المتخصصة: "هارتموت بيندر"، و"نيلز بوكهوفة"، و"كلاس داوبليسكي"، و"آرتور فيشر"، و"شيلي فريش"، و"أولريكة جريب"، و"ديتر هاوك"، "هانز جيرت كوخ"، "ليو أ. ليسينج"، "شتيفات ليت"، "زيجريد لوفلر"، "ماريك نيقولا"، "إيتا شيدليتسكي"، و"رولاند تيمبلين".

نال هذا الجزء المنجز من سيرة كافكا الحياتية دعم مؤسسة "س. فيشر"، فضلًا عن دعم مؤسسة "هامبورج" لدعم العلوم والثقافة. أوجه شكري الخاص إلى "يان فيليب ريمتسما"، الذي قدم، في مرحلة حرجة، مساعدة سريعة، بدون بيروقراطية.

الاختصارات والمنهج المتبع في الاستشهاد

الاستشهادات من الأعمال والخطابات والمذكرات من واقع الإصدار المنقح في دار نشر "س. فيشر" في فرنكفورت، الذي كان من إنجاز "جرهارد نويمان"، و"مالكلوم بازلي"، و"يوست شيلمايت". فيما يتعلق بالخطابات قمت، قدر الإمكان، بالاستشهاد بحسب المخطوطات اليدوية، ولكن مع الإشارة إلى الأجزاء التي تقدم الخطابات في إطار الإصدار المنقح.

هناك استثناء وحيد يتعلق باستخدام كافكا للحرفين "ss" بدلًا من "ß" (على نحو منهجي منذ عام ١٩٠٧): اتبع هنا أصحاب الإصدار المنقح قواعد الكتابة السائدة مع بداية الإصدار (١٩٨٢). بما أن تغيرًا قد طرأ على هذه القواعد في الوقت الحاضر، فإن هذه السيرة الحياتية تعود في العديد من الاستشهادات إلى كتابة كافكا الأصلية بالحرفين "ss". يخص ذلك أيضًا عناوين الروايتين "المحاكمة" "Der Process" و"القصر" "Das Schloss" إذ كتبهما كافكا كتابة "صحيحة" بحسب قواعد اليوم.

نشير إلى الإصدار المنقح (دون سواه) من خلال الرموز المختصرة وذكر رقم الصفحة (مثال:B2 416 نشير إلى الجزء العارض للخطابات ١٩١٣/ ١٩١٤، صفحة ٤١٦). نشير كلمة App المضافة إلى الرمز المختصر إلى جزء المرفقات التابعة (مثال:"V App 153" نشير إلى عدد المرفقات التابعة لرواية المفقود، صفحة ١٥٣).

لم ينتهِ بعد الإصدار المنقح للخطابات ١٩٢١-١٩٢٤؛ لذلك أستشهد بها من النصوص الأصلية أو من مسودة هذا الجزء في الإصدار المنقح (B5). الخطابات من هذه المرحلة الزمنية التي نُشرت في إصدارات كاملة أخرى نشير إليها في الهوامش. يتعلق ذلك خاصة بمراسلات كافكا مع ماكس برود، و"روبرت كلوبشتوك"، وأخته أوتلا، وكذلك والديه.

نستخدم الرموز المختصرة على النحو التالي:

AS	Amtliche Schriften, hrsg. vomKlaus Hermsdorf und Benno Wagner, Frankfurt am Main 2004
AS Mat	Materialien auf CD-Rom, die der Kritischen Ausgabe der Amtlichen Schriften beigelegt ist.
B1	Briefe 1900-1912, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Frankfurt am Main 1999
B2	Briefe 1913-1914, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Frankfurt am Main 2001
B3	Briefe 1914-1917, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Frankfurt am Main 2005
B4	Briefe 1918-1920, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Frankfurt am Main 2013
B5	Briefe 1921-1924 (in Vorbereitung)
D	Drucke zu Lebzeiten, hrsg. von Wolf Kittler, Hans-Gerd Koch und Gerhard Neumann, Frankfurt am Main 1994
NSF1	Nachgelassene Schriften und Fragmente I, hrsg. von Malcolm Pasley, Frankfurt am Main 1993
NSF2	Nachgelassene Schriften und Fragmente II, hrsg. von Jost Schillemeit, Frankfurt am Main 1992
P	Der Process, hrsg. von Malcolm Pasley, Frankfurt am Main 1990
S	Das Schloss, hrsg. von Malcolm Pasley, Frankfurt am Main 1982
T	Tagebücher, hrsg. von Hans Gerd Koch, Michael Müller und Malcolm Pasley, Frankfurt am Main 1990
V	Der Verschollene, hrsg. von Jost Schillemeit, Frankfurt am Main 1983

الهوامش

لا شيء يحدث في براغ

1. جريدة الصحافة الجديدة الحرة، فينا، ٣ يوليو ١٨٨٣، صفحة ١ـ المقصود ب "قاعة الجلس" القاعة التي كان يتجمع فيها الطبقات البوهيمية في منطقة (هرادشين) البراغية.

2. عبارات حرفية لجولي لوفي عن أسرتها يتم الاستشهاد بها هنا من تقرير سيرة ذاتية كتبته قبل مماتها بسنتين أو ثلاث. طُبِعت مقتطفات من التقرير في:

Alena Wagnerová: „Im Hauptquartier des Lärms". Die Familie Kafka aus Prag.
S. 44-47.

أما المخطوطة الأصلية ففي تركة (هيلين زيلبربرج) الموجودة في أرشيف الأدب الألماني في مدينة مارباخ على نهر النيكار.

بداية العرض

1. Martin Zeiller: Itinerarium Nov-Antiquae. Teutsches Reysbuch durch Hoch und Nider Teutschalnd auch angräntzende/unnd benachbarte Königreich/Fürstenthumb und Lande/als Ungarn/Siebenbürgen/Polen/ Schweden/Dennemarck/c. So vor Alters zu Teutschland gerechnet worden seyn…. ,Straßburg 1632, S. 168. الاستشهاد هنا من المرجع:

Julius Max Schottky: Prag wie es war und wie es ist, nach Aktenstücken und den besten Quellenschriften geschildert. Erster Band. Prag 1831, S. 187.

٢. بضم العدد الخامس من كتاب Pragensia (أصدره فريدل بيك في براغ عام ١٩٢٢) منشورات معاصرة ولوحات نحاسية عن إعدامات براغ. من الغريب أن الصور المنشورة هنا لا تعرض الساعة الفلكية.

٣. كان اسم الضحية من بين صفوف الفلاحين هو (ديفيز تشيرنين فون كوديتيت)، عمل نفيًا وهو الذي سمح يوم السقوط من النافذة، يوم ٢٣ مايو ١٦١٨ لممثلي الطبقات البوهيمية بالدخول إلى (هرادشين)، على الرغم من أنهم رفضوا تسليم أسلحتهم. لم يتوقع هذا المتهم تحديدًا أنه سيعدم، كان حتى آخر لحظة على مسرح الدم مقتنعًا بأنه سينال العفو.

٤. انظر

Johannes Urzidil: Prager Triptichon. Erzählungen. München 1960, S. 15.

٥. (جورج إليوت)، التي زارت براغفي عام ١٨٥٨ لساعات قليلة، ركزت على نحو مكثف على هذا الانطباع "اللحظي"، ووصفته في قصتها The lifted veil.

٦. يمكن مقارنة ما جرى هنا بعمليات نزع الملكية التي حدثت مع النبلاء الأنجلوساكسونيين من خلال النورماني (فيلهيلم الأول)، الذي توج نفسه ملكًا لإنجلترا في عام ١٠٦٦. حول (فيلهيلم) الأراضي التي صادرها إلى أملاك إقطاعية وخصصها بامتياز للنورمانيين.

٧. من أبرز الخاسرين عائلة من طبقة النبلاء البوهيمية اسمها (سميريتسكي): نزعت ملكية أصول ضخمة عنهم بشكل كامل، لأن آخر وريث (يان ألبريشت سميريتسكي) من (سميريتسا) كان من بين المسؤولين عن حادثة السقوط من النافذة. الفائز الرئيسي وصاحب أملاك (سميريتسكي) الجديد كان السيد (البريشت فون فالنشتاين)، والذي كانت والدته من عائلة (سميريتسكي) أيضًا. حصل (فالنشتاين) على ملكية (فريدلاند) بأكملها مقابل ثمن يساوي اليوم القوة الشرائية لمبلغ ستة إلى سبعة ملايين يورو (بحسب عام ٢٠١٠)، دفع هذا المبلغ جزئيًا بعملات فضية أشرف بنفسه على تزويرها.

٨. إلى جانب "فوزيك" (هذه طريقة كتابة جولي كافكا) هناك أكثر من طريقة للكتابة: "Wossek" على سبيل المثال في خطاب الإعلان الموجه إلى المجتمع اليهودي في براغ لإخبارهم بمولد فرانز كافكا وكذلك "فوزيك"، الاسم التشيكي للقرية (أوزيك)، وهو الاسم الدارج اليوم.

٩. انظر:

Jacob von Falke: Geschichte des Fürstlichen Hauses Liechtenstein. Zweiter Band. Wien 1877, S. 238.

١٠. ترتبت على نفي العديد من اليهود (باستثناء "تجار البلاط الملكي") في عام ١٦٧٠ خارج فيينا والنمسا السفلى حركة نزوح أخرى. سعى هؤلاء اليهود إلى الخروج عن نطاق تأثير الهابسبورج، ففروا إلى أراضٍ بروتستانتية وإلى مورافيا. لذلك يعد مستبعدًا أن يكون من بين اليهود الذين توطنوا في (فوزيك) وحولها لاجئون جاؤوا من النمسا.

١١. وقع على طرف الغيتو في براغ منزل أطلق عليه منذ نهاية القرن السادس عشر " u Kavku" (عند كافكا)، وذلك على اسم صاحبه (يوهان كافكا). من النظريات المطروحة أيضًا للنقاش أن "كافكا" يعتبر اسم تدليل يعود إلى الاسم العبري يعقوب. ولكن ما يتعارض مع هذه الفرضية أنه لا يوجد اسم مشتق في اللغة اليديشية لاسم "يعقوب" ويكون شبيهًا باسم "كافكا". انظر:

Hartmut Binder (Hrsg.): Kafka-Handbuch, Band 1, Stuttgart, S. 110f.

وأيضًا:

Pavel Trost:"Der Name Kafka". In: Beiträge zur Namensforschung 18 (1983) , H. 1, S. 52f.

١٢. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٢٠ ديسمبر ١٩٠٢ (B1 17).

١٣. خطاب إلى ميلانا يسانسكا، ٢٠ يونيو ١٩٢٠ (B4 170).

بشر عمالقة: آل كافكا من (فوزيك)

١. المذكرات اليومية، ٢٦ نوفمبر ١٩١١ (T323) وما بعدها.

٢. في المرجع ذاته ((T324، نقل كافكا عبارات الأب هذه من مذكراته الشخصية وأعاد كتابتها إلى الأب بالحرف في "خطاب إلى الوالد". (NSF2 169)

٣. ترجع المعلومات الوارد ذكرها فيما يلي عن نشأة وطفولة وشباب هيرمان وجولي كافكا إلى أبحاث:

Klaus Wagenbach: Franz Kafka. Biographie seiner Jugend. Bern 1958, Neuausgabe Berlin 2006.
Alena Wagnerová: Im Hauptquartier des Lärms. Die Familie Kafka aus Prag. Köln 1997.

٤. شملت الإحصائيات أعداد اليهود في القرى البوهيمية ولكن جاءت هذه الأعداد على أساس قانون الأسرة الذي أبطل. عاش بموجب هذه الإحصائيات ٩٥ يهوديًا في عام مولد هيرمان كافكا في (فوزيك) موزعين على عشرين أسرة كانت "قانونية"، انظر إلى الملحق بالجدول التوضيحي في:

Die Notablenversammlung der Israeliten Böhmens in Prag, ihre Beratungen und Beschlüsse, hrsg. von Albert Kohn, Wien 1852, S. 411.

من المؤكد أن الأعداد الحقيقية كانت أكثر بكثير، إذ توصلت (ماريك نيكولا) إلى عدد ١٣٠ يهوديًا في حارة اليهود وحدها. انظر:

Franz Kafkas Sprachen. Tübingen 2003, S. 47.

أما العرض التاريخي لمقر الإسعاف في (فوزيك) فيتحدث عن ٣٦ أسرة يهودية بحسب

Wagnerová: Im Hauptquartier des Lärms. Die Familie Kafka aus Prag. Köln 1997, S. 43.

بلغ عدد السكان في (فوزيك) هذه الفترة أربعمائة نسمة.

٥. يشير اسم العائلة لوالدة هيرمان –والذي كان يُكتب (بلاتوفسكي) –إلى أن هذه العائلة مثل عائلة كافكا قد نزحت من مناطق بولندية إلى جنوب بوهيميا.

المذكرات، ٢٦ نوفمبر ١٩١١ (T324))، لم تُمنع عمالة الأطفال تحت عمر الاثني عشر في النمسا والمجر داخل المصانع والمناجم إلا في عام ١٨٤٢. حتى نهاية القرن التاسع عشر عدَّ العديد من صانعي السياسة الاجتماعية في أوروبا أن قانونًا عامًا يمنع عمالة الأطفال ليس مطلوبًا نظرًا لأن الإلزام بدخول المدرسة يقوم بهذه المهمة.

٦. جولي كافكا، كما ورد عند:

Max Brod: Über Franz Kafka. Frankfurt am Main 1974, S. 13.

٧. ادعى هيرمان لاحقًا: "اضطررت وأنا صبي صغير إلى الذهاب إلى (بيزيك) للوقوف في الحل." انظر:

(Kafka: Brief an den Vater, NSF2 169)

الأقرب إلى الواقع هي ملحوظة جولي كافكا بأن زوجها قد أرسل "إلى الغربة" وهو في الرابعة عشرة.

٨. أطلق اسم "Pinkeljuden" في القرن التاسع عشر على صغار التجار اليهود المقيمين – وقع زقاق (بلاتنر جاسه) جنوب الغيتو ولكن خارج حدوده، ودخل مع

ذلك في نطاق شبكة صرف المدينة، وكان على محل تاجر النبيذ أنجيلوس كافكا إفساح المكان.

السيدة لوفي

١. المذكرات اليومية، ٢٥ ديسمبر ١٩١١ (T318) وما بعدها.

٢. عن صداقة كافكا مع (إسحاق لوفي) انظر:
Reiner Stach: Kafka. Die Jahre der Entscheidungen. Frankfurt am Main 2002, S. 51ff.

٣. صدرت في٢٣يوليو عام ١٧٨٧ براءة اختراع لقانون إصلاحي ضمن سلسلة من القوانين أراد بها (يوزيف الثاني) تعزيز ألمنة اليهود النمساويين والبوهيميين والمورافيين. لم يكن لليهود حتى هذا الوقت وسيلة للتعريف سوى الاسم الأول، ثم يليه اسم غير رسمي للوظيفة أو المكان، لم تعرف إلا مدن قليلة، مثل براغ، اسم العائلة المعتاد. طالبت براءة الاختراع لكل يهودي باسمين، اسم أول واسم العائلة، مع العلم أنه كان يتم اختيار الاسم الأول من قائمة لا تحتوي إلا على أسماء ألمانية (بحسب مرسوم صدر من البلاط الملكي في ١٧ نوفمبر ١٧٨٧). اختلف التعامل مع الرغبات الشخصية في اختيار اسم العائلة، وذلك وفقًا للمنطقة، وكثيرًا ما كانت الغطرسة تحكم الأمور. صدرت أسوة بهذا الإجراء الإصلاحي مع بداية القرن التاسع عشر قوانين مشابهة في المناطق الناطقة باللغة الألمانية.

٤. لتفاصيل أكثر عن الحياة المهنية لإخوة جولي لوفي انظر:
Anthony Northy: Kafkas Mischpoche. Berlin 1988.

٥. خطاب إلى الوالد (NSF2 146,177).

٦. المذكرات اليومية، ٢٤ أكتوبر١٩١١ (T101).

٧. Ernst Pawel: Das Leben Franz Kafkas. Eine Biographie. Reinbek 1990, S. 16.

٨. المذكرات اليومية، ٢ مايو ١٩١٣، ٢٣ يناير ١٩١٤ (T558, 625)، علق كافكا "عزاءالأم غير موفق".

٩. انظر:

Brod: Über Franz Kafka, S. 13.

عن الصراعات داخل الأسرة حول عمل أوتلا كافكا في الزراعة انظر فصل: " Die Arche Zürau"، في:

Reiner Stach: Kafka. Die Jahre der Erkenntnis. Frankfurt am Main 2008, S. 223 ff.

١٠. خطاب إلى ماكس برود، ٢٠ سبتمبر ١٩١٧ (B3 352). يبدو أن السبب في هذه المقولة الغريبة على كافكا هو الزيارة المرتقبة في اليوم نفسه لـ (فيليس باور) والتي كان يترقبها بمشاعر مختلطة. اتفقت كل من جولي وفيليس على مطالبته بالتكيف الاجتماعي، وانتهاج أسلوب حياة عاقل، مما أدى إلى صراعات دامت لسنوات وجعلت الخطيبة أكثر قربًا من أمه، وهو أمر كان صعبًا على كافكا تحمله.

١١. عاشت نحو ثماني عائلات يهودية بشكل شرعي وقت ولادة جولي لوفي في مدينة (بودي برادي) وكان عددهم نحو خمسين. تناثرت ٤٩ عائلة يهودية أخرى في القرى المحيطة وكانوا ضمن "فريق منطقة بودي برادي" – أنشئت مدرسة ألمانية يهودية في (بودي برادي) حينما كانت جولي في السادسة عشرة من عمرها، فات الأوان.

١٢. خطاب إلى الوالد (NSF2 176).

١٣. المرجع ذاته (NSF2 146,175f.).

صفقات خاسرة

١. خطاب إلى (فيليس باور) ١٩ و٢٠ ديسمبر ١٩١٢ (B1 345).

٢. عرفنا عن توقع جولي كافكا بأن ابنيها جورج وهاينريش كانا سينجوان في حالة إعفاء زوجها لها من أعمال المحل من خلال حفيدتها (فيرا زاودكوفا) في رسالتها إلى (هارتموت بيندر)، انظر:

Hartmut Binder: Kafka-Handbuch, Band I, S. 146.

ادعى كافكا نفسه، ودون إبداء أسباب، أن أخويه قد ماتا "بسبب أخطاء الأطباء"، انظر:

خطاب إلى Felice Bauer ١٩ و٢٠ ديسمبر ١٩١٢ (B1 345) – كانت الحصبة والسحائي وقتها أكثر الأسباب انتشارًا لوفاة الأطفال الصغار. تمنحنا حوليات مدينة فيينا الإحصائية تصورًا عن نسب الأعداد، توفي مثلًا في فيينا عام ١٨٨٤ عدد٢١٩٤ طفلًا، عمرهم يتراوح بين العام والأعوام الخمسة، من بينهم ٣٠٧ أطفال (أي

١٤%) بسبب السحائي، ٢٠٦ أطفال (أي ٩. ٤%) بسبب الحصبة. بلغت نسبة الوفيات في الحصبة في الثمانينيات ٧ـ٨ %، أي أن طفلًا من أربعة عشر طفلًا مصابًا بالفيروس لم ينجُ من المرض.

٣. انظر:
Hugo Bergmann: "Schulzeit und Studium". In: Hans-Gerd Koch (Hrsg.): „Als Kafka mir entgegenkam.." Erinnerungen an Franz Kafka. Erweiterte Neuausgabe. Berlin 2005. S. 25.

٤. خطاب إلى الوالد (NSF2 173). — لم يكن مسموحًا بإقالة الموظفين أو المتدربين إلا مع نهاية ربع السنة، وبلغت مهلة الإقالة ستة أسابيع. كان ممنوعًا تخفيض المرتب في هذا الوقت، حتى إن استفاد الموظف من خدمات التأمين الصحي.

٥. خطاب إلى الوالد (NSF2 184, 152).

٦. حتى في عام ١٩١١ ـبعد أن صار آل كافكا من كبار التجارـ كانت "الأم المسكينة" (ومن غيرها) تذهب قبل اليوم الأخير إلى صاحب المنزل لترجوه تأجيل سداد الإيجار، بينما كان الأب يصاب بالغثيان من شدة خوفه. انظر: مذكرات كافكا يوم ٢٤ أغسطس ١٩١١ (T39)، وكذلك يوم ٢٦ أغسطس ١٩١١ (T309f.).

٧. فرنتيشك إكس. باشيك، "العمل كمتدرب في محل خردوات هيرمان كافكا"، في:
Franz Kafka: Brief an den Vater, hrsg. von Hans-Gerd Koch, Berlin 2004, S. 69-130.

بعد تقرير (باشيك) جزءًا من مسودة لسيرة ذاتية شاملة كتبها مع بداية الأربعينيات، أي بعد مرور نصف قرن على الأحداث التي يتعرض لها. يميز التقرير أجواء مكثفة، ولكنه يحتوي أيضًا على العديد من التناقضات، وهو أمر حتمي مع هذا الفارق الزمني. فعلى عكس كل الشواهد التي نملكها يصف سيده في العمل على أنه "إنسان هادئ ورقيق" (ربما مقارنة بأصحاب محال آخرين اعتادوا صفع مساعديهم المتدربين)، ولكنه كان أيضًا تاجرًا جشعًا، يستغل كل فرصة لتوفير المال على حساب موظفيه. (انظر الصفحات ١٣٧ و١١٠، وفيما يتعلق بمواقف غضب هيرمان كافكا داخل المحل انظر

Stach: Kafka, Die Jahre der Erkenntnis, S. 238.

إن هذه المسودة أهمية قصوى في السياق البحثي، لأن (باشيك) يعطي لمحات عن حياة آل كافكا الخاصة –ستعرض لها لاحقًا– وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف وقت كتابته أن ابن سيده صار كاتبًا معروفًا فيما بعد، إذ تعد هذه هي الذكريات الوحيدة من محيط كافكا المباشر التي لم تتأثر بشهرته اللاحقة.

٨. سبب حصول هيرمان كافكا (وزوجته وأطفاله) في أكتوبر ١٩٠١ –أي بعد بقائه المتواصل لعقدين في براغ–على حق البقاء أمر مبهم. بحسب لائحة نمساوية لعام ١٨٩٦ لم يُسمح برفض حق البقاء لمواطن محترم ودخله يكفيه بعد مرور عشر سنوات على إقامته في المدينة. ولكن هناك بعض البلديات كانت تطلب مبالغَ كبيرة مقابل هذه الشهادة، فمن الممكن أن آل كافكا ترددوا في دفع هذا الثمن الباهظ للإجراء الرسمي. ترتب على هذا التردد أن ابنهما فرانز لم يكن مواطنًا براغيًا إلا لحظة تسجيله في الجامعة، قبلها كان "تابعًا لـ (فوزيك) ".

خواطر حول "فرويد"

١. المذكرات، الصيف/الخريف ١٩١٠ (T17-28)؛ الفقرة المذكورة هنا هي بداية النسخة الثالثة (T20). (قمت هنا بوضع ستة فواصل وحذفت واحدًا لفهم أفضل، ر. ش.) ساكن الأطلال الصغير، إنه عنوان ربما كان مقصودًا ودَوَّنه في كراسة مذكرات أخرى، وحده ووسط السطر، قد تكون بداية لإعادة صياغة خطط لها أو نسخة جديدة (T112). جاء التداخل مع أجزاء من السيرة الذاتية في "ساكن الأطلال الصغير" الذي يرد ذكره في نسخته الأولى (T17). ولكن هناك أيضًا إشارات تبعدك عن الطابع الشخصي الواضح، فالراوي يصف نفسه بأنه "صغير وممتلئ القامة"، فضلًا عن كونه في "الأربعينات من عمره" (T23f). قد يشير ذلك إلى نية كافكا لنشر هذا النص القصصي.

٢. المذكرات، ١٧ ديسمبر ١٩١١ (T298).

٣. خطاب إلى (ميلانا يسانسكا)، ٢ ديسمبر ١٩٢٠ (B4 374).

٤. ربما في ربيع ١٩٢١ (NSF2 373).

٥. خطاب إلى (ميلانا يسانسكا) في٧ أكتوبر ١٩٢٠ (B4 355). –كان لكافكا رد فعل أكثر حساسية حينما يُرجع السبب في مرض مرتبط بالعصر وإصابته حتمية إلى

النشوء الشخصي للمريض فيصير ضحية بلا داعٍ. كان من رأيه أن (فرانز فيرفل) قد وقع في مسرحيته شفايجر في هذا الخطأ، انظر:
Stach: Kafka. Die Jahre der Erkenntnis. S. 517ff.

٦. مسودة خطاب إلى (فرانز فيرفل)، نوفمبر/ ديسمبر ١٩٢٢ (NSF2 529).

٧. المذكرات، ٢٣ سبتمبر ١٩١٢ (T461).

٨. انظر:
Franz Kafka: Träume. „Ringkämpfe jede Nacht", hrsg. von Gaspare Giudice und Michael Müller. Frankfurt am Main 1993.

٩. خطاب إلى (فيليكس فيلتش)، ١٩-٢١ أكتوبر ١٩١٧ (B3 353f). – يشير السياق إلى حديث كافكا عن التحليل النفسي بالدرجة الأولى.

١٠. كتب برود يوم ١٨ يونيو ١٩١١ في مذكراته: "بالنسبة لي المسألة واضحة تمامًا [...] كافكا يعاني من وسواس قهري." توضح تدوينة في يوم ٢٤ مايو أنه جرى الحديث في حضور (فيلكس فيلتش) -وربما كافكا أيضًا- عن تفسير الأحلام وتصرفات قهرية خاصة ب (فيلتش).

١١. خطاب إلى ماكس برود، ١٤ نوفمبر ١٩١٧ (B3 364). كان سبب هذه الملحوظة هو الجزء الأول من كتاب
Hans Blüher: Die Rolle der Erotik in der männlichen Gesellschaft.
شغل هذا الكتاب كافكا على نحو مكثف، وأراد أن يكتب عنه مقالة نقدية. كتب إلى Brod: "لقد أثارتني القراءة بشدة، فاضطررت إلى التوقف عن القراءة ليومين. على العموم هذا أمر مميز لموضوع التحليل النفسي [!] هذا، إنه يشبعك في اللحظة الأولى على نحو مدهش ولكنك تشعر بعدها بوقت قصير بالجوع القديم نفسه. لهذه الظاهرة تفسير "طبيعي" لدى نظرية التحليل النفسي: الكبت العاجل، متعلقات القطار الملكي تنتهي أمورها سريعًا." (أضاف كافكا آخر عبارتين على هامش الخطاب لاحقًا.)

١٢. هذه الملحوظة الحكيمة مدونة في دفاتر (زوراو) تحت تاريخ ٢٥ فبراير ١٩١٨ (NSF2 100). لم يدرجها كافكا ضمن مجموعة أقواله المأثورة التي جمعها في ربيع العام نفسه، نجد فيها بدلًا من ذلك تحت رقم ٩٣ نداءه: "علم النفس للمرة الأخيرة!" (NSF2 134)

١٣. "ظل التصور قائمًا بأن أبي قد هزمني وأنا طفل صغير، وأنني في كل هذه السنوات التي مرت وعلى الرغم من الهزائم المستمرة أرفض بسبب طموحي ترك ساحة المعركة." (المذكرات، ٢ ديسمبر ١٩٢١، T875).

١٤. خطاب إلى الوالد (NSF2 160, 162).

١٥. كتب عن صورة له وهو في الرابعة من عمره: "سأظهر في الصورة التالية كأنني قرد يملكه والداي" (خطاب إلى فيليسباور، ٢٨ نوفمبر ١٩١٢، (B1 280.

١٦. خطاب إلى الوالد (NSF2 150, 153).

١٧. "ليس العالم بمكان دافئ"، خطاب إلى أوتلا دافيد، ٩ مارس ١٩٢١، انظر:
Briefe an Ottla und die Familie, hrsg. von Hartmut Binder und Klaus Wagenbach. Frankfurt am Main 1974, S. 111.

١٨. خطاب إلى الوالد (NSF2 149).

١٩. انظر خطاب إلى الوالد (NSF2 168). كتب كافكا هنا: "صحيح أنك لم تضربني مرة واحدة حقًا. "ليست هذه العبارة بالدقة المطلوبة لنستبعد أي "تأديب" جسدي استبعادًا كاملًا، يرجع الفضل في الأغلب لتدخلات الأم؛ التي جعلت من اعتداءات الأب المتهورة حالات نادرة الحدوث.

٢٠. اهتمت الدراسات الجرمانية بالبحث عن صورٍ أكثر مباشرة متصلة بتجربة (بافلاتشة)، ولكن ليست النتائج بالوضوح الكافي. ضمن عدد كبير من مشاهد الإقصاء تعد المشاهد الأكثر وضوحًا هي لابن يطرده أبوه من غرفة المعيشة (في رواية "المسخ")، ومن المنزل (في رواية "المحاكمة"). هذه المشاهد لها أهمية قصوى في رؤية كافكا لذاته؛ لذا يصعب ربطها بتجربة مؤلمة وحيدة. هناك مشهد آخر أكثر قربًا من هذه الفكرة في رواية "المفقود": يُسجن البطل الشاب في الشرفة (V295 ff.)، ولكن لا يشعر (كارل روسمان) بالوحدة، وليس لديه أية رغبة في العودة إلى الشقة الموحشة.

٢١. المذكرات، ٢٤ أكتوبر ١٩١١ (T102).

٢٢. خطاب إلى الوالد (NSF2 178) – بعد شهور قليلة مضت على هذا التعليق استخدم كافكا الصورة نفسها لوصف الوضع المجتمعي والنفسي لليهود: "يقدم هذا الوضع غير الآمن، وعدم الأمان نفسيًا، وعدم الأمان وسط البشر تفسيرًا

واضحًا أنهم لا يؤمنون حقًا بامتلاكهم إلا لما يمسكون به بين أيديهم وأسنانهم." (خطاب إلى ميلانا بيسانسكا، ٣٠ مايو ١٩٢٠، (B4 150).

٢٣. خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٨فبراير/ ١ مارس ١٩١٣ (B2 115).

٢٤. لعل الدراسات التجريبية التي قام بها (رينيه أ. شبيتس) تعد ذات أهمية محورية لمرض الاكتئاب الاتكالي، والأمراض المصاحبة للإقامة في المستشفيات. كما نشر (جون بولبي) في الخمسينيات دراسات هامة عن الخوف من الانفصال والارتباط بالأم. ولكن انصب تركيز هذين الكاتبين على المراحل المبكرة للتطور النفسي، في حين حاولت (جويجز) ربط الظاهرة بعلم نفس الأمراض العضوية الخاص بالكبار.

٢٥. انظر

Germaine Guex: Das Verlassenheitssyndrom. Berlin, Stuttgart, Wien 1983.

صدرت الطبعة الأصلية في عام ١٩٥٠تحت عنوان Névrose d´abandon «عصاب الشعور بالهجر»، نشرت الطبعة المنقحة في عام ١٩٧٣ تحت عنوان Syndrome d´abandon «متلازمة الشعور بالهجر»، انظر مقالة "Verlassenheitsneurose" في:

J. Laplanche/ J. -B. Pontalis: Das Vokabular der Psychoanalyse. Frankfurt am Main 1972.

ظهر المصطلح أول مرة عندCharles Odier في:

L´angoise et la pensée magique, 3. Teil: "La névrose d"abandon", Lausanne 1948.

٢٦. تميز جويجز (في المرجع المذكور، صفحة ٤٤ وما بعدها) بنمط المنبوذ "السلبي والعنيف"، الذي يعجز عن الشعور بالآخرين. إنه يسعى إلى الانتقام للتجارب الفاشلة التي عانى منها، من خلال الانخراط في الماضي ونزعته إلى ربط كل شيء بنفسه. هذا النمط عدوانيه حيـــة نفـــيته بشكل كبير، أما في الحياة الاجتماعية فيظل سلبيًا وغير قادر على اتخاذ القرار.

٢٧. خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٨ فبراير/ ١ مارس ١٩١٣ (B2 115).

٢٨. إنها تدوينة في ألبوم الذكريات في عام ١٨٩٧ بقلم (NSF1 7) هوجو برجمان. الوثيقة التالية المتاحة هي بطاقة بريدية كتبها كافكا وهو في السابعة عشرة إلى أخته (B19).

فرانز كافكا، التلميذ النجيب

١. انظر

Hugo, Salus: "Freund Kafkus. Eine Liebesgeschichte", in: Neue Freie Presse, 19. April 1908, S. 101-104.

٢. مثبَت في سجل الشرطة البراغية أكثر من خمسين شخصًا، عاشوا في القرن التاسع عشر لفترات في براغ وكانوا يحملون اسم "فرانز كافكا".

٣. انظر

Egon Erwin Kisch: Aus Prager Gassen und Nächten. Berlin, Weimar 1980, S. 362 ff.

٤. قانون الدولة لمنطقة (سيزلايتانيا) ليوم ٢١ ديسمبر ١٨٦٧، المادة ١٩، الفقرة الثالثة.

٥. خطاب إلى (ميلانا يسانسكا)، ٢١ يونيو ١٩٢٠ (B4 191f).

٦. المذكرات، ٢١ نوفمبر ١٩١١ (T261).

٧. المذكرات، ٨ أكتوبر ١٩١٦ (T804).

٨. خطاب إلى الوالد (NSF2 196 f)، حول نشأة هذا الخطاب انظر: فصل „Hermann Kafka, postlagernd"، في:

Stach: Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 314 ff.

٩. لتفاصيل أكثر عن أداء كافكا المدرسي ومدرسي مرحلة المدرسة الابتدائية انظر:

Hartmut Binder: ‚Kindheit in Prag. Kafkas Volkschuljahre", in: Humanismen som Salt & Styrka: Bilder & betraktelser, tillägnade Harry Järv (= Acta Bibliothecae Regiae Stockholmiensis, Bd. 45) , Stockholm 1987, S. 63-115.

١٠. لمادة إحصائية مفصلة عن المدارس التي زارها كافكا، وبشكل خاص عن قدراته اللغوية ومعتقده الديني انظر:

Ingrid Stöhr: Zweisprachigkeit in Böhmen. Deutsche Volksschulen und Gymnasien im Prag der Kafka-Zeit, Köln usw. 2010.

تتحدث هذه الدراسة (انظر الصفحات ٣٣٥ وما بعدها) عن أن ٩٠ % من تلاميذ فصل كافكا في الصف الأول الابتدائي كانوا يتحدثون اللغة الألمانية واللغة التشيكية، في حين أن هذه النسبة بلغت ٦٠ % في الوقت نفسه داخل المدرسة الابتدائية الخاصة التابعة للبياريست. يعد هذا مؤشرًا واضحًا أن التمييز القومي كان متاحًا فقط لمن هم قادرون ماديًا من الأسر اليهودية الألمانية الميسورة، على عكس الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه كافكا. ازداد اتساع هذه الفجوة مع مرور الوقت: ظلت هذه الازدواجية اللغوية قائمة في العقد التالي داخل المدرسة الابتدائية التابعة للبلدة القديمة، في حين انخفضت نسبة التلاميذ الذين يتحدثون لغتين عند البياريست إلى ١٢%.

١١. انظر:

Die Verhältnisse an den öffentlichen Prager deutschen Volksschulen und Bürgerschulen und Vorschläge zu deren Verbesserung. Denkschrift des deutschen Vereins für städtische Angelegenheiten in Prag [1896.[

تدعي هذه المطوية في صفحة ٣ أن البلدية في براغ تشن "حربًا تدميرية" ضد نظام التعليم الألماني. حتى إن وضعنا الخطاب القومي المتأجج في الاعتبار: تذكر المطوية أن عدد التلاميذ في الفصول بلغ ١٤٠، ويعد ذلك نوعًا من التعدي الجسدي على الأطفال، لم يكن الوضع أفضل كثيرًا حينما زار كافكا قبلها بثلاث سنوات الصف الرابع الابتدائي. نجد عرضًا أكثر موضوعية ينتقد الأوضاع نفسها في الدراسة ذات المرجعية للمؤرخ الليبرالي ومدرس المرحلة الثانوية:

Gustav Strakosch-Graßmann:Geschichte des österreichischen Unterrichtswesens. Wien 1905, S. 334-337.

ولكن لا يذكر (شتراكوش-جراسمان) من ناحية أخرى أن التلاميذ المتحدثين باللغة التشيكية يجدون المعاملة المشينة نفسها في مناطق بوهيميا الألمانية، انظر:

Hannelore Burger: Sprachenrecht und Sprachengerechtigkeit im österreichischen Unterrichtswesen 1867-1918. Wien 1995, S. 104f.

١٢. لم تكن بالمدارس الابتدائية في مناطق بوهيميا الريفية سوى أربعة فصول فقط، ولذلك اضطر، في كثير من الأحيان، أطفال في الحادية عشرة من عمرهم إلى

السكن في بتريونات أو عند أسر مضيفة في المدينة من أجل الالتزام بالذهاب إلى المدرسة.

١٣. من لم يكن له رغبة في دخول المدرسة الثانوية –وهو أمر مستبعد بالنسبة لفرانز- ما كان عليه إلا زيارة "مدرسة المواطنين"، أي الصف الخامس والسادس؛ ذلك لأن قانون الإلزام المدرسي –بموجب ضغوط من جانب أصحاب الأعمال- كان قد تغير في النمسا والمجر في عام ميلاد كافكا١٨٨٣، ليصير ست سنوات بدلًا من ثماني سنوات. ترتب على ذلك أن زيارة الصف السابع والثامن ظلت حسب الرغبة، وذلك حتى نهاية النظام الملكي، وعادت لتكون إلزامية في ظل الحكم التشيكي.

١٤. المذكرات، ١١ ديسمبر ١٩١٩ (T846).

مدينة تغرق

١. كانت حادثة طريق دون أية أهمية، ولكنها جذبت مجموعات هائلة من المتفرجين المترقبين للحدث، انظر مذكرات الرحلة، ١١ سبتمبر ١٩١١ (T1012 ff)، وانظر أيضًا فصل "الأدب والسياحة" في هذا الكتاب.

٢. من أكثر الأفلام الأولى إثارة ضمن برنامج الأخبار أفلام عن تنصيب القيصر الروسي (نيكولاوس الثاني) في مايو ١٨٩٦ ولقائه بالملك (فيلهيلم الثاني) في (بريسلاو) وزيارته لباريس في سبتمبر ١٨٩٦. هذه الأفلام القصيرة متاحة اليوم على شبكة المعلومات بالمجان ولم تتعد مدتها الدقيقة الواحدة.

٣. D169;P7,71

٤. كتب الكونت (جوستاف كالنوكي) –وزير خارجية المملكة النمساوية المجرية- إلى رئيس الوزراء الكونت (تافيه) يوم ١٣ يوليو ١٨٩١: "لم يتبَنّي الشك قط في ارتكاب الجانب الألماني، بانصرافه عن المعرض، حماقة فادحة، ذات عواقب خطيرة." انظر:

Arthur Skedl: Der politische Nachlass des Grafen Eduard Taaffe. Wien/ Berlin/ Leipzig 1922, S. 600.

٥. كانت حقيقة أن المقاطعة الألمانية التي لم يلتزم بها في حسم بعض رجال الأعمال– لمن لهم توجه الطائفة الهوسية- من مصلحة التشيك على الصعيد الإعلامي؛ إذ

سهلت عليهم مواجهة اللوم الموجه إليهم بأن المعرض لا يمثل بوهيميا (لم يكتمل عدد الألمان من منطقة السوديت). كانت المشاركة الأساسية من جانب (فرانز رينجهوفر)، أهم منتج للماكينات في بوهيميا والذي قام بتصنيع جميع عربات الترام الكهربائي لمدينة براغ، وكذلك من جانب عملاق صناعة النسيج الألماني (إميل كوبينسكي).

٦. انظر التقرير الذي ورد في جريدة (براغر تاجبلات) يوم ١٧ يونيو ١٨٩١، صفحة ٧ وما بعدها. نجا الركاب الثلاثة في البالون من الحادثة.

٧. حصل سكان براغ وضواحيها في مساء يوم ٢٨ سبتمبر على تعليمات بإضاءة الغرف المطلة على الشوارع أطول وقت ممكن. استغل معظم أصحاب المحال التجارية، وبالتأكيد أيضًا آل كافكا الذين عرفوا وقوع محلهم على خط سير القيصر، لتزيين الأماكن والواجهات بالأنوار الخاصة. وبما أن الإضاءة الليلية كانت في عام ١٨٩١ قليلة، وأن الترام الكهربائي كان في بداياته، كان لهذه الخطوة تأثير حسي قوي. كانت هذه الأنشطة الضخمة تحاول التعتيم على الوضع الدبلوماسي المعقد لزيارة القيصر لبراغ، بسبب المقاطعة الألمانية للمعرض الدولي. لم يتفوه القيصر في الاستقبالات الرسمية العديدة إلا بعبارات فارغة وصياغات شكر، حتى لا يجد أي من الجانبين سببًا لشعوره بالاضطهاد. تم الاتفاق قبل المقابلات التي حضرها الألمان والتشيكيون معًا ألا يرد ذكر المعرض الدولي بالمرة، على الرغم من أن (فرانز يوزيف) قد زار المعرض ثلاث مرات في أثناء رحلته التي استغرقت خمسة أيام.

٨. المذكرات، ١٢ نوفمبر ١٩١١. T246))

٩. تغيرت الأوضاع بعدها سريعًا: أنشئ أول نادٍ كروي في براغ مع منتصف التسعينيات، وكان "لاتحاد قاعة القراءة وإلقاء الخطب"، وهو اتحاد ثقافي، في عام ١٩٠٠ فريقه الكروي الخاص به، الذي كان يلعب في مدن أخرى. أشكال المسابقات "لألعاب الشباب" التي شارك فيها كافكا، يستشهد بها هنا بحسب التقرير السنوي للمدرسة الثانوية الألمانية في منطقة البلدة القديمة، وذلك في العام الدراسي ١٨٩٣/ ١٨٩٤. نستنتج من الجدول في صفحة ٧١ أنه سُمِحَ للكبار على الأقل بممارسة لعبة الكريكت.

١٠. (آنا بوتساروفا)، "عملت بوصفي مربية لدى عائلة كافكا"، انظر:

Koch, „Als Kafka mir entgegenkam”, S. 62.

١١. خطاب إلى الوالد (NSF2 151).

١٢. "أتذكر الآن في أثناء فترات الطقس الحار أنني كنت أتناول مع الوالد الجعة بشكل منتظم، حينما كان يصطحبني إلى مدرسة السباحة المدنية،" (خطاب إلى هيرمان وجولي كافكا، ٢ يونيو ١٩٢٤، انظر:

Briefe an die Eltern aus den Jahren 1922-1924, hrsg. Von Josef Cermak und Martin Svatoš, Frankfurt am Main 1990, S. 80f.)

النسخة التي سردتها (دورا ديامنت) موجودة في: Brod, Über Franz Kafka, S. 180.

١٣. في المرجع ذاته –عن ابن عم كافكا، روبير، الذي توفي في الواحدة والأربعين من عمره بسبب مرض في الطحال، انظر:

Northey, Kafkas Mischpoche, S. 66f.

١٤. انظر: Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 402ff.

١٥. رسالة إلى ماكس برود، ١٣ يناير ١٩٢١، انظر:

Max Brod. Franz Kafka. Eine Freundschaft, hrsg. Von Malcom Pasley, Bd. II: Briefwechsel, Frankfurt am Main 1989, S. 299.

١٦. (ف. براينينجر)، "شبكة الصرف الصحي لبراغ"، انظر:

Deutsche Vierteljahresschrift für öffentliche Gesundheitspflege, 31 (1899) , S. 724.

يذكر (براينينجر) أضيق الأزقة في الغيتو، زقاق (هربيتوفا)، الذي يبلغ عرضه في أضيق مكان مترًا وعشرين سنتيمترًا.

١٧. أشار المخطط العمراني النمساوي (رودولف فورسر) إلى إمكانية تجنب قطع منطقة الغيتو الرئيسية، لو أن المخططين كانوا قد سمحوا في سياق التجديد بانحراف طفيف لزقاق (نيكلاس جاسه) الجديد، انظر المقالة التالية، مع الرسومات في صفحة ١٧٢:

Die „Assanirung” der Josephsstadt in Prag, in: Die alte Stadt 22 (1995) , H. 2, S. 149-174.

١٨. ينطبق ذلك أيضًا على أهم المصادر التي تتناول براغ الألمانية مع منعطف الألفية، التي صدرت منذ عام ١٩٥٠ في شكل ذكريات لشهود عيان في مجلة (أخبار براغ) في ميونيخ. تقدم هذه النصوص تفاصيلَ حسية ثمينة، ولكن لا توضح التوجهات

الاجتماعية ولا الصراعات، التي تم تناولها بوصفها حادثة وقعت في الطبيعة، أو التقليل من شأنها بتحويلها لنادرة، أو إنكارها تمامًا. ينقل لنا ذلك من ناحية أخرى أسلوب تفكير ألمان براغ في هذه المرحلة.

١٩. انظر:

Johann Wolfgang Goethe, Italienische Reise, in: Sämtliche Werke, Bd. 11, München 1977, S. 147.

(إيلي)، و(فالي)، و(أوتلا)

١. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٩ و٢٠ ديسمبر ١٩١٢ (B1 345).

٢. تملك لقطة لهذه اللحظة من خلال "ورقة التسجيل" التي ملأ هيرمان كافكا بياناتها في عام ١٨٩٠ في أثناء حصر لعدد السكان. ذكر الموظفين (المنتمين جميعًا إلى الديانة الكاثوليكية) بالاسم: الطاهية (فرنتيسكا نيدفيدوفا) ذات الخمسة والثلاثين عامًا، والخادمة (ماري زيمانوفا) ذات العشرين عامًا، وجليسة الأطفال (آنا كوخالوفا) ذات العشرين عامًا، انظر:

Kurt Krolop, Zu den Erinnerungen Anna Lichtensterns an Franz Kafka, in: Acta Universitatis Carolinae-Philologica. Germanstica Pragensia V (1968) , S. 56

٣. تتذكر (آنا بوتساروفا) بعض عناوين أعمال كافكا: "اللص"، و"الصور تتحدث"، و"جورج من بوديبراد" (النص الأخير كان فيما يبدو تكريمًا لاسم أمه التي ولدت في بودي برادي)، فضلًا عن مسرحيات من فصل واحد للكاتب (هانز زاكس). حضر الجمهور في الصالون، وكانت حجرة الطعام أشبه بالمسرح، والباب الرابط بين الحجرتين هو الستار. كان والد السيدة كافكا يحضر العرض، ومعه أخوه بأسرته. كان عرضنا جيلًا جدا وتمثيله جيد. كانت الفتيات تلبسني نظارة كبيرة دون زجاج، حتى أبدو في المشهد وكأنني عالم.

('Als Erzieherin in der Familie Kafka', in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam", S. 68)

تحدثت أخوات كافكا لاحقًا عن أنه كان يحب إفزاعهما بارتدائه ملابس غريبة، انظر:

Wagenbach, Franz Kafka, Biographie seiner Jugend, S. 51.

٤. انظر:

Gerti Kaufmann, 'Erinnerungen an meinen Onkel', in: Koch, „Als Kafka mit entgegenkam... ", S. 223-226.

٥. تم هنا الاستشهاد بالمرجعين التاليين

'Auguste Fickert, 'Der Stand der Frauenbildung in Österreich', in: Helene Lange/Gertrud Bäumer (Hrsg.) , Handbuch der Frauenbewegung in den Kulturländern, Berlin 1902, S. 161-190, hier S. 175.
'Verordnung des Ministeriums für Cultus und Unterricht vom 23. März 1897, betreffend die Zulassung von Frauen als ordentliche und außerordentliche Hörerinnen an den philosophischen Fakultäten der k. k. Universitäten', in: Reichsgesetzblatt, Wien 1897, S. 427.

لم يكن التهديد غير المباشر لوزير الثقافة تراجعًا، بل وجب أخذه على محمل الجد. اشتكت الاتحادية النسوية النمساوية مثلًا من أن امتحان القبول للتدريس كان أكثر صعوبة للسيدات مقارنة بالرجال. أدى ذلك إلى درجات أضعف، وبالتالي إلى فرص أقل للحصول على وظيفة بأجر جيد. كانت هناك مع نهاية القرن مديرة وحيدة مقابل تسعين مديرًا في المدارس النمساوية الابتدائية، وثماني مدرسات مخضرمات مقابل ٢٢٢ مدرسًا مخضرمًا، في حين تساوت أعداد المدرسين والمدرسات المبتدئين.

٦. من اللافت للأنظار اختيار آل كافكا لمدرسة خاصة لبناتهم، كانت تدعم تعلم الفتيات إعلاميًا. (أديلة شامبور) كانت أول مدرسة في النمسا مسموح لها بالتدريس في المرحلة الثانوية، فضلًا عن أنها كانت من العضوات المؤسسات للاتحاد البراغي "تقدم النساء" (الذي أسس تحت اسم "الاتحاد الألماني لدعم رخاء وتعلم السيدات في براغ")، سجل هذا الاتحاد في مارس ١٨٩٨ عضوة جديدة اسمها "السيدة هـ. كافكا"؛ مما قد يفسر بحسب العادات حينها بأنها "السيدة هيرمان كافكا". انظر:

Frauenleben, Wien, 9. Jg. , H. 12, S. 85, sowie 10. Jg. , H. 2, S. 4.

٧. أكدت ابنة أوتلا، (فيرا زاودكوفا) لاحقًا، في حوار أجري معها، على تفضيل هيرمان كافكا الواضح للأحفاد من الذكور: "لم يرغب الجد في أحفاد فحسب، بل في صبية فقط، ولم تنجب البنات الثلاث سوى فتيات، بخلاف إيلي، التي أنجبت ابنًا اسمه فيليكس، ولم يعش طويلًا"، انظر:

(Alena Wagnerová, '"Franz gibt es uns". Eine Begegnung in Pragmit Vera Saudková, der letzten lebenden Nichte Kafkas', in: Neue Zürcher Zeitung, 30. Januar 2012)

٨. خطاب إلى الوالد (NSF2 177f) – وفي خطاب مشابه إلى (فيليس باور): "فضلًا عن كوني متنبئًا وخبيرًا في البشر فاشلًا، كما اتضح لي من خلال أختي المتزوجة «إيلي»، حيث شعرت لحظة خطوبتها بالأسى ذاته. أما أختي، التي كانت في الماضي طفلة صعبة، لا يمكن إرضاؤها، وتترك الموقف غاضبة، تحولت حياتها في الزواج وإنجاب طفلين إلى سعادة مستمرة." (١٠ و١١ يناير ١٩١٣، B2 33)

٩. انظر:
Pouzarová, 'Als Erzieherin in der Familie Kafka', S. 59.

١٠. خطاب إلى (فيليس باور)، ١ نوفمبر ١٩١٢ (B1 204).

١١. الصور الفوتوغرافية في استديو التصوير الموجودة، تظهر أخوات كافكا بالمظهر ذاته بكل تفاصيله. يبدو أن الاهتمام كان حتى بطول الشعر، الذي بدا متطابقًا.

١٢. خطاب إلى الوالد (NSF2 178-180).

اللغة اللاتينية واللغة البوهيمية والرياضيات، وشؤون قلبية أخرى

١. انظر:
Oskar Kraus, Die Meyeriade, Leipzig 1891 (Reclam's Universalbibliothek, Heft 2980)

مطلع القصيدة الثالثة، والتي يستشهد بها هنا بعد إعادة الطبع في:
Piaristen und Gymnasiasten. Schülerleben im alten Prag, hrsg. von Heinrich Pleticha, Prag 2001, hier S. 38f.

٢. انظر فصل "دوائر مظلمة".

٣. كانت دفعة كافكا في المدرسة الثانوية في البلدة القديمة تتألف من ٨٧ تلميذًا، وتم توزيعهم على فصلين بحسب الحروف الأبجدية (بدأت لذلك أسماء زملائه في الفصل بالحروف أ ـ ك). انخفض عددهم في الصف الرابع إلى خمسين طالبًا، وجمعهم فصل واحد. لم ينجح منهم سوى ٢٢ طالبًا في اجتياز شهادة الماتورا. تعد التقارير السنوية المنشورة لمؤسسة المدرسة الثانوية في البلدة القديمة هي أهم المصادر

عن تعليم كافكا، فضلًا عن فهارس المدرسة ومحاضر الامتحانات الموجودة في أرشيف مدينة براغ (Archiv hlavn[]ho mesta Prahy باللغة التشيكية). لا نجد هنا أسماء العديد من الطلاب والمدرسين المسؤولين عنهم فحسب، بل معلومات دقيقة عن منهج الدراسة والامتحان، والكتب المستخدمة، والأنشطة الرياضية، والرحلات والإجازات الصيفية... إلخ.

٤. انظر:

Hugo Hecht, 'Zwölf Jahre in der Schule mit Kafka'; Emil Utitz, 'Acht Jahre auf dem Altstädter Gymnasium'.

في المرجع:

Koch, „Als Kafka mit entgegenkam... ", S. 36 und 49f.

لا يمكن لهذا التطابق الغريب بين تأملات (أوتيتس) وذكرى كافكا الخاصة به، أن تأتي تأملات (أوتيتس) بتأثير من هذه الذكرى؛ إذ صدر نص (أوتيتس) في عام ١٩٤٧، أي قبل صدور الطبعة الأولى لعمل كافكا خطاب إلى الوالد بخمس سنوات.

٥. وصلت نسبة التلاميذ اليهود إلى ٨٠٪، وكان انتماؤهم إلى طبقة البرجوازية الصغرى التقليدية واضحًا بنسبة ٧٠٪. كان لهذا التجانس أسباب إدارية أيضًا؛ لأن مدارس براغ الثانوية كانت تابعة لإدارة الحي التعليمية. ذهب التلاميذ المقيمون في منطقة البلدة القديمة أو حي (يوزيف شتاد) دون سواهم إلى المدارس الثانوية في منطقة البلدة القديمة. تحكم الاختيار الحر للمدرسة الثانوية قيود، لم يختر الوالدان إلا بين تخصص العلوم الطبيعية والإنسانيات، واللغة التي يتعلم بها ابنهما.

٦. انظر:

Fritz Mautner, Prager Jugendjahre, Frankfurt am Main 1969, S. 44.

أطلق على المدرسة الثانوية التابعة (للبياريست) اسم "المدرسة الثانوية الواقعة في منطقة جرابن"، لأنها كانت تقع عند تقاطع زقاقي (جرابن جاسه) و(هبرين جاسه). وضعت المدرسة تحت إشراف الدولة في عام ١٨٧٤، لتتحسن الأوضاع البائسة التي وصفها (ماوتنر). كانت هذه المدرسة في أثناء فترة تعليم كافكا المدرسية المدرسة الثانوية الألمانية الثالثة على الجانب الأيمن من نهر المولداو، مع المدرستين الثانويتين: البلدة القديمة ومدرسة (شتيفان). زار (أوسكار كراوس)، مؤلف قصيدة (مابرادة) هذه المدرسة أيضًا.

٧. انظر المراجع التالية:

Wagenbach, Franz Kafka. Biographie seiner Jugend, S. 34.
Hugo Bergmann, 'Schulzeit und Studium`, in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam... ", S. 20ff.
Guido Kisch, Der Lebensweg eines Rechtshistorikers. Erinnerungen, Sigmaringen 1975, S. 24ff.
Ders. , 'Kafka-Forschung auf Irrwegen`, in: Zeitschrift für Religions- und Geistesgeschichte 23 (1971) , S. 339-350.
Hans Kohn, 'Rückblick auf eine gemeinsame Jugend`, in: Festgabe für Robert Weltsch zum 70. Geburtstag, Tel Aviv 1961, S. 113f.

٨. هذا ما جاء على لسان وزير الدولة السابق (ريشارد جراف بيلكريدي) أمام مجلس اللوردات النمساوي. تناول (بيلكريدي) في خطابه سلسلة من التقارير التي طلبت من كليات الحقوق النمساوية، والتي أفادت أن أسلوب التعليم التلقيني في المدارس النمساوية لا يجدي شيئًا. انظر المراجع التالية:

Stenographische Protokolle über die Sitzungen des Herrenhauses des österreichischen Reichsrathes in den Jahren 1891-1897, Wien 1897, Protokoll der 6. Sitzung der XI. Session am 29. Mai 1891, S. 32.
Strakosch-Graßmann, Geschichte des österreichischen Unterrichtswesens, S. 325.

٩. انظر:

Bergmann, 'Schulzeit und Studium`, S. 26.

ما يتذكره (برجمان) بشأن مسميات التقديرات ليس دقيقًا. كان ترتيب الدرجات لمادة "السلوك" كالتالي: يستحق التقدير، مقبول، أقل قبولًا، وغير مقبول. لم تضمن إلا الدرجة الأولى والثانية الإعفاء من المصروفات المدرسية. حصل (برجمان) بالفعل على درجة مقبول.

١٠. انظر:

Kisch, Der Lebensweg eines Rechtshistorikers, S. 26.

١١. انظر:

Bergmann, 'Schulzeit und Studium`, S. 23.

يتذكر كافكا في عام ١٩١٥ "حجرتي مدرس الفصل في الدير" (T727). سجلت التقارير للمدرسة الثانوية نصوص القراءة الإجبارية وغير

الإجبارية، مما يسمح بتحديد عدد النصوص الضخم الذي قرأه كافكا. في حصة اللغة اللاتينية في الصف الرابع مثلًا كانت النصوص كما يلي:

Livius, Römische Geschichte (I, XXI) ; Ovid, Metamorphosen (II 1-242, 251-332/V 358-437, 462-571/VI 146-312/VII 133-235, 618-720/X 1-63, 72-77/XI 87-193) ; Ovid, Fasti (I 465-586/II 193-242, 475-512, 639-684, 687-710/III 713-714, 725-790, 809-834/IV 393-620) ; Ovid, Tristia (I 3/IV 10) ; Ovid, Epistulae ex ponto (III 2).

فضلًا عن قراءات كافكا الخاصة:

Livius, Römische Geschichte (XXII) ; Ovid, Metamorphosen (XII 1-38/XIV 246-307, 581-608) ; Ovid, Epistulae ex Ponto (IV 3).

١٢. انظر:

Emil Gschwind, ´Anschauungsunterricht auf dem Gymnasium und Vertheilung der Realerklärung aus der römischen Alterthumswissenschaft aud die einzelnen Classen des Obergymnasiums`, in: 28. Jahresbericht über das Staats-Gymnasium mit deutscher Unterrichtssprache in Prag-Altstadt für das Schuljahr 1899-1900, Prag 1900, S. 4.

١٣. انظر:

Bergmann, ´Schulzeit und Studium`, S. 24.

١٤. انظر:

Bruno Kisch, Wanderungen und Wandlungen. Die Geschichte eines Arztes im 20. Jahrhundert, Köln 1966, S. 63.

تحدث (ريتشارد جراف بيلكريدي) في الخطبة المشار إليها أمام مجلس اللوردات في عام ١٨٩١ عن "تدريب يدوم لثماني سنوات في علم اللغة". اشتكى (شتراكوش-جراسمان)، الذي صدر كتابه تاريخ التعليم النمساوي في أثناء تعلم (برونو كيش) في المرحلة الثانوية من "أن مدرسي اللغات الحديثة يهتمون بمضمون اللغة والأدب أكثر من المتخصصين في المجال، الذين لا يهتمون إلا بالعلوم الشكلية وتأويل النص." (صفحة ٣٢٥).

١٥. بطاقة بريدية إلى (فيليس باور)، ٩ أكتوبر ١٩١٦ (B3 251).

١٦. المذكرات، ٢٣ يناير ١٩٢٢(T887).

١٧. المذكرات، ١٣ ديسمبر ١٩١١ (T291).

انظر أيضًا:

Brod, Über Franz Kafka, S. 103.

١٨. "يتقن المتقدم اللغتين الألمانية والبوهيمية شفاهة وتحريرًا، كما يتقن الفرنسية أيضًا، والإنجليزية بشكل بسيط." انظر: (خطاب إلى شركة تأمين العمال ضد حوادث العمل في براغ، ٣٠ يونيو ١٩٠٨؛ B185). ملأ كافكا في ٢ أكتوبر ١٩٠٧ استمارة في شركة (أسيكوراتسيوني جنرالي)، أجاب بسؤاله عن مهاراته اللغوية أنه يتقن "البوهيمية، بخلاف الفرنسية والإنجليزية، وإن كان غير متمرس في اللغتين الأخيرتين." (B1 69)

١٩. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٢ سبتمبر ١٩١٣ (B2 279).

٢٠. "يبكي ابن أختي في الحجرة المجاورة، تقول له أمي باللغة التشيكية باستمرار أنه "صبي مطيع" و"صبي صغير"..." (خطاب إلى فيليس باور، ٣ نوفمبر ١٩١٢؛ B1 207). كان ابن أخت كافكا (إيلي) البالغ من العمر أحد عشر شهرًا، (فيليكس هيرمان)، الذي لم يملك في هذا التوقيت التفرقة بين اللغتين بكل تأكيد. لعله مثال لأن التحويل بين اللغات ظل مهارة تتوارثها الأجيال التالية. – تخاطب جولي كافكا في رسائلها داخل الأسرة بناتها أكثر من مرة بأسماء التدليل التشيكية (أوتيلكا) و(إيلينكا).

٢١. ١٢ مايو ١٩٢٠ تقريبًا، (B4 134).

٢٢. انظر:

Pouzarová, 'Als Erzieherin in der Familie Kafka', S. 66.

٢٣. "لا أعرف (على الرغم من معرفتي القليلة) باللغة التشيكية سوى موسيقى لغوية كتلك التي تصنعها (بوتسينا نيمكوفا)..." (خطاب إلى ميلانا يسانسكا، ٢٥-٢٩ مايو ١٩٢٠؛ B4 148) تتحدث (بوتساروفا) عن أن كافكا قد أعطاها وهو في التاسعة عشرة من عمره إصدارًا مصورًا لعمل (بابيتشكا) لتقرأ منه لأخواته (المرجع السابق ذاته).

٢٤. انظر:

Antonín Truhlár, Výbor Z Literatury České. Doba Nová [Auswahl aus der tschechischen Literatur. Neuzeit], 3 Bde. , Prag 1886.

للمزيد عن الكتب الدراسية التشيكية المستخدمة في المدرسة الثانوية في البلدة القديمة انظر:

Nekula, Franz Kafkas Sprachen, S. 143-151.

٢٥. انظر:

Bašík, ´Als Lehrjunge in der Galanteriewarenhandlung Hermann Kafka`, S. 88.

أمر مستبعد أن يكون كافكا قد واجه وهو في الحادية عشرة من عمره "صعوبات مع اللغة التشيكية" كما ادعى (بازيك). ظهرت هذه الصعوبات في وقت لاحق مع كثرة المتطلبات وتراجع الأداء المدرسي في سن المراهقة.

٢٦. كان (باديني) قد شرح التعليمات المخطط لها للغات إلى النواب التشيكيين بشكل غير رسمي، كما أنه أخذ بعض الرغبات الخاصة للتشيكيين في أثناء هذه المحادثات في الاعتبار. ليس مؤكدًا إذا ما كان قد أخبر النواب الألمان في وقت سابق. تجنب التعامل مع البرلمان بالاستناد إلى قانون الطوارئ الملكي، وهي الفقرة الرابعة عشرة من الدستور؛ هذه الفقرة المشبوهة، التي عرفت بسوء استخدامها مكررًا في سياق هذه الأزمة. عن منهج (باديني) غير الموفق انظر الملخص القصير في المرجع التالي:

Hans Mommsen, ´1897: Die Badeni-Krise als Wendepunkt in den deutsch-tschechischen Beziehungen`, in: Wendepunkte in den Beziehungen zwischen Deutschen, Tschechen und Slowaken 1848-1989, hrsg. von Detlef Brandes, Dušan Kováč und Jiří Pešek, Essen 2007, S. 111-117.

٢٧. كان الخطاب المفتوح الذي وجهه المؤرخ (تيودور مومزن) "إلى الألمان في النمسا" خطابًا مشبوهًا، نُشر في ٣١ أكتوبر ١٨٩٧ على الصفحة الأولى لجريدة (نويه فرايه بريسه). أعلن (مومزن) أن النزاع حول قضية اللغة "هي معركة موت أو حياة"، ونصح النمساويين الألمان: "تحلوا بالصلابة! لا تقبل رؤوس التشيكيين بالعقل، ولكنها تستجيب للضرب."

٢٨. "اعترف في عام ١٨٨٠ ثلث يهود بوهيميا بإتقانهم للغة التشيكية العامية، صاروا في عام ١٩٠٠ أكثر من خمسين بالمائة. قام أكثر من أربعة آلاف يهودي في مركز براغ بتغيير هويتهم القومية في الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠؛ في حين أن ٧٤٪ من يهود براغ اعترفوا في عام ١٨٩٠ بانتمائهم إلى اللغة الألمانية العامية، بينما صاروا في عام ١٩٠٠ ٤٥٪ فقط." انظر:

Christoph Stölzl, Kafkas böses Böhmen. Zur Sozialgeschichte eines Prager Juden, München 1975, S. 50.

٢٩. نجد مقتطفات من استمارات التسجيل الخاصة بسكان العمارة في زقاق (نيكلاس جاسه) ٣٦ في المرجع التالي:

Krolop, 'Zu den Erinnerungen Anna Lichtensterns an Franz Kafka', S. 51ff.

٣٠. التقى كافكا في عام ١٩٢٠ بجنرال نمساوي، وقدم نفسه بوصفه براغيًا. اشتبه الجنرال في نطق كافكا للألمانية، فاضطر إلى شرح أصوله اليهودية (خطاب إلى ماكس برود وفيليكس فيلتش، ٦ـ٨ أبريل ١٩٢٠؛ B4 117).

٣١. انظر:

Emil Faktor. 'Von acht bis neun. Aus einem ungeschriebenen Gymnasialromans', in: Bohemia, 25. Dezember 1910, S. 36.

كانت اللغة البوهيمية القديمة (كوخل) هي لغة منقرضة، بأصول كلمات ألمانية، ولكن بتصريفات تشيكية. يستشهد (فريدريش توربرج) بالعبارة النموذجية التالية، المكتوبة حسب نطقها:

„Hausmajstr vypucuje fotruv ibacia na klandru" =
„Der Hausmeister putzt des Vaters Überzieher am Geländer." (Die Erben der Tante Jolesch, München 1981, S. 221)

٣٢. انظر:

Nekula, Kafkas Sprachen, S. 76.

العبارات النموذجية جاءت في مقالة (إيجون كيش) التالية:

„Vom Kleinseitner und vom Prager Schmock". (Aus Prager Gassen und Nächten, S. 469-477).

يثبت (كيش) العديد من الاقتباسات من اللغة التشيكية، ولكنه لا يأتي بأمثلة للتأثير اليهودي، فلا يقدم صورة متكاملة عن اللغة الألمانية البراغية. لأمثلة أخرى انظر:

Fritz Bondy, 'Prager Deutsch', in: Prager Tagblatt, 15. August 1917, S. 3.

٣٣. انظر:

Gustav Janouch, Gespräche mit Kafka. Aufzeichnungen und Erinnerungen, erweiterte Neuausgabe. Frankfurt am Main 1981, S. 32.

لرسالة من (ماري فيزيلا) انظر:

Josef Čermák, 'Popyt Franze Kafky v Plané nad Lužnicí (Léto 1922)`, in: světová literatura 34 (1989), H. 1, S. 224.

٣٤. انظر:

Rainer Maria Rilke an August Sauer, 11. Januar 1914, in: Rilke, Briefe, Erster Band: 1897-1914, Wiesbaden 1950, S. 472f.

٣٥. انظر:

Lars Gustaffson, Palast der Erinnerung, München 1996, S. 20.

٣٦. حصل كافكا على الأعداد الخضراء لمجموعة (شافشتاين) وقرأ العديد منها، والتي كانت تتناول هذا النوع من الموضوعات (كانت مقتطفات من أعمال أكبر)، ووصفها لفيليس باور بأنها "أعماله المفضلة". (٣١ أكتوبر ١٩١٦، B3 271)، انظر أيضًا:

Jürgen Born, Kafkas Bibliothek', Frankfurt am Main 1990, S. 144-148.

تتذكر الصهيونية (كلارا تاين) أن كافكا قد أخذ معه في إحدى النزهات دفترًا كهذا، يصف رحلة استكشافية إلى منطقة الأمازون، وأهداها إياه. انظر:

Hartmut Binder, 'Frauen in Kafkas Lebenskreis`, 2. Teil, in: Sudetenland 40 (1998), H. 1., S. 25 und Anm. 206.

كان كافكا يفضل سلاسل كتابات أخرى من هذا النوع، نجد في تركته مثلًا جزأين من سلسلة "الباحث عن الكنز" (ميونيخ، دار نشر كالفاي)، واحد منهما بعنوان صيد الغزلان عند العرب بقلم (ماكس ماريا فون فيبر). انظر قائمة المتروكات التي كتبتها (إلزه برود)، وهي مصورة في المرجع التالي:

Wagenbach, Franz Kafka, Biographie seiner Jugend, S. 263.

٣٧. خطاب إلى ماكس برود، بداية سبتمبر ١٩٠٨ (B1 88).

٣٨. خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٧ و٢٨ أكتوبر ١٩١٣ (B2 112).

٣٩. انظر:

Hecht, 'Zwölf Jahre in der Schule mit Kafka`, S. 42.

٤٠. من الغريب أن الأب الروحي لكافكا أنجيلوس، ذلك الرجل النشيط، قد شارك بإنتاجه لمشروب كحولي في "المعرض الدولي الثاني للصيدلة" (١٥ أغسطس إلى ١٥

سبتمبر ١٨٩٦)، حيث عرض عملية التقطير. تم تصنيف شركته في كتالوج المعرض في قسم "النظافة الشخصية".

٤١. خطاب إلى (ميلانا يسانسكا)، ٢٦ يوليو ١٩٢٠ (B4 252). في:
Brod, Franz Kafka, S. 21.

٤٢. تقدم موضوعات التعبير للتلميذ (هانز هيني يان) في الفترة من ١٩٠٩ إلى ١٩١٠، الذي رسب أيضًا سنة دراسية، مادة نموذجية أصلية. كان لديه اهتمامات أدبية، ونجد هذا التعليق المميز لمدرس اللغة الألمانية: "خرج خيال (ه. ي.) عن السياق، ولكن سأمنحه درجة (جيد) لأسلوب تعبيره المتمرس." انظر:
Hans Henny Jahn, Frühe Schriften, hrsg. von Ulrich Bitz, Hamburg1993, S. 1336f.

٤٣. انظر:
Ferdinand Deml, 'Betrachtung der Mittel zur Erreichung klarer und gewandter Ausdrucksweise in der deutschen Sprache`, in: 24. Jahresbericht über das Staats-Gymnasium mit deutscher Unterrichtssprache in Prag-Altstadt für das Schuljahr 1895-96, Prag 1896.

٤٤. بعض موضوعات التعبير، التي واجهها كافكا: "إلى أي مدى يتحكم الإنسان في الطبيعة؟"، "مديح اللغة الأم بحسب منهج (شينكندورف) "، "يأتي التعالي قبل السقوط"، "وطني النمسا، الغني بالانتصارات والتقدير" (الصف الخامس)؛ "قيمة الإخلاص الجرمانية بحسب أسطورة (نيبلونجن) بحسب الرواية الإسكندنافية"، "فيمَ تتمثل البطولة الحقيقية؟" (الصف السادس)؛ "لماذا نعتبر لغتنا الأم ثروة ثمينة؟"، "القرن السادس عشر، عهد البطولات في النمسا"، "لماذا يجب علينا احترام الكبار في السن؟" (الصف السابع)، "التطور الثقافي بحسب مفهوم شيلر"، "تمييز بين مصطلحات السلطة، والسطوة، والقوة، والمقدرة"، "كيف تتغلب عذراء (أورليون) على صراعها بين الالتزام والرغبة؟" (الصف الثامن).

٤٥. (هوجو هيشت)، مذكرات غير منشورة، انظر:
Binder, Kafka-Handbuch, Bd. 1, S. 199.

٤٦. انظر: NSF2 7ff.، يحدد الناشرون للإصدار المنقح تاريخًا لهذه المذكرات في صيف ١٩١٦.

٤٧. انظر:

Bergmann, 'Schulzeit und Studium', S. 25.

٤٨. يتذكر (إميل أوتيتس) حلقة أدبية متكونة من طلاب الثانوية العامة الأكبر عمرًا، الذين كانوا يقرؤون قصائدهم ويناقشونها. يقال إن كافكا قد شارك في هذه الحلقة، ولكنه لم يلقِ قصائده. (خبر قيل إلى كلاوس فاجنباخ)، انظر:

Klaus Wagenbach, Franz Kafka. Biographie seiner Jugend, S. 51.

٤٩. المذكرات، ١٩ يناير ١٩١١ (T146f.).

دروس يهودية

١. ظل كافكا بعدها بخمس وعشرين سنة يعتقد أنه لا يمكنه الانطلاق من معرفة صديقته التشيكية المسيحية (ميلانا يسانسكا) لاحتفال (بار متسفا). كتب إليها: "هل تعرفين أنك هدية تعميدي، وهناك أيضًا تعميد يهودي؟" (١٩ أغسطس ١٩٢٠، (B4 301. دعا والدا (هوجو برجمان) إلى "حفل تعميد" أيضًا، ولكنهما أضافا بين قوسين كلمة "بار متسفا" باللغة العبرية (هناك نسخة معروضة من تركة برجمان في المتحف القومي اليهودي في القدس).

٢. هناك هديتان مؤكدتان من هدايا (بار متسفا)، التي حصل عليها كافكا: رواية (كاميل فلاماريون) الخيالية "نهاية العالم" (صدرت في عام ١٨٩٥ باللغة الألمانية، وكتاب (كارل فاولمان) "في عالم الروح. تاريخ مصور للعلوم" (فيينا ١٨٩٤). كانت هذه هي الهدايا المعتادة للشباب في جيل كافكا. اختفى الكتابان اليوم، ولكن وجدتهما (هيلين زيلبر برج) في ممتلكات كافكا في الثلاثينيات. (انظر قائمة الكتب الموجودة في تركة زيلبربرج بأرشيف الأدب الألماني.)

٣. انظر:

Pouzarová, 'Als Erzieherin in der Familie Kafka', S. 68.

لا يتذكر ماكس برود أيضًا احتفالًا وقورًا بليلة عيد الفصح اليهودي، انظر:

Streitbares Leben. Autobiographie 1884-1968, Frankfurt am Main 1979, S. 223f.

٤. لدينا ملحوظة من جولي كافكا قد تشير إلى أنها كانت تحاول الحفاظ على بقايا التدين اليهودي داخل الأسرة. كتبت إلى (فيليس باور) في ٨ أكتوبر ١٩١٦: "كنا نحافظ على الأعياد اليهودية مثل اليهود المستقيمين. نغلق المحل في فترة رأس السنة يومين، والتزمنا بالأمس في يوم التصالح بالصيام والصلاة بإخلاص." انظر:

Franz Kafka, Briefe an Felice und andere Korrespondenzen aus der Verlobungszeit, hrsg. von Erich Heller und Jürgen Born. Frankfurt am Main 1967, S. 721)

ولكن علينا تقييم هذه السطور بحذر؛ لأنها كانت موجهة على نحو غير مباشر إلى أم (فيليس باور) المتدينة. ليس لدينا من كافكا أي تعليق يشير إلى أن أسرته كانت "تصلي بإخلاص".

٥. خطاب إلى الوالد (NSF2 188f). إشارة كافكا إلى زيارة أبيه للمعبد أربع مرات في العام تفيد أن عيد رأس السنة اليهودي كان يحتفل به لمدة يومين، كما هو معتاد لدى اليهود المحافظين.

٦. انظر في المرجع (NSF2 188f. , 191).

٧. انظر:

Franz Werfel, 'Erguß und Beichte', in: Zwischen oben und unten. Prosa, Tagebücher, Aphorismen, Literarische Nachträge, München/Wien 1975, S. 695.

٨. تثبت سجلات الأعضاء عضوية هيرمان كافكا في هذا الاتحاد. كان لآباء كل من ماكس برود، و(فرانز فيرفل)، و(فيليكس فيلتش) في فترات ما وظائف قيادية. لا نعرف إذا وقع تبادل للكلمات بينهم.

٩. انظر:

Stölzl, Kafkas böses Böhmen, S. 50-54.

كان (إرنست شنايدر) نائبًا عن الحزب الاجتماعي المسيحي وصديقًا قريبًا من (لويجر)، يعد أول السياسيين النمساويين الذين أبدوا العنف ضد اليهود علنًا.

١٠. انظر:

NSF2, 152

١١. انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 370ff.

١٢. "تناثرت في منزل والديَّ أيضًا شظايا الزجاج، هربنا مرتعشين من حجرة الأطفال المطلة على الشارع إلى حجرة الوالدين. ما زلت أرى أبي وهو يرفع أختي الصغيرة من فراشها، ووجدنا في الصباح حجرًا في الفراش ذاته." انظر:

Max Brod, Adolf Schreiber. Ein Musikerschicksal, Berlin 1921, S. 29.

١٣. أعلن عن تطبيق الأحكام العرفية في براغ بوصفها وسيلة ضغط اجتماعية، وليس كإجراء عسكري. كان من المفترض تطبيق عقوبة الإعدام على اللصوص، ولكن جرت محاكمة مئات المتهمين، الذين قُبض عليهم في الأسابيع التالية، وفقًا لقانون العقوبات العادي. لتجنب أحكام الإعدام تم تسجيل توقيت الجرائم بتاريخ أقدم من تاريخ الإعلان عن حالة الطوارئ. امتدت العديد من القضايا حتى بداية العام التالي.

١٤. هذا ما حدث بالفعل بعد مرور شهور قليلة، في يونيو ١٨٩٨، حينما نشر الصحفي والسياسي (شتانيسلاف ستويالوفسكي) إشاعة عن إباحة دماء اليهود لفترة زمنية محددة. لم يتسنَ إنهاء المذابح الدموية التي وقعت بعدها في نحو ثلاثين قرية جاليسية إلا بدعم عسكري. انظر:

Benjamin Seff [=Theodor Herzl], 'Feuer in Galizien', in: Die Welt, Wien, 24. Juni 1898; wiederabgedruckt in Herzl, Zionistische Schriften, Berlin 1920.

١٥. من أكثر الأساطير صلابة، والتي ارتبطت بـ"عاصفة ديسمبر"، تلك التي تحدثت عن المخططين للانتفاضة، والذين كانوا أصحاب تعليمات الهجوم والنهب. نُشرت أقاويل مثلًا أن هؤلاء المتزعمين (الذين لم يتم القبض عليهم بالطبع) قد تسللوا في ساعات الصباح الأولى إلى المدينة، وضعوا علامات بالطباشير على المنازل المفترض الهجوم عليها. جاء لوم آخر متكرر من الجانب الألماني بأن الإدارة التشيكية لم تهتم بفرض الأمان في المدينة. ادعى (كريستوف تولسل): "هؤلاء السادة، السامة من شباب التشيكيين، شاهدوا هذه الأحداث المتأججة مكتوفي الأيدي وبشعور من الشماتة." (Kafkas böses Böhmen, S. 63) لم يكن هؤلاء مكتوفي الأيدي بالتأكيد، لأن القيادات البوهيمية كانت سترد بالإقالة في هذه الحالة. كانت في واقع الأمر الإجراءات الإدارية من أجل السيطرة على

الانتفاضة شاملة، ولكن ما أعاقها تفشي العدوى القومية في الجهاز التنفيذي: لجأ مدير شرطة ألماني إلى سلطة الأمر لإجبار ضابط شرطة تشيكي على حماية يهودي ألماني من لص تشيكي. (على الرغم من أن الأربعة يجمعهم في واقع الأمر انتماؤهم لمنطقة بوهيميا وتحدثهم للغتين) لم يغير التدخل العسكري شيئًا من الوضع، بل واجه المشكلات نفسها. ليس من السهل رسم صورة دقيقة للأوضاع؛ لأن معظم أجهزة الصحافة قد قدمت عن "عاصفة ديسمبر" في براغ تقاريرَ منحازة (كان الجهاز الصحفي التشيكي والديمقراطي الاجتماعي، برافو ليدو، استثناءً نادرًا)، كما أنها خضعت أيضًا للرقابة. مثلت الأحداث المعقدة صعوبة أيضًا بالنسبة للمعالجات الأدبية أيضًا: تعكس رواية (فيكتور ديك) بعنوان "بروزينك" (١٩٠٦) المتطلبات التشيكية وتبدي تحفزًا تجاه نزعة التدمير لدى الجموع، ولكن تتجاهل الرواية الدوافع المعادية للسامية تمامًا. تغلب على الرواية الطلابية كوخ فاتسلاف (١٩٠٢) للكاتب (كارل هانز شتروبل) نزعة شوفينية ألمانية، لدرجة أنه لا يمكن توقع تقديمها لمادة توضيحية ذات مصداقية. يقدم (ميشال فرانكل) تحليلًا لأحداث ديسمبر قائمًا على الملفات الشرطية، وعرضًا للأحداث التي وقعت في الوقت نفسه في مدن بوهيمية أخرى:

„Prag ist nunmehr antisemitisch", Tschechischer Antisemitismus am Ende des 19. Jahrhunderts, Berlin 1911, S. 233-250.

١٦. انظر جريدة (براغر تاجبلات)، ١٥ أبريل ١٨٩٩، صفحة ١٠.

لم تظل ردود أفعال الطبيب الشرعي مستثيرة هادئة مع ضغوط الرأي العام في قضية (هيلزنر). حينما سأله ممثلوالدعوة العارضة: "هل تظن أن الفتاة قد جُردت من ملابسها، للحصول على كل الدم من جسدها"، أجاب الدكتور (بروكيش): "نعم، أظن ذلك." حينما طلب منه محامي الدفاع تقديم تفسير لذلك التزم بالصمت. (جريدة براغر تاجبلات، ١٦ سبتمبر ١٨٩٩، صفحة ٧). شكك لاحقًا محكمون طبيون محايدون في مسألة "إفراغ الجسد من الدم". التزمت قضية (بولنا) في هذا السياق الطبي بالأنماط القديمة المتعارف عليها. في أكثر قضايا الموت الطقوسي إثارة للضجة في التاريخ الألماني (عثر في عام ١٨٩١ في مدينة كسانتن على طفل في الخامسة من عمره، مذبوح) تسبب طبيب في خلق أجواء تحريضية؛ إذ ادعى وجود دم بنسبة قليلة في جثة الطفل: دون الكشف بدقة على محل الجريمة، ودون الاستناد إلى وقائع. انتهت القضية بإصدار حكم البراءة.

١٧. كان (هوشيك) قد حُكم عليه في عام ١٨٩٣ بأربعة عشر يومًا من "السجن الشاق"، لأنه اتهم جزارًا يهوديًا بقصد دم مسيحي. طبعت جريدة (الألمانية) خطابه إلى (شنايدر)، الذي يدعي فيه كذبًا أن القاضي المسؤول في (بولنا) يهودي ويحاول حماية (هيلزنر). كان (هيلزنر) يجذب الأنظار إليه في سياق القضية بالصياح المتكرر.

١٨. نشأ حزب المنحاز لقانون الدولة (ستاتوسبرافني راديكالني سترانا)، المطالب بالسيادة التامة لبوهيميا، في ١٩ فبراير ١٨٩٩، بعد انفصاله عن حزب القوميين الأحرار (نارودني سترنا سفوبودو ميسلنا، "شباب التشيك"). كان من أحد رواده (كاريل باكسا، ١٨٦٣ـ١٩٣٨)، المعادي للسامية، والذي صار لاحقًا عمدة لمدينة براغ. انظر:

Otto Urban, Die tschechische Gesellschaft 1848-1918, Wien/Köln/Weimar 1994, S. 711ff.

١٩. انتشر مع نهاية الستينيات خبر في الصحافة التشيكية أن (يان هروزا) قد اعترف بقتل أخته. لم يجرِ التأكيد على هذه الإشاعة حتى اليوم.

٢٠. "بولينسكا فراشدا" (الجريمة في بولنا). انظر: تشاص (الزمن)، ٢٩ سبتمبر ١٨٩٩.

٢١. انظر المرجعين التاليين:

Jan Herben, 'T. K. Masaryk über Juden und Antisemitismus`, in: Ernst Rychnowsky (Hrsg.) , Masaryk und das Judentum, Prag 1931, S. 274-299, hier S. 274.
Karel Čapek, Gespräche mit Masaryk, Stuttgart/München 2001, S. 42f.

٢٢. حملت مقالة (مازاريك) الأولى عنوان (ضرورة مراجعة قضية بولنا، Nutnost Revidovati Process Polenský). تم مصادرة المطوية في الحال، وفرض العقوبة المالية عليها، ولكن انتشر مضمونها بواسطة حيلة في القضية: اعتراضًا على المصادرة تقدم الديمقراطيون الاجتماعيون بطلب استجواب لمجلس الرايخ في فيينا، واستشهدوا بالنص الكامل. انظرإلى الترجمة الألمانية:

Stenographische Protokoll der XVI. Session, 10. Sitzung, 9. November 1899.

نشرت في عام ١٩٠٠ مقالة (أهمية جريمة بولنا بالنسبة لخرافة القتل الطقوسي) باللغة التشيكية في براغ، وفي الوقت ذاته باللغة الألمانية في برلين.

٢٣. انظر مقالة (كراوس) عن قضية (هيلزنر) في:

Die Fackel, Heft 59, Mitte November 1900, S. 1-4.

وكذلك رده على رسائل القراء في:

Heft 61, Anfang Dezember 1990, S,23f.

كتب (كراوس) أنه يعتبر المطلب الصريح بعدم الإيمان بالموت الطقوسي مطلبًا عديم الفائدة، ويبعث على السخرية. كان قد اشتكى في العدد ٥٨ من المبالغة في التناول الإعلامي: "يا لها من رؤية: تصمت الصراعات القومية، وتنتهي التناقضات الاجتماعية، ولن يصير هناك تناقض إلا بين المؤيدين والمعارضين السياسيين للإيمان بالقتل الطقوسي." (صفحة ٥)

٢٤. انظر:

Čapek, Gespräche mit Masaryk, S. 177.

لم تهتم الجامعة بالدفاع عن (مازاريك)، بعد إزعاج محاضراته —إذ تجمع مئات المتظاهرين الذين توجه بعضهم إلى شقته. تخلى (مازاريك) عن إلقاء محاضراته في هذا الفصل الدراسي.

٢٥. ظل (ليوبولد هيلزنر) لمدة ١٩ عامًا في السجن، وعُفي عنه في عام ١٩١٨ في سياق إعفاء عام قام به القيصر (شارل الأول). لم يكن له بعد الإفراج أي مورد رزق، وعاش باسم آخر في فيينا، وأحيانًا في براغ، حيث حصل على دعم من الجالية اليهودية هناك. انظر:

Neue Freie Presse, Wien 12. Januar1928, S. 10.

شارك بالتمثيل في فيلم يتناول قدره. انظر:

Neue Freie Presse, 27. Mai 1921, S. 6.

رفض رئيس الدولة (مازاريك) استقباله. توفي (هيلزنر) عام ١٩٢٨، وقد وصل إلى عمر الثانية والخمسين.

٢٦. عن العلاقة التي ربطت بين (فيلي هاز) و(جارميلا أمبروزوفا)، التي انتحر زوجها، انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 366 ff.

نقل برود تعليق (دورا ديامنت) في:

Brod, Über Franz Kafka, S. 177.

تناولت قصة كافكا (التي يزعم أنه تخلص منها) "قضية بايليز"، والتي كانت قضية قتل طقسي أخرى وقعت في (كييف)، كانت أيضًا قضية مثيرة للضجة وقائمة على أدلة خاطئة، وانتهت في عام ١٩١٣ بإصدار حكم البراءة. كتب كافكا عن مسرحية تراجيدية للكاتب (أرنولد زفايج) حول قضية القتل الطقوسي التي وقعت أحداثها في عام ١٨٨٣ بمدينة (تيسلازار) بالمجر: "المشاهد الدنيوية... تبعث على حياة يحكمها القهر." إنه تعليق يوحي بأن تفاصيل هذه القضية، التي تعد الأكثر إثارة قبل قضية (بولنا)، قد شغلت كافكا. انظر: (خطاب إلى فيليس باور، ٢٨ أكتوبر ١٩١٦؛ B3 268 f.). حول بعض التأملات النظرية في عقيدة القتل الطقوسي في تدوينات كافكا انظر:

Benno Wagner, 'Kafkas Polná. Schreiben jenseits der Nation`, in: Marek Nekula/Walter Koschmal (Hrsg.) , Juden zwischen Deutschen und Tschechen. Sprachliche und kulturelle Identität in Böhmen 1800-1945, München 2006, S. 151-172.

٢٧. مفترض أن كافكا قد قال أمام (يانوش)، متذكرًا حصص التربية الدينية، ما يلي: "يتخذ تاريخ اليهود بذلك شكل الأسطورة، التي يلقي الشخص بها مع طفولته إلى قاع النسيان." انظر:

Gespräche mit Kafka, S. 131 f.

كتب ماكس برود في سيرته الذاتية كدت أن أكون تلميذًا نموذجيًا أن حصة الدين اليهودي في المدرسة الثانوية (شتيفان) لم تعط أي مساحة للتعليق اللاهوتي أو التاريخي على الفقرات المقروءة من العهد القديم، "بدا لنا ما كان يجب استيعابه من قراءات كأنه شيء عبثي". انظر:

Max Brod, Beinahe ein Vorzugsschüler, München/Berlin 1973, S. 312.

٢٨. انظر:

Nathan Grün, Der hohe Rabbi Löw, Prag 1885. Ders. , Sage und Geschichte. Aus der Vergangenheit der israelitischen Gemeinde in Prag, Prag 1888.

ألف (جرون) أيضًا كتابًا تعليميًا عن الدين الموسوي وتاريخ الإنجيل (براغ ١٨٨٩)، صدر في عام ١٩٠٢ باللغة التشيكية أيضًا.

٢٩. انظر:

Friedrich Torberg, Die Tante Jolesch oder der Untergang des Abendlandes in Anekdoten, München 2004, S. 37.

بخلاف ما يدعيه (توربرج) كان لشخص (جرون) هيئة الحاخام بالفعل. حصل على الدكتوراه وأدار مكتبة الجالية اليهودية في براغ، كما درس في مدرسة التلمود والتوراة. من المتوقع أن أسباب فشله تربوية وليست في مجال تخصصه. لا يتحدث (هوجو برجمان) عنه، أما (برونو كيش) فيتحدث عنه بشكل إيجابي. انظر:
Wanderungen und Wandlungen, S. 72f.

براءة ووقاحة

١. انظر:
Bašík, ´Als Lehrjunge in der Galanteriewarenhandlung Hermann Kafka`, S. 114-116.

٢. المذكرات، ١٠ أبريل ١٩٢٢ (T916)، يتحدث (برجمان) عن شرح كافكا لمصطلح "النفاس" له في مذكراته:
´Schulzeit und Studium`, S. 37f.

٣. انظر:
Hugo Hecht, ´Zwölf Jahre in der Schule mit Franz Kafka`, S. 37f.

٤. خطاب إلى إيلي هيرمان، بداية أغسطس ١٩٢١ (الخطابات ١٩٠٢-١٩٢٤، صفحة ٣٤١). كان اسم الصبي الثاني، المصاب بمرض الزهري، هو (أوسكار فلامرشاين).

٥. انظر قائمة المتروكات في:
Wagenbach, Franz Kafka. Biographie seiner Jugend, S. 261.

٦. ألقى (هوجو هيشت) في ٧ فبراير ١٩٠٥ محاضرة تابعة لاتحاد "القاعة للقراءة وإلقاء المحاضرات للطلاب الألمان في براغ"، تناولت المثلية الجنسية، وحضرها كافكا. التقى الاثنان بعدها بأيام قليلة في قاعة الاطلاع التابعة لاتحاد الطلاب، حيث هرب كافكا من الإجابة عن سؤال (هيشت) غير المتحفز بتغيير الموضوع. (بحسب مسودة غير منشورة كتبها هوجو هيشت). انظر:
Hartmut Binder, Kafkas Welt. Eine Lebenschronik in Bildern. Reinbek 1008, S. 56.

٧. يظهر بوضوح في صورة التقطت للفصل في العام الدراسي ١٨٩٧/١٨٩٨ أن نمو كافكا الخارق (إذ سيصل وهو شخص ناضج إلى طول ١٨٠ سنتيمترًا) لم يكن قد بدأ في هذا التوقيت بعد. كان أربعة زملاء معه في الصف أكثر طولًا منه.

٨. المذكرات، ٣١ ديسمبر ١٩١١/ ٢ يناير ١٩١٢ (T334f.).

٩. المذكرات، ٢٥ أكتوبر ١٩٢١ (T871).

١٠. لأفضل هذه المشاهد توثيقًا انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 453ff.

يعد كافكا خطيبته فيليس باور هنا بأنه سيتخلى عن بعض الطباع، ليكون أكثر لطفًا معها.

١١. المذكرات، ٢ يناير ١٩١٢ (T339).

١٢. المذكرات، ٢٤ يناير ١٩٢٢ (T889) – عن (ريلكه) انظر:

Peter Demetz, René Rilkes Prager Jahre, Düsseldorfer 1953, S. 193.

١٣. خطاب إلى الوالد (NSF2 202f.).

١٤. خطاب إلى الوالد (NSF2 203).

١٥. المذكرات، ٢٤ يناير ١٩٢٢ (T889).

الطريق إلى الحرية

١. خطاب إلى الوالد (NSF2)، انظر أيضًا:

Hecht, ´Franz Kafkas Tragödie`, zitiert nach: Binder, Kafkas Welt, S. 68.
Hecht, `Zwölf Jahre in der Schule mit Franz Kafka`, S. 32-43.

٢. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٠ـ١٦ يونيو ١٩١٣ (B2 209).

٣. المذكرات، ١٢ فبراير ١٩١٣ (T492f.).

٤. خطاب إلى (فيليكس فيلتش)، نحو٢٢ـ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ (B3 357)، انظر:

Anthony Northey, ´Franz Kafkas Selbstmörder`, in: Sudetenland 49 (2007) , S. 280f.
Pouzarová, `Als Erzieherin in der Familie Kafka`, S. 65.

٥. المذكرات، ٣١ ديسمبر ١٩١١ (T333)، انظر:

Bergmann, 'Schulzeit und Studium', in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam", S. 24 und 27.

٦. المذكرات، ١٧ ديسمبر ١٩١٣ (T616).

٧. انظر:

Hugo Bergmann [!], 'Erinnerungen an Franz Kafka', in: Universitas 21 (1972) , S. 739-750, hier S. 745.

٨. انظر: (B1 605f).

٩. خطاب إلى (إلزه برجمان)، ٩ فبراير ١٩١٦. (الأصل موجود في المتحف القومي اليهودي، القدس)، انظر:

Gershom Sholem, Von Berlin nach Jerusalem, Frankfurt am Main 1997, S. 129.

١٠. انظر:

.Bergmann, 'Schulzeit und Studium', S. 24

منعت لائحة السلوك ممارسة طلاب المرحلة لأي نشاط سياسي. مُنعت أيضًا الاتحادات الطلابية من تجنيد أعضاء جدد في المستقبل من خلال تعيين من يساعدهم إداريًا من المدارس. (في حالة كافكا كان اتحاد "الجامعات في البلدة القديمة"، صاحب الرأي، الذي تجاهل هذه القاعدة). لا نعرف إذا ما كان اعتراض كافكا وبرجمان موجهًا ضد النزعة القومية داخل "فقاعتهما"، أم ضد استغلالهما (سياسيًا).

١١. انظر:

Bergmann, 'Schulzeit und Studium', S. 24.

ورسالة إلى الوالد (NSF2 174).

١٢. ترجع هذه الأسطورة إلى رواية الصحفي التشيكي (ميشال ماريس، ١٨٩٣-١٩٧١)، وهو شخص تعرف إليه كافكا بشكل عابر. انظر:

Ders. , 'Kafka und die Anarchisten', in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam", S. 86-91.

يدعي (ماريس) أنه أدخل كافكا إلى (نادي الشباب، Klub mlad[illegible]ch)، وأنه تم القبض على كافكا لفترة وجيزة في أثناء فض الاعتصام. ليس لدينا ما يؤكد هذه

الادعاءات من طرف مستقل، ولكن العديد من التفاصيل التي يرويها (ماريس) ثبت عدم صحتها وتناقضها. انظر:

.Binder, Kafkas Welt, S. 602

Josef Čermák, Franz Kafka – Výmysly a Mystifikaze, Prag 2005, S. .51-55

لا يمكن من ناحية أخرى التغاضي عن أن المعلقين على حياة كافكا لم يتفهموا ميله نحو التوجهات المناهضة للشمولية؛ مما أدى إلى عدم تناول هذا الميل بالبحث مقارنة بمجالات اهتمام أخرى. قدم (كلاوس فاجنباخ) ملخصًا مبدئيًا عن الخلاف حول كافكا السياسي بمناسبة الإصدار الجديد لسيرته الحياتية لكافكا (برلين ٢٠٠٦، صفحة ٢٣٧ـ٢٤١).

١٣. الاستشهاد وإعادة الترجمة هنا من مذكرات الصحفي الهولندي (نيكو روست)، الذي كان في عام ١٩٢٣ شاهدًا على هذا اللقاء، انظر:

'Persoinlijke ontmoetingen met Franz Kafka en mjin Tsjechische vrienden`, in: De Vlaamse Gids 48 (1948) , Feb. , S. 75-97.

١٤. في ملحق الإصدار الثاني للخطابات كتب ماكس برود في عام ١٩٥٨: "خطابات كافكا إلى «بولاك» المنشورة هنا وجدتها في تركة (أوسكار بولاك)، حيث سمحت لي أرملة (بولاك) بدراستها. شطبت في الإصدار الأول للخطابات في عام ١٩٣٧ بعض الأمور الهامشية البسيطة، ولا يمكنني للأسف الآن إضافتها؛ لأن الخطابات قد فقدت في الأغلب في أثناء فترة احتلال براغ". انظر:

Franz Kafka, Briefe 1902-1924, Frankfurt am Main 1958, S. 496.

يشير (مارك م. أندرسون)، وهو محق في ذلك، إلى وجوب التعامل بسوء ظن دائم مع تدخلات برود في خطابات ومذكرات كافكا؛ حيث كان لهذه التدخلات توجه محدد، التخلص من تعليقات كافكا الكارهة لليهودية مثلًا. انظر:

Kafka´s Clothes. Ornament and Aestheticism in the Habsburg Fin de Siécle, Oxford 1992, S. 55, Anm. 5.

ليس من ناحية أخرى لتوقع (ساول فريدلاندر) بأن برود قد "أخفى أو تخلص من جزء من مراسلات" كافكا و(بولاك) أي أساس من الصحة، انظر:

Franz Kafka, München 2012, S. 22.

لا توجد في تركة برود أية مراسلات بين كافكا و(بولاك).

خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٢٧ يناير ١٩٠٤ (B1 36).

يكتب ماكس برود أن (بولاك) قد أظهر نوعًا من "الفظاظة والانغلاق".
Über Franz Kafka, S. 56.

اتهم كافكا نفسه صديقه بأنه يحمل داخله "ناقدًا شريرًا وملعونًا"، انظر (خطاب إلى أوسكار بولاك، حوالي ٢٤ أغسطس ١٩٠٢، Bl 13)

١٥. أنشئت رابطة محبي الفنان (دورير) في أكتوبر عام ١٩٠٢ في مدينة (دريسدن)، كما أنشئت في عام ١٩٠٤ مجموعة محلية في براغ. لدينا قائمة أعضاء ترجع إلى عام ١٩٠٥ وتسجل نحو ٣١٠٠ عضو، ثلثهم من المدرسين ورجال الدين، أي يعملون في المجال "التربوي" بمعناه الأشمل. يمكننا هنا استنتاج التأثير الواسع والضخم لمجلة (حارس الفن)، الذي تجاوز نجاحه المسجل بأرقام (عدد المشتركين في المجلة ٢٢٠٠٠) بمراحل. ظهر توجه مجلة (حارس الفن) نحو خط الإصلاح الحياتي بشكل واع وواثق بوضع عنوان فرعي لاسم المجلة: "مجلة نصف شهرية للثقافة التعبيرية في جميع مجالات الحياة"، انظر:
Birgit Kuhlhoff, Bürgerliche Selbstbehauptung im Spiegel der Kunst. Untersuchungen zur Kulturpublizistik der Rundschauzeitschriften im Kaiserreich (1871-1914) , Bochum 1990, Kap. 5. 2.

انظر خطاب إلى (أوسكار بولاك) في ٤ فبراير ١٩٠٢، والذي يتحدث كافكا في سياقه مرتين عن مجلة "حارس الفن" كأنها معروفة فيما بينهما: "حينما نتعامل مع أمور ليست مجرد أمورًا يومية، أو أمورًا تتناولها مجلة "حارس الفن"" (Bl 10).
– كتب كافكا في خريف ١٩٢٢ إلى (ليو باوم)، ابن (أوسكار باوم)، الذي كان آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، ويقيم في مدرسة (أودينفالد) في مدينة (هيبنهايم): "هل يدرس (بونوس) لك بالفعل؟ لقد قرأت له في مجلة "حارس الفن" بعض المقالات باحترام بالغ"، انظر (التأريخ بعام ١٩٢٠ ليس صحيحًا) :
Kafka, Briefe 1902-1924, S. 286f.

كان (أرتور بونوس، ١٨٦٤-١٩٤١) قسيسًا بروتستانتيًا وكاتبًا ومربيًا، كما كان رئيسًا لتحرير مجلة حارس الفن في الفترة من ١٩١٧ وإلى ١٩٢١. لا يجب أن نأخذ "الاحترام البالغ" لكافكا هنا بالمعنى الحرفي؛ ما كان له أن ينتقد مدرس الصبي، ولكن يبدو أن تمثيل (بونوس) "للمسيحية ذات الطابع الجرماني"، فضلًا عن أفكاره في مجال الإصلاح التربوي، لم تزعج كافكا. عزز خلو مجلة "حارس الفن" من أي تجاوزات معادية للسامية من حب كافكا للمجلة.

١٦. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، حوالي ١٢ أغسطس ١٩٠٢ (B1 12). كتب برود: "حينما تعرفت إلى كافكا كان على وشك تخطي مرحلة المبالغة الشديدة، إذ كان واقعًا تحت تأثير مجلة حارس الفن الناقدة، التي لم تحترم، بشكل انتقائي، إلا كبار الكُتَّاب، وغلبته النزعة الألمانية أحيانًا." انظر:

Streitbares Leben, S. 188.

١٧. النص النثري موجود في خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٢٠ ديسمبر ١٩٠٢ (B1 17-19)، يجري الحديث، في خطابين في شهر سبتمبر لعام ١٩٠٣، عن تسليم مسودات إلى (بولاك)، (B1 24-27).

١٨. قام كافكا لاحقًا بعمل اشتراك في مجلة (نوية روندشاو) أيضًا. نجد في قائمة بالمجلات والمطويات التي ظلت في تركة كافكا، ودونتها (إلزه برود) مع نهاية الثلاثينيات، ذكرًا لأعداد فردية (بداية من عام ١٩٠٦)، فضلًا عن مجموعة سنوية كاملة (١٩٢٢)، انظر:

Faksimile in Wagenbach, Franz Kafka, Biographie seiner Jugend, S. 262ff.

عرف كافكا في الأغلب هذه المجلة، السهلة في الحصول عليها، منذ مرحلة دراسته الثانوية.

نعرف من مذكرات (هوجو هيشت) أن كافكا قد شاهد مسرحيات في المسرح التشيكي (ولبس الأوبرا)، انظر:

'Zwölf Jahre in der Schule mit Franz Kafka`, S. 37.

لم يشارك كافكا (بحسب هيشت أيضًا) زملاءه في الدراسة حماسهم للموسيقار (فاجنر)، كما لا يوجد ما يثبت أن كافكا قد زار "مهرجان مايو"، الذي ذاع صيته خارج براغ أيضًا، وكان يستضيف أكثر المطربين شهرة في العالم.

١٩. صدرت المقالة المجمعة لناقد مجهول، والتي لم تذكر رواية كافكا "المسخ" إلا بعبارتين فقط، في:

Literarischer Jahresbericht des Dürerbundes. Zweiter Kriegsratgeber 1916-17, München 1917; wieder abgedruckt bei Jürgen Born (Hrsg.) , Franz Kafka. Kritik und Rezeption zu seinen Lebzeiten 1912-1924, Frankfurt am Main 1979, S. 75f.

كان كافكا يملك الإصدار السادس لكتاب الشعر الألماني لعام ١٩١٣، الذي طُبع بمئات الآلاف، كما نصح أخته إيلي بشرائه في خطاب في يوليو ١٩٢٢ (B5).

ليست صدفة بالتأكيد أن (أوسكار باوم) قد أهداه في عام ١٩١٨ كتاب القصيدة الدرامية الذي أصدره (فرديناند أفيناريوس). امتلك كافكا أيضًا الكتاب الترفيهي، الذي أصدره (أفيناريوس) خصيصًا لجنود الجبهة، وذلك على الرغم من معرفته المؤكدة للنقد المدمر الذي قاله (كارل كراوس)، انظر:

Die Fackel, H. 423-425, 5. Mai 1916, S. 20f.

٢٠. وصف (نيتشه) في بطاقة بريدية إلى (فرانز أوفربيك) مجلة حارس الفن بأنها "حثالة وفضيحة" (١٩ أبريل ١٨٨٨). حينما أعرب لاحقًا ناشر المجلة عن خيبة أمله بسبب إلغاء (نيتشه) لاشتراكه في المجلة، علل (نيتشه) ذلك بأن "رياح القومية الألمانية الملعونة" قد هبت داخل مجلة حارس الفن. لقد أثار استياءه بشكل خاص هجوم على الكاتب (هاينريش هاينة). (مسودة خطاب إلى فرديناند أفيناريوس، ٢٠ يوليو ١٨٨٨)، انظر:

Friedrich Nietzsche: Sämtliche Briefe. Kritische Studienausgabe in 8 Bänden, Bd. 8, München 1986, S. 297, 359.

ظل قراء جيل كافكا بلا معلومات عن هذا الصراع، لدرجة أن (أفيناريوس) قد ادعى في نعيه لوفاة (نيتشه) أنه شارك في تأسيس مجلة حارس الفن"بدعم طيب". انسحب (أفيناريوس) بذلك من أي تناول موضوعي، زاعمًا أن (نيتشه) لم يترك عقائدَ مُبررة، بل "مؤلفات فكرية"، انظر:

Ferdinand Avenarius, 'Zu Nietsches Tod', in: Kunstwart, 13. Jg. , H. 24 (September 1900) , S. 429-431.

٢١. (NSF1 8)، هذه الصفحة من الألبوم موجودة حتى اليوم؛ لأن (سلمى كون، اسمها بعد الزواج روبيتشيك) قد فصلت هذه الصفحة لاحقًا، وسلمتها إلى ماكس برود. يستشهد برود بتعليقاتها بهذا السياق، وذلك في تعليقه على اختياراته لخطابات كافكا. (S. 495f.).

٢٢. ارتبط الإحساس "بغالبية اليهود" لمجرد تخطي نسبة اليهود الموجودة في المكان النسب المعتادة (في ألمانيا نحو١٪، وفي برلين نحو٥٪). اشتكى الكاتب (تيودير فونتانة) في عام ١٨٨٢ في منطقة (نوردرناي) مثلًا من "وجوه اللصوص القبيحة والوقحة" لليهود، الذين "يتطفلون في كل مكان"؛ وذلك على الرغم من العدد الفائق الذي كان للنزلاء غير اليهود. (خطاب إلى أميلي فونتانة، ١٧ أغسطس ١٨٨٢)، انظر:
Werke, Schriften und Briefe, hrsg. von Walter Keitel und Helmuth Nürnberger, Teil 4, Band 3, München 1980, S. 200.

بدأت مسابح أخرى في منطقة بحر الشمال مع نهاية القرن بجذب النزلاء المعادين للسامية بالإعلان الصريح عن "خلوّهم من اليهود". عزفت الفرقة الموسيقية في منطقة (بوركوم) على سبيل المثال بعد كل حفل موسيقي، وعلى مدار عقود؛ "أغنية بوركوم" المشبوهة، التي شارك نزلاء المصحة في غنائها: "بوركوم، يا أجمل مدن بحر الشمال، فلتبقي خالية من اليهود، واتركي (روزنتال) و(ليفينسون) وحدهما في (نوردرناي)." فشلت المحاولات القضائية في منع وقوع هذا الطقس. ترتب على ذلك ارتفاع ملحوظ في نسبة النزلاء اليهود في منطقة (نوردرناي)، وذلك حتى نهاية العشرينيات؛ إذ أمنوا هناك من هذه المضايقات. للمزيد عن تاريخ المصحات "اليهودية" انظر:

Mirjam Triendl-Zadoff, Nächstes Jahr in Marienbad. Gegenwelten jüdischer Kulturen der Moderne. Göttingen 2007.

٢٣. انظر الوصف الذي يتناول التنظيم المبالغ والمتزمت في منطقة (نوردرناي) في:

Jules Huret, Berlin um Neunzehnhundert, München 1909 (Reprint: Berlin 1979) , S. 121ff.

حتى السباحة المشتركة للأزواج كانت ممنوعة.

٢٤. كان أوسكار كافكا هو ابن الأخ الأكبر لهيرمان كافكا، فيليب وزوجته كلارا، اللذين أقاما في (كولين)، وهي تقع غرب براغ بمسافة تبلغ ستين كيلومترًا، ليس لدينا دليل على لقاءات فرانز وأوسكار؛ ولكنها مرجحة. انظر:

Northey, 'Franz Kafkas Selbstmörder', S. 273.

فلتذهب الدراسات الجرمانية إلى الجحيم

١. المذكرات، ١٥ فبراير ١٩٢٠ (T854f.)، كان استخدام كافكا للأقواس المربعة نادرًا، إذ أضافها في وقت لاحق.

٢. ذلك بحسب التدوينة التي كتبها (زيجفريد لوفي) بخط يده في دفتر الضيوف في بتريون (فريزيا): إنها إشارة إلى أن القرار قد اتخذ قبل بداية الرحلة، ولم يأتِ على أثر الحديث مع الخال المهتم بالعلوم الطبيعية. انظر:

Brigitte und Helmut Heintel, 'Franz Kafka: 19091 allein auf Nordemey und Helgoland? ', in: Freibeuter, H. 17 (1983) , S. 21.

٣. انظر: (NSF2 195).

٤. نجد هذه الشهادة الدراسية مطبوعة في:

Wagenbach, Franz Kafka. Biographie seiner Jugend, S. 253f.

٥. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، حوالي ٢٤ أغسطس ١٩٠٢ (Bl 13f.). فُقد أصل هذا الخطاب، الذي كتبه كافكا إلى (بولاك) في أثناء إجازاته الصيفية، ووجده برود لدى أرملة (بولاك). حينما أدرجه برود في قائمة اختيارات الخطابات الأولى في عام ١٩٣٧، شطب فقرة احتوت -بحسب ذاكرته- على "هجوم عنيف" على شخص (زاور)، انظر:

Kafka, Briefe 1902-1924, S. 496.

ولكنه واضح أن العبارات الأخيرة قبل الفقرة المشطوبة، والتي ينسج كافكا فيها خياله حول "ضرورة معالجة" مشهد الدراسات الجرمانية، قد تعلقت بشخص (أوجوست زاور) أيضًا؛ لأن مصطلح "المشهد" كان يمثل أهمية محورية في تحليله لتاريخ الأدب. إن أضفنا الأسماء التي شطبها برود، يتكون سياق للعبارات على النحو التالي: "أريد أن أقص عليك هنا قصة عجيبة ومفيدة، عن كيفية تجاوز فرانز كافكا لشخص (فايلاند)، «المقصود البروفسور زاور»، بارك الله له. «فقرة» كان يطاردني أينما استلقيت أو وقفت. حينما كنت مستلقيًا عند سور (فاينبرج)، متوجهًا بنظري عبر الطبيعة أمامي، لأرى شيئًا جميلًا أو أسمع صوتًا قادمًا من الجبال، ينهض فجأة -كن متأكدًا من ذلك- من خلف السور شخص بصوت عالٍ، ويقول بجلالة "ماه ماه"، ويعبر بوقار عن رؤيته الصائبة، بأن هذا المشهد الجميل قطعًا بحاجة إلى المعالجة. يشرح تفصيليًا الخطة للقيام بدراسة متخصصة دقيقة، أو لإقامة مشهد جميل، وكانت حججه حاسمة بالفعل. لم أملك الاعتراض إلا بوجودي، ولم يكن ذلك كافيًا،" (Bl 14)

تلميذ آخر لاحق لـ (زاور) هو (يوزيف نادلر)، الذي كان يصغر كافكا بعام واحد، وأصدر في أعداد متتالية عمل:

Literaturgeschichte des deutschen Volkes. Dichtung und Schrifttum der deutschen Stämme und Landschaften (1912ff.)

عمم من خلال هذا العمل برنامج (زاور)، (كما أضاف بداية من الطبعة الرابعة مع عام ١٩٣٨ عناصرَ تعزز من العداء ضد السامية). مخترع "القومية الألمانية في منطقة السوديت"، (فرانز يسر) كان أيضًا تلميذًا للبروفسور (زاور)، وتولى من بعده رئاسة تحرير مجلة (العمل الألمانية)، مجلة شهرية عن الحياة الفكرية للألمان المقيمين في بوهيميا.

٦. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، حوالي ٢٤ أغسطس ١٩٠٢ (Bl 14).

٧. كان هذا متعمدًا على الصعيد السياسي، إذ جرى تجنب مصطلح "الانقسام" في القرارات الصادرة في فيينا بصرامة؛ وذلك لمنع الجانب التشيكي من إبداء متطلبات. جاء "القرار الأعلى" للقيصر يوم ١١ أبريل ١٨٨١ بصيغة ملتفة: "أوافق على إنشاء جامعة شارل-فرديناند في براغ، بحيث تتوفر الدراسة باللغتين الألمانية والبوهيمية، مع التزام الجامعتين باسم (شارلو فرديناند) ".

٨. نلاحظ هذا التوجه لدى دارس الجرمانيات، (أرنوشت فيلام كراوس)؛ الذي حصل على الدكتوراه من جامعة شارل فرديناند الألمانية في عام ١٨٨٣، وعلى الأستاذية في عام ١٨٩٨ من جامعة شارل فرديناند التشيكية، ليكون بذلك الند التشيكي للبروفسور (أوجوست زاور). تناول في معظم أبحاثه الموتيفات البوهيمية في الأدب الألماني، والموتيفات الألمانية في الأدب البوهيمي، كما تناول أيضًا بالبحث الأدباء الألمان المقيمين في بوهيميا، وكان (زاور) قد أبدى اهتمامًا لطيفًا بهذا الشأن. انظر:

Lenka Pokorná, 'Die Anfänge der tschechischen Germanistik', in: Hans Lemberg (Hrsg.) , Universitäten in nationaler Konkurrenz. Zur Geschichte der Prager Universitäten im 19. und 20. Jahrhundert, München 2003, S. 115-133.

٩. بعد قرار الجمعية القومية التشيكوسلوفاكية المؤقتة ليوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ صار مبنى (الكارولينوم)، وكذلك العديد من الأرشيفات، تحت ملكية التشيكيين. ظلت الجامعة قائمة، ولكن صار اسمها "الجامعة الألمانية في براغ".

١٠. انظر:

Pouzarová, 'Als Erzieherin in der Familie Kafka', S. 66.

يتحدث ماكس برود في مذكراته أنه كان يرتدي هذا الشريط "بفخر". انظر:
Streitbares Leben, S. 123.

١١. كان برونو كافكا حفيدًا لصامويل كافكا، وكان الأخير أخا جد فرانز كافكا (ياكوب). الأب الروحي لكافكا، صاحب مصنع الخمور الميسور أنجيلوس كافكا، كان عمًا لبرونو. موريتس كافكا، من أكثر محامي براغ شهرة، الذي دافع عن هيرمان كافكا في بعض الأحيان، كان والد برونو، وعضوًا في اتحاد "القاعة" في أثناء مرحلة الدراسة. معلومة أن فرانز وبرونو لم يكن بينهما أي اتصال تنسب إلى ماكس برود. (Streitbares Leben, S. 157) التواصل في المجال الوظيفي لاحقًا أمر وارد؛ لأن برونو قد ترأس في أثناء الحرب العالمية الأولى في براغ مكتب

الرعاية في أثناء الحرب. وصل بخلاف ذلك إلى درجة أستاذ في الحقوق، ثم عميدًا ورئيسًا لجامعة براغ الألمانية. انعكس نشاط برونو كافكا السياسي بعد ١٩١٨ في كونه أهم ممثلي الأقلية المتحدثة باللغة الألمانية. جاء موته المبكر على أثر مرض بالسرطان.

١٢. أكد (هوجو هيشت) على استخدام كافكا "المكتب" لمكتبة القاعة. انظر:
'Zwölf Jahre in der Schule mit Franz Kafka`, S. 43.

أما ماكس برود فيدعي في سيرته الذاتية، على نحو مفاجئ، أن كافكا لم يهتم تقريبًا بهذه المكتبة. انظر:

Streitbares Leben, S. 159.

أثبت (هارتموت بيندر)، في أكثر الدراسات دقة حتى الآن، عن عضوية كافكا في اتحاد "قاعة القراءة وإلقاء المحاضرات" أن ذكريات برود عن هذه السنوات لا يمكن الاعتماد عليها مطلقًا. انظر:

„'Nachdem der Handschlag auf deutsche Gesinnung geleistet worden..." Kafka in der „Lese- und Redehalle"', in: Else-Laske-Schüler-Jahrbuch zur klassischen Moderne, 2 (2003) , S. 160-207.

نجد في مرفق هذه المقالة قائمة بسبع وأربعين جلسة وفعالية أقامها "قسم الأدب والفن" في فترة دراسة كافكا. تعد أهم المصادر التقارير السنوية لاتحاد "قاعة القراءة وإلقاء المحاضرات" للطلاب الألمان في براغ، وكذلك محاضر قسم الأدب، التي بقيت في أرشيف جامعة براغ.

١٣. ألقى طالب الحقوق (جورج بيك) في ١٩ يناير لعام ١٩٠٢ محاضرة عن "الدراما الخرافية للكاتب (جيرهارد هاوبتمان) "، ويبدو أن مناقشة ساخنة قد تبعت هذه المحاضرة. نقرأ في المحضر: "يبادر كافكا بهجوم شخصي..."، كانت عبارة محذوفة في البداية، ثم أعيدت كتابتها. يصعب تصديق أن كافكا ظهر بهذا السلوك الهجومي بعد شهور قليلة من انضمامه إلى اتحاد "القاعة". لدينا بالفعل الدليل على أن المقصود هو ربما برونو كافكا: لدينا من ناحية توثيقات تفيد حضور أصدقاء من أعضاء مجلس إدارة اتحاد "القاعة" محاضرات أخرى لـ (جورج بيك)، كما أثبت كافكا نفسه أنه لم يعرف مطلقًا عمل (هاوبتمان) الجرس الغارق؛ الذي تناولته المحاضرة، انظر (خطاب إلى ماكس برود، ٢٠ يناير ١٩١٨، B4 23).

١٤. بطاقة بريدية إلى باول كيش، ١١ مارس ١٩٠٣ (B1 24)

١٥. خطاب إلى فيليس باور، ١١ و١٢ فبراير ١٩١٣ (B2 87). أخذ كافكا في الأغلب دروس الرسم لدى "الرسامة السيئة" بعد مرحلة الدراسة. يقول (جوستاف يانوخ) أن كافكا قد عبر أكثر من مرة قبل وفاته بسنوات قليلة عن رغبته في الرسم بشكل أفضل. يبدو ذلك منطقيًا؛ على الرغم من عدم مصداقية (يانوخ) في كل الأحوال.

١٦. ألقى (إميل أورليك) مع نهاية ديسمبر ١٩٠١ في قاعة المرايا بالبيت الألماني محاضرتين، بيعت جميع تذاكرهما بالكامل، ودارتا حول الحياة والفن في اليابان؛ إذ كان عائدًا لتوه من هناك بعد إقامة دامت لمدة عام. شهد مبنى (روديلفينوم) في نوفمبر ١٩٠٢ معرضًا لأعمال (أورليك) برسومات هندية وخشبيات ملونة. اشترت هيئة المنقوشات النحاسية في براغ العديد من المعروضات.

١٧. انظر:

Emil Orlik, ´Aus einem Briefe [Tokio, Juni 1900]`, in: Deutsche Arbeit, 2. Jg. , H. 1 (Oktober 1902) , S. 62.

١٨. انظر:

.Brod, Streitbares Leben, S. 159

الصديق ماكس

١. صدرت الأعداد الأربعة الأولى "للأعمال المجمعة"، والتي شارك فيها الفيلولوجي الشاب، (هاينز بوليتسار) بجزء كبير في عام ١٩٣٥، في دار نشر (شوكن) في برلين. كان رد فعل غرفة الكتابات في الرايخ الألماني في شهر أكتوبر من العام ذاته هو وضع كامل أعمال كافكا على "القائمة الأولى للكتابات الضارة وغير المرغوب فيها". صدر لذلك العددان الباقيان بشكل رسمي في عام ١٩٣٧ في دار نشر (هاينريش ميرسي) ببراغ، في الوقت ذاته مع كتاب ماكس برود:

Franz Kafka. Eine Biographie (Erinnerungen und Dokumente).

٢. انظر:

Ludwig Hardt, ´Verkümmerndes und erwachendes Judentum. Zu Max Brods Kafka-Biographie`, in: Jüdische Rundschau, 4. März 1938, S. 5.

حول أهمية (لودفيج هارد) بالنسبة لكافكا انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 438ff.

٣. الإصدار الأول كان في:
Walter Benjamin, Briefe, hrsg. von Gershom Sholem und Theodor W. Adorno, Bd. 2, Frankfurt am Main 1966, S. 756-760.

حكم (شوليم) على لغة (بنيامين) في المقالة بأنها "تصيب هذه القاذورات بدقة"، انظر:
Brief an Walter Benjamin, 6. -8. November 1938, in: Walter Benjamin/Gershom Sholem, Briefwechsel 1933-1940, hrsg. von Gershom Sholem, Frankfurt am Main 1980, S. 286).

٤. انظر:

Pawel, Das Leben Franz Kafkas, S. 132.

٥. هؤلاء الرسامون هم مجموعة "الثمانية" الشابة من الألمان والتشيكيين، انظر:
Friedrich Feigl, 'Kafka und die Kunst', in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam", S. 147.

أشاد برود بهذه المجموعة، التي انتمى إليها (ماكس هورب) أيضًا، وذلك في مقالته "الربيع في براغ"، التي صدرت في ١٨ مايو ١٩٠٧ في مجلة الحاضر في برلين. يستشهد برود بمقاطع كبيرة منها في مذكراته:
Der Prager Kreis, Frankfurt am Main 1979, S. 60-65.

٦. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 9.

٧. انظر:

Die Fackel, H. 98 (27. März 1902) , S. 13.

٨. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 160.

٩. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 119.

١٠. ماكس برود إلى (ريشارد ديمل)، ٢ يونيو ١٩١٣.

١١. (أرتور شنيتسلر) إلى (أولجا شنيتسلر)، ١ نوفمبر ١٩١١، في:
Arthur Schnitzler, Briefe 1875-1912, hrsg. von Therese Nickl und Heinrich Schnitzel, Frankfurt am Main 1981, S. 682.

علق (شنيتسلر) بأسلوب مشابه على عمل مسرحي لم يعرض بعد، وأرسله إليه برود في وقت قريب إلى فينا: "قرأت عمل برود "وداع الشباب"؛ الذي أرسله إلي كاتبه. لا يخلو من الموهبة، ولكنه في جوهره سطحي، وخاوٍ، ومتكلف"، انظر:

Arthur Schnitzler, Tagebucheintrag vom 28. Dezember 1911, in: ders. Tagebuch 1909-1912, hrsg. von Werner Weltzig, Wien 1981, S. 292.

١٢. انظر:

Max Brod, Das große Wagnis, Wien/Leipzig 1918, S. 30.

١٣. ما يميز ذلك أيضًا النزاع الذي جرى بين برود والمعجب بالكاتب (كراوس)، (ليوبولد ليجلر)، انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 400 ff.

١٤. انظر:

Brod, Der Prager Kreis, S. 109; ebd. S. 85:

"كما هو واضح، فأنا لست قليل الشأن، كما يشاع عني لدرجة تثير الاشمئزاز."
كثيرًا ما نجد في شهادات برود في سيره الذاتية معلومات غير دقيقة وثغرات في ذكرياته، وكان الهدف منها في مجموعها زيادة أهمية دور برود من ناحية، وتقليل أهمية أدوار الآخرين المنافسين له من ناحية أخرى: مثال على ذلك تقديمه لنفسه بوصفه المثل الأعلى الوحيد للكاتب (فيرفل) ومكتشفه، وهو أمر غير صحيح من منظور تاريخ الأدب. يمكن أيضًا إثبات تغييرات متعمدة، قام بها بهدف مصالحه الخاصة، وتدخلات قام بها في مذكرات كافكا. انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 612, Anm. 7.

حرص برود أيضًا على تصحيح لاحق لمعلومات تخص علاقته بفلسطين وإسرائيل؛ حيث قضى هناك العقود الثلاثة الأخيرة من عمره. كتب في مقالة نقد مسرحية في عام ١٩٢٢ أنه "ضد فكرة إنقاذ اليهود من خلال مشروع فلسطين دون سواه". نجد هذه الفقرة كاملة في عدد (سماء النجوم، تجارب في الموسيقى والمسرح) الذي صدر في عام ١٩٢٣ (صفحة ٢١٨)، أما في الطبعة الجديدة لعام ١٩٦٦ قام برود بشطبها. استعان برود بوسائل أكثر قوة في محاولاته التعتيم على خططه للهجرة إلى الولايات المتحدة. كتب في عمله حياة مليئة بالمعارك: "حينما زاد خطر الهتلرية، وارتبط بقائي في براغ بالعذاب والموت، تولى (توماس مان) أمري دون أن أطلب منه ذلك. ترتبت الأقدار بفضل تدخل (مان)، فحصلت على وظيفة أستاذ في جامعة أمريكية. فضلت الالتزام بالجانب العبقري في حياتي، وذهبت إلى فلسطين." (صفحة ٢٥٤، وما بعدها). طلب برود في واقع الأمر في يوم ٣٠ نوفمبر لعام ١٩٣٨، من (توماس مان) مساعدته بشكل ضروري

للحصـول على دعوة من جامعة أمريكية؛ لأنه "مصر على الهجرة إلى أمريكا، ما دام الوقت يسمح." الخطاب مطبوع كاملًا في كتالوج المعروضات:

Prager deutsche Literatur vom Expressionismus bis zu Exil und Verfolgung, hrsg. von Ernest Wichner und Herbert Wiesner, Berlin 1995, S. 187ff.

كللت محاولات (توماس مان) بالفعل بالنجاح، وحصل برود على وظيفة في الجامعة اليهودية بولاية (سينسيناتي)؛ ولكن لم يصله هذا الخبر قبل مغادرته لبراغ في ١٤ مارس لعام ١٩٣٩. نتوقع من ترتيب الأحداث أن خطط برود المتعلقة بالسفر إلى الولايات المتحدة (وليست العوائق البيروقراطية التي يصفها في سيرته الذاتية) هي السبب الرئيسي لبقائه حتى آخر لحظة في براغ.

١٥. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 29.

١٦. يبدو أن العلاج الطويل في المستشفى كان إجراءً وقائيًا للعلاج السريع لمشكلات التنفس التي قد تنتج عن ارتداء المقوام. جلب اختراع المقوام الطبي لصاحبه (هيسينج) الاعتراف به في دوائر الطب التقليدي. أوصى على سبيل المثال (ألبيرت هوفا) في عام ١٨٩١ في كتابه التعليمي عن الجراحة في الطب الطبيعي، أي بعد علاج برود الأول بالمقوام، باستخدامه. ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة.

١٧. انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 101ff.

١٨. فيما يتعلق بـ (ماكس بويمل) انظر:

Brod, Der Prager Kreis, S. 28 u. 147ff.

١٩. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 62.

٢٠. انظر:

Max Brod, Zauberreich der Liebe, Berlin/Wien/Leipzig 1928, S. 75f und 68. Max Brod, Tagebuch, 3. Oktober 1909. Vgl. Günther Birkenfeld, 'Max Brods neuer Roman`, in: Jüdische Rundschau, 18. Dezember 1928, S. 705.

دوَّن ماكس برود في مسودة لمذكراته: "توفي (بويمل) في ٣/ ٤ أبريل ١٩٠٨، حديث مع كافكا إذًا عن الصداقة." – حصل (أوسكار بولاك) في خريف عام ١٩٠٣ على وظيفة مدرس منزلي في قصر (أوبرشتودينيتس) بالقرب من (زديريتس، شديراتش

ناد دوبرافو)، الذي يقع على مسافة مائة كيلومتر في جنوب شرق براغ. توجه آخر خطاب موجود لدينا، في الأغلب مع بداية عام ١٩٠٤، من كافكا إلى (بولاك) إلى هذا العنوان (B1 37). لا نعرف توقيت عودة (بولاك) إلى براغ، حيث حصل هناك على درجة الدكتوراه في تاريخ الفن، كما لا نعرف شيئًا عن لقائه بكافكا لاحقًا هناك.

٢١. كتب برود في سيرته الذاتية عن كافكا: "توفي صديقي في مرحلة الشباب (ماكس بويمل) في عام ١٩٠٨، تعمقت منذ ذلك الحين علاقتي بفرانز." (صفحة ٦١). حينما كتب (كلاوس فاجنباخ) في سيرته الحياتية عن كافكا عبارة بالمضمون نفسه ("ربطت صداقة منذ عام ١٩٠٨ بين كافكا وصديقه الوفي ومستشاره ماكس برود.")، اعترض حينها برود (كما استشهد بعبارات خاطئة لفاجنباخ في كتابه حياة مليئة بالمعارك في صفحة ١٧٦ وما بعدها). بحسب ما قاله (أوسكار باوم) فإن كافكا لم يشارك في اللقاءات اليومية مع (بويمل)، انظر:
Brod, Prager Kreis, S. 148f.

نعرف من كافكا نفسه أنه كان يقضي العديد من أيام إجازته في (بريبرام)، (انظر: خطاب إلى ماكس برود، في الأغلب عام ١٩٠٤؛B1 42)، فضلًا عن أن مراسلات أخرى، في السنوات التي سبقت عام ١٩٠٨، لا تتماشى مع ادعاءات برود أنه كان يرى كافكا في هذا الوقت يوميًا.

إغواءات

١. خطاب إلى (باول كيش)، ١١ مارس ١٩٠٣ (B1 23).

٢. خطاب إلى (ميلانا يسانسكا)، ٨/٩ أغسطس ١٩٢٠ (B4 294)، يكتب كافكا هنا، بحسب الاستخدام اللغوي المعتاد في هذه الفترة، عن "فتاة"، مما لا يعني بالقطع أنها كانت أصغر منه عمرًا.

٣. انظر:
Emil Utiz: ´Acht Jahre auf dem Altstädter Gymnasium`, in: Koch, „Als Kafka mit entgegenkam... ", S. 50.

٤. اقتبس (فرويد) من صديقه المقرب (فيلهيلم فليس)، مفهوم ازدواجية الميول الجنسية؛ هذه الفكرة، التي بدت له في مفهوم (فليس) فكرة بيولوجية مبالغًا فيها،

لم ينجح في إدماجها في نظريته عن التحليل النفسي بشكل مقنع، وهو أمر أسف له بشكل صريح، انظر:

Sigmund Freund, Das Unbehagen in der Kultur, in: ders. , Studienausgabe, Bd. IX, Frankfurt am Main 1997, S. 235, Anm. 2)

حدث خلاف بين (فليس) و(فرويد) بعد صدور عمل (فاينينجر)" إذ عرف (فليس) أن (فاينينجر) قد زار صديقه (فرويد) قبل نشر عمله، وظن أن (فرويد) قد أعطى فكرة الازدواجية العامة للميول الجنسية لـ (فاينينجر) لاستخدامها في سياق آخر. حاول (فرويد) تهدئة صديقه بقوله إنه ما من شخص ليأخذ "عمل" (فاينينجر) مأخذ الجد، ولكن دون فائدة. انظر:

Sigmund Freund, Brief an Wilhelm Fliess. 1887-1904, hrsg. von Jeffrey Moussaieff Masson, Frankfurt am Main 1986, S. 504ff. , insb. S. 513.

٥. انظر:

Otto Weininger, Taschenbuch und Briefe an einen Freund, Leipzig/Wien 1921, S. 66.

٦. يتحدث (ليوبولد فاينينجر)، وهو والد (أوتو)، في مقالة في مجلة (الشعلة) أن ابنه كان يصطحب أمه وأخته إلى "حفلات رقص صغيرة"، وأن ذلك كان يسبب له مع الوقت حرجًا، انظر:

November 1904, H. 169, S. 12f.

ظهرت في مجلة (الشعلة) أيضًا في عام ١٩٢٣ قصيدة لـ (فاينينجر)، الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، والتي يتحدث فيها عن زيارته لعاهرة وعذاب تأنيب ضميره الذي يصحب هذه الزيارة، انظر:

H. 613-621, S. 158.

٧. انظر:

Die Fackel, H. 229 (2. Juli 1907) , S. 14.

٨. "إن نظرت إلى مشكلة اليهود من وجهة نظر إحصائية، فربما أقول إنني قرأت طوال حياتي ليهوديين أو ثلاثة أعتبرهم من العباقرة: (فاينينجر)، و(إلزه لاسكر-شولر)، و(مومبرت). أرى أن الأسماء التالية تعد من مواهب الدرجة الأولى: (شتيرنهايم)، و(ليبرمان)، و(كبر)، و(هوفمانزتال)، و(كافكا)، و(دوبلين)، و(كارل أينشتاين)، فضلًا عن (شونبرج)..."، انظر:

Gottfried Benn, Doppelleben, in: Prosa und Autobiographie in der Fassung der Erstdrucke, hrsg. von Bruno Hillebrand, Frankfurt am Main 1984, S. 397f.

كان (هايمتو فون دودارار) هو آخر كاتب هام قد اهتم بـ (فاينينجر) بوصفه فيلسوفًا اهتمامًا جادًا، ولكن صدرت "كلمته عن (أوتو فاينينجر)" (في عام ١٩٦٣) بعد وفاته. انظر:

Jaques Le Rider, Der Fall Otto Weininger. Wurzeln des Antifeminismus und Antisemitismus. Mit der Erstveröffentlichung der Rede auf Otto Weininger von Heimito von Doderer, überarb. u. erw. dt. Ausgabe, Wien/München 1985.

٩. كتب كافكا مع بداية عام ١٩٢١ إلى (أوسكار باوم): "لم أسمع عنك شيئًا تقريبًا، قرأت فقط عن محاضرتك عن (فاينينجر)، (أليس هناك مسودة متاحة، أو تصحيح لهذه المقالة؟)" (الخطابات ١٩٠٢-١٩٢٤، صفحة ٣٢٠). تشير صياغة كافكا إلى أنه قد سأل عن هذه المحاضرة (غير الموجودة) من قبل.

١٠. مذكرات الرحلة، سبتمبر ١٩١١ (T982).

١١. لتحليل فيلولوجي دقيق لعمل كافكا على شخصياته النسائية، خاصة على خلفية أنماط (فاينينجر) انظر:

Reiner Stach, Kafkas erotischer Mythos. Eine ästhetische Konstruktion des Weiblichen. Frankfurt am Main 1987.

١٢. خطاب إلى فيليس باور، ١٨ مايو ١٩١٣ (B2 191).

١٣. بطاقة إلى ماكس برود، ٢٣ أغسطس ١٩٠٥ (B1 43)؛ خطاب إلى (ماكس برود)، ١٢-١٤ يوليو ١٩١٦ (B3 173). انظر أيضًا تدوينة في المذكرات، ٢٤ يناير ١٩١٥: "لم أنل حلاوة العلاقة مع امرأة أحبها، مثلما حدث مع ف. في (زوكمانتل) و(ريفا)، إلا في الخطابات فقط." (T915)

١٤. انظر:

Binder, Kafkas Welt, S. 112-114، و(B1 47, 415)

١٥. خطاب إلى ماكس برود، منتصف أغسطس ١٩٠٧، (B1 53). نجد مصطلح "الإتيكيت في الأحاديث الجنسية"؛ الذي وصفه كافكا بأنه "مصطلح ملعون"، في تدوينة في المذكرات، ١٠ أبريل ١٩٢٢ (T915).

١٦. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، ٢٩ أغسطس ١٩٠٧، (B1 57).

١٧. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، نهاية أكتوبر ١٩٠٧، (B1 78).

١٨. لمزيد من التفاصيل عن (هيدفيج تيريز فايلر، ١٨٨٨ـ١٩٥٣) انظر:
Hannelore Rodlauer, ´Hedwig Weiler. Franz Kafkas Ferienfreundin`, in: Freibeuter, H. 71 (1997) , S. 3-11.

لمعلومات عن محاضرات الدراسات الجرمانية التي زارتها (هيدفيج فايلر) انظر:
Hartmut Binder, Kafkas Wien. Porträt einer schwierigen Beziehung. Furth im Wald 2013.

تزوجت (هيدفيج فايلر) في أكتوبر ١٩١٧ المهندس والصهيوني اليميني (ليوبولد هيرسكا). نجد اسم "هيرسكا" على الصفحة الأخيرة من دفتر كافكا " "C (NSF1 App 82)، ولكن يبدو أنه يقصد هنا ناشر المؤلفات الموسيقية (إميل هيرسكا)، المقيم في فيينا، والذي كان قد تعاقد مع (Leoš Janáček)، وهو تلميذ برود.

دوائر مُطَّلِعة: (أوتيتس)، و(فيلتش)، و(فانتا)، و(برجمان)

١. خطاب إلى الوالد (NSF2 197f).

٢. يسرد (جوستاف يانوخ) دون تقديم أي دليل. يدعي أن كافكا لم يتشاور مع شخص حول خططه للسفر إلى ميونيخ، سوى والدته. كتبت بعدها إلى أخيها (زيجفريد)، طبيب الأرياف في (تريش)، وبعد حوار دار بين كافكا وخاله، أعرب الأخير عن استعداده لتمويل الرحلة الاستكشافية إلى ميونيخ. انظر:
Franz Kafka und seine Welt, Wien 1965, S. 64.

٣. بطاقة إلى (باول كيش)، ٢٦ نوفمبر ١٩٠٣ (B1 31). كتب إلى المرسل إليه نفسه، بعد مرور أربعة أيام: "يجب عليَّ كتابة خمسين بطاقة أخرى." (B1 32). يبدو أنه أرسل إلى (أوسكار بولاك) مجرد بطاقة، وليس خطاب، على عكس وعده له. انظر (خطاب إلى أوسكار بولاك، ٢٠ ديسمبر ١٩٠٣، B1 33).

٤. أرسل كافكا بطاقة بريدية مصورة إلى (كيش) لمطعم "ديشتلاي"، ومطعم "الحكام الأحد عشر". (فاكسيمل، B1 403f).

٥. خطاب إلى (جوتفريد كولفل)، ٣ يناير ١٩١٧ (B3 283). حتى إن كافكا خطط مع نهاية ١٩١٩ لقضاء ثلاثة أشهر مع (جولي فوريسيك)، مما يؤكد أنه لم يشعر

"بوحشة" المدينة نفسها، بل بسوء ملابسات الزيارة الأولى. (خطاب إلى كيتة نيتيل، ٢٤ نوفمبر ١٩١٩، B4 93).

٦. "شكله مرعب"، هذا ما كتبه كافكا في مذكراته (٢ يونيو ١٩١٢، T424). صار (باول كيش) صحفيًا، وعمل ضمن وظائف أخرى، في الجريدة اليومية (بوهيميا) في براغ، مثل أخيه (إيجون إرفين). حصل على درجة الدكتوراه تحت إشراف (زاور) برسالة عنوانها:

Hebbel und die Tschechen. Das Gedicht „An seine Majestät, König Wilhelm der I. von Preussen": Seine Entstehung und Geschichte, Prag 1913, Reprint Hildesheim 1973.

كانت سمعة هذه القصيدة سيئة، لأن (هيبل) وصف التشيكيين والبولنديين بأنهم "شعب الخدم". في رسالة (كيش)، التي تستحسن فلتات (هيبل) بالطبع، نجد توثيقًا مفصلًا لرد فعل الرأي العام التشيكي. قُتل (باول كيش) في معسكر (أوشفيتس) في خريف عام ١٩٤٤.

٧. خطاب إلى ماكس برود، قبل ٢٨ أغسطس ١٩٠٤ (B1 37ff.).

٨. ليس لدينا الخطاب الخاص بذلك، ولكن يرد ذكره في مذكرات كافكا (٢٣ مايو ١٩١٢، T422).

٩. انظر:

Hugo von Hofmannsthal, 'Ein Brief', in: Der Tag, Berlin, 18. und 19. Oktober 1902.

١٠. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٨ نوفمبر ١٩٠٣، (B1 29).

١١. نُشرت مذكرات (برتا فانتا) مرة وحيدة في صيغة مختصرة ومنقحة من قبل زوجها، وذلك مع مصدر لا يقل أهمية، وهو "تاريخ العائلة" لابنتها (إلزه). انظر:

Georg Gimpl (Hrsg.), Weil der Boden selbst hier brennt... Aus dem Prager Salon der Berta Fanta (1865-1918), Furth im Wald 2001, S. 45-175, 199-266.

١٢. خطابات إلى (باول كيش)، ٤ و٧ فبراير ١٩٠٣ (B1 21f).

١٣. كان (إرنست هورنيفر، ١٨٧١-١٩٥٤) لفترة طويلة موظفًا في أرشيف (نيتشه). فشل تنفيذ اقتراحه بعمل قائمة فيلولوجية دقيقة أولًا بكل تركة (نيتشه)، بسبب (إليزابيت فورستر-نيتشه)، التي سعت إلى الاهتمام الاعلامي بأي ثمن. تؤكد تدوينة

ل (برتا فانتا) في مذكراتها، في يوم ٢٦ يناير ١٩٠٣، أنه حضر لقاءً واحدًا على الأقل في صالونها. انظر:

Gimpl, Weil der Boden selbst hier brennt... , S. 155f.

١٤. نشر (إميل أوتيتس) في عام ١٩٠٢ تحت اسم مستعار (إرنست ليمبه) جزء قلعتي، أما جزء حول آخر ألغاز الحياة، سيمفونية شعرية في ثلاثة فصول، فكان باسمه الحقيقي.

١٥. يمكن طرح الفكرة نفسها بخصوص التحليل النفسي؛ الذي لم يكن له أسماء شهيرة تمثله في براغ. قام علم النفس الخاص بـ (برنتانو) على ادعاء أن العمليات النفسية لا تنشأ بدون الوعي، وهو أمر مناقض تمامًا لعلم "فرويد" الذي يتناول ما بعد النفس بتعرضه للاوعي، ومع ذلك يبدو أن لا أنصار (برنتانو) في براغ، ولا ضيوف صالون (فانتا) قد تعرضوا للتحليل النفسي بتفاصيله، مما كان له تأثير على مستوى معرفة كافكا أيضًا.

١٦. تم تدريس "المدخل الفلسفي" في آخر عامين دراسيين للمرحلة الثانوية. كان هنا (إميل جشفيند) هو مدرس (كافكا). حصل كافكا في هذه المادة في مرحلة الماتورا على درجة "جدير بالتقدير". سمع كافكا في الفصل الدراسي الأول محاضرات "الفلسفة العملية" لدى (إرنفيلز)، وفي الفصل الدراسي الثاني "القضايا الأساسية لعلم النفسي الوصفي" لدى (مارتي).

١٧. المذكرات، ٣ يناير ١٩١٢ (T341).

١٨. (NSF1 9-11)، يقصد كافكا هنا الجزء الأول من مقالة برود "عن علم الجمال"، في: مجلة الحاضر، برلين، ١٧ فبراير ١٩٠٦ (ظهر الجزء الثاني في العدد التالي بعدها بأسبوع)، انظر:

Manfred Engel/Bernd Auerochs (Hrsg.) , Kafka-Handbuch. Leben-Werk-Wirkung, Stuttgart 2010, S. 137f.

١٩. انظر:

Theodor Lipps, Grundtatsachen des Seelenlebens, Bonn 1883, S. 409.

حصل (أميل أوتيتس) على درجة الأستاذية بدراسة موضوعها مشابه، انظر:

Die Funktionsfreuden im ästhetischen Verhalten. Halle 1911.

٢٠. انظر المرجع؛ الذي شمل الإصدار الأول لعمل كافكا الفلسفي غير المكتمل:

Max Brod, 'Ungedrucktes von Kafka`, in: Die Zeit, 22. Oktober 1965. Brod, Streitbares Leben, S. 168f.

عن تأثير (برنتانو) المزعوم على كافكا انظر المرجعين التاليين:

Arnold Heidsieck, The intellectual contexts of Kafka´s fiction: Philosophy, law, religion, Columbia SC (Candem House) 1994, insb. S. 32-64.
Peter Neesen, Vom Louvrezirkel zum Prozess. Franz Kafka und die Psychologie Franz Brentanos, Göppingen 1972, insb. S. 157-194.

٢١. انظر:

Gerhard Kowalewski, Bestand und Wandel. Meine Lebenserinnerungen, zugleich ein Beitrag zur neueren Geschichte der Mathematik, München 1950, S. 243f.

عن اهتمامات (إرنفيلز) المتنوعة انظر:

Reinhard Fabian (Hrsg.) , Christian von Ehrenfels. Leben und Werk, Amsterdam 1986.

٢٢. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 209.

٢٣. ماكس برود، المذكرات، ٣٠ يناير ١٩١١. جدير بالملاحظة أن برود لم يذكر "حلقة نقاش اللوفر" في سيرته الحياتية عن كافكا بكلمة واحدة. أما في سيرته الذاتية حياة مليئة بالمعارك فيتعرض للصراع مع أنصار (برنتانو) بكل تفاصيله (صفحة ١٦٧-١٧٧)؛ حيث يصمت عن دور صديقه (برجمان) بالطبع، ويركز بدلًا من ذلك على استغلالية (أوتبتس). من الواضح أن "المحكمة" في مقهى اللوفر قد مثلت نقطة محورية في سيرة حياة برود الكامنة.

٢٤. "كم اعتبر الجميع (برجمان) شخصية أخلاقية وعميقة، حتى كافكا، يرون الآن أنهم قد تجنوا عليّ!" (برود، المذكرات، ٣٠ يناير ١٩١١). كان كافكا يعرف (برجمان) منذ الطفولة، أما برود فعرفه منذ ثلاث سنوات فقط. من المنطقي عدم رغبة كافكا في قطع علاقته الشخصية مع (برجمان) لمجرد هجومه على برود. لا يمثل توقيع كافكا لإهداء جماعي قام به مجموعة من أنصار (برنتانو) بمناسبة حصول (برجمان) على الدكتوراه، قبل الخلاف الذي نشب في مقهى اللوفر بقليل، لا يمثل تناقضًا لعرض برود. (كان ذلك الإهداء في كتاب للكاتب (لودفيج بوسة)، عنوانه الفكر والجسد، والروح والجسم، تسلمه في ١٨ ديسمبر ١٩٠٥) انظر:

Bergmann, ´Schulzeit und Studium`, S. 28.

يذكر (برجمان) توقيع كافكا "على مسافة من الآخرين"، ولكن لا يذكر سبب هذه اللفتة المتحفزة.

٢٥. لتفاصيل أخرى عن هذاالاتحاد انظر:
Hannelore Rodlauer, 'Ein anderer „Prager Frühling". Der Verein „Bar Kochba" in Prag`, in: Das jüdische Echo 49 (2000) , S. 181-188.

٢٦. المذكرات، ٣١ ديسمبر ١٩١١ (T333).

٢٧. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 49.

٢٨. درس (فرانز برنتانو، ١٨٣٨-١٩١٧) الفلسفة وعلم اللاهوت في (فورسبورج) وميونيخ. نُصِّبَ في عام ١٨٦٤ قسيسًا، وحصل في عام ١٨٧٤ على درجة أستاذ في كلية الفلسفة بفيينا. خرج في عام ١٨٧٩ من الكنيسة الكاثوليكية. حينما أراد (برنتانو) الزواج في العام التالي؛ لم يسمح له بذلك، بحجة أن قسمه لوظيفة القسيس يلزمه، بحسب القانون النمساوي، مدى الحياة. كان على (برنتانو) إذًا التخلي عن الجنسية النمساوية، حتى يتسنى له الزواج، مما أدى إلى حرمانه من منصب الأستاذية. كانت هذه الفضيحة حاضرة في براغ بشكل خاص؛ لأن المحامي (حورس كرازنوبولسكي)، الذي كتب نص التحكيم القانوني المتسبب في إقالة (برنتانو)، كان يدرس في براغ، قلعة أنصار (برنتانو). سمع كافكا على مدار فصلين دراسيين محاضراته في "القانون الخاص النمساوي".

٢٩. انظر خطابات (برجمان) و(برنتانو)، المطبوعة في مرفق المقالة التالية:
Miriam Sambursky, 'Zionist und Philosoph. Das Habilitierungsproblem des jungen Hugo Bergmann`, in: Bulletin des Leo-Baeck-Instituts 58 (1981) , S. 17-40.

(إميل أوتيس)؛ الذي دخل الكنيسة الإنجيلية، حصل على درجة الأستاذية العلمية في عام ١٩١٠ من جامعة (روستوك)، ولكنه ظل يدرِّس بوصفه مدرسًا خاصًا، إلى أن حصل على الأستاذية. لم يحمه تغييره لديانته من ترحيله في عام ١٩٤٢ إلى الغيتو في منطقة (تيريزين شتاد). توفي في عام ١٩٥٦ في (يينا).

٣٠. دوَّن (برجمان) نحو١٩٠٥ ملحوظة، مفادها أن الامتناع عن ممارسة الجنس قبل الزواج فريضة أخلاقية، للرجال أيضًا، انظر:

Schmuel Hugo Bergmann [!], Tagebücher und Briefe, hrsg. von Miriam Sambursky, Bd. 1:1901-1948, Königsstein/TS. 1985, S. 15f.

قصائد (إلزه برجمان) الموجهة إلى كافكا غير مؤرخة، أكثرها وضوحًا تحمل عنوان "ذكرى لـ (ف. ك.)" وتقول ما يلي: "استمتعت برجال كثيرين، فضول للجسد ورغبة ساخنة، ولكنني لم أصادف أساس السماء الآمرة واحدة، في هذا الزمن الذي يطارد الحياة، كانت نسمة، تلتها قبلة، أصاب سهم خفيف ذهبي قلبي، لحظة وحيدة وصغيرة للغاية، أضاءت حياتي كلها، كلماتك التي تحمل الصداقة والطيبة، وربما الأبدية". الاستشهاد من المرجع التالي:

Gimpl, Weil der Boden selbst hier brennt... , S. 309.

نشأت هذه القصيدة غالبًا في العشرينيات، حينما كانت زيجة آل برجمان على وشك الانتهاء (تم الطلاق في عام ١٩٣٣). تركة (إلزه برجمان) موجودة في معهد (ليو بيك) في نيو يورك، أما تركة (هوجو برجمان)، بما فيها بعض من خطابات زوجته التي سجل جزء منها، في الأرشيف القومي اليهودي بالقدس.

٣١. يُظهر خطاب من إلزه إلى (هوجو برجمان) طموحها الاجتماعي، ورغبتها في تولي دور زوجة أستاذ الجامعة: "أنا غاضبة من عدم وجودك هنا، للتحدث إلى (مارتي)، كانت الفرصة موجودة للحصول على الوظيفة في الجامعة. تتوقف المسألة عليك الآن للمواجهة الحاسمة مع هذا اللص البائس «المقصود (أوتيس)»، انظر:

Gimpel, Weil der Boden selbst hier brennt... , S. 332.

تقدير دخل (برجمان) هنا يستند إلى ملحوظة جاءت على لسان (أوتيس)، (ويجب الاعتماد عليه بحذر)، مطبوعة في خطاب من (مارتي) إلى (برنتانو)، ٢٥ سبتمبر ١٩١١ (المرجع ذاته، صفحة ٣٦٤، هامش ٧٤).

سيادة وشفاء

١. انظر:

Torberg, Die Tante Jolesch, S. 97.

٢. انظر:

Arnold Pollatschek, 'Zur Aetiologie des Diabetes Mellitus', in: Zeitschrift für klinische Medizin 42 (1901) , S. 478-482.

٣. كان أكثر من نصف الأطباء العاملين في المصحات والمنتجعات من أصل يهودي. يرجع السبب في ذلك إلى صعوبة وصول المدرسين اليهود، على الرغم من "اعتناقهم المسيحية"، إلى وظيفة الأستاذية، مما جعلهم يبحثون عن مصادر دخل أخرى، وتناول مجالات أقل وجاهة بالبحث، مثل طب الملاج الطبيعي، وخاصة علم الحمّامات. حذرت الصحافة في المقابل بالطبع من "المصالح التجارية" لأطباء مصحات اليهود، انظر:

Triendl-Zadoff, Nächstes Jahr in Marienbad, S. 41-48.

٤. خطاب إلى (فيليس باور)، ٣١ مايو ١٩١٦ (B3 165f.).

عاش كافكا قبل وفاته بشهرين في مصحة كبيرة بنظام الطب التقليدي، مصحة الأمراض الرئوية (فينر فالد)، جنوب فيينا، وتأكدت هنا أسوأ مخاوفه. انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 595ff.

٥. "كنت أرتاد المصحات بسبب معدتي، وضعفي العام، ولا ننسى مرضي بالوهم، الذي ينم عن حبي لنفسي." انظر: خطاب إلى (فيليس باور)، ٥ نوفمبر ١٩١٢ (B1 212)، وخطاب إلى الوالد (NSF2 194f.).

٦. كانت هذه الذكرى عن خجل "الصبي الصغير" حاضرة في ذهن كافكا وهو في التاسعة والعشرين من عمره. انظر: خطاب إلى (فيليس باور)، ١٠ و١١ يناير ١٩١٣ (B2 34f.). بما أن توصيف المكان ينطبق على منطقة (زلازيل)، فمن الممكن أن أسرة كافكا كانت تقضي الإجازة الصيفية هنا. انظر: خطاب إلى أوسكار بولاك، ٦ سبتمبر ١٩٠٣ (B1 25)، وكذلك:

Erinnerungen von Anna Pouzarová, 'Als Erzieherin in der Familie Kafka`, S. 66f.

٧. خطاب إلى ماكس برود، نهاية أبريل ١٩٢١. انظر:

Brod/Kafka, Briefwechsel, S. 341.

٨. بطاقة بريدية إلى (بول كيش)، ٢٣ أغسطس ١٩٠٣ (B1 24). يظهر على هذه البطاقة البريدية المرسلة من مصحة (لاهمان) مجموعة من الرجال يرتدون ملابس السباحة، ويقفون في الخلاء في ملعب البولينج (انظر B1 399).

٩. أمر مميز ألا يذكر كافكا مصطلح الزهد صراحة إلا في الظروف التي يظن فيها أنها تبعده عن الحياة، أي فيما يتعلق بالمعايشة الحسية، والجنس، والحياة الزوجية. عن

الزهد بوصفه استراتيجية لتشكيل الذات انظر فصل "منظومة الزواج والزهد"، في:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 470ff.

١٠. مذكرات الرحلة، سبتمبر (B1 24)، كانت طريقة (هوراس فليتشر، ١٨٤٩-١٩١٩)، أي مضغ قضمات صغيرة لفترة طويلة، للاستفادة الأكبر من العناصر الغذائية، وتجنب زيادة الوزن، طريقة معروفة ومنتشرة في العالم الغربي حتى الثلاثينيات. ظل "الصوت العالي" الذي يحدثه في أثناء المضغ، سببًا لتفضيله تناول الطعام وحده، حتى في أثناء إقامته في بسيون (ميران) في عام ١٩٢٠ (راجع B4 117).

١١. انظر:

Eugen Sandow, Kraft und wie man sie erlangt. Mit einer Übungstafel und zahlreichen Original-Photographien, Berlin 1904 (=deutsche Erstauflage).

نجد العنوان أيضًا في القائمة التي أعدتها (هيلين زيلبربرج) في الثلاثينيات بتركة كافكا من الكتب، انظر:

Sammlung Hélène Zylberberg, Deutschs Literaturarchiv, Marbach am Neckar.

١٢. خطاب إلى ماكس برود، منتصف أغسطس ١٩٠٧ (B1 53): "أركب الدراجة البخارية كثيرًا." لم يكن في هذا التوقيت بالنمسا سوى ٥٤٠٠ دراجة بخارية، و٢٣٠٠ سيارة. بحسب النقل الشفهي يقال إن كافكا نفسه هو الذي أقنع (زيجفريد لوفي) باستبدال دراجة بخارية بحنطوره. انظر:

Binder, Kafkas Welt. S. 123.

١٣. انظر:

Heinrich Lahmann, Das Luftbad als Heil- und Abhärtungsmittel, Stuttgart 1898.

"تأمل بشرة وجوهنا يجعلنا نفهم أن البشرة المعتادة التعرض للهواء، تتحصن ضد تأثيرات الطقس ولا يعرف أصحاب هذه البشرة نزلات البرد. بشرة الوجه هي أرق جلد في جلدنا، ومع ذلك تتحمل السخونة والبرودة، الرياح والطقس، دون أن تتأثر جودة بشرتنا. لماذا؟ لأنها تعودت ملامسة الهواء." (صفحة ١٨)

١٤. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، ٢٢ نوفمبر ١٩٠٧ (B1 80)، وخطاب إلى (فيليس باور)، ٢ فبراير ١٩١٣ (B2 73). عن ساق كافكا المكشوفة انظر:

Rudolf Fuchs, 'Kafka und die Prager literarischen Kreise`, in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam... ", S. 108.

صاحب (فيلي فيلتش)، وهو أخو (فيليكس)، كافكا إلى مباراة كرة قدم، انظر:
Binder, Kafkas Welt, S. 114.

عن إعجاب كافكا بالأشخاص "أصحاب المناعة القوية" انظر تدوينته في المذكرات يوم ٢٣ يناير ١٩١٤، التي تشير إلى أنه كان يتناول هذا الموضوع مع زملائه في العمل: "يتحدث المفتش الأعلى (بارتل) عن صديق له، كان موظفًا أعلى وصار على المعاش، ينام والنوافذ مفتوحة: "هذه تجربة مريحة للغاية في أثناء الليل، أما في الصباح تصير مسألة مزعجة حينما أضطر إلى مسح الثلج عن الكنبة، الموضوعة عند النافذة، وأبدأ بعدها بالحلاقة."" (T625)

١٥. "هؤلاء الأطباء المثيرون للأعصاب! لديهم أهدافهم التجارية، ولا يفقهون شيئًا في سبل العلاج، حينما تتوه عنهم هذه الأهداف، يقفون مثل تلاميذ المدارس أمام فراش المرضى. يا ليتني قادر على إنشاء نادٍ للعلاج بالوسائل الطبيعية." (المذكرات، ٥ مارس ١٩١٢، T395).

١٦. تدوينات في المذكرات في أيام: ١ أكتوبر ١٩١١، ١٥ أكتوبر ١٩١٣، ٢٨ مارس ١٩١١، ٢٠، ١٣ أكتوبر ١٩١١، و(ربما) ١٩٠٩. (T48, 583, 30, 89, 75, 12)

١٧. خطاب إلى ماكس برود، ٢٨ أغسطس ١٩٠٤ (B1 39ff.).

١٨. وصف (توماس مان) مصحة (بيرشربينر) الموجودة باسم "طاقة حيوية" في (زيورخ) بأنها "سجن صحي". قضى هناك في عام ١٩٠٩ أربعة أسابيع بسبب الوهن العصبي وشكوى من المعدة (أي مثل كافكا). كان النظام الغذائي المعتمد على الخضار النيئ ناجحًا، في حين أن الفترة القصيرة التي قضاها قبلها بثلاث سنوات في مصحة (فايزر هيرش) لم يكن لها أي تأثير. انظر خطابات (توماس مان) إلى (صامويل فيشر، ١٥ يوليو ١٩٠٦)، وإلى (هاينريش مان، ١٠ مايو ١٩٠٩)، وإلى (فالتر أوبتس، ١١ يونيو ١٩٠٩). في:
Thomas Mann, Briefe I. 1889-1913, hrsg. von Thomas Sprecher u. a. , Frankfurt am Main 2002, S. 368, 417, 420.

١. انظر:

Max Brod, Rezension zu Franz Blei. Der dunkle Weg. Eine tragische Farce in drei Acten, in: Die Gegenwart, Bd. 71, H. 6 (9. Februar 1907) , S. 93.

تناول ماكس برود قبلها بثلاثة أسابيع في المجلة نفسها رواية (هاينريش مان) "منيس وجنيفرا"، انظر:

.H. 3, 19. Januar 1907, S. 46

٢. خطاب إلى ماكس برود، ١٢ فبراير ١٩٠٧ (BI 50). كانت الكتابة الدارجة في أي أطلس باللغة الألمانية هي "Windhuk"، بدلًا من الكتابة الأصلية " .Windhoek" "Ujiji"، الواقعة في "شرق إفريقيا الألمانية" (هي اليوم تنزانيا)، فكانت تُكتب كما يكتبها كافكا "Udschidschi".

٣. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 46.

صدرت قصة (مايرينك) الموت البنفسجي في عام ١٩٠٣ ضمن مجموعة قصصية:

Der heisse Soldat, Hofmannsthals Gespräch über Gedichte, Februar 1904, Neue Rundschau.

دار بناءً على ذلك الحوار بين كافكا وبرود، غالبًا في عام ١٩٠٤.

٤. انظر المراجع التالية:

Brod, Streitbares Leben, S. 139f.
Alfred Kerr, 'Frank Wedekind', in: ders. , Werke in Einzelbänden, Bd. II: Essays, Theater, Film, hrsg. von Herrmann Haarmann und Klaus Siebenhaar, Frankfurt am Main 1998, S. 87-98, hier S. 97.

صدرت مقالة (كير) عن (فيديكيند)، بملحق عن (فلوبير)، في عام ١٩٠٤، أي قبل شهور قليلة من صدور أول ترجمة لعمل التربية العاطفية. كان للتقليل من أهمية هذه الرواية، المتأصل في المناهج التدريسية في المدارس الثانوية، تأثير قوي على المثل التعليمية البرجوازية. يظهر ذلك جليًا في الهجوم الحاسم الذي تبناه (توماس مان) في دراسة عن المسرح (١٩٠٨)، حيث خصص فقرة بأكملها للدفاع عن الرواية. كتب (مان) أن تفضيل الدراما يعد "تجاوزًا". "أين هذا المشهد المسرحي، الذي سيتفوق على مشهد من الرواية الحديثة في الدقة، والحضور المكثف، والواقعية. أزعم أن هذه الواقعية أعمق في الرواية عن الدراما"، انظر:

Essays I. 1893-1914, hrsg. von Heinrich Detering, Frankfurt am Main 2002, S. 123-168, hier S. 127ff.

بما أن كافكا كان يتابع إصدارات (توماس مان) بدقة، فمن المرجح أنه قد استوعب هذه العبارات؛ التي كانت تعبر عما جذب اهتمامه أيضًا.

٥. نجد وصفًا لشقة (مايرينك) في (براغ تشيشكوف) في "رواية الأشباح" للكاتب (باول ليبين) :

Severins Gang in die Finsternis (1914; Neuausgabe Prag 1998, siehe hier S. 43f.).

كان برود أيضًا يعرف هذه الشقة.

٦. انظر تعليقات (مايرينك) في مقالة "براغ بوصفها مدينة أدبية" في جريدة (براغر تاجبلات)، ٢ يونيو ١٩٢٢، صفحة ٦. تقدم دراسة شاملة وقائمة على المصادر، قام بها (هارتموت بيندر)، وقدم لأول مرة نقدًا مبنيًا على الوقائع لحالات الغموض المتكرر، الذي شاب شخصية (مايرينك)، والذي أشاعه هو أيضًا عن نفسه. انظر:
Hartmut Binder, Gustav Meyrink. Ein Leben im Bann der Magie. Prag 2009.

٧. انظر:

Max Brod, 'Meine Anfänge', in: Deutsche Zeitung, Bohemia, Prag, 23. März 1913, Osterbeilage.

نُشر أول إصدار لبرود في شكل قصة ساخرة متأثرة بالكاتب (مايرينك)، تحت عنوان المليون، في أكتوبر ١٩٠٣.

٨. صدر أول كتاب لبرود الموت للموتى!، الذي حمل مجرد حوارات تفسيرية لدى (أكسيل يونكر) في شتوتجارت، وكان يحمل إهداءً "إلى الأديب (هوجو سالوس)" تحديدًا، عن مسابقة جريدة الزمن انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 59.

في قصته جزيرة كارينا، التي كتبها في عام ١٩٠٤، ونشرها في مجموعة تجارب، يرسم برود صورة للصديق بوصفه "فتانًا". انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 184.

٩. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٨ نوفمبر ١٩٠٣ (B1 30).

١٠. في إطار مسؤولية برود عن إخراج "الأعمال المجمعة" حل مشكلة الإصدار من خلال تجميعه للنسختين لرواية "وصف لمعركة" في نص واحد. لم يصدر النصان

بصياغتهما الأصلية إلا في عام ١٩٦٩ بفضل "إصدار موازٍ بحسب المخطوطات"، قدمه (لودفيج تيتس). هناك نقاش يدور حول الاختلاف واسع النطاق، وحقيقة أن النسخة الثانية لا تحمل عنوانًا، وصحة الحديث عن "نسختين". ليس لهذا النقاش فائدة عملية ولا نظرية؛ لأن المسألة تتعلق حتمًا بالمشروع الأدبي نفسه. تثبت الفقرة الأولى ما يلي: الصفحات السبع الأولى من النسخة (ب) متطابقة تقريبًا مع الفقرات نفسها في النسخة (أ)؛ بخلاف بعض التغييرات البسيطة.

١١. المذكرات، ١٥ فبراير ١٩٢٠ (T854f).

١٢. بطاقة بريدية إلى ماكس برود، ١٨ مارس ١٩١٠: "أكثر ما يسعدني في هذه القصة، عزيزي ماكس، هو خروجها من المنزل." (B1 120). ترك كافكا إحدى النسختين لبرود.

١٣. (NSF1 72)، طريقه الكتابة، هنا وفيما يلي، بحسب المسودة.

١٤. (NSF1 57f.)، تصير الحيوية "الكبيرة" في النسخة (ب) حيوية "هامة".

١٥. استخدم كافكا هذه الصورة في النسختين (NSF1 89, 157).

١٦. عن محاولة كافكا الوحيدة لنشر رسم له انظر:

Niels Bokhove/Marijke van Dorst (Hrsg.): ´Einmal ein großer Zeichner`. Franz Kafka als bildender Künstler, Prag 2006, S,93.

لم يستخدم تصميم كافكا لأن الناشر (أكسل يونكر) اعتبره غير صالح لإعادة الطبع. اندثرت هذه الورقة اليوم.

١٧. لا نعرف شيئًا عن انجذاب كافكا إلى شخصية (بلاي) إلا من خلال كتاب (يانوش) حوارات مع كافكا. يبدو وصف هذا الانجذاب في هذه الفقرة واقعيًا: "قال مبتسمًا: "إنه صديق قديم وقريب لماكس برود، (فرانز بلاي) في منتهى الذكاء والمرح. نضحك كثيرًا حينما نلتقي به. نستعرض الأدب العالمي كله في شكل ساخر. (فرانز بلاي) أذكى وأعظم من كل ما كتب. إنه قاصٌ للنوادر قادم من الشرق وفقد ضالته في ألمانيا." اهتم كافكا غالبًا أيضًا بتقارير (بلاي) عن رحلته إلى أمريكا، التي استمرت لمدة عامين (١٨٩٨-١٩٠٠).

١٨. صدرت النصوص النثرية الصغيرة لكافكا في العدد الأول لمجلة هيبريون (دار نشر هانز فون فيبرن بميونيخ)، وذلك بترقيم روماني دون عنوان (صفحة ٩١-٩٤). في الكتاب الصادر باسم تأملات (١٩١٢) نجد العناوين التالية: التاجر، نظرة مشتتة،

الطريق إلى المنزل، المارة (هنا يرد النص بأكمله)، ملابس، الراكب، الرفض، والشجر.

١٩. انظر المجلة التالية؛ التي كان إصدارها الأول في مايو ١٩٠٩ كأول توقيت ممكن:
Hyperion, 2. Jg. , Heft 8, S. 126-133.

كان برود في هذه المرة هو من سلم النصوص بالبريد. اقترح (بلاي) في رده المؤرخ في ١٠ يناير ١٩٠٩ عنوانًا مشتركًا ("حوارات في الظلام")، ويبدو أن كافكا قد رفض هذا الاقتراح، انظر:
Unseld, Franz Kafka. Ein Schriftstellerleben, S. 254, Anm. 30.

كتب كافكا بعدها بثلاث سنوات إلى برود أنه لم يعد يرغب في "إصدار شيء سيئ عن وعي، فيصيبه بالغثيان، مثلما حدث مع الحوارين الصادرين في مجلة (هيبريون)." (٧ أغسطس ١٩١٢، Bl 165).

٢٠. انظر المناقشات التي صدرت في عام ١٩١٣ عن مجموعة تأملات، والتي كتبها (ألبيرت إرنشتاين)، والذي كان يعتبر كافكا "بعيدًا عن المرح". انظر أيضًا (باول فريدريش)، الذي يتناول الفارق بينه وبين (ألتنبرج)، في:
Born, Franz Kafka. Kritik und Rezeption zu seinen Lebzeiten, S. 28f. , S. 32f.

ما هو غير مقنع وغير مثبت مطلقًا، ادعاء ماكس برود أن كافكا قد تأثر في نصوصه النثرية القصيرة بترجمته لأعمال مختارة للكاتب (لافورج). انظر:
Brod, Über Franz Kafka, S. 206.

٢١. انظر:
Robert Musil, 'Literarische Chronik`, in: Neue Rundschau, Berlin, August 1914, S. 1169.

يتحدث (موزيل) عن مجموعة (فالزر) قصص، التي نشرها (كورت فولف) أيضًا؛ ولكنه يشير إلى أن مجموعة كافكا تأملات قد نُشرت قبلها. انظر: (كورت توخولسكي): "ثلاثة كتب جديدة"، في: جريدة (براغر تاجبلات)، ٢٧ يناير ١٩١٣. "لم يعد لدينا إلا كاتب واحد قادر على كتابة نثر يغني: إنه (روبرت فالزر)." يشير أول نص دعائي صدر عن دارالنشر في جريدة البورصة الخاصة بمجموعة دور النشر الألمانية، إلى نقطة رئيسية: "تقدم هذه المجموعة نوعًا من التأملات التي تجمع بين صياغة لغوية مصقولة، ومضمون عميق المشاعر والتفكير. ربما تضع هذه المجموعة كافكا إلى جانب (روبرت فالزر)..."

من اللافت للنظر أن الشاعر وداعم الأدباء (ألفريد فالتر هايمل، الذي تقدم إليه فالزر، مرارًا ودون فائدة، ليكون في خدمته) كان قد أعرب عن شكوكه في وقت مبكر عن ذلك، كما يتضح من رد (فرانز بلاي) مع بداية عام ١٩٠٨. (الأصل موجود في أرشيف الأدب الألماني، مارباخ على نهر النيكار).

نجد فروقًا واضحة بين كافكا و(فالزر) في موقف ورؤية القاص، انظر:

Bernhard Böschenstein: 'Nah und fern zugleich: Franz Kafkas 'Betrachtung` und Robert Walsers Berliner Skizzen`, in: Gerhard Kurz (Hrsg.). Der junge Kafka, Frankfurt am Main 1984, S. 200-212.

عن "اكتشاف" (فالزر) انظر السيرة الذاتية للكاتب (بلاي) :

Erzählung eines Lebens, Wien 2004, S. 249ff.

٢٢. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 252f.

٢٣. المذكرات، ٨ أكتوبر ١٩١٧ (T841). اهتم برود بالكاتب (فالزر) اهتمامًا أكبر وأعمق مقارنة بكافكا. نشر توصيفًا لنثر (فالزر) في عام ١٩١١:

'Kommentar zu Robert Walser`, in: Pan 2 (1911-12) , S. 53-58.

كما أنه راسل (فالزر) حتى العشرينيات، وإن لم يحدث لقاء شخصي قط.

٢٤. خطاب إلى (أوسكار بولاك)، ٢٧ يناير ١٩٠٤ (B1 35). الإصدار التاريخي المنقح لمذكرات (هيبل) قام به (ريشارد ماريا فاجنر) في عام ١٩٠٣. الإصدار موجود في تركة كافكا، نجد في الأجزاء الثلاثة الأولى علامات بالقلم الرصاص.

حقوقي حاصل على الدكتوراه يبحث عن عمل

١. كان (أنطون رينتلين، ١٨٧٦-١٩٤٦)، المنتمي إلى التيار المسيحي الاجتماعي في العشرينيات محافظًا للمحافظة (شتايرمارك)، والوزير النمساوي الاتحادي لشؤون التعليم. بعد محاولة هتلر لعمل انقلاب، تم اختيار (رينتيلين) في ٢٥ يوليو ١٩٣٤ ليخلف المستشار المقتول (إنجلبرت دولفوس). بعد فشل الانقلاب حكم على (رينتيلين) بالمؤبد، وقضى هذه العقوبة لمدة ثلاث سنوات إلا وقت بسيط. للمزيد عن الهجوم القانوني الذي مارسه (كرازنوبولسكي) ضد (برنتانو)، وعواقبه المتعددة، انظر فصل "دوائر مظلمة"، الملحوظة ٢٨. توفي (كرازنوبولسكي) في عام ١٩٠٨، وأصدر برونو كافكا، ابن عم فرانز كافكا الأكبر، كتبه العلمية.

٢. انظر:

Kisch, Der Lebensweg eines Rechtshistorikers, S. 39ff.

٣. خطاب إلى ماكس برود، قبل ١٧ أكتوبر ١٩٠٦ (B1 48)، و٢١ سبتمبر ١٩٠٥ (B1 43f.). أيضًا المذكرات، ١٦ نوفمبر ١٩١١ (T252).

٤. كتاب (لومبروزو) التأسيسي صدر في عام ١٩٠٦ باللغة الألمانية، أي ست سنوات قبل مرجع (جروس)، انظر:

Der Verbrecher in anthropologischer, ärztlicher und juristischer Beziehung.

٥. عن لقاء كافكا بـ (أوتو جروس) في عام ١٩١٧ انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 193ff.

دعْم (هانز جروس) لنقل أفراد إلى معسكرات الأشغال الشاقة كان بمنزلة نقطة هجوم مبررة، حيث ظهر جليًا تحول قانون العقوبات العلمي لديه إلى حالة من الوحشية. قدم (جروس) نفسه أسبابًا إنسانية لذلك: يجب على المجتمع حماية نفسه على الدوام من المجرمين المتكررين، وذلك لعدم إمكانية "تقويمهم" بمجهود معقول. فضلًا عن كون السجن التقويمي أبشع من الحكم بالإعدام. اقترح (جروس) حلًا أن يقدم الرايخ الألماني جزءًا من معسكراته للمسجونين القادمين من النمسا، مع العلم أنه كان يقصد معسكرات العقوبة على النموذج الأسترالي، وليست معسكرات الموت. انظر:

Hans Gross, 'Zur Deportationsfrage', in: Gesammelte Kriminalistische Aufsätze, Leipzig 1902, S. 64-70.

٦. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، ١٠ أبريل ١٩٠٩ (B1 99).

٧. عن (ألفريد فيبر) في براغ انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 203ff.

الاستشهاد الوارد هنا موجود في صفحة ٢٠٨.

٨. خطاب إلى ماكس برود، ١٧ مارس ١٩٠٦ (B1 44f.).

٩. انظر كاتب مجهول:

'Die Reform des juridischen Doktorats', in: Prager Tagblatt, 12. März 1907, S. 3.

١٠. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 73.

١١. خطاب إلى ماكس برود، منتصف أغسطس ١٩٠٧ (B1 52).

١٢. عن أوتو كافكا (١٨٨٧ـ١٩٣٨) انظر:

Northey, Kafkas Mischpoche, S. 48ff.

١٣. نجد في المرجع التالي رسمًا هندسيًا لشقة (نيكلاس شتراسه ٣٦) :

Hartmut Binder, Kafkas „Verwandlung". Entstehung, Deutung, Wirkung. Frankfurt am Main 2004, S. 118.

تحدث كافكا علنًا عن معاناته من الإزعاج السمعي في هذه الشقة في عام ١٩١٢ من خلال نص نثري عنوانه ضوضاء كبيرة (D441f.).

١٤. خطاب إلى ماكس برود، منتصف أغسطس ١٩٠٧ (B1 52f.).

١٥. من الصعب ترتيب خبرات برود الوظيفية الأولى ترتيبًا زمنيًا. الوظيفة في كوموتاو، (التي لا يذكرها في سيرته الذاتية)، تولاها في النصف الثاني من أغسطس لعام ١٩٠٧. لدينا منذ منتصف أكتوبر العديد من الخطابات الموجهة من كافكا إلى برود، والتي يتحدث فيها عن لقاءات في أيام العمل. عودة برود بعد شهرين إلى براغ أمر محتمل إذًا. بما أنه تولى الوظيفة التالية مع بداية عام ١٩٠٩، فمن الممكن أن يكون قد تدرب، مثل كافكا، في المحكمة. نجد مؤشرًا لذلك في مسودة غير منشورة لمذكرات برود المبكرة: "٧ نوفمبر ١٩٠٧، في سنة المحكمة، "ثم ذهبت مع كافكا إلى مقهى اللوفر، وقرأنا (لافورج). ساعات جميلة ولطيفة، شعرت خلالها بالأمان." لا نعرف إذا ما كان برود يقصد سنته أم سنة كافكا المنتهية في المحكمة.

١٦. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، بداية سبتمبر و١١ سبتمبر ١٩٠٧ (B1 59, 60). صدر في ١ سبتمبر إعلان لأكاديمية التصدير في جريدة (براغر تاجبلات)، يشير صراحة إلى "دورات مخصصة للحقوقيين". عن الرؤية والبرامج التدريسية لأكاديمية التصدير (التي صارت في ١٩١٩ "معهدًا عاليًا للتجارة العالمية"، واليوم هي "كلية الاقتصاد في فيينا") انظر:

Jürgen Busch, 'Hans Kelsen an der Exportakademie in Wien (1908-1918) ', in: Thomas Olechowsi u. a. (Hrsg.) , Grundlagen der österreichischen Rechtskultur, Festschrift für Werner Ogris zum 75. Geburtstag, Wien 2010, S. 69-108, insb. S. 84ff.

١٧. انظر خطاب كافكا إلى ماكس برود، نهاية أكتوبر وأول نوفمبر ١٩٠٧ (B179).

١٨. تفاصيل محضر الكشف مأخوذة عن:

Binder, Kafkas Welt, S. 156f.

المحضر موجود في أرشيف شركة (أسيكوراتسيوني جنرالي)، بمدينة (تريست)، وكذلك الخطاب، الوارد ذكره، في فرع براغ بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٠٧.

١٩. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، بداية أكتوبر وبعد ٩ أكتوبر ١٩٠٧ (B172, 73).

٢٠. استمارة (أسيكوراتسيوني جنرالي) التي ملأها كافكا في ٢ أكتوبر ١٩٠٧، وكذلك سيرته الذاتية المرفقة في (B1 66-70).

٢١. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 70.

٢٢. المذكرات، ٣٠ يوليو ١٩١٤ (T669-671). ظلت صداقة كافكا مع (إرنست أيزنر، ١٨٨٢-١٩٢٩)، المنتمي إلى أسرة يهودية، والذي صار لاحقًا مديرًا، صداقة مستمرة حتى الحرب العالمية الأولى، ولكن ليس لدينا إلا آثار قليلة لهذه الصداقة. أهداه في عام ١٩١٣نسخة من كتاب المدفأة" إلى عزيزي إرنست أيزنر". ليس لدينا من الخطاب الوحيد المعروف، غالبًا في عام ١٩٠٩، إلا أجزاء (B1 115f.). يرد كافكا في هذا الخطاب على مزحة أطلقها أيزنر: من المؤكد أن (روبرت فالزر) كان يعرف كافكا حينما قام بتأليف شخصية البطل (سيمون) في رواية "الإخوة تانر". أخو (أيزنر) هو الصحفي (باول أو بافيل أيزنر، ١٨٨٧-١٩٥٨)، الذي كان يكتب بالألمانية والتشيكية. أثارت نظريته عن مدينة براغ بوصفها "غيتو ثلاثيًا" نقاشًا طويلًا في دوائر البحث حول كافكا. كان (باول أيزنر) أيضًا المترجم التشيكي لأعمال كافكا.

٢٣. أخطر كافكا في ٦ يونيو ١٩٠٨ برود بأنه "قد تقدم إلى وظيفة في منتصف يوم الأحد، دون أن يبدو مفيدًا مطلقًا، ومن خلال هيئتي الجسدية فقط." (B1 84) لم يكن هذا التقدم إلى وظيفة ممكنًا إلا في منزل عائلة (بريبرام)؛ لأنه لم يعرف شخصًا آخر له هذا النفوذ، ومسموحًا له بزيارته الخاصة يوم الأحد. وارد، بحسب رواية كافكا، أن الحديث لم يدر حول توظيفه صراحة؛ بل أن (أوتو بريبرام) أراد بناءً على رغبة ابنه التعرف إلى المتقدم.

٢٤. انظر خطاب كافكا إلى (أوسكار باوم)، نهاية مارس/ بداية أبريل ١٩١٨: "... السكرتير الدكتور (س. فلايشمان)، (هو الأول وأنا الثاني والأخير من اليهود المنقرضين في المؤسسة)، إنه رجل ممتاز، يحب عمله، يستمع إلى كل مطلب قابل للتحقيق، ولو بنسبة بسيطة." (B4 36) انظر أيضًا خطاب كافكا إلى ماكس برود:

"لا تسمح المؤسسة بدخول اليهود... ليس مفهومًا كيف دخل اليهوديان الموجودان هناك (بمساعدة يهودي ثالث)." (B3 362)

٢٥. خطاب كافكا للتقدم إلى الوظيفة والرد الإيجابي لشركة التأمين ضد حوادث العمل بتاريخ ١٠ يوليو ١٩٠٨، مطبوعان في (B1 85f.). لدينا فاكسيميل من شهادة التخرج من أكاديمية التجارة في (B1 438). في خطاب موجه من فرع شركة في براغ إلى المقر الرئيسي في (تريست) نجد مضمون التقرير الطبي الذي حرره طبيب يدعى (دكتور هان) في ١٤ يوليو ١٩٠٨.

٢٦. انظر:

Ellen Key, 'Die Entfaltung der Seele durch Lebenskunst', in: Die neue Rundschau, 16 (1905) , H. 6, S. 641-686, hier S. 675.

انظر أيضًا:

Robert Musil, Tagebücher, hrsg. von Adolf Frisé, Reinbek 1976, S. 165.

استخدم (موزيل) عبارات (كيه) الجوهرية حرفيًا في روايته رجل بلا صفات (في حوار مع الذات لشخصية ديوتيما). انظر المرجع السابق:

hrsg. von Adolf Frisé, Reinbek 1994, S. 426.

٢٧. عرف كافكا غالبًا في توقيت لاحق أن الحقيقة وراء هذا الخبر لم تكن بهذا القدر من الرومانسية. كان (هيرمان ليهمان، ١٨٥٩-١٩٣٢) من أصل ألماني، ولكنه ولد في تكساس. اقتصرت مرحلة حياته بوصفه من الهنود المحاربين على فترة شبابه لدى (الأباتشي)، الذين كانوا قد اختطفوه ودمجوه في مجتمعهم. كان (كاناهباركر)، وهو ابن لسيدة بيضاء، ورئيس لقبيلة (الكومانشي)، قد تجاوز مرحلة المحاربين، لأنه حينما أخذ (ليهمان)، تولى قبلها الإشراف على المحمية، وعمل بوصفه مزارعًا. تقدم سياسي محلي بطلب للاعتراف بـ (ليهمان) بوصفه من الهنود الحمر، وذلك بهدف تخصيص أرض زراعية له. صدرت السيرة الذاتية لـ (ليهمان) تسع سنوات مع الهنود الحمر في عام ١٩٢٧. أشكر (نيلز بوكهوفة) من (أوتريخت) على لفت نظري إلى (هيرمان ليهمان) وظهور اسمه في جريدة (براغر تاجبلات).

لدى العاهرات

١. خطاب إلى ماكس برود، ٢٩ مارس ١٩٠٨ (B1 82f.).

٢. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، بداية أكتوبر ١٩٠٧ (B1 72)، خطاب إلى (فيليس باور)، ٣/ ٤ يناير ١٩١٣ (B2 17)، و١٢/ ١٣ ديسمبر ١٩١٢ (B1 329).

٣. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، نوفمبر ١٩٠٧.

٤. خطاب إلى (فيليس باور)، ٣/ ٤ يناير ١٩١٣ (B2 16f.)، وكذلك خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، ٢٤ سبتمبر ١٩٠٧: "... الشامبانيا، التي شربتها في صحتك..." (B1 65) لم يكن عادة مسموحًا للحانات ببيع الجعة.

٥. المذكرات، ١٦-٢٠ أكتوبر ١٩١١ (T85-92).

٦. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 104.

انظر أيضًا الخطاب إلى ماكس برود، ٩ يونيو ١٩٠٨، حيث يتحدث كافكا عن (ه.) اللطيفة، وعن "جسدها الصبياني"، ثم يستطرد قائلًا: "كنت في المساء في العرض مع الأخرى، ليلًا في الحانات، وفي الخامسة والنصف في المنزل." (B1 84) كتب كافكا في ١٦ مارس ١٩١٢، بمناسبة زيارة لمسرح المنوعات:" (فاتينيزا)، مغنية من فينا، ضحكتها لطيفة ومبهرة، تذكرني بـ (هانزي)." (T408).
انظر الفقرة التالية في رواية "المحاكمة": "ذهب (ك.) فضلًا عن ذلك مرة أسبوعيًا إلى فتاة اسمها (إلزه)، التي كانت تعمل نادلة، ليلًا وحتى الصباح المتأخر، أما بالنهار فكانت تستقبل الزيارات وهي في فراشها." (P30). اختار كافكا في البداية اسم (بيتا) بوصفه اسمًا يحمل معنى رمزيًا ويعد اختصارًا لاسم (إليزابيت)، وذلك قبل ذكره لكلمة "فراش" باللغة الألمانية (Bett).

٧. انظر المذكرات. ١٣ نوفمبر ١٩١٣: "أتعمد السير في الأزقة التي تقف فيها العاهرات..." (T594) تتحدث مقالة مجهولة المصدر في جريدة (براغر تاجبلات)، ١٨ نوفمبر ١٩٠٨ عن ٣٥ من "بيوت الدعارة الحاصلة على موافقة"، أي نصف العدد في سنة ١٨٩٩. عدد العاهرات المسجلات كان نحو مائتين، ولكن الرقم الخفي يبلغ أضعاف هذا الرقم. تذكر "إحصائية عن الأخلاقيات" منشورة في جريدة (براغر تاجبلات) رقمًا أكثر واقعية، ٦٠٠٠ يعملن "عاهرات في الخفاء".

٨. انظر:

Hartmut Binder, Wo Kafka und seine Freunde zu Gast waren. Prager Kaffee-Häuser und Vergnügungsstätten in historischen Bilddokumenten, Furth im Wald 2000, S. 88ff.

٩. المذكرات، ١ أكتوبر ١٩١١ (T48)؛ مذكرات الرحلة، سبتمبر ١٩١١ (T1006).

١٠. انظر: (T594)، و(T325).

١١. انظر: المذكرات ٢٦ـ٢٩ نوفمبر ١٩١١، و١٢ يونيو ١٩١٤ (,T271-276 535f.). لم تنشر هذه التدوينات كاملة إلا في الإصدار المنقح للمذكرات في عام ١٩٩٠. بعض الصور التي رآها كافكا موجودة حتى اليوم في متحف مدينة (لينز). يحتوي ما تبقى مجموعة (باخينجر) الجنسية على بعض المشاهد الشاذة جنسيًا والمصورة في الاستديو. انظر:

Wolfgang Till, 'Zwei galante Sammler aus Wien: Anton Pachinger und Peter Altenberg`, in: Michael Köhler/Gisela Barche (Hrsg.) , Das Aktfoto. Ansichten vom Körper im fotografischen Zeitalter. München 1986, S. 285-287.

كان (أنطون ماكسيمليان باخينجر، ١٨٦٤ـ١٩٣٨) صديقًا لـ (فريتس فون هيرتسمانوفسكي-أورلاندو)، الذي كان يستعين به في بعض من رواياته بوصفه شخصية غريبة الأطوار.

١٢. خطاب إلى ماكس برود، ١٣/ ١٤ أبريل ١٩٢١، في:

Brod/Kafka, Briefwechsel, S. 336.

١٣. خطاب إلى ماكس برود، ٢٩/ ٣٠ يوليو ١٩٠٨ (B1 86f.). المقصود بقراءة كافكا رواية برود الصادرة حديثًا في هذا الوقت قصر نورنبيبجة. سافر كافكا بعد خروجه المفاجئ من شركة (أسيكوراتسيوني جنرالي)، وحده لمدة أسبوع، إلى (شبيتسبرج، شبيتشاك باللغة التشيكية) في غابات بوهيميا، وأقام في فندق (بروكوب). انظر مذكرات كافكا: "عبرت من أمام بيت الدعارة، كأنني أعبر من أمام منزل الحبيبة." (تدوينة لم تكن قبل صيف ١٩٠٩، T13)

المقاهي، والجيشا، والفن، ودور العرض السينمائية

١. انظر:

Oskar Baum, 'Rückblick auf eine Freundschaft`, in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam... ", S. 75.

يتحدث (باوم) عن "تصورات وخطط" تحدث كافكا عنها إليه في حوارات ليلية في (زوراو).

٢. "نخاف، في لحظات الوحدة والهدوء، أن يُهمس في آذاننا. نكره الهدوء، ونخدر أنفسنا بالصحبة. نفهم، كما قلت من قبل، كل هذا في لحظة ما، ونتعجب من الخوف الشديد واستعجالنا، والحالة الحالمة لحياتنا. نخاف من الاستيقاظ، ونحلم بحيوية أكثر واضطراب، كلما اقتربت الصحوة." انظر:
Friedrich Nietzsche, Schopenhauer als Erzieher, in: Werke, hrsg. von Karl Schlechta, München 1969, Bd. 1, S. 324.

أمثولة (شوبنهاور) موجودة في الفقرة ٩٦ من عمله باريرجا وباراليبومينا.

٣. انظر:

Willy Haas, Die literarische Welt. Erinnerungen, München 1957, S. 30.

٤. انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen. S. 241f.

نشر كافكا مع برود في أوراق هردر الفصل الأول من كتابهما المشترك المرتقب ريتشارد وصامويل (H. 3, Mai 1912, S. 15-25)، وكذلك النص النثري ضوضاء كبيرة (H. 4-5, Oktober 1912, S. 44).

٥. بطاقة بريدية إلى ماكس برود، ٩ ديسمبر ١٩١٠ (B1 129). تعلق الأمر بعرض مسرحي، قبلها بثلاثة أيام، في المسرح الألماني تحت إشراف (ماكس راينهارد). كتب (هاري كان) في جريدة المسرح بعدها بأيام قليلة عن تمثيل (باسرمان) لشخصية هاملت: "يجري (باسرمان)، يتدحرج، وتتصاعد صرخاته، تعجز أقدامه عن حمله، تتقطع أحباله الصوتية، يصير فمه وتصير عيناه قناعًا متحجرًا، حينما يفهم ويدرك للمرة الأولى التشابكات التي أدخلته فيها أقداره. «... » كل أسلوب (باسرمان): كلماته وإشاراته، ليست مقولبة ولا تأتي في قالب محدد، مشتعلة وفظة، مثل الحمم التي تخرج من فوهة البركان، فكره، وليس بالضرورة مشاعره، يتسم بالطبيعية، التي تكتسب هنا أحقيتها الدفينة وكذلك معناها." انظر:
6. Jg. , H. 48, 1. Dezember 1910, S. 1235.

٦. بطاقة بريدية إلى ماكس برود، ٢٢ أغسطس ١٩٠٨ (B1 87). المذكرات، ١٥ ديسمبر ١٩١٠ (T130). خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٣ فبراير ١٩١٣ (B2 105).

٧. انظر:

Max Brod, 'Im Chantant, in: Über die Schönheit hässlicher Bilder. Ein Vademecum für Romantiker unserer Zeit, Leipzig 1913, S. 135-138, hier S. 137f.

٨. خطاب إلى (فيليس باور)، ٦ يوليو ١٩١٣ (B2 231). (إلزه تاوسيج) إلى كافكا، ٢٩ سبتمبر ١٩١٧ (B3 751f.).

٩. المذكرات، ٢٣ مايو ١٩١٢ (T422).

١٠. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٧ و١٨ يناير، و١٩ يناير ١٩١٣ (B2 45, 48). انظر أيضًا تدويناته في المذكرات في عام ١٩٠٩، حيث تناول كافكا الراقصة (يفجينيا ادواردوفا) مرتين في محاولاته القصصية (T10f.). رأى كافكا (فاسلاف نيينسكي) و(ليديا كياست) في المسرح الألماني الجديد. تعطي المادة الفيلمية البسيطة عن هذا العصر تصورًا عن إتقان أداء (نيينسكي).

١١. انظر:

Max Brod, 'Kinematographentheater', in: Die neue Rundschau 20 (1909) , H. 2, S. 319f.

أعيد النشر في:

ders. , Über die Schönheit hässlicher Bilder, S. 68-71.

١٢. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٣ و١٤ مارس ١٩١٣ (B2 132f.). لم يكن الخط الفاصل بين المؤيدين والمعارضين "لفن السينما" خطًا فاصلًا. الهوامش الأدبية المبكرة لكاتب مثل (كورت توخولسكي)، الذي لا ينتمي إلى التوجه الثقافي المحافظ مطلقًا، انتقدت على سبيل المثال فن السينما. اشتكى كل من (ألفريد دوبلين) والداعي للسلام (فرانز بفيمفرت)، محرري المجلة التعبيرية العاصفة، من التبلد الحسي الذي يسببه طوفان الصور المخاطبة للجماهير. وصف (موريتس هايمان)، مراجع دار نشر (س. فيشر) القدير، صانعي السينما بمرض "الطاعون". أما بعض التربويين المحافظين فقد أشاروا إلى القيمة التربوية للفيلم، والتي لم يتم الاستفادة منها بعد. انظر:

Anton Kaes (Hrsg.) , Kino-Debatte. Texte zum Verhältnis von Literatur und Film 1909-1929, München 1978, insb. S. 37ff. (Döblin) , 59ff. (Pfemfert) und 77 (Heimann).

١٣. مذكرات الرحلة، فبراير ١٩١١ (T937)، استغرقت رحلة العمل إلى فريدلاند من ٣٠ يناير وحتى ٦ فبراير). انظر:

Max Brod, 'Panorama', in: Die neue Rundschau 23 (1912) , S. 1342ff.

أعيد النشر في:

ders. , Über die Schönheit hässlicher Bilder, S. 59-67.

بالغ برود قليلًا بالحديث عن "متعة أجدادنا" (صفحة ٥٩)، لأن افتتاح (بانوراما القيصر) جاء بعد منعطف القرن، وانتقلت الآلاف من شرائح العرض التجسيمية من مدينة لأخرى. عن الخواطر والتجارب الأولى حول الفيلم الثلاثي الأبعاد انظر:
Ray Zone, Stereoscopic Cinema & The Origins of 3-D Film. 1838-1952, Lexington, KY 2007.

لم تكن فكرة كافكا قابلة للتنفيذ؛ لأنها كانت ستجبر المتفرجين على الجلوس مرة أخرى أمام صناديق المشاهدة، وبما أن القاعة لا تستوعب إلا خمسة وعشرين مشاهدًا؛ كانت أسعار تذاكر الدخول سترتفع بشدة، لتغطية تكلفة إيجار نسختين من كل فيلم. لن يبدأ تاريخ الفيلم الثلاثي الأبعاد، الصالح للعرض الجماهيري، إلا مع النجاح في وضع صورة على "اليسار" و"اليمين" على الشريط السينمائي ذاته.

١٤. خطاب إلى (إلزه تاوسيج)، ٢٨ ديسمبر ١٩٠٨ (B1 29ff.). انظر المذكرات، ٢ يوليو ١٩١٣ (T564): "النار التي خلقت منها في حمام أختي صورة سينمائية غريبة." نجد صورًا من الإعلان عن فيلمي الضابط الظمآن، وضابط الحرس الشهم بملخصات للأحداث لدى:
Hanns Zischler, Kafka geht ins Kino. Reinbek 1996, S18f.

١٥. خطاب إلى (فيليس باور)، ٤ و٥ مارس ١٩١٣ (B1 121f.). انظر:
Albert Bassermann, 'Kinodarsteller und Bühnenkünstler', in: Bohemia, 30. Januar 1913, S. 12.

نستنتج وجوب رؤية كافكا لهذه المقالة من أنها كانت مطبوعة إلى جانب المقالة النقدية، التي كتبها (أوتو بيك) عن كتابه الأول تأملات.

١٦. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٤، ١٥ مارس ١٩١٣ (B1 135).

١٧. بطاقة بريدية إلى ماكس برود، ٢٥ فبراير ١٩١١. الفصل الأول من كتاب ريتشارد وصامويل، للكاتبين ماكس برود وفرانز كافكا (D428f.). انظر:
Zischler, Kafka geht ins Kino, S. 47ff.

١٨. انظر:

Brod, Streitbares Leben, S. 185.

يذكر هنا الاسم الممنوح باللغة التشيكية: "تاتا دلوهان"، لا تلعب (ماري بيكفورد) في فيلم سيقان أبي الطويلة (المأخوذ عن رواية جان فيستر بالعنوان نفسه) دور البطولة فحسب؛ بل كان أيضًا الفيلم الأول الذي سيطرت من خلال إنتاجه على العمل كاملًا.

١٩. خطاب إلى إيلي هيرمان ١٩٢٤ (غير منشور). نجد على ظهر هذا الخطاب باللغة التشيكية الرسالة المتعلقة بزيارة دور العرض السينمائي، والموجهة إلى مديرة المنزل، (ماري فيرنروفا)، التي عملت لسنوات طويلة لدى آل كافكا.

الموظف المساعد المثالي

١. خطاب إلى (فيليس باور)، ٨ و٩ يناير ١٩١٣ (B2 26-29). يتحدث برود عن هذه الواقعة في مذكراته غير المنشورة، بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩١٠: "قال لي كافكا إنه ضحك في وجه رئيس المؤسسة، حينما شكره على التعيين. – نحن نواسي بعضنا." (كان برود قد كتب لتوه خطاب وداع غاضبًا إلى حبيبته.) عن واجبات "الموظف بدرجة كاتب" وسلطة التوقيع داخل شركة التأمين ضد الحوادث انظر مقدمة الإصدار المنقح لكتابات كافكا الوظيفية (AS 16ff.). وقّع كافكا في سنوات لاحقة مخاطبات لم يكتبها ولم يقرأها، انظر: خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٠، ٢١ ديسمبر ١٩١٢ (B1 348f.). لم يبقَ خطاب الاعتذار الموجه إلى (أوتو بريبرام).

٢. محضر الجلسة السادسة لبرلمان الرايخ الألماني ليوم ١٥ مارس ١٨٨٤، صفحة ٧٤.

٣. خطاب إلى (فيليس باور)، ١ و٢ يناير ١٩١٤ (B2 313).

٤. انظر المرجع التالي، مع الهوامش التابعة لهذا الموضع في صفحة ٦٥٥:
Stach, Kafka. Die Jahre der Erkenntnis, S. 292f.

وصف "لواقعة الهجوم على المحاضر الدكتور كافكا" انظر جريدة (براغر تاجبلات)، ٢ ديسمبر ١٩٠٢، صفحة ٧ وما بعدها. فرض في اليوم ذاته على براغ قانون الطوارئ، وكان ذلك وضعًا محرجًا على الصعيد السياسي؛ لأن الحكم الامبراطوري قد أتم في اليوم نفسه عامه الستين.

٥. انظر قاموس الدولة النمساوي. العدد الأول: A-G. فيينا ١٩٠٥، المقالة عن "التأمين ضد حوادث العمل". الاستشهاد هنا بحسب:. AS Mat 138وجه الليبراليون التشيكيون أيضًا بعض الاتهامات الساذجة، يقدم لنا (رودلف هوتوفيتس) بمقالته "المعرض الاحتفالي للتجارة والصناعة في براغ ١٩٠٨" مثالًا حيًا لذلك. انظر:

Čechische Revue, Prag, 1 (1907) , S. 885-899.

٦. خطاب إلى ماكس برود، ٢٩ و٣٠ يوليو ١٩٠٨ (B1 86). خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، بعد ٩ أكتوبر ١٩٠٧ (B1 73).

٧. لم يقم كافكا بإملاء خطابات باللغة التشيكية إلا مع قيام الجمهورية التشيكوسلوفاكية؛ ولكن كانت قبلها لغته التشيكية الشفهية بالجودة التي جعلت رؤساءه في العمل يرغبون في إرساله بوصفه متحدثًا وممثلًا للمؤسسة إلى الاجتماعات التشيكية. انظر خطابه إلى (فيليس باور)، ٢٠ مارس ١٩١٣ (B2 141). الملف الوظيفي الخاص بكافكا موجود اليوم في الأرشيف الأدبي التشيكي داخل دير (شتراهوف) ببراغ. تعد هذه صدفة؛ لأن جميع ملفات شركة التأمين ضد الحوادث في براغ تم التخلص منها بالكامل في الستينيات.

٨. "حجم إلزام قطاع البناء والقطاعات الفرعية التابعة له بالتأمين" (النسخة الألمانية)، في:

Bericht der Arbeiter-Unfall-Versicherungs-Anstalt für das Königreich Böhmen in Prag über ihre Tätigkeit während der Zeit vom 1. Jänner bis 31. Dezember 1907, Prag 1908, S. 4-21 (AS 107-138).

لا نجد أسماءً على المقالات في التقارير السنوية، ولكن يمكننا استنتاج المقالات التي كتبها كافكا من خلال ملفه الوظيفي، وتعليقاته هو الشخصية.

٩. "إلزام مصانع السيارات الخاصة بالواجب التأميني" (النسخة الألمانية) :

Bericht der Arbeiter-Unfall-Versicherungs-Anstalt für das Königreich Böhmen in Prag über ihre Tätigkeit während der Zeit vom 1. Jänner bis 31. Dezember 1908, Prag 1909, S. 10-14 (AS 177-184, siehe insb. 181).

نجد في التقرير السنوي نفسه مقالة أخرى لكافكا عن "توحيد الرسوم التي تدفعها مصانع الماكينات الزراعية الصغيرة" (AS 169-176)، والتي تلمس أيضًا مجالًا تحكمه الصراعات السياسية الاجتماعية (انظر التعليق AS 824ff.).

١٠. انتقد كافكا هذا الموقف ذات مرة بوصفه يفتقر إلى البراجماتية، وهو أمر يدل على أن علاقته بـ (مارشنر) كانت تتسم بالود منذ البداية. قدم كافكا رؤية نقدية لمقالة (مارشنر) "التأمين على الأمومة من منظور علوم التأمين" في مجلة العمل الألماني، مجلة شهرية عن الحياة الفكرية للألمان في بوهيميا. يكتب كافكا في هذا السياق: "يبدو أنه قد تسرع –بدافع حسه الاجتماعي المتعاطف- بإقصاء التأمين الخاص من مجال التأمين على الأمومة." (AS 207).

١١. خطاب إلى (أوسكار باوم). نهاية مارس/بداية أبريل ١٩١٨ (B4 37). طلب (فلايشمان) أكثر من مرة من كافكا أن ينشر مقالات علمية متخصصة، انظر:
Kafka, Briefe 1902-1924, S. 500.

١٢. انظر: AS 167f..

١٣. (NSF2 300-302)، صدرت في عام ١٩٢٠. يبدو أن النص كان منتهيًا، ولكن بلا عنوان، ولم يقم كافكا بنشره. انتهى النص بالعبارات التالية: "لم ير البحار قط، إلا سريعًا وهو يصعد جبل (أوليمبوس)، ولم يعبرها بالفعل. اعتاد القول إنه سينتظر ليقوم بذلك مع نهاية العالم. سيجد حينها لحظة هادئة، بعد مراجعة الفاتورة الأخيرة، ليقوم برحلة صغيرة. عن رواية "القصر"انظر (S. 430ff.)، الهامش (S433). تمنحنا التقارير الحسابية لشركة التأمين تصورًا كميًا عن حجم الأوراق. تم مثلًا إحصاء نحو ٤٠٠٠٠٠ مخاطبة واردة في عام ١٩١٢ (AS Mat 474).

١٤. خطاب إلى ماكس برود، صيف ١٩٠٩ (B1 108). كانت "فرق الأحياء الرئيسية" عبارة عن مقاطعات (يستخدم هذا المصطلح اليوم في النمسا لمكاتب الإدارات التابعة). كان كافكا مسؤولًا عن المقاطعات (فريدلاند)، و(ر)، و(رومبورج)، و(جابلونس).

١٥. (V 201f.) – انظر "الإحصائية النمساوية للحوادث لعام ١٩١٠"، التي تقدم قائمة بالبيانات المقارنة منذ عام ١٨٩٠ (AS Mat 662ff.). نجد إحصائية بالحوادث القاتلة في السنوات ١٩١٠-١٩١٣ في (AS Mat 294).

١٦. "إجراءات الوقاية من الحوادث وقت التعامل مع ماكينات نشارة الخشب"، في:
Bericht der Arbeiter-Unfall-Versicherungs-Anstalt [für das Jahr] 1909, Prag 1910, S. 7-12 (AS 194-201).

"الوقاية من الحوادث في المحاجر"، في:
Bericht der Arbeiter-Unfall-Versicherungs-Anstalt [für das Jahr] 1914, Prag 1915, S. 59-78 (AS 378-414).

نجد في هذا النص بعض الإشارات إلى النص الأدبي غير المكتمل في أثناء بناء سور الصين، انظر (AS 876ff.). حرر كافكا للتقارير الحسابية للشركة العديد من النصوص الأخرى المتعلقة بالوقاية من الحوادث. (انظر٢١٢-٢٢٩, ٢٤٢, ٢٦٩-٢٧١, ٢٧٢-٢٧٤, ٤٥٧-٤٧٠, ٤٧٩-٤٩٣).

١٧. انظر فصل "ثلاثة مؤتمرات في فيينا"، في:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 395ff.

في الطلب المقدم من شركة التأمين ضد حوادث العمل بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩١٥، لإعفاء كافكا من أداء الخدمة في الحرب، يطلق عليه أنه "مسؤول عن تصنيف الشركات في البرنامج الخاص بالوقاية من الحوادث والإسعافات الأولية" (AS Mat863).

١٨. طلب كافكا بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٠٩ وكذلك رد المديرية في (B1 111f, 611). ألقى البروفيسور (كارل ميكولاشيك، ١٨٥٠-١٩٢٠) المحاضرات في كلية الهندسة، وذلك أربع مرات أسبوعيًا، بداية من الساعة الثامنة صباحًا. كان العنوان: "تصنيع المواد الليفية، المواد الليفية النباتية والحيوانية، أعمال الغزل والحياكة، والتجهيز، وتصنيع الورق."– عن الصراعات الداخلية التي دارت حول تحميل "المكتب القانوني" فوق طاقته انظر الخطاب المحبط لـ (فلايشمان) الموجه إلى (مارشنر) في ٨ يوليو ١٩١١، مطالبًا إياه بأن ينقله من وظيفة رئيس القسم (AS Mat361ff.).

١٩. بطاقات بريدية إلى ماكس برود، خريف ١٩٠٩ (مع صعوبة قراءة ختم البريد)، و٢٢ ديسمبر ١٩٠٩ (B1 114, 115). تقع الأماكن التي يذكرها كافكا في منطقة شمال بوهيميا الصناعية (من بينها جرانسن دورف، المكتوبة خطأ، وهي اليوم هرانيتشنا)، في محيط يبلغ عشرة كيلومترات، ويمكن الوصول إليها بخطوط الترام. توقف لمدة أربعة أيام في (بيلزن) على الأقل، ويبدو أنه كان بصحبة زملائه؛ إذ كتب إلى برود: "أمر جيد أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء، وأننا سنصل غدًا في المساء إلى براغ." أرسل قبلها بيومين بطاقات بريدية إلى كل من أوتلا وإيلي (B1 114f.). حان مع بداية عام ١٩١٠ التقييم المعتاد كل خمس سنوات لدرجات الخطورة في العديد من مؤسسات بوهيميا ("إعادة التقييم"). هدفت في الأغلب الزيارات التفتيشية للمؤسسات، التي قام بها كافكا مع نهاية عام ١٩٠٩، إلى تحديد وضعها والتعامل مع المؤسسات التي كانت تهدد بالاعتراض. انظر التفاصيل في:

Hartmut Binder, ´Vollweberei oder Baumwollweberei. Neues vom Büroalltag des Versicherungsangestellten Franz Kafka`, in: Sudetenland 39 (1997) , H2. , S. 106-160, hier S. 118ff.

٢٠. انظر خطاب كافكا إلى "الرئيس المبجل" لشركة التأمين ضد حوادث العمل في ١٧ أغسطس ١٩٠٩، وكذلك طلبه للإجازة "بالتقرير الطبي" الذي حرره الدكتور (زيجموند كون) في ١٩ أغسطس ١٩٠٩ (B1 108f. , 109, 454f.). جاءت خطابات الإجابة من الشركة في ٢٠ أغسطس و١١ سبتمبر ١٩٠٩ (انظر B1 609f.).

٢١. انظر الفاكسيميل الخاص "قائمة مؤهلات" كافكا (AS Mat 856ff.). تقدم "القائمتان الوظيفيتان"، الموجودتان حتى اليوم، رؤية دقيقة لترقيات كافكا وتفاصيل دخله (AS Mat 866ff.).

مدرسة الأدباء السرية

١. انظر (NSF1 17f, 40) – لم يكتب كافكا عنوان "استعدادات لحفل عرس في الريف" في أي مكان، ولكن كان ماكس برود متأكدًا من أن كافكا قد بلغه هذا العنوان شفهيًا (NSF App 37).

٢. انظر (NSF1 App142).

٣. بحسب ما يتذكره ماكس برود فإن الفقرة التالية من عمل التربية العاطفية قد أعجبت كافكا بشكل كبير: "مرت عن قرب من جانبه سيدات مسترخيات في الحناطير، ترفرف أغطية رؤوسهن مع الريح، مع الخطوة القوية للفرس، التي تتأرجح بشكل غير ملحوظ، مع صوت صرير للجامها البراق. زاد عدد الحناطير، وتراجعت سرعتها بداية من الميدان، لتملأ الطرق بأكملها. اصطفت جنبًا إلى جنب عُرُف الفرس، وأعمدة النور، تلألأت الرِّكاب المصنوعة من الصلب، والزمام الفضية، والمشابك المصنوعة من النحاس الأصفر بين البناطيل القصيرة، والقفازات البيضاء، والفراء؛ الذي تدلى على باب الحنطور مغطيًا شعار النبالة «... » سحب سائقو الحناطير ذقونهم إلى داخل أربطة عنقهم، تسارعت العجلات، وصرير الزلط مسموع. واصلت الحناطير بخطوة قوية طريقها عبر الشارع الطويل، وهي تتلامس وتتسابق وتتفادى بعضها البعض، ثم تناثرت في اتجاهات مختلفة بوصولها إلى ميدان (بلاس دو لاكونكورد)." انظرالرسالة الموجهة إلى (هارتموت بيندر) في:

ders. , Kafka-Kommentar zu sämtlichen Erzählungen, München1975, S. 65f.

تم استشهاد نص (فلوبير) من الترجمة عن الفرنسية التالية:

Cornelia Hasting, Die Erziehung der Gefühle, Frankfurt am Main 2010, S. 34f.

راجع في عمل "استعدادات لحفل عرس في الريف" العبارات التالية: "مرت من جانبه ببطء عربة مفتوحة، خلف مصباحي العربة المضيئين، جلست سيدتان على الدكة الجلدية الداكنة اللون. استندت واحدة منهما إلى الخلف، وغطت وجهها طرحة وظل القبعة. ولكن كان الجسد العلوي للأخرى مستقيمًا، وقبعتها صغيرة، يحددها

ريش رقيق. تسنى للجميع رؤيتها"... » تسارعت العربات من زقاق إلى زقاق، عبر الميدان، طارت أجساد الفرس في خط أفقي، كأنها مقذوفة، ولكن أظهرت حركة الإيماء للرؤوس والأعناق الدفعة والجهود المبذول في الحركة." (NSF1 19f.).

٤. خطاب إلى (فيليس باور)، ١٥ نوفمبر ١٩١٢ (B1 237).

٥. نجد في تركة كافكا العدد التالي (والذي لم يُقرأ في الأغلب) :

Ernst Wilhelm Fischer. Etudes sur Flaubert inédit. A la Nièce de Gustave Flaubert, Madame Caroline Franklin-Grout, Leipzig 1908.

وكذلك:

Gustave Flaubert, Briefe über seine Werke, hrsg. von F. P. Greve, Minden/Westfalen 1909.

وهو كتاب قد شغله أيضًا في عام ١٩١٥ (B3 123).

هدايا كافكا إلى برود كانت:

René Dumesnil, Flaubert. Son hérédité, son milieu, sa methode (Paris 1905).
François Coppée, Souvenirs d´un parisien (Paris 1910).

اشتمل الكتاب الأخير على فصلين عن الكاتب (فلوبير)، انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 232.

انظر أيضًا:

Max Brod, 'Gustav Flaubert`, „Erinnerungen eines Narren", in: Neue freie Presse, Wien, 16. Februar 1908, S. 36.

وللمؤلف ذاته:

'Ein Besuch in Prag`, in: Bohemia, 8. Oktober 1909.

بحسب مذكراته فإن برود قد التقى بالسيدة (كارولين فرانكلين-جرو، المولودة باسم كومانفيل) وزوجها في فندق "النجمة الزرقاء" ببراغ، وذلك في الساعة الحادية عشرة صباحًا يوم ٦ أكتوبر ١٩٠٩. لم يحضر كافكا هذا اللقاء.

٦. (V 283ff). نجد في المرجع التالي تحليلًا لهذا المشهد، فضلًا عن تناول الدراسة لمضمون نصوص عمل تأملات من منظور فن السينما:

Peter-André Alt. Kafka und der Film. Über kinematographisches Erzählen, München 2009, S. 80.

٧. انظر التدوينة في يوم ٣١ ديسمبر ١٨٣٦، في:

Friedrich Hebbel, Tagebücher 1835-1848, München 1984, S. 98f.

٨. خطاب إلى ماكس برود، بداية يوليو ١٩٠٩ (B1 104). يتضح من هذا الخطاب اختفاء بعض الأوراق من نص "استعدادات لحفل عرس في الريف" في عام ١٩٠٩.

٩. ماكس برود، المذكرات، ٦ يوليو، ٣٠ ديسمبر ١٩١٠. يشتمل أيضًا كتاب مذكرات في أبيات شعرية لبرود في النسخة المخصصة للطبع على واحدة وخمسين قصيدة، صدر الكتاب مع بداية أكتوبر ١٩١٠ لدى الناشر (أكسيل يونكر) في برلين-شارلوتنبورج.

١٠. خطاب إلى ماكس برود، ٩ يونيو ١٩٠٨ (B1 84).

١١. ماكس برود إلى (أولجا سالوس)، ١٩ يناير ١٩٠٧، في:

Max Brod [-Bibliographie], hrsg. von Werner Kayser und Horst Gronemeyer, Hamburg 1972, S. 24.

١٢. انظر:

Leo Herrmann, 'Jüdische Volksstimme', in: Selbstwehr, 20. April 1909.

انظر رد القراء الذي أرسله ماكس برود في:

Prager Tagblat,1. April 1909, S. 7.

"لم أرغب في إظهار رأيي السياسي، بل رأي بطلي المختلف عني تمامًا «... » إنه في ريعان شبابه (أظنه لم يتخطَ العشرين)، مندفع، ولا يصل لمستوى ذكائي." نجد في المرجع التالي قائمة بردود الأفعال الألمانية والتشيكية على عمل الخادمة التشيكية:

Gaëlle Vassogne, Max Brod in Prag: Identität und Vermittlung, Tübingen 2009, S. 42ff.

الصراعات القومية التي ظلت تتجدد في الفترة من يناير إلى مارس ١٩٠٩، ولم يتم السيطرة عليها إلا بتدخل قوي للشرطة، اشتعلت مجددًا بسبب مسيرة بالزي الموحد قام بها طلاب الاتحادات الألمانية يوم الأحد. صدرت الطباعة المبدئية للقصة التشيكية في مجلة (بلاي) الأوبال، الجزء الثاني في عام ١٩٠٧، صفحة ٣٩-٨٢، تحت عنوان "الخادمة التشيكية، قصة لماكس برود، هي مكتوبة من أجل (فرانز بلاي) لأنه أعجب ببراغ". أثبت ذلك أن القصة التشيكية قد نشأت في التوقيت ذاته مع نص قصر نورنبيبجة (ولكن يبدو أن القوميين في براغ لم يلتفتوا إلى هذا الإصدار).

١٣. انظر:

Brod, Der Prager Kreis, S. 207.

انظرخطاب برود إلى ناشره (أكسيل يونكر)، الذي قام من خلاله بالدعاية لكتابه الأول الموت للموتى!: "أرقى من الأحداث البسيطة اليومية إلى المشاكل الأكبر حجمًا، وأظن أنني قد وجدت لها حلولًا أبدية من خلال فلسفة جديدة منهجها الحيادية. ٢١ يونيو ١٩٠٥، الاستشهاد بحسب المرجع التالي:

Hartmut Binder, 'Die Entdeckung Frankreichs. Zur Vorgeschichte von Kafkas und Brods Paris-Reisen`, in: Euphorion 95 (2001) , S. 441-482, hier S. 460.

١٤. برود، المذكرات، ٢١ ديسمبر ١٩١٠. راجع أيضًا خطاب كافكا إلى برود يوم ١٣ مارس ١٩٠٩: "البريد وظيفة بلا أي طموح، وهو العمل الوحيد المناسب لك." (B1 98)

١٥. تمسك (باوم) بموقفه حتى عام ١٩٣٨. أنهت جريدة (براغر بريسة) بعد ذلك تعاملها معه، يبدو بسبب الضغوط التي مارسها الاشتراكيون القوميون من الألمان السوديت. توفي (أوسكار باوم) في ١ مارس ١٩٤١ بسبب تبعات عملية طبية أجريت له في المستشفى اليهودي في براغ. بما أنه كان ناشطًا سياسيًا في الثلاثينيات، وقد شارك في مؤتمر براغ عام ١٩٣٥ "ضد تدمير الثقافة وحقوق الإنسان في ألمانيا"، فمن المؤكد أنه كان سيقع ضحية لموجة التدمير المعادية للسامية. تم ترحيل زوجته (مارجاريت) في ٩ سبتمبر عام ١٩٤٢، وقتلت بعد ذلك في أحد المعسكرات. تمكن ابنها الوحيد (ليو، المولود في ١٧ ديسمبر ١٩١٠) من الهروب إلى فلسطين، ولكنه قتل في عام ١٩٤٦ في القدس في أثناء تفجير يهودي. ألقى باوم محاضرته عن برود في "اتحاد القاعة للقراءة وإلقاء الخطب" في ٢٠ ديسمبر ١٩٠٨، بعد ظهور قصصه تحت عنوان وجود على الهامش.

١٦. انظر خطاب (باوم) إلى ماكس برود في عام ١٩١٦، والذي يشكو فيه (باوم) من "تكرار كلمة ضرير" (يبدو حدوث ذلك خلال إحدى ندوات القراءة من أعماله). مطبوع في:

Sabine Dominik, Oskar Baum (1883-1941). Ein Schriftsteller des „Prager Kreises", Würzburg (Diss.) 1988, S. 283.

عن سعادة (باوم) "بعدم الالتفات" إلى أعماله الأدبية انظر كتابته:

'Selbstbegegnung`, in: Alt-Prager Almanach 1927, hrsg. von Paul Nettl, Prag 1927, S. 98-103, hier S. 103.

١٧. انظر:

Oskar Baum, 'Rückblick auf eine Freundschaft` (1929) , in: Koch, „Als Kafka mir entgegenkam... ", S. 72.

١٨. عن إعجاب كافكا وشعوره بالغيرة، وعن العلاقة المتوترة بين برود و(فيرفل) انظر:
Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 41ff.

١٩. انظر:

Brod, Der Prager Kreis, S. 106f.

يستشهد برود بخطة محاضرته والتعليق التالي لكافكا. قام (أوسكار باوم) بالتعليق أيضًا.

٢٠. انظر:

Max Brod, 'Prager Dichterschule?', in: Der Friede, 6. September 1918, S. 168.

عن تفاصيل أكثر، خاصة حول الهجوم الموجه ضد عالم الأدب والناقد (يوزيف كورنر)، انظر:

Körner, Philologische Schriften und Briefe, hrsg. Ralf Klausnitzer, Göttingen 2001, S. 401f.

٢١. انظر المرجعين التاليين:

Max Brod, 'Ein mittelmäßiger Kopf. Studie. Betrachtungen über Essayismus und Polemik gegen Karl Kraus`, in: Die Aktion, 3. Juli 1911. Sp. 622ff.
Karl Kraus, 'Selbstanzeige`, in: Die Fackel, H. 326-328, 8. Juli 1911, S. 34-36.

نعرف من خطاب غير منشور، من برود إلى (هاز) في ١٦ أغسطس ١٩١١، حضور كافكا لمحاضرة (كراوس) الثانية على الأقل في براغ، انظر:

Binder, Kafkas Welt, S. 292.

يدعي برود هنا أن كافكا قد غادر المكان قبل الميعاد؛ لأنه وجد محاضرة (كراوس) لا تُطاق. على خلفية الخلاف الشديد بين برود و(كراوس)، علينا أخذ هذه المعلومة بتحفظ بالطبع. عن استمرار هذا الخلاف انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 398ff.

٢٢. انظر المرجعين التاليين:

Baum, 'Rückblick auf eine Freundschaft`, S. 73.
Weltsch, 'Kafka als Freund`, S. 76.

٢٣. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 46.

٢٤. المذكرات، ١٩ فبراير ١٩١١ (T30)، انظر أيضًا خطاب إلى (فيليس باور)، ١٤ أغسطس ١٩١٣: "ليس لدي اهتمام بالأدب فحسب، بل أتكون من الأدب، لست شيئًا آخر، ولا أريد أن أكون شيئًا آخر." (B2 261). كان لكافكا محاولات بين الحين والآخر، ليس شطب العبارات، التي تبدو بريئة، فحسب، بل جعلها "كأنها لم تكن". نجد مثالًا لذلك في وصف لسيدة كان يراقبها على المنضدة المجاورة في المقهى: "تدرك للحظة ضخامة جسدها، فتبتعد قليلًا عن المنضدة، ثم تنسى الأمر وتتناول الجعة." ظل كافكا يشطب العبارة الثانية بدرجة لا تسمح بقراءتها. (المذكرات، ٢٤ أغسطس ١٩١١، T39, T App 172)

٢٥. هذه التدوينات الأولى التي وصلتنا في دفتر مربع، وهي من ١٩٠٩ بكل تأكيد، غالبًا في الصيف أو الخريف. (T9، عن صعوبة التأريخ انظرT App 172). أما مذكرات برود غير المنشورة فبدأت منذ يوم ٤ سبتمبر ١٩٠٩. يبدو أن أول عبارة لكافكا تقصد انطباعًا أخذه في زيارة لعرض سينمائي، إذ كان مشهد القطار، "المرعب" للمشاهدين، وهو قادم من الأمام، أو متقدم بسرعة كبيرة عن قرب، هو مشهد الفزع المحبب في الفيلم الصامت في بداياته، انظر:

Alt, Kafka und der Film, S. 13ff.

الهبوط في (بريسكيا)

١. انظر خطاب إلى ماكس برود، بداية سبتمبر ١٩٠٨ (B1 88). يثبت هذا الخطاب، وكذلك بطاقة بريدية موجهة إلى (ريفا) بتاريخ ٩ سبتمبر أن ادعاء برود، لزيارته الأولى لريفا مع كافكا، غير صحيح. انظرالمرجعين التاليين:

Brod, Über Franz Kafka, S. 92.
Brod, Streitbares Leben, S. 243.

تقع، وقتها أيضًا، جزر (بوروميو) في الجزء الإيطالي من منطقة (لاجو ماجيورة).

٢. انظر إعادة تحديد بيانات الرحلة، الذي قام به (هارتموت بيندر) بشكل مقنع وقائم على الأدلة:

Hartmut Binder, Mit Kafka in den Süden. Eine historische Bilderreise in die Schweiz und zu den oberitalienischen Seen, Prag 2007, S. 14.

سيستند هذا الفصل في أكثر من موضع إلى تحريات (بيندر) الدقيقة.

٣. خطاب إلى ماكس برود، في الأغلب صيف ١٩٠٩ (Bl 102f.). نجد وصفًا لخط السير الذي اقترحه كافكا موضحًا بصور من هذه الفترة في المرجع التالي:
Binder, Kafkas Welt, S. 205ff.

٤. انظر:
Max Brod, 'Zirkus auf dem Land', in: Die Schaubühne, 16. Dezember 1909, S. 33.

يتضح اشتراك كل من (فيلتش) وكافكا في رحلة (دوبريشوفيتس) من تدوينة لبرود في مذكراته ٢٠/ ٣١ مايو ١٩٠٩. يتحدث ماكس برود في بطاقة بريدية غير منشورة إلى (فيليكس فيلتش) في يوم ١٣ أغسطس ١٩٠٩ عن رحلة إلى (بيراون). يتضح من أسلوب برود أن اصطحاب معارف جديدة إلى هذه الرحلات كان ممكنًا، في هذه الحالة هو (فرانز هوبوتر)، عالم الصينيات المقيم في برلين. (مجموعة رولاند تيمبلين في برلين، الذي قدم لي مشكورًا صورة من هذه البطاقة البريدية، ومعلومات تتعلق بها.)

٥. انظر:
Brod, Streitbares Leben, S. 23.

كان امتحان الماتورا الذي دخله (فيرفل) في عام ١٩٠٩.

٦. انظر:
Max Brod, 'Nachruf auf eine Badeanstalt', in: Prager Tagblatt, 1. August 1926, S. 3.

(تم هدم حمام "باجني ألا مادونيني"، وبناء حمام "باجني إكسيلزيور" مكانه). انظر البطاقة البريدية إلى إيلي كافكا، ٧ سبتمبر ١٩٠٩ (Bl 110). لا نعرف الفندق الذي نزل فيه كافكا والأخوان برود؛ ولكنه لم يكن محجوزًا بشكل مسبق.

٧. كان مضمون تحية (هاينريش مان): "لا يهم الكاتب شيء مثل حُبّ الشباب، الذي لم يمر بالتجربة كثيرًا." بلغ (مان) في هذا التوقيت السادسة والثلاثين من عمره، ماكس برود، الذي يخاطبه هنا، كان في الثالثة والعشرين من عمره. انظر:
Max Brod, Streitbares Leben, S. 242f.

قرأ (هاينريش مان) من روايته صيد الحب يوم ٤ ديسمبر ١٩٠٧ في اتحاد "القاعة للقراءة وإلقاء الخطب".

٨. عن مصحة (هارتونجن) وبقاء كافكا هناك في خريف ١٩١٣ انظر:
Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 420ff.

٩. انظر:
Max Brod, 'Blériot', in: Die Gegenwart 38 (1909), H. 37, S. 676.

نجد وصفًا دقيقًا لرحلة طيران (بليريو) وبعض الصور في:
Allgemeine Automobil-Zeitung Wien, 1. August 1909.

يقدم المرجع التالي أمثلة مفيدة لعمليات التعظيم من شأن (بليريو) في هذه المرحلة:
Felix Philipp Ingold, Literatur und Aviatik. Europäische Flugdichtung 1909-1927, Frankfurt am Main 1908, S. 86ff.

١٠. كتب برود في سيرته عن كافكا: "إنه كافكا الذي دفعنا لهذه الرحلة"، انظر:
Über Franz Kafka, S. 92.

ولكن بحسب وصفه في وقت لاحق فإن أخاه (أوتو) "هو العنصر الدافع لخوض هذه المغامرة". انظر:

Brod, Der Prager Kreis, S. 192.

١١. يقدم (بيندر) وصفًا مصورًا ببطاقات تاريخية لرحلة الباخرة هذه. انظر:
Binder, Mit Kafka in den Süden, S. 42ff.

١٢. الاستشهادات موجودة في (D App 516f). صدرت نسخة مختصرة من تقرير كافكا في:
Die Aeroplane in Brescia, Bohemia, 19. September 1909, Morganausgabe S. 1-3.

أما تقرير برود أسبوع الطيران في بريسكيا فرفضته رئاسة تحرير جريدة (نوية روندشاو)، ثم صدر مع نهاية أكتوبر في جريدة ميونيخ مارس (صفحة ٢١٩-٢٢٦). حاول برود لاحقًا نشر المقالتين في مجموعته عن جمال الصور القبيحة (لايبتسيج ١٩١٣)، (حيث وافق كافكا على مضض، T242)، ولكن بعد وضعهما في المجموعة، تم استبعادهما مرة أخرى حتى لا يتضخم الإصدار. نشر النص الكامل لكافكا من تركته، بوصفه مرفقًا في سيرة كافكا الحياتية التي كتبها برود. يقدم العدد
Max Brod/Franz Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen (Frankfurt am Main 1987).

التقريرين جنبًا إلى جنب (صفحة ٩-٢٦). يقع اليوم المطار الصغير (إيروبورتو ديبريسكيا مونتي كياري، الذي لقب باسم جابرييل دانونسيو) إلى جانب ساحة طيران (مونتي كياري) مباشرة.

١٣. انظر:

Curzio Malaparte, Due anni di battibecco 1953-1955, Florenz 1967, S. 101f, zitiert nach Binder, Kafka Handbuch, Bd. 2, S. 724.

الاستشهاد الكامل جاء كما يلي: "قال لي: "انظر، حتى هو! هل كان لك أن تتخيل ذلك؟ إنه يأتي إلى إيطاليا، ولا يجد شيئًا يفعله سوى إهانتي. إنه موظف صغير في شركة تأمين براغية؛ ولكنه فنان كبير وروح راقية. انظر من يطلب الكلمة ليتحدث عني: الموظف الصغير.""

١٤. المذكرات، ٢٧ يناير ١٩٢٢ (T892).

١٥. نجد طبعة لهذه الصورة في مجموعة (رولاند تيمبلين) ببرلين؛ والذي تفضل مشكورًا بتقديم طبعة لدار نشر (س. فيشر)، انظر جزء الصور.

١٦. انظر:

Peter Demetz, Die Flugschau von Brescia. Kafka, D´Annunzio und die Männer, die vom Himmel fielen, Wien 2002, S. 235.

تقدم هذه الدراسة معلومات أيضًا عن أصول وأقدار الطيارين الآخرين الحاضرين في (بريسكيا).

١٧. العمل غير المكتمل الذي لا يحمل اسمًا موجود في (NSF1 365-367).

في قلب الغرب

١. توثق بعض التدوينات القصيرة في مذكرات برود غير المنشورة أن برود كان يعاني من صعوبات في العمل، وأن رحلته إلى باريس كانت هروبًا. ولد (جورج كارس) باسم (كاريليس) في عام ١٨٨٢ في (كرابولي) بالقرب من براغ، ثم استقر منذ عام ١٩٠٨ في باريس.

٢. تدوينات برود في أثناء رحلة باريس الأولى منشورة في:

Max Brod/Franz Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 27ff.

الاستشهادات الواردة هنا موجودة في صفحة ٢٩ و٣٤.

٣. في المرجع السابق، صفحة ٢٨، والتعليق الوارد في صفحة ٢٦٩ وما بعدها.

٤. خطاب إلى (هيدفيج فايلر)، ١٥ سبتمبر ١٩١٠ (B1 61). انظر أيضًا:

Prager Tagblatt, 18. Januar 1910, Morgen-Ausgabe, S. 5.

دون برود ملحوظة عن حضوره هو وكافكا هذه المحاضرة في مذكراته.

٥. خطاب إلى (ماكس برود)، ١٢ مارس ١٩١٠ (B1 118f.).

٦. المذكرات، بداية عام ١٩١٠ (T13-16). لا يمكننا وضع تاريخ أكثر دقة. التدوينة التالية مفصولة بشرطة مائلة، وهي يوم ١٨/١٧ مايو، أي "ليلة ظهور المذنب".

٧. نجد تفاصيلَ وصورًا عن رحلات كافكا إلى باريس في المرجعين التاليين:
Hartmut Binder, Kafka in Paris, München 1999.
Hartmut Binder. 'Die Entdeckung Frankreichs', S. 441-482.

تدوينات برود الخاصة بالرحلات عامي ١٩١٠، ١٩١١ مطبوعة في:
Max Brod/Franz Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen.

نفهم من البطاقتين البريديتين، إلى ماكس وأوتو برود في ٢٠ أكتوبر ١٩١٠، أن كافكا كان في بداية الرحلة مريضًا، إذ اشتكى من "اللواصق الطبية في براغ، و(نورمبرج)، وباريس" (B1 127).

٨. "يجب عليَّ تقبل أنها «ميلانا يسانسكا» بعيدة المنال عني، قواي في حالة تسمح بالقيام بذلك بابتهاج. يضاف إلى معاناتي شعوري بالعار، يشبه حالي حال نابليون، لو أنه قال للجن الذي ناداه إلى روسيا: "لا يمكنني الحضور الآن، إذ يجب شرب حليب المساء أولًا." ثم يجيب على سؤال الجن عن التوقيت بأنه "يجب شربها على مهل."" (خطاب إلى ماكس برود، حوالي ١٣/ ١٤ أبريل ١٩٢١). في:
Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Briefwechsel, S. 337.

عن بعض التعليقات الشفهية الأخرى لكافكا التي تعبر عن إعجابه بنابليون انظر خطاب إلى (فيليس باور)، ٣٠/ ٣١ ديسمبر (B1 375).

٩. انظر المرجعين التاليين:
Brod, Über Franz Kafka, S. 231.
Brod, Streitbares Leben, S. 188.

اللوحة المتعددة النسخ، رسمها (جان هوبر، ١٧٢١-١٧٨٦)؛ الذي كان ينتمي إلى دائرة أصدقاء (فولتير) في جنيف.

١٠. (NSF1 324ff.) و(NSF1 App 281f.). إنها نسخة مبدئية من النص الخامس الجديد (NSF1 326f.)، نشأ النص في ١٠ فبراير ١٩١٧، نشر بوصفه النص الأول في عدد طبيب الأرياف. قصص صغيرة (١٩٢٠).

١١. انظر:

Max Brod, ´Bei Flaubert`, in: Max Brod/Franz Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 56-66, S. 59.

نشر هذا النص أولًا في جريدة بان يوم ١ ديسمبر ١٩١٠ـ اشترى كافكا في باريس نسخة جديدة من عمل التربية العاطفية، صدر عن دار نشر كونارد.

١٢. "حلمت في ليلتي الأولى في براغ الليلة بأكملها «... » أنني دخلت بيتًا كبيرًا لقضاء ليلي فيه، وأنه كان عبارة عن حناطير باريسية، وعربات، وأتوبيسات... إلخ. لم يشغلهم سوى التدافع بعنف والتداخل، ولم تدر الأحاديث والأفكار إلا عن التعريفة، والمواصلات، والمواصلات التالية، والبقشيش، واتجاه (بيرير)، والنقود المزورة... إلخ. (بطاقة إلى ماكس وأوتو برود، ٢٠ أكتوبر ١٩٠١، B1 127). يوثق خطاب إلى (فيليس باور)، ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ زيارة كافكا إلى صالون به جراموفون يعمل بالعملة: "لا يلزمني سماع الجراموفون، أشعر أن وجوده في هذا العالم يمثل تهديدًا. لم يعجبني إلا في باريس فقط، إذ أنشأت شركة (باتيه) صالونًا به أسطوانات، حيث تدفع عملة صغيرة، وتستمع إلى برنامج لا ينتهي (بعد الاختيار من كتيب سميك بعرض البرنامج الكامل). يجب أن يكون لديكم في برلين شيء مشابه، إن لم يكن موجودًا بالفعل." (B1 275).

١٣. انظر:

´Das Ende des „Moulin Rouge"`, in: Prager Tagblatt. 3. Januar 1903, S. 7.

١٤. (V387, 389, 294). نجد في المرجع التالي مقارنة مفصلة بين "ساحة سباق كلايتون" وساحة سباق "لونج شامب":

Binder, Kafka in Paris, S. 108ff.

يعود (لوج الرؤساء) مرة أخرى في الرواية، في صورة يتأملها (كارل روسمان) وهو في ساحة السباق (V412f.). صدر نص تأملات للفرسان (D20f.) في ٢٧ مارس ١٩١٠ في ملحق خاص بعيد الفصح لمجلة (فضلًا عن أربعة نصوص أخرى). أخذ كافكا هذا النص مرة أخرى في كتابه الأول تأملات.

١٥. مكث كل من ماكس وأوتو برود اثني عشر يومًا آخرين في باريس؛ حيث تكررت زيارتهما لمتحف اللوفر. زار ماكس ابنة أخ (فلوبير)، التي كان قد رآها في براغ، ثم ذهب بعد ذلك، وحده في الأغلب، إلى (روان)، و(كروازيه)، و(لو هافر). حاول في باريس أيضًا الاتصال بالكاتب (ريلكه)، ولكنه لم يجده في شقته. انظر:

Max Brod/Franz Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 38-49.

على خلاف كافكا فإن برود قد استفاد على الصعيد الصحفي من هذه الرحلة، إذ صدرت له أيضًا المقالتان "أفكار جانبية مضطربة"، و"الاستمراض الكبير" (انظر المرجع السابق صفحة ٥٢ـ٧٠).

(.B1 127f, 791f). ترد هنا أيضًا معلومات عن مرض كافكا الجلدي.

أفكار وأشباح: (بوبر) و(شتاينر) و(أينشتاين)

١. بطاقة بريدية من (فرانز فيرفل) إلى ماكس برود، ١١ مايو ١٩١٠، في أرشيف الأدب الألماني (مارباخ) على نهر (نيكار). توثق مذكراته غير المنشورة هذا "اللقاء الكبير" الذي تم في ١٥ مايو، وحضره أيضًا أوتو برود، وزوجة ماكس برود لاحقًا (إلزه تاوسيج).

٢. انظر المرجعين التاليين:

Else Bergmann, 'Familiengeschichte`, in: Gimpl, Weil der Boden selbst hier brennt, S. 199-266, hier S. 257.
Max Brod, 'Höhere Welten`, in: Über die Schönheit hässlicher Bilder, S. 144-157. (zuerst in: Pan, 16. Juni 1911, S. 538-545).

يصف (فيرفل) في عام ١٩٢٨ في روايته (يوم لقاء خريجي الأبيتور، فرنكفورت ١٩٩١، صفحة ٨٨ وما بعدها) تفاصيل هذه الجلسة الروحانية في شقة والديه، كان تاريخ هذه الجلسة بحسب مذكرات برود هو يوم ٧ أبريل ١٩١٠. – انطلقت تقليعة تحريك المناضد من الولايات المتحدة مع بداية عام ١٨٥٠، كان هدفها في البداية إظهار الطاقات النفسية الكامنة وغير المدركة، وليس التواصل مع الأشباح.

٣. انظر:

Theodor W. Adorno, Minima Moralia. Reflexionen aus dem beschädigten Leben, in: Gesammelte Schriften, hrsg. von Rolf Tiedemann, Bd. 4, Frankfurt am Main 1980, S. 276.

٤. انظر:

Hugo Bergmann, 'Experimente über Telepathie`, in: März 3 (1909), S. 118-124.

٥. نجد مع بداية عام ١٨٩٩ "عروضًا مضادة للحركة الروحية" في براغ، كان لها الكثير من الزوار، وكانوا يشاهدون عروضًا فنية تعتمد على التخاطر وتقنيات للذاكرة، مع شرح لها. (جريدة براغر تاجبلات، ٢٣ أبريل ١٨٩٩). ظهر بعدها بثلاث سنوات، في جريدة (براغر

تاجبلات) إعلان مجهول المصدر يدافع عن الحركة الروحانية بوصفها "علمًا قائمًا على التجربة"، نظرًا للأدلة المفحمة التي يقدمها فإن خصوم هذه الحركة ليس لديهم فكرة، أو هم شريرون بطبعهم (٢٧ أبريل ١٩٠٢، صفحة ٢٩).

٦. انظر المراجع التالية:

Brod, 'Höhere Welten', S. 151.
Willy Haas, 'Um 1900 in Prag. Aus Jugendtagen mit Werfel, Kafka, Brod und Hofmannsthal', in: Forum 4 (1957) , S. 223-226, hier S. 225.
Brod, Streitbares Leben, S. 18.

في المرجع الأخير: "شارك كل من كافكا وفيلتش في هذه الجلسات الروحية، وكان (كورنفيلد) أكثرهم استعدادًا لدور الوسيط."

٧. ألقى (بوبر) محاضراته الثلاث في براغ في ١٦ يناير ١٩٠٩، ٢ أبريل ١٩١٠، و١٨ ديسمبر ١٩١٠. المحاضرات الثلاث مطبوعة في:

Martin Buber, Werkausgabe, Bd. 3: Frühe jüdische Schriften 1900-1922, hrsg. von Barbara Schäfer, Gütersloh 2007, S. 219-256.

انظر في المرجع الأخير (صفحة ٤١٦-٤٢٤) للاطلاع على النسخة الأصلية للمحاضرة الأولى التي ألقيت في براغ، والاستشهاد موجود في صفحة ٤٢٣. استخدم (بوبر) الصورة المتاداة "للدم" في هذا الوقت بوصفها حجة في موضع حاسم من المحاضرة، انظر صفحة ٤١٩. عن "تجدد الهوية اليهودية" لدى (بوبر)، وعن تأثيره في براغ انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 53ff.

٨. جريدة (براغر تاجبلات)، ١٥ مارس ١٩١١، صفحة ٥.

٩. انظر:

Ignaz Wrobel [d. i. Kurt Tucholsky], 'Rudolf Steiner in Paris', in: Die Weltbühne, 3. Juli 1924, S. 26-28.

سمع (توخولسكي) في ٢٦ مايو ١٩٢٤ محاضرة (شتاينر) "كيف تنال المعرفة عن العالم الخارق للطبيعة؟". ملحوظة (بوبر): "ليس النقاش مع (شتاينر) ممكنًا." نجدها في حوار دار بينه وبين (برجمان) في مذكرات الأخير:

Hugo Bergmann, Tagebücher und Briefe, Bd. 1, S. 263, Vgl. ebd. , S. 622.

١٠. انظر:

Rudolf Steiner, 'Wie widerlegt man Theosophie?', in: Gesamtausgabe Bd. 69a, Dornach 2007, S. 36-71, hier S. 38.

تعتمد النسخة المطبوعة لمحاضرتي (شتاينر) في براغ على مجموعة من المحاضر التي تقدم مضمونًا متكاملًا. (انظر المرجع نفسه، صفحة ٣١٤).

١١. المذكرات، ٢٦ مارس ١٩١١ (T159).

١٢. انظر:

Brod, 'Höhere Welten', S. 144.

١٣. انظر:

Steiner, Gesamtausgabe, Bd. 128, S. 126, 129f.

يذكر محضر لجاسوس في الشرطة تسجيل كافكا لحضور محاضرة من محاضرات (شتاينر) عن "الفيزيولوجيا التنجيمية"، انظر:

Faksimile bei Binder, Kafkas Welt, S. 201.

تم تكليف عميل (حاصل على الدكتوراه) بتحرير محاضر مختصرة عن مضمون المحاضرات؛ لأن الثيوصوفية كانت مصنفة بوصفها "فكرًا حرًا" يهدد كيان الدولة. تذكر هذه المحاضر، الموجهة إلى المحافظة، تفاصيلَ عن عدد وأصول الحاضرين، انظر:

Hartmut Binder, 'Rudolf Steiners Prager Vortragsreise im Jahr 1911. Berichtigungen und Ergänzungen zu der kritischen Ausgabe der Tagebücher Kafkas', in: editio. Internationales Jahrbuch für Editionswissenschaft 9 (1995) , S. 214-233, hier S. 228ff.

تشير ملحوظة لكافكا –أن رسومات (شتاينر) الموجودة على مكتبه تذكره "برسومات محاضراته عن الفيزيولوجيا التنجيمية"- إلى حضوره العديد من هذه المحاضرات. زار برود بحسب مذكراته محاضرة على الأقل من محاضراته في الفيزيولوجيا، كما كتب برود محاضرَ عن الأمسيات المتناولة لموضوع الثيوصوفية، ولكنها غير موجودة اليوم. وافق (شتاينر) في وقت قصير على إلقاء محاضرته الحادية عشرة يوم ٢٨ مارس تحت عنوان: "الأقوال المأثورة حول العلاقة بين الثيوصوفية والفلسفة".

١٤. عن ملاحظات كافكا حول سلوك وتعليقات أنصار (شتاينر) في براغ انظر (T30-32). كان (شتاينر) يقيم في فندق (فيكتوريا) في شارع (يونجمان شتراسه).

١٥. المذكرات، غالبًا في ٢٩ أو ٣٠ مارس ١٩١١ (T33-35). كانت زيارة كافكا لـ (شتاينر) في يوم ٢٩ مارس، في الثالثة بعد الظهر تقريبًا. لا نعرف شيئًا عن حديث برود و(شتاينر) في اليوم التالي.

١٦. انظر:

Brod, Über Franz Kafka, S. 70.
Brod, Streitbares Leben, S. 183f.

(يتحدث برود على سبيل الخطأ عن "الثيوصوفية"، التي أسسها شتاينر لاحقًا في عام ١٩١٢)، انظر:

Steiner, Gesamtausgabe, Bd. 69a, S. 41.

وكذلك: خطاب إلى (فيليس باور)، ٨ و١٦ يونيو ١٩١٣ (B2 209).

يوضح خطاب قصير من كافكا إلى (شتاينر) يوم ٣١ مارس ١٩١١ (B1 137) أنه أرسل إليه "نصًا صغيرًا"، ربما نص الشعور بالتماسة، الذي يدور حول "شبح في الغرفة": "يبدو أن هذه الأشباح نفسها ترتاب في وجودها أكثر مما نرتاب نحن فيه.."، (D39) انظر:

Hartmut Binder, 'Der Prager Fanta-Kreis. Kafkas Interesse an Rudolf Steiner`, in: Sudetenland 38 (1996) , S. 106-140, hier S. 110f.

ليس لدينا رد (شتاينر) على هذا الطلب. قال كافكا في وقت لاحق لـ (جوستاف يانوخ): "لا أفهم هذا الرجل، إنه غاية في اللباقة، ولكن هذه الصفة وسيلة كل الصائدين. لا أدعي أن (شتاينر) صائد، ولكن هذا وارد. دائمًا ما يحاول المحتالون حل المشكلات الصعبة بوسائل رخيصة"، انظر:

Janouch, Gespräche mit Kafka, S. 159.

١٧. (ألبرت أينشتاين)، خطابات إلى (ميشيل بيسو)، ١٣ مايو ١٩١١، و(ألفريد وكلارا شتيرن)، ١٧ مارس ١٩١٢، في:

The collected papers of Albert Einstein, vol. 5: The swiss years: correspondence 1902-1914, hrsg. von Martin J. Klein u. a. , Princeton NJ 1993, S. 295 und 432.

راجع أيضًا خطاب (أينشتاين) إلى (مارسيل جروسمان)، ٢٧ أبريل ١٩١١، في المرجع نفسه صفحة ٢٩٤.

١٨. نجد تفاصيلَ عن لقاءات مع (لودفيج هويف، ١٨٨٤-١٩٣٩)، وحضور كافكا لمحاضرة (أينشتاين) وذهابه إلى المطعم بعدها في مذكرات برود غير المنشورة لعام ١٩١١. نفهم من هذه المذكرات أيضًا مشاركة (هويف) في الرحلات الجماعية. عن (هوجو برجمان)، هنا وفي مواضع تالية، انظر:

'Persönliche Erinnerungen an Albert Einstein`, in: Mitteilungsblatt des Irgun Olej Merkas Europa, Tel Aviv, 11. Mai 1975, S. 4f.

(بعض التواريخ المذكورة غير صحيحة). النادرة عن أينشتاين بوصفه حامل كهرباء موجودة لدى (فيليكس فيلتش) في:

Carl Seelig, Albert Einstein. Leben und Werk eines Genies unserer Zeit, erweiterte Neuauflage, Zürich 1960, S. 144.

١٩. تذكر (أينشتاين) لاحقًا برود، ولكن يبدو أنه لم يتذكر كافكا، وإلا كان قد ذكر اسمه لكاتب سيرته الحياتية (فيليب فرانك)، الذي أوصى بنجاح أن يخلفه في منصبه في براغ، والذي أعطاه في عام ١٩٤٠ عددًا من الأحاديث عن تجربته في براغ في ١٩١١/١٩١٢. (صدرت الطبعة الألمانية الأولى من سيرة أينشتاين بقلم فرانك في عام ١٩٤٩)

٢٠. خطاب من (ألبيرت أينشتاين) إلى (هيدفيج بورن)، ٨ سبتمبر ١٩١٦، في:

The collected paper of Albert Einstein, vol. 8: The Berlin years: Correspondence 1914-1918, hrsg. von Robert Schulmann u. a. , Princeton NJ 1998, S. 336.

هناك نسخة موقعة من الرواية في مكتبة (أينشتاين)، ولكن من إصدار ١٩٢١. أنكر برود لاحقًا نيته لتجسيد شخصية (أينشتاين)، انظر:

Streitbares Leben, S. 202.

"في حقيقة الأمر؛ فإن صديقي (فيرفل) قد أضاف إلى جوهر شخصية (كيلر) وآلامها، أكثر من (أينشتاين)." تحسنت علاقة (أينشتاين) بالصهيونية في العشرينيات؛ ولكنه ظل معارضًا لأي شكل من القومية، بما فيها القومية اليهودية.

٢١. انظر:

Wolfgang G. Vögle (Hrsg.) , Der andere Rudolf Steiner. Augenzeugenberichte, Interviews, Karikaturen, Dornach 2005, S. 200.

لم يعرف (أينشتاين) في الأغلب شيئًا عن ملاحظات (شتاينر) الغريبة وغير المستوعبة للنظرية النسبية، والتي نشرها بعدها بعامين. انظر:

Rudolf Steiner, 'Der moderne Mensch und seine Weltanschauung' (1914) , in: Gesamtausgabe, Bd. 18, Dornach 1985, S. 445-492, hier S. 490 ff.

٢٢. NSF2 19f.

الأدب والسياحة

١. المذكرات، ٢٧ نوفمبر ١٩١٠ (T127). – ألقى (بيرنهارد كيلرمان، ١٨٧٩-١٩٥١) محاضرته في اليوم نفسه في الساعة الخامسة مساء، في قاعة المرايا في الكازينو الألماني. حضر كافكا غالبًا هذه المحاضرة وحده. "النص النثري" المقصود هو غالبًا قصة القديسين، الذي نُشر في يونيو ١٩١١ في جريدة (نوية روندشاو). القصة الخرافية رمش الأميرة المفقود، التي قرأها (كيلرمان) بناءً على طلب الجمهور، لم تنشر إلا بعد مماته في عام ١٩٧٩. تطابقت مناقشة (لودفيج شتاينر)، التي صدرت في اليوم التالي في جريدة (براغر تاجبلات)، مع انطباعات كافكا بشكل كبير: "كان للأديب طموح غريب، يسعى إلى اختبار صبر «جمهوره» بشكل عنيف." لا يوجد ما يفيد معرفة كافكا برواية (كيلرمان) اللاحقة من الخيال العلمي النفق (١٩١١)، والتي كانت تعد رواية ناجحة.

٢. المذكرات، ١٦ ديسمبر ١٩١٠ (T131).

٣. المذكرات، ٢٠ ديسمبر ١٩١٠ (T135) –العمل غير المكتمل عالم المدينة غير مؤرخ، ربما يرجع إلى فبراير أو مارس لعام ١٩١١، يبدأ على نحو غير مألوف بالحديث عن تدوين عنوان (T 151-158). من أكثر الأخطاء وضوحًا في التقنية السردية أن "انفجار" الأب لا يأتي بوصفه منعطفًا مفاجئًا في الأحداث، مثلما نجده في نص الحكم، بل يأتي بعد عبارات قليلة في البداية، في توقيت لم يكن تصور القارئ للشخصيات قد اكتمل بعد.

٤. المذكرات، ١٥ أغسطس ١٩١١ (T37). –جمع كافكا في مذكرات الرحلة لاحقًا خطة السفر المتغيرة ولكن بشكل مبهم. (T967). نفهم منها أن "الجانب الشرقي" لإيطاليا، أي الساحل الذي يقع بالقرب من (تريست) النمساوية، ومدن (ريميني) و(جينوا)، كانت الأهداف الأولى للرحلة.

٥. المذكرات، ٢٠ أغسطس ١٩١١ (T37). ومذكرات الرحلة، ٥ سبتمبر ١٩١١ (T970).

٦. انظر تدوينات برود الخاصة بهذا الموقف في:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 87.

وكذلك مقالة ماكس برود "خارج البلاد"، في جريدة (براغر تاجبلات)، ١٨ أغسطس ١٩٢٩، صفحة ٣.

٧. انظر مذكرات الرحلة لبرود وكافكا، في:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 73f und 143f. (=T 943f.)

وكذلك أيضًا تدوينات في المذكرات يومي ١٢ و١٣ أكتوبر ١٩١١ (T74-76). نجد وصفًا للظروف المعيشية الخاصة بـ(أنجيلا ريهبرجر) في تحقيقات (هارتموت بيندر) :

Mit Kafka in den Süden, S. 119f.

نجد عرضًا تفصيليًا لهذا الموقف، بأسماء وأماكن مختلفة، في الفصل الأول والوحيد من رواية الرحلة المشتركة، انظر:

Die erste lange Eisenbahnfahrt (Prag-Zürich) , D422-431.

يشمل هذا العرض الكثير من التفاصيل، التي تخرج عن نطاق تدوينات الرحلة، وتوحي بأنها من الخيال. تشير تدوينة لكافكا يوم ٥ مايو ١٩١٥ إلى أنه التقى بـ(ريهبرجر) مرة أخرى في براغ (T744).

٨. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 79 und 147 (=T 950)

٩. الاستشهادات والرسومات موجودة في:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 81f. und 149 (=T 952f.)

وصف للعبة (البول)، (التي لا يجب الخلط بينها وبين لعبة الكرة التي تحمل الاسم نفسه)، لدى
Binder, Mit Kafka in den Süden, S. 202f.

زار برود مع زوجته، بعد مضي عام ونصف، (كازينو مونت كارلو)، وأكد في مقالة له على رتابة اللعبة؛ التي تذكره "بالعمل في المصانع". انظر: "الحكمة المستخلصة من مونت كارلو"، في: جريدة (براغر تاجبلات)، ١٣ مارس ١٩١٣، صفحة ٢.

١٠. انظر:
Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 76 und 145. (=T 947)

١١. بطاقة بريدية إلى أوتلا كافكا، ٢٩ أغسطس ١٩١١ (B1 139).

١٢. انظر:

Brod, Über Franz Kafka.

١٣. فكرة المشروع مطبوعة تحت عنوان "خطة المليون، سلسلة رحلات رخيصة" في:
Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 189 ff.

عن دليل اللغة انظر المرجع السابق، صفحة ١٩١ وما بعدها، انظر أيضًا:
Brod, Über Franz Kafka, S. 107.

يوضح خطاب، وجهه كافكا إلى برود في ١٠ يوليو ١٩١٢ (B1 158)، يستفسر فيه عن مصير خطة المشروع المشترك، أن برود هو من تقدم بالفكرة إلى (إرنست روفولت)

١٤. بطاقة بريدية إلى (أوتو برود)، ٣٠ أغسطس ١٩١١ (B1 140).

١٥. انظر المرجعين التاليين:
Max Brod, 'Lugano-See', in: Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 219.
Brief an Max Brod, 2. November 1923, in: Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Briefwechsel, S. 442.

تدوينات الاثنين عن رحلة اليوم الواحد إلى بحيرة (كومو) غير مرتبة، ولا يتضح هدف هذه الرحلة ولا أسباب الاهتمام بها. يحصي كل من برود وكافكا أنواع النباتات شبه الاستوائية، التي يجداها في حديقة فيلا (كارلوتا)، ولكن لا يذكرون التماثيل التي شاهداها، على سبيل المثال تمثال (أنطونيو كانوفا) "كيوبيد وسايكي". نجد في المرجع التالي تصورًا لبرنامج هذا اليوم:

Binder, Mit Kafka in den Süden, S. 283ff.

١٦. أقام (توماس مان) مع زوجته (كاتيا) في فندق "أوتيل دي بان" في منطقة الليدو، في الفترة من ٢٦ مايو حتى ٢ يونيو ١٩١١. عرف في هذه الفترة من الصحافة الألمانية فقط أن سائحًا من مدينة (جراس) أصيب بالعدوى في (فينيسيا)، وهو خبر عرفه بكل تأكيد كل من كافكا

وبرود من صحافة براغ اليومية أيضًا. قام (مان) في سياق تحضيره لقصته الموت في فينيسيا بجمع معلومات شاملة عن موضوع الكوليرا الآسيوية (هذه المعلومات منشورة في المرجع التالي) :

Frühe Erzählungen. 1813-1912, hrsg. von Terence J. Reed, Kommentarband, Frankfurt am Main 2004, S. 486ff.

صمتت الصحافة اليومية في كل من ألمانيا والنمسا عن عدم براءة هذه الدول تحديدًا من التطورات الكارثية في إيطاليا. كانا قد وقعا الاتفاقية الصحية المبرمة في باريس في عام ١٩٠٣؛ ولكنهما رفضا التعاون مع مكتب الصحة الدولي هناك؛ وكان هذا التعاون مطلوبًا لجمع وتفريغ البيانات عن الوباء. توفي في عام ١٩١١ في منطقة (فينيتو) ١٣٦ شخصًا بمرض الكوليرا، وكانت هناك ٢٢ حالة وفاة في منطقة (لومبارداي)، أما في محيط (نابولي) في صقلية فوصلت الأعداد إلى أربعة آلا فبحسب البيان الإيطالي التالي:

Ministerio di Agricoltura Industria i Commercio, Direzione generale della statistica: Statistica Delle Cause Di Morte. Anni 1908-1911, Roma.

علمًا بأن الإحصائيات لم تحصر سوى "الحالات المؤكدة من منظور علم الجراثيم". عن الكوليرا في (فينيسيا)، والإجراءات الصحية الرسمية، وسياسة نشر المعلومات انظر:

Thomas Rütten, 'Cholera in Thomas Mann's Death in Venice`, in: Gesnerus, Swiss Journal ofthe History of Medicine and Sciences, 66/2 (2009) , S. 256-287.

١٧. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 93, vgl. S. 156 (=T963).

استخدام كافكا الحرفي الخاطئ لتعبير معناه "الاستعجال في الانتهاء من أمر ما" محل شك.

١٨. في المرجع السابق، صفحة ٩٧ وصفحة ١٥٧ وما بعدها. انظر أيضًا:

Max Brod, 'Das kranke Italien`, in: Magdeburgische Zeitung, 7. Oktober 1911, S. 9.
Brod, Über Franz Kafka, S. 111.

يتضح الاختلاف في معايشتهما للأمور من خلال ملاحظات برود على روايتهما المشتركة عن الرحلة، التي كتباها لاحقًا، إذ كان لذلك تأثير على تغير حالة المزاج العام: "سيصيب غضب متبادل الصديقين في أثناء هذه الرحلة، وسيتضح التناقض بينهما، ولكن مواجهة خطر مرض الكوليرا معًا في ميلانو الحارة (...) سيؤجج حنينهما القديم من جديد." (في المرجع ذاته)

١٩. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 94-96 und 160 (=T968f.)

٢٠. في المرجع السابق، صفحة ١٠٠ و١٦١ (=T970f.). أخذ كافكا مستحضر (أودول) للعناية بالفم معه في حقيبته، أما برود فلم يفعل ذلك، انظر المرجع السابق صفحة ١٣٠.

٢١. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 144, 162 (=T945, 972).
Tagebuch, 26. September 1911 (T40). Vgl. Brod, Über Franz Kafka, S. 108.

٢٢. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 107 und 173 (=T991). Vgl. Brod, Streitbares Leben, S. 185.

٢٣. عن مشروع الرواية ريتشارد وصامويل، الذي تم الاتفاق عليه في (شتريزا)، ولم يكتب منه سوى الفصل الأول (T419-440)، انظر:

Stach, Kafka. Die Jahre der Entscheidungen, S. 74f.

٢٤. انظر:

Max Brod, 'Kinematograph in Paris', in: Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 209-214, hier S. 209f.

٢٥. المذكرات، ١٨ نوفمبر ١٩١١ (T253).

٢٦. انظر:

Brod/Kafka, Eine Freundschaft. Reiseaufzeichnungen, S. 135 und 184 (=T1011).

انظر في المرجع السابق صفحة ١١٩: "مشاعر الكره والاحتقار ضد الألمان، نحن نسافر بوصفنا تشيكيين أو بولنديين." انظر أيضًا مقالة ماكس برود "باريس في حرب" (المرجع السابق، صفحة ٢١٥ وما بعدها)، إذ يحاول ساخرًا تبسيط الموقف.

٢٧. زار كافكا وبرود (فرساي) في يوم ١٢ سبتمبر ١٩١١. وافقت ألمانيا في هذا اليوم تحديدًا على طلبات الحكومة الفرنسية: أجزاء من منطقة إفريقيا الاستوائية الواقعة تحت السيادة الفرنسية، "تعويضًا" عن عدم التدخل في المغرب. اشترى كافكا في اليوم التالي من تاجر للكتب القديمة الكتاب التالي:

Francisque Sarcey: Le Siége de Paris. Impressions et souvenirs. (1871)

لملخصات هذا الكتاب انظر (T986-988). شغله احتلال باريس، بحسب المذكرات، لمدة أسبوعين بعد عودته (٢ أكتوبر ١٩١١، T51f.).

اضطر ممثلو الحكومة الألمانية إلى التوقيع على العقد، الذي أكد على هزيمة قوات المحور في الحرب العالمية الأولى، في ٢٨ يونيو ١٩١٩، وكان ذلك أيضًا في قاعة المرايا في (فرساي). حاولوا حتى الساعة الأخيرة الهروب من هذا الانتقام.

٢٨. لتدوينات برود والصياغة النهائية التي قام بها كافكا في النص غير المكتمل عن حادثة السيارة في باريس انظر:

Brod/Kafka, Eine Reisefreundschaft. Reisenotizen, S. 136f. und 185ff. (=1012ff.)

الاستشهاد الوارد هنا في صفحة ١٨٧ (T1015=). لم يرضَ كافكا عن هذا النص مطلقًا، لدرجة أنه رفض قراءته عند (أوسكار باوم)، وقام برود بهذه المهمة بدلًا منه. انظر النقد الذاتي في المذكرات، ٥ نوفمبر ١٩١١ (T226f.).

٢٩. لمزيد من التفاصيل عن مصحة (إرلنباخ) التي أدارها (فريدريش فيلينبرج، ١٨٦٧_١٩٥٢) انظر:

Binder, Kafkas Welt, S. 242-246.

كان (فيلينبرج) قبلها زميل (لاهمان) في مدينة (دريسدن). نشر العديد من الكتابات في مجال إصلاح الحياة، وكان رئيسًا "للجمعية النباتية في زيورخ".

للتفاصيل التالية انظر ملاحظات كافكا في (إرلنباخ) (T978-985)، والخطاب الذي أرسله من هناك إلى ماكس برود في ١٧ سبتمبر ١٩١١ (Bl 142ff.)، وكذلك (T App 60f.).

قائمة المراجع

أولاً: كافكا

- Alt, Peter-André: Franz Kafka. Der ewige Sohn. München 2005.
- Alt, Peter-André: Kafka und der Film. Über kinematographisches Erzählen. München 2009.
- Anderson, Mark M.: Kafka"s Clothes. Ornament and Aestheticism in the Habsburg Fin de Siècle. Oxford 1992.
- Baioni, Giuliano: Kafka. Literatur und Judentum. Stuttgart/Weimar 1994.
- Bašik, František X.: › Als Lehrjunge in der Galanteriewarenhandlung Herrmann Kafka‹, in: Franz Kafka, Brief an den Vater. Hrsg. von Hans-Gerd Koch. Berlin 2004. S. 69-130.
- Bergmann [!], Hugo: ›Erinnerungen an Franz Kafka‹. In: Universitas 21 (1972) , S. 739-750.
- Bernheimer, Charles: Psychopoetik. Flaubert und Kafkas Hochzeitsvorbereitungen auf dem Lande, in: Gerhard Kurz (Hrsg.): Der junge Kafka. Frankfurt am Main 1984. S. 154-183
- Binder, Hartmut: ›Die Entdeckung Frankreichs. Zur Vorgeschichte von Kafkas und Brods Paris-Reisen‹, in: Euphorion 95 (2001) , S. 441-482.
- Binder, Hartmut: ›Franz Kafka und die Wochenschrift ››Selbstwehr‹‹ ‹, in: Deutsche Vierteljahrsschrift für Literaturwissenschaft und Geistesgeschichte 41 (1967) , S. 283-304.
- Binder, Hartmut: ›Frauen in Kafkas Lebenskreis‹, 2. Teil, in: Sudetenland 40 (1998) , H. 1, S. 14-58.
- Binder, Hartmut: Kafka. Der Schaffensprozeß. Frankfurt am Main 1983.
- Binder, Hartmut (Hrsg.): Kafka-Handbuch. Bd. 1: Der Mensch und seine Zeit. Bd. 2: Das Werk und seine Wirkung. Stuttgart 1979.

- Binder, Hartmut: Kafka-Kommentar zu sämtlichen Erzählungen. München 1975.
- Binder, Hartmut: Kafka in Paris. München 1999.
- Binder, Hartmut: ›Kafka und seine Schwester Ottla‹, in: Jahrbuch der deutschen Schillergesellschaft 12 (1968) , S. 403-456.
- Binder, Hartmut: Kafkas ››Verwandlung‹‹. Entstehung, Deutung, Wirkung. Frankfurt am Main 2004.
- Binder, Hartmut: Kafkas Welt. Eine Lebenschronik in Bildern. Reinbek 2008.
- Binder, Hartmut: Kafkas Wien. Porträt einer schwierigen Beziehung. Furth im Wald 2013.
- Binder, Hartmut: ›Kindheit in Prag. Kafkas Volksschuljahre‹, in: Humanismen som salt □ styrka. Bilder □ betraktelser tillägnade Harry Järv (= Acta Bibliothecae Regiae Stockholmiensis, Bd. 45). Stockholm 1987. S. 63-115.
- Binder, Hartmut: Mit Kafka in den Süden. Eine historische Bilderreise in die Schweiz und zu den oberitalienischen Seen. Prag 2007.
- Binder Hartmut: ›Der Prager-Fanta Kreis. Kafkas Interesse an Rudolf Steiner‹, in: Sudetenland 38 (1996) , S. 106-140.
- Binder, Harmut: ›Rudolf Steiners Prager Vortragsreise im Jahr 1911. Berichtigungen und Ergänzungen zu der Kritischen Ausgabe der Tagebücher Kafkas‹, in: editio. Internationales Jahrbuch für Editionswissenschaft 9 (1995) , S. 214-233.
- Binder, Hartmut: › ››Nachdem der Handschlag auf deutsche Gesinnung geleistet worden…‹‹ Kafka in der ››Lese- und Redehalle‹‹ ‹, in: Else-Lasker Schüler-Jahrbuch zur Klassischen Moderne, 2 (2003) , S. 160-207.
- Binder, Hartmut: Wo Kafka und seine Freunde zu Gast waren. Prager Kaffeehäuser und Vergnügungsstätten in historischen Bilddokumenten. Furth im Wald 2000.

- Binder, Hartmut: ›Wollweberei oder Baumwollweberei. Neues vom Büroalltag des Versicherungsangestellten Franz Kafka‹, in: Sudetenland 39 (1997) , H. 2, S. 106-160.
- Böschenstein, Bernard: ›Nah und fern zugleich: Franz Kafkas ››Betrachtung‹‹ und Robert Walsers Berliner Skizzen‹, in: Gerhard Kurz (Hrsg.) , Der junge Kafka. Frankfurt am Main 1984. S. 200-212.
- Bokhove, Niels/ van Dorst, Marijke (Hrsg.): ›Einmal ein grosser Zeichner‹. Franz Kafka als bildender Künstler. Prag 2006.
- Born, Jürgen (Hrsg.): Franz Kafka. Kritik und Rezeption zu seinen Lebzeiten 1912-1924. Frankfurt am Main 1979.
- Born, Jürgen (Hrsg.): Franz Kafka. Kritik und Rezeption1924-1938. Frankfurt am Main 1983.
- Born, Jürgen: Kafkas Bibliothek. Ein beschreibendes Verzeichnis. Frankfurt am Main 1990.
- Bridgewater, Patrick: Kafka and Nietzsche, Bonn 1974.
- Brod, Max: Über Franz Kafka. Frankfurt am Main 1974. Darin: Franz Kafka. Eine Biographie / Franz Kafkas Glauben und Lehre / Verzweiflung und Erlösung im Werk Franz Kafkas.
- Max Brod. Franz Kafka. Eine Freundschaft. Hrsg. von Malcolm Pasley. Bd. I: Reiseaufzeichnungen. Bd. II: Briefwechsel. Frankfurt am Main 1987, 1989.
- Čermák, Josef: Franz Kafka- Výmysly a mystifikace. Prag 2005.
- Čermák, Josef: ›Pobyt Franze Kafky v Plané nad Lužnicí (Léto 1922) ‹, in: světová literatura 34 (1989) , H. 1, S. 219-237.
- Caputo- Mayr, Maria Luise / Herz, Julius Michael (Hrsg.): Franz Kafka: Internationale Bibliographie der Primär und Sekundärliteratur. Eine Einführung. 2 Bde. 2. , erweiterte und überarbeitete Aufl. München 2000.
- Demetz, Peter: Die Flugschau von Brescia. Kafka, D"Annunzio und die Männer, die vom Himmel fielen. Wien 2002.

- Demetz, Peter: ›Diese Frauen wollen immer tiefer umarmt sein. Franz Kafkas und Max Brods ››Reiseaufzeichnungen‹‹ ‹, in: Frankfurter Allgemeine Zeitung, 25. Juni 1988.
- Dietz, Ludwig: Franz Kafka. Die Veröffentlichung zu seinen Lebzeiten (1908-1924). Eine textkritische und kommentierte Bibliographie. Heidelberg 1982.
- Engel, Manfred / Auerochs, Bernd (Hrsg.): Kafka- Handbuch. Leben - Werk – Wirkung. Stuttgart 2010.
- Friedländer, Saul: Franz Kafka. München 2012.
- Gelber, Mark H. (Hrsg.): Kafka, Zionism, and Beyond. Tübingen 2004.
- Hardt. Ludwig: ›Verkümmerndes und erwachendes Judentum. Zu Max Brods Kafka- Biographie‹, in: Jüdische Rundschau, 4. März 1938, S. 5.
- Heidsieck, Arnold: The Intellectual Contexts of Kafka"s Fiction: Philosophy, Law, Religion. Columbia, SC (Camden House) 1994.
- Heintel, Brigitte / Heintel, Helmut: ›Franz Kafka: 1901 allein auf Nordemey und Helgoland?‹, in: Freibeuter 17, Berlin 1983, S. 20-25.
- Holzkamp, Hans: ›Brod und Kafka in Paris‹, in: Gerhard R. Kaiser / Erika Tunner (Hrsg.): Paris? Paris! Bilder der französischen Metropole. Heidelberg 2002, S. 171-197.
- Jagow, Bettina von / Jahraus, Oliver (Hrsg.): Kafka-Handbuch. Leben- Werk – Wirkung. Göttingen 2008.
- Janouch, Gustav: Franz Kafka und seine Welt. Wien 1965.
- Janouch, Gustav: Gespräche mit Kafka. Aufzeichnungen und Erinnerungen. Erweiterte Neuausgabe. Frankfurt am Main 1968.
- Franz Kafka. Eine Chronik. Zusammengestellt von Roger Hermes, Waltraud John, Hans-Gerd Koch und Anita Widera. Berlin 1999.
- Kafka, Franz: Amtliche Schriften. Hrsg. von Klaus Hermsdorf. Berlin 1984. [Zur Kritischen Ausgabe der Amtlichen Schriften siehe Verzeichnis der Siglen.]

- Kafka, Franz: Beschreibung eines Kampfes. Novellen, Skizzen, Aphorismen aus dem Nachlaß. Prag 1936.
- Kafka, Franz: Beschreibung eines Kampfes. Die zwei Fassungen. Parallelausgabe nach den Handschriften. Hrsg. und mit einem Nachwort versehen von Max Brod, Textedition von Ludwig Dietz. Frankfurt am Main 1969.
- Kafka, Franz: Beschreibung eines Kampfes. Gegen zwölf Uhr [...]. Hrsg. von Roland Reuß in Zusammenarbeit mit Peter Staengle und Joachim Unseld. Frankfurt am Main 1999.
- Kafka, Franz: Brief an den Vater. Mit einem unbekannten Bericht über Kafkas Vater als Lehrherr und anderen Materialien. Hrsg. von Hans-Gerd Koch, Berlin 2004.
- Kafka, Franz: Briefe 1902-1924. Frankfurt am Main 1958.
- Kafka, Franz: Briefe an die Eltern aus den Jahren 1922-1924. Hrsg. von Josef Čermak und Martin Svatoš. Frankfurt am Main 1990.
- Kafka, Franz: Briefe an Felice und andere Korrespondenz aus der Verlobungszeit. Hrsg. von Erich Heller und Jürgen Born. Frankfurt am Main 1967.
- Kafka, Franz: Briefe an Ottla und die Familie. Hrsg. von Hartmut Binder und Klaus Wagenbach. Frankfurt am Main 1974.
- Kafka, Franz: Träume. »Ringkämpfe jede Nacht«. Hrsg. von Gaspare Giudice und Michael Müller. Frankfurt am Main 1993.
- Kilcher, Andres B.: ›Geisterschrift. Kafkas Spiritismus‹, in: Caspar Battegay u. a. (Hrsg.) Schrift und Zeit in Franz Kafkas Oktavheften, Göttingen 2010. S. 223-244.
- Kisch, Guido: ›Kafka-Forschung auf Irrwegen‹, in: Zeitschrift für Religions- und Geisteswissenschaft 23 (1971) , S. 339-350.
- Krolop, Kurt: ›Zu den Erinnerungen Anna Lichtensterns an Franz Kafka‹, in: Acta Universitatis Carolinae – Philologica. Germanistica Pragensia, V (1968) , S. 21-60.
- Koch, Hans-Gerd (Hrsg.): »Als Kafka mir entgegenkam...« Erinnerungen an Franz Kafka. Erweiterte Neuausgabe. Berlin2005.

- Koch, Hans-Gerd: ›Kafkas Max und Brods Franz: Vexierbild einer Freundschaft‹, in: Bodo Plachta (Hrsg.): Literarische Zusammenarbeit. Tübingen 2001. S. 245-256.
- Koch, Hans-Gerd / Wagenbach, Klaus (Hrsg.): Kafkas Fabriken. Marbach am Neckar 2002.
- Kurz, Gerhard: ›Schnörkel und Schleier und Warzen. Die Briefe Kafkas an Oskar Pollak und seine literarischen Anfänge‹, in: ders. (Hrsg.): Der junge Kafka. Frankfurt am Main 1984. S. 68-101.
- Leavitt, June O.: The Mystical Life of Franz Kafka. Theosophy, Cabala, and the Modern Spiritual Revival. New York 2012.
- Mitscherlich- Nielsen, Magarete: ›Psychoanalytische Bermerkungen zu Franz Kafka‹, in: Psyche 31 (1977) , H. 1. , S. 60-83.
- Murray, Nicholas: Kafka. London 2004.
- Neesen, Peter: Vom Louvrezirkel zum Prozess. Franz Kafka und die Psychologie Franz Brentanos, Göppingen 1972.
- Nekula, Marek: Franz Kafkas Sprachen. Tübingen 2003.
- Northey, Anthony: ›Franz Kafkas Selbstmörder‹, in: Sudetenland 49 (2007) , H. 3, S. 267-294.
- Northey, Anthony: ›Die Kafkas: Juden? Christen? Tschechen? Deutsche?‹, in: Kurt Krolop / Hans Dieter Zimmermann (Hrsg.): Kafka und Prag. Colloquium im Goethe-Institut Prag, 24. -27. November 1992. Berlin / New York 1994. S. 11-32.
- Northey, Anthony: Kafkas Mischpoche. Berlin 1988.
- Pawel, Ernst: Das Leben von Franz Kafkas. Eine Biographie. Reinbek 1990.
- Rodlauer, Hannelore: ›Die Paralleltagebücher Kafka – Brod und das Modell Flaubert‹, in: Arcadia. Zeitschrift für allgemeine und vergleichende Literaturwissenschaft 20 (1985) , S. 47-60.
- Robert, Marthe: Einsam wie Franz Kafka. Frankfurt am Main 1985.
- Ries, Wiebrecht: Nietzsche / Kafka. Zur ästhetischen Wahrnehmung der Moderne, München 2007.

- Rost, Nico: ›Persoonlijke ontmoetingen met Franz Kafka en mijn Tsjechische vrienden‹, in: De Vlaamse Gids 48 (1964) , Feb. , S. 75-97.
- Schillemeit, Jost: ›Kafkas Beschreibung eines Kampfes. Ein Beitrag zum Textverständnis und zur Geschichte von Kafkas Schreiben‹, in: Gerhard Kurz (Hrsg.): Der junge Kafka. Frankfurt am Main 1984. S. 102-132.
- Siebenschein, Hugo u. a.: Franz Kafka a Praha. Vzpomínky / Úvahy / Dokumenty. Prag 1947.
- Stach, Reiner: Kafka. Die Jahre der Entscheidung. Frankfurt am Main 2002.
- Stach, Reiner: Kafka. Die Jahre der Erkenntnis. Frankfurt am Main 2008.
- Stach, Reiner: Kafkas erotischer Mythos. Eine ästhetische Konstruktion des Weiblichen. Frankfurt am Main 1987.
- Stoelzl, Christoph: Kafkas böses Böhmen. Zur Sozialgeschichte eines Prager Juden. Frankfurt am Main 1989.
- Trost, Pavel: ›Der Name Kafka‹, in: Beiträge zur Namenforschung, 18 (1983) , H. 1, S. 52f.
- Unseld, Joachim: Franz Kafka. Ein Schriftstellerleben. Die Geschichte seiner Veröffentlichungen. München / Wien 1982.
- Urzidil, Johannes: Da geht Kafka. München 1966.
- Wagenbach, Klaus:Franz Kafka. Bilder aus seinem Leben. 3. , überarb. und erw. Aufl. Berlin 2008.
- Wagenbach, Klaus: Franz Kafka. Eine Biographie seiner Jugend 1883-1912. Bern 1958. Neuausgabe Berlin 2006.
- Wagenbach, Klaus: Kafkas Prag. Ein Reiselesebuch. Berlin 1993.
- Wagnerová, Alena: › ››Franz gibt es uns‹‹. Eine Begegnung in Prag mit Věra Saudková, der letzten lebenden Nichte Kafkas‹, in: Neue Zürcher Zeitung, 30. Januar 2012.
- Wagnerová, Alena: ››Im Hauptquartier des Lärms‹‹. Die Familie Kafka aus Prag. Köln 1997.
- Zischler, Hanns: Kafka geht ins Kino. Reinbek 1996.

- Amann, Klaus / Wallas, Armin A. (Hrsg.): Expressionismus in Österreich. Wien / Köln / Weimar 1994.
- Baum, Oskar: Das Leben im Dunkeln. Berlin / Stuttgart / Leipzig 1909.
- Baum, Oskar: Uferdasein, Berlin 1908.
- Benn, Gottfried: Doppelleben, in: Prosa und Autobiographie in der Fassung der Erstdrucke. Hrsg. von Bruno Hillebrand. Frankfurt am Main 1984.
- Binder, Hartmut: (Hrsg.): Brennpunkt Berlin. Prager Schriftsteller in der deutschen Metropole. Bonn 1995.
- Binder, Hartmut: Gustav Meyrink. Ein Leben im Bann der Magie. Prag 2009.
- Binder, Hartmut: (Hrsg.): Prager Profile. Vergessene Autoren im Schatten Kafkas. Berlin 1991.
- Blei, Franz: Erzählung eines Lebens. Wien 2004.
- Brod, Max: Abschied von der Jugend. Ein romantisches Lustspiel in drei Akten. Berlin o. J. [1912].
- Brod, Max: Adolf Schreiber. Ein Musikerschicksal. Berlin 1921.
- Brod, Max: Arnold Beer. Das Schicksal der Juden. Berlin 1912.
- Brod, Max: Experimente. Vier Geschichten. Berlin / Stuttgart / Leipzig / o. J. [1907].
- Brod, Max: Das große Wagnis. Wien / Leipzig 1918.
- Brod, Max: ›Kommentar zu Robert Walser‹, in Pan, 2 (1911-12) , S. 53-58.
- Brod, Max: Jüdinnen. Berlin 1911.
- Brod, Max: Jugend im Nebel. Berlin 1959.
- Brod, Max: ›Meine Anfänge‹, in: Deutsche Zeitung Bohemia, Prag, 23. März 1913, Osterbeilage.
- Brod, Max: Mira. Ein Roman um Hofmannsthal. München 1958.
- Brod, Max: ›Die neue Zeitschrift‹, in: Die weißen Blätter (1913/14) , S. 1227-1230.

- Brod, Max: Der Prager Kreis. Frankfurt am Main 1979.
- Brod, Max: Rezension zu Franz Blei, Der dunkle Weg. Eine tragische Farce in drei Acten, in: Die Gegenwart, Bd. 71, H. 6 (9. Februar 1907) , S. 93.
- Brod, Max: Schloß Nornepygge. Der Roman des Indifferenten. Berlin / Stuttgart/ Leipzig 1908.
- Brod, Max: Ein Sommer, den man sich zurückwünscht / Beinahe ein Vorzugsschüler. München / Berlin 1973.
- Brod, Max: Sternenhimmel. Musik-und Theatererlebnisse. Prag 1923.
- Brod, Max: Streitbares Leben. Autobiographie 1884-1968. Frankfurt am Main 1979.
- Brod, Max: Tagebuch in Versen. Berlin o. J. [1910].
- Brod, Max: Tod den Toten! Stuttgart o. J. [1906].
- Brod, Max: Über die Schönheit häßlicher Bilder. Ein Vademecum für Romantiker unserer Zeit. Leipzig 1913.
- Brod, Max: ›Ungedrucktes von Franz Kafka‹, in: Die Zeit, 22. Oktober 1965.
- Brod, Max: Der Weg des Verliebten. Gedichte. Leipzig 1907.
- Brod, Max: Weiberwirtschaft. Drei Erzählungen. Berlin 1913.
- Brod, Max: Zauberreich der Liebe. Berlin / Wien / Leipzig 1928.
- Daviau, Donald G.: ›Max Brod and Karl Kraus‹, in: Max Brod 1884-1984, hrsg. von Magarete Pazi, New York etc. 1987, S. 207-231.
- Demetz, Peter: René Rilkes Prager Jahre. Düsseldorf 1953.
- Dominik, Sabine: Oskar Baum (1883-1941) , ein Schriftsteller des ››Prager Kreises››. Würzburg (Diss.) 1988.
- Donath, Oskar: ›Siegfried Kapper‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 6 (1934) , S. 323-442.
- Fiala-Fürst, Ingeborg: Der Beitrag der Prager deutschen Literatur zum deutschen Expressionismus. Relevante Topoi ausgewählter Werke. St. Ingbert 1996.

- Fiedler, Leonhard M.: ››Um Hofmannsthal‹‹. Max Brod und Hugo von Hofmannsthal. Briefe, Notizen‹, in: Hofmannsthal-Blätter, H. 30 (August 1985) , S. 23-45.
- Flaubert, Gustave: Die Erziehung der Gefühle. Frankfurt am Main 2010.
- Fritz, Susanne: Die Entstehung des ››Prager Textes‹‹. Prager deutschsprachige Literatur von 1895 bis 1934. Dresden 2005.
- Goethe, Johann Wolfgang: Italienische Reise, in: Sämtliche Werke, Bd. 11, München 1977.
- Gold, Hugo (Hrsg.): Max Brod. Ein Gedenkbuch. 1844-1969. Tel Aviv 1969.
- Gustafsson, Lars: Palast der Erinnerung. München 1996.
- Haas, Willy: Die literarische Welt. Erinnerungen. München 1957.
- Haas, Willy: ›Um 1900 in Prag. Aus Jugendtagen mit Werfel, Kafka, Brod und Hofmannsthal‹, in: Forum 4 (1957) , S. 23-266.
- Hebbel, Friedrich: Tagebücher 1835-1848. München 1984.
- Höhne, Steffen (Hrsg.): August Sauer (1855-1926). Ein Intellektueller in Prag zwischen Kultur- und Wissenschaftspolitik. Wien / Köln 2011.
- Ingold, Felix Philipp: Literatur und Aviatik. Europäische Flugdichtung 1909-1927. Frankfurt am Main 1980.
- Jahnn, Hans Henny: Frühe Schriften. Hrsg. von Ulrich Bitz. Hamburg 1993.
- Kayser, Werner / Gronemeyer, Horst: Max Brod. Hamburger Bibliographien Band 12. Hamburg 1972.
- Kerr, Alfred: ›Frank Wedekind‹, in: Werke in Einzelbänden, Bd. III: Essays. Theater, Film. Hrsg. von Hermann Haarmann und Klaus Siebenhaar. Frankfurt am Main 1998, S. 87-98.
- Kisch, Paul: Hebbel und die Tschechen. Das Gedicht. ››An seine Majestät, König Wilhelm I von Preussen‹‹: seine Entstehung und Geschichte. Prag 1913. Reprint: Hildesheim 1973.
- Körner, Josef: Philologische Schriften und Briefe. Hrsg. von Ralf Klausnitzer. Göttingen 2001.

- Kraus, Oskar: Die Meyeriade. Leipzig 1891.
- Krolop, Kurt: Reflexionen der Fackel. Neue Studien über Karl Kraus. Wien 1994.
- Kulhoff, Birgit: Bürgerliche Selbstbehauptung im Spiegel der Kunst. Untersuchungen zur Kulturpublizistik der Rundschauzeitschriften im Kaiserreich (1871-1914). Bochum 1990.
- Laforgue, Jules: Pierrot, der Spaßvogel. Eine Auswahl von Franz Blei und Max Brod. Berlin / Stuttgart / Leipzig 1909.
- Leppin, Paul: Severins Gang in die Finsternis. Ein Prager Gespensterroman. München 1914. Neuausgabe: Prag 1988.
- Mann, Thomas: Briefe I. 1889-1913. Hrsg. von Thomas Sprecher u. a. Frankfurt am Main 2002.
- Mann, Thomas: Frühe Erzählungen. 1893-1912. Hrsg. von Terence J. Reed. Frankfurt am Main 2004.
- Mann, Thomas: ›Versuch über das Theater‹, in Essays I. 1893-1914. Hrsg. von Heinrich Detering. Frankfurt am Main 2002. S. 123-168.
- Merlio, Gilbert / Pelletier, Nicole (Hrsg.): Munich 1990 site de la modernité / München 1990 als Ort der Moderne. Jahrbuch für Internationale Germanistik, Reihe A, Bd. 47. Bern etc. 1998.
- Müller, Lothar: Die zweite Stimme. Vortragskunst von Goethe bis Kafka. Berlin 2007.
- Musil, Robert: ›Literarische Chronik‹, in: Die Neue Rundschau, August 1914, S. 1169.
- Musil, Robert: Der Mann ohne Eigenschaften. Hrsg. von Adolf Frisé. Reinbek 1994.
- Musil, Robert: Tagebücher. Hrsg. von Adolf Frisé. Reinbek 1976.
- Němcová, Božena: Großmutter. Bilder aus dem ländlichen Leben. München 1995.
- Pazi, Margarita: Fünf Autoren des Prager Kreises. Frankfurt am Main etc. 1978.
- Pazi, Margarita (Hrsg.): Max Brod 1844-1984. Untersuchungen zu Max Brods literarischen und philosophischen Schriften. New York etc. 1987.

- Pazi, Margarita: Staub und Sterne. Aufsätze zur deutsch-jüdischen Literatur. Göttingen 2001.
- Pazi, Margarita / Zimmermann, Hans Dieter (Hrsg.): Berlin und der Prager Kreis. Würzburg 1991.
- Prager Deutsche Literatur vom Expressionismus bis zu Exil und Verfolgung [Ausstellungskatalog]. Hrsg. von Ernst Wichner und Herbert Wiesner. Berlin 1995.
- Raabe, Paul (Hrsg.): Expressionismus. Aufzeichnungen und Erinnerungen. Olten /Freiburg 1965.
- Rütten, Thomas: ›Cholera in Thomas Mann"s Death in Venice‹ in: Gesnerus. Swiss Journal of the History of Medicine and Sciences, 66/2 (2009) , S. 256-287.
- Šrámková, Barbora: Max Brod und die tschechische Kultur. Diss. Berlin 2007.
- Schamschula, Walter: ›Max Brod und die tschechische Literatur‹, in: Pazi, Margarita (Hrsg.): Max Brod 1884- 1984. Untersuchungen zu Max Brods literarischen und philosophischen Schriften. New York etc. 1987. S. 233- 249.
- Schmitz, Walter (Hrsg.): Die Münchner Moderne. Die literarische Szene in der ›Kunststadt‹ um die Jahrhundertwende. Stuttgart 1990.
- Schneider, Vera: Wachposten und Grenzgänger. Deutschsprachige Autoren in Prag und die öffentliche Herstellung nationaler Identität. Würzburg 2009.
- Schnitzler, Arthur: Briefe 1875- 1912. Hrsg. von Therese Nickl und Heinrich Schnitzler. Frankfurt am Main 1981.
- Schnitzler, Arthur: Tagebuch 1909- 1912. Hrsg. von Werner Welzig. Wien 1981.
- Torberg, Friedrich: Die Erben der Tante Jolesch. München 1981.
- Torberg, Friedrich: Die Tante Jolesch oder Der Untergang des Abendlandes in Anekdoten. München 2004.
- Truhlář, Antonín: Výbor z literatury české. Doba nová. [Auswahl aus der tschechischen Literatur. Neuzeit]. 3 Bde. Prag 1986.

- Ungern-Sternberg: Christoph von: Willy Haas 1891-1973. ››Ein großer Regisseur der Literatur‹‹. München 2007.
- Urzidil, Johannes: Prager Triptichon. Erzählungen. München 1960.
- Vassogne, Gaëlle: Max Brod in Prag. Identität und Vermittlung. Tübingen 2009.
- Wagenknecht, Christian: ›Die Vorlesungen von Karl Kraus. Ein chronologisches Verzeichnis‹, in: Kraus-Hefte, H. 35/36 (1985) , S. 1-30.
- Werfel, Franz: Der Abituriententag. Frankfurt am Main 1991.
- Werfel, Franz: Zwischen Oben und Unten. Prosa, Tagebücher, ›Aphorismen, Literarische Nachträge. München / Wien 1975.

ثالثًا: الفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية والعلوم الطبيعية

- Adorno, Theodor W.: Minima Moralia. Reflexionen aus dem beschädigten Leben, in: Gesammelte Schriften, hrsg.: von Rolf Tiedemann. Bd. 4, Frankfurt am Main 1980.
- Benjamin, Walter: Briefe. Hrsg. von Gershom Scholem und Theodor W. Adorno. Bd. 2. Frankfurt am Main 1966.
- Benjamin, Walter / Scholem, Gershom: Briefwechsel 1933- 1940. Hrsg. von Gershom Scholem. Frankfurt am Main 1980.
- Bergmann, Hugo: ›Persönliche Erinnerungen an Albert Einstein‹, in: Mitteilungsblatt des Irgun Olej Merkas Europa, Tel Aviv, 11. Mai 1975, S. 4 f.
- Bokhove, Niels: ›Christian von Ehrenfels, Kafkas Professor. Ihre Beziehungen in sieben Stationen‹, in: Kafka a Čechy. Kafka und Böhmen. Sammelband der Vorträge der internationalen literaturwissenschaftlichen Konferenz der Franz- Kafka-Gesellschaft, 2. Oktober 2006 in Prag, Prag 2007, S. 121-153.
- Burger, Hannelore: Sprachenrecht und Sprachgerechtigkeit im österreichischen Unterrichtswesen 1867- 1918. Wien 1995.
- [Einstein, Albert]: The Collected Papers of Albert Einstein. Vol. 5: The Swiss Years: Correspondence 1902-1914. Hrsg. von Martin J.

Klein u. a. Princeton, NJ 1993. Vol. 8: The Berlin Years. Correspondence 1914-1918. Hrsg. von Robert Schulmann u. a. , Princeton, NJ 1998.

- Fabian, Reinhard (Hrsg.): Christian von Ehrenfels. Leben und Werk. Amsterdam 1986.
- Freud, Sigmund: Briefe an Wilhelm Fließ. 1887-1904. Hrsg. von Jeffrey Moussaieff Masson. Frankfurt am Main 1986.
- Freud, Sigmund: Das Unbehagen in der Kultur, in: Studienausgabe, Bd. IX. Frankfurt am Main 1997.
- Gross, Hans: Handbuch für Untersuchungsrichter, Polizeibeamte, Gendarmen. Graz 1893.
- Gross, Hans: ›Zur Deportationsfrage‹, in: Gesammelte Kriminalistische Aufsätze, Leipzig 1902, S. 64-70.
- Guex, Germaine: Das Verlassenheitssyndrom. Bern etc. 1982.
- Key, Ellen: ›Die Entfaltung der Seele durch Lebenskunst‹, in: Die neue Rundschau, 16 (1905) , H. 6, S. 641-686.
- Laplanche, J. / Pontalis, J. B.: Das Vokabular der Psychoanalyse. Frankfurt am Main 1972.
- Le Rider, Jacques: Der Fall von Otto Weininger. Wurzeln des Antifeminismus und Antisemitismus. Mit der Erstveröffentlichung der Rede auf Otto Weininger von Heimito von Doderer. Überarb. u. erw. dt. Ausgabe. Wien / München 1985.
- Lipps, Theodor: Grundtatsachen des Seelenlebens. Bonn 1883.
- Luft, Robert: ›Sprache und Nationalität an Prager Gymnasien um 1900‹, in Klaas- Hinrich Ehlers u. a. (Hrsg.): Brücken nach Prag. Deutschsprachige Literatur im kulturellen Kontext der Donaumonarchie und der Tschechoslowakei. Festschrift für Kurt Kolop zum 70. Geburtstag. Frankfurt am Main 2000.
- Mentzos, Stavros: Angstneurose. Psychodynamische und psychotherapeutische Aspekte. Frankfurt am Main 1984.
- Mentzos, Stavros: Neurotische Konfliktvereinbarung. Einführung in die psychoanalytische Neurosenlehre unter Berücksichtigung neuer Perspektiven. Frankfurt am Main 1984.

- Neesen, Peter: Vom Louvrezirkel zum Prozeß. Franz Kafka und die Psychologie Franz Brentanos. Göppingen 1972.
- Nietzsche, Friedrich: Schopenhauer als Erzieher. In: Werke, hrsg. von Karl Schlechta, München 1969, Bd. 1, S. 287-265.
- Pleticha, Heinrich (Hrsg.): Piaristen und Gymnasiasten. Schüler im alten Prag. Prag 2001.
- Quinodoz, Jean- Michel: Die gezähmte Einsamkeit. Trennungsangst in der Psychoanalyse. Tübingen 2004.
- Seelig, Carl: Albert Einstein. Leben und Werk eines Genies unserer Zeit. Erweiterte Neuauflage, Zürich 1960.
- Steiner, Rudolf: Eine okkulte Physiologie. Ein Zyklus von acht Vorträgen, gehalten in Prag vom 20. März bis 28. März 1911, ein Sondervortrag vom 28. März 1911. In: Gesamtausgabe, Bd. 128, Dornach 1991.
- Steiner, Rudolf: ›Wie widerlegt man Theosophie?‹, ›Wie verteidigt man Philosophie?‹ (1911). In: Gesamtausgabe, Bd. 69a, Dornach 2007, S. 36-71, 72-99.
- Steiner, Rudolf: ›Der moderne Mensch und seine Weltanschauung‹ (1914) , in: Gesamtausgabe, Bd. 18, Dornach 1985, S. 445-492.
- Stöhr, Ingrid: Zweisprachigkeit in Böhmen. Deutsche Volksschulen und Gymnasien im Prag der Kafka-Zeit. Köln usw. 2010.
- Strakosch- Graßmann, Gustav: Geschichte des österreichischen Unterrichtswesens. Wien 1905.
- Tucholsky, Kurt: ›Rudolf Steiner in Paris‹, in: Die Weltbühne, 3. Juli 1924, S. 26-28.
- Vögele, Wolfgang G.: Der andere Rudolf Steiner. Augenzeugenberichte, Interviews, Karikaturen, Dornach 2005.
- Weber, Alfred: ›Der Beamte‹, in; Die neue Rundschau, 21 (1910) , S. 1321-1339.
- Weininger, Otto: Geschlecht und Charakter. Wien / Leipzig 1903.
- Weininger, Otto: Taschenbuch und Briefe an einen Freund. Leipzig / Wien 1921.

- Weltsch, Felix / Brod, Max: Anschauung und Begriff. Grundzüge eines Systems der Begriffsbildung. Leipzig 1913.
- Zander, Helmut: Rudolf Steiner. Die Biografie. München 2011.

رابعًا: اليهودية

- Adler, Simon: ›Das Judenpatent von 1797‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 5 (1933) , S. 199-230.
- Bajohr, Frank: ››Unser Hotel ist judenfrei‹‹. Bäder- Antisemitismus im 19. und 20. Jahrhundert. Frankfurt am Mai 2003.
- Beider, Alexander: Jewish Surnames in Prag (15th-18th Centuries). Teaneck, NJ 1995.
- Bergmann [!], Hugo Schmuel: Tagebücher und Briefe. Hrsg. von Miriam Sambursky. Band 1: 1901-1948. Königstein 1985.
- Bergmann, Hugo: Jawne und Jerusalem. Gesammelte Aufsätze. Berlin 1919. Reprint: Königstein/ Taunus 1981.
- Birnbaum, Nathan: Die jüdische Moderne. Frühe zionistische Schriften. Augsburg 1989.
- Buber, Martin; Briefwechsel aus sieben Jahrzehnte. Hrsg. von Grete Schaeder. Band 1: 1897-1918. Heidelberg 1972.
- Buber, Martin: ››Drei Reden über das Judentum‹, in: Werkausgabe, Bd. 3.: Frühe jüdische Schriften 1900-1922. Gütersloh 2007, S. 219-256.
- Cohen, Gary B.: ›Jews in German Society: Prague, 1860-1914›, in: David Bronsen (Hrsg.): Jews and Germans from 1860 to 1933: The Problematic Symbiosis. Heidelberg 1979.
- Eliav, Mordechai: Jüdische Erziehung in Deutschland im Zeitalter der Aufklärung und der Emanzipation, Münster etc. 2001.
- Ferrari Zumbini, Massimo: Die Wurzeln des Bösen. Gründerjahre des Antisemitismus: Von der Bismarckzeit zu Hitler. Frankfurt am Main 2003.
- Frankl, Michal: ››Prag ist nunmehr antisemitisch‹‹. Tschechischer Antisemitismus am Ende des 19. Jahrhunderts. Berlin 2011.

- Gaisbauer, Adolf: Davidstern und Doppeladler. Zionismus und Nationalismus in Österreich 1882-1918. Wien etc. 1988.
- Gimpl, Georg (Hrsg.): Weil der Boden selbst hier brennt… Aus dem Prager Salon der Berta Fanta (1865-1918). Furth im Wald 2001.
- Grünberg, Abraham: Ein jüdisch-polnisch-russisches Jubiläum. (Der große Pogrom von Sedlice im Jahre 1906). Prag 1916.
- Guggenheimer, Eva H. / Guggenheimer, Heinrich W.: Etymologisches Lexikon der jüdischen Familiennamen, München etc. 1996.
- Hackeschmidt, Jörg: ›Jüdische Orthodoxie und zionistische Jugendkultur im frühen 20. Jahrhundert‹, in: Andrea Schatz / Christian Wies (Hrsg.): Janusfiguren. ››Jüdische Heimstätte‹‹, Exil und Nation im deutschen Zionismus. Berlin 2006. S. 81-101.
- Haring, Ekkehard W.: ›Zwischen den Nationen, Anmerkungen zum ››Jüdischen Prag‹‹ Franz Kafkas‹, in: Das Jüdische Echo. Bd. 49. Wien, Oktober 2000. S. 271-280.
- Hecht, Alexander: Der Bund B"nai B"rith und seine Bedeutung für das österreichische Judentum. Wien 1914.
- Hellwing, Isak A.: Der konfessionelle Antisemitismus im 19. Jahrhundert in Österreich. Wien 1972.
- Herzl, Theodor: Zionistische Schriften. Berlin 1920.
- Herzog, Andreas (Hrsg.): Ost und West. Jüdische Publizistik 1901-1928. Leipzig 1996.
- Jakobovits, Tobias: ›Die Judenabzeichen in Böhmen‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 3 (1931) , S. 145-181.
- Kaplan, Marion A.: Jüdisches Bürgertum. Frau, Familie und Identität im Kaiserreich. Hamburg 1997.
- Kieval, Hillel J.: The Marketing of the Czech Jewry. National Conflict and Jewish Society in Bohemia, 1870-1918. Oxford University Press 1988.

- Kohn, Albert (Hrsg.): Die Notablenversammlung der Israeliten Böhmens ins Prag, ihre Berathungen und Beschlüsse. Mit statistischen Tabellen über die israelitischen Gemeinden, Synagogen, Schulen und Rabbinate in Böhmen. Wien 1852.
- Kohn, Hans: ›Rückblick auf eine gemeinsame Jugend‹, in: Festgabe Robert Weltsch zum 70. Geburtstag. Tel Aviv 1961.
- Lipscher, Vladimir: ›Jüdische Gemeinden in Böhmen und Mähren im 17. und 18. Jahrhundert‹, in: Ferdinand Seibt (Hrsg.): Die Juden in den böhmischen Ländern. Vorträge der Tagung des Collegium Carolinum in Bad Wiessee vom 27. -29. November 1981. München / Wien 1983. S. 73-86.
- Meyer, Michael A. (Hrsg.): Deutsche- jüdische Geschichte in der Neuzeit, Bd. III: Umstrittene Integration 1871-1918. München 1997.
- Míšková, Alena: ›Die Lage der Juden an der Prager Deutschen Universität‹, in: Jörg K. Hoensch u. a. (Hrsg.): Judenemanzipation – Antisemitismus – Verfolgung in Deutschland, Österreich-Ungarn, den Böhmischen Ländern und in der Slowakei. Essen 1999. S. 117-129.
- Naor, Mordecai: Eretz Israel. Das 20. Jahrhundert. Köln 1998.
- Nekula, Marek / Koschmal, Walter: Juden zwischen Deutschen und Tschechen. Sprachliche und kulturelle Identitäten in Böhmen 1800-1945. München 2006.
- Nussbaum, Arthur: Der Polnaer Ritualmordprozess. Eine kriminalpsychologische Untersuchung auf aktenmäßiger Grundlage. Berlin 1906.
- Prokeš, Jaroslav: ›Der Antisemitismus der Behörden und das Prager Ghetto in nachweißenbergische Zeit‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 1 (1929) , S. 41-262.
- Rachmuth, Michael: ›Zur Wirtschaftsgeschichte der Prager Juden‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 5 (1933) , S. 9-78.

- Rodlauer, Hannelore: ›Ein anderer ››Prager Frühling‹‹. Der Verein ››Bar Kochba‹‹ in Prag‹, in: Das jüdische Echo. Bd. 49. Wien, Oktober 2000. S. 181-188.
- Roubík, František: ›Zur Geschichte der Juden in Böhmen im neunzehnten Jahrhundert‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 7 (1935) , S. 305-386.
- Rychnovsky, Ernst (Hrsg.): Masaryk und das Judentum. Prag 1930.
- Sambursky, Miriam: ›Zionist und Philosoph. Das Habilitierungsproblem des jungen Hugo Bergmann‹, in: Bulletin des Leo-Baeck-Instituts 58 (1981) , S. 17-40.
- Schmidt, Carsten: Kafkas fast unbekannter Freund. Das Leben und Werk von Felix Weltsch (1884-1964). Würzburg 2010.
- Schoeps, Julius H. / Schlör, Joachim (Hrsg.): Antisemitismus. Vorurteile und Mythen. München / Zürich 1995.
- Scholem, Gershom: Von Berlin nach Jerusalem. Frankfurt am Main 1997.
- Schroubek, Georg R.: ›Der ››Der Ritualmord‹‹ von Polná. Traditionelle und moderner Wahnglaube‹, in: Reiner Erb / Michael Schmidt (Hrsg.): Antisemitismus und jüdische Geschichte. Studien zu Ehren von Herbert A. Strauss, Berlin 1987, S. 149-171.
- Teufel, Helmut: ›Händler, Hoffaktoren, Pinkeljuden. 1000 Jahre jüdisches Leben im Grenzraum‹, in: Andrea Komlosky / Václav Bůžek / František Svátek (Hrsg.): Kulturen an der Grenze. Waldviertel – Weinviertel – Südböhmen – Südmähren, Wien 1995, S. 121-126.
- Triendl- Zadoff, Mirjam: Nächstes Jahr in Marienbad. Gegenwelten jüdischer Kulturen der Moderne. Göttingen 2007.
- Vom Judenbuch zum Sammelbuch. Hrsg. vom Verein jüdischer Hochschüler Bar- Kochba in Prag. Leipzig 1913.
- Wagner, Benno: ›Kafkas Polná. Schreiben jenseits einer Nation‹, in: Marek Nekula / Walter Koschmal (Hrsg.): Juden zwischen

Deutschen und Tschechen. Sprachliche und kulturelle Identitäten in Böhmen 1800-1945, München 2006, S. 151- 172.

- Wagner-Kern, Michael: Staat und Namensänderung. Die öffentlich-rechtliche Namensänderung in Deutschland im 19. und 20. Jahrhundert. Tübingen 2002.
- Weltsch, Felix (Hrsg.): Dichter, Denker, Helfer. Max Brod zum fünfzigsten Geburtstag. Mährisch- Ostrau 1934.
- Žaček, Wenzel: ›Eine Studie zur Entwicklung der jüdischen Personennamen in neuerer Zeit‹, in: Jahrbuch der Gesellschaft für Geschichte der Juden in der Čechoslovakischen Republik, 8 (1936) , S. 309-398.

خامساً: التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي

- Bachmann, Adolf: Die Einführung und Geltung der innern deutschen Amtssprache in Böhmen [Vortrag]. Prag 1908.
- Bergmann, Hugo: ›Experimente über Telepathie‹, in: März 3 (1909) , S. 118-124.
- Binder, Harmut: ›Entlarvung einer Chimäre: Die deutsche Sprachinsel Prag‹, in: Maurice Godé / Jacques Le Rider / Françoise Mayer (Hrsg.): Allemands, Juifs et Tchèques á Prague de 1890 á 1924, Montpellier 1994, S. 183-209.
- Binder, Hartmut: ›Paul Eisners dreifaches Ghetto. Deutsche, Juden und Tschechen in Prag‹, in: Michel Reffłet (Hrsg.): Le monde de Franz Werfel et la morale des nations. Actes du Colloque Franz Werfel á l''Université de Dijon. 18-20 mai 1995, Bern 2000, S. 17-137.
- Binder, Hartmut: Wo Kafka und seine Freunde zu Gast waren. Prager Kaffeehäuser und Vergnügungsstätten in historischen Bilddokumenten. Prag / Furth im Wald 2000.
- Birke, Ernst: ›Frankreich und Böhmen von 1848-1938‹, in: Probleme der böhmischen Geschichte. Vorträge der wissenschaftlichen Tagung des Collegium Carolinum in Stuttgart vom 29. bis 31. Mai 1963, S. 110-127.

- Blom, Philipp: Der taumelnde Kontinent. Europa 1900-1914. München 2009.
- Blüher, Hans: Die Rolle der Erotik in der männlichen Gesellschaft. Jena 1917.
- Bosl, Karl (Hg.): Handbuch der Geschichte der böhmischen Länder. Band II: Die böhmischen Länder von der Hochblüte der Ständeherrscher bis zum Erwachen eines modernen Nationalbewußtseins. Stuttgart 1974. Band III: Die böhmischen Länder im Habsburgerreich 1848-1919. Bürgerlicher Nationalismus und Ausbildung einer Industriegesellschaft. Stuttgart 1968.
- Bráf, Albin (Hrsg.): Hundert Jahre Arbeit. Bericht über die Allgemeine Landesausstellung in Prag 1891, zur Jubiläumsfeier der ersten Gewerbeausstellung des Jahres 1791 in Prag. Prag 1892.
- Buchholz, Kai u. a. (Hrsg.): Die Lebensreform. Entwürfe zur Neugestaltung vom Leben und Kunst um 1900. 2. Bde. Darmstadt 2001.
- Butschek, Felix: Statistische Reihen zur österreichischen Wirtschaftsgeschichte. Die österreichische Wirtschaft seit der industriellen Revolution. Wien 1993.
- Čabek, Karel: Gespräche mit Masaryek. Stuttgart / München 2001.
- Cohen, Gary B.: The Politics of Ethnic Survival: Germans in Prague, 1861-1914. Princeton, N. J. 1981.
- Dahlke, Günther / Karl, Günther (Hrsg.): Deutsche Spielfilme von den Anfängen bis 1933. Ein Filmführer. 2. Aufl. , Berlin 1993.
- Der Weiße Hirsch. Ein Lesebuch. Hrsg. vom Verschönerungsverein Weißer Hirsch / Oberloschwitz e. V. Dresden 2001.
- Die k. k. Deutsche Technische Hochschule in Prag 1806-1906. Festschrift zur Hundertjahrfeier. Prag 1906.
- Falke, Jacob von: Geschichte des fürstlichen Hauses Liechtenstein. Band 2. Wien 1877.
- Fickert, Auguste: ›Der Strand der Frauenbildung in Österreich‹, in: Lange, Helene / Bäumer, Gertrud (Hrsg.): Handbuch der Frauenbewegung, III. Teil, Berlin 1902, S. 161-190.

- François, Etienne / Schulze, Hagen: ›Das emotionale Fundament der Nationen‹, in: Flacke, Monika (Hrsg.): Mythen der Nationen. Ein europäisches Panorama, Berlin 1998, S. 17-32.
- Friedlaender, Hugo: Interessante Kriminal- Prozesse von kulturhistorischer Bedeutung. Darstellung merkwürdiger Strafrechtsfälle aus Gegenwart und jüngster Vergangenheit. Band 1. Berlin 1910.
- Gay, Peter: Kult der Gewalt. Aggression im bürgerlichen Zeitalter. München 1996.
- Gindely, Anton: Geschichte des dreißigjährigen Krieges. Bd. 4: Die Strafdekrete Ferdinands II. und der pfälzische Krieg. Prag 1880.
- Gloc, Ingrid: Architektur der Jahrhundertwende in Prag. Zur Geschichte der Architektur zwischen Eklektizismus und Moderne im Spiegel der Sanierung der Prager Altstadt. Weimar 1994.
- Hamann, Brigitte: Die Habsburger. Ein biographisches Lexikon. 4. Aufl. München 1990.
- Hanisch, Ernst: Der lange Schatten des Staates. Österreichische Gesellschaftsgeschichte im 20. Jahrhundert. Wien 1994.
- Heißerer, Dirk: Wo die Geister wandern. Eine Topographie der Schwabinger Bohème um 1900. München 1993.
- Heyll, Uwe: Wasser, Fasten, Luft und Licht. Die Geschichte der Naturheilkunde in Deutschland. Frankfurt am Main 2006.
- Hlavačka, Milan / Kolář, František: ›Tschechen, Deutsche und die Jubiläumsausstellung 1891‹, in: Bohemia. Zeitschrift für Geschichte und Kultur der böhmischen Länder 32 (1991) , H. 2, S. 380-411.
- Höbelt, Lothar: ›The Austrian Empire‹, in: Robert Justin Goldstein (Hrsg.): The War for the Public Mind. Political Censorship in Nineteenth- Century Europe, Westport, CT, 2000, S. 212-238.
- Hoensch, Jörg K.: Geschichte Böhmens. Von der slavischen Landnahme bis zur Gegenwart. 3. Aufl. München 1997.
- Hoffmann, Roland J.: T. G. Masaryk und die tschechische Frage. Nationale Ideologie und politische Tätigkeit bis zum Scheitern des

deutsch-tschechischen Ausgleichsversuchs vom Februar 1909. München 1988.

- Hösch, Edgar: Geschichte der Balkanländer. Von der Frühzeit bis zur Gegenwart. München 1999.
- Hozák, Jan: Technika v životě Pražanů před sto lety (1890-1900) [Die Technik im Leben der Prager vor hundert Jahren]. Národní technické muzeum, Prag 2000.
- Huret, Jules: Berlin um Neunzehnhundert. München 1909. Berlin 1979.
- Janatková, Alena: Modernisierung und Metropole. Architektur und Repräsentation auf den Landesausstellungen in Prag 1891 und Brünn 1928. Stuttgart 2008.
- Kaes, Anton (Hrsg.): Kino-Debatte. Texte zum Verhältnis von Literatur und Film 1909-1929. München 1978.
- Karger, Adolf: ›Prag und die nationale Identität‹, in: Der Bürger im Staat, Heft 2/1997.
- Kerbs, Diethart / Reuleucke, Jürgen (Hrsg.): Handbuch der deutschen Reformbewegungen 1880-1933. Wuppertal 1998.
- Kisch, Egon Erwin: Aus Prager Gassen und Nächten. Berlin / Weimar 1980.
- Kisch, Guido: Der Lebensweg eines Rechtshistorikers. Erinnerungen. Sigmaringen 1975.
- Kleindel, Walter: Österreich. Daten zur Geschichte und Kultur. Wien 1995.
- Kohout, Jiří / Vančura, Jiří: Praha. 19. A 20. století. Prag 1986.
- Kořalka, Jiří: ›Die Herausbildung des Wirtschaftsbürgertums in den böhmischen Ländern im 19. Jahrhundert‹, in: Heumos, Peter (Hrsg.): Polen und die böhmischen Länder im 19. und 20. Jahrhundert. Politik und Gesellschaft im Vergleich. München 1997. S. 57-80.
- Kowalewski, Gerhard: Bestand und Wandel. Meine Lebenserinnerungen, zugleich ein Beitrag zur neueren Geschichte der Mathematik. München 1950.

Křen, Jan: Die Konfliktgemeinschaft. Tschechen und Deutsche 1780-1918. München 1996.

Lemberg, Hans (Hg.): Universitäten in nationaler Konkurrenz. Zur Geschichte der Prager Universitäten im 19. und 20. Jahrhundert. München 2003.

Lienert, Marina: Naturheilkundiges Dresden. Dresden 2002.

Maase, Kaspar / Kaschuba, Wolfgang (Hrsg.): Schund und Schönheit. Populäre Kultur um 1900. Köln / Weimar / Wien 2001.

Mauthner, Fritz: Prager Jugendjahre. Frankfurt am Main 1969.

Mommsen, Hans: ›1897: Die Badeni- Krise als Wendepunkt in den deutsch-tschechischen Beziehung‹, in: Wendepunkte in den Beziehungen zwischen Deutschen, Tschechen und Slowaken 1848-1989. Hrsg. von Detlef Brandes, Dušan Kováč und Jiří Pešek. Essen 2007. S. 111-117.

Morper, Johann Joseph: ›Die aufgesteckten Köpfe. Zur Prager Exekution vom 21. 1621‹, in: Stifter-Jahrbuch VI (1959) , S. 117-130.

Petráň, Josep: Staroměstká exekuce [Die Altstädter Exekutionen]. Ergänzte und überarbeitete Neuausgabe. Prag 2004.

Pfeiffer, Ingrid/ Hollein, Max (Hrsg.): Esprit Montmartre. Die Bohème in Paris um 1900. Ausstellungskatalog der Schirn-Kunsthalle, Frankfurt am Main 2014.

Pick, Friedel (Hrsg.): Pragensia. Bd. V: Die Prager Exekution i. J. 1621. Flugblätter und Abbildungen. Prag 1922.

Prag als deutsche Hochschulstadt. Hrsg. vom Ortsrat Prag des deutschen Volksrates für Böhmen. Prag 1911.

Richter, Karl: ›Über den Strukturwandel der grundbesitzenden Oberschicht Böhmens in der neueren Zeit‹, in: Probleme der böhmischen Geschichte. Vorträge der wissenschaftlichen Tagung des Collegium Carolinum in Stuttgart vom 29. Mai bis 31. Mai 1963. München 1964. S. 49-67.

Rohrbach, Wolfgang (Hrsg.): Versicherungsgeschichte Österreichs. Band 2: Die Ära des klassischen Versicherungswesens. Wien 1988.

- Rumpler, Helmut: Eine Chance für Mitteleuropa. Bürgerliche Emanzipation und Staatsverfall in der Habsburgermonarchie. Wien 1997.
- Sandgruber, Roman: Ökonomie und Politik. Österreichische Wirtschaftsgeschichte vom Mittelalter bis zur Gegenwart. Wien 1995.
- Sawicki, Diethard: Leben mit den Toten. Geisterglauben und die Entstehung des Spiritismus in Deutschland 1770-1900. Paderborn etc. 2002.
- Sawicki, Diethard: ›Spiritismus und das Okkulte in Deutschland, 1880-1930‹, in: Österreichische Zeitschrift für Geschichtswissenschaften 13 (2003) , H. 4, S. 53-71.
- Schmitz, Walter / Udolph, Ludger: ››Tripolis Praga‹‹. Die Prager ›Moderne‹ um 1900. Katalogbuch. Dresden 2001.
- Schottky, Julius Max: Prag, wie es war und wie es ist, nach Aktenstücken und den besten Quellenschriften geschildert. Erster Band. Prag 1831.
- Seibt, Ferdinand (Hrsg.): Die Chance der Verständigung. Absichten und Ansätze zu übernationaler Zusammenarbeit in den böhmischen Ländern 1848-1918. Vorträge zur Tagung des Collegium Carolinum in Bad Wiessee vom 22. Bis 24. November 1985. München 1987.
- Skedl, Arthur: Der politische Nachlaß des Grafen Eduard Taaffe, Wien / Berlin / Leipzig 1922.
- Spector, Scott: Prague Territories. National Conflicts and Cultural Innovation in Franz Kafka"s Fin de Siècle. Berkeley / Los Angeles / London 2000.
- Statistisches Handbuch des Königreiches Böhmen. Prag 1909-1913.
- Stenographische Protokolle über die Sitzungen des Herrenhauses des österreichischen Reichsrathes in den Jahren 1891-1897.
- Sturmberger, Hans: Aufstand in Böhmen. Der Beginn des Dreißigjährigen Krieges, München 1959.
- Till, Wolfgang: ›Zwei galante Sammler aus Wien: Anton Pachinger und Peter Altenberg‹, in: Michael Köhler, Gisela Barche (Hrsg.):

Das Aktfoto, Ansichten vom Körper im fotografischen Zeitalter, München 1986, S. 285-287.

- Tramer, Hans: ›Die Dreivölkerstadt Prag‹, in: Hans Tramer / Kurt Wolfenstein (Hrsg.): Robert Weltsch zum 70. Geburtstag von seinen Freunden. 20. Juni 1961. Tel Aviv 1961. S. 138-203.
- Treitel, Corinna: A Science for the Soul: Occultism and the Genesis of the German Modern. Baltimore 2004.
- Trost, Pavel: ›Die Mythen vom Prager Deutsch‹, in: Zeitschrift für deutsche Philologie 100 (1981) , S. 381-390.
- Urban, Otto: Die tschechische Gesellschaft 1848-1918. 2 Bde. Wien / Köln / Weimar 1994.
- Wandruszka, Adam / Urbanitsch, Peter (Hrsg.): Die Habsburgermonarchie 1848- 1918. Band III: Die Völker des Reiches, Wien 1980. Band VII: Verfassung und Parlamentarismus. 1. Teilband: Verfassungsrecht, Verfassungswirklichkeit, zentrale Repräsentativkörperschaften. 2. Teilband: Die regionalen Repräsentativkörperschaften. Wien 2000.
- Webb, James: Das Zeitalter des Irrationalen. Politik, Kultur und Okkultismus im 20. Jahrhundert. Wiesbaden 2008.
- Wladika, Michael: Hitlers Vätergeneration. Die Ursprünge des Nationalsozialismus in der k. u. k. Monarchie. Wien / Köln / Weimar 2005.
- Wörner, Martin: Vergnügen und Belehrung. Volkskultur auf den Weltausstellungen 1851-1900. Münster etc. 1999.
- Wurzer, Rudolf: ›Die Assanierung der Josefsstadt in Prag. Das Gesetz vom 11. Februar 1893 und seine Bedeutung für die Stadterneuerung‹, in: Die alte Stadt. Vierteljahreszeitschrift für Stadtgeschichte, Stadtsoziologie, Denkmalpflege und Stadtentwicklung 22 (1995) , S. 149-174.
- Zone, Ray: Stereoscopic Cinema ξ the Origins of 3-D Film. 1838-1952. Lexington, KY 2007.

- Brod, Max: ›Die Krankheit in meinem Leben und in meiner Dichtung‹, in: C I B A-Symposium, 16 (1968) , H. 3, S. 125-132.
- Dinges, Martin (Hrsg.): Medizinkritische Bewegungen im Deutschen Reich (ca. 1870- ca. 1933). Stuttgart 1996.
- Grosch, Gerhard: Der Orthopäde Friedrich von Hessing (1838-1918). München 1970.
- Hessen, Robert: ›Nervenschwäche‹, in: Die neue Rundschau 21 (1910) , S. 1531-1543.
- Jütte, Robert: Geschichte der alternativen Medizin. Von der Volksmedizin zu den unkonventionellen Therapien von heute. München 1996.
- Kisch, Bruno: Wanderungen und Wandlungen. Die Geschichte eines Arztes im 20. Jahrhundert. Köln 1996.
- Lahmann, Heinrich: Das Luftbad als Heil-und Abhärtungsmittel. Stuttgart 1898.
- Lahmann, Heinrich: Die Reform der Kleidung. Stuttgart 1887. 3. Auflage [erweitert durch das Kapitel ›Reform der Frauenkleidung‹]: Stuttgart 1898.
- Pollatschek, Arnold: ›Zur Aetiologie des Diabetes mellitus‹, in: Zeitschrift für klinische Medizin 42 (1901) , S. 478-482.
- Radkau, Joachim: Das Zeitalter der Nervosität. Deutschland zwischen Bismarck und Hitler. München / Wien 1998.
- Sandow, Eugen: Kraft und wie man sie erlangt. Mit einer Übungstafel und zahlreichen Original-Photographien. Berlin 1904.
- Schwarzmann- Schlafhauser, Doris: Orthopädie im Wandel. Die Herausbildung von Disziplin und Berufsstand im Bund und Kaiserreich (1815-1914). Stuttgart 2004.
- Wagenbuch, Klaus: ›Drei Sanatorien Kafkas. Ihre Bauten und Gebräuche‹, in: Kursbuch, H. 16 (1983) , S. 77-90.

فهرس الأسماء

فهرس الأماكن

فهرس الأعمال

مصادر الصور

- الصور ١، ٢، ٤، ٥، ٣١، ٤٤، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٦٤: دار نشر س. فيشر، فرنكفور أم ماين
- الصور ٣، ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٣٤، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٥٠ـ٥٧، ٦٢، ٦٣: أرشيف هارغوت بيندر، ديتسينجن
- الصور ٦، ٧، ٩ـ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٣٥، ٤١ـ٤٣: أرشيف كلاوس فاجنباخ، برلين
- الصورة ٨ من المرجع:

Das Prager Ghetto, unter Mitwirkung von Ignát Herrmann, Dr. Joseph Teige und Dr. Sigmund Winter, Prag 1903, S. 115.

- الصورة ١٨ من أرشيف: Archiv hlavního mêsta, Prahy
- الصورة ٢١، ٢٣ من المكتبة القومية والجامعية اليهودية بالقدس.
- الصورة ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٣٠ من أرشيف: Národní Archiv, Prag
- الصورة ٢٥: ميراندا شورت، برينستون
- الصورة ٣٣ من أرشيف: Státní ústredni archiv, Prag
- الصورة ٣٥ من مرجع:

Kafka a Praha. Vzpomínky. Úvahy. Dokumenty [Kafka und Prag. Erinnerungen. Betrachtungen. Dokumente], hrsg. von Hugo Siebenschein, Edwin Muir, Emil Utitz, Petr Demetz, Praha 1947.

- الصورة ٣٦ من مرجع:

Assicurazioni Generali. Bolletino V Serie 3, Nr. 12 (Dicembre1952) , S. 33.

- الصورة ٣٧، ٣٨: يواخيم أونزيلد، فرنكفورت أم ماين
- الصورة ٣٩: معهد ليو بيك، نيو يورك، تركة يوهانس أرزيديل
- الصورة ٥٨: رولاند تيمبلين، برلين
- الصورة ٦٠: مكتبة الكونجرس، واشنطن
- الصورة ٦١ من مرجع:

Max Brod: Franz Kafka. Eine Biographie. (Erinnerungen und Dokumente) , Prag 1937, S. 129.

يتقدم كل من المؤلف ودار النشر بالشكر إلى أصحاب حقوق الصور على موافقتهم الكريمة بالطبع. نرجو ممن لهم حقوق أخرى للصور المنشورة إخطار دار النشر بهذه الحقوق.

فهـرس المحتويات

الصفحة

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan. com

موقع إليكتروني: www. kotobkhan. com



"أفضل ما صدر في هذا الجنس الأدبي، رواية في حد ذاتها."

الروائي إيمري كيرتيس، الحائز على جائزة نوبل

"يا له من حدث. مشروع يتسم بالشجاعة والجنون الخالص. أجواء كثيفة وتلوينات كثيرة."

بيتر فون بيكر، محرر جريدة "دير تاجسشبيجل"

"لم يملك أحد التنبؤ بالكوارث السياسية التي حلت في القرن العشرين، ولكن لم تكن أيضًا سنوات كافكا الأولى مرحلة هادئة على الأطلاق. ظهرت وسائط وتقنيات جديدة، جعلت السيارات وخطوط الإنتاج والهواتف إيقاع الحياة اليومية أكثر سرعة، وصار "التوتر" هو مصطلح العصر. عاش كافكا فضلًا عن ذلك صراعات قومية عنيفة في براغ، كان من شأنها إفراغ شحنات من العنف، مَثّلت خطراً على الحياة اليهودية. أمر مدهش كيف صارع كافكا - المرهف الحس - من أجل الوصول إلى الاستقلال الفكري والإنتاج الأدبي تحت هذه الظروف. جاء ذلك على عكس توقعات أسرته وعلى عكس نصائح الأصدقاء، إن تطلب الأمر ذلك. كان بحاجة إلى وقت أطول حتى "ينضج"، واكتشف في اللحظة الحاسمة عالمًا شاسعا بداخله."

عشرون عامًا كاملة قضاها الكاتب راينر شتاخ في البحث والتوثيق، ليقدم لنا هذه السيرة الرائعة في النهاية.

جهد رهبان حقيقيين، وعرض مكثف الأجواء، يقدم الرؤى الواسعة على عالم كافكا وزمنه، من لقطات شديدة القرب على حياته اليومية، مستوعباً أحدث النتائج البحثية التي لم تنشر بعد عن حياة كافكا. سيرة بأسلوب سردي غني بالصور، يجعل القارئ يتعايش مع المواقف الحاسمة كأنه يشاهد شريط سينمائي، ليضع بذلك معاييرًا جديدة لكتابات أدب السيرة.

إضافة شديدة الأهمية للمكتبة العربية.

*

راينر شتاخ، من مواليد عام ١٩٥١ في روخليتس (ساكسونيا)، عمل بعد دراسة الفلسفة وعلم الأدب وبعد حصوله على الدكتوراه، كمراجع ومحرر للكتب العلمية. أصدر عام ١٩٨٧ دراسته عن "أسطورة كافكا الجنسية". نظم شتاخ في عام ١٩٩٩ معرض "عروس كافكا"، الذي عرض من خلاله تركة فيليس باور، والتي عثر عليها في الولايات المتحدة. وفي عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٨ أصدر الجزئين الأولين من ثلاثية سيرة كافكا التي نالت مدحاً عظيمًا، ثم أصدر جزئها الثالث عام ٢٠١٤. حصل عام ٢٠٠٨ عن الجزء "كافكا، سنوات الإدراك" على الجائزة الأدبية الخاصة "هايميتو فون دودرار".

هبة الله فتحي، مترجمة مصرية، وأستاذ الأدب الألماني الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة القاهرة وبجامعة لودفيج ماكسيميليان بميونيخ(ألمانيا)، تعمل منذ عام ٢٠٠٢ كمترجمة حرة للغة العربية والألمانية، أقامت سلسلة من ورش عمل الترجمة لدعم شباب المترجمين. حصلت عام ٢٠١٢ على جائزة المترجمين من الألمانية إلى العربية التي يمنحها المركز الثقافي الألماني "معهد جوته" عن ترجمة رواية "جمرة في دار الحرب" للكاتب الألماني كريستوف بيترس. من ترجماتها: "ذاكرة اليعاسيب" رواية للكاتبة ماريسا بودروجيتش، و"روعة الحياة" رواية للكاتب ميشائيل كومبفمولر.




ISBN 978-977-803-063-1
9 789778 030631 >